

نينا فكتوروفنا بيغوليفسكيا

العرب
على حدود بيزنطة وإيران

من القرن الرابع إلى القرن السادس الميلادي

نقله عن الروسية

صلاح الدين عثمان هاشم

أشرف على طبعه

قسم التراث العربي

بالمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

هذه ترجمة كتاب

N.V. PIGULEVSKIA

ARABY U GRANITS VIZANTII I IRANA

V IV — VI vv.

Moskva — Leningrad
1964

محتويات الكتاب

الموضوع | الصفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المترجم

يسرنا أن نقدّم للقاريء العربي أول ترجمة تظهر في لغة من اللغات لكتاب دوّن باللغة الروسية قبل عشرين عاماً (١٩٦٤) ، وتم الاعتراف به منذ البداية كإسهام جيد في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ألا وهو كتاب « العرب على حدود بيزنطة وايران ـ من القرن الرابع إلى القرن السادس » للعالمة الروسية الجليلة نينا ڤكتورڤنا پيغوليڤسكيا Nina Victorovna Pigulevskia . وقد ولدت مؤلفة الكتاب عام ١٨٩٤ بمدينة بطرسبرغ [لنينجراد] في أسرة مرموقة أثرت روسيا بعدد من العلماء ، ودرست التاريخ واللغات الكلاسيكية (اليونانية واللاتينية) بجامعة بطرسبرغ ، ثم التحقت عقب ذلك بمعهد الدراسات الشرقية التابع لتلك الجامعة حيث تخصصت في اللغات السامية ، وهي العبرية والأرامية والسريانية والحبشية ، والتي أضافت إليها فيما بعد اللغة العربية . وقد اختارت في البداية موضوعاً لدراستها تاريخ النصرانية الأولى وتاريخ الشرق الأدنى في فترة الصراع بين أكاسرة الفرس وقياصرة الروم من أجل السيطرة على المنطقة ، وهو ذلك الصراع الذي وضع حداً له حركة الفتح الإسلامي في القرن السابع .

وعندما اخترمتها المنية عام ١٩٧٠ كانت نينا ڤكتورڤنا قد أضحت من العلماء المرموقين ببلادها وعضواً مناوباً بأكاديمية العلوم السوفيتية ؛ ليس ذلك فحسب بل واكتسبت شهرة عالمية في ميادين دراساتها . وشمل هذا تاريخ الدولة البيزنطية وايران الساسانية وقبائل العرب قبل الإسلام ؛ هذا بالإضافة إلى أنها كانت أول خبير في العالم فيما يتعلق بالسريان وحضارتهم وأدبهم . وخلفت وراءها ما يزيد على المائة وثمانين بحثاً ، من بين كتب ومقالات وتعليقات ونقد . ومن بين كتبها التي نالت شهرة عالمية نذكر الآتية :

(١) « أرض الجزيرة في حدود القرنين الخامس والسادس » (١٩٤٠)

Mesopotamia na rubeje V i VI vv.. 1940

(٢) « بيزنطة وايران في حدود القرنين السادس والسابع » (١٩٤٦)

Vizantia i Iran na rubeje VI i VII vekov. 1946

(٣) « بيزنطة في الطريق إلى الهند » (١٩٥١)

Vizantia na putiakh v Indiu. 1951

[وله ترجمة ألمانية راجعتها المؤلفة وزادت عليها ، ١٩٦٩]

(٤) « مدن ايران في العصور الوسيطة المبكّرة » (١٩٥٦)

Goroda Iran v rannem srednevekove, 1956

[وله ترجمة فرنسية ، ١٩٦٣]

(٥) « تاريخ مار يابلاها الثالث وربن صوما » ، نقلته من السريانية إلى الروسية وعلّقت عليه (١٩٥٨)

Istoria mar Iabalakhi III i rabban Saumy. Issledovanie i perevod s siriiskogo i primechania. 1958

(٦) « فهرست المخطوطات السريانية الموجودة بمكتبة لنينجراد » (١٩٦٠)

Katalog siriiskikh rukopisei Leningrada, 1960

(٧) « العرب على حدود بيزنطة وايران ـ من القرن الرابع إلى القرن السادس » (١٩٦٤)

Araby u granits Vizantii i Irana vV-VI vv..1964 [وهو هذا الكتاب الذي يجده القارىء بين يديه]

(٨) « الشرق الأوسط ـ بيزنطة ـ الصقالبة » (١٩٧٦)

Blijnii Vostok— Vizantia— Slaviane. 1976

[ظهر بعد وفاتها]*

(٩) « حضارة السريان في العصور الوسيطة » (١٩٧٩)

Kultura siriitsev v srednie veka, 1979

[ظهر بعد وفاتها ، وقد حال الموت بين المؤلفة وبين إتمامه لذا تنقصه بضعة فصول]

أما لماذا يستحق مؤلَّفُها « العرب على حدود بيزنطة وايران ـ من القرن الرابع إلى القرن السادس » (١٩٦٤) النقل إلى اللغة العربية فذلك للأسباب التالية :

أ ـ نظراً لمعرفة المؤلفة الجيدة باللغتين الكلاسيكيتين للعالم القديم فقد استطاعت أن تغوص في المصادر المدوّنة باليونانية واللاتينية لتستخرج منها أخبار القبائل العربية وعلاقاتها مع الامبراطورية الرومانية ، ثم بالتالي مع وريثتها بيزنطة .

ب ـ وقد تمكّنت بسبب معرفتها العريضة باللغات السامية أن تستفيد من المادة المدوّنة بهذه اللغات فيما يخص القبائل العربية ، وبالذات مادة المؤرخين السريان الذين كان للمؤلفة معرفة جيدة بهم وبمؤلفاتهم ، حتى تلك التي لاتزال في هيئة مخطوطات .

---

* يوجد ثبت المؤلفات الكاملة لنينا فكتورفنا بيغوليفسكيا في الصفحات ٥٠ ـ ٦٢ من كتابها ذاك ـ المترجم

جـ ـ بدأت المؤلفة نشاطها العلمي بدراسة النصرانية الأولى ونشأة الكنيسة ، لذا فقد كانت على معرفة تامة بالخلافات المذهبية التي اخترمت النصرانية في القرون الأولى من تاريخها ، وهي تلك الخلافات التي تردّ صداها في الشرق الأدنى ومسّ القبائل العربية ذاتها .

د ـ من المعلوم أن المؤلفة قد اهتمت في فترة حياتها الأخيرة بتاريخ ايران القديمة عامة وبالعصر الساساني على وجه الخصوص ، وأن لها في هذا المجال الأخير بحوثا تشهد لها بالمقدرة والأصالة . لذا فقد استطاعت أن تلقي ضوءاً ساطعاً على تاريخ اللخميين الذين كانوا عمالاً للفرس على العرب .

هـ ـ أخيراً فقد عُدّت نيناڤكتورڤنا من علماء البيزنطيات (Byzantinologist) وشاركت بهذه الصفة في عدد من مؤتمرات الدراسات البيزنطية وحرّرت العديد من المقالات في هذا الميدان . وقد أفادت كثيراً من الحوليات البيزنطية المدّونة باللغة اليونانية لتستخرج مادتها التي تمس العرب وتمس سياسة بيزنطة مع دول المنطقة .

و ـ ولقد تمرّست المؤلفة جيداً بمنهج البحث التاريخي ، خاصة في مجال تاريخ الشرق الأدنى القديم مما انعكس بوضوح في مؤلفها هذا الذي جمع إلى التماسك المنطقي البراعة في السرد والمتعة أيضاً .

وكما هو ديدننا فقد نقلنا الكتاب نقلاً أميناً إلى لغة الضاد ، ولم نسقط منه سوى القطع من المؤرخين السريان التي نقلتها المؤلفة إلى الروسية وأضافتها كملحق في آخر الكتاب . ويمكن للمتخصصين الرجوع إليها في مظانّها إذا أرادوا . كذلك طوينا كشحاً عن الاستشهادات المثبتة بالأحرف اليونانية والسريانية في صلب الكتاب ، حيث أن إثباتها في ترجمتنا العربية لن يخدم غرضاً كبيراً ، فضلا عن أنه يحول دونه أسباب فنية . ويمكن للمتخصصين الرجوع إليها أيضاً في أصل الكتاب إن أرادوا ذلك .

ولكن في مقابل هذا أضفنا إلى ترجمتنا العربية على هيئة ملاحق ثلاث مقالات تمس نقاطاً معيّنة عالجت الكلام عليها في كتابها هذا . هذه المقالات دبجتها المؤلفة بالفرنسية وظهرت قبيل أعوام من ظهور الكتاب ، وذلك على صفحات دوريات شتى قد يتعسر الحصول عليها .

وكما هي عادتي في النقل فقد أثبتُّ أرقام صفحات الأصل الروسي للكتاب على هامش ترجمتي العربية لتسهل مراجعتها على الأصل الروسي لمن يبتغي ذلك . كذلك اقتصرت في تعليقاتي على القليل ، وأحطت استدراكاتي داخل المتن بقائمين . وقد استبحت لنفسي أن أزوّد هذه الترجمة بعدد من الخارطات التاريخية والصور والرسوم وشجرات النسب والجداول الزمنية التي لاوجود لها في الأصل الروسي ، كل هذا بغية توضيح المتن والإضافة الى مادته . واغتنم هذه الفرصة لأعرب عن شكري للجهات التي زودتني

بالصور ، خاصاً بالذكر المكتبة الرسولية بالفاتيكان (رومه) ومتحف دومبارتون اوكس بواشنجتن (الولايات المتحدة) .

وبعد ، فأملنا أن تجد هذه الترجمة العربية للكتاب القبول لدى جمهرة القرّاء في الأقطار العربية ، وأن تكون حافزاً للأجيال القادمة من الباحثين على الاهتمام أكثر من قبل بدراسة تاريخ أسلافهم عرب الجزيرة في الفترة التاريخية السابقة لظهور الإسلام . .

والله المستعان

صلاح الدين عثمان هاشم

الخرطوم في ديسمبر ١٩٨٣

مقدمة المؤلفة

يرجع اهتمامنا بدراسة المسائل المتعلقة بتاريخ الشرق الأدنى في الفترة ما بين القرن الثالث والقرن السابع، أي قرن الفتوح الإسلامية، إلى أكثر من ثلاثين عاماً . وفي محاولتنا لفتح طرق جديدة للبحث ارتطمتُ بعدد ليس بالقليل من العوائق التي ترجع إلى تصورات علمية خاطئة، كنظرية « الأدوار » التاريخية Cyclism ، ونظرية « المركزية الأوروبية » Eurocentrism التي تحدّد من أنماط (norms) التطور في المجتمعات البشرية ، وكذلك نظرية « تخلُّف الشرق » التي اكتسبت لنفسها سمعة بغيضة .

غير أن الدراسة المقارنة لمصطلحات المصادر الشرقية قد سمحت لنا بتحديد مراحل تطور مجتمع الشرق الأدنى لذلك العهد . ولقد ساق الكشف عن خصائص مجتمع الرق وخصائص المجتمع الإقطاعي للشرق الأدنى إلى حل مسألة أساسية أعان توضيحها على دفع البحث التاريخي في اتجاه جديد . فقد تبيّن لنا أن الاقطاع قد تطور هاهنا في ظروف لم يحمل فيها الرق طابعاً شمولياً متكاملاً ، إذ احتفظت الجماعة المتجاورة « الجار » بأهميتها ، وعرفت السلعة صانعها الحر ، وكان للمدن أسواقها ، وانتعشت التجارة المحلية كما انتعشت أيضاً تجارة المرور (الترانزيت) سواء بالقوافل أو بالبحر .

والاستقراءات التي وصلنا إليها تستند على مادة تاريخية قوية الجذور ، وعلى دراسة طويلة ودقيقة لمصادر كانت حتى هاته اللحظة غير معروفة . فالحوليات اليونانية والآثار السريانية ، التاريخية منها والقانونية ، وكذلك القرارات القانونية البهلوية ، كل هذه سمحت لنا بالكشف عن طابع جديد لملكية الأراضي وللأشكال الانتقالية في استغلال الفلاحين ، كما نبصر ذلك من مثال المستعمرات البيزنطية . أما بايران فقد اضمحل الرق بالتدريج ووجد المسترق بين الحين والحين «العمل لنفسه» .كذلك فإن ظهور مجتمع فلاحي يستند على الجوار كان عنصراً أساسياً من عناصر التطور الاجتماعي بالشرق .

ولقد شغل مكانة هامة في بحوثنا دراسة المدن وطرق التجارة بوصفها سمة من سمات ذلك العهد بالشرق تركت طابعها على الأنماط التي تطور الاقطاع فيها . وعلى الرغم من أنه في تلك الأعوام المبكرة التي بدأت فيها المؤلفة عملها في هذا الميدان لم تكن معالم الطريق قد وضحت لها في مداها الشاسع ، إلّا أن دراستها المكّرسة لمدينة أذاسا كانت تمثل خطوة جديدة في فحص مدينة بيزنطية تقع في أقصى الحدود الشرقية للامبراطورية . ولقد أولينا اهتماماً متزايداً لدراسة هذه المسألة فيما بعد بوصفها مسألة ذات أهمية جوهرية في تاريخ ايران الساسانية ، لأن المدينة أخذت تشغل وضعاً فريداً في البناء الإقطاعي لذاك العهد .

وصحب ظهور العلاقات الإجتماعية للمجتمع الإقطاعي الجديد أزمة تمثلت في ازدياد حدة التناقض الطبقي الذي انعكس صداه في كفاح « الديمات » وهي الأحزاب ببيزنطة ، وساق إلى تغيرات عميقة الجذور في حياة المدن ونظمها . أما بإيران حيث اتخذت الحركة المزدكية أبعاداً خطيرة ، فقد تمثل النزاع في واقع الأمر في الكفاح بين جماعات الفلاحين وسادتهم من الإقطاعيين .

وكما حدث في عهود أخرى من تاريخ الشرق الأدنى فإن التطور الاجتماعي سار في طريق مستقل تمام الإستقلال عن العلاقات والعداءات المعهودة بين السكان الحضر لدول تشكلت منذ عهود قديمة وبين القبائل الرحّل من بدو الصحراء الذين كانوا يغيرون عليهم الفينة بعد الفينة . ومما زاد الأوضاع تعقيداً تلك الصدامات العسكرية المستمرة بين الدولتين الكبريتين المهيمنتين على المنطقة من أجل تثبيت حدودهما وحقوقهما في السيطرة على طرق القوافل . غير أن هذا الإطار الذي تشكلت فيه العلاقات بين ايران وبيزنطة لم يلبث أن تحطم نتيجة للغزو الإسلامي ، بحيث لم تستطع بيزنطة شيئاً سوى الإحتفاظ ببعض أراضيها الأسيوية . أما ايران فقد سقطت جميعها تحت ضربات المسلمين . ولقد كان من أسباب انتصار المسلمين في الأنحاء الشمالية في القرن السابع ما استولى على الدولتين الكبريتين من إعياء نتيجة للحروب الطويلة بينهما . ويرجع انتعاش قوة العرب الفتيّة إلى توحيد كلمة القبائل تحت راية العقيدة الجديدة التي فتحت لهم امكانيات واسعة وأيقظت القوى الكامنة في الشعب العربي .

والمسألة المتعلقة بالفتوحات العربية الكبرى لا يمكن تفهّمها إلاّ على ضوء الدراسة العميقة لتاريخ العرب في الفترة السابقة للإسلام ، أي دراسة تاريخهم بالجزيرة العربية وبالشرق الأدنى . ولقد كان للدويلات العربية بالجنوب العربي حضارة متنعشة انعكست في مدنها وآثارها المعمارية وطريقة كتابتها الفريدة ، فهي تمثل بهذا مرحلة هامة في تاريخ تطور الشعب العربي . وكانت تلك المرحلة موضوعاً لبحثنا حول العلاقات التجارية القديمة التي استعملت « طريق الحرير » و« طريق الطيب » . أما دور القبائل العربية الشمالية فكان ذا أهمية كبيرة بصورة استثنائية ، إذ دخلت هذه القبائل في علاقات مع أقطار مجاورة ذات حضارات عريقة ضاربة في القدم . فانتعشت لغتهم وأدبهم في هذه الفترة من تاريخهم التي أصبحوا فيها جزءاً من تاريخ البشرية العام . ولقد وحّدت العقيدة الجديدة من كلمة العرب ووضعت حدّاً لمعتقداتهم البالية وساقتهم إلى فكرة الوحدانية التي لم تكن غريبة آنذاك على الديانات الكبرى بالشرق الأدنى .

ودراستنا هذه عن تاريخ العرب على حدود بيزنطة وايران في الفترة السابقة للإسلام جاءت أشبه بتتويج لبحوثنا السابقة ، من مثل « أرض الجزيرة في حدود القرنين الخامس والسادس » (١٩٤٠) و« بيزنطة وايران في حدود القرنين السادس والسابع » (١٩٤٦) و« بيزنطة في الطريق إلى الهند » (١٩٥١) و« مدن ايران في

العصور الوسيطة المبكّرة » (١٩٥٦ ؛ ولهذا الكتاب ترجمة فرنسية ظهرت بباريس عام ١٩٦٣ بعنوان Les villes de l'état Iranien aux epoques Parthe et Sassanide).وكان ظهور التشكيلات الإجتماعية وتطورها بالشرق الأدنى وما تميّزت به من طابع فريد خاص بها ، هو القاعدة التي قامت عليها بحوثنا بما في ذلك هذا البحث عن الشعب العربي الذي لم تنضب طاقته الخلّاقة إلى أيامنا هذه .



الفصل الأول

مصادر تاريخ العرب قبل الإسلام وتاريخ دراسة الموضوع

المصادر العربية

6 إن تاريخ القبائل العربية الشمالية وذلك إلى لحظة بداية الحركة الإسلامية الكبرى ليس في الوُسع إخضاعه للدراسة العلمية الدقيقة إلّا بتمحيص عدد كبير من المصادر المدوّنة بلغات مختلفة . ومن بين المصادر العربية الأصل يجدر منذ البداية الاهتمام بالرقوم* الأثرية ، أي النقوش الكتابية المنحوتة على الصخر . ومن بين الرقوم التي لم تحظ بالدراسة الكافية الثمودية واللحيانية ، وإن لزم التسليم بأن معطياتها نزرة من الوجهة التاريخية . وعلى العكس من ذلك الرقوم العربية الجنوبية المؤرخة ، فهي تتمتع بأهمية كبرى بوصفها مادة أصيلة يمكن ضمها إلى غيرها من المصادر . وباستثناء الشاهد القبوري المشهور لامرىء القيس والذي اجتذب اهتمام الباحثين لعشرات من السنين وحظي بشروح مفصّلة ، فإن النقوش الكتابية المتعلقة بتاريخ القبائل العربية الشمالية لم تثر الكثير من الاهتمام . ويكفي أن نشير في هذا الصدد إلى أن أهم الرقوم العربية الجنوبية قد تم الكشف عنه في الخمسينات من هذا القرن ، في حين أن الدراسات التي أجريت حول تاريخ القبائل العربية الشمالية قد تم تدوينها في أواخر القرن التاسع عشر وفي العشرينات من قرننا هذا . والذين قاموا بنشر الرقوم العربية الجنوبية هم الذين لفتوا النظر إلى علاقتها بقبائل نجد وبالمناطق الأكثر بُعداً من ذلك صوب الشمال . وفي دراسة الرقوم العربية الجنوبية المكتوبة بخط المُسْنَد والتي تمثل مصدراً متفرّداً بالنسبة لتاريخ العرب قبل الإسلام فإنه يجب قبل كل شيء تركيز النظر على تنقيبات ادوارد جلازر E. Glaser وبحوثه ، وأيضاً على ما دوّنه في هذا الصدد يراع موردتمان Mordtmann وملاكر Mlaker وردوكاناكيس Rhodokanakis . كذلك ساق إلى نتائج رائعة تلك البحوث التي قامت بها مدرسة متكاملة من علماء النقوش على رأسها البروفسور غونزاغو ريكمانس G.Ryckmans، وتلميذته عالمة النقوش المؤرّخة جاكلين بيرين Jaqueline Pirenne ، وفان دن براندن Van den Branden ، وغيرهم . ويدين العلم بالفضل للبروفسور ماريا هفنر Maria Höfner للتحليل الفيلولوجي الدقيق والعميق لمادة هذه الرقوم .

7 وإذا كان الشعر الجاهلي قد وصل إلينا في روايات سجلت بعد زمن طويل إلّا أن ميزان قصائده ومحتوياتها لم يطرأ عليها تغيير يذكر ، بل ظلت « انعكاساً صادقاً في جملتها لتلك العهود ولأسلوب معيشة العرب آنذاك » كما يقول أبرز باحث من الذين عالجوا الكلام عليه . وبعض هذه القصائد يعين على تفهّم ظواهر منفردة في حياة البدو ومصائرهم ويعكس صلات الرحم التي جمعت بينهم كما يعكس العداء والخصومات التي انبعثت في وسطهم . وهذا الشعر الغنائي للقبائل الرحّل يقدّم لوناً عامّاً للحياة البدوية في سماتها المستقلة ويكشف عن

* الرقيم الكتاب أو اللوح المكتوب عليه ؛ و ﴿ كتاب مرقوم ﴾ أي مكتوب ؛ والرَّقْم الكتابة والنقش والوسم ـ المترجم .

قسماتها النفسية ، ولكنه لا يعكس الحياة السياسية وليس فيه ذكر للأحداث . غير أنه في مقابل هذا يعطي صورة لعقليتهم وعاداتهم تتسم بالكثير من الحيوية(١) . ويقف ديوان امرىءالقيس شاهداً جيداً على ذلك(٢) .

وينفرد بطابع نسيج وحده ما أُطلق عليه اسم « الأخبار » ، وهي لا تمثل حوليات أو تاريخاً مدوناً بل قصصاً وحكايات . هذه « الأخبار » يمكن استغلالها أيضاً كمصادر تاريخية، إلاّ أنه يلزم إخضاعها بدءاً لتحليل نقدي دقيق . بل إن أفضل نماذجها قاطبة وهي ما عرف « بأيام العرب » تتطلب معالجتها الكثير من الحذر(٣) . و « أيام العرب » هي أيام مقاتلهم ومعاركهم المشهورة والتي خاضتها هذه أو تلك من القبائل ، فهي بهذا تمثل شيئاً أشبه بالعنصر الملحمي لأدب العرب قبل الإسلام خاصة وأن بعضها يرجع إلى عهود مبكّرة . فمثلاً يوم ذي قار يحكي عن حروب تغلب ، بينما يحكي يوم ذي نجب عن المعارك التي دارت رحاها بين الكنديينْ الحسن بن معاوية وحنظلة بن مالك التميمي.(٤) وهي وإن تمّ تدوينها في وقت متأخر كثيراً إلاّ أنها حفظت لنا تفاصيل أمينة وصادقة عن حياة العرب ما كان ليسهل العثور عليها في غيرها من المظانّ .

أما المصنفات الجغرافية والتاريخية التي دُوّنت في العهود الاسلامية فإنها تمثل صياغة متأخرة كثيراً لمادة غلب عليها أحياناً الطابع الأسطوري . وهذه المصنفات تولي اهتماماً خاصاً بالأنساب ، أي صلات الرحم التي ربطت بين القبائل والتي هي أبعد ما تكون عن حقيقة أصول هذه القبيلة أو تلك . وكان إذا ما أريد الحصول على سند لهذه الأنساب الملفّقة ، فقد كان يجري البحث عنها في روابط لم توجد في واقع الأمر ، فلا مفرّ إذاً من اجراء تحليل دقيق لها لبلوغ نتائج يمكن الوثوق بها بعض الشيء . وينطبق القول نفسه على ما يقدمه لنا الجغرافيون والمؤرخون المسلمون من تواريخ للأحداث ، ولا يخلو الأمر في حالات عديدة من الوقوف منها موقف الرفض ، إلاّ إذا أمكن التثبّت من لحظة وقوعها بمقابلة ذلك بأزمنة / أحداث أخرى . وفيما يتصل بتاريخ العرب قبل الإسلام درجت المصنفات الإسلامية في مجالي التاريخ والجغرافيا على النقل بعضها من بعض دون تغيير يذكر ، حتى لم تعد مادتها تختلف كثيراً. غير أن معطيات بعض المؤلفين تمثل أهمية كبيرة عند مقابلتها بمادة المؤرخين البيزنطيين الذين لا يرقى الشك إلى صحة معلوماتهم من الناحيتين الزمنية والسياسية . كذلك أصبح من الممكن الآن إثبات الترابط بين الروايات المتواترة التي حفظها لنا المؤرخون المسلمون (أمثال حمزة الاصفهاني والطبري) وبين مادة الرقوم العربية الجنوبية التي تم الكشف عنها منذ أمد قريب .

---

(١) F. Gabrieli. La Letteratura beduina preislamica. L'antica società beduina, Roma. 1959, pp. 95-114.104.

(٢) De Slane. Le diwan d'Amro'lkais. Paris. 1837; Th. Nöldeke, Funf Mo'allakat. Sitzungsberichte der Wiener Akademie. 1899; F. Gabrieli. La poésie arabe ancienne. Diogène. 1962, v. 40, pp. 82. 93; C.J. Lyall. Translations of Ancient Arabian Poetry. New York. 1930.

(٣) W. Caskel. Die einheimischen Quellen zur Geschichte Nord-Arabiens vor dem Islam. Islamica. 1927, Bd. III. pp. 331-341.

(٤) W. Caskel. Aijam al'Arab. Studien zur altarabischen Epik. Islamica. 1930. Bd. 3. f. 5, pp. 38. 47

وفي النصف الأول من القرن العاشر الميلادي تمّ تدوين مصنفات لعلماء مسلمين بارزين في ميدان التاريخ ، يأتي في مقدمتهم أبو جعفر محمد بن جرير الطبري المتوفى عام ٩٢٣ والذي يصبح من العسير إذا لم نستعن بمصنفاته تدوين تاريخ الشرق الأدنى في العصور الوسيطة المبكّرة أو تاريخ قيام الإسلام أو حتى تفسير القرآن ، ولقد جمع الطبري خلال تسفاره مادة ضخمة ومتنوّعة ، ودرس في خيرة المدارس الإسلامية لعهده ، كما اضطلع هو نفسه بالتدريس . ومصنفه التاريخي يضم في مجلداته العديدة كمية من الوثائق ويقدم لنا روايات مختلفة متواترة عن عدد من الأخباريين ، قد لا يمكن الجزم بصحتها . وهو حين يعرض لنا روايات متناقضة لا يعرب عن موافقته عليها ولا يجشّم نفسه عناء التوفيق بينها ، وبهذا يترك للباحثين أنفسهم حرية الحكم على صدق وقيمة المادة التي يقدّمها[٥] . وفيما يتصل بموضوع بحثنا هذا فإن مادته عن علاقات العرب في العهود السابقة للإسلام تحرز السبق في الأهمية ، خاصة عن اللخميين . وفي الستينيات من القرن العاشر نفسه دوّن العالم اللغوي حمزة الاصفهاني مصنفاته ، ومن بينها موجز في التاريخ ذو قيمة كبيرة يعالج فيه الكلام على الدول المتتابعة ، كما أفرد فيه مكاناً للأحلاف القبلية للعرب قبل الإسلام . وإلى جانب الفصل الذي أفرده للخميين يرد في تاريخه أيضاً الكلام على كندة والغساسنة . وعلى الرغم من إيجازه فإن حمزة كما أسلفنا يقدّم لنا معلومات قيّمة أيّد بعضها لاحقاً الرقوم العربية الجنوبية . فهو الذي أشار مثلاً إلى وجود قوائم بكنيسة الحيرة تحدّد التوافق الزمني بين فترات حكم ملوك اللخميين وشاهات ايران . كذلك يرد عنده ذكرٌ لبعض المصادر مثل « كتاب ملوك كنده »[٦] .

وفي عام ٩٤٧ أكمل المسعودي مصنفه « مروج الذهب » ، ثم أعاد صياغته عام ٩٥٦ . وقد زار المسعودي على وجه التقريب جميع مدن الخلافة / العباسية وولاياتها[٧]، ويتميّز عرضه بالحيوية والإمتاع اللذين أسر بهما قلوب القرّاء والباحثين معاً . وفي القسم من مصنّفه المفرد لتاريخ ايران وأحداث العصر الساساني يذكر العرب اللخميين أكثر من مرة ، دون أن يهمل الأساطير والقصص المتصلة بهم . ولا تخلو مادته من درر قيّمة تزين صدر الأحداث التاريخية وتسبغ عليها بريقاً ساطعاً ، خاصة حكاياته للعلاقات الشخصية بين اللخميين والشاهنشاهات .

أما أبو الفدا المتوفى عام ١٣٣١ فينتمي إلى فرع من دوحة الأيوبيين وشارك في القتال ضد الصليبيين ، كما

---

(٥) Encyclopédie de l'Islam. t. IV. Leiden. 1934, pp. 607-608; Brockelmann. Geschichte der arabischen Literatur. Bd. I. pp. 142-143; F. Wüstenfeld. Die Geschichtschreiber der Araber und ihre Werke. Göttingen. 1882. No. 94. pp. 31-32

(٦) Encyclopédie de l'Islam. t. II. 1927. pp. 271-272; C. Brockelmann. Geschichte der arabischen Literatur. Bd. I. p. 145; F. Wüstenfeld. Die Geschichtschreiber der Araber. No 126. p. 41.

(٧) Encyclopédie de l'Islam. t. III. 1936. pp. 457-458; C. Brockelmann. Geschichte der arabischen Literatur. Bd. I. pp. 141-143; F. Wüstenfeld. Die Geschichschreiber der Araber.... No. 119. pp. 38-40.

ظل مخلصاً لسلاطنة المماليك خلال إمارته على مدينة حماة(٨). وتشغل معالجته لتاريخ العرب في الجاهلية مكانة متواضعة بين آثاره* ، وإن كانت لا تخلو من فائدة لموضوع بحثنا ، إذ يرد فيها تعداد موجز للملوك الدويلات العربية قبل الإسلام. وعلى الرغم من أن هذا المؤلف عاش في القرن الرابع عشر إلاّ أن روايته ترتفع بوجه عام إلى مصادر قمينة بالثقة .

ويجب التنويه بوجه خاص بمادة المصادر العربية النصرانية ، وعلى الأخص ما يسمى « تاريخ النساطرة » أو « حوليات سعرت »(٩) التي كشف عنها ونشرها الأب أدىّ شير [الكلداني] . وهي أثر مجهول المؤلف ، وإن كان صاحبه عربياً ينتمي إلى النساطرة . والكتاب يركّز بوجه خاص على تاريخ السكان من النصارى ، وتنتثر في ثناياه سِيَرُ كبار آباء الكنيسة النسطورية وأخبار نزاعاتهم مع اليعقوبيين (المونوفيزيين) ، وكذلك تاريخ البطارقة وأباطرة بيزنطة . هذا الاتجاه الخاص لأدب النصارى العرب يعكس مدى تأثره بفن تدوين الحوليات لدى البيزنطيين والسريان ، وهو اتجاه لم يفد منه كثيراً مؤرخو العصور الوسيطة وإن كان مؤرخو الأدب قد تركوا لنا عنه وصفاً دقيقاً وأميناً(١٠) .

غير أن جميع هذه المصادر العربية ليس فيها الكفاية لإخراج تاريخ متتابع ومتماسك للدويلات العربية قبل الإسلام أو لتقييم دورها في تاريخ الشرق الأدنى عامة وعلاقاتها مع كل من بيزنطة وايران . وواقع الأمر أن التاريخ السياسي للعرب قبل الإسلام ومتابعة أحداثه الزمنية ليس من الميسور كتابته دون الاستعانة بالمصادر البيزنطية المدوّنة باليونانية واللاتينية ، أو بدون مادة المؤلفين السريان . هذه المصادر تفضُل المؤلفات التاريخية العربية في أنها معاصرة للأحداث التي تؤرخ لها . وعلى ذلك فإنها /هي أيضاً بدورها يجب أن تُخضع للفحص الدقيق . ولقد ورثت بيزنطة « رومه الثانية » كل الغرور والصلف اللذين اتصفت بهما رومه من قبل حين عدّت جميع شعوب الشرق من « البرابرة » بما فيهم الفرس أنفسهم ، علماً بأن الفرس لم يكونوا أقلّ من « الرومان » تمدناً بل إنهم فاقوهم في الكثير من المجالات . لذا لم يكن غريباً والحالة هذه أن بدت لهم القبائل العربية غير جديرة بالاهتمام .

وتحظى المصادر السريانية بأهمية كبيرة لأن روايتها قد دُوّنت بيد معاصرين لم يكن العرب غرباء بالنسبة

---

(٨) H.A.R. Gibb. Abu'l - Fida, Encyclopedia of Islam – 1959. v. I, pp. 118-119

* يجب ألا يفهم من هذا أنه عالج الكتابة في تاريخ العرب قبل الاسلام في كتاب منفصل بل يمثل هذا قسماً من مصنفه التاريخي الكبير « المختصر في أخبار البشر » الذي عرف « بتاريخ أبي الفدا ». وكان قد نشر ذلك القسم على حدة المستشرق الألماني فليشر H.O.Fleischer في عام ١٨٣١ ـ المترجم .

(٩) Chronique de Seert. Histoire nestorienne. ed. par Addai Scheer. Patrologia Orientalis. Paris, IV - 1908. pp. 215-312; V-1910. pp. 21-344; VII-1911. pp. 97-201; XXIII - 1919. pp. 437-639.

(١٠) G. Graaf. Geschichte der chrislichen arabischen Literatur. Citta del Vaticano. 1947. II, p. 195

لهم بل كانوا شعباً معروفاً لديهم معرفة جيدة وتربطهم بهم رابطة الجوار . وفوق ذلك فقد وجدت صلة رحم بين اللغتين ، مما أعان على إيجاد اتصال مستمر مع العرب . ليس هذا فحسب بل إن الشعبين كانا يتحدثان لغة مشتركة هي الدارجة السريانية ـ العربية .

المصادر اليونانية ـ اللاتينية

لم تتم حتى الآن الإفادة بصورة متكاملة من المصادر اليونانية والسريانية فيما يتصل بتاريخ العرب قبل الإسلام ، على حين وضح بجلاء أن استغلال تلك المصادر من أجل تاريخ الحميريين كما أثبتت أبحاثنا قد أعان كثيراً في إلقاء الضوء على مسائل لم تكن قد وجدت الحل إلى تلك اللحظة .

ويمكن العثور على معلومات ليست بالقليلة عن العرب لدى المؤلفين البيزنطيين من القرنين الرابع والخامس . فالمواطن الروماني اميانوس مارسيلينوس الذي رافق الامبراطور يوليان Julian المرتدّ في حملته وراء الفرات عام ٣٦٣ قد كشف عن طبيعة الوضع مع العرب وحاجة الامبراطورية إلى الدخول معهم في علاقات طيبة[١١] . وكان مصرع يوليان في السادس والعشرين من يونيو عام ٣٦٣ كما يروي اميانوس نتيجة لسهم رماه به واحد من العرب . ومصنف اميانوس التاريخي يحمل جميع قسمات المنهج الروماني في تدوين التاريخ ، بأسلوبه الملحمي الهادىء وموضوعيته والتتابع المنطقي في العرض . كذلك فإن لغته الرفيعة ضمنت له أن يصبح مؤلفاً كلاسيكياً . وقد كان من الأهداف الرئيسية للكنيسة نشر النصرانية بين الوثنيين ، ويجب ألاّ يغيب عن البال أن نشر النصرانية كان يمثل بالنسبة للقسطنطينية أهمية سياسية واضحة: لذا فإن نفوذ العقيدة الجديدة إلى الوسط العربي لم يكن ليتم دون مساندة الجهات الرسمية للامبراطورية . ولقد ترك لنا مؤرخو الكنيسة البيزنطيون في آثارهم معلومات عن العرب يمكن استكمالها بما يمكن استنباطه من سِيَر القديسين .

وروفينوس الذي أصبح راهباً باكويليا Aquileia حوالي عام ٣٧٠ عاش في وسط قريب من هيرونيموس السعيد Hieronymus ، وقد سار على خطاه فزار مصر ثم عاش ردحاً من الزمن بأورشليم وعاد إلى ايطاليا حوالي عام ٣٩٧ حيث بدأ نشاطه الأدبي بمدينة رومه . وإليه يرجع الفضل في نقل آثار اوريجين Origen إلى اللاتينية . « هذا وقد حفزه الأب الموقّر خروماتيوس Chromatius » من أهل اكويليا/ «لينقل إلى اللاتينية التاريخ الكنسي الذي دوّنه باليونانية العلامة الكبير اوسيبيوس القيساري » ، فاضطلع بذلك وأضاف إليه جزأين حتى وصل

(١١) Ammianus Marcellinus, Rerum Gestarum libri qui supersunt. Rec. Fr. Eyssenhardt. Berolini, 1871. pp. 269. 295. 297

به إلى لحظة موت الامبراطور ثيودوسيوس Theodosius (٣٩٥)[١٢]. هذا وقد دوّن روفينوس مصنفه بعد عام ٤٠٢ ، أمّا الجزآن اللذان أضافهما من عنده وهما الجزء العاشر والحادي عشر فإن لهما وزناً كبيراً بسبب ما يتضمنه « أحد أقسامها من الروايات الضاربة في القدم ، وما تضمنه قسم آخر مما وعته ذاكرتنا »[١٣].

وفيما يتصل بتاريخ « ملكة السرقينيين ماوية »[١٤] الذي كان معلوماً لدى روفينوس فقد عرفه أيضاً سقراط ، وهو شخصية علمانية كان يعيش بالقسطنطينية ووضع تاريخاً للكنيسة في سبع مجلدات عرض فيها الأحداث من عام ٣٠٥ إلى عام ٤٣٩ . وقد أفاد سقراط من مجموعة الوثائق المجمعية التي كانت ملكاً لسابينوس Sabinus أسقف هرقلية[١٥] ثم فُقدت فيما بعد . ويرد ذكر القبائل العربية لديه عند معالجته الكلام على الأحداث السياسية والعسكرية في الامبراطورية .

وسوزومينوس الذي رفع مؤلفه في « تاريخ الكنيسة » إلى الامبراطور ثيودوسيوس الأصغر قد دوّن مصنفه هذا في الأربعينات من القرن الخامس ، وهو يقع في تسعة أجزاء تضم تاريخ الأحداث من عام ٣٢٤ حتى عام ٤٣٩ (ولم يبق منه سوى القسم المنتهي بعام ٤٢٣) . وأحد مصادر سوزومينوس كان التاريخ الذي دوّنه سقراط ، وقد حقّقه سوزومينوس بعناية تامة ، ولكنه جمع المادة بنفسه في تاريخ النصرانية واضطهاد النصارى بإيران وفلسطين[١٦] وعرضها بالكثير من الأصالة ، هذا بجانب أن معلوماته عن العرب قمينة بالثقة[١٧] .

ويحوي مصنف فيلوستور غيوس الذي وصل إلينا في شكل موجز معلومات عن العرب . وقد أفاد مؤلفون متأخرون من جانب من مادته . هذا وكان تدوين فيلوستور غيوس لتاريخه في النصف الأول من القرن الخامس ، ووصل به إلى عام ٤٢٥[١٨] . وهو من مواليد قبادوقية نال تعليمه بالقسطنطينية ، وقد أفاد من المؤرخين الكنسيين كما أفاد أيضاً من اونابيوس Eunapius .

وثمة مؤرخ آخر من مؤرخي الكنيسة أوْلَى اهتمامه للحديث عن الدويلات العربية وعلاقتها ببيزنطة

---

(١٢) Eusebius Werke, Die kirchengeschichte, herausgegeben von Ed. Schwartz. Der lateinische Übersetzung des Rufinus von. Th. Mommsen. II Teil, Leipzig. 1908, pp. 951-952.

(١٣) Pauly-Wissowa. Realencyclopadie. 1927, 2 Reihe. I Bd. col. 1195

(١٤) Socrates, Ecclesiastica historia, IV, 36. ed. R. Hussey, Oxonii, 1853, t. II, p. 564-566.

(١٥) V.V. Bolotov. Lektsii po isotorii drevnei tserkvi. I, SPb., 1907. str. 164; Pauly-Wissowa. Realencyclopadie. 1927, 2 Reihe. V Bd., col. 893-901

(١٦) V.V. Bolotov. Lektsii..... str. 165-167; G. Schoo, Die Quellen des Kirchenhistoriker Sozomenos. Texte und Untersuchungen. 1911. Bd. 32

(١٧) Sozomens, Historia ecclesiastica, VI, 38. ed. R. Hussey, Oxonii, 1860, t. II, pp. 667-674

(١٨) Philostorgius. Historia ecclesatica. ed. J. Bidez, Leipzig, 1913; J. Bidez. Der Geschichtschreiber Philostorgius, p. CVI; G. Moravcsik. Byzantinoturcica, I, Berlin. 1958, p. 473

وعن مشاركتها في الحرب ضد الفرس ، ذلك هو اڤاغريوس الاسكولي [المدرسي] متمّم اوسيبيوس وسقراط وسوز/وميتوس وتيودوريت القورسي Thedoret of Cyr . وقد ولد عام ٥٣٦ بمدينة إيبفانيا Epiphania [حماة] من بلاد الشام ونال حظاً طيباً من التعليم حتى أصبح فقيهاً في القانون . وعاش بمدينة انطاكية . وفي مصنفه الذي يضم تاريخ الفترة من مجمع افسوس المنعقد عام ٣٤١ حتى عام ٥٩٣ ، أفاد من كتابين لم يصلا إلينا هما مصنف اوستافيوس Eustathius الايبفاني ومصنف يوحنا الايبفاني ، كذلك كان على علم بتاريخ يوحنا ملاله ومؤلفات پروقوپيوس القيساري ومناندر . ويتميّز أسلوب عرض أڤاغريوس بالهدوء وبأنه ملحمي ، كما وأنه أمين في معالجة مصادره . وروراياته عن أمراء الغساسنة المنذر والنعمان ، وأيضاً عن النعمان اللخمي ، تُعدّ من أقيم ما دوّن في هذا الصدد[١٩] .

ولو لم تُحفظ لنا بمحض الصدفة نُقول من مؤرخ يوناني مجهول يحمل اسماً سامياً هو ملخ ، لما علمنا باتفاقية عام ٤٧٣ التي تم عقدها بين الامبراطور ليون المقدوني وملك كندة امرىء القيس الذي احتل على البحر الأحمر موضعاً استراتيجياً هاماً يتمثل في البطرا وفي جزيرة يوتابه . وهذا يقف دليلاً قاطعاً على أهمية دولة الكنديين ، كما يلقي ضوءاً على وضعها العام في القرن الخامس[٢٠] . ولنضف إلى هذا أنها معروفة لنا أيضاً من الرقوم العربية الجنوبية .

وفي القرن السادس زادت مشاركة العرب في الحياة السياسية للشرق الأدنى ، ومن ثم حَوَت كتب التاريخ البيزنطية الكثير من الوقائع عنهم . وپروقوپيوس القيساري ذلك الداعية الرسمي لصاحب الحول والطول الامبراطور يوسطنيان Justinian ومدوّن التاريخ السري عن عهده ، والذي شغل أيضاً منصب كاتم السرّ لقائده بليزاريوس Belisarius ، ترك لنا وصفاً للحروب بين بيزنطة وايران والتي شاركت فيها القبائل العربية مشاركة فعّالة مع هذا الجانب أو ذاك[٢١]. ويقدم لنا پروقوپيوس تقديراً عاماً للوضع يحدّد فيه بدقة متناهية أهمية دولتي الغساسنة واللخميين وما استحكم بينهما من عداء دموي وما جرّه هذا العداء من مخاطر على الامبراطورية نفسها . وهو على إدراك عميق بقيمة السلاح العربي وبمقدرة العرب القتالية في الدفاع عن حدود الدولة ، غير أنه يتهم الحارث ، بطريق العرب وملكهم ، بالخيانة . وهناك الكثير من الدراسات حول پروقوپيوس ، كما أن مصنفه نقل إلى عدة لغات[٢٢] . وقد تباينت آراء الباحثين في تحليلهم لشخصيته ، ذلك أن هذا المؤلف الذي عرف بالميل والانحياز يبعث على عدم الثقة في بعض رواياته ، وإن لزم الاعتراف أساساً

(١٩) Evargius, Historia ecclesiastica, ed. J. Bidez and L. Parmentier, London, 1898, IV, 12, 13, p. 163; V, 20, p. 216; VI, 2, p. 223; VI, 22, p. 238; G. Moravcsik, Byzantinoturcica, I, pp. 257-259

(٢٠) Fragmenta historicorum, ed. C. Mullerus, Parisiis, 1851, v. IV, pp. 111-132

(٢١) Procopius Caesariensis, Opera Omnia, v. I - III, ed. Haury, Lipsiae, 1905-1908

(٢٢) G. Moravcsik, Byzantinoturcica, I, pp. 489 - 491

بالأهمية الكبيرة لمصنفاته وبمعرفته العميقة بالمادة التاريخية . هذا إلى جانب أهمية المعطيات التي يقدّمها والتي لا يرقى الشك إلى قيمتها .

أمّا حوليات يوحنا ملاله فتتألف من ثمانية عشر جزءاً تم تدوينها بانطاكية في عهد الامبراطور يوسطنيان ، إلاّ أن القسم الثاني من الجزء الثامن عشر قد تم تدوينه بالقسطنطينية بعد موت الامبراطور . والمؤلف ، وهو فيما يغلب على الظن من أصل سرياني ، كان خطيباً ، ومما يؤكد هذا كنيته السريانية . /ولا يحول 13 دون الثقة في صحة ما يرويه ذلك الطابع البسيط للأثر وقصصه الساذجة . وكان كتاب التاريخ المفقود لاوستافيوس الابيفاني أحد المصادر التي استقى منها[٢٣] . وترتبط حوليات ملاله ارتباطاً وثيقاً بتقاليد انطاكية والشام ، التي كان يعيش بها ويترحّل قريباً منها قبائل عربية شتىّ . ولذا جاءت حولياته حافلة بالكثير مما واجهته الامبراطورية من مصاعب ومخاطر بسبب عدائها مع العرب . ومما يضفي على هذا الأثر القيّم كثيراً من الميزات ، مجانبته للتحيّز وبساطته وعدم ميله لجانب دون الآخر . هذا إلى جانب عرضه للأحداث وفقاً للسنين .

وأمّا المصنف الكبير الذي وضعهماناندر الحامي في عام ٥٨٣/٥٨٤ فلم يبق لنا منه سوى قطع فحسب فيما ورد لدى قسطنطين پورفيروجنتوس Constantinus Porphyrogenitus من نقول[٢٤] . وماناندر الذي نال تعليما جيداً لم تقف معرفته عند أحداث العاصمة وحدها بل أخذ طرفاً في حياة أقاليم الدولة ، وكان له إلمام مباشر بعلاقات بيزنطة « بالبرابرة » مستغّلاً في هذا المصادر السماعية وتقارير السفارات خاصة سفارة البطريق بطرس التي يعتمد عليها في مصنفه . وقد تضمّن مصنفه معاهدة الصلح المعقودة بين بيزنطة وايران عام ٥٦١، والتي تتناول نقاطها الثانية والخامسة والتاسعة والحادية عشرة علاقات الإمارات العربية بالدولتين الكبريتين ، ومشاركة العرب في تجارة المرور (الترانزيت) والمطالب التي أصرّوا عليها اعتماداً على قوتهم العسكرية[٢٥] . وتعطي هذه المادة الوثائقية قيمة خاصة للنقول التي وصلت إلينا عن طريق مصنف ماناندر .

كذلك لم يهمل الحديث عن العرب ثيوفيلاقط سيموقطاً Theophylactus Simocatta معاصر الامبراطور هرقل (٦١٠ - ٦٤١) . فهو يتحدث في « تاريخه » على حملة الامبراطور موريقي ضد الفرس ونشاط المنذر الغسّاني الذي يُظن أنه قد حذّر الفرس ، مما أدّى بالتالي إلى إخفاق الحملة بأجمعها . والمؤرخون البيزنطيون يتهمون العرب أكثر من مرة بالخيانة ويلقون عليهم تبعة الهزائم التي حاقت بهم[٢٦] .

---

(٢٣) Joannes Malalas. Chrongraphia. ed. L. Dindorfius. Bonnae. 1831: G. Moravcsik, Byzantinoturcica. I, pp. 229-334

(٢٤) G. Moravcsik. Byzantinoturcica, I, pp. 422-424

(٢٥) Excerpta historica iussu imp. Constantini Porphyrogeniti. Excerpta de legationibus, ed. C. de Boor, pars I. Beroli- ni, 1903. p. 180

(٢٦) Theophylactus Simocatta. Historia, ed. C. de Boor. Lipsiae. 1887.

وبين عامي ٨١٠ و ٨١٤ وذلك في فترة ازدهار الخلافة العباسية دوّن الداعية ثيوفانيس (ولد عام ٧٥٢ ومات عام ٨١٨) حولياته التي تضمنت معلومات كثيرة عن العرب[٢٧] . وإلى جانب أهمية أثره في تتبّع تاريخ الفتوحات العربية في القرن السابع فإن ثيوفانيس يمثل كذلك مصدراً قيّماً لتاريخ العرب في القرون السابقة لذلك القرن . ولقد عاش المؤلف في عهد سطوة العرب وازدياد نفوذهم وعلوّ كلمتهم تحت راية الاسلام ، ولذا فقد جمع عن العرب كل ما استطاع من أقوال السابقين له . ويعرض كتابه سرداً جيداً لتاريخ العرب قبل الإسلام ، ويحفظ لنا الأسماء الصحيحة لفيلارخات/(أي زعماء وشيوخ) القبائل والعشائر العربية مع تحديد انتسابهم لكل منها ، كما يشير في الوقت نفسه إلى دور كل منهم في الأحداث المختلفة مع تحديد تاريخ كل حادث . وعلى وجه العموم فإن كتابه يفسح الطريق أمامنا لعقد مقارنة بين معطيات المؤلفين البيزنطيين و روايات المؤرخين العرب ، بل و النقوش الكتابية التي خلفها العرب الأقدمون[٢٨] .

ولم يكن اعتناق العرب النصرانية موضع اهتمام مؤرخي الكنيسة وحدهم ، بل كان كذلك حتى عند مؤلفي سِيَر القديسين . فمؤلف سِيَر الرهبان ونسّاك القفار وهو كرلس الاسكيثوبولي Cyril of Skythopolis دوّن مصنفاته معتمداً على الروايات المتواترة عن طريق السماع بالأديرة والصوامع بفلسطين وسورية وعلى لقائه الشخصي مع رهبانها[٢٩] . وفي عام ٥٣٢ حينما زار القديس سابا الذي أسّس ديراً قرب أورشليم ، مدينة اسكيثوبول [بيسان] مسقط رأس كرلس ، كان هذا الأخير في السادسة من عمره . وفي ٥٤٤ نزل كرلس بدير القديس اوفميوس Euthemius حيث بقي هناك عشرة أعوام ، جمع خلالها ما استطاع جمعه عن ذلك الرجل الذي نشط في نشر النصرانية بين العرب . أما سيرة القديس سابا فقد دوّنها في عام ٥٥٦ ، وفي العام التالي له زار صومعته[٣٠] . وسِيَر كرلس مدوّنة بلغة بسيطة تتسم بالحيوية ، وهي ذات وزن فيما يتصل بتفاصيل الحياة اليومية وعادات الناس التي وصفها لنا المؤلف وصفاً عابراً خاصة عند كلامه عن العرب .

أما يوحنا موسخ (الذي مات عام ٦٢٢) فقد اضطلع مع تلميذه صفرونيوس Sophronius الذي صار فيما بعد بطريركاً لاورشليم ، بزيارة جميع أديرة فلسطين وسوريا ومصر حتى بلغ طيبة Thebes وذلك في نهاية القرن السادس وبداية القرن السابع . وقد جمع في مصنفه « فردوس الروح » Pratrum Spiritualum[٣١] قصص التقوى والمعجزات بقصد التهذيب . ويرد في هذه القصص ذكر العرب والأحداث التي شاركوا فيها ، وحصيلة ذلك كله هي أنهم بدو أصحاب إبل يعيشون عيشة الرحّل وأن حياتهم مفعمة بالفقر والبؤس ويغلب عليها الجوع والفاقة . ومثل هذه المادة تسبغ على النسج التاريخي لوناً ساطعاً يطرّز أرجاءه .

---

(٢٧) G. Moravcsik. Byzantinoturcica. I, pp. 531-533.

(٢٨) Theophanes, Chronographia, rec. C. de Boor, I, Lipsiae. 1883.

(٢٩) Kyrillos von Skythopolis, ed. Ed. Schwartz. Texte und Untersuchungen, Bd. 49, H.2. 1939

(٣٠) R. Génier, Vie de St. Euthyme le Grand (337-473), Paris. 1909

(٣١) Pratrum spiritualum. Patrologia graeca. t. 87. col. 2845-3116

ولنذكر بصفة عاجلة أنه وجدت رقوم باليونانية خلفها لنا العرب النصارى من الفيلارخات والملوك ، بل وأحياناً من سدنة المعابد . وكمثال لهذا رقيم وُجد على حائط دير بالحيرة ويخص هنداً ملكة اللخميين ، وأصلها من قبيلة كندة . ومتون هذه الرقوم مبعثرة بين دفّات النشرات والدوريات الخاصة بعلم الآثار والنقوش القديمة .

المؤرخون ومدّونو الحوليات من السريان

حفظ لنا السريان معلومات عن العرب في وقت لم يكن فيه للعرب كتابة خاصة بهم . ولأن الشعبين عاشا متجاورين لقرون عديدة بل وربطت بينهما جذور مشتركة ولغات ترجع إلى أصل واحد فقد وُجد بينهما قدر كبير من التفاهم عزّزته المصالح المشتركة في مجالي الاقتصاد والسياسة لأن الشعبين كانا يعملان بالتجارة ، 15 خاصة تجارة المرور (الترانزيت) ، / فيقومان بحراسة القوافل في الطرق الصحراوية خاصة العرب منهم . وأما من الناحية السياسية فقد ارتبط كل منهما برابطة التبعية إمّا مع الدولة البيزنطية أو الدولة الفارسية اللتين اضطرتاهما آخر الأمر إلى الخضوع لهما تماماً . كذلك وحّدت بينهما العقيدة ، ففي الأقطار الواقعة إلى الغرب من أرض الجزيرة اعتنق جانب من العرب ، شأنهم في هذا شأن أساتذتهم السريان ، التعاليم المونوفيزية (اليعقوبية) [القائلة بالطبيعة الواحدة للمسيح] . ولقد اعتنق جميع « المشارقة » هذا المذهب وتمسكوا به تمسكاً وثيقاً على الرغم من تبعيتهم لحكومة القسطنطينية . أما في المناطق التي كانت تدور في فلك ايران ، أي في أرض الجزيرة ، فقد انتشرت المسيحية النسطورية التي اعتنقها أيضاً جانب من العرب .

وقد حفظ لنا السريان مادة تسمح بإعطاء فكرة عن أسس الحياة الاجتماعية والاقتصادية للعرب لمعرفتهم الوثيقة بهم . وفي حوالي عام ٥١٨ دوّن يوشع العمودي تاريخه السرياني بمدينة اذاسا (الرها) الذي أقحم فيه ، وذلك خلال سرده لتاريخ الحروب بين ايران وبيزنطة ، ملاحظات عديدة وتفاصيل غير مباشرة عن اللخميين . والمؤلف يعرف جيداً الطريقة التي ينصب بها البدو خيماتهم وكيف يحيطونها بالسياج ، كما أنه على علم بمقدرة العرب في القتال وبخفة فرسانهم الذين قرروا مصير المعارك في مرات عديدة[٣٢] .

أما المصنف التاريخي الذي يُنسب إلى زكريا الملطي والذي تم تأليفه في الستينات من القرن السادس فلا يفُرد فصلاً أو قسماً خاصاً بالعرب إذ لم يكن تحت يد المؤلف مصدر خاص بهم ، غير أن أخبار العرب تنتثر في جميع زوايا الكتاب . فالوضع المتشابك الذي أحاط بالعلاقات السياسية في الشرق الأدنى ، والحروب التي

(٣٢) The chronicle of Joshua the Stylite, ed. by W. Wright, Cambridge, 1882; N. Pigulevskia. Mesopotamia na rubeje V i VI vv. Khronika Ieshu Stilita kak isotoricheskii istochnik. L. 1940.

شارك فيها العرب ، والعداء الذي استحكم بين الغساسنة واللخميين ، كل هذا ينعكس بوضوح في صفحات تاريخه[٣٣] .

وفي سيرة حياة مار آبا الأول بطريرك النساطرة من عام ٥٤٠ حتى عام ٥٥٢ والتي تم تدوينها في الأعوام التي أعقبت موته ترد تفاصيل عن انتشار النسطورية والمونوفيزية (اليعقوبية) في اوساط العرب . ويشكّل هذا الأثر أهمية قصوى في كل جوانبه[٣٤] .

وفي عام ٥٨٦ وقبل أن يكمل مصنفه التاريخي مات يوحنا الافسوسي[٣٥] ، ذلك المونوفيزي المتعصّب والسياسي ذو العاطفة الجيّاشة . ولم يبق من أثره سوى / القسم الثالث ، أما القسمان الأول والثاني ففي الإمكان إعادة صياغتهما بدرجة قريبة من الواقع من التاريخ المنسوب إلى ديونيزيوس Pseudo-Dionysius ومن تاريخ ميخائيل السرياني . وفي الجلدين الثالث والسادس من القسم الثالث لتاريخ يوحنا ترد قصة المنذر بر حارث (أي ابن الحارث) الذي وقع فريسة لمؤامرة قاسية ، كما ترد أيضاً أحداث الحقبة الأخيرة من حياة مملكة الغساسنة . وهو يقدّم مادة وفيرة عن تعاطف الغساسنة مع المونوفيزيين وحمايتهم لهم[٣٦] . كذلك يظفر بالأهمية مصنف آخر ليوحنا الافسوسي هو « سِيَرُ القديسين الشرقيين » الذي ترد فيه معلومات عن الغساسنة في ثنايا سيرة يعقوب البرادعي وثيو دور[٣٧] . و « التاريخ السرياني المجهول المؤلف » لمتصف القرن السابع يحكي عن الساسانيين رابطاً إياهم بتاريخ مملكة اللخميين ، وهو يتعرض بصورة خاصة لعلاقات النعمان مع خسرو الثاني[٣٨] .

أما المؤلف النشط والعالم الكبير يعقوب أسقف الرها (٦٤٠ ـ ٧٠٨) فقد ولد قرب انطاكية حيث نال

---

(٣٣) Historia ecclesiastica Zachariae Rhetori vulgo adscripta, ed. E.W. Brooks, CSCO. Scriptores syri, series tertia. tt. V, VI cum versio latina. Parisiis. I - 1919. II - 1921: Die sagenannte Kirchengeschichte des Zacharias Rhetor. Übersetzt von K. Ahrens und G. Krüger, Leipzig. 1899; N. Pigulevskia, Siriiskie istochniki po istorii narodov SSSR, L., 1941, str. 8-14, 148-167.

(٣٤) Histoire de Mar Iaballaha et de trois autres patriarches, ed. par P. Bedjan, Paris, 1895; N. Pigulevskia, Mar Aba I, Zap. Inst. vostokoved. AN SSSR, 1948, V, str. 73-84.

(٣٥) Joannes Ephesinus, Historia ecclesiastica, pars tertia, ed. E.W. Brooks, Parisiis. 1935. CSCO. Scriptores syri. series tertia, t. III. Versio latina E.W. Brooks, Lovanii. 1936: Johannes von Ephesus, Kirchengeschichte. Übersetzt von I.M. Schönfelder, München. 1962: John of Ephesus, transl by R. Payne-Smith, Oxford, 1960; A.P. Diakonov. Ioani Efesskii i ego tserkovno-istoricheskie trudy, SPb. 1908; N. Pigulevskia, Siriiskie istochniki...., str. 15-28, 109-147.

(٣٦) انظر ص ٣١٩-٣٢٤ من هذه الترجمة

(٣٧) John of Ephesus, Lives of the Eastern Saints, ed by E. W. Brooks, Patrologia Orientalis, 19, 1926.

(٣٨) Chronica minora, ed. I. Guidi, Parisiis, 1903. CSCO. Scriptores syri, series tertia, t. IV, textus pp. 16-39, versio pp. 13-32: Th. Nöldeke, Die von Guidi heraugegeben Chronik, Sitzungsberichte der Wiener Akademie, phil. - hist. Klasse. 1893, Bd. 128, Abh. 9, pp. 1-48; N. Pigulevskia, Anonimnia siriiskia khronika vremeni sasanidov, Zap. Inst. Vostokoved., AN SSSR, t. VI, 1939, str. 55-78.

تعليمه الأول ، ثم واصل دراسته بقنّسرين وأتمها بالاسكندرية . ومن بين آثاره مصنف في التاريخ يمثل القسم الأول منه ترجمة لاوسيبيوس القيساري مع بعض الزيادات . أما القسم الثاني فإنه من تأليفه هو . ويبدأ « تاريخه » بالعام الحادي والعشرين من حكم قسطنطين الكبير ويمضي به حتى عام ٦٩١ / ٦٩٢ ؛ وقد أضيف إليه بيد مؤلف آخر قسم يصل به إلى عام ٧٠٩ / ٧١٠ . والأحداث التي يرويها يعقوب الرهاوي بصورة موجزة ، ترد وفقاً لتتابع دقيق للسنين حتى عاد بمقدورنا ضبط عدد من سني أحداث تاريخ العرب قبل الإسلام اعتماداً على مصنفه هذا[٣٩] .

وأما التاريخ النقلي المنسوب إلى ديونيزيوس التلمحري والذي يقف عند عام ٧٧٥ فإنه يتضمن نقولاً بالغة القيمة من مصادر أخرى ، مثل التاريخ المذكور آنفاً ليوشع العمودي والرسالة البارعة لشمعون الأرشمي لعام ٥٢٤ التي يحكي فيها عن زيارته لمخيم المنذر ملك اللخميين[٤٠]. هذه الوثيقة التي لا يرقى الشك إلى صحتها تعطي فكرة عن / الروابط القوية التي وحّدت بين القبائل العربية الجنوبية والشمالية من جهة ، وكذلك بين النصارى من السريان والعرب من جهة أخرى .

وهناك معلومات تتعلق بالغساسنة الأواخر حفظها لنا في عدد من القطع مصنف تاريخي ينتهي عند عام ٧٢٤ . ومن الجائز أن هذه القطع إنما تعتمد على الفصول المفقودة من مصنف يوحنا الافسوسي[٤١] . ولقد ترك لنا بطريرك اليعقوبيين (المونوفيزيين) ميخائيل السرياني (مات عام ١١٩٩) أثراً ضخماً في التاريخ العام ، استعمل فيه مصادر فُقدت فلم تصل إلينا ولكن ميخائيل يورد قائمة بأسمائها . وفيما يتصل بالفترة التاريخية التي نعالج الكلام عنها يشير ميخائيل إلى أسماء مؤلفات يوحنا الأفسوسي وقورش البطني ويوحنا الأثاربي . وتجتذب الانتباه محاولة ميخائيل لإجراء مقارنة بين سني الأحداث بأن قسمها إلى ثلاث مجموعات هي الأحداث الكنسية ، والتاريخ السياسي ، والأحداث المتفرقة أو القصص . وقد رتّبها على هيئة جداول متوازية يربط بينها زمن حدوثها . ويشكّل تحديد التواريخ والتوزيع الزمني للأحداث أكبر ميزة لهذا الأثر الذي يجمع مادة غزيرة من المعلومات لا نجدها لدى المؤلفين الآخرين[٤٢] .

---

(٣٩) Chronica minora, ed. W.E. Brooks CSCO, Scriptores syri, series tertia, t. IV, pp. 197-255, versio pp. 261-327: A. Baumstark, Geschichte der syrischen Literatur, Bonn, 1922, pp. 248, 254; I. Ortiz de Urbina, Patrologia syriaca, Roma, 1958, pp. 166-167.

(٤٠) Chronicon anonymum Pseud-Dionysianum vulgo dictum, ed. J.B. Chabot, CSCO, Scriptores syri, series tertia, tt. I-II, Lovanii, 1927, 1933; I. Ortiz de Urbina, Patrologia syriaca, pp. 197-198; A. Baumstark Geschichte der syrischen Literatur, p. 275.

(٤١) Chronicon miscellaneum, ed. A.D. 724 pertinens, ed. E.W. Brooks, Chronica minora, CSCO, Scriptores syri, t. IV, pp. 77-156 (61-119).

(٤٢) Michel le Syrien, Chronique éditée par J.B. Chabot, Paris, I-1899; II-1901; III - 1905; IV - 1910; introduction et tables - 1924; A. Baumstark, Geschichte...... pp. 298-300; N. Pigulevskia, Vizantia i Iran na rubeje VIi VII vv., L., 1946, str. 33-42; I. Ortiz de Urbina, Patrologia...., p. 207

وبعض الزيادات التي يمكن إضافتها إلى تاريخ العرب السياسي والكنسي نلتقي بها في « تاريخ الدول » Chronicon Syriacum و « تاريخ الكنيسة » Chronicon Ecclesiasticum ، وهما من تأليف غريغوريوس أبي الفرج ابن العبري (١٢٢٥ ـ ١٢٨٦) مطران اليعقوبيين . ولقد استفاد ابن العبري من آثار الذين سبقوه وخاصة المؤلفين المونوفيزيين . أما من حيث المنهج التاريخي فقد نسج فيه على منوال ميخائيل السرياني[٤٣] .

ولعل خير شاهد على المكانة الرفيعة التي شغلها العرب المونوفيزيون في تاريخ هذا المذهب تلك المعطيات الجوهرية التي تذخر بها مجموعة « الوثائق المونوفيزية » ، وهو الاسم الذي أطلقه أحد الباحثين على المادة التي قام بنشرها استناداً على مخطوطة قديمة ترجع إلى القرنين السادس والسابع ، محفوظة بالمتحف البريطاني (رقم add. 14602) . وهذه المجموعة تضم أربعاً وأربعين وثيقة نجد من بينها قرارات المجامع المحلية ورسائل ومكاتبات . وهي ترتفع كلها إلى عهد ظهور المونوفيزية ورسوخ كلمتها ؛ ويرد فيها غير مرة أسماء الحارث والمنذر الغسّانيين اللذين جهدا دون توفيق لتلافي حدوث الانقسام في المونوفيزية وتمزقها إلى عدد من الطوائف الصغيرة[٤٤] .

وهنالك مواد في مجموعة قرارات المجامع النسطورية[٤٥] وفي المكاتبات والوثائق المتعلقة بهذه المجامع تتناول تاريخ النسطورية بوجه عام ، وما يتصل إلى حد ما بانتشارها بين العرب . فقرارات هذه المجامع موقّع عليها وممهورة بأسماء الأساقفة رؤساء الجاليات العربية النسطورية ، ومن بينها أسماء بعض أساقفة الحيرة . كما يرد في بعض المكاتبات ذكر لعرب كانوا من بين المقرّبين إلى ملك اللخميين .

والمصادر السريانية التي تعالج الكلام عن العرب قبل الإسلام تمتاز بأنها تستقي مادتها من روايات متواترة عن طريق السماع وضاربة بجذورها في أعماق الوسط العربي . فالسريان قد ربطتهم بالعرب عقيدة مشتركة هي النصرانية ، سواء في صورتها النسطورية بالشرق أو صورتها المونوفيزية بالمناطق الواقعة إلى الغرب من ذلك . وقد أشار علماء اللغة أكثر من مرة إلى حقيقة استعمال العرب والسريان في اتصالاتهم اليومية لغة فريدة في نوعها تمثل مزيجاً مشتركاً بين السريانية والعربية (كويني Koine) .

وهكذا فإن جميع هذه المصادر المتعدّدة اللغات والمتنوّعة السمات إذا ما ضُمّ بعضها إلى البعض فإن

---

(٤٣) Barhebraeus. 1) Chronicon syriacum. ed. P. Bedjan. Parisiis. 1890; 2) Chronicon ecclesiatsticum, ed. I.B. Abbeloos - Th. I. Lamy. I. II, Lowen. 1890; A. Baumstark. Geschichte......, pp. 318-319; I. Ortiz de Urbina, Patrolgia......., pp. 207-209

(٤٤) Documenta ad origines monophysitarum illustrandas. ed. J.B. Chabot. CSCO. Scriptores syri, series secunda. t. 37, versio J.B. Chabot, t. 52, Louvain. 1952; A. Baumstark, Geschichte...., pp. 175-176; I. Ortiz de Urbina, Patrologia........ p. 195.

(٤٥) Synodicon orientale ou recueil de synodes nestoriens. ed. par. J.B. Chabot. Paris. 1902; I. Ortiz de Urbina. Patrologia...... pp. 112-113.

بإمكانها أن تعين على صياغة تاريخ للعرب قبل الإسلام ، لا في صورة أحلافهم المختلفة فحسب كما هو الشأن مع اللخميين والكنديين والغساسنة بل وأيضاً في صورة أعمّ من ذلك يدخل فيها كافة العرب في الشرق الأدنى ، حين وجدوا أنفسهم بين متنافسَيْن شديدي البأس هما بيزنطة وايران .

البحوث الحديثة

لم يكن تاريخ العرب قبل الإسلام موضع اهتمام الباحثين كثيراً ، فقد جبّ الإسلام ما قبله وساق ميلاد الدين الجديد إلى قيام دولة عربية عظمى لم تلبث أن أضحت « امبراطورية عالمية » بسطت سلطانها على مساحات شاسعة من القارتين الآسيوية والافريقية . هذه الظاهرة هي التي استحوزت على اهتمام كبار الباحثين من المستشرقين [وغيرهم] . كذلك ازدهر الأدب العربي فأخرج أنماطاً وفنوناً رائعة شُغل بها الناس وتدارسوها . ويغلب على الظن أن موقف المسلمين أهل العقيدة من « الجاهلية » التي عاش فيها أجدادهم لم تخلُ من أثر على اهتمامات الباحثين . ولكن على الرغم من ذلك فإن ماضي العرب شبه الأسطوري لم يلبّث بدوره أن صار موضوعاً للبحث والتحليل .

وأول كتاب في هذا الشأن هو ذلك الذي وضعه المستشرق الفرنسي كوسان دي پرسيڤال في ثلاثة أجزاء[٤٦] ، وهو يعتمد على معرفة جيدة بالمادة المدوّنة باللغة العربية والمتصلة بقبائل الجزيرة العربية قبل الإسلام . ولقد ظلّ هذا الكتاب منفرداً في هذا الميدان لا يسمو عليه مصنف آخر حتى وإن عُدَّ مجموعة من المعلومات فحسب . غير أن محاولته المزج بين عناصر متباينة / والتقريب بين قصص أسطورية سعياً وراء استنباط وقائع منها لم يكن نصيبها إلاّ الفشل ، ولم تعد بطبيعة الحال بنتائج إيجابية نظراً لطبيعة المصادر نفسها . 19

وكما حدث في كثير من فروع الاستشراق فإن فتحاً جديداً في هذا الميدان كذلك يرجع الفضل فيه للمستشرق الكبير تيودور نولدكه[٤٧] . فهو أول من استعمل مادة المؤرخين البيزنطيين لإلقاء الضوء على تاريخ العرب قبل الإسلام* . وقد مكّنه هذا من إعداد الإطار الزمني للأحداث ، فاستطاع أن يثبت صحة عدد كبير من وقائع تاريخ العرب مستعيناً في هذا بالمصادر السريانية أيضاً . وبمقارنته لأسماء الأعلام المكتوبة بالأحرف اليونانية والسريانية والعربية تمكّن نولدكه من أن يثبت توافق الأسماء والشخصيات والروايات الواردة

---

(٤٦) A.P. Caussin de Perceval.'Essai sur l'histore des arabes avant l'islamisme. Paris. I - 1947; II - 1847; III - 1848.

(٤٧) Th. Nöldeke. Die Ghassanischen Fürsten aus dem Hause Gafnas. Abhandulungen der Akademie der Wissenschaften zu Berlin. Berlin. 1887.

* له ترجمة عربية جيدة ظهرت منذ عام ١٩٣٣ تحت عنوان « أمراء غسان للمستشرق تيودورنولدكه . . . . نقلها إلى العربية وأضاف إليها تصحيحات مؤلفها الأخيرة الدكتور بندلي جوزي أستاذ اللغة العربية في جامعة باكو والدكتور قسطنطين زريق أحد أساتذة التاريخ الشرقي في جامعة بيروت الأميركية ـ المطبعة الكاثوليكية بيروت » ـ المترجم .

بهذه اللغات المختلفة وأن يدوّن على أساس هذا تاريخاً موجزاً لإمارة الغساسنة لا يزال الدارسون يرجعون إليه حتى اليوم .

ويلي ذلك في التدرج الزمني بحث روتشتين الذي أفرده لتاريخ اللخميين والذي استفاد فيه على نحو ما فعل نولدكه من المصادر اليونانية وإلى حد ما من السريانية ، كما تم فيه أيضاً فحص المصادر العربية فحصاً ناقداً[٤٨] . ويبيّن المؤلف بوضوح مدى تبعية اللخميين للساسانيين ومشاركتهم في الحروب ضد بيزنطة ، كما يعالج أيضاً الكلام على الوضع العام بالشرق الأدنى . ونذكر بالفضل لروتشتين في بحثه هذا استنباطاً مفاده أنه قد وجد بين الوثائق المحفوظة ببيعة الحيرة سجلات وقوائم بأسماء ملوك اللخميين مع مقارنة ذلك بأزمنة حكم الأكاسرة ، وقد مكّنه هذا من أن يثبت تواريخ أكثر دقة . كذلك عالج بتفصيل خاص دوْر المنذر بن زكيكا (الشقيقة) .

ولا ترتبط بحوث لامنس[٤٩] ارتباطاً مباشراً بتاريخ القبائل العربيةالشمالية ، غير أن بحثه « مهد الإسلام»، إضافة إلى بحوثه الأخرى المتصلة بظهور العقيدة الجديدة ورسوخ كلمة العرب وخروجهم في الفتوحات الاسلامية قد ترك أثراً عميقا على الأجيال التي أعقبته وحدّد مساراً جديداً لبحوث المستعربين في هذا المجال .

وقد خصّص المستشرق السويدي ج . اولندر بحثه لقبيلة كندة ، وكان هذا أول بحث يعالج تاريخها بعد الصحائف التي أفردها لها كوسان دي برسيڤال في مصنفه سالف الذكر وبعد التحليل الذي خلفه دي سلان لشعر امرىء القيس[٥٠] . ومما لا شك فيه أن بحث اولندر يعدُّ خطوة إلى الأمام ، فقد تمّ فيه تقييم أمين لأهميّة هذه القبائل التي سبقت الغساسنة كأحلاف لبيزنطة[٥١] . وجاءت أبحاث كاسكل أشبه بالرد على مصنف اولندر ، فقد وسّع الإطار التاريخي لنشاط كنده وبيّن اهمية / المصادر العربية الخالصة لتاريخ تلك القبيلة خاصة على ضوء « أيام العرب » المشهورة[٥٢] .

وبالإفادة من النقوش الكتابية التي تمّ العثور عليها بالجنوب العربي والمنحوتة على الرقوم بخط المُسْند بدأت صفحة جديدة في دراسة تاريخ العرب قبل الإسلام . ولا تقف أهمية هذه الرقوم عند تاريخ اليمن

---

(٤٨) G. Rhothstein, Die Dynastie der Lahamiden in al-Hira, Berlin, 1899.

(٤٩) H. Lammens. 1) L'Arabie occidentale avant l'hégire. Beyrouth, 1928; 2) Le Berceau de l'Islam. L'Arabie occidentale à la veille de l'hegire, Roma, 1914.

(٥٠) De Slane, Le Diwan d'Amro'lkais. Paris, 1837.

(٥١) G. Olinder, The Kings of Kinda, Lund, 1927. (له ترجمة عربية ظهرت بالعراق - المترجم).

(٥٢) W. Caskel, 1) Die einheimischen Quellen zur Geschichte Nord-Arabiens vor dem Islam. Islamica. 1927. t. III, pp. 331-34; 2) Aijam al-'Arab, Studien zur altarabischen Epik, Islamica, 1930. t. III, f. 5. pp. 38-61.

وحدها بل تتعداها إلى المناطق الوسطى من الجزيرة العربية وإلى المناطق التي تسكنها القبائل العربية الشمالية. ومما يثير الانتباه للوهلة الأولى أعمال البروفسور غونزاغو ريكمانس* ببلجيكا ، وهو عالم نقوش epigraphist مبرّز كشف عن العديد من الرقوم وأسس مدرسة كاملة من المتخصصين، وقد أدخل في مجال الاستعمال العلمي عدداً من الرقوم التي قام بنشرها مصحوبة بترجمات وتعليقات(٥٣) . كذلك يدين العلم بعدد لا يستهان به من الدراسات الباليوغرافية والتعليقات التاريخية على النقوش إلى تلميذته الموهوبة جاكلين پيرين(٥٤) . أما الدراسة الفيلولوجية للغة الرقوم فقد وجدت العناية في أعمال البروفسور ماريا هفنز(٥٥) التي واصلت نشاط جلازر ورودو كناكيس بالنمسا . وإلى جانب هذا لازم التوفيق البروفسور بيستون(٥٦) في حل المشاكل المتعلقة بتحديد سني الأحداث . ومما لا شك فيه أن استعمال مادة النقوش الكتابية للجنوب العربي في تمحيص تاريخ القبائل العربية الشمالية قد جاء مؤكداً لمادة المؤلفين البيزنطيين من ناحية ولصحة بعض المادة التي احتوتها مصنفات المؤرخين المسلمين من ناحية أخرى .

وفي الاتحاد السوفيتي كان تاريخ الجنوب العربي وأوضاعه الاجتماعية في القرنين الخامس والسادس موضوع بحث لكاتبة هذه السطور وذلك في دراستها لتجارة المرور بين الهند وبيزنطة(٥٧) . كذلك استعمل مادة النقوش من الجنوب العربي البحاثة ا . ج . لندين(٥٨) .

وقد عالج الكتابة من جديد في تاريخ الغساسنة عرفان قعوار [شهيد](٥٩) ** ، وإن اعتمد أساساً على معطيات نولدكه . ومحاولة قعوار [شهيد] التدليل على ما بلغه الغساسنة من مكانة رفيعة وأن يزيل عنهم تهمة الخيانة التي ألصقها بهم المؤلفون البيزنطيون خاصة پروكوبيوس / ، قد أسبغت على مناهجه طابعاً تبريرياً

21

---

* راجع عن حياة وأعمال غونزاغوريكمانس Gonzague Ryckmans (١٨٨٧ ـ ١٩٦٩) مجلة Le Muséon. 1970 ـ المترجم .

(٥٣) G. Ryckmans. Inscriptions sud-arabes. le Museon. 1950-1962. tt. 62-74.

(٥٤) J. Pirenne. Paléographie des inscriptions sud-arabes. Contribution à la chronologie et à l'histoire de l'Arabie du sud antique. Bruxelles. 1956.

(٥٥) M. Höfner. Altsüdarabische Grammatik (Porta lingurarum orientalium. t.XXIV). Leipzig. 1943; H. Wissmann und. M. Höfner. Beiträge zur historischen Geographie des vorislamischen Südarabien. Wiesbaden. 1952.

(٥٦) A.F. Beeston. Epigraphic South Arabian Calendars and Dating. London. 1956

(٥٧) N. Pigulevskia. Vizantia na putiakh v Indiu. M. - L.. 1951. str. 215-384.

(٥٨) A.G. Lundin. Iujnia Aravia v VI v. L.. 1961

(٥٩) I. Kawar. 1) Procopius and Arethas. Byzantinische Zeitschrift. 1957. Bd 50. H.1.2; 2) Procopius on the Ghassanids. Journal of the American Oriental Society. 1957. v. 77. No. 2; 3) The Last Days of Salih. Arabica. 1958. t. f.2; 4) Ghassan and Byzantium. a new terminus quo. Der Islam. 1958. Bd. 33. H.3; 5) The Patriciate of Arethas. Byzantinische Zeitschrift. 1959. Bd. 52. H.2

** عرفان شهيد ولد عام ١٩٢٦ بمدينة الناصرة بفلسطين في أسرة مسيحية تعرف بآل قعوار ونال تعليمه بفلسطين ثم بجامعة اكسفورد . وهو يقيم حاليا بالولايات المتحدة حيث يضطلع بالبحث والتدريس في معاهدها . ويعتبر من كبار المتخصصين في تاريخ العرب قبل الاسلام ، وقد فرغ من إعداد دراسة مفصلة عن علاقات العرب مع البيزنطيين في العهود السابقة للاسلام من المتوقع أن ترى النور قريبا . ويجب الاعتراف بأن المؤلفة الروسية كانت شديدة الوطأة بصورة غريبة في نقدها له على صفحات كتابها هذا ـ المترجم

جعلته يبدو في صورة المدافع عن العرب ،الأمر الذي لا يتفق والدراسة الموضوعية للأحداث . وقد دفعه هذا إلى أن يقف طويلاً حول المسألة المتعلقة باستلام الحارث للقبه ، متى تم ذلك وما هي طبيعة ذلك اللقب ؟ دون أن يحفل كثيراً بمعالجة التاريخ الاجتماعي والسياسي . أما الموقف السلبي من الغساسنة ومن أثرهم العام في تاريخ الشرق الأدنى فيقفه جوبير الذي قام بعرضه في فصل من بحثه الذي ظهر في جزأين بعنوان « بيزنطة قبل الإسلام »(٦٠).

ومما يلفت النظر تلك المحاولات الدؤوبة التي أتت ثمارها بصورة غير عادية والتي قام بها البروفسور فرانتس التهايم ، فقد أعاد الكرّة في عدد من مؤلّفاته للكلام عن المسألة المتعلقة بالقبائل العربية الشمالية والأسباب الاقتصادية والعملية التي أدت إلى نجاح الفتوح العربية الإسلامية(٦١) . وإذا حدث وإن لم يكن في الوسع دائماً الاتفاق مع التهايم في استقراءاته ، فالواجب يقضي بأن نعترف له بالفضل لسعيه الجاد في إيجاد حل جديد لتلكم المسألة . وقد أخذ البروفسور ب . روبين في اعتباره آخر الأبحاث التي ظهرت في هذا المجال ، وذلك في صفحات مصنفّه القيّم عن الامبراطور يوسطنيان(٦٢) . وتكشف الحواشي التي يحفل بها كتابه عن تمحيص دقيق للمصادر والمراجع حول جميع النقاط التي تمس موضوع بحثنا . كذلك يتمتع بأهمية خاصة تحليله الرائع لآثار پروقوپيوس فيما يتصل بسياسة يوسطنيان .

ويجب الاعتراف بالفضل للبروفسور فرنشيسكو غبريلي البحاثة اللامع في مجال الشعر الجاهلي(٦٣) لقيامه بنشر مجموعة من البحوث القيّمة بقلم نخبة ممتازة من المتخصصين وذلك تحت عنوان « المجتمع البدوي القديم » ، حيث نلتقي بتمحيص للمسائل المتصلة بالوضع الاجتماعي والأسس الاقتصادية للمجتمع البدوي العربي(٦٤) . وبهذا تكون المشكلة المتصلة بأسس هذا المجتمع وخصائصه قد طرحت للحلّ .

وبعد ، فلنكتف بهذا القدر من التحليل الوجيز لأهم البحوث والاتجاهات العامة . أما وجهات نظر الباحثين فيما يتصل بالتفاصيل فسنعرض لها في الفصول الخاصة بها من بحثنا هذا.



---

(٦٠) P. Goubert, Byzance avant l'Islam. I. Paris, pp. 252-253, 259-263.

(٦١) F. Altheim. R. Stiehl. Finanzgeschichte der Spätantike. Frankfurt am Main. 1957; F. Altheim, Geschichte der Hunnen, Bd. I, Berlin. 1959.

(٦٢) B. Rubin. Das Zeitalter Justinians. Bd I. Berlin, 1960. (لاعلم لنا أنه ظهر من ذلك المصنف المهم بخلاف هذا الجزء الأول ـ المترجم)

(٦٣) F. Gabrieli. 1) La Letteratura beduina preislamica. L'antica società beduina. Roma. 1959, pp. 95-114; 2) Adi ibn Zaid. Rendiconti d. Acad. d. Lincei. 1948. ser. 8. III; 3) Ta'abbata Sarran. Rendiconti d. Acad. d. Lincei, 1946. ser. 8. I; 4) La poésie arabe ancienne, Diogène. 1962, v. 40,4.

(٦٤) L'antica societa beduina raccolta da F. Gabrieli. Universita di Roma. Studi semitici. 2. Roma. 1959.

الفصل الثاني

القبائل العربية على حدود بيزنطه
في القرنين الرابع والخامس

امرؤ القيس « ملك العرب كلهم »

شغلت القبائل العربية في القرن الرابع الميلادي وضعاً فريداً على حدود الأمبراطورية الرومانية الشرقية ، ذلك أن دورها كدول عازلة (buffer states) تفصل بين الدولتين الكبريتين بالشرق الأدنى ، أي بيزنطة وايران ، لم يكن قد تحدّد بعدُ . غير أن مشاركة هذه القبائل في الحروب الدائرة بين هاتين الدولتين وموافقتها على مدّ يد العون أو رفضه لهذا الطرف أو ذاك ، كل هذا خلق ضرباً من التعاون لم تلبث أن ظهرت أبعاده بصورة متكاملة في العشرات الأولى من القرن التالي لذاك عندما احتلت دولتا الغساسنة واللخميين مكانتها التي تجلت بوضوح في القرنين الخامس والسادس .

وقبل أن تصبح القسطنطينية مركزاً للإمبراطورية بالمشرق بوقت طويل ظهرت إلى الوجود دولتان عربيتان إحداهما بالبطرا والأخرى بتدمر ، وذلك نتيجة لانتعاش طرق التجارة التي تمر بالمنطقة . وكان الموقع الاستراتيجي الذي احتلته البطرا سبباً في سيطرتها على الطريق المؤدّية إلى الحجاز وما وراء ذلك إلى بلاد العرب الجنوبية ، وكذلك على الطريق المتجهة غرباً صوب مصر وبقية القارة الإفريقية . أما تدمر فقد ازدهرت على حدود الامبراطورية نفسها بموقعها على « طريق دقلديانوس » الذي كان يصل بين أهم مدن الساحل الفينيقي وبادية الشام وأرض الجزيرة .

ولغة الرقوم التي وصلتنا من البطرا وتدمر هي الآرامية ، التي تأثرت في تطورها بانتعاش العلاقات التجارية لهاتين الدولتين ، كما كان لها أيضاً كتابتها الخاصة بها . وأما اللغة العربية كلغة لها وزنها فإنها لم تتطور إلّا في أزمنة تالية لذلك . هذا وقد وضعت رومه حداً لحياة البطرا في عام ١٠٦ ، كما قضت على تدمر وخربتها في عام ٢٧٢ . وفي العهد الذي أعقب سقوط دولة أذينة والزبّاء ، وهو أيضاً عهد مرت فيه ايران بحالة من الضعف الشديد تحت حكم فرهران [بهرام] الثاني (٢٧٥ ـ ٢٩٢) ونرسى (٢٩٢ ـ ٣٠١) ، أقول في ذلك العهد أحسّت القبائل العربية البدوية ببطش سيد جديد برز من بيت اللخميين بالحيرة . ولم يكن ملوك اللخميين آنذاك قد اعترفوا بالتبعية للفرس بل كانوا يجهدون لتوطيد أقدامهم على حدود الامبراطورية الرومانية .

وقد خلف لنا المؤرخون من اليونان واللاتين معلومات عن أحوال القبائل العربية الشمالية في القرن الرابع ، كما وُجدت معلومات عنهم في عدد غير كبير من الرقوم ، وكذلك في أنسابهم التي حفظها لنا المؤلفون

23 العرب المسلمون والتي لا تحظى بالكثير من الثقة . / ويحتل مركز الصدارة بين مصادر تاريخ العرب في القرن الرابع أقدم رقيم قبوري عربي، ذلك هو الشاهد الذي تم العثور عليه بقرية النمارة الواقعة إلى الجنوب الغربي من دمشق وإلى الشمال الغربي من بصطرى (بصرى) في منتصف المسافة بين المدينتين بالتقريب(١) ، ويوجد الآن بمتحف اللوفر . ويتألف هذا الرقيم من خمسة أسطر بالكتابة النبطية منحوتة على لوحة من البازلت مقاسها ١١٦ × ٣٣ سنتيمتراً ، وقد جرى نشره وترجمته والتعليق عليه أكثر من مرة* . وهذا نص ترجمته :

١ ــ هذا قبر امرىء القيس بن عمرو ملك العرب كلهم الذي عقد التاج

٢ ــ وأخضع أسد ونزار وملوكهم وأجبر مذحج على الهرب إلى اليوم وتوجّه

٣ ــ إلى نواحي نجران مدينة شمّر وأخضع معداً وقسّم بنيه

٤ ــ القبائل وأوكلهنّ للفرس وللروم فلم يبلغ ملك مكانته

٥ ــ إلى اليوم مات عام ٢٢٣ يوم ٧ من كسلول السعد للذي ولده(٢) .

وتدوين الاسم في صورة « أمرؤ القيس » هي الصيغة التي ارتضاها رينيه دوسو René Dussaud في آخر بحث له يعالج فيه الكلام على هذا الرقيم ، بينما ظهر الاسم في أبحاثه السابقة في صورة « إمرؤ القيس » .

24 ونضيف من جانبنا / أن الاسم يرد في الكتابة اليونانية في صورة « أمْرُقس » Amorkes ، وهو مما يؤكد صحة نطقه بالفتح . و« ملك العرب كلهم » عقد التاج (من المؤكد على مفرقه هو) ، وقد لاحظ الباحثون من قبل أن لفظة « تاج » الفارسية نالت انتشاراً واسعاً(٣) . أما لفظ « ملَكَ » في السطرين الثاني والثالث فترد بمعنى « أخضع » . وأما لفظ « بنّ » فترد بمعنى « قسّم » على أولاده « الشعوب » ، وهذا اللفظ الأخير الذي يعني القبائل وأحياناً « الجماعات » كثيراً ما نلتقي به في الرقوم العربية الجنوبية المدوّنة بخط المُسْند . وديسو يترجم اللفظ « وكّلهنّ » بمعنى قسّم ، إلّا أن الأقرب إلى الصواب هو رأي بيزر Peiser الذي يترجمها « تركَ ، أوْكَلَ » (hatte überlassen) . ولا يزال هذا اللفظ يحمل حتى الآن معنى « أسند » ، غير أنه يحتاج هاهنا إلى أداة لا وجود لها في المتن . ولفظ « مبلغه » يعني حرفياً « مكانته » ، ولكن من الجليّ أن الأقرب إلى الصواب هو ترجمته بمعنى « عظمته » . أما « بنيه » فتعني بطبيعة الحال المنحدرين من صلبه .

---

(١) R. Dussaud, les arabes en Syrie avant L'Islam, Paris, 1906, fig. 10, P.39 (توجد له ترجمة عربية طبعت بمصر ـ المترجم) .

* راجع عما ظهر من بحوث جديدة حول هذا الرقيم كتاب : G.W.Bowersock. Roman Arabia. Harvard, 1983, P.138, note 1 ـ المترجم .

(٢) Répertoire chronologique d'épigraphie arabe, t. I. Publ. par Et. Combe, J. Sauvaget et. G. Wiet, Le Caire, 1931, pp. 1-2

(٣) Th. Nöldeke. Der Araberkönig von Nemara. Florilegium......De Vogüé. Paris, 1909, p. 464

(٤) R. Dussaud. La Pénétration des Arabes en Syrie avant l'Islam, Paris, 1955, p. 64; F.E. Peiser, Die arabische In-schrift von Nemara, Orientalische Lieraturzeitung, 1903. No. 7. col. 280.

١ ـ نسخة الرقيم

٢ ـ قالب الرقيم

(1) تى نفس امرئ القيس بر عمرو ملك العرب كلّه ذو أسر التاج (2)
وملك الأسدين ونزارو وملوكهم وهرّب مذحج عكدى وجاء (3) بزجاى
فى حبج نجران مدينت شمّر وملك معدّو وبيّن بنيه (4) الشعوب
ووكّلهنّ فارسو لروم فلم يبلغ ملك مبلغه (5) عكدى هلك سنت 223
يوم 7 بكسلول بالسعد ذو ولده

Répertoire chronologique, t. I. 1

٣ ـ الرقيم بالحروف العربية

رقيم النمارة

وفي هذا الشاهد الذي وجد على القبر يرد اسم صاحبه على أنه امرؤ القيس بن عمرو . وهناك أساس للافتراض بأنه ينتمي إلى أسرة اعتلت عرش الحيرة . هذا وقد حكم عمرو بن عدي اللخمي من عام ٢٧٠ حتى عام ٣٠٠ ، وكان أمرؤ القيس الأول ابناً له . أما عام موته فيشير إليه الرقيم . وقد دعي « ملك العرب كلهم » لا لأنه وحّد القبائل التي كانت تنتقل على طول الحدود بين الدولة الرومانية الشرقية ودولة ايران وذلك من دمشق وانطاكية إلى ضفاف دجلة فحسب ، بل لأنه أخضع كذلك قبائل أسد ونزار واضطر مذحج إلى الهرب . ويشهد الرقيم أيضاً بأنه جرّد حملة على بلاد العرب الجنوبية . وبما أنه ورد في الرقيم أن الملك « توجّه إلى نواحي نجران » (وجاء بزجاي) ، وهي على نقيض كلمة « ملَكَ » التي مرت قبلها ، فمن الممكن القول في اطمئنان بأن الأملاك الخاضعة له كانت مترامية الأطراف وأنها كانت تشمل فيما يغلب على الظن نواحي سورية وبلاد الجزيرة التي كانت منتجعاً للعرب الرحّل منذ أزمنة سحيقة . كذلك استطاع اللخميون بوسيلة ما أن يثبّتوا أقدامهم بمناطق كانت في الماضي من أملاك تدمر .

وكان هدف حملة امرىء القيس نجران « مدينة شمّر » ، وهي مركز تجاري هام لعب دوراً كبيراً خاصة في الأحداث السياسية للقرن السادس . ويجب ألّا يغيب عن البال أن شمّر كان ملكاً على نجران حتى عام ٣٢٠ ، وهو ما تشهد به الرقوم العربية الجنوبية في اتفاق تام مع زمن رقيم امرىء القيس[٥] . وكان هدف الغزوة التي قام بها امرؤ القيس فيما يبدو / أن تؤدي إلى إخضاع المدينة أو على أقل تقدير إلى قسرها على دفع الإتاوة . وأيّاً ما كان الأمر فإن اللفظ المستعمل هنا يختلف عن لفظ « مَلَكَ » المستعمل في السطر الثاني فيما يتصل بقبيلتي أسد ونزار . أما قبيلة مذحج فقد ولّت الأدبار وبهذا فإنها لم تخضع « لملك العرب كلهم » بل هربت ولم تقم لها قائمة « إلى اليوم » .

25

وعقب الحملة على نجران يرد في الرقيم ذكر إخضاع قبيلة « معدّ » . وهي قبيلة كبيرة كثيرةالعدد ومقاتلة ، وقد ورد ذكرها مرات عديدة في المصادر اليونانية والسريانية للقرنين التاليين لهذا ، كما ورد أيضاً في الرقوم العربية الشمالية والجنوبية . وقد أخضع امرؤ القيس معداً لسلطانه .

يلي هذا الكلام على التركيب الداخلي لدولة « ابن عمرو » . فقد « قسّم » الشعوب أي وزّع القبائل على بنيه ، ولكنه احتفظ لنفسه بالسلطة العليا بوصفه « ملك العرب كلهم » . ثم تلا ذلك في الرقيم ما يشير إلى تحديد لعلاقته مع كل من الفرس والروم . ومما يلفت النظر في هذا ورود كلمة « الفرس » في المتن قبل « الروم » ، مما يدل على أن المكانة الأولى إنما كانت لايران . وهذا التفسير لا يخلو من مغزى إذا ما قبلنا ترجمة كليرمون ـ جانو Clermont-Ganneau والذي يتفق معه ديسو وذلك بقراءة الألفاظ « ووكّلهن للفرس وللروم »

---

(٥) J. Ryckmans, L'institution monarchique, Louvain, 1951, p. 311.

على أنها تعني « قسّم القبائل بين الفرس والروم »[٦] . وقد فهم بيزر Peiser هذا الموضع بطريقة مغايرة وترجمه « لأن الفرس تركتهم (أي القبائل) للروم » «denn Persien hatte sie Rom überlassen»[٧] . في هذه القراءة الأخيرة يرد النص بلا إضافة من المترجم ، بينما احتاج الأمر في ترجمة كليرمون ـ جانو إلى وضع حرف « ل » أمام لفظ « الفرس » وإن كان لا وجود لها في متن الرقيم . ويبدو لنا مقبولاً التفسير الذي يحتفظ فيه تعبير « وكَلهنّ » بمعناه الأول الأساسي وهو « يسند » و « يوكل » ، أي أن تقسيم القبائل بين أولاد امرىء القيس تمّ بمساندة الفرس وأن حرف « ل » الواقع في متن الرقيم أمام لفظ الروم يعني « وللروم » . وبمعنى آخر فإن صاحب الشاهد القبوري بعد أن صار « ملك العرب كلهم » تصرّف على نحوٍ وفّق فيه بين مصالح الدولتين الكبريتين . وإن مجرد ذكر الدولتين اللتين لعبت العلاقات بينهما في القرن الخامس ، وعلى وجه الخصوص في القرن السادس ، ذلك الدور الحاسم في حياة القبائل العربية الشمالية إنما يقف دليلاً على أنه حتى في القرن الرابع لم يكن من المستطاع بلوغ حالة التوازن إلاّ بشرط التوفيق بين مصالح هاتين الدولتين .

وفي الواقع أن امرأ القيس لم يدن بالتبعية لايران ، خلافاً لما أكّده نولدكه[٨] . ويبدو هذا واضحاً من الرقيم حيث لا توجد إشارة إلى / خضوع أو تبعية . وعلى الرغم من أن امرأ القيس وُجد بأرض تمتلكها 26 الامبراطورية أو تقع على الأقل تحت إدارتها إلاّ أنه دانت له قبائل عديدة . وكان لهذا السبب بالذات أن قيل له « ملك العرب كلهم » . وبهذا فإن امرأ القيس اللخمي لم يخضع لا للفرس ولا للروم ومات بالنمارة على مقربة من طريق القوافل القديم المشهور الذي تم تحويله على أيام الامبراطور دقلديانوس إلى « طريق روماني معبّد » . وحتى بعد أن وضعت رومه حداً لحياة تدمر ، لم يكن هناك ما يحول بين العرب والسعي لتوحيد كلمتهم ، بل قد تم وضع ذلك موضع التنفيذ . ويجب ألاّ ننسى أنه في القرن السادس حين احتدم النزاع من أجل السيطرة على طريق دقلديانوس Strata Diocletiana أثار اللخميون مسألة حقوقهم القديمة فيه . ورقيم النمارة يقدّم الدليل على أن اللخميين كانوا موجودين على مقربة من هذا « الاسطراط » منذ القرن الرابع وكان باستطاعتهم السيطرة عليه[٩] . وهذا هو الأصل في مطالبتهم بهذا الطريق حتى عندما دخلوا في علاقة وثيقة مع الأكاسرة و « دانوا لهم بالتبعية » . ومهما اختلفت الآراء في تقييم صيت امرىء القيس استناداً على مادة الرقيم فإن مكانته وعظمته بحيث « لم يبلغ ملك مبلغه » ـ أي بين ملوك العرب بلا ريب ـ إنما تقفان دليلاً على أنه جمع عدداً كبيراً من قبائل العرب تحت طاعته . واستناداً على مصادر أخرى يمكن القول بأنه عقب تخريب تدمر في عام ٢٧٢ / ٢٧٣ وقبل عام ٣٦٣ وهو عام حملة يوليان المرتدّ على أرض الفرس ، عاش الشرق الأدنى فترة من

---

(٦) Ch. Clermont-Ganneau, Recueil d'archéologie orientale, VI, Paris, 1905, p. 308; R. Dussaud, La pénétration des arabes....., p. 64.

(٧) F.E. Peiser, Die arabische Inschrift von en-Nemâra, Orientalische Literaturzeitung, 1903. No. 7. col. 280.

(٨) Th. Nöldeke, Der Araberkönig von Nemara, p. 463.

(٩) R. Dussaud, La pénétration des arabes..... fig. 17, p. 79.

الهدوء النسبي . ويمكن بالكثير من الصواب ارجاع مدة تملك امرىء القيس إلى الفترة بين عامي ٣٠٠ و ٣٢٨ ، لم يدن خلالها بالتبعية لأية من الدولتين الكبريتين وظل قابضاً على زمام « العرب كلهم » . ولهذا السبب على ما يبدو لم يحدث ما يهدد السلام بين القبائل العربية مثلها ما حدث في الأزمنة التي تلت حينها استعرت حدّة العداء الذي لم ينقطع بين « عرب الفرس » و « عرب الروم » فزعزعت السلام بين الدولتين الكبريتين ، علماً بأن السلام بينهما كان حتى بغير هذا سلاماًمهزوزاً . ومن التاريخ الوارد بالرقيم يتبيّن أن العام الذي مات فيه امرؤ القيس هو عام ٢٢٣ ، وهذا العام يتفق مع عام ٣٢٨ للميلاد لأنه يلزم تحديد تاريخ الرقيم وفقاً للتقويم المعمول به آنذاك ببصطرى والذي يبدأ بعام ١٠٥ للميلاد[١٠] . ومما يبرّر هذا الافتراض الذي لم يلق معارضة من أحد من الباحثين هو قرب موضع الرقيم من بصطرى .

وقرائن الأحوال تشير إلى أن امرأ القيس إنما ينتمي إلى بيت اللخميين ، وهم من لا تبعث شجرة نسبهم على الكثير من الثقة . و « ملك العرب كلهم » امرؤ القيس بن عمرو يجب أن يُعدّ امرأ القيس الأول[١١] . أما فترة حكم أبيه عمرو فإنه يمكن إرجاعها إلى الثلث الأخير من القرن الثالث وذلك بعد خراب تدمر على يد رومه .

وقد أشرنا فيما سبق إلى أن الرقيم يذكر الفرس والروم جنبا إلى جنب مما يدفع والحالة هذه إلى الافتراض بأنه لم توجد آنذاك حالة عداء بين الطرفين بل توافق ومصالحة ، وإن كانت المكانة الأولى لدى العرب قد حظيت بها دولة الفرس ، الأمر الذي يتسق واستعمال لفظ « تاج » / بوساطة « امرىء القيس » وهو من التقاليد الايرانية على الرغم من أن اللفظ حظي بانتشار واسع بالشرق الأدنى كله . 27

وبفضل هذا الرقيم الذي عثر عليه بالنمارة لم يعد امرؤ القيس بطلاً لروايات أسطورية بل تحوّل إلى شخصية تاريخية . ولم يحدث حتى الآن أن تعرض الباحثون إلى عقد مقارنة بين تاريخ موته الذي يحدّده الشاهد و التواريخ التي يوردها المؤرخون العرب . والتفاصيل التي حفظها لنا حمزة الاصفهاني والطبري المتصلة بسني حكم أمراء الحيرة تبدأ باسم عمرو بن عدي (ادي) ويليه اسم ابنه امرىء القيس . وإليهما يُنسب عدد من السنين كفترة لبقائهما على العرش لا تقرب في شيء من الواقع وهو ثمانية عشر ومائة عام لعمرو وأربعة عشر ومائة عام لامرىء القيس . وكل هذه الأعوام تمّت مقابلتها زمنياً مع سني حكم أكاسرة الساسانيين . وعلى الرغم من أن هذه المقابلات الزمنية كانت موضع الشك منذ أيام نولدكه[١٢] إلّا أنه من المؤكد أن كتب التاريخ

---

(١٠) F.E. Peiser. Die arabische Inschrift von Nemara. col. 281: Ch. Clermont-Gannean. Recueil....., p. 307.

(١١) R. Dussaud, La pénétration des arabes......, p. 65.

(١٢) Th. Nöldeke, Geschichte der Perser und Araber zur Zeit der Sassaniden. aus der arabischen Chronik des Tabari, Leyden, 1879. p. 25, nota 3. (وسنشير إليه بالتالي تحت Nöldeke-Tabari) .

العربية قد حوت بعضاً من الوقائع الموثوق بها .

ومجموع سني حكم عمرو وامرىء القيس يقف دليلاً على أنه خلال فترة من الزمن امتدت لاثنين وثلاثين عاماً بعد المائتين لم تكن لدى العرب من حقائق إلاّ عن اثنين فحسب من بين أمراء الحيرة . ومن ثم فلا مفرّ من الافتراض بأن أفراد هذه الأسرة لم يتتابعوا على كرسي الحكم أو أن سني حكم امراء الحيرة قد أُطيل بطريقة ملفّقة ، فلم يبق سوى هذين الاسمين اللذين حفظتهما الرواية المتواترة . وترتفع قائمة أسماء أمراء الحيرة الموجودة لدى الطبري إلى هشام الكلبي الذي تؤكد ألفاظه أن « أخبار العرب » و « أنساب آل نصر » وسني حكم أفراد هذه الأسرة قد استقاها « من بِيَع الحيرة » ، مما يفهم منه أن الكنائس النصرانية بعاصمة اللخميين قد حفظت في سجلاتها قوائم تبيّن سني حكم هؤلاء الأمراء وأن هذه القوائم هي التي رجع إليها هشام الكلبي[١٣] . وقد تمت مقابلة هذه القوائم وتحديد زمنها مع أزمنة حكم ملوك الساسانيين ، وهذا هو الأساس الذي انبنت عليه / قائمة امراء الحيرة التي حفظها لنا الطبري وحمزة[١٤] . وفي هذا يختلف عنها اختلافاً جذريا حساب السنين الذي أورده اليعقوبي[١٥] . 8

والطبري على علم بأن امرأ القيس بن عمرو بن عدي كان « أول من تنصّر من ملوك آل نصر بن ربيعة وعمّال ملوك الفرس »[١٦] . وهو يقول نقلاً عن هشام إنه تملك لمدة أربع عشرة سنة ومائة ، إلاّ أنه عند إحصائه لعدد سني حكمه يقدّم لنا رقماً أقل من ذلك بكثير . وهو يقف بمقارنته الزمنية عند الملك الساساني بهرام الثاني ، ولا يوجد لديه شيء أبعد من ذلك . ونجد هذه المعطيات نفسها لدى حمزة الاصفهاني الذي ينسب هو أيضاً بدوره إلى امرىء القيس فترة حكم امتدت لأربع عشرة ومائة سنة ، غير أن مجموع السنين التي يوردها لا يطابق هذا العدد . وعند المقارنة بين روايتي الطبري وحمزة يتضح لنا التقارب الشديد بينهما ، ويجوز أن معلومات حمزة مأخوذة من هشام أيضاً . ولعل الانقطاع المفاجىء للمقابلة التي يجريها الطبري يشير إلى أنه قد استعمل نسخة مبتورة لهشام . وحقيقة أن هذا الضرب من الجداول من نسج الخيال أمر واضح للعيان .

---

(١٣) Tabari, Annales. quod scripsit Abu Djafar Mohammed ibn Djarir at Tabari, ed. M. J. de Goeje, prima series. t. II, rec. J. Barth et Th. Nöldeke, Lugduni Batavorum, 1881-1882, p. 770.

(١٤) G. Rothstein, Die Dynastie der Lahmiden.....p. 54

(١٥) شرحه ، ص ٥٧ .

(١٦) Tabari, Annales......, p. 834

حمزة الاصفهاني[17]	
آمرؤ القيس	أربعة عشر ومائة عام
في زمن شابور بن اردشير	ثلاث وعشرون عاماً
في زمن هرمز	سنة وعشرة أشهر
في زمن بهرام	تسع سنين وثلاثة أشهر
في زمن بهرام الثاني	ثلاثة عشر شهراً
في زمن بهرام الثالث	ستة أشهر
في زمن نرسي	إحدى عشر عاماً
في زمن هرمز	ثلاثة عشر عاماً
في زمن شابور الثاني	عشرون عاماً وخمسة أشهر
	ثمانون عاماً وشهر

الطبري[18]	
امرؤ القيس	أربعة عشر ومائة عام
في زمن شابور بن اردشير	ثلاث وعشرون سنة وشهر
في زمن هرمز	سنة وعشرة أيام
في زمن بهرام	ثلاث سنين وثلاثة أشهر وثلاثة أيام
في زمن بهرام الثاني	ثماني عشرة سنة
	خمس وأربعون سنة وأربعة أشهر وثلاثة عشر يوماً

من هذا يتبيّن في وضوح أن أيّاً من الجدولين لا يعطي أربعة عشر عاماً ومائة من السنين لفترة حكم امرىء القيس . ومن الجلي أن المقابلة الزمنية للفترة الأخيرة هي وحدها دون سواها التي تحظى نسبياً بقيمة تاريخية ، بينما لا تحمل المقابلات البعيدة في الزمن حتى بمجرد التقارب مع حقيقة سني حكم امرىء القيس بأية حال من الأحوال .

ووفقاً لرواية حمزة ، فإن امرأ القيس حكم عشرين عاماً وخمسة أشهر في زمن واحد مع شابور الثاني . وبما أن الطبري يأخذ عن هشام ، وأن تلك المقابلة الزمنية التي أوردها تتفق مع معطيات حمزة ، فليس بمستبعد أن هذه المقابلات الزمنية ينتهي سندها جميعاً إلى هشام . والحدّ الذي توقف عنده الطبري في قائمته قد يكون سببه عدم ثقته في صحة المعطيات التي وجدت بين يديه / . هذا وقد بدأ شابور الثاني حكمه في الثالث من سبتمبر عام ٣٠٩[19] ، وعُدّ هذا العام بداية لحكمه وإن كان لا يعطي سنة كاملة . لهذا فإن تاريخ موت امرىء القيس في العام العشرين من حكم شابور الثاني يتفق مع العام ٣٢٨ .

29

ولدى الطبري شهادتان قيّمتان عن امرىء القيس يمكن مقارنتهما بما ورد في الشاهد القبوري . أولاهما أن امرأ القيس كان من « عمال ملوك الفرس »[20] ، وهذا يتفق مع ذكر الرقيم للفرس . والأخرى أن الطبري ـ ومن قبله هشام الذي يرجع إليه ـ قد عدّ امرأ القيس « أول من تنصّر من ملوك نصر بن ربيعة »[21] ، غير أن

(١٧) Hamza Isphahanensis Annalium. libri X, ed. J.M. E. Gottwaldt. Lipsiae, t. I - 1844, pp. 99-100; t. II - 1848, p. 78

(١٨) Tabari. Annales,...., t. II, p. 834; G. Rothsetin, Die Dynastie der Lahmiden...., p. 54.

(١٩) Th. Nöldeke. Geschichte der Perser und Araber...., p. 435.

(٢٠) Tabari, Annales....., t. II. p. 834.

(٢١) شرحه

نولدكه يفسر ألفاظ الطبري بأن المقصود بها هو أحد ملوك الحيرة المتأخرين الذي كان يحمل أيضاً اسم امرىء القيس[٢٢] . وحقيقةالأمر أنه يصعب استنباط شيء من الشاهد القبوري يشير إلى اعتناق امرىء القيس للنصرانية . ومما لا شك فيه أن رقيم النمارة يقف شاهداً على علاقاته بالامبراطورية الرومانية التي وجد قبره بأراضيها . ولذا فقد حفظت لنا الرواية العربية صدىً لعلاقات « ملك الحيرة » هذا بالامبراطورية وإن كان اعتناقه النصرانية لا يرد من بينها . فالرواية تتحدث فقط عن وجود صلات له مع رومه ، وهو أمر معروف أيضاً من مصادر أخرى .

كذلك حفظ لنا المؤرخون المسلمون معلومات تلقي الضوء على أسباب تحركات بعض القبائل العربية صوب تخوم الامبراطورية الرومانية . فالمسعودي يروي أنه في صبا شابور وضع العرب يدهم على العراق ، ومن بين العرب بالذات قبيلة « إياد بن نزار » ، فلمّا بلغ شابورسن السادسة عشر خرج في حملة على « بني إياد » ولكن ابن عمهم لقيط سارع إلى تحذيرهم بالخطر المحدق بهم . بيد أنهم لم يعيروا الأمر اهتماماً حتى بغتهم الفرس « فما أفلت منهم إلاّ نفر لحقوا بأرض الروم »[٢٣] .

وهكذا تشكّلت ظروف نبصر خلالها قبائل عربية من أرض الجزيرة تتحرك صوب الغرب إلى أراض تابعة للامبراطورية الرومانية . فقد حدث أن استغلّت قبائل عربية شتى فترة الضعف التي كانت تمر بها ايران فعزّزت من غاراتها وتحركت بقطعانها إلى أقصى الشمال والشرق من أرض الجزيرة ، غير أن شابور وهو « في سن السادسة عشر » ، / أي قبل أعوام من سنة ٣٢٨ ، ألحق الهزيمة بالقبائل العربية مما دفع شطراً منها إلى اللواذ بحدود الامبراطورية .

وثمة قصة أخرى تغلب الأسطورة على جانب كبير منها حفظها لنا المسعودي أيضاً[٢٤] ، ومنها يفهم أن شابور الثاني جهد في الحفاظ على علاقات السلم مع بعض القبائل العربية ووصل إلى حدّ الاتفاق معها . والغالب على الظن أن امرأ القيس كان على رأس القبائل العربية التي تحركت صوب حدود الامبراطورية ولكنه احتفظ في ذات الوقت بسلطانه على القبائل التي ظلت تدور في فلك ايران . وبهذا ظل على علاقاته مع كسرى .

وامرؤ القيس « بيّن بنيه الشعوبَ » أي قسم بينهم القبائل ، وكان بعض هذه القبائل يدور في فلك

(٢٢) Nöldeke - Tabari, p. 47, nota 3.

(٢٣) Maçoudi, Les prairies d'or, t. II. Texte et traduction par C. Barbier de Meynard et Pavet de Courteille, Paris, 1963, pp. 175-177.

(٢٤) شرحه ، ص ١٧٨ ـ ١٨١ .

« الفرس » وبعضها الاخر تركوا « للروم » . أما هو نفسه فقد ظل ملكاً « لم يبلغ ملك مبلغه » ، لأنه وحّد تحت سلطانه القبائل العربية الرحّل التي كانت تقوم بالتجوال في البادية المترامية الأطراف . والروايات المتضاربة عن هذه الفترة ، كما يبدو من مقابلة المصادر بعضها ببعض ، تعين على تفسير رقيم النمارة وتبيّن حقيقة وضع صاحبه كواحد من المسيطرين على الشرق الأدنى .

كل هذا من شأنه أن يعاوننا على الخروج بنتيجة مفادها أنه في القرن الرابع لم تُدن القبائل العربية ، سواء ما كان منها بالشرق الأدنى عامة أو الجزيرة العربية خاصة ، بالتبعية الدائمة لا للامبراطورية الرومانية الشرقية ولا لايران مثلما حدث في القرون التي تلت . وقد اقتصروا على تقديم العون لهذا الطرف وللطرف الآخر وعملوا كقوات مساعدة auxilia في جيشهما ، غير أنه لم يثبت عليهم الوضع بعدُ كحلفاء ، أي دول عازلة (buffer states) تخضع لأي من الدولتين . واعتماداً على رقيم النمارة يمكن القول بأن امرأ القيس اللخمي قد بسط نفوذه على الأراضي الممتدة حتى طريق دقلديانوس قريباً من بصطرى ودمشق . وهناك ما يؤكّد هذا في غيره من المصادر ، فالمؤرخ الروماني اميانوس مارسيللينوس يقول إن العرب قاتلوا إلى جانب الايرانيين في حملة عام ٣٦٣ وأن زعيمهم كان يدعى « الملك پودوساك فيلارخ السرقيين الاسّانيين » Malechus Podosacis nomine, Phylarchus Saracenorum Assanitarum[٢٥] . والمقصود بالاسّانيين هنا هم الغساسنة ، وذلك بإسقاط حرف الغَيْن الذي لا وجود له في اللاتينية . ومن هذا يتضح أن فيلارخ الغساسنة الذي يصفه اميانوس مارسيللينوس بأنه قاطع طريق ويعزو إليه القيام بغارات لا تنقطع على تخوم الامبراطورية ، كان يعمل في خدمة ملك الفرس وقدّم له العون في الحرب ، لذا فإن مجموعة القبائل التي وحّد الغساسنة كلمتها وعقدوا الصلة بينها وبين الامبراطورية الرومانية الشرقية لم ترتبط بها آنذاك بصفة مستديمة ، بل عكس ذلك هو الصحيح إذ أننا نجد أن الفيلارخ پودوساك يقاتل إلى جانب ايران ضد جيوش يوليان . كما أنه أغار من قبل على حدود الامبراطورية ، وهو ما يتفق تماماً مع القول بعدم وجود أدنى نوع من التبعية في القرن الرابع سواء من الغساسنة أو اللخميين لأي من الدولتين الكبريتين بالشرق الأدنى ، ذلك أن هذه التبعية / لم تتحدّد ملامحها إلاّ في القرن الخامس ، ثم توكّدت بصورة قاطعة في القرن السادس . وينبغي الإشارة هنا إلى أنه عقب عام ٣٦٣ أخذت الروايات عن « السرقيين » تعاود الظهور على صفحات المصادر اللاتينية واليونانية . وجاءت حملة يوليان فعكّرت صفو الهدوء الذي ساد العلاقات السلمية مع العرب ، مما أدّى إلى كل ألوان المشاكل التي نجمت فيما بعد .

31

وروايات المؤرخين اللاتين واليونان تعد مصدراً مهماً لتاريخ العرب قبل الإسلام لأنها تساعد على إيضاح

---

(٢٥) Ammianus Marcellinus, Rerum gestarum libri qui supersunt, 24, 2, 4. Rec. Fr. Eyssenhardt, Berlini, 1871, p. 297.

الوضع العام وتعاون على ضبط التواريخ ، كما أنها تقدم سرداً متتابعاً للأحداث ، وكلها ضرورات لم تجد حظاً من الإشارة في الآثار المنقوشة على الرقوم إلاّ في القليل النادر . ويكشف لنا مؤلفو القرن الرابع عن دور العرب في الحروب وغاراتهم ، وكذلك عن حياتهم وأسلوب معيشتهم . وهذه المعلومات تعاون أيضاً على التعريف بالأوضاع الاجتماعية في دويلات العرب الرحّل وشيئاً ما بالعلاقات الداخلية بين طبقاتها . غير أن رواياتهم كانت تحمل طابعاً عرَضياً ولذا فإنه لم يكن من المستطاع تقديم سرد متصل الحلقات لتاريخ القبائل العربية إلاّ في القرون التي تلت . أما فيما يتصل بالقرن الرابع نفسه فإنها كانت تتناول فيه أحداثاً متفرّقة ، وواهية العُرى بين بعضها والبعض .

وأما اميانوس مارسيللينوس رفيق الامبراطور يوليان فإن رواياته عن العرب تبلغ درجة من الأهمية لا يرقى إليها الشك . هذا وقد دُوّن قسم كبير من مصنفه التاريخي Res Gestarum اعتماداً على انطباعات شخصية ومباشرة ومصادر سماعية ، على ما بيّن آخر بحث كُتب عنه(٢٦) . ووصفه لحياة العرب وأخلاقهم كما ينعكس في علاقاتهم مع الامبراطورية قد وجد التأييد لدى المؤلفين من المعاصرين له ، وليس هناك اختلاف في هذا بين اميانوس العلماني النزعة و مؤرخي الكنيسة . والمؤرخون الأوائل للدولة الرومانية الشرقية كانوا هم أصحاب التواريخ الكنسية الذين اهتموا بالمسائل العقائدية ويمثلي الاتجاه العقائدي الجديد . وتوجد في آثارهم صفحات مفردة للتاريخ السياسي تصوّر العرب في بعض الأحايين حلفاء للامبراطورية في مغامراتها العسكرية ، وتصورهم في أحايين أخرى أعداءها الألدّاء الذين يغيرون على حدودها فيبثون الذعر والهلع في كثير من ولاياتها .

وحتى الآن لا يوجد تحت أيدينا تحليل متتابع الحلقات لجميع المصادر بأنواعها التي تمس تاريخ العرب الشماليين حتى ظهور الإسلام ، علماً بأنه لن يكون في الطَوْق وضع تاريخ متكامل للعرب قبل الإسلام ما لم يفرغ العلماء من تحضير عمل من هذا القبيل .

ويعالج اميانوس مارسيللينوس الكلام عن العرب خلال حديثه عن حملة الامبراطور يوليان على الفرس عام ٣٦٣ . ففي الربيع المبكّر تم إعداد القوات العسكرية لعبور الفرات والتقدم صوب المشرق . وفي ذلك الوقت توجّه « ممثلو مختلف الشعوب » إلى يوليان عارضين عليه العون(٢٧) / . وعلى الرغم من أن الحديث هنا يشير إلى « مختلف الشعوب » فإن الغالب على الظن أن الأمر يتصل بصفة أساسية بالقبائل العربية . وقد قوبل السفراء مقابلة طيبة ولكن عونهم (auxilia) رفض ، وذلك بحجة واهية مفادها أن الجيش الروماني ينبغي عليه أن يضع كل اعتماده في هذه الحرب على قواته الخاصة . وهذا ممّا يدفع إلى الاعتقاد بأن الامبراطور لم يول ثقته

(٢٦) E.A. Thompson, The Historical Work of Ammianus Marcellinus, Cambridge. 1947, pp. 20-42.
(٢٧) Ammianus Marcellinus. Rerum gestarum libri..... 23, 2, 1, p. 266.

التامة للقبائل التي عرضت عليه العون ، على الرغم من أن قادة القوات الرومانية كانوا على علم تام بأهمية العرب في عمليات الاستطلاع وذلك لمعرفتهم الجيدة بالظروف المحلية ، فضلاً عن أن فرسانهم يمتازون بالشجاعة والإقدام إلى جانب خفّة الحركة .

هذا وقد أمضى الامبراطور وجيشه سحابة اليوم السابع والعشرين من مارس عام ٣٦٣ بقلعة قللينيقه Callinica (نقفوريون ـ الرَّقّة) الواقعة على الضفة اليسرى لنهر الفرات . وعلى هذه الضفة كان يمتد الطريق محاذياً للنهر ، وهوالطريق الذي سلكه الجيش فيما يبدو لأنه بلغ بعد وقت قصير قرقيسيا[٢٨] (Circesium) . وكان بوليان لمّا غادر قللينيقه نزل « بموضع ما » وظل « بمخيمه » ، وهناك توافد إليه « ملوك قبائل السرقيين » وسجدوا بين يديه وحملوا إليه تاجاً من الذهب وقدّموا إليه فروض الطاعة والولاء بوصفه « سيدهم وسيد شعوب العالم »[٢٩] . وقد أُستقبلوا بالترحاب لما لهم من تمرّس بالحرب الخاطفة . ويبدو من ذلك أنه عقد عليهم الآمال .

وبعد أن ضمّ الامبراطور إلى كتائبه الوحدات العربية كقوات « مساعدة » auxilia تقدم « بخطا سريعة » حتى بلغ في أول ابريل قلعة قرقيسيا الحصينة حيث يصب نهر الخابور في الفرات فيجعل من القلعة حصناً كأنه يقف على جزيرة[٣٠]*. ومما يسترعي الانتباه تلك العبارات التي يصف بها اميانوس قلعة قرقيسيا ، فالأسوار والقلعة كلها شيّدت / على عهد دقلديانوس بعندما « قام ببناء » ـ أو كان يعيد تنظيم ـ خط « الحدود الداخلية » ، أي بتحصين الحدود المتاخمة « للبرابرة » أو القريبة منهم[٣١] . ومن هذا يتبيّن أنه قام بتمتين الخط الثاني للحدود الواقع على مبعدة من الخط الأول الذي يمثل حدود الامبراطورية نفسها ؛ وكان الخط الثاني يتألف من المسالح والنقاط الحصينةالواقعة على مسافات متباعدة . وحقيقة أن الحدود لم تكن مخطّطة في تلك المواضع التي وُجد بها الرحّل وأشباه الرحّل من القبائل العربية إنما تمثل في الواقع ظاهرة غريبة ، وان ليس إلى انكارها من سبيل إذ يشهد بها كثير من المصادر .

وحقيقة الأمر أن العرب قد مدّوا يد العون للرومان ولم يلبثوا أن جلبوا إليهم بعد أمد قصير عدداً من الأسرى . ويروي ذلك اميانوس بألفاظه : « بعد هذا جلبت طلائع العرب الخفيفة عدداً من الأسرى مما أفعم قلب الامبراطور بالغبطة فأتحفهم بالعطايا وأرسل بهم إلى الأمام ليقوموا بالعملية نفسها »[٣٢] . وقد عدّ قادة

---

(٢٨) R. Dussaud. Topographie historique de la Syrie antique et médiéval. Paris, 1927, carte XIV.

(٢٩) Ammianus Marcellinus, Rerum gestarum libri...., 23, 3, 8, p. 269.

(٣٠) شرحه ، ٢٣ ، ٥ ، ١ ص ٢٧٢

* يقول ياقوت بصدد قرقيسيا « وعندها مصب الخابور في الفرات فهي في مثلث بين الخابور والفرات » ، وينقل عن حمزة الاصفهاني « قرقيسيا معرب كركيسيا وهو مأخوذ من كركيس وهو اسم لأرسال الخيل المسمى بالعربية الحلْبة » . وهي الآن قرية البصيرة ـ المترجم .

(٣١) شرحه ، ٢٣ ، ٥ ، ٢ ، ص ٢٧٢ .

(٣٢) شرحه ، ٢٤ ، ١ ، ١٠ ، ص ٢٩٥ .

الرومان هذه العمليات التي اضطلع بها العرب ذات قيّمة لهم لأن الأسرى كان باستطاعتهم على الدوام أن يقدّموا معلومات هامة تفيدهم في العمليات العسكرية المقبلة .

وتمثل أقوال اميانوس مارسيللينوس عن وجود قبائل عربية في خدمة ملك الفرس أهمية كبيرة في هذا الشأن . وحين وصل إلى علم الفرس أن إحدى كتائب جيش يوليان قد أُرسلت بهدف الاستطلاع قرّ رأيهم على قطع الطريق عليها وألقيت هذه المهمة على السورينا Surena وهو القائد الذي « كانت له المكانة العليا بعد الملك بين الفرس » ، وعلى « فيلارخ » العرب المقاتلين إلى جانب الفرس كذلك . وأميانوس يقول بصدده : « ملك باسم پودوساك كان فيلارخاً للعرب الغساسنة وهو قاطع طريق معروف ارتكب كل صنوف القسوة على حدود مملكتنا لوقت طويل » . ولفظة « مِلخوس » Malechos التي استعملها هاهنا تطابق بطبيعة الحال كلمة « مَلِك » العربية . ومن العسير ربط اسم پودوساك بأي اسم عربي ؛ إلاّ أنه وفقاً لمقطعه الأخير يتفق أكثر ما يتفق مع أسماء الفرس . أمّا فيما يتعلق « بالسرقينيين الأسّانيين » فمن الواضح تماماً أنه تعبير يرتبط باسم قبيلة الغساسنة التي اكتسبت في القرن الخامس نوعاً من الأهمية على حدود الامبراطورية ، ثم لم تلبث أن شغلت فيها بعد وضعاً خاصاً بوصفها حليفة لبيزنطة في القرن السادس . وورود اسم قبيلة الغساسنة في تاريخ اميانوس يقف دليلاً على أنها كانت تنزل بنواحي الفرات وأرض الجزيرة في عهد أبعد مما كان يُظن عادة . / وفيما عدا هذا فإنه يبدو واضحاً من المتن أن الغساسنة وملكهم پودوساك كانوا في عداء مع الامبراطورية من قبل حملة يوليان ، لأن فيلارخهم وُصف بأنه قاطع طريق « معروف » أو « مشهور » وأنه كثيراً ما اجتاز الحدود و« أغار » على البلاد ؛ هذا بالإضافة إلى ارتكابه لكل صنوف « القسوة » في المناطق التابعة للرومان . وحالة العداء هذه تفسر لنا السبب في اغتنام الامبراطورية لأول فرصة سنحت لكي تجتذب قبيلة الغساسنة القوية إلى خدمتها وتسند إليها حراسة الحدود . وكان فيلارخ هذه القبيلة يتسلم مكافأة أو عطايا من الامبراطورية .

وكذلك يلقي اميانوس مارسيللينوس نظرة عامة على العرب ، هي بمثابة تعبير للرأي السائد عنهم بين الدوائر الحكومية للامبراطورية القريبة من القيصر نفسه . فهو يقول : « يجب علينا ألاّ نتخذ العرب أصدقاء لنا أو أعداء ، ذلك لأنهم شعب من الرحّل يتنقلون من موضع لآخر ، ثم ينقضّون بأسرع من لمح البصر فينهبون جميع ما تقع عليه أيديهم . فهم أشبه بالعقبان التي تنقض على فريستها من حالق ثم تقلع في سرعة خاطفة مبتعدة عنها » . وعلى الرغم من أن المؤلف ذكر العرب في أكثر من موضع إلاّ أنه يتوقّف هنا ليقدم وصفاً موجزاً لأسلوب حياتهم . وهو يعيّن مناطق انتشارهم من حدود اشور التي كانت تتبع آنذاك لدولة الفرس على المجرى الأدنى لدجلة إلى « جنادل النيل » و « تخوم البلميين » Blemmyes . وفي موضع آخر من مصنفه يقول اميانوس إنه إلى الشرق من مصر كان يوجد العرب الإسكينيون Skenites « الذين نسميهم حالياً

---

(٣٣) شرحه ، ٢٤ ، ٢ ، ٤ ، ص ٢٩٧ .

بالسرقينيين »[٣٤] . وفي مجال تعداده للشعوب المختلفة التي كانت تقطن على سواحل البحر الأحمر يذكر اميانوس مارسيللينوس مرة أخرى العرب الإسكينيين « الذين أُطلق عليهم اسم السرقينيين »[٣٥] .

وفي نظره أن العرب كلهم وبلا استثناء هم من المقاتلة ؛ وأنهم يعيشون نصف عراة لا يسترهم سوى أردية ملّونة أشبه ما تكون بالملاحف تغطيهم إلى أفخاذهم[٣٦] ؛ وهم يتحركون في مساحات شاسعة على خيل سريعة وإبل معروقة سيّان في ذلك حالهم وقت السلم أم وقت الحرب . ولا تمس أيديهم المحراث ولا يغرسون شجراً ولا يعرفون الزراعة ، بل هم في تجوال دائم يذرعون البادية الواسعة طولاً وعرضاً لا يعرفون القرار في بيوت ولا يخضعون لقانون أو سلطان . وليس في وسعهم البقاء طويلاً تحت سماء واحدة ، تماماً مثلما لم يكن من شأنهم أن يركنوا لموضع واحد تحت الشمس ؛ « فحياتهم حركة دائبة »[٣٧] .

وهذا الوصف الذي يقدّمه عن العرب رفيق الامبراطور يوليان يبيّن في جلاء أن الأمر إنما يتعلق بقبائل بدوية لا علاقة لها/ بالحياة الحضرية وليس لها أدنى صلة بالزراعة حتى في أكثر صورها بدائية . وفي رأي علماء الاثنوغرافيا أن هذا يمثل أقصى درجات التخلف . أما الحياة الزوجية عند العرب فيصورها اميانوس بأنها اتفاق يعقد لأجل محدود ، فالمرأة تقدّم لزوجها رمحاً وخيمة وفي وسعها أن تغادره متى ما شاءت عند انقضاء الأجل المحدّد . وهو في توكيده من جديد لحركتهم الدائبة يقول إن المرأة تتزوج في موضع وتلد في موضع آخر وتربي أطفالها في موضع ثالث « دون أن تعرف للاستقرار طعماً » .

35

ومع حياة العرب البدائية هذه يتفق لون طعامهم ؛ فهم يعيشون على لحوم الماشية التي يكثر وجودها لديهم وبألبانها ، وكذلك على ضروب مختلفة من النباتات ، والطيور إذا ما أفلحوا في اصطيادها . وقد التقى المؤلف بجماعات من العرب تجهل تماماً استعمال الحنطة والنبيذ . وهو يختتم حديثه عنهم بقوله إنهم « شعب جافي الطباع »[٣٨] .

وعقب مصرع يوليان تقهقرت القوات الرومانية مبتعدة عن الحدود الفارسية تحت إمرة يوڤيان Jovian الذي نصبه الجند قيصراً . وكان الجند في حالة من التوتر بسبب اشتداد الحر في شهر يوليو وازدياد الجوع والعطش اللذين انهكا الجيش ، وكذلك بسبب هجمات العدو من العرب . وكان السبب في غارات العرب « السرقينيين » أن يوليان حرمهم من أرزاقهم ومنع عنهم العطايا التي كانت تمنح لهم من قبل ؛ فلما اشتكوا إليه

---

(٣٤) شرحه ، ٢٢ ، ١٥ ، ١٢ ، ص ٢٥٥ .
(٣٥) شرحه ، ٢٣ ، ٦ ، ١٣ ، ص ٢٧٩ .
(٣٦) شرحه ، ٢٤ ، ٥ ؛ ١ - ٢ ، ص ٨ .
(٣٧) شرحه ، ١٤ ، ٤ ، ٤ ، ٣ - ٤ ، ص ٨
(٣٨) شرحه ، ١٤ ، ٤ ، ٦ - ٧ ، ص ٨

رد عليهم في بساطة « إن الامبراطور المقاتل واليقظ عنده الحديد لا الذهب »[٣٩] .

وحرمان العرب من الأرزاق والعطايا وضع القوات الرومانية في ظروف بالغة القسوة ، ذلك أن العرب اشتبكوا معها في معارك صغيرة سببت للجنود كثيراً من المشقة والأذى . وعلى الرغم من أن اميانوس مارسيللينوس لا ينحى باللائمة على يوليان على نحوٍ مكشوف ، إلّا أنه يحاول الإيحاء بأن الطريقة المثلى لدرء خطر العرب وكفّ أذاهم هي مسالمتهم والسعي في اجتذابهم بالمنح والعطايا لأن الدخول معهم في عداء أمر يجافي العقل خاصة خلال حملة خطيرة وبعيدة الشقة كهذه الحملة .

الملكة ماوية

ولإعطاء فكرة عن طبيعة العلاقات التي نشأت بين القبائل العربية وبيزنطة فإن أخبار « ماوية ملكة السرقيين » يجب أن تستأثر باهتمام خاص . وروفينوس الذي نقل تاريخ اوسيبيوس القيساري من اليونانية إلى اللاتينية ، لم يلبث أن أضاف إليه مجلدين وصف فيهما أحداث النصف الثاني من « حكم قسطنطين » و / حتى « موت ثيودوسيوس آغسطس » . ففي هذا القسم الثاني من تاريخه الذي أكمل تدوينه بعد عام ٤٠٢ بقليل حكاية تتصل بالقبائل العربية وقتالها مع بيزنطة . والأحداث التي يصفها روفينوس ترجع إلى عهد الامبراطور ڤالنز Valens (٣٩٤ ـ ٣٧٨) ، وبصورة أدقّ إلى الأعوام الأكثر قرباً من موت اثناسيوس الإسكندري (أي بعد عام ٣٧٣) عندما أخذ نشاط الأسقف الأريوسي لوقيا بالاسكندرية اتجاهاً شديد العداء . ويمكن ارجاع هذه الأحداث باحتمال أقرب إلى عام ٣٧٦ .

ويروي لنا روفينوس الآتي : « أشعلت ماوية ملكة القبائل العربية (Saracenorum gentis regina) نار حرب شعواء بفلسطين وبمنطقة الثغور العربية (Arabici limites) خرّبت فيها القلاع والمدن ونسفت القرى والأرياف ؛ ولقد أضعفت بهذا القتال الدائم القوات الرومانية وأهلكت الكثيرين واضطرت الباقين إلى الهرب »[٤٠] . ولم تقبل ماوية بعقد الصلح إلّا بشرط أن « يجري تنصيب قس من قبيلتها (genti suae) يدعى موسى اسقفاً » . وموسى هذا الذي عرف في حياته بأعمال البر والتقوى رفض أن يجري تنصيبه بالاسكندرية على يد لوقيا لأنه كان يعده هرطوقياً وأنّبه على اضطهاده الشديد لرجال الدين الأورثوذوكس وطالب بأن ينصّب على يد أولئك « الأساقفة الذين أُرسلوا إلى المنفى »[٤١] .

---

(٣٩) شرحه ، ٢٥ ، ٦ ، ١٠ ـ ١١ ، ص ٣٣٢ .

(٤٠) Eusebius Werke, Die Kirchengeschichte, herausgegeben von E. Schwartz, Bd. II, 2. Teil. Leipzig, 1908, p. 1010

(٤١) شرحه ، ص ١٠١٢ .

وهذه القصة التي يرويها لنا روفينوس لقيت رواجاً كبيراً لدى المؤلفين اليونان ، فسقراط يردّدها[٤٢] في روايته لأحداث الفترة بين عامي ٣٠٥ و ٤٣٩ . وسقراط هذا وُلد حوالي عام ٣٨٠ وكان شخصية علمانية ومن فقهاء القانون في البداية ، واتخذ لنفسه لقب الاسكولي [أي المدرسي] وعاش بالقسطنطينية ودوّن « تاريخه » في عهد الامبراطور ثيودوسيوس الثاني مستخدماً فيه عدداً من الوثائق التي أوردها حرفياً . وفي مقدمته للمجلد الثاني من كتابه يشير إلى أن مصنف روفينوس كان مصدره ، وإن عاب عليه وقوعه في الخطأ عند حسابه للسنين .

وتمثل أهمية خاصة المعلومات التي يقدمها سوزومينوس الذي يرجع نشاطه التأليفي إلى النصف الأول من القرن الخامس . وقد استرشد سوزومينوس بمصنفَيْ روفينوس وسقراط ، ولكنه وُجد تحت تصرفه سوى هذين مصادر في تاريخ ايران وفلسطين استقى بعضها من رواية شفهية[٤٣] ، مما يمكن الاستدلال عليه من تعبيره بلفظ « ويقال » التي يقدّم بها بعض رواياته . ومادته عن العرب الإسكينيين وعن اعتناقهم النصرانية وصلته عن طريق السماع . أمّا قصته عن ماوية فيوردها بتفصيل أكثر / مما لدى روفينوس وسقراط . وهي 37 تحوي تفاصيل مباشرة من الحياة اليومية . وبجانب هذا فقد أضاف إلى قصته استطراداً « تاريخيا » عن أصل بني اسماعيل ، وعن « السرقينيين » ، وعن بداية انتشار النصرانية بينهم . والفصل الثامن والثلاثون من المجلد السادس من « تاريخ » سوزومينوس يرد بالعنوان والتفاصيل الآتية[٤٤] :

« عن ماوية فيلارخة العرب وكيف نقضت الاتفاقية مع الرومان وما تبع من تجديدها على يد الأسقف موسى الذي تمّ تنصيبه أسقفاً لنصاراهم . وكذلك قصة بني اسماعيل والسرقينيين وآلهتهم وكيف بدأ تنصيرهم على يد فيلارخهم زوكوم » .

« في ذلك الوقت مات ملك العرب فنقضوا اتفاقياتهم التي كانوا عقدوها مع الرومان . وقد حكمت زوجه ماوية القبائل وخربت مدن فينيقية وفلسطين حتى مناطق مصر المأهولة المسماة بإقليم العرب والواقعة على الجانب الأيسر من النيل إذا ما أبحرت ضد التيار » .

« وعلى الرغم من أنّ الحرب قد تولتها امرأة إلّا أنه يستحيل القول بأنها كانت حرباً سهلة . وقيل إن هذا القتال كان ضارياً بالنسبة للرومان حتى أن قائد قوات فينيقية استغاث بقائد جميع الفرسان والمشاة بالمشرق ، فهزىء هذا من استغاثته وأمره بالتنحي عن القتال . ثم عبّأ صفوفه وتقدم نحو ماوية فشتت قواته ولم ينقذه قائد

---

(٤٢) شرحه ، ص ١٠١٠ - ١٠١٣

(٤٣) V.V. Bolotov, Lektsii po istorii drevnei tserkvi, t. I, SPb., 1907, str. 165-166; C. Schoo, Die Quellen des Kirchenhistorikers Sozomenos. Neue Studien zur Geschichte der Theologie und der Kirche, herausgegeben von N. Bonwetsch und R. Seeberg. Berlin, 1941, Bd 32, pp. 90, 92, 94.

(٤٤) Sozomenos, Historia ecclesiastica, I, VI, 38. ed. R. Hussey, t. II, Oxonii, 1860, p. 667.

قوات فلسطين وفينيقية إلّا بعد جهد جهيد ؛ ذلك أن هذا الأخير لمّا أبصر قائده الأعلى معرضاً للخطر رأى أن الالتزام بأوامره شيء لا يقبله العقل فأسرع إلى مواجهة البرابرة حتى يعطي الاستراتيج فرصة النجاة . أما هو نفسه فقد تراجع شيئاً فشيئاً رامياً بسهامه في وجه العدو ومتّقياً سهام العدو . وكثيرون من المقيمين بتلك النواحي لا يزالون يتذكرون كل هذا حتى اليوم ؛ كما أن العرب قالت فيه الأشعار » .

« ولمّا ثقلت وطأة الحرب على الرومان اضطروا إلى ارسال سفارة إلى ماوية يطلبون إليها الصلح ؛ ويقال إنها رفضت ما عرضه السفراء من عقد اتفاق للصلح مع الرومان ما لم يجر تنصيب أحد رعاياها المدعو موسى أسقفاً ، وكان آنذاك ينقطع للعبادة بالصحراء القريبة وعرف بالتقوى وبكراماته وأعماله الدينية . فلمّا نقل قادة الجيش هذا الشرط إلى الامبراطور وحصلوا على موافقته أخذوا موسى إلى لوقيا » .

ولكن موسى كما يروي روفينوس رفض تنصيبه أسقفاً بالاسكندرية على يد لوقيا الأريوسي وأدانه أمام الجميع ، وأصرّ إصراراً شديداً على موقفه . عند ذلك أضحى / من الضروري أخذه إلى الأساقفة الذين كانوا بالمنفى وهناك جرى تنصيبه أسقفاً على يدهم .

« ثم توجّه نحو العرب فعقد الصلح بينهم وبين الرومان ، وظلّ يعمل في الدعوة وفي تلقين أعداد كبيرة منهم بتعاليم النصرانية وذلك عندما أحس بأن القليلين منهم قد تشربوا هذا المذهب »[٤٥] .

وتنص روايات هؤلاء المؤلفين على أن هؤلاء العرب كغيرهم من بني جلدتهم في الأزمنة التالية كانوا يدخلون في بعض الأحيان في معاهدات مع الامبراطورية وأحياناً أخرى هدّدوا أمنها . وفي حوالي عام ٣٧٦ زار الإمبراطور ڤالنز أنطاكية ، وما كاد يغادرها حتى رفع العرب لواء الثورة .[٤٦] وإلى هذه الحقبة يرجع موت الفيلارخ زوج ماوية الذي لم يرد ذكر لاسمه في المتون ، فخلفته ماوية ولم يعوزها أن تجد ما تبرر به خرقها للاتفاقية . ويقول سقراط إن « العرب الذين كانوا خاضعين من قبل للروم ما عادوا يعترفون بالتبعية لهم »[٤٧] . أما سوزومينوس فإنه على أثر الملاحظة الواردة بشأن موت الفيلارخ تذكّر أن الاتفاقية قد نكثت أو فسخت ، ثم أعقب هذا أن أغارت ماوية على مدن فينيقية وفلسطين . ووقائع هذه الحرب التي دُعيت للاشتراك فيها قوات من الفرسان والمشاة تحت قيادة الاستراتيج ، تشير إلى أن الكتائب الرومانية المحلية وقائدها لم يكن بوسعهم مقاومة هذه الغارات . ولعل أبلغ دليل على شدة وطأة الحرب على جنود الامبراطورية هو أن وحدات « الهيجمون hegemon » قد وقفت في وجه العدو كي تمكّن الاستراتيج من الانسحاب . هذا

---

(٤٥) شرحه ، VI, 35, t. II, str. 671 .

(٤٦) A. Vasiliev, Notes on some Episodes concerning the Relations between the Arabs and the Byzantine Empire from the Fourth to the Sixth Century. Dumbarton Oaks Papers, No. No. 9 and 10, Cambridge, Massachusetts, 1956, p. 307.

(٤٧) Socrates, Historia ecclesiastica, IV, 36, ed. R. Hussey, t. II, Oxonii, 1853, p. 564.

الانطباع عينه عن هذه الحرب نجده في شتى المصادر . فروفينوس يصفها بأنها كانت « ضروساً » بينما يقول عنها سوزومينوس إنها كانت « عسيرة لا تبشّر بالنصر للرومان » . وكانت الملكة ماوية نصرانية ؛ وروفينوس - وهو أقدم المصادر - يقول إنها عربية الأصل لأنه يدعو موسى الذي طالبت بتنصيبه أسقفاً على العرب النصارى واحداً « من قبيلتها » (suae gentis) . ولا يشير سوزومينوس بوجه خاص إلى أصلها ، ولكن يبدو أن رأيه يتفق مع مقالة روفينوس . والمؤلفون المتأخرون وحدهم ، مثل ثيوفانيس ومن بعده ميخائيل السرياني ، هم الذين يعدّونها يونانية فثيوفانيس يقول : « ويقال إنها كانت نصرانية من أصل رومي وقعت في الأسر فاختُص بها ملك العرب لجمالها ، وبهذا وجدت طريقها إلى العرش »[٤٨] . وهذا الزعم نفسه يقول به ميخائيل السرياني[٤٩] .

39

ورغبة ماوية في تنصيب أسقف عربي الأصل « لنصارى قومها » أمر مفهوم[٥٠] ؛ ذلك أن الشعوب التي اعتنقت النصرانية كانت تطمح عادة إلى الاستقلال عند اختيارها لرجال الدين مما اضطر بيزنطة إلى الموافقة ، وذلك على غرار ما حدث من قبل مع الأرمن وما حدث من بعد مع الشعوب الصقلبية .

وتمشياً مع المصادر الأولى فإن شغف ماوية بالقتال وإخضاعها للعرب وإشتراطها تنصيب أحد العرب أسقفاً ، كل هذا ينسجم مع كونها تنتمي إلى قبيلة عربية . ولقد كشف موسى عن عداء شديد للآريوسية ورفض قبول التنصيب على يد لوقيا وطالب بتنصيبه على يد « الأساقفة » الذين أُرسلوا إلى المنفى[٥١] . وقد قام بنشر الدين الجديد وسط السكان العرب وأدخل الكثيرين منهم في النصرانية . وفي هذا الموضع من مصنفه يقدم سوزومينوس استطراداً عن تاريخ العرب فيروي عن « انحدارهم من صلب اسماعيل » وعن الطريقة التي اعتنق بها فيلارخ العرب زوكوم النصرانية واجتذب عدداً من بني جلدته إليها[٥٢] . ولم تقف مشاركة ملوك السرقيين في حياة الامبراطورية عند هذا الحد ، فسقراط يروي أن ماوية زوّجت ابنتها من الاستراتيلات ڤكتور ، ولهذا ظلت محافظة على الصلح الذي عقدته مع بيزنطة .

وفي عام ٣٧٨ خرج الأمبراطور ڤالنز في حملته ضد القوط التي عبر فيها بقواته العسكرية تراقيا كلها حتى بلغ هادريانوپوليس (أدرنة) . وفي المعركة التي لم يُحكم إعدادها وقيادتها تشتت فرسانه ومشاته ووجد الامبراطور نفسه منعزلاً مع عدد قليل من مرافقيه عن بقية جيشه فحاول الاختفاء في كوخ عن أعين القوط المتعقبين له ، غير أنهم كشفوا عن مخبأه فجمعوا حوله حطباً أضرموا فيه النار فاحترق الامبراطور وكل من وُجدوا معه[٥٣] . ولكن القوط لم يجنوا ثمار انتصارهم وانسحبوا مخربين في طريقهم تراقيا بأجمعها حتى بلغوا

(٤٨) Theophanes, Chronographia, ed. C. De Boor, Lipsae, 1888, p. 64.
(٤٩) Michel Le Syrien, Chronique, texte syriac, t. 4, Paris, 1910, pp. 151-152.
(٥٠) Socrates, Historia ecclesiastica, IV, 36, t. II, p. 564.
(٥١) Rufinus, Historia ecclesiastica, XI, 7, p. 1012.
(٥٢) Sozomenos, Historia ecclesiastica, VI, 38, pp. 672-673.
(٥٣) شرحه ، ٤٠ ، ص ٦٧٦ - ٦٧٧ .

ضواحي القسطنطينية . ويحدثنا ثيوفانيس عما خربوه من ربض المدينة (ta proasteia) .

واضطلع بمهمة الدفاع عن القسطنطينية أرملة ڤالنز التي تدعى دومنيكا Domnika ؛ وقد أفادت من وجود « عدد قليل من الحلفاء السرقينين الذين كانت ماوية قد بعثت بهم من قبل » ، وهم تلك الوحدات العربية التي أرسلت بها ماوية بوصفها حليفة لبيزنطة . ومن هذا يتبيّن أن العرب الذين ربطتهم معاهدة ببيزنطة قد قاموا بتنفيذ كافة الالتزامات الملقاة على عاتقهم والتي تتمثل في حفظ السلام مع الامبراطورية ومدّ يد العون العسكري إليها(٥٦) . ومما هو جدير بالذكر أن أفراد الشعب قد تدافعوا للذود عن المدينة « وهم متسلحون بكل ما وقع في أيديهم » . / وقد أمرت دومنيكا بدفع أرزاقهم من الديموسيون Demosion (الخزانة الامبراطورية) على غرار المكافأة التي كانت تدفع للاستراتيوتات(٥٧) [أي الجنود النظاميين] . ولقد كان لهذا الحافز أثره ، فقد أدّت الجهود المشتركة إلى رد العدو عن أسوار القسطنطينية .

ويروي اميانوس مارسيلينوس قصة الدفاع عن القسطنطينية على نحو يختلف شيئاً ما . فهو يقول إن القوط والهون واللان واصلوا تحركهم بعد هلاك الامبراطور ڤالنز(٥٨) حتى هددوا القسطنطينية ، وعند ذلك تقدمت الكتيبة العربية التي كانت تحت تصرف قواد الامبراطورية واشتبكت مع العدو في معركة طويلة حسم أمرها الذعر الذي أدخله في قلوب القوط تصرف أحد العرب حين اندفع إلى وسط جيش العدو بخنجره فقطع حلقوم أحد القوط ولعق دمه . وقد أثار هذا الاشمئزاز في نفوسهم فسارعوا إلى رفع الحصار والرحيل إلى المناطق الشمالية من شبه جزيرة البلقان(٥٩) . ومن الجائز أن يكون هذا الحادث الذي يرويه اميانوس مارسيلينوس قد وقع فعلاً ، ولكن من الطبيعي ألاّ يكون هو الذي اضطر جند البرابرة إلى رفع الحصار والرحيل . أما روفينوس وسوزومينوس فإنهما يتحدثان أيضاً عن الدفاع عن العاصمة الذي اشترك فيه سكانها المسلحون والجيش والوحدات العربية ، والذين بتعاونهم المشترك أجبروا القوط على التراجع . وهذا الوصف للوضع هو الذي يعد بحق متفقاً مع الواقع .

ولا يمثل تاريخ ماوية سوى حلقة من سلسلة العلاقات التي ربطت العرب الاسكينيين بالامبراطورية . وكانت سياسة الامبراطورية موجّهة نحو إحلال الوفاق ما أمكن مع القبائل العربية وربطهم بمعاهدات واتفاقيات تجعل منهم حلفاء حتى يكونوا في وضع يمكنهم من تقديم العون لها في كفاحها مع البرابرة الآخرين .

---

(٥٤) Theophanes, Chronographia, ed. Le Boor, v. I. Lipsiae, 1883, p. 65.

(٥٥) Sozomenos, Historia ecclesiastica, pp. 678-679.

(٥٦) Socrates, Historia ecclesiastica, I, t. II, p. 574.

(٥٧) شرحه

(٥٨) Ammianus Marcellinus, Rerum gestarum libri....., 31, 13, 12-17, p. 520.

(٥٩) شرحه ، ٣١ ، ١٦ ، ٣ - ٧ ، ص ٥٢٧ .

واسم ماوية قد عرف أيضاً في المصادر العربية . فقد روى حمزة الاصفهاني أن اللخمي امرأ القيس بن عمرو بن عدي ورث أباه عمراً بن عدي « وأمه ماوية بنت عمرو أخت كعب بن عمرو الأزدي »(٦٠) . وهو يذكر أن امرأ القيس قد أمضى أربعة عشر ومائة عام في الحكم ، تزامنت العشرون عاماً وخمسة الأشهر الأخيرة من حكمه مع شابور بن هرمز (٣٠٩ ـ٣٧٩) . وهناك أساس قوي للافتراض بأن هذه المقابلة الزمنية الأخيرة هي وحدها التي تتفق مع الواقع التاريخي ، أمّا أزمنة حكم الساسانيين السابقين فقد وضعت في وقت واحد مع حكم امرىء القيس بهدف ملء الفترة الزمنية الطويلة التي لم يحفظ لنا العرب عنها أدنى أخبار تشير إلى شخص بعينه يكون قد تولى الحكم من بين اللخميين . وإذا ما وضعنا في حسابنا هذه الاعتبارات ، إلى جانب حقيقة أن/ امرأالقيس اللخمي مات في عام ٣٢٨ قريباً من بصطرى ، لتبيّن لنا وجود اختلاف مع ما تورده المصادر اليونانية ـ اللاتينية لأن موت زوج ماوية الذي خلفته كفيلارخ للعرب إنما يرجع إلى عهد ڤالنز ، كما وأن ثورة العرب قد حدثت في عام ٣٧٦ بالذات . وزيادة على هذا فقد كان لماوية ابنة زوجتها من القائد ڤكتور ، فلو حدث وكان لماوية ابن فمن الطبيعي أنه كان سيرث أباه لا أن ترثه الزوجة . وعلى الرغم مما يحيط بالأنساب العربية من خلط واضطراب فمن الجائز أن ماوية كانت أماً لامرىء القيس الثاني الذي يرد ذكره لدى حمزة الاصفهاني ، وإن كان هذا يحتاج إلى الكثير من الترخّص في التفسير التاريخي . والأقرب إلى الاحتمال هو الافتراض بأن زوج ماوية كان ينتمي إلى فرع جانبي من اللخميين ، هذا بينما حملت ماوية اسم عشيرتها الأزد على نحو ما تبيّن من رواية حمزة الاصفهاني التي أومأنا إليها قبل قليل . ويدعو الطبري أم المنذر بن امرىء القيس باسم مارية ، بينما يرد اسمها لدى حمزة على أنها ماوية . ويقف نولدكه من هذه الأنساب موقف الارتياب(٦١) . وهذه الأسماء تعود إلى القرن السادس لأنها ترجع من الناحية الزمنية إلى عهد الملك قباد .

وقد كان للعامل العقائدي أهمية بالغة في سياسة الامبراطورية الرامية إلى إحلال التفاهم والتقارب مع « الشعوب البرابرة » . فالنصرانية سنحت لها الفرصة للانتشار بصورة أوسع بوصفها العقيدة الرسمية للامبراطورية الرومانية الشرقية . واعتناق بعض القبائل والعشائر العربية للنصرانية لم يرتبط بأية دعوة خاصة ، وفقاً لما أثبتته المصادر ، بل ويبدو وكأن الصدفة لعبت دوراً في ذلك .

هذا وقد سُمّي العرب من حيث الأصل « بني اسماعيل » نسبة إلى جدهم الأعلى اسماعيل بن ابراهيم من جاريته هاجر(٦٢) . وبناءً على رأي سوزومينوس فإن العرب دانوا في بداية أمرهم بالشريعة التي أخذوها من العبرانيين القدماء ، ولكنهم لم يلبثوا أن بدّلوها بشريعة الشعوب المجاورة لهم فقدّسوا آلهة تلك الشعوب وتخلّقوا بأخلاقها . فلمّا التقوا فيما بعد باليهود انتقل عدد منهم من جديد إلى عادات اليهود . وبعدُ ،

---

(٦٠) Hamza Ispahanensis, Annales, t. I, p. 100; t II, p. 78.

(٦١) شرحه ، الجزء الأول ، ص ١٠٥ ؛ الجزء الثاني ص ٨٢ Nöldeke-Tabari, P.169 .

(٦٢) Sozomenos, Historia ecclesiastica, VI, 38, p. 671

فهذا تصور أوّلي للأشياء وإن كان لزاماً علينا ألا نبصر فيه أفكار سوزومينوس بقدر ما يجب أن نبصر فيه انعكاساً للأوضاع التي يتحدث عنها .

ويواصل سوزومينوس روايته فيقول إنه قُبيل « المَلَكية الحالية » شرع العرب في « اعتناق النصرانية »[٦٣] . فما هي تلك « المَلَكية » التي يشير إليها سوزومينوس ؟ هل يعني بها العهد الذي دوّن فيه ، أي عهد حكم ثيودوسيوس الأصغر [الثاني]أم العهد الذي يتحدث عنه في ذلك الفصل من كتابه ، وهو عهد الامبراطور ڤالنز ؟ على أيّ من الحالَيْن ، واستناداً على هذه الروايات ، فإنه يمكن القول في اطمئنان بأن اعتناق العرب للنصرانية / يجب الرجوع به إلى النصف الثاني من القرن الرابع .وقد تمّ تنصير القبائل العربية وفقاً لرأي سوزومينوس على يد رجال الدين والرهبان الذين كانوا يعيشون في الفيافي لأن العرب دخلوا معهم في علاقات وثيقة . وقد قبل زوكوم وهو فيلارخ إحدى هذه القبائل أن يعمّد حين وُعد بأنه سيولد له مولود ذكر ، وتبعه في هذا سائر أفراد قبيلته . « ويقال إنه لهذا السبب حالفَ السعد تلك القبيلة فزاد عددها وأصبحت قوية يخشاها الفرس وغيرها من العرب »[٦٤] .

والقبيلة العربية التي ترد الإشارة إليها هاهنا لم يُذكر اسمها ، ولكن اسم زوكوم يرد عند ثيوفيلاقط سيموقطا . وفي عام ٨٥٦ خلال الحرب التي نشبت بين بيزنطة والفرس ، وعند الكلام على الصدام الذي وقع عند قلعة ماردين ، يرد ذكر « فيلارخيْن في جيش حلفاء الروم » أحدهما أوشر والآخر زوكوم .[٦٥]. وهذا الأخير يجب ربطه بالاسم العربي ضُجعم[٦٦] على حد قول كل من جتشميد Gutschmid ونولدكه[٦٧] . وهذا البطن من قبيلة سليح هم الذين تقاتل معهم آل جفنة عندما سعوا للحصول على الملك . ويمكن أن تُعدّ أربعة أجيال متتالية حتى نصل إلى آخر نسل لذلك البطن وهو ضجعم هذا الذي تقاتل أخوه زياد بن الهبولة مع الكندي حُجر آكل المُرار جدّ الحارث[٦٨] . وبهذا فإن الرواية العربية تجد كل التأييد من الرواية اليونانية .

وإذا ما أمعنّا النظر في مادة المصادر التي تتحدث عن العرب في القرن الرابع لاستطعنا الخروج بنتيجة مفادها أن القبائل العربية الشمالية لم تكن متجانسة ، لا في مستوى تطورها الاجتماعي ولا في أسلوب حياتها . فالبعض منها كان يعيش في حالة بدائية من حيث التنظيم القبلي حيث كانت وظيفة كل أفراد القبيلة من الذكور هي القتال ؛ ويذكر عنهم أنهم لم يعرفوا أساليب الحياة الحضرية بل كانوا في حركة دائبة يتنقلون من موضع إلى

(٦٣) شرحه ، ص ٦٧٢
(٦٤) شرحه ، ص ٦٧٣
(٦٥) Theophylactus Simocatta, Historia, II, 2 ed. C.De Boor, Lipsiae, 1887, P.72 (ترد بالمتن في حالة المفعول به) .
(٦٦) Hamza Isphanensis, Annales, ed. I.M.E. Gottwaldt, Petropoli, t. I, 1844, p. 115; Lipsiae, 1848, t. 90.
(٦٧) Th. Nöldeke, Die Ghassanischen Fürsten....,p.8.
(٦٨) شرحه ص ٩

موضع ، طعامهم اللبن واللحم اللذان يمثلان الغذاء الرئيسي للبدو . ووجد إلى جانب هؤلاء قسم آخر من القبائل العربية ظلّ سائراً في طريق التحضّر والاستقرار . صحيح أن المراكز الحضرية القديمة مثل البطرا وتدمر قد انهارت ، إلاّ أن المقطوع به أن السكان الأصليين لمدن القوافل هذه كانوا من العنصر العربي . أما على الطرق ا لكبرى التي كانت تصل بين شتى دول الشرق الأدنى حيث نزل العرب وثبّتوا أقدامهم في مواقع مختلفة منها ، فإنهم قد تعرضوا لأثر الحضارات القديمة للشعوب المجاورة مثل اليونان والفرس ، وكالسريان والأراميين إلى حد محدود . وتقف لغة الأنباط أهل البطرا وكتابتهم / وما خلفوه أيضاً من آثار ، تقف كلها شاهداً على تطور الحرف والتجارة بين ظهرانيهم . وكذلك المعابد والأبنية السامقة بتدمر وما بها من رقوم وقبوريات ، كلها تقف برهاناً ساطعاً على أثر الحضارة اليونانية وغلبتها على هذا المركز الذي كانت لغته وكتابته هي الأرامية . وهذه المدن كغيرها من المدن الواقعة على طرق القوافل وقعت في يد الرومان فطوتها ذيول النسيان ، ولم تلبث أن نشأت مراكز جديدة لاستقرار الرحّل .

وأميانوس مارسيلينوس على علم بالقبائل العربية التي أبرمت معاهدات مع القوى الكبرى بالشرق الأدنى ؛ كما يتحدث سقراط وسوزومينوس عن مشاركة هذه القبائل في حياة بيزنطة . هذا وقد كان من أثر نفاذ النصرانية إلى وسط العرب الإسكينيين أن مهّد لهم السبيل للتعرف على كل مقوّمات المدنية كالكتابة والكتب والأشياء المادية والطقوس والمفاهيم الجديدة العميقة ؛ الأمر الذي قلب كل تصورهم للحياة . هذا ، وقد استطاعت الدول الكبرى المهيمنة على الأوضاع في الشرق الأدنى من خلال اتصالها بقسم من القبائل العربية ، أن تؤثّر عن طريقها على القبائل الأخرى المستقلة التي كان تعطشها للقتال يمثل على الدوام خطراً بالنسبة لحدودها . وفي القرن الرابع بدأت الخطوط الرئيسية لسياسة بيزنطة وايران نحو العرب تتضح بالتدريج ، وهي تلك السياسة التي تحولت في القرنين الخامس والسادس إلى حقيقة واقعة .

العرب في فلسطين وسورية

إن المعلومات عن العرب قبل الإسلام التي تتضمنها المصنفات التاريخية البيزنطية ذات أهمية خاصة ، لأنها هي وحدها التي من شأنها أن تعيننا على تتبع التسلسل الزمني للأحداث وعلى إثبات الوقائع بطريقة لا تبعث على الشك ، وذلك من خلال الضباب الذي ران على الرواية المتواترة للقصص والشعر الجاهلي الموجودة في بطون المؤلفات العربية .

والمصادر البيزنطية للقرنين الرابع والخامس تعكس اتجاهين سياسيين للامبراطورية فيما يتصل بالعرب ، أما أحدهما فيهدف إلى إخضاعهم وربطهم بمعاهدات تتم إمّا عن طريق القوة أو بالطرق الدبلوماسية . وأما

الإتجاه الآخر فهو أن تصبغهم بحضارتها ، وعلى وجه خاص إدخالهم في عقيدتها النصرانية ؛ وهو فعلاً ما بذلت - فيه الامبراطورية جهدها لتقريب العرب إليها مثلما فعلت مع غيرهم من الشعوب « البرابرة » .

وقد حفظ لنا مؤلف من القرن السادس هوكرلس الاسكيثوبولي في مصنفه في « سِيَر » رهبان فلسطين مادة عن القبائل العربية ذات معطيات قيّمة عن أوضاعها الاجتماعية وأسلوب حياتها وعلاقاتها السلمية مع السكان من الحضر . وملخ الفيلادلفي ، وهو مؤرخ وسفسطائي ، ترك لنا كذلك في مصنفه بعنوان « البيزنطينيات » Byzantiniaka الذي وصل إلينا في هيئة نقول قصة استيلاء قبيلةكندة على جزيرة يوتابه وعن الطريقة التي أصبح بها « حاكم » هذه القبيلة المدعو أمورقس [أي امرؤ القيس] فيلارخاً لعدد كبيرمن القبائل العربية . وعلى نحو ما فعل كرلس فكذلك حفظ لنا ملخ مادة تعين أيضاً على استنباط بعض الحقائق / عن المصالح الاقتصادية للقبائل العربية لم تكن معروفة جيداً ولم يجر تمحيصها في بحوث سابقة .

وفي النصف الأول من القرن الخامس دخل بدو الشرق الأدنى في اتصال مع ممثلي الرهبانية * ، وهي حركة نصرانية انبعثت في القرن الرابع . وقد جمع كرلس الاسكيثوبولي في معرض وصفه لحياة الرهبان والنسّاك بفلسطين مادة وفيرة بصورة خاصة عن العرب آنذاك . وقد أصبحت اسكيثوبول [بيسان] وهي مسقط رأسه ومرتع طفولته وصباه عاصمة لولاية فلسطين الثانية منذ بداية القرن الخامس ، وكانت دوامـاً مهداً للفتن والاضطرابات . وقيل إنه عندما رفع أهل السامرة راية العصيان في عام ٥٢٩ م[٦٩] بسبب ما لحقهم من عنت واضطهاد تم إخماد تمردهم بقسوة بالغة ؛ وقد أحرق أهالي اسكيثوبول في الساحة العامة واحداً من ألمع أبناء السامرة ويدعى سِلوان وذلك عندما خاطر بالظهور في مدينتهم « دون إذن من الامبراطور »[٧٠] .

وليس معلوماً على وجه الدقة عام ميلاد كرلس ، غير أنه في سنة ٥٣٠ عندما زار سابا مدينة اسكيثوبول للمرة الثانية كان كرلس في نحو السادسة من عمره . وقد ترك سابا الذي كان في التسعين من عمره آنذاك أثراً قويا على كافة أفراد الأسرة التي كان كرلس ولدها الوحيد ، وحدّد هذا بالتالي مسيرة حياته إذ اجتذبه إلى الرهبانية . وكان والد كرلس من فقهاء القانون (اسكولياً) ، لذا فقد نال الابن تعليماً جيداً وإن كان من حسن

* الرهبان ـ مشتقة من رهب يرهب رهبة بمعنى خاف ، وسمي الراهب راهبا لأنه يرهب الله ويخشاه ؛ والراهب هو المتعبد . وترهب الرجل إذا صار راهبا ، والترهب هو التعبد في صومعه والجمع رهبان والاسم منه الرهبانية . والرهبان هم رهبان النصارى ، وفي الحديث « لا رهبانية في الاسلام » ، وأصل الرواية « لازمام ولا حزام ولا رهبانية ولا تبتّل ولا سياحة في الاسلام » .وكانوا يترهبون بالتخلي عن اشغال الدنيا وترك ملاذها والزهد فيها والعزلة من أهلها وتعمد مشاقها . وفي الحديث « عليكم بالجهاد فإنه رهبانية أمتي » . هذا وقد بدأت الرهبنة في الأصل بصحاري مصر على يد انطونيوس وفولى المصريين ، فهما أول من أظهر لبس الصوف والتخلي في البراري ـ المترجم .

(٦٩) Procopius Caesarensis, De aedificiis, II. 24. t. p: Kyrillos von Skythopolis. ed. E. Schwartz. Leipzig. 1939: Vita. Sabae. 70, p. 172

(٧٠) Vita Sabae. 61, p. 163; 70. p. 172

الحظ كما قال أحد الباحثين أنه « لم يدرس البلاغة »[٧١] التي كانت بلا ريب ستجد طريقها إلى روايته فتحرمها من بساطة العرض ووضوحه .

ومما لا شك فيه أن ثقافته العامة ومعرفته بالأدب اليوناني وتقاليده قد جعلت من كرلس قاصاً ماهراً عرف كيف يوازن بين الوقائع ويصوغ خيط روايته باعتدال وتناسق ، كما أن بساطة عرضه وجَوْدة سرده تقفان شاهداً على معرفته بخيرة نماذج النثر اليوناني . وفي عام ٥٤٣ بعد أن أصبح راهباً نجده يلتحق بدير القديس أوفميوس بفلسطين . وعلى الرغم من أنه كان قد مرّ أكثر من ثمانين عاماً على موت مؤسس ذلك الدير إلّا أن كرلس قام هناك بجمع تفاصيل عن حياته من أفواه الرهبان الذين كانوا على معرفة بأخباره وعاشوا في زمن صحابته الأقربين وتلامذته .

وقد دوّن كرلس سيرةالقديس اوفميوس بعد عام ٥٥٤ وذلك حين انتقل إلى صومعة أخرى وعاش في قلاية* منفصلة[٧٢] . وأعقب هذا بأن قام بتدوين سيرة القديس سابا وهي مصنفه الثاني ، ثم شفع ذلك أخيراً بتدوين سيرة حياة يوحنا الصوفي وغيره من الرهبان . / وفي هذه السِيَر جميعاً ، خاصة سيرتي اوفميوس وسابا ، يرد غير مرة ذكر القبائل العربية التي كانت تترحل ببادية فلسطين ودخلت في علاقات مع الرهبان النازلين بها . ولقد عرف جانب من العرب حياة الاستقرار ودخلوا في علاقات شخصية مع الأديرة . وهذا اللون من العلاقات وجد تجاوباً مع المصالح السياسية للامبراطورية البيزنطية التي كانت تعمل جاهدة في تدعيم وضعها بالشرق الأدنى وذلك بربط العرب بالتزامات من شأنها أن تسمح لها بالاعتماد عليهم . وكما حدث مع الامبراطورية الرومانية من قبل فإن وريثتها بيزنطة قد سارت على سياسة امتدت لقرون طويلة ترمي إلى « الانفتاح » و « التفاهم والصداقة » مع إحدى المجموعات البدوية بغرض أن تعتمد عليها في إخافة القبائل الأخرى التي ظلت بمعزل وفي حالة عداء ، ولكي تقوم بتسوية المشاكل بينها وبينهم . ولأن العرب قد فقدوا مراكزهم المنتظمة مثل تدمر والبطرا فإن طرق القوافل والمدن أصبحت معرّضة للمخاطر التي تتمثل بوجه خاص في غارات البدو .

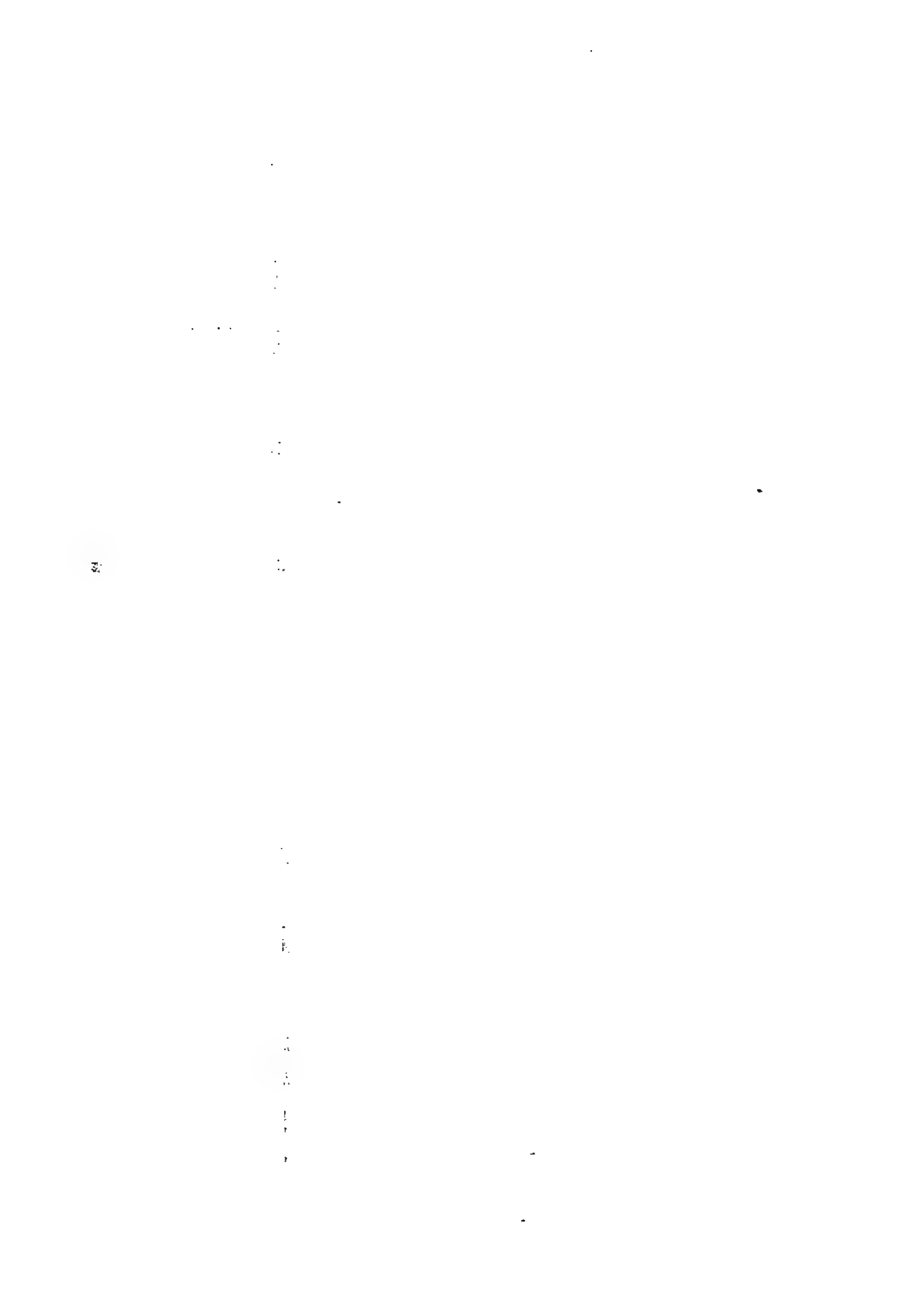
ولما كانت مناطق الحدود بأرض الجزيرة وبادية الشام وفلسطين والتي في جوار مباشر مع الحدود الداخلية لبيزنطة ، معرضة لخطر الغارات فقد بذلت شتى المحاولات لاجتذاب العرب من ذوي النوايا الحسنة ومن الذين وقعوا تحت النفوذ الحضاري للامبراطورية للتعاون معها . وغاية القول أنه لم يثبت أن وُجِّهت سفارات خاصة أو وفود إلى العرب ، غير أن الروابط التي نشأت بسبب العلاقات الشخصية تم توطيدها ، كما

(٧١) Kyrillos von Skythopolis, p. 409

* قلاية وجمعها قلال وقلالي هي الغرف الصغيرة الموجودة بالأديار ، وأصلها من اليونانية Kell ـ المترجم

(٧٢) شرحه ص ٤١٣ ؛ Genier, Vie de St Euthyme Le Grand (377-473), Paris, 1909, pp.XIV-XV

حواضر سورية وطرقها
قبل الإسلام
طرق عن المصادر اليونانية واللاتينية
طرق عن المصادر العربية
الرها
حران
حلب
الرصافة
قرقيسيا
تدمر
حمص
حماة
بعلبك
دمشق
الطريق إلى العراق



لعبت العقيدة في هذا الشأن دوراً مهماً .

ويقدم لنا كرلس الاسكيثوبولي قصة طريفة ومنمّقة عن أحد فيلارخات العرب وأسرته ترجع إلى الربع الأول من القرن الخامس . وقد حصل كرلس على تفاصيل هذه القصة من « الآباء القدامى » بدير اوفميوس كما يذكر . غير أن أكثرها تفصيلاً « وصدقاً » هي الرواية التي حصل عليها من حفيد طريبون* الأكبر وسميّه المدعو طريبون الأصغر . وكان طريبون الأكبر ابناً لفيلارخ العرب اسبيت الذي انتقل إلى جانب الروم ؛ أما طريبون الأصغر فكان « أشهر فيلارخ » للسرقينيين بالولاية وهو الذي قصّ تفاصيلها لكرلس . ومفاد القصة هو أن طريبون الأكبر جد القاص كان قد مرض مرضاً شديداً ؛ ولا يرد ذكر لاسم أبيه لأن لفظة اسبيت ليست سوى لقب ، وقد ترجمه المؤلف إلى اليونانية بلفظ « القائد » (هيبارخون)[٧٣] . وكان لقب « اسبيت » يطلق بصورة خاصة على قائد الخيّالة[٧٤] . وفي ذات الوقت فإن اسبيت ** اسم لفرع من فروع بيت الارشاكيين / الحاكم بايران والذين حملوا أيضاً اسم « پهلو » ، أي أنهم كانوا ينتسبون إلى قبيلة البارثيين الحاكمة[٧٥] .

وتفاصيل القصة كما ترد في سيرة القديس أو فميوس هي كما يلي : فقرب نهاية حكم خسرو*** يزدجرد الأول الذي مات عام ٤٢١[٧٦] بدأ اضطهاد النصارى بايران وصدر الأمر إلى فيلارخ العرب بأن يعترض طريق الهاربين منهم من ايران إلى أراضي الدولة البيزنطية . غير أن «الفيلارخ اسبيت الذي كان يحكم آنذاك » كان متعاطفاً مع النصارى ولذا فإنه لم يعق مرورهم بل قام بمعاونتهم على الهرب[٧٧] . ثم إن الأسبيت « ساوره الشك في نوايا الملك يزدجرد » فأخذ معه ابنه المريض طريبون « وجميع أهل بيته ومتاعه وهرب إلى الرومان » . وكان استراتيلات المشرق آنذاك هو اناطوليوس Anatolious فقبلهم وأخضعهم « لشروط اتفاقية مع الروم » . بل إنه « فوّض إلى الاسبيت فيلارخية السرقيين الخاضعين للروم بعرابية » . وبهذا فإن الاسبيت « نصب مخيمه في عرابية »[٧٨] .

ولقد أثيرت الشكوك حول صحة هذه الأقوال ، وما إذا عُرضت حقاً على الاسبيت « فيلارخية عرابية» . ويغلب على الظن أن المقصود هو فيلارخية « مخيمات » ولاية فلسطين الأولى ، وأن كرلس إنما أخذ

---

* يقابلنا في المصادر العربية في صورة أطربون وأطرابون وأرطبون أيضاً ، وفسرت على أنها البطريق أو رئيس الروم . ومن الواضح أنها اللقب الروماني « التريبون » Tribunus ـ المترجم (٧٣) Kyrillos von Skythopolis, Vita Euthymii, p. 18

(٧٤) A. Christensen, L'Iran sous Les Sassanides, Copenhague, 1944, P. 103 . (وله ترجمة عربية بقلم الدكتور يحيى الخشاب ظهرت بالقاهرة منذ أمد ليس بالقصير ـ المترجم) .

** هو نفس اللفظ الذي نلتقي به في عهود الخلافة الاسلامية في صوره « اصبهبد » و« اسبيذ » أي قائد الفرسان ، وبالتالي قائد الجيش . وهو مشتق من لفظ « اسب » الفارسية بمعنى الحصان ـ المترجم .

(٧٥) شرحه ، ص ١٠٨ .

*** خسرو هي الصورة الفارسية للإسم . أما الصورة العربية فهي كسرى ؛ ولكنها لم تلبث أن أصبحت لقباً عاماً لجميع ملوك الساسانيين (وجمعها أكاسرة) . وذلك نفس ما حدث مع اسم قيصر الذي أصبح بالتالي لقباً لجميع ملوك الروم (وجمعها قياصرة) ـ المترجم .

(٧٦) شرحه ص ٢٦٩ . (٧٧) شرحه ص ٢٦٩ . (٧٨) شرحه ، ص ١٩ .

الوضع الذي تشكل مؤخراً في القرن السادس فقام بتعميمه على ظروف زمان أسبق وهو القرن الخامس[٧٩] ، ذلك أنه لم يكن من الميسور أن يكون له حق التصرف في ما عدا « المخيمات » (بريمبولوى peremboloi) ، الأمر الذي يؤكده أن الاسپيت حينما أصبح أسقفاً فيها بعد عرف باسم « بطرس أسقف المخيمات » (بطرس تون بريمبولون ابسكوپيس)[٨٠] . ذلك أنه من العسير أن نتصور زعيماً عربياً يُمنح السلطة على مدن ما ولمّا يمض وقت طويل على قدومه من الفرس . ويغلب على الظن أنه كان يتحكّم في الرحّل وشبه الرحّل من العرب المقيمين بالمخيمات .

وبسبب مرض ابنه طريبون توجّه الفيلارخ إلى « الأبوين الـوقـورَيْن اوفميـوس وثيـوقـطيست » Theoctistus ، المقيمَيْن بالدير الذي بناه اوفميوس . وبعد شفاء طريبون ارتبط الفيلارخ وأهل بيته برباط الصداقة مع اوفميوس « الذي لقّنهم أصول الديانة وعمّدهم كافّة »[٨١] . وقد جرى التعميد على يـده في « حوض صغير » أمر ببنائه في ركن من إحدى المغارات و « لا يزال قائماً إلى اليوم »[٨٢] . / وعند تعميده اتخذ الاسپيت اسم بطرس ، وعُمّد معه في الوقت ذاته أخو زوجه ماريس » ثم « طريبون والباقون جميعاً »

47

وكان الفيلارخ وأخو زوجته أيضاً يعدّان من الأغنياء أهل اليسار وينتسبان إلى الأسر العربية المرموقة التي كانت تتمتع بالسلطة وتتحكم في القبائل البدوية . وقيل عن الفيلارخ إنه عندما توجّه إلى أراضي الـدولة البيزنطية أخذ معه ممتلكاته ؛ أمّا أخو زوجه وهو ماريس خال طريبون فقد ظل بعد تعميده مقيماً بالدير « ووهب سائر ممتلكاته ، وكانت تمثل الشيء الكثير ، لبناء الدير وتوسيعه »[٨٣]. ولفظ « خريماتا » chremata المستعمل في هذا الموضع يمكن أن يعني ما يمتلكه الإنسان ، ولكنه يستعمل أكثر في معنى النقود .

هذا وقد نزلت أسرة الفيلارخ والعرب المرافقون له بمواضع قريبة من دير اوفميوس . ولحين من الوقت تغيّب اوفميوس في زيارة مواضع أخرى . « فلمّا ترامى الخبر برجوعه بعد غيبة طويلة جاء إليه بطرس ومعه بقية السرقينيين من رجال ونساء وأطفال ورجاه أن يتلو عليهم صلاة الخلاص »[٨٤] . فباركهم أوفميوس ، ثم أخذهم إلى « الدير الأسفل » وهناك جرى تعميدهم وأمضى ثمانية أيام مع العرب حيث كانوا مقيمين . وكان هذا الموضع قد شيده الاسپيت بطرس وأنفق في ذلك أموالاً طائلة . « وقد أحضر بطرس الصنّاع وبنى حوضاً كبيراً بفوهتين لا يزال إلى اليوم بالحديقة وبنى إلى جواره مخبزاً ، كما بنى ثلاث قلال من أجل الآباء

---

(٧٩) R. Devreesse. Le patriarcat d'Antioche. Paris. 1945. p. 247

(٨٠) Vita Euthymii. p. 25

(٨١) شرحه ، ص ٢١ .

(٨٢) شرحه ، ص ٢٠ ـ ٢١

(٨٣) شرحه ، ص ٢١

(٨٤) شرحه ، ص ٢٤

المقدّسين ومنارة لصومعة أو بيعة وسط القلالى »[٨٥] . وهذا النوع من البناء في المواضع الصحراوية اقتضى بطبيعة الحال تكاليف باهظة اضطلع بها الفيلارخ .

غير أن اوفميوس لم يشأ أن يبقى هاهنا لأنه « كان يحب العزلة كثيراً » . ولكنه أشار على العرب بموضع قريب يقع بين ديرين وقال لهم : « إذا ما أردتم أن تكونوا فعلاً على مقربة منيّ فابقوا هنا »[٨٦] . وكانت بيعة العرب ومخيمهم محاطة بحاجز أو سياج . وهكذا قام في ذلك الموضع شيء أشبه بالمعسكر يتألف من الخيام وتتوسّطه البيعة . ولمّا كانت رواية كرلس تتصل بعرب غرباء قدموا وعُمّدوا فمن الجائز أن يكونوا بدورهم قد عرفوا الاستقرار وانصرفوا إلى تربية الماشية أشبه ما يكونون في هذا بالحضر . ولقد جهد اوفميوس في توثيق الصلات مع العرب ممن اعتنقوا النصرانية/فعينّ لهم قسساً وشمّاسة . وعلى نحو ما حدث مع ماوية فقد كان « لعرب المخيمات » الرغبة الشديدة في أن يكون لهم أسقف من بينهم . وهذا عين ما حدث . فقد أرسل اوفميوس إلى يوڤينال بطريرك اورشليم بالأسقف بطرس والد طريبون «الذي كان قد تم تنصيبه للمرة الأولى بفلسطين بصفة أسقف للمخيمات » .[٨٧] . ومن الواضح أن بطرس كان رأس أولئك العرب الرحّل الذين درجوا على التجوال بولاية فلسطين ونصب مخيماتهم داخل حدودها ،ـوهي الولاية التي كانت تحمل رسمياً اسم فلسطين الأولى .

وفي خاتمة هذه القصة يذكر كرلس الاسكيثوبولي مرة أخرى أن أكثرية البرابرة السرقينيين قدموا إلى اوفميوس فلقّنوا التعاليم وعمّدوا ، ولا شك أن هذه الروابط اتفقت مع مصالح الحكومة والكنيسة البيزنطية التي دعّمت بهذا وضعها بين العرب . وبهذا يختتم قوله فيما يبدو المصدر الذي يعتمد عليه كرلس الاسكيثوبولي ، لأنه يقول « وهذا هو ختام القول بشأن السرقينيين » .

وإذا كان بطرس قد أصبح أسقفاً للعرب فإن ابنه طريبون (الأكبر كما يدعوه كرلس الاسكيثوبولي) شغل منصب الفيلارخ . وبعد شفائه من مرضه (وكان أبوه قد أحضره معه من ايران مريضاً) تزوج طريبون « بفتاة من أهله » وولد له منها ثلاثة أولاد كان أكبرهم بطرس الذي وُلد له طريبون الأصغر ؛[٨٨] وهذا الأخير هو الذي قصّ لكرلس الاسكيثوبولي تاريخ أسرته مفصِلاً القول بصورة خاصة على تاريخ جده طريبون الأكبر .

وثمة حادث من أحداث حياة طريبون الأكبر فيلارخ العرب لا تخلو من طرافة لأنها تلقي الضوء على

---

(٨٥) شرحه

(٨٦) شرحه

(٨٧) شرحه ، ص ٢٥

(٨٨) شرحه ، ص ٣٦

الخلافات التي لم يكن في الوسع تلافيها والتي انبعثت في علاقات القبائل العربية بعضها ببعض ، أو في علاقاتها مع ممثلي الامبراطورية البيزنطية . فقد اضطر طريبون بسبب أمور عاجلة إلى التوجه إلى بصطري حيث وجد نفسه في وضع عصيب ، ذلك أنه وقع فريسة لمؤامرة « دبّرها » أو « أعدّها » له شريكه في الفيلارخية (السينفيلارخ) . ولم يرد ذكر للتهمة التي وُجّهت إليه ، غير أن المؤامرة انتهت بتسليمه هناك إلى « السلطات » حيث تم التحفظ عليه بعضاً من الوقت[89] . ويبدو أن الفيلارخ الشريك لم يكن على وفاق مع طريبون الذي وجد نفسه رهين الحبس . وهذا الحادث يحتمل أن يكون قد وقع في عام ٤٥٨ أو ٤٦٠ ، وبذا فإن فيلارخية طريبون تكون وقعت في منتصف القرن الخامس . إلاّ أن/وضع الفيلارخ المشارك وحقوقه غير واضحة تمام الوضوح وإن كان قد برهن بما فيه الكفاية على أنه منافس قوي لأنه أرسل بطريبون إلى الحبس بتهمة غير صحيحة فيما يبدو .

فلماّ علم اوفميوس بذلك كتب إلى انتيباتر Antipater أسقف بصطرى وبعث بكتابه مع رسول يدعى اسطفان ، وكان أخاً لغاين أسقف يامنه . فتدخل انتيباتر وعمل على إطلاق سراح طريبون وأرسل به إلى اوفميوس مخفوراً . ونستطيع أن نستنبط من هذا أن الفيلارخ المشارك كان يمثل خطراً على الفيلارخ العربي ، مما اقتضى معاونته وحمايته من مخاطر أخرى . لذا فقد أعيد طريبون إلى اوفميوس « محاطاً » بالجند . وقد تناول كرلس الحديث مرة أخرى في سيرة كرياكوس عن طريبون وعن علاقاته مع اوفميوس الذي عمّده وعالجه من مرضه[90] .

وفي القصص الواردة في « سيرة اوفميوس » يتبيّن في جلاء ما اتصفت به حياة العرب من البساطة والبداثية . فقد كان موضع إقامتهم يتألف من خيام (اسكيناى) خفيفة الحمل وسهلة الطي ، تحيط بها حظيرة أوسياج يسبغ على الموضع هيئة المعسكر، غير أنه إلى جانب هذه المحلة البداثية التي لا تكاد تشير إلى وجود حياة حضرية يمكن وصفها بالاستقرار فإننا نلمح الرغبة الجارفة لدى هؤلاء الأعراب في حياة أكثر استقراراً تدور حول عَمْر أو كنيسة . وفوق هذا فهناك المغزى الاقتصادي الذي تمثله ظاهرة الحوض أو البئر ذات الفوهتين . وفي مثل ظروف الصحراء التي ليس بها ماء كان الحوض يشغل المكان الأول في أي جانب من جوانب الحياة الاقتصادية خاصة في تربية الماشية . غير أن المتن يتحدث أيضاً عن شيء آخر ، فقد بنى الاسبيت بطرس مخبزاً لقومه . ومن الجلي أن المخبز كان شرطاً من شروط الحياة الحضرية . وقد بُني المخبز « على مقربة » من الحوض ومن ثم فلا بد من أن يكون قد ارتبط ارتباطاً مباشراً بمحلة العرب ومخيمهم . وللقيام بجميع هذه الأعمال فقد جلب بطرس الصنّاع خاصة لحفر الحوض وللقيام بأعمال أخرى كما جاء في المتن . ومن الواضح أن العرب لم

---

(٨٩) شرحه ص ٥٦ .

(٩٠) Vita Kyriaki, ed. Schwartz, p. 226

يكونوا على دراية بالبناء ولم يمارسوا الصناعات ، مما دفع المؤلف غير مرة إلى إطلاق لفظ « برابرة » عليهم .

وكان بطرس من الوجهة المالية على قدر كاف من الثراء ، فلّما تم التفكير في بناء « صومعة » في ساهل مشابهة لتلك التي بفارون تقدم إليه بعض الرهبان يطلبون المعاونة في بنائها[٩١] مع رجاء أن تبنى لهم قلال صغيرة وأن يجري « تزيين الكنيسة بمختلف الوسائل » . ومن هذا يمكن الافتراض / بأن بطرس قد وُجد تحت يده كل ما يلزم للبناء بوصفه « أسقفاً للمخيم » ؛ وإن كان قد اضطلع ببناء الحوض وغيره من الأبنية اللازمة للحياة اليومية بمخيم العرب قبل أن يصبح أسقفاً . وكما أسلفنا فإن سائر أفراد بيته كانوا ينتمون إلى أعيان البدو ، أي أنهم كانوا في عداد أهل اليسار وأصحاب الأملاك .

ولقد شارك بطرس برتبة أسقف في المجمع المسكوني الذي عقد بافسوس عام ٤٣١ والذي أدان « بدعة » نسطور[٩٢] . ولكن في مجمع افسوس لعام ٤٤٩ شارك بوصفه أسقفاً « للمخيم » المدعو اوكسيلي الذي انضم إلى يوڤينال الاورشليمي في تبريره لاوتيخيوس في ذلك ا لمجمع ، على نحو ما فعل كافة أساقفة فلسطين .[٩٣] .

وفيما يتصل بمسألة الأحواض فإن مؤلف « سيرة اوفميوس » يعاود الكلام عليها مرة أخرى فيذكر أنه على بعد اسطاديونين من الدير وجد حوضان تم حفرهما على ما يقال منذ عهد « الأموريين » ؛ أحدهما جعله اوفميوس في خدمة آباء « صومعته » والآخر « تركه لمن عمّدهم من السرقينيين لوقت محدّد »[٩٤] . وكان هدفه من ذلك تأمين الحوض الذي يستعمله الدير . وكل هذا يشير إلى أن الحاجة إلى الماء كانت أمراً ملحّاً وأنه إذا لم يتم التنازل للأعراب عن أحد الحوضين فإن كلاهما كان سيتعرض للخطر . ويؤكد هذا القصة عن أعرابي صحب أعرابياً نصرانياً اسمه ثعلبان فأخذ حجراً كبيراً كسر به باب حوض الدير .

وكما هو الحال مع صومعة اوفميوس فإن مخيمات العرب (بريمبولاى) كذلك كانت تقع إلى الجنوب الغربي من اورشليم . وقد حفظت أطلال وبقايا أثرية أخرى عاونت على تحديد الموضع .

وكان الاسپيت بطرس وأهل بيته ينتمون إلى أولئك العرب الذين خضعوا لسيادة أمراء الحيرة وكانوا في ذات الوقت يدورون في فلك ايران . أما في فلسطين فإنهم شغلوا وضعاً مستقلاً نوعاً ما بوصفهم فيلارخات « المخيمات » .

ومن بين المؤرخين البيزنطيين الذين تعرضوا لذكر العرب في القرن الخامس تجدر الإشارة إلى ملخ الذي

---

(٩١) Vita Euthymii. p. 26

(٩٢) شرحه ، ص ٣٣ ؛ Devréesse, Le patriarcat d'Antioche. p. 247; R. Genier. Vie de St. Euthyme. P.151 .

(٩٣) Vita Euthymii. p. 412; R. Génier. Vie de St. Euthyme. p. 180

(٩٤) Vita Euthymii. p. 75

لا تتوفر بشأنه سوى معلومات شحيحة ؛ أما مصنفه فقد وصل إلينا في نقول لدى قسطنطين بورفيروجنتس وفوتيوس . ويوكد سويد اس أن ملخ (ملخوس Malchus) كان سوفسطائياً « ودوّن تاريخاً للأحداث منذ زمن الامبراطور قسطنطين إلى زمن انسطاس » ، مفرداً اهتماماً خاصاً لعهد زينون وكفاح القائد بازيلسكوس Basiliscus ولأحداث أخرى(٩٥) . ومن بين الصفحات القليلة الطريفة التي بقيت من مصنفه تلك التي يتحدث فيها عن العرب .

51

والحرب الطويلة بين الفرس والروم التي امتدت من عهد ثيودوسيوس قد انتهت بعقد صلح في عام ٤٤٢ تعهد فيه الطرفان بألاّ يؤوي أحد منهما العرب السرقيين الخاضعين للطرف الآخر « إذا ما جنحوا إلى العصيان » .(٩٦) وهذه الفقرة رُدّدت غير مرة في المعاهدات التالية التي عُقدت في القرن السادس بين بيزنطة وايران . وعلى الرغم من هذا الاتفاق فإنه قبل نهاية العام السابع عشر لحكم الامبراطور ليون مكلّس [أي الجزّار] ، وبالتحديد قبل عام ٤٧٣ ، جرت الأحداث الآتية : فأحد أفراد « عشيرة نُقال » ويدعى « أمورقس » Amorkes (وهذه هي الكتابة اليونانية لاسم امرىء القيس) لم يكن راضياً عن وضعه بالأراضي الايرانية ، فغادر « بلاد الفرس » وانتقل إلى أراضي العرب المجاورة للفرس ، ومنها كان يقوم بغاراته(٩٧). ولم يرد في متن ملخ لقب لامرىء القيس هذا ، ومن الواضح أنه كان أحد زعماء تلك العشيرة . ولو حدث وأنه لم يظفر « بالاحترام » الذي يراه جديراً به بايران ، فمردّ هذا إلى أنه لم يشغل وضعاً ذا أهمية وظنّ أن « أرض الروم أفضل » ، لذا فقد كان الأمل يحدوه في أن ينال السلطة والاحترام اللازمين بمساعدة القسطنطينية .

وامرؤ القيس هذا الذي يذكره ملخ كان ينتمي إلى فرع من فروع كندة التي نزلت على حدود ولايتين من ولايات فلسطين البيزنطية هما الولايتان الثانية والثالثة . وهذه الفروع لم تكن قد فقدت صلتها مع قبائل كندة ومعدّ التي كانت تترحّل في المناطق الوسطى والشمالية من الجزيرة العربية(٩٨) .

وأهم ما يلُحظ في نشاط هذا الزعيم هو أن « قوته نمت » على حساب السيطرة على قبائل عربية أخرى وقع معها في صدام ، ولكنه لم « يتقاتل البتّة مع الروم »(٩٩) . فلمّا قويت شوكته تماماً وأحسّ في نفسه القوة وجّه أنظاره إلى جزيرة يوتابه التي جعل منها موقعها الجغرافي ملتقى للطرق البحرية والبرية . وجزيرة يوتابه (وهي تيران الحالية) تقع إلى الجنوب من شبه جزيرة سينا عند مدخل خليج العقبة (أيلة) ، وبفضل هذا الموقع

---

(٩٥) Suidas. ed. Aemilius Partus. Coloniae Allobrogum. 1619, t. II, p. 87
(٩٦) Excerpta de Legationibus gentium Constantini Porphyrogeneti. ed. C. de Boor. v. I, pars 2. Berolini. 1903. p. 568; Iu. Kulakovskii. Istoria Vizantii. Kiev. 1913. str. 380.
(٩٧) Malchus. Excerpta......p. 568
(٩٨) Malchus. Excerpta..... p. 568; Nonnosius. Fragmenta historicorum graecorum. t. IV. Parisiis. 1853. p. 179; Theophanes. Chronographia. ed. de Boor. Lipsiae. 1883. p. 141; A. Musil. Kusejr Amra I. 1907, pp. 130-132. 174; E. Stein. Histoire du Bas-Empire. t. II. Paris. 1949. p. 90
(٩٩) Malchus. Excerpta..... p. 569

الجغرافي فقد لعبت كل من جزيرة يوتابه وميناء أيلة دوراً هاماً في سياسة أباطرة بيزنطة ودولة اكسوم الحبشية وايران والقبائل العربية بالشام والمستعمرات اليهودية بالجزيرة العربية(١٠٠). أما عن أثر جزيرة يوتابه في العلاقات التجارية بين آسيا الغربية وافريقيا / ومع اثيوبيا كذلك ، وعن أثرها أيضاً في الطريق البحري الذي يمر بالبحر الأحمر ويصل حتى المحيط الهندي ، فإن جزيرة يوتابه قد احتلت موقعاً استراتيجياً من المكانة الأولى .

وعند طرف الخليج ، وذلك في الجانب الأسيوي تقع مدينة أيلة . وكان مركز مكوس الامبراطورية يوجد بجزيرة يوتابه حيث كانت تتم مقايضةالسلع التي كانت تحمل عن طريق البحر إلى أيلة . وكان يفصل الجزيرة عن أيلة على قول پروقوپيوس القيساري مسافة تبلغ حوالي الألف اسطاديون (١٠١) . وبجانب رجال المكس يمكن الافتراض بوجود حامية بالجزيرة على الرغم من عدم ورود إشارة مباشرة إلى هذا ؛ كذلك وجدت بالجزيرة مستعمرة هامة من اليهود يصفها پروقوپيوس بأنها « تمتعت بحكم ذاتي »(١٠٢) .

وقد « انتزع » امرؤ القيس كما يذكر المصدر ذاته جزيرة يوتابه « وطرد منها جامعي المكوس الرومان » dikatologs الذين كانوا يأخذون « العشور » على السلع . فلما احتل الزعيم العربي الجزيرة أخذ يجبي المكوس بنفسه « وحصل من ذلك على أموال ليست بالقليلة » . ومن هذا يتبيّن أن بيزنطة لم تدافع عن الجزيرة على الوجه الحازم ، مما سهّل على امرىء القيس طرد رجال المكس التابعين للامبراطورية دون الالتجاء إلى عمليات عسكرية خاصة . و واضح أنه احتلّ المركز الرئيسي للجزيرة ، ذلك لأنه سيرد القول فيما بعد إنه ضم إليه « القرى الأكثر قرباً » والموجودة بالجزيرة أو بالساحل القريب منها . من هذا يتبيّن أن امرأ القيس احتل موضعاً قوياً بعد أن مدّ سلطانه على القبائل العربية الموجودة على حدود بيزنطة ؛ ثم إنه باحتلاله لجزيرة يوتابه أضاف مركزاً هاماً لأراضيه استطاع من خلاله أن يسيطر على تجارة الشرق الأدنى في جانبها الأكبر . وأخيراً فإن ثروته نمت على نحو ملحوظ من جبي المكوس على السلع .

وعند هذا حانت اللحظة التي عدّها ذلك النُقالي موانية لكي يُدعّم موقفه . وكانت غايته هي أن يصبح « حليفاً للروم وفيلارخاً لعرب الروم الموجودين بأرض البطرا »(١٠٣) . لهذا فإنه على الرغم من انتزاعه لحق جباية المكوس من بيزنطة بجزيرة يوتابه ، فقد كان محقّاً عندما ساوره الاعتقاد بأن كل هذا « سيُغفر له وأنه سيتم الاعتراف به حليفاً » بالقسطنطينية . بل إنه فوق هذا كان بطمح في أن يصير « فيلارخاً لسراقييني الروم

---

(١٠٠) F.M. Abel. L'Ile de Iotabe. Revue biblique ·1938, 47. pp. 510- 538

(ونقده لدى P.Peeters . Analecta bollandiana. 1939, 57. pp. 415- 416)

(١٠١) Procopius Caesariensis. De bello persico. I. 19. ed. Haury. Lipsiae. 1905. v. I. p. 101

(١٠٢) شرحه ، ١ ، ١٩ ص ١٠١ .

(١٠٣) Malchus. Excerpta....p. 569: R. Paret. Notes sur un passage de Malalas concernant les phylarques arabes. Arabica. 1958. t. V. f. 3. p. 254

الموجودين بالبطرا » . وإذا ما حدث في تلكم الأثناء أن كانت البطرا قد نسيت ماضيها المستقل فإن العرب على أية حال ظلوا هم العنصر الغالب بتلك المناطق وإن وُجدوا على درجة من التبعية لبيزنطة . وقد جهد أمورقس في الحصول على الاعتراف الرسمي به من جانب « القيصر » فيلارخاً لتلك القبائل العربية الموجودة بمنطقة البطرا . وحتى إذا ما سايرنا / روجيه باريه Roget Paret الذي يوكد في مقال شيّق له أن لفظ فيلارخ Phylarchos كان يستعمل في المصنفات التاريخية البيزنطية للدلالة على زعماء القبائل الرحّل أو شبه الرحّل فحسب ولا يعني سوى « الزعامة التقليدية »(١٠٤) ؛ إلاّ أنه لا سبيل إلى انكار أن المصادر تشهد في كثير من الحالات بأن لقب فيلارخ قد مُنح أو وُكّد رسمياً على يد القسطنطينية على نحو ما تم في هذه الحالة بالذات . وملخ لا يدعو امرأ القيس فيلارخاً لعشيرة أو قبيلة نُقال ؛ وحتى إذا ما سلمنا جدلاً بأن ملخ كان في استطاعته أن يفعل ذلك فإن هذا اللفظ على أية حال ليس له مدلول قَبَلي صرف كما يفهم من قول البحاثة الذي مرّ ذكره قبل قليل . وحتى إذا ما أمكن الاعتراف بامرىء القيس زعيماً لعشيرة نُقال فإنه عند القبائل العربية بالبطرا لم يكن كذلك ، لذا فقد احتاج الأمر إلى « تعيينه فيلارخاً » لهؤلاء العرب(١٠٥) أي الاعتراف به رسمياً زعيماً أو رئيساً لهم ، وهو ما تم التعبير عنه بصورة مناسبة بتسميته فيلارخاً . صحيح أن هذا اللقب كان بالإمكان استعماله حتى بالنسبة لزعماء الشعوب والقبائل الأخرى كالصقالبة مثلاً ، غير أن متون المؤرخين البيزنطيين تدفع في كثير من الحالات إلى أن يُبصر في الفيلارخ زعيماً قبلياً معترفاً به من بيزنطة أو من ايران حتى يحق له حمل ذلك اللقب الرسمي .

53

ولكي يحصل على هذاالاعتراف بعث امورقس عام ٤٧٣ « أسقف قبيلته المدعو بطرس » ليتوسط في الأمر . وأمورقس نفسه لم يكن نصرانياً ، غير أنه من الواضح وجود نصارى بين أفراد قبيلته مثلما كان عليه الحال مع بقية البدو الرحّل بولايتي فلسطين الأولى والثانية ، وهو أمر ثابت في مدوّنات كرلس الاسكيثوبولي . وقد كللّت وساطة بطرس بالنجاح . فقد استمع إليه الامبراطور وأمر من فوره بأن « يأتي إليه أمورقس » . وقد أُستقبل زعيم نُقال « بالترحاب » من الامبراطور الذي دعاه إلى مائدته ؛ كما نبصره كذلك يحضر جلسة لمجلس الشيوخ . وقد منحه ليون الأول جزيرة يوتابه « والمواضع المجاورة لها » التي طلبها . بل إنه ترك له كذلك مطلق الحرية في أن يصبح « حاكماً على ما يريد من القبائل » ؛ وبمعنى آخر فقد استجاب لجميع رغباته . وفوق هذا فقد أمر بمنحه مرتبة « بطريق أول » ، وهي واحدة من أعلى المراتب بمجلس الشيوخ في الامبراطورية . ولكي تزداد أواصر أمورقس توثقاً بمصالح بيزنطة ، كان من اللازم « إقناعه » بأن يصبح نصرانياً . لذا فقد أهداه الامبراطور « إيقوناً من الذهب » مرصّعاً بالأحجار الكريمة . ومُنح من الديموسيون (أي الخزانة العامة)

---

(١٠٤) R. Paret, Note sur un passage de Malalas...., p. 253

(١٠٥) Malchus, Excerpta..... p. 569

قدراً كبيراً من المال ، كما صدرت التوجيهات إلى « أعضاء مجلس الشيوخ » بتقديم الهدايا إليه كذلك[١٠٦] .

ولم يعد خافياً أن الامبراطور ليون قد تيقّن من أهمية منطقة البادية كحزام على الحدود ومن ضرورة استتباب السلام على تخوم الامبراطورية ، وأخيراً من أهمية موقع يوتابه والبطرا . لذا فقد رأى من الأحزم أن ينهج نهجاً سلمياً مع الفيلارخ الذي كان في طوقه أن يقدّم الكثير من الخدمات حتى وإن كان المقابل لذلك حرمان الخزانة من دخل مكوس جزيرة يوتابه . ولم تعد جزيرة يوتابه إلى يد الروم إلاّ في عهد انسطاس ؛ فحوالي عام ٤٩٨ زحف رومانوس دوكس [قائد جند] فلسطين على جبلة الغساني وأسر حجر الكندي واحتل من جديد جزيرة يوتابه منتزعاً إياها من الكنديين[١٠٧] .

غير أن ملخ وهو بعكس وجهات نظر أعضاء مجلس الشيوخ والدوائر العليا بالمجتمع البيزنطي يطرح أمامنا عدداً من الملاحظات النقدية الحادّة ضد تصرفات الامبراطور . فهو يرى في دعوة امورقس إلى زيارة القسطنطينية تصرفاً « أخرق » وإن لم يعترض على « تنصيبه فيلارخاً » لأنه كان أمراً مرغوباً فيه؛ غير أن هذا كان يجب القيام به كما يقول ملخ في سرّية تامة ودون علمه « حين كان امرؤ القيس بعيداً » . لأن الواجب كان يقضي بغرس مهابة الامبراطورية في قلبه حتى لا يفقد رهبته من الرومان « ويظل على الطاعة » لقوادها ويرتعش من مجرد ذكر اسم الامبراطور . ولعل الفرصة التي سنحت لامور قس بالتجوال وبزيارة عدد من المدن وهو في طريقه إلى القسطنطينية لابد أن تكون قد أقنعته بضعف الروم عسكرياً « لأنه استطاع أن يبصر بعيني رأسه » روعة المدن وأنه لم يكن بها « أحد يحمل السلاح » . كذلك لم يبد أعضاء مجلس الشيوخ ارتياحهم لمنح الدولة امور قس مرتبة بطريق أول و « لقسرها إياهم » على تقديم الهدايا إليه .

وهكذا قاد ضعف السياسة البيزنطية إزاء القبائل العربية إلى إثارة السخط بين قطاعات معيّنة من المجتمع البيزنطي . ومهما يكن من شيء فإن هؤلاء كانوا هم أعضاء مجلس الشيوخ وأصحاب الرتب العسكرية العليا للامبراطورية ممّن كان على العرب أن يرهبوهم . والضعف العسكري للامبراطورية والذي كان معلوماً لدى المسئولين ، كان من الواجب أن يظل سراً خافياً على العرب . وكان من نتائج هذا التهاون والضعف الذي مردّه « التصرف الأخرق » للامبراطور أن صار أمورقس « صلفاً » بل صار فوق هذا ناكراً للجميل لأنه « لم يكن في نيّته أن يرد ذلك المعروف » . ويرى المؤرخ البيزنطي أن فكرة الاعتماد على عون الفيلارخ وعلى « اعترافه بالجميل » وهو الذي استولى على يوتابه وبسط سيادته على « السرقينين بمنطقة البطرا » التابعة للامبراطورية ، هذه الفكرة لم تتحقق بالصورة المرجوّة .

---

(١٠٦) Malchus. Excerpta...., p. 569; Ju. Kulakovskii. Istoria Vizantii. t. I. str. 380; E. Stein. Histoire du Bas-Empire. t. I. 1959, p. 357

(١٠٧) Theophanes. Chronographia. AM. 5990 (479/8). P. 141 . وسنقدم تحليلا مفصلا لهذه الأحداث في الفصول التالية .

غير أن ما أبدته الدولة من ضعف ومن « خرق » في علاقاتها مع العرب يمكن رده إلى الوضع الصعب الذي وجدت فيه الحكومة نفسها آنذاك . فالمصالح الخاصة للطبقات الحاكمة بولايات مصر وسورية وفلسطين انعكست في حملها لواء العقيدة المونوفيزية ؛ الأمر الذي اقتضى بعض التنازل من جانب الحكومة البيزنطية . ولقد تصرف ليون الأول « بحذر واعتدال » ، باذلاً جهده في الحصول على الاستقرار بكل عواصم الشرق الأدنى الثلاث / وهي الاسكندرية وانطاكية واورشليم[١٠٨] . وقد وقعت سياسة الحزب الامبراطوري هذه في تناقض مع كثير من التيارات . ففي الأعوام الأولى بُعَيد اعتلائه العرش عام ٤٥٧ إعتمد الامبراطور على أفراد شعب القوط الذين كانوا على رأس الحرس الجرماني الموجود في خدمة الامبراطورية . وقد عمل اسبار Aspar و[ابنه] اردبور Ardabur اللذان كانا يمثلان الجيل الثالث لهذه المجموعة البارزة من القوط ممن تمتعوا بنفوذ كبير اعتماداً على قوتهم العسكرية ، على وضع أنصارهما في أهم المناصب العسكرية والمدنيّة . وليون الأول أصله من تراقيا وقد اعتلى العرش تحت حماية هؤلاء القوط ولذا فقد كان يخافهم ، هذا إلى أنهم كانوا آريوسيين [أي هراطقة] . وكان باستطاعة اسبار أن يصيب أي عملٍ من جانب الحكومة بالشلل لأن الجيش البيزنطي كان تحت إمرته . وقد انتهت الحملة البحرية ضد الوندال بشمال أفريقية بفشل تام وبتدمير الاسطول البيزنطي الضخم بسبب ما أظهره قائده باسيليكوس من عدم الكفاءة ؛ وكان دور اسبار نفسه سلبياً لأنه هو الذي ألحّ على تعيين باسيليكوس قائداً لتلك الحملة . وفي عام ٤٧١ فقط اتُخذت اجراءات حاسمة ضد الحرس الجرماني انتهت بمصرع رهيب لكل من لسبار واردبور وساقت فيما بعد إلى تقلّص كامل لنفوذ ذلك الحرس . وقد تم الإعداد لهذا الانقلاب بجهود « العنصر الرومي » - أي البيزنطي - في قيادة الجيش وبالمساندة التي لقيها ليون الأول من الايسوريين Isaurians ؛ وهم شعب جبلي مقاتل عرف بالشجاعة والإقدام ويقطن المناطق الجبلية من آسيا الصغرى . وبسبب ما قدمه زعيمهم وقائدهم زينون من مساندة فعّالة لليون في هذا الشأن فقد جعل منه صهراً بأن زوجه من ابنته اريادنه Ariadne عام ٤٥٨ / ٤٥٩[١٠٩] . وهكذا تطور الوضع ليصبح في مصلحة الايسوريين ، الذين لم يلبثوا أن تسنّموا العرش الامبراطوري فيما بعد .

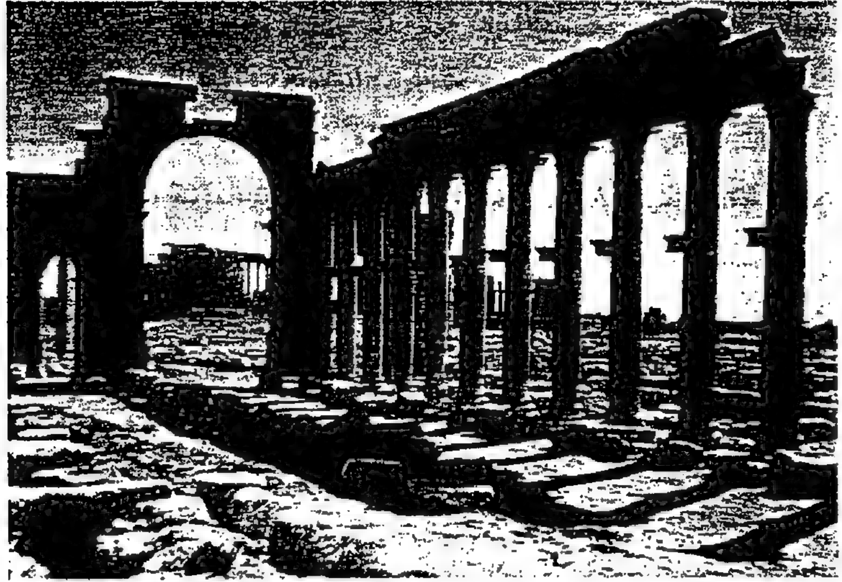
ويجب الاعتراف بأن تعرّض المصادر البيزنطية لهذه الأحداث لم يخل من السطحية والعفوية وذلك عند تصويرها للأحداث التاريخية كأنما يتلو بعضها بعضاً في تسلسل منطقي ؛ على أية حال فإن مادتها تعاون على تحليل الوضع بصورة أكثر عمقاً .

وقد جهدت حكومة ليون في أن تحصل على مساندة الطائفة الأورثوذكسية اليونانية للطبقة الحاكمة ، على أن تترك في يدها زمام قيادة الجيش البيزنطي . ولكن إلى جانب هذا كان من الضروري الاعتماد كذلك على

---

(١٠٨) F.I. Uspenskii. Istoria Vizantiiskoi imperii. t. I. 1913. str. 328-330

(١٠٩) شرحه ، ص ٢٩٠ - ٢٩١ ، ٣٣١ .





آثار تدمر

القوات المقاتلة الإضافية للايسوريين. ذلك أن هؤلاء الأخيرين لم يكونوا مهاجرين أجانب بل كانوا قبائل محلية من آسيا الصغرى ، لذا كان باستطاعتهم مشاطرة « المشارقة » في المصالح ؛ ومن ثم فإن وضعهم في مواجهة الحرس من القوط كان مخرجاً موفّقاً . وإذا ما أخذنا في حسابنا جميع هذه الظروف لأصبح معلوماً لدينا السبب الذي منع الحكومة البيزنطية من أن تسوّء علاقتها مع القبائل العربية ، خاصة على ضوء الأوضاع المضطربة بسورية وفلسطين حيث تفجرت تلقائياً حالات من « العصيان » و«الثورات » والحركات الشعبية التي استغلتها / لصالحها المجموعات المختلفة من الطبقة المسيطرة . لهذا فقد كان من الضروري عقد اتفاقية صداقة مع أمورقس ، وهو عين ما تم بالفعل . ومردّ السخط والملاحظات النقدية التي أعرب عنها ملخ فيما رأينا من قبل يجب إرجاعها إلى تذمّر أعضاء مجلس الشيوخ وقادة الجيش الذين لم يجهلوا القُدرات العسكرية العالية للقبائل العربية .

هذه المؤثرات التي عرضها لنا تاريخ ملخ تصدق بدورها على التاريخ التالي للقبائل العربية حتى ساعة ظهور الإسلام . فهو يحدّد الدور الهام للقبائل في الحياة الاقتصادية العامة بالشرق الأدنى والذي انعكس في العلاقات التجارية الواسعة وفي المعاملات المالية النشطة والمكثفة التي جرت في أوساط الرحّل كما جرت أيضاً في وسط القبائل العربية المستقرة بالشرق الأدنى في القرن الخامس .



الفصل الثالث

مملكة عرب « الفرس » [اللخميين]

شغلت الحيرة مكانة خاصة في تاريخ الشرق الأدنى في القرنين الخامس والسادس . فقد أثبتت هذه الدولة العربية التي كانت تقوم بدور العازل (buffer state) بين الدولتين الكبريتين أنها كانت دعامة من دعامات ايران الساسانية بوضعها لقواتها العسكرية تحت تصرف الأكاسرة . غير أنه من خطل الرأي أن يُظنّ أن « عرب الفرس » هؤلاء قد عاشوا تحت إمرة الفرس ولمصلحة ايران . فالمصادر ذات الوزن ، وكذلك الرقوم الكتابية التي تم الكشف عنها منذ أمد ليس بالبعيد ، تتحدث عن دولة الحيرة بوصفها دولة قوية ذات شأن لها مصالحها الخاصة بها سواء على الحدود مع بيزنطة بأرض الجزيرة وسوريةوفينيقية ، أو بمناطق الجزيرة العربية نفسها كالحجاز « مهد الإسلام » ونجد ، أو على طريق التجارة التي تعبر شبه الجزيرة من أقصاها إلى أدناها متجهة صوب بلاد العرب الجنوبية . وتنال إهمية خاصة في هذا الشأن الرقوم المكتوبة بخط المُسْنَد التي فتحت مجالات واسعة في دراسة تاريخ العرب قبل الإسلام رغماً من إيجازها الشديد ، كما حظيت باهتمام خاص كذلك لأنها تثبت تواريخ الأحداث التي تتكلم عنها .

ولقد أضحى من الضروري في وقتنا الحاضر إعادة النظر في « منهج البحث » الذي اتّبع في القرن التاسع عشر . وطبيعي ألاّ نطرح جانباً تلك الثقة التي أوليت للتحليل العميق الذي قدّمه لنا نولدكه ، عندما استطاع بنفاذ بصيرته أن يوائم بين أقوال المصادر البيزنطية ومادة المؤرخين المسلمين التي وجدت الأسطورة سبيلها إليها والتي يسودها الكثير من الاضطراب والخلط بوجه عام . أما في وقتنا الراهن فقد تقادم العهد على تلك الأفكار التي أفصح عنها روتشتين ؛ كما أن انتقادات عرفان شهيد [شهيد] لمنهج نولدكه لم تعد تساير الزمن وذلك بسبب ظهور كشوفات أثرية جديدة . وكما هو معلوم فإن الرقوم العربية الجنوبية تمدنا بوقائع جديدة ، كما تحدد مرتكزات زمنية دقيقة للأحداث نستطيع من خلالها توكيد صحة الوقائع التاريخية ، لا تلك ا لتي توردها المصادر اليونانية والسريانية فحسب بل والكثير من الوقائع الواردة في مادة المؤرخين المسلمين المضطربة والتي ترتفع إلى روايات متواترة يُزعم بأنها قديمةوصادقة . ولقد تبيّن من هذه الكشوفات أن مصير دولة اللخميين ارتبط بأحداث دولة سبأ أيضاً . وفي ذات الوقت فإن تاريخ دولة اللخميين في القرن الخامس يتداخل تداخلاً عميقاً مع تاريخ الساسانيين الذين كان اللخميون يدينون لهم بالتبعية . بيد أن ايران نفسها قد بذلت كل ما في وسعها للحفاظ / على علاقات الصداقة مع الحيرة التي كانت دعامة لها في حروبها مع بيزنطة .

وأحد أولاد خسرو يزدجرد الثلاثة وهو بهرام الذي اعتلى العرش فيها بعد تحت اسم بهرام الأول

(فرهران) أمضى سني حداثته بين اللخميين . ومما هو معلوم من المصادر العربية فإن النعمان ورث أباه امرأ القيس واتصف بحبه الشديد للقتال ونكايته في العدو وبمقدرته في الضرب عميقاً بقواته العسكرية في البلاد التي يغير عليها[١] . أما المنذر الأول ابن النعمان فقد شغل في حياة أبيه وضعاً بارزاً بالدولة ، وتنسب إليه إحدى الروايات العربية قيامه بأمر تربية بهرام الصغير الذي حيكت حول تأديبه قصص اسطورية[٢] . وهناك الكثير من الحقيقة التاريخية في القصة التي تنسب إلى النعمان بناء الحصن أو القصر الواقع غير بعيد من الحيرة والذي عرف باسم الخورنق . وقد شيّد هذا البنيان الرائع الذي أحاط به منتزه جميل معماري بيزنطي اسمه سنمّار ؛ كذلك ينسب حمزة الاصفهاني إلى سنمّار هذا بناء حصن آخر قرب الحيرة يُعرف باسم الصِنَّين[٣] . ويميل [المستشرق الفرنسي لويس] ماسينيون في بحثه إلى الاعتقاد بأن هذه القصور والمتنزهات وغيرها من العمارة ، إنما شيدها الساسانيون للعرب[٤] . وقد حُفظت لنا بصدد النعمان رواية تقول إنه تعرض لحالة نفسية دفعته إلى الترهب فاعتزل العرش ولبس المسوح وساح في الأرض ابتغاء مرضاة الله[٥] . وهذه القصة التي يرويها لنا الطبري تنعكس فيها عناصر نصرانية ، كما تنعكس أيضاً في أبيات من الشعر ينسبها ذلك المؤرخ لعديّ بن زيد[٦] . وهناك أساس يجعلنا نبصر في هذا الحادث من حياة النعمان تعبيراً عن ميله إلى النصرانية كما يرى الباحثون ، وهو أمر يستحيل الإغضاء عنه[٧] . وعلى أية حال فإن المصادر اليونانية البيزنطية تتحدث عن تقاربه مع النصارى .

وقد حفظت لنا عن النعمان وعن القبائل العربية روايات على لسان شهود عيان مثبتة في آثار من القرن الخامس تتعلق بسِيَر القديسين . فعالم اللاهوت والفيلسوف الشهير / تيودوريت القورسي صاحب « التاريخ الكنسي » دوّن في الأربعينات من ذلك القرن مصنفه « تاريخ أولياء الله » Philotheos Istoria الذي يضم حوالي الثلاثين من قصص الرهبان والنسّاك . وقد كرّس الفصل السادس والعشرين من مصنفه هذا لحياة شمعون العمودي الذي قام تيودوريت نفسه بزيارته[٨] . وفي الفقرات من الثالثة عشرة حتى الخامسة عشرة من هذا

59

---

(١) Th. Nöldeke. Geschichte der Perser und Araber zur Zeit der Sassaniden aus der Chronik des Tabari. Leiden. 1879. p. 83 (Nöldeke-Tabari)

(٢) Nöldeke-Tabari. pp. 85-89

(٣) Hamza Isphanensis. Annales. Lipsiae. t. I - 1844. p. 105. t. II - 1848. p. 82: Nöldeke-Tabari. p. 80: G. Rothstein. Die Dynastie der Lahmiden in al-Hira. Berlin. 1899. pp. 66-67

إن كان سنمار هو الذي بنى حصن الصنين ، فإن من الممكن اشتقاق اسمه من « سيد الصنين » ، « صنين مار » .

(٤) L. Massignon. Note sur le château d'al Okhaider. Comptes - rendus de l'Académie des inscriptions et de belles-lettres. 1909. pp. 202-212: R. Devréesse. Le patriarcat d'Antioche. Paris. 1945. pp. 250-252

(٥) Nöldeke - Tabari. p. 84: Hamza Isphanensis. annales. t. I. p. 103; t II. p. 80

(٦) Nöldeke - Tabari. pp. 84-85: A.P. Caussin de Perceval. Essai sur l'histoire des arabes avant l'Islamisme. t. II. Paris. 1847. p. 55-56

(٧) A.P. Causin de Perceval. Essai..... pp. 56-57: G. Rothstein. Die Dynastie der Lamiden..... p. 66

(٨) H.Lietzmann. Das Leben des heiligen Symeon Stylites. Texte und Untersuchungen zur Geschichte der altchristlichen Literatur. Bd. 32. 3. Leipzig. 1908. pp. 216-217

الفصل يتحدث عن اعتناق « اعداد كبيرة من بني اسماعيل » للنصرانية ، كما يتحدث عن السرقيني الذي كان فيلارخاً[٩] . ولعل أكثر هذه القصص تفصيلاً وحيوية هي تلك التي تحويها السيرة السريانية لحياة شمعون العمودي والتي وصلت إلينا في مخطوطة مودعة حالياً بمكتبة الفاتيكان وتحمل تاريخ السابع عشر من نيسان عام ٥٢١ وفقاً للتقويم الانطاكي ، وهو ما يوافق السابع عشر من ابريل عام ٤٧٣ ميلادية . والفرق بين التقويمين مقداره ثمانية وأربعون سنة وذلك حتى اليوم الأول من سبتمبر ، أما من أول سبتمبر وحتى الأول من يناير فيبلغ تسعة وأربعين عاماً[١٠] . وقد نشرت سيرة شمعون في مجموعة السمعاني اعتماداً على هذه المخطوطة التي تحمل الرقم ١٦٠[١١] . وثمة مخطوطة أخرى لهذه السيرة تقرب كثيراً من المخطوطة الأولى التي ترجع إلى القرن السادس ، وهي مودعة تحت الرقم add. 14484 بالمتحف البريطاني وقام بنشرها بيجان P.Bedjan[١٢] . ومن هذا يتبيّن أن كلتا المخطوطتين تعود إلى زمن قريب من فترة حياة شمعون وأن مصادر سيرته تعتمد على قصص المعاصرين وشهود العيان الذين وُجد من بينهم المؤلف نفسه . وتُحدِّد الروايات السريانية بدقة تاريخ موت شمعون على أنه حدث في يوم الأربعاء الثاني من شهر ايلول عام سبعين وسبعمائة من التقويم السلوقي ، وهو ما يوافق الثاني من سبتمبر عام تسعة وخمسين وأربعمائة للميلاد . والرقم الوارد بالمخطوطة يوكده حساب السنين بالاندقطونية ، ذلك أنه أضيف « في نهاية السنة الثانية عشرة وبداية السنة الثالثة عشرة » . هذا التاريخ ثبت للغاية ، ويوكده آخر أثر نموذجي للتقاويم يضم جداول متوازية لحساب السنين هو الذي وضعه جروميل V.Grumel وخرج ضمن السلسلة التي يتولى نشرها البروفسور لوميرل Lemerle[١٣] .

وتضم سيرة شمعون السريانية واليونانية ، مضافاً إليها الفصل الذي كرسّه له تيودوريت في مصنفه ، قصصاً عن القبائل العربية وفيلارخ الحيرة النعمان (نآمان) اللخمي . ويرد في السيرة السريانية كذلك أن انطيوخ برسبين bar Sabinus قد زار شمعون العمودي وحكى له عن النعمان . « فقد جاءه انطيوخ بن سبين الذي عُيِّن دوكساً لدمشق وقال لقداسته / أمام الجميع : قدم النعمان إلى البادية القريبة من دمشق وهيّأ طعاماً دعاني إليه لأنه لم يكن بينه وبين الرومان عداء في ذلك الحين . فلما جلسنا للطعام تطرق الحديث إلى مارشمعون فابتدرني بالسؤال قائلاً : هذا الذي تدعوه مارشمعون أربٌ هو؟ فقلت له : لا بل عبدٌ للرب . فقال لي

(٩) H. Leitzmann. Symeon Stylites, pp. 10-11

(١٠) P. Peeters. Le tréfonds oriental de l'hagiographie byzantine. Bruxelles. 1950, pp. 112-113; E. Hanigmann. The Calendar Change at Antioch and the Earthquake of 458. Byzantion. 1945, 17, pp. 336-339.

(١١) G.E. Assemanus. Acta sanctorum. pars II. Martyrum occidentalium. Romae. 1748, pp. 268-308.

(١٢) Acta martyrum et sanctarum. t. IV, ed. P. Bedjan. Parisiis. 1894. PP. 507-644 (فيما يلي تحت Acta mm. ss.) .

* الاندقطيون دورة زمنية من خمسة عشر عاما كانت تستعمل بالدولة البيزنطية ، ويرجح أنها بدأت بأول سبتمبر من عام ٤٦٢ - ٤٦٣ ميلادية - المترجم .

(١٣) Acta mm. ss. t. IV, p. 644; V. Grumel. La chronologie. Traité d'Etudes byzantines. I. ed. par P. Lemerle. 1958. p. 243

النعمان : لمّا ترامت إلينا أخبار مارشمعون شرع عربنا في الذهاب إليه ، وجاء إليّ أعيان حيرتنا وقالوا لي : إن أذنت لهم بزيارته فسيذهبون إليه ويتنصّرون وينضمّون إلى الروم ويتنفضون عليك ويهجرونك . فأمرت بجمع كافّة أهل حيرتي وقلت لهم : لو جرؤ أحد منكم على الذهاب إلى مارشمعون قطعت رأسه ورؤوس أهل بيته ثم أذنت لهم بالانصراف . وفي منتصف الليل وأنا نائم بخيمتي رأيت رجلاً مهيباً لم أر مثله أبداً ، وكان معه خمسة آخرون . فلما رأيته انخلع قلبي واصطكّت ركبتاي فسجدت له[١٤] . واستمع النعمان إلى تقريع شمعون الذي ظهر له في منامه وأخذ نذراً على نفسه بألا يحول بين أعرابه وبين زيارة شمعون أو الدخول في النصرانية ، وقال إنه إن لم يكن في خدمة ملك الفرس لذهب بنفسه إلى شمعون ونال التعميد على يده . وفي الخاتمة قال النعمان : ثم أمرت بالبِيَع فبنيت وبالأساقفة والقسس فأحضروا إلى حيرتي وقلت لهم : من أراد أن يتنصر فليفعل دون خشية ومن أراد أن يبقى على وثنيته فليُترك وشأنه » . فلو تصادف أن رؤى في هذه القصة شيء من المبالغة إلاّ أنها على أية حال تشير إلى أن النصرانية كانت قد وجدت طريقها إلى العرب الخاضعين لسلطان اللخميين . أما عن البيعة التي شيدتها هند بالحيرة فيقف دليلاً عليها رقيم من عهد خسرو انوشروان حفظه لنا ياقوت الحموي ، وإن جاء متأخراً بأكثر من قرن عمّا ورد بالرواية المتعلقة بسيرة شمعون[١٥] .

وفي سيرة شمعون التي دوّنها تيودوريت القورسي أخبار عن حياته للعرب فيها نصيب . فيقال إنهم قدموا إليه في جماعات تقدّر الواحدة منها بالمائتين وبالثلاثمائة ، بل وبألف الشخص أحياناً ؛ وقد تمّ جميعاً تنصيرهم . وفي خلال تدافعهم للحصول على البركة على يد تيودوريت الذي كان هناك بأمر شمعون فقد دفعوا بهذا الأسقف حتى وقع على الأرض ولم يستطع تنظيم صفوفهم إلاّ بمشقة بالغة[١٦] . كذلك كان تيودوريت شاهداً لحادث آخر وذلك حين جاءت إحدى العشائر ترجو من شمعون أن يرسل ببركته إلى فيلارخهم[١٧] . / غير أن عشيرة أخرى كانت حاضرة هناك دخلت معها في نزاع وأصرّت على أن ذلك الفيلارخ لا يستحق البركة لأنه رجل غير عادل ، وأن فيلارخهم هو الذي يستحقها دون منازع . وقد اضطر أسقف قورُس* للتدخل ليفض الشجار وليقنع العرب بوضع حد للنزاع وإلاّ يهاجم بعضهم بعضاً مؤكداً أن باستطاعة شمعون أن يمنح البركة إليهما معاً . واستجابة لرجاء أحد الفيلارخات قام شمعون بمعالجة رجل أصيب بالفالج قرب مدينة قلليتيقه (الرقة) القلعة المعروفة ؛ وكان ذلك الفيلارخ هو الذي أحضره إلى شمعون . ويحكي تيودوريت أيضاً قصة تتصل بعربي آخر كان قد نكث عهد النصرانية الذي أعطاه ، ثم رجا

61

(١٤) Acta mm. ss.. t. IV. pp. 597-598

(١٥) ياقوت ، طبعة أوروبا ، الجزء الثاني ، ص ٧٠٩ .

(١٦) Theodoret. Historia religiosa. XXVI. No. 13. H. Leitzmann. Simeon Stylites. p. 10

(١٧) Theodoret. Historia religiosa. No. 14. Simeon, p. 11

* قورس بضم الراء ، ويقول عنها ياقوت « مدينة أزلية بها آثار قديمة وكورة من نواحي حلب وهي الآن خراب » ـ المترجم .

من القديس العون[١٨] ؛ كما يحكي عن إحدى ملكات السرقينيين التي طلبت البركة من شمعون وأحضرت معها رضيعها ليباركه[١٩] . وهذه القصص نلتقي بها كذلك في سيرة شمعون التي دوّنها انطونيوس .

ومن ثم فإن الأسطر التالية من سيرة شمعون المدوّنة بالسريانية ليس المقصود منها إحداث تأثير بلاغي في نفس القارىء بقدر ما هي إلى حد كبير انعكاس لحقيقة الوضع : « فليس في الوسع حصر عدد العرب الأقاصي ممن لم يعرفوا طعم الخبز بل اقتصر غذاؤهم على اللحم الذين قدموا لرؤية القدّيس وأخذوا منه تعاليم الدين فأصبحوا نصارى واطّرحوا أصنام آبائهم ودخلوا في خدمة الله . وكم كان كبيراً عدد البرابرة والأرمن والاورتاى Ortai والوثنيين والمتحدثين بشتى اللغات ، الذين كانوا يأتون يوماً بعد يوم ليأخذوا التعميد وليؤمنوا بالله الحي . وليس في الوسع إحصاء أعداد العرب من ملوك وأعيان الذين أخذوا التعميد على يديه وآمنوا بالله واتبعوا دعوة المسيح وعملوا بكلام القديس السعيد فشيّدوا البيع في مخيماتهم »[٢٠] . من هذا يتبيّن أن مدوّن سيرة شمعون قد خص العرب باهتمامه دون جميع الشعوب التي دخلت النصرانية ، بل إنه ركّز اهتماماً أخص على أولئك العرب الذين دعاهم « بالأقاصي » ، وهم البدو الذين كانوا يتنقلون « بعيداً » عن حدود بيزنطة والذين لم يعرفوا الخبز ولم تكن لهم علاقة بالحضر وانحصر طعامهم في اللحم وحده . وبعد دخولهم النصرانية بنوا البيع في مخيماتهم ، مما يقف دليلاً على أن أسلوب حياتهم البدوية ظل على ماهو عليه دون تغيير يُذكر .

ولمّا مات شمعون عام ٤٧٣ حُمل جثمانه إلى انطاكية في موكب مهيب على يد الأسقف مرطيري الأنطاكي يصحبه ستة من الأساقفة . وعندما بلغ نعيه العرب تجمعوا على ظهور إبلهم في أعداد كبيرة وأرادوا انتزاع جثمانه[٢١] . هذا وقد التف حول شمعون العمودي أثناء حياته جماعات بكامل عددها من العرب من مختلف القبائل فاعتنقوا النصرانية على يده وأخذوا التعميد منه / واتجهوا برجاءاتهم وتوسلاتهم إليه . كل هذا يقف شاهداً على الصلة الوثيقة للعرب بالنصرانية وامتداد نفوذها آنذاك بين الكتل العربية وانتشارها على السواء في الوسط السرياني اليوناني والوسط العربي الوثني . وقد كان للسريان دور كبير في خلق هذه الصلة ، وكذلك في إدخال العرب إلى حظيرة النصرانية ، خاصة وأن لغة العرب كانت مألوفة لديهم . ويغلب على الظن أن لهجة للتخاطب قائمة بذاتها ، هي أمشاج من الألفاظ السريانية والعربية ، كانت سائدة بينهم[٢٢] . وجدير بالملاحظة أن شمعون كان قد التقى وهو في الحداثة وذلك بدير اوزيبونه Euzebona بمار أسقف الجبّول وكان سريانياً اسماً ولغة ، وتبادل الحديث معه ومع أخيه شمش ؛ ويفترض أن ذلك الحديث قد جرى بينهم باللغة

---

(١٨) Theodoret, Historia religiosa, No. 15, p. 11; No. 16, p. 12

(١٩) شرحه ، رقم ١٩ ، ص ١٤ .

(٢٠) Acta mm. ss., t. IV, p. 546

(٢١) Antonius, Vita Simeonis, No. 29, p. 68

(٢٢) P. Peeters, Le tréfonds oriental...... pp. 120-121

السريانية .(٢٣) وقد تعرض العرب لتأثير النصرانية السريانية بالذات لأنها كانت أقرب إليهم ، ومن ثم فيجب ألا يدهشنا ذلك في شيء .

وهكذا إلى جانب الروايات العربية المتواترة ، فإن هنالك معلومات عن النعمان وعن القبائل العربية أيضاً في المصادر اليونانية والسريانية من شأنها أن تعين على ربط هذه الروايات العربية بعضها ببعض . والرواية العربية ، خاصة في صورتها الفارسية ، تتضمن اضطراباً شديداً في التفاصيل حتى أنها خلطت بين النعمان وابنه المنذر الأول الذي قدّم العون لبهرام . وترد تفاصيل هذه الرواية لدى بعض المؤلفين من العرب والفرس منسوبة للأب والابن معاً(٢٤) . وعلى نحو ما سنرى فيما بعد فإن جانباً من المصادر يؤكد أن القوات التي أرسلت لمعاونة بهرام لم يكن على رأسها ا لمنذر بل كان عليها ابنه النعمان . وليس من المستطاع إعطاء تواريخ محددة لهذه الأحداث إلّا بدرجة نسبية(٢٥) .

ولقد حافظ الأمير الفارسي الذي تربى في أحضان اللخميين على صلته الوثيقة بالحيرة ، التي كان لها فيما بعد دورها الكبير في تحديد مصيره . وكان بهرام قد أمضى بايران حيناً من الوقت وهو في ريعان الشباب حيث قام يزدجرد بإلقاء بعض التبعات غير الكريمة على عاتقه . وإذا ما اطّرحنا جانباً التفاصيل العرضية فإنه يجب الافتراض بأن بهرام لم يكن على وفاق مع أبيه . ولم يكن يزدجرد راضياً كل الرضى عن ابنه ، ولهذا فليس من العسير أن ندرك أن عودته إلى الحيرة هي ضرب من الإبعاد(٢٦) وإن كان بهرام قد آثر هذا على العيش بايران . ويقال إنه قد استغلّ نفوذ السفير البيزنطي فتوسّل إليه أن يشفع له عند أبيه لكي يأذن له بالعودة إلى الحيرة . وأمثلة هذا اللون من الاستعانة بالسفراء الأجانب في حلّ مشاكل البيت المالك تتكرر على مدى تاريخ ايران الساسانية .

وبعد عام ٤٢١ وبعد موت يزدجرد ، الذي تشير كل القرائن على أنه كان عنيفاً ، أصعد أعيان ايران على العرش خسرو الذي لم ينحدر من صلبه مباشرة ومُقصين/ أولاده الشرعيين . أما بهرام فقد أُقصي منذ البداية بوصفه شخصاً غير مرغوب فيه لأنه ربيب العرب ولأنه أكثر شبهاً بهم في مظهره وأسلوب حياته ومشاربه(٢٧) . غير أن الأمير عزم على القتال في سبيل العرش ووجد العون والسند من الحيرة . وكان جيشه مؤلفاً من الفرس ومن عرب قبيلة تنوخ تحت قيادة ملك العرب(٢٨) . وشطر من تنوخ كان قد استقر وعمل

(٢٣) Acta mm. ss. t. IV, p. 596
(٢٤) G. Rothstein. Die Dynastie der Lahmiden...., pp. 67-68
(٢٥) Nöldeke-Tabari. p. 92
(٢٦) Nöldeke - Tabari, pp. 90-91. notae
(٢٧) Nöldeke-Tabari. pp. 91: A. Christensen. L'Iran sous les Sassanides. Copenhague. 1944. pp. 274-275
(٢٨) Nöldeke-Tabari. p. 83: F. Altheim. Finanzgeschichte....., p. 117

بالزراعة ، بينما شطر آخر ظل على حياة الرحّل[٢٩] ؛ وكانت القبيلة تنزل المناطق الواقعة غربي الفرات عند مجراه الأدنى .

وقد احتلت القوات الفارسية والعربية بقيادة النعمان بن المنذر المنطقة الواقعة بين طيسفون وبه اردشير . وقد رجّح هذا العون العسكري الذي قدّمه عرب الحيرة كفة بهرام[٣٠] ؛ ورأى الملك الشاب أنه مدين للمنذر ، وأعرب عن تقديره له بأن رفع مكانته فوق « جميع العرب » . بيد أن هذه العبارة يجب ألاّ تؤخذ على اطلاقها لأن المناطق التي كانت تحت نفوذ الشاه ويقطنها العرب لم تكن كبيرة . وعلى قول أحد المصادر فإن بهرام « أحب المنذر والنعمان » ولذا فإنه « فوّض إليه جميع أرض العرب »[٣١] ، أي إلى ملك الحيرة .

وهكذا نجد أن ما ناله ملوك الحيرة من مكانة عالية منذ القرن الخامس إنما كان بسبب ما قدّمه اللخميون من خدمات لبهرام ، حينما قامت قبيلة تنوخ وإلى جانبها وحدات فارسية بدور حاسم في تأمين عرش ايران لربيبهم أي الشخص الذي تخيّروه . ولقد قدّر ملك الفرس خدمات ملك الحيرة حق قدرها . ويروي لنا الطبري قصة تتحدث عن إسناد يزدجرد مهمة تربية ابنه إلى ملك اللخميين وعن مكافأته المنذر بن النعمان بسخاء على ذلك ، حتى أنه منحه لقباً رفيعاً هو « ماهست » أي الأكبر[٣٢] .

كذلك أخذ المنذر طرفاً في الحرب الفارسية ـ البيزنطية لعام ٤٢١/٤٢٢ التي يرد وصفها بصورة أكثر تفصيلا وأدعى للثقة لدى سقراط الاسكولي . ولقد كان للقسطنطينية أكثر من سبب يجعلها ساخطة على سياسة ايران ، ففيما عدا الخصومات القديمة بين الطرفين ، هناك أيضاً أسباب جديدة مثل رفض ايران إعادة المعدّنين البيزنطيين الذين أرسلوا لاستخراج الذهب بايران /[٣٣] وكذلك انتزاع الفرس لسلع التجار الروم . ومن الواضح أن الأمر يتعلق بسلعة الحرير التي كانت تمر بالطرق التي تخترق ايران . ولم تكن هذه هي الحالة الوحيدة لأن مثل هذه الشكوى ارتفعت أكثر من مرة وأنها معروفة كذلك من مصادر أخرى . أخيراً فإن بهرام ورجال الدين الإيرانيين أخذوا يضطهدون النصارى ببلادهم اضطهاداً عنيفاً فشرع هؤلاء في مغادرة الأراضي الايرانية والبحث لهم عن ملاذ بأراضي الدولة البيزنطية . وقد عاون الفيلارخ أسبيت على الرغم من إرادة الشاه في مرور النصارى إلى أراضي بيزنطة[٣٤] ، التي تعرضت مكانتها للاهتزاز بسبب الاضطهادات الحادثة بايران .

---

(٢٩) Nöldeke-Tabari, p. 24, nota 3; G. Rothstein, Die Dynastie der Lahmiden....., p. 28

(٣٠) Nöldeke-Tabari, pp. 92-93: G. Rothstein, Die Dynastie der Lahmiden......, pp. 68-69

(٣١) Abu Hanifa ad Dinaweri, Kitab al-Ahbar at-Tiwal, ed. V. Guirgass, Leide, 1888, p. 57.

(٣٢) Noldeke- Tabari, PP. 86-87, notae (من المحتمل أن ملك الحيرة الذي أوكل إليه يزدجرد تربية ابنه لم يكن المنذر بل أباه النعمان) . R. Herzfeld, Paikuli, V.I. Berlin, 1924, Glossary 645, p. 218 .

(٣٣) Socrates Scholasticus, Historia ecclesiastica, VII, 18 v. II, p. 767.

(٣٤) N. Pigulevskia, Vizantiiskie isoriki ob arabakh V v., Palestinskii sbornik, 7 (70), L., 1962, str. 91

وبدأت الحرب بين الطرفين بحملة للقوات الرومية على ارزنين تحت قيادة الاستراتيج اردبور[٣٥]، ومُنيت القوات الفارسية التي كانت تحت قيادة نرسي بالهزيمة . وكان نرسي يفكر في القيام بحملة مضادّة يجتاز فيها أرض الجزيرة ، ولكنها لم تتحقق لأنه لم تكن تحت يده قوة كافية ؛ فاضطر إلى التوقف عند نصيبين الواقعة على الحدود والتي كانت ملكاً للفرس . وقد قام الروم بمحاصرة هذه المدينة وجرّوا الأبراج الخشبية إلى أسوارها ، مما جعل كفّتهم ترجح على الفرس . وكان من جراء تخريب ارزنين وتهديد نصيبين أن اضطر الملك بهرام إلى طلب العون من حلفائه العرب فقدم لمعاونته آلاموندروس (المنذر) ، وهو « رجل شجاع ذو مراس في القتال » ، بصحبه « آلاف من السرقينيين » الذين كانوا بطبيعة الحال من الفرسان[٣٦] . وقد استوثق ملك الحيرة من النصر فوعد بأخذ الروم أسرى ، بل وباحتلال انطاكية عاصمة سورية وأكثر مدنها ثراءاً و « تسليمها » . غير أن عوامل لم تكن في الحسبان قضت على كل هذا الأمل ، فقد أخذ الذعر بقلوب العرب دون ما سبب ظاهر فولوا الأدبار حين ظنّوا أن القوات الرومية قد أطبقت عليهم . وهلكت جموع كبيرة منهم لمّا قذفوا بأنفسهم في الفرات بما عليهم من دروع وأسلحة . ويصل سقراط بعدد العرب الذين هلكوا بهذه الطريقة إلى عشرة الآلاف . بيد أن القوات البيزنطية لم تعرف كيف تجني ثمرة انتصارها ، خاصة بعد أن انتشرت إشاعة تقول باقتراب القوات الفارسية المدعّمة بأفيال مقاتلة كانت بمثابة المدفعية الثقيلة لذلك العهد ؛ مما أشاع الفزع في أنفسهم فأحرقوا الأبراج الخشبية المعمولة للحصار وقفلوا راجعين إلى بلادهم[٣٧] .

65 أما الأحداث التي أعقبت الحرب فيتعرض لها سقراط بايجاز شديد ؛ من ذلك مبارزة اريوبند لأشجع مقاتلي الفرس ، والكمين الذي نصبه اردبور لسبعة من قواد الفرس ، وكذلك هزيمة العرب الذين تخلفوا على يد القائد ڤتزيانوس Vitsianos . ويقف شاهداً على صعوبة الحفاظ على علاقات السلم بين الدولتين بازاء استمرار غارات العرب ذلك المكتوب الذي أرسله عام ٤٨٤ الأسقف النسطوري لنصيبين المدعو برصوما (ولد عام ٤١٥ - ٤٢٠ ومات عام ٤٩٦) إلى الجاثليق* أقاقي Acacius [٣٩] . وفيه يقول إنه لم يستطع المجيء إلى المجمع المحلي الذي دعا إليه أقاقي بسبب الكوارث التي حلّت بالبلاد ، فالى جانب الجدب والمجاعة التي شملت ايران على عهد فيروز والتي توكدها مصادر أخرى ، انضم عامل آخر هو انقضاض « مجموعة من

(٣٥) Socrates Scholasticus. VII. 18. II, p. 70

(٣٦) شرحه ، ص ٧٧٠ - ترد رواية سقراط بصورة موجزة لدى ابن العبري في تاريخه السرياني : Gregorius Barhebraeus. Chronicon syriacum. Parisiis. 1890, p. 70.

(٣٧) Socrates Scholasticus. Historia ecclesiastica. VII. 18. p. 771

(٣٨) شرحه

* « الجاثليق » هو مطران النساطرة ، وهي تعادل « البطريرك » لدى الأورثوذكس و « البابا » لدى الكاثوليك . وأصل اللفظ من اليونانية Katholikos . كذلك يرتفع لفظ « الاسقف » إلى اليونانية Episcopos ، وهو فوق القسيس ودون المطران . ولفظ المطران نفسه مأخوذ عن اليونانية Metropolitanos وتعني كبير الأساقفة - المترجم .

(٣٩) Synodicon Oriental. ed. par J.B. Chabot. Paris. 1902. pp. 53-60 (299-307); A. Baumstark. Geschichte der syrischen Literatur. Bonn. 1922. p. 108.

القبائل الجنوبية » على منطقة نصيبين . وقد وصلت تلك المجموعة في أعداد غفيرة ومعها قطعانها « فخرجوا ونهبوا قرى التهائم والنجاد ، بل إنهم تجرءوا على نهب الناس وسبيهم والاستيلاء على ماشيتهم من أرض الروم » . عند ذلك جمع الروم جيشا كبيراً وتوجهوا به إلى مناطق الحدود يصحبهم العرب الخاضعون لهم ؛ وقد طالبوا بالتعويضات بحجة أن طيايّه الخاضعين (حرفيا « عبيد ») للفرس قد اقتحموا أراضيهم . عند ذلك ذكّرهم القائد الفارسي بأن « عرب الروم » قد اشتغلوا أيضا بالسلب والنهب . وقد التزم « المرزبان*الحازم والمعروف [واسمه] كردك نهورجان الهدوء والحكمة ولم يتصرف برعونة . فاقترح عقد اتفاقية تنص على جمع شيوخ طيايه [أي العرب] واسترداد الغنائم والأسرى منهم ، على أن تسترد في ذات الوقت من « عرب الروم الماشية والأسرى الذين أخذوهم على فترات متباينة من بيت جرمي واديابنه [حدياب] ونينوى» - أي أن تعاد الأولى إلى الروم والثانية إلى الفرس . وحين يتم هذا التبادل يصبح لزاما إفراد « حزام من الأرض » على الحدود بين الدولتين حتى لا تتكرر أشباه هذه الأحداث . « لهذا أمر ملك الفرس بأن يأتي إليها كل من ملك العرب ومرزبان (منطقة) بيت ارامايه . هذا وقد انتشرت على الحدود قوات الروم وعلى رأسها قائدها ومعهم أعرابهم . ورغبة منّا في استتباب الأمن وكدليل على صداقتنا الوطيدة فقد أقنعنا الدوكس في شهر آب (آغسطس) بأن يقوم بزيارة مرزبان نصيبين ، وهناك استقبل بحفاوة بالغة . إلاّ أنه حدث خلال تناولهما الطعام والشراب أن اجترأت طيايّه على القيام بغارة مؤلفة / من أربعمائة فارس على القرى النائية للروم . فلما بلغ هذا الخبر مسامع الروم والفرس كان له رد فعل عنيف على الطرفين ، واشتاط الدوكس غضبا وكذلك فعل الأعيان الذين كانوا في معيته واتهمونا بأننا قد دبّرنا مجيئهم إلى نصيبين بغرض تسبيب الأذى للروم »[٤٠] .

ومن هذا يتبيّن أن غارات العرب الذين ينتمون إلى « القبائل الجنوبية » والذين قدموا في أعداد كبيرة كانت سبباً في وقوع كارثة بمناطق الحدود البيزنطية التي كانت تعسكر بها قوات الروم . أما طيايّه المشار إليهم فهم قبيلة طي العربية النصرانية[٤١] التي كانت تدين بالطاعة اللخميين ؛ ويدعوهم برصوما « عبيد الفرس » أي رعاياهم ، غير أنهم كانوا بلا ريب تحت السيادة المباشرة لملك اللخميين آنذاك وهو الأسود بن المنذر . وقد طالب القائد البيزنطي الذي وصل إلى مناطق الحدود بجيشه يصحبه حلفاؤه العرب ، طالب بالتعويض عما حدث من نهب للماشية وسبي للأهالي . أما المرزبان فقد طرح عليهم الرأي بتبادل الغنائم والأسرى وبالاهتمام بتخطيط الحدود بين الدولتين على وجه أدق ، ولهذا السبب أصدر ملك الفرس أمره إلى « ملك العرب » أي اللخميين وإلى مرزبان بيت ارامايه بالتوجه إلى المنطقة . ولكن أتُرى هل كانت دعوة

---

* أي حاكم الثغور ، وهي الولايات الواقعة على الحدود ؛ واللفظ مركب من « مرز » بمعنى الحد و « بان » بمعنى الحافظ والحارس - المترجم .

(٤٠) Synodicon Oriental. pp. 526-527 (532-533)

(٤١) W. Wright. Catalogue of the Syriac Manuscripts in the British Museum. v. II. London. 1871. pp. 986. 988

الدوكس إلى نصيبين قُصد بها الإعداد لغارة جديدة تقوم بها قبيلة طي ؟ إن من العسير القطع بذلك . وقد عرف برصوما بالمكر ، ولعل صدره كان ينطوي على نوايا سيئة . هذا وقد غضب القائد البيزنطي وصحبه لما حدث ولهم الحق في هذا .

على أية حال فإن شهادة برصوما عن غارات العرب الخاضعين للفرس غاية في الطرافة ، لأنهاتعطي صورة حيّة لحقيقة الوضع في منطقة الحدود . والصدام الذي حدث وإن لم يتحول إلى حرب إلاّ أنه يعطي مثالاً جيداً لإحدى الغارات العديدة التي بثّ بها العرب ذعراً عميق الجذور في قلوب سكان ولايات الحدود البيزنطية . ومما تجدر ملاحظته أن حكومة بيزنطة قد أرسلت إلى الحدود أيضاً بقوات « عرب بيزنطة » إلى جانب قواتها ، حتى يستطيعوا مجتمعين أن يقفوا في وجه العرب الخاضعين للخميين بقوة مضاعفة .

المنذر . . . الملك الرهيب

تنسب الرواية العربية إلى المنذر بن النعمان أنه خلف أباه على العرش مدة أربعة وأربعين عاماً . وهذه المجموعة من السنين يوردها كل من الطبري وحمزة ، وإن كانت عند الطبري تبدأ بحكم بهرام جور وتنتهي على أيام فيروز(٤٢) . ويتفق الباحثون على تسمية المنذر هذا باسم المنذر الأول ويجعلون هنداً الغسّانية أماً له . وهند / هذه يذكرها الطبري اعتماداً على هشام ؛ كذلك يذكرها حمزة معتمداً على الرواية نفسها(٤٣) . وتكمل مادة المؤرخين البيزنطيين بشكل ملحوظ ماهو معروف عن المنذر في المصادر العربية .

67/6

وأم الأسْوَد بن المنذر تطلق عليها المصادر اسم هر ، وأصلها من لخم من « بني الهيجومانه » . ونولدكه مُحِقٌ فيما ذهب إليه عندما أبصر في هذا الاسم أحفاداً لشخص كان يحمل لقب « هيجمون » أي الحاكم (وهي باليونانية hegemon ، وفي صيغة المؤنث hegoumene)(٤٤)* . وقد حكم الأسود عشرين سنة وفي فترة واحدة مع ملوك الفرس فيروز وبلاش وقُباد . ومعلوم لدينا أن سني حكم ملوك اللخميين موثوق من صحتها إلى حد ما ، لأنها تعتمد على قوائم عُملت بالحيرة نفسها . وقد أورد الطبري ملاحظة صغيرة مفادها أن الأسود هذا « هو نفس ذلك الذي أسرته الفرس »(٤٥) ، ولكن لا توجد أية معطيات للرد على التساؤل : متى كان هذا وأين كان موضع حدوثه . وتورد بعض المصادر أخباراً متضاربة عن صدامات جرت بين الأسود والغساسنة ، يزعم

---

(٤٢) Nöldeke-Tabari, p. 132; Hamza Isphanensis. Annales, p. 103

(٤٣) Nöldeke-Tabari, p. 132; Hamza Ispahanensis. Annales, p. 103; G. Rothstein. Die Dynastie der Lahmiden... p. 68

(٤٤) Nöldeke-Tabari, p. 133, nota 1

* إن دخول هذا اللفظ اليوناني في لغة العرب قبل الاسلام يوحي بأن لفظ «هيمن» قد يرتفع في الأصل إليه أيضاً ، لأنه يعني القيام بأمر الناس ومراقبتهم . والمهيمن من أسماء الله « في الكتب القديمة » كما يقول اللسان . لكل هذا فإن ترجمة لفظ hegemonia على أيامنا هذه بلفظ «هيمنة» فيه الكثير من التوفيق ، ولعله ليس من الضروري أن يكون محض صدفة ـ المترجم .

(٤٥) Hamza Ispahanensis, p. 104; Nöldeke-Tabari, p. 133

بعضها أن الأسود قد أسر أفراداً من الغساسنة ، بينما تزعم الأخرى أن الأسود هو الذي أسرته الغساسنة ،[٤٦] . وعليه فإن من العسير الاعتماد على هذه المادة التي تعود إلى عصور تلت ذلك بوقت طويل .

وفيما عدا الاسم فليست هنالك معطيات بصدد المنذر الثاني أخي الأسود . غير أن النعمان الثاني بن الأسود معروف لنا من عدد من المصادر . ولا يخلو من مغزى بالنسبة للوضع العام للقبائل العربية أن أهل الأنساب يقولون إن اسم والدة النعمان الثاني هو أم وأنها من كندة ، وكانت أختاً للحارث بن عمرو . وهذا يقف دليلاً على أنه برغم الخلافات فقد كانت هنالك أيضاً روابط الزواج والمصاهرة بين الطبقات الحاكمة للقبائل العربية . زد على هذا أن الحارث بن عمرو بن حجر الكندي كان يُعدّ من أقرباء ملكة حمير لأنه كان ابناً لأختها[٤٧] .

وتشهد المصادر بشجاعة النعمان الثاني وبسالته في القتال . وقد قامت القبائل التي كان على رأسها بغارة على ولاية الفراتية Euphratesia [التابعة لبيزنطة ، وكانت تحمل من قبل اسم كوماجينه Kommagene]عام ٤٩٧ ؛ وذلك حين انقض « البرابرة الإسكينيون » من عدة جهاتٍ على أرض الجزيرة وفينيقية وفلسطين[٤٨] . ولكنهم عند قرية بيت ريسه Betrapsaبسورية هُزموا على يد الاستراتيج اوجينيوس Eugenius الذي أجمعت المصادر على « شجاعته »[٤٩] . وكان « الذين انتصر عليهم هم من قبيلة الفيلارخ نآمان (النعمان) وينتمون إلى الذين ارتبطوا بحلف مع الفرس » . وفي اكتوبر من عام ٥٠٢ (شهر تشرين من عام ٨١٤ وفقاً للتقويم السلوقي) / طلب قباد إلى النعمان أن يعاونه بجذب اهتمام قوات الروم بعيداً عنه ، لأنه كان مشغولاً آنذاك 59 بحصار طويل لمدينة آمد بأرض الجزيرة . فنفذ النعمان بقواته في نوفمبر (شهر تشرين الثاني) من العام نفسه إلى منطقة حرّان من الجنوب فأعمل فيها تخريباً وسبياً ذريعَيْن.وظل يتقدم حتى بلغ اذاسا [الرها][٥٠] . « وإلى جانب ما قام به من نهب للماشية والأمتعة والغنائم من جميع الأنواع ، سبى خمسماية وثمانية عشر ألف شخص عدا من قُتلوا . وكان سبب وجود هذه الأعداد الغفيرة من الناس بالمناطق ا لريفية أن صادف ذلك زمن جني العنب ، بحيث لم يخرج القرويون وحدهم لجنيه بل وخرج معهم عدد كبير من أهالي حرّان واذاسا ولذا وقعوا في الأسر » . هذا وقد أغلقت أبواب اذاسا جميعها ووضعت عليها حراسة مشدّدة . فلما رأى الاستراتيج اوجينيوس الذي مرّ ذكره « أن ليس باستطاعته مهاجمة جميع وحدات الفرس في آن واحد جمع كل ما تبقى لديه من القوات واتجه نحو الوحدة الفارسية التي كانت ترابط بمدينة ثيودوسيوبول Thedosiopolis [أرضروم]

---

(٤٦) G. Rothstein, Die Dynastie der Lahmiden...., p. 73

(٤٧) Noldeke-Tabari, pp. 148, 169

(٤٨) Evagrius, Historia ecclesiastica, III, 36, ed. J. Bidez and L. Parmentier, London, 1898, p. 135

(٤٩) Theophanes, Chronographia, rec. C. De Boor, I, Lipsiae, 1883, p. 141

(٥٠) Joshua the Stylite, Chronicle, ed. by W. Wright, Cambridge, 1882, No. 52; N. Pigulevskia, Mesopotamia na rubeje V vv., L., 1940, str. 150

فأبادها عن آخرها واحتل المدينة » .(٥١) .

وفي عام ٥٠٣ تقدم « عرب الفرس » وقاموا بغارة على نهر الخابور صدها دوكس [قائد حامية] قلِّلينيقه (الرقة) المدعوطيموسطراط وقضى على عدد كبير منهم . عند ذلك خشي النعمان أن يغير بنو ثعلبة على قبيلته لخم ؛ وكانت بيزنطة قد عقدت حلفاً معهم في عام ٥٠٢ . وقد وجّه بنو ثعلبة ضربتهم إلى حيرة النعمان عاصمة دولة اللخميين التي كانت آنذاك بلا حراسة بسبب خروج الجيش في حملة عسكرية(٥٢) . ويبدو أنه في تلك الأثناء كان يجري« إعداد قافلة مرسلة إليه »(أي النعمان) وتمّ تحميل الإبل ، فوضع عرب الروم يدهم عليها وقتلوا كل من وجدوه هناك . غير أنهم لم يبقوا بالحيرة نفسها (أي بالمعسكر) الذي لم يوجد به نافخ نار من السكان أو الجند « لأن الحيرة كانت قد ارتحلت داخل الصحراء » كما ورد حرفياً بالمتن .

وقد شارك جيش اللخميين في عدد من المعارك ؛ إلّا أنه في الواقعة الحاسمة قرب قرقيسيا عند نهر الخابور أصيب النعمان بجرح في رأسه « فذهب إلى خيمته ورقد بها حتى فارق الحياة بعد ثلاثة أيام » . وهنا يضيف المصدر السرياني « فنصب قباد مكان النعمان ملكاً آخر » ، دون أن يذكر اسمه(٥٣) . غير أن المصادر العربية تحدّد ذلك بقولها إنه بعد الأعوام الأربعة التي حكم فيها النعمان اعتلى عرش الحيرة أبو يعفر ؛ ولم يكن هذا الأخير وريثاً مباشراً /أو كان ينتسب إلى قبيلة لخم . وبعد ثلاثة أعوام من ذلك انتقل عرش الحيرة إلى لخمي آخر هو المنذر الثالث الذي عرفته المصادر اليونانية باسم الاموندروس هوزكيكس (Alamoundrs ho Sakikas) ، نسبة إلى أمه [أي المنذر بن الشقيقة] . وتعدّه المصادر السريانية ابناً للنعمان ؛ وبالطريقة نفسها يطلق عليه تاريخ سعرت النصراني المدوّن بالعربية اسم « المنذر بن النعمان ملك العرب »(٥٤) . غير أن الرواية العربية المتواترة تعطي اسم أمه على أنه ماء السماء ، بينما تدعو أباه امرأ القيس البدأ ذا القرنين(٥٥) . ولقب ذي القرنين هذا الذي أطلق على امراء عرب آخرين مأخوذ في الأصل من القصص الأسطوري عن الاسكندر المقدوني . من هذا يتبيّن أن أسرة اللخميين لم تبق على العرش بلا انقطاع لا في هذه الحالة أو تلك ، إذا ما جعلنا اعتمادنا على الأنساب التي حفظها لنا العرب . ولعلّ يعفر قد جرى تنصيبه سريعاً على يد قباد ليحل بطريقة أو أخرى محل القائد العربي الصريع . أما المنذر الثالث بن الشقيقة فقد كان ألمع أفراد بيت اللخميين ، وهو معروف تماماً خلال العديد من مصادر القرن السادس . وعلى ما سنرى فإن ملك الحيرة كان على صلة

70

(٥١) Joshua the Stylite. Chronicle. No. 52; N. Pigulevskia. Mesopotamia. Khronika Ieshu Stilita. No. 52. p. 150; B. Rubin. Das Zeitalter Justinians. p. 271.

(٥٢) Joshua the Stylite. Chronicle. No. 51. p. 153; G. Rothstein. Die Dynastie der Lahmiden..... p. 74; A Christensen. l'Iran sous Les Sassanides. 2 me éd.. Kopenhavn. 1944. p. 352

(٥٣) Joshua the Stylite. Chronicle. No. 57-58, p. 153

(٥٤) Chronique de Seert. publ. et. trad. par Addai Scher. Seconde partie. XXII. Patrologia Orientalis, v. 7. Paris. 1911. pp. 142-143

(٥٥) Nöldeke - Tabari, p. 196. nota; Hamza isphanensis. annales, p. 105)82(.

وثيقة بالساسانيين . فالحركة المزدكية التي جرّت إلى سلسلة من التغييرات بين الشخصيات السياسية القريبة
قباد أدّت كذلك إلى أن يفقد المنذر عرشه لبضعة أعوام ؛ غير أنه لم يلبث أن عاد من جديد إلى الحيرة . ا
امتدت فترة حكم المنذر لنصف قرن بدأت من عام ٥٠٥ وانتهت في عام ٥٥٤(٥٦) .

وقصة فقدان النعمان عرشه لبضعة أعوام تستند على روايات عربية مصدرها هشام الكلبي . ومعلو
عداءً دموياً كان قد استحكم لوقت طويل بين أسرة امرىء القيس الكندي واللخميين . وإلى قبيلة ؟
ينتسب الحارث بن عمرو بن حجر آكل المُرار وولداه حجر (أجَروس Agaros) ومليكرم (بدي
Badichremos) الذين أخذوا طرفاً في الغارات على ولايتي سورية وفينيقية البيزنطيتين(٥٧) . غير أن الأع
العسكرية الظافرة للحارث بلغت أوجها في الأهمية عندما اتجه صوب العراق ، وبذا أصبح خطراً مباشراً
اللخميين . وينسب إليه بالذات انتزاع السلطة من عرب الفرس ، كما أن اسمه يرتبط بالحركة المزدكية الت
تؤد إلى اضعاف حكم الشاهنشاهات فحسب بل وإلى اضعاف حكم اللخميين كذلك . وبهذا سنحت الفر
للحارث « لطرد المنذر من عاصمته » ، أو كما يقول المصدر « وهرب المنذر من دار مملكته » ، وأن ينتزع العر
لنفسه(٥٨) . والجدير بالملاحظة أن موضع إقامته وعاصمته عند ابن الأثير هي الأنبار وليست الحيرة ؛ كما
هشاماً الكلبي بيّن أن الحارث بن عمرو لا يرد اسمه في سلسلة ملوك الحيرة ، مستنداً في هذا على رواية أبي
وبهذا عُدّ / مغتصباً للعرش(٥٩) . وهذه التفاصيل تكشف عن سر العداء الذي نشب فيما بعد بين الم
والحارث وأدّى إلى مصرع هذا الأخير على يد المنذر . وتردُّ المصادر العربية زعزعة وضع المنذر إلى بسط
حمايته على المزدكيين ، كما تنسب استعادته لعرشه إلى خسرو عدو المزدكية* .

وقد أورد الطبري قصة يغلب عليها طابع الإمتاع عن مقابلة جرت لقباد مع الحارث بن عمرو الكندي
غير أنه لا يخلو من فائدة تاريخية توكيده في هذه القصة لواقعة انتصار الحارث على المنذر الثالث (وإن كان
أورد نسبه هنا في صورة مغلوطة) وانتزاعه العرش . ويغلب على الظن أن القبائل المقاتلة التي خضـ
للكندي قامت بغارة على السواد فاجتازت الحدود عند الفرات وأصرّت على البقاء بالمنطقة ، مما جعل الحار
يطالب قباد بجزء من هذه المنطقة لنفسه . وأخيراً ، وعلى ضوء أحدث الكشوف الأثرية التي تمّ فيها الع

(٥٦) Nöldeke-Tabari. p. 170: G. Rothstein. Die Dynastie der Lahmiden...... pp. 71. 79

(٥٧) Theophanes. Chronographia. pp. 141. 144

(٥٨) Hamza Ispahanensis. Annales. p. 106 (83)

(٥٩) شرحه ، ص ١٠٧ (٨٤)

(٦٠) ldeke-Tabari. pp. 170-171. nota 4: G. Rothstein. Die Dynastie der Lahmiden....pp. 88-89; A. Christensen. L'Iran sous les Sassanides. pp. 358-359. 361

* غير أن ابن خلدون (وهو على معرفة جيدة بتاريخ كندة) يقدم لنا رواية مخالفة ، حين يقول « وكان المنذر قد طلب من قباد أن يمده بجـ
فامتنع عن مساعدته فكتب المنذر إلى الحارث بن عمرو يطلب منه بأن يسمح له بأن يضمه إليه ، فحوله الحارث إليه وزوجه ابنته هـ
(الجزء الثاني ، ص ٥٧٠ - ٥٧١) - المترجم .

على رقوم بالجنوب العربي فإن الخبر القائل بأن الحارث أرسل إلى تبّع ليقوم بحملة ضد ايران يكتسب حق الواقعة التاريخية . وستحدث عن هذا فيما يلي من الكتاب خلال تحليلنا للرقوم المتعلقة بتاريخ الحملات بوسط الجزيرة العربية . ولهشام بن الكلبي الحق في أن يوكد أن تبّعاً ملك حمير جمع جنده وزحف حتى بلغ الحيرة[٦١] ؛ وهو أمر يجب ألا يؤخذ بطبيعة الحال على إطلاقه وإن وجد بعض التأكيد فيما ورد بالرقوم السبئية . ولقد أصبح معلوماً الآن أنه في عام ٥١٦ تقاتل المنذر في مناطق وسط الجزيرة العربية عند وادي مأسل ، ويشهل بذلك الرقيم Ry 510 ؛ كما أنه قام في عام ٥١٨ (٨٣٠ وفقاً للتقويم السلوقي) بغارة عنيفة على البيزنطيين[٦٢] ، وظلّ اسمه حيّاً في صفحات تاريخ الحروب التي اندلعت في ذلك العهد بالشرق الأدنى . وبهذا فإن استعادة ا لمنذر لعرشه تكون قد حدثت قبل وقت طويل من ا لهزيمة التامة للمزدكية في عام ٥٢٨ والتي يرتبط بها مصرع الحارث بن عمرو الذي قتله المنذر[٦٣] . ويغلب على الظن أن انتزاع الحارث للسلطة من « عرب الفرس » يرجع إلى الفترة بين اعتلاء المنذر العرش وبين عام ٥١٦ ، وأن ذلك قد حدث لفترة قصيرة . هذا ما افترضه نولدكه الذي يرى أن انتزاع الحارث للسلطة لم يدم طويلاً ولم يُكتب له البقاء[٦٤] ؛ والرقيم Ry 510 الذي يسمح بتحديد حملة المنذر لم يكن معروفاً لنولدكه . واستعادة المنذر لعرشه لم تكن لتحدث إلاّ بتدخل من الفرس ؛ ومن الجائز تماماً / ألاّ تكون استعادة العرش هذه مرتبطة بالانهيار الكامل للمزدكية بل 72 بسبب ضعف طارىء عليها ، وأنه عقب استعادة قباد للعرش لم يعُد ممثلو هذه الحركة يتمتعون بعطف الملك الذي لم يعُد يحسب لهم حساباً كما كان يفعل في الماضي ؛ لذا كان بمقدوره ارجاع المنذر إلى عرشه .

وقد رجّح اولندر ـ معتمداً في هذا على الرواية المتواترة لدى بكر ـ بأن سيطرة الحارث الكندي على مملكة اللخميين إنما تعود إلى سنوات الاضطراب ٥٠٣ ـ ٥٠٦ ، ولكنه يضيف بأن هذه السيطرة إنما كانت جزئية ولم تنسحب إلاّ على قسم من أملاكهم . ولم يكن المنذر هو الذي أعقب النعمان على العرش في عام ٥٠٣ بل أبو يعفر ، الذي أخذ المنذر يبحث عن العون ضده . ولم يكن بوسع الفرس تقديم هذا العون لأنهم هم أنفسهم كانوا في وضع عسير ؛ لذا فقد اضطر المنذر إلى طلب العون من الحارث الكندي وتزوج ابنته هنداً[٦٥] . وهذا هو السبب في أنه لم يتم الاعتراف بالمنذر إلا في عام ٥٠٥ عندما بدأ حكمه الذي استمر لنصف قرن . ويضفي هذا البحاثة أهمية مبالغاً فيها لاعتراف المنذر بالمزدكية ، والذي إنما كان في حد ذاته ضرورياً لقباد[٦٦] . وواقع

---

(٦١) Nöldeke-Tabari, pp. 148 - 150

(٦٢) Chronicon miscellaneum ad A.D. 724 pertinens. ed. E.W. Brooks. interpr. est. I.B. Chabot. CSCO. Scriptores syri. series tertia. Parisiis, 1903. v. 4, p. 143

(٦٣) (عام موت الحارث ، أنظر: Nöldeke - Tabari. p. 446) Joannes Malalas. Chronographia. Bonn. 1831. pp. 434-435 : G. Olinder. the kings of Kinda. Lund. 1927, p. 66i G. Rothstein. Die Dynastie der Lahmiden..., p. 89.

(٦٤) Nöldeke-Tabari. p. 171. nota 1: A. Christensen. L'Iran pp. 358-359

(٦٥) G. Olinder, The Kings of Kinda. pp. 61-62

(٦٦) شرحه ، ص ٦٣ ـ ٦٤

الأمر أنه وجدت عوامل سياسية كبرى هي التي تركت أثرها على هذا النزاع بين المتنافسين الاثنين من أجل السيطرة على القبائل العربية الشمالية . وقد لاحظنا فيما سبق أن الصلات بين كندة ولخم قد مرت بما يشبه المرحلتين ، الأولى منهما تتعلق بضعف المزدكية وحاميها قباد ، أما الثانية فتتعلق بالقضاء عليها . ومن ثم فقد وجب أن يُعَد نفوذ الحارث الكندي على جزء من العراق أمراًمعترفاً به من ايران[٦٧] . وبهذا فإن ما قدمّناه من استقراءات للباحثين السابقين تتضافر جميعها لتقديم لوحة لحقيقة الوضع السائد بالحيرة في العقود الأولى من القرن السادس .

أما إن كان في استطاعة المنذر أن يعتمد على الحارث حيناً من الوقت ، وهو فيما يبدو لنا أمر غير وارد ، فإن تلك العلاقات ما كان لها أن تنتهي إلى ما انتهت إليه من إراقة للدماء . ولكن الاحتمال الأقرب هو أن قباد قدّم بعض العون للكندي وشجّعه بهدف إضعاف قوة اللخميين المتزايدة بلا توقف وميلهم إلى الاستقلال . ومما لا شك فيه أن الوضع الذي تشكّل بايران بعد الانهيار النهائي لأنصار المزدكية على يد خسرو وقباد مازال على قيد الحياة ، قد ترك أثره على وضع القبائل في الشرق كما جعل المنذر يحس بأنه أصبح حر التصرف يفعل ما يشاء .

وتضم الحوليات البيزنطية بعض المعطيات المعقّدة ، مما يصعب تفسيرها . فنراها مثلاً تعد الحارث الكندي فيلارخاً رومانياً ، لذا فإن نشاطه بمناطق العراق واعتراف ايران له ببعض الحقوق على جزء من المناطق لم يقف عائقاً في هذا السبيل . غير أن مجرد حفظ العلاقات مع ممثلي السلطة العسكرية البيزنطية كان في ذاته أمراً عسيراً بالنسبة له . ويمكن إدراك هذه الحقيقة فيما حدث من بعد عندما اشتد ساعد المنذر / بدرجة كبيرة في حين ضعف وضع الحارث ؛ وقد كان النزاع الذي شبّ فيما بعد بين الحارث وبين الدوكس [القائد] ديوميدس من أسباب هربه ثم هلاكه على يد ملك الحيرة .

الحيرة وسياسة ايران الخارجية

بعد أن ضمن المنذر لنفسه وضعاً مستقراً ومساندة من جانب الساسانيين شرع في اتباع سياسة خارجية نشطة ؛ فقد امتد نشاطه إلى المناطق الوسطى من الجزيرة العربية ، هذا عدا الغارات المستمرة على حدود الدولة البيزنطية التي بث الذعر في نفوس سكانها وترك قواتها العسكرية في حالة من التوتر المستديم .

والآن بفضل الرقوم السبئية التي تم العثور عليها منذ أمد غير بعيد فإنه يمكن القول باطمئنان بوجود علاقات ذات أهمية لدولة اللخميين وبوجه خاص تدعيمها لمصالحها في المناطق الوسطى من الجزيرة العربية

---

(٦٧) شرحه ، ص ٦٤ - ٦٥ ؛ هذا الموقف اتخذه أيضا روبين (B. Rubin, Das Zeitalter Justinianus, pp. 272-273) .

بقوة السلاح وذلك من خلال صدامها مع الحميريين . وحتى فيما يتعلق بعام ٥١٦ من الميلاد (٦٣١ من التقويم السبئي) تم العثور على تفاصيل تتعلق بأعمال عسكرية للمنذر وردت في رقيم قام بكشفه البروفسور عونزاغو ريكمانس ونشره مرتين تحت رقم Ry446 ورقم Ry510[٦٨] ؛ وألقى الضوء على هذا الرقيم جاك ريكمانس[٦٩] وكذلك البروفسور ڤرنر كاسكل[٧٠] والبروفسور سدني اسمث[٧١]. وقد تم الكشف عن هذا الرقيم بوادي مأسل في منتصف الطريق بين مكة والرياض إلى ناحية اليمين من الرقيم Ry509 ؛ وهو محفور على صخرة من البازلت . واسم مأسل جمحان كان معروفاً للهمداني كما هو معروف للبدو حتى أيامنا هذه .

ويقرأ الباحثان الأولان هذا الرقيم على الوجه الآتي :

« معد يكرب يعفر ملك سبأ [و] ذوريدان [و] حضر موت [و] يمنات وأعرابها بالنجاد والتهام » أمر بنقش هذا الرقيم بمأسل جمحان . وقد اضطلع معد يكرب بالحملة لأن عرب ق س د م « المستعمرات العسكرية » طلبوا منه العون بسبب غارة المنذر عليهم . وقد تقاتل معه جيش معد يكرب الذي كان يضم « قبائل سبأ وحمير ورحبتن وحضر موت ويمن مع أعرابهم كدت ومذحج ، ومع بني تُعلبت ومدرّ » - وب ع م / ء ع ر ب هـ م و / ك د ت / و م ذ ح [ج م] / و ب ع م / ب ن ي / ت ع ل ب ت / و م ذ ر (السطران السابع والثامن) . هذا وقد نُصب الرقيم في شهر ذي قيظان عام ٦٣١ (الموافق ٥١٦ ميلادية) .[٧٢]

ومعد يكرب ملك حمير هذا معروف ليس من خلال هذا الرقيم فحسب ، فهو سلف مسروق ذي نواس على العرش والذي قيل عنه في « كتاب الحميريين » بأن الشهيدة رومي قد قدمت له قروضا كبرى [٧٣] . ومذرّ هو المنذر الثالث اللخمي ملك الحيرة . ويرى ريكمانس أن الرقيم قد نصب قبل أن يلتقي جند معد يكرب بقوات المنذر . وطلب من حمير العون عرب ق س د م ، وهو اصطلاح يتفق مع مفهوم « المستعمرات » ، لأنهم تعرضوا للاضطهاد من قبل المنذر . فجاء لمساعدتهم جيش ملك سبأ المؤلف من قبائل عربية جنوبية شتى وكذلك من البدو (ء ع ر ب هـ م و ، وهو الاصطلاح الوارد في السطر الثاني) . ولا يرد شيء عن مكان المعركة

---

(٦٨) G. Ryckmans. Insriiption sud-arabes, 10me série, Le Muséon, 1953. v. 66, f. 3-4. Ry 510, pp. 307-310

(٦٩) J. Ryckmans, Inscriptions historiques sabéennes de l'Arabie Centrale, Le Muséon. 1953. v. 66, f. 3-4, p. 327

(٧٠) W. Caskel. Entdeckungen in Arabien. Arbeitsgemeinschaft für Forschung des Landes Nordrhein-Westfalen. 1954. H. 30, p. 11-13.

(٧١) S. Smith. Events in Arabia in the 6th century A.D., Bulletin of the School of Oriental and African Studies. 1954. v. 16. 16. 3, pp. 460-461

(٧٢) G. Ryckmans. Inscriptions sud-arabes. p. 308; J. Ryckmans. Inscriptions historiques..... Le Muséon. 1953. v. 66. f. 3-4, pp. 328-329

(٧٣) The Book of the Himyarites. ed. A. Moberg, Lund, 1924, p. 43-44a; N. Pigulevskia. Vizantia na putiakh v Indiu. str. 233-238

أو عن نتائجها ، لأنها لم تكن قد حدثت بعدُ . وترد في الرقيم أسماء قبائل كدت ومذحج . والأخيرة منها عرفت أيضا من مصدر سرياني هو رسالة شمعون الأرشمي حيث يرد ذكر عرب هذه القبيلة من أولئك الذين كانوا بمعسكر المنذر في عام ٥٢٤ .

ولعل الصورة المقتضبة للرقيم وأسلوبه الموجز ، كالعهد دائماً مع النقوش الحجرية ، هي التي تفسح المجال لتفسيره بطرائق شتى . فالبروفسور ڤرنر كاسكل مثلا يعرض ترجمة مخالفة للرقيم . وهو يرى أن معد يكرب والمنذر حليفان قاما بالزحف متعاونين ضد البدو الذين قطعوا الطريق في المنطقة المعروفة في الرقيم باسم مأسل جمحان وكتاع . ولهذا يقرأ كاسكل الرقيم على النحو التالي : « الملك معد يكرب يعفر . . . بيدوه من النجاد والتهام أمر بنقش هذا الرقيم لأولئك البدو الذين طردهم » والذين كانوا يقومون بالنهب . « كذلك قاتلهم » المنذر auch Muddirm hatte sie bekämpft (السطران الخامس السادس) . وقد زحفا « بقبائلهما » (ب ء ش ع ب هـ م و) سبأ وحمير ورحبتن وحضرموت ويمن ؛ وإلى جانب هذا فان الرقيم يذكر بصورة خاصة « وأعرابهم » و ب ع م / ء ع ر ب هـ م و / ك د ت / وم ذ ح ج م / و ب ع م / ب ن و / ت ع ل ب ت - كدت ومذحج « ومعهم بنو ثعلبة ومدر وسب » . وفصل « الأعراب » عن «بنو ثعلبة » في السطرين السابع والثامن من الرقيم يربطهم منطقيا بالمنذر وفقا لرأيه . غير أن التحليل اللغوي للنص الذي قام به كاسكل غير مقنع ، ولهذا فان من العسير إقراره على تفسيره . وهو في ترجمته هذه يربط اسم المنذر الوارد في السطر الخامس بأسماء قبائل كندة ومذحج بالسطر السابع، وهو أمر صعب من وجهة النظر اللغوية ؛ وكل هذا يجعل من العسير قبول قراء كاسكل[٧٤] . أما سدني اسمث فيرى أن معد يكرب قد انقضّ على « حلف بين قبائل ثعلبة والمنذر » ملك الحيرة . وكان بنو ثعلبة يمثلون « الأطراف الجنوبية لمملكة حجر والحارث ابني عمرو» . وفي السطر السابع نراه يشتق لفظ و ي هـ ن من الأصل و هـ ن ويترجمها « هاجم ، خرّب » . وكذلك يجعل النص الوارد بالسطرين السابع والثامن متعلقا بالمنذر ، إلاّ أنه يترجمه بصورة مغايرة : « وبأعرابهم كان كدت ومذحج ، أما مع ثعلبة ومع مدر فقد كان سُبى » .[٧٥] وعلى الرغم من كل هذه الترجمات المتباينة فان الرقيم / لا يزال مغلقا عسير الفهم حتى في ترجمة سدني اسمث . غير أنه يجب قبول ترجمته للفظ و ي هـ ن على أنه « هاجم ، خرّب » ، وكذلك قراءته مذر الواردة في السطر الثامن على أن المقصود بها هو « المنذر » ملك الحيرة . أما اللفظ التالي من الرقيم فقد قرئ بتوفيق بناء على صورة فوتوغرافية أخذها ا .ج . لندين A .G .Lundin على أنه و س ع بمعنى « عقد الصلح » . غير أن محاولته قراءة عـ [ـزل] بمعنى « مع دفع الاتاوة » استناداً على حرف العين

75

(٧٤) W. Caskel, Entdeckungen in Arabien, pp. 11-13

(٧٥) S. Smith, Events in Arabien..., p. 461

(٧٦) A.G. Lundin, Iujnia Aravia v VI v., Palestiniski sbornik, vyp. 8.L.. 1960, str. 25. prim. 30 i 31

(عـ) وحده ، يستحيل قبولها [٧٦] . وبهذا فان ترجمة الأسطر السادس وحتى التاسع هي كما يلي [وفقاً لرأينا] : وجاء « بقبائلهم سبأ وحمير ورحبتن وحضرموت وخربوا مع أعرابهم كدت ومذحج ومعهم بنو ثعلبة . فعقد المنذر الصلح في شهر قيظان ٦٣١ » (٦١٥ ميلادية) . والقراءة ثُعلبت بضم الثاء مرفوضة ولا مجال لقبولها ، لأن القراءة الصحيحة إنما هي ثَعلبة أو ثَعلبات المعروفة جيداً والتي ترد في الكتابة السريانية بحرف العين أيضاً ، كما ترد بالطريقة نفسها كذلك في الكتابة السبئية (السطر الثامن) . وثعلبة التي هي فرع من كندة كانت معادية للخم ، مما نراه جليا في غاراتهم في أزمنة غير بعيدة على أرض الجزيرة والعراق .

هذا الرقيم الذي أمر بنقشه معد يكرب يقف شاهداً على حملته على بلاد العرب الوسطى التي شارك فيها عدد من القبائل الخاضعة لحمير . هذا ويرد ذكر مجموعة قبائل « كدت ومذحج ومعهم بنو ثعلبة » كل على حدة على الرغم من كونهم حلفاء للحميريين ، لأن المناطق التي نزلوها من بلاد العرب تقع إلى الشمال من هؤلاء . وبهذا فإنه يجب الافتراض بأنهم هم « الأعراب » المشار إليهم في السطر الخامس من الرقيم والذين طلبوا العون من معد يكرب لمواجهة المنذر .

والرقيم يوكد العداء بين كندة ولخم ، وهذا هو الذي دفع النعمان في رأينا إلى القيام بهذه المحاولة لتقويض وضع أعدائه ببلاد العرب فيضعف بهذا كلمتهم بل وربما يستطيع طردهم من العراق . وقد وضع معد يكرب قواته في مواجهة المنذر محاولاً بهذا الحفاظ على نفوذه ببلاد العرب الوسطى حتى لا يفسح المجال للخميين ومن ثم للنفوذ الفارسي هناك . ولقد اضطر المنذر في العقد الأول من القرن السادس إلى أن يتحمّل الكنديين ، باذلاً جهده ما أمكن في تقويض سلطانهم .

والرقيم Ry510 وثيقة هامة تشهد بأن الحملات العسكرية للخميين امتدت إلى المناطق الوسطى للجزيرة العربية حيث اصطدمت مصالح بعض الحكومات العربية مثل كندة التي امتدت أملاكها إلى جنوبي فينيقون ، ومعدّ التي ثبّتت أقدامها بالمناطق الوسطى للجزيرة العربية . ولم تفصم أيٌّ منها عُراها مع حمير ، ذلك الشطر من قبائلهم الذي ظل بالجنوب العربي . فعلاقات الصداقة بين القبائل العربية على اختلافها لم يعرف عنها الدوام والاستمرار ، بل كان الشأن بها أن تتغير بسهولة./ وقد أثّر على ميزان القوى عوامل جديدة ، إذ كانت القبائل المتحالفة تنقض اتفاقها لتنقلب العلاقة إلى عداء ، ثم تتحالف من جديد حيناً من الوقت لتتغير على عدو آخر .

76

ولم تكن الأعمال العسكرية في وسط الجزيرة عام ٥١٦ هي التعبير الوحيد عن مصلحة اللخميين في هذه المناطق ، إذ أنها تجددت أيضاً في الأعوام التي أعقبت ذلك . ولكن أطول نشاط للمنذر وأكثره نجاحاً كان بأراضي الدولة البيزنطية التي انقضّ عليها على حين غرّة بدرجة من العنف والقسوة ارتعدت معها رعباً فرائص

أرض الجزيرة وسورية وولايات فلسطين . وتعود معرفتنا بغارات المنذر إلى أيام الامبراطور يوسطنيان ، فالتاريخ السرياني المجهول المؤلف يورد نبأً عن غارته الأولى التي حدثت عام ٨٣٠ من التقويم السلوقي (٥١٩ ميلادية)(٧٧) .

وهناك رواية سريانية أخرى وردت بالمصنف التاريخي المنسوب إلى زكريا Pseudo-Zacharia تثبت تخريب المنذر لمناطق حمص وأفاميه . فقد جاء فيها : « وطالب قباد ملك الفرس بإلحاح أن تُحمل إليه الاتاوة ومقدارها خمسمائة قنطار من الذهب التي كان يدفعها إليه امبراطور الروم لينفقها على القوات الفارسية التي كانت تقوم بحراسة الباب [باب الأبواب] ضد الهون . لذا فقد أرسل من وقت لآخر عَرَبَه إلى مناطق الروم حيث انتهبوها وأخذوا أهلها سبايا(٧٨) . وقد رد الروم على ذلك باقتحام منطقة ارزن التابعة للفرس وحدود نصيبين وقاموا بنهبها . لهذا بعث كل من الملكين يطلب عقد معاهدة ، فأرسل يوسطنيان رجلين هما هيباتيوس وفرزمان ، أما قباد فأرسل اشتابيد . وقد تداول الطرفان طويلاً على الحدود وكانا يبعثان بنتائج مفاوضاتها إلى الملكين عن طريق خيل البريد (Veredarii) ولكنهما لم يصلا إلى اتفاق على الصلح(٧٩) وظل العداء مستحكماً بين الطرفين . وتقدم المنذر ملك العرب حتى وصل إلى حدود اذاسا وافاميه ، كما اقتحم حدود منطقة انطاكية الفينة بعد الأخرى وهناك وضع يده على أشياء كثيرة حملها معه . من ذلك أنه سبى أربعمائة فتاة كنّ قد وقعن في الأسر بكنيسة الرسول توما بحمص فقدّمهن قرباناً للإلهة الزهرة (العُزّى) ، كذلك وقع في الأسر بتلك الكنيسة نفسها شيخ هرم هو الناسك داده الذي رأى بعيني رأسه كل هذا وقصّه عليّ » .(٨٠)

ويكاد يتفق حرفياً مع متن زكريا نص مقابل له من تاريخ ميخائيل السرياني يقول فيه : « مطالبة قباد ملك الفرس يوسطنيان (يوسطين) ملك الروم بالقناطير الخمسة التي كانت تدفع للإنفاق على جيش الفرس الذي كان يحرس الباب من الهون . فقد أخذ ملك الفرس يرسل بعربه إلى أرض الروم حيث نهبوا وسبوا . وقد أغار المنذر العربي على أرض الدلميين أي بليخو و خابور وقام بنهبها . واضطُرّ الروم من أهل الثغور إلى الرحيل إلى أرزن وإلى أرض نصيبين فقاموا بسبيهم ونهبوا وقتلوا وقضوا على كل شيء . ثم أغار المنذر ملك العرب على حمص وانطاكية فقتل وسبى وخرّب كل عامر وأخذ معه عدداً من الخلق . واختار من السبى

(٧٧) Chronicon misellaneum ad annum Domini 724 pertinens, ed. E.W. Brooks, interpr. est J.B. Chabot. CSCO. Scriptores syri. series tertia. t. IV, p. 143

(٧٨) وضع ناشر متن زكريا المليطي بين قائمين الألفاظ الآتية من حوليات ميخائيل السرياني (t.IV, p. 277) : [فتوجه المنذر العربي وسبى جميع بلاد الدلميين ، أي بليخو خابور] . غير أن نهب العرب لمناطق بليخ والخابور يرجع إلى زمن حرب ٥٠٢ ـ ٥٠٣ ، لذا فإن ميخائيل ارتكب خطأً بنسبتها إلى وقت تال لذلك .

(٧٩) K. Ahrens — G. Krüger, Die sogenannte Kirchengeschichte des Zacharias Rhetor in deutscher Übersetzung, Leipzig, 1899, p. 158

(٨٠) Zacharias Rhetor, Historia ecclesiastica, VIII. 5. Corpus scriptorum christianorum orientalium Scriptores syri. series tertia, t. VI, textus, pp. 77-78

أربعمائة فتاة انتزعن عنوة من كنيسة الرسول توما بحمص فقدمهن قرباناً للالهة الزهرة (العزّى). كل هذا راه بعيني رأسه الناسك داده الذي كان معهن من جملة السبى وقصّ ذلك بعد عودته من الأسر »(٨١) .

وبهذا تكون الرواية الواردة بالتاريخ المنسوب لزكريا الملطى قد رويت على لسان شاهد لتلك الأحداث . ومفوضا بيزنطة اللذان مر ذكرهما ، وكان بعث بهما الامبراطور يوسطين للتفاوض ، معروفان من مصادر أخرى . فهيپاتيوس هو ابن سكونديه أخت الامبراطور انسطاس ؛ أما فرزمان فأصله من لازقة . وقد شارك كلاهما في الحرب البيزنطية ـ الفارسية عام ٥٠٢ ـ ٥٠٣(٨٢) . وهنا يرد ذكرهما في عهد حكم الامبراطور يوسطين . أما التاريخ الدقيق للمفاوضات ولغارة المنذر فلم يرد بشأنها ذكر . ويرجّح أ .أ . ڤاسيليڤ A.A.Vasiliev أن كلتا الحملتين اللتين ورد ذكرهما في التاريخ السرياني قد حدثتا عام ٥٢٣(٨٣) . وفي تاريخ زكريا يقع هذا الفصل عقب ذكره للروايات المتعلقة بعام ٨٣٦ من التقويم السلوقي وإلى الاندقطيون الثالثة أو الرابعة وهو ما يوافق عامي ٥٢٥ و ٥٢٦ للميلاد .(٨٤) .

وقرب نهاية حكم يوسطين ، وبُعَيْد تتويج يوسطنيان وتيودورا (الاندقطيون الثامنة) يروي ملالس الآتي : « تعيين الملكين البطريقَ هيپاتيوس استراتيلاتَ للمشرق لكي يقوم بحراسة المناطق الشرقية من غارات العرب »(٨٥) . وواقعة تعيين هيپاتيوس معروفة لثيوفانيس الذي يضيف إلى هذا أن « استراتيلات المشرق » قد حرس المنطقة من غارات العرب والفرس معاً « ودبرا اضطهاداً شديداً للمانوية ، وأصبح الكثير من الناس فريسة للخوف »(٨٦) . هذه التفاصيل يجب ربطها أيضاً بما يرويه التاريخ السرياني / الذي يورد كذلك اسم هيپاتيوس هذا . ومن الواضح أن مشاركته في السياسة الشرقية أمر معلوم لأصحاب الحوليات ، وأن تعيينه « لحراسة » الحدود البيزنطية من غارات العرب يفترض فيه قيامهم بتصرفات عدوانية . وليس هناك ما يبرر موقف الشك من رواية الخطيب زكريا ، خاصة وأن پروكوپيوس القيساري يتحدث عن تقديم القرابين على يد المنذر للزهرة (العزّى) عندما أحرق أحد أبناء الحارث الغساني تكريماً لها .

78

وهذا يعني أنه وجدت معلومات تتعلق بنشاط المنذر سبقت عام ٥٢٤ ، وهو أمر لم يتوقعه الباحثون من مصادر جديرة بالثقة(٨٧) . ذلك أن النعمان بعد استعادته لعرش الحيرة وثّق من علاقاته مع الساسانيين ووجه

---

(٨١) Michel le Syrien, Chronique, ed. par. I.B. Chabot. t. II. f. 2, pp. 270-271 (178-179) . يرد اسم الأمبراطور يوسطين لدى ميخائيل السرياني على أنه يوسطنيان الأول ، أو الأكبر .

(٨٢) Procopius Caesarensis. De bello persico. I 8, pp. 36-37; Theophanes. Chronographia, (5997), pp. 146-147

(٨٣) A.A. Vasiliev. Justin the first. Cambridge, Massachusetts, 1950, p. 227

(٨٤) Zacharias Rhetor, Historia VIII, 4, pp. 75. 76

(٨٥) Joannes Malalas. Chronographia, p. 423

(٨٦) Theophanes, Chronographia, pp. 170-171

(٨٧) راجع مثلا : R. Devréesse. Le patriaract d'Antioche, Paris, 1945, p. 255 .

اهتمامه إلى الوضع في وسط الجزيرة العربية وبثّ الذعر في مناطق الدولة البيزنطية بغاراته العنيفة . وثمة وثيقة سريانية جديرة بالاهتمام وهي في ذات الوقت معاصرة للأحداث ، تقدم فكرة جيدة عن أهمية الحيرة كمركز سياسي للقبائل العربية وكذلك عما تمتّع به المنذر من سلطان ، كما تتحدث عن ارتفاع شأن اللخميين ودخولهم في علاقات واسعة مع غيرهم من الدول والشعوب . كذلك تقدم هذه الوثيقة فكرة عن نظام دولتهم . هذه الوثيقة هي رسالة شمعون الأرشمي التي تعكس من ناحية صورة حية لظروف حياة العرب ومعيشتهم ، ولعلاقات اللخميين وعلوّ شأنهم من ناحية أخرى . وقد كشفت هذه الوثيقة عن أن المنذر لم يكن يقيم بالحيرة إقامة دائمة ، كما أن الغارات العسكرية لم تكن هي الشيء الوحيد الذي كان يشغل باله . ففي يناير من عام ٥٢٤ وعلى مسافة عشر مراحل من عاصمته ضرب خيامه بإزاء جبل الرملة هور « أعيان دولته » وجيشه . وإلى هذا الموضع تقاطرت الوفود من مختلف دول الشرق . فإلى هنا جاءه وفد من قبائل معدّ ومذحج . ولمّا كان بنو معدّ يشغلون بعض الواحات بمنطقة وسط الجزيرة وأنهم لم يقطعوا علاقاتهم مع الشطر من قبيلتهم الذي تبقى بالجنوب العربي ، فإن دوام السلام بل وحتى عقد حلف معهم كان أمراً ضرورياً بالنسبة للمنذر . كذلك وصل إلى المنذر سفير ذي نواس من حمير يحمل إليه كتاباً يحكي عن الاضطهاد الذي حاق بالنصارى في نجران . كما جاء إلى هذا الموضع في مهمة خاصة المترجم البيزنطي ابرام بن اوبور Eupor [ابراهيم بن اوفروس] والد ننّوس . وكان يصحبه شمعون الأسقف المونوفيزي لبيت أرشم الذي كان من الأتباع المتحمسين لهذه العقيدة . وكل هؤلاء وجدوا طريقهم إلى هذا الموضع الذي تجمعت فيه الخيوط السياسية للشرق الأدنى بأجمعه حيث أخذ العرب يقومون بدور أساسي . وكان على المنذر أن يجد حلاً لمشكلة وضع اللخميين ، ليس فقط بين بيزنطة وايران وإن نشّط تعاونه مع الثانية ، بل وفيما يتعلق كذلك بصلات اللخميين مع الحميريين وقبائل الجزيرة العربية . وقد زاد من تعقيد كل هذه الأمور بوجه خاص انفجار النزاع العقائدي الذي ضرب عميقاً بجذوره في التركيب الاجتماعي والعرقي لذلك العهد . وفي ظلّ هذا النزاع المعقّد حرصت كل حكومة وكل عقيدة على اجتذاب المنذر إلى جانبها ، وكان ما سيتخذه من قرار حاسم في هذا الشأن موضع ترقّب واهتمام من طرف الجميع .

79 وسفارة شمعون الأرشمي التي حدث وأن عالجنا الكلام عليها في بحث سابق لنا(٨٨) تلقي الضوء على علاقات اللخميين بالحميريين . ولقد جهد الحميريون في سياستهم الموجهة ضد النفوذ النصراني البيزنطي والتي كانت دائبة على اضطهاد النصارى ، جهدوا في أن يحصلوا على تأييد الحيرة التي كان بمقدورها بمالها من قوة خاصة وبالمعونة الفعالة من جانب ايران ، أن تقف في وجه بيزنطة وتحبط مساعيها لبسط نفوذها على طريق « الطيب » وعلى البحر الأحمر أيضاً . كذلك كان على المنذر أن يسوّي أمره مع نصارى دولته . وفوق هذا

(٨٨) N. Pigulevskia. Vizantia na putiakh v Indiu. L., 1951, str. 228 - 233, 292 - 297; B. Rubin. Das Zeitalter Justinians. pp. 310 - 311

فقد وعد ذونواس أن يعاون المنذر بثلاثة آلاف دينار[٨٩] . وثمة مصدر آخر هو « كتاب الحميريين » يوكد أن مسروقاً ذا نواس أرسل كتاباً إلى المنذر ، الأمر الذي يشير إليه عنوان الفصل الخامس والعشرين والمفقود من هذا الكتاب وهو : « قصة تفاصيل ما كتب به مسروق هذا إلى المنذر برزكيكا ملك حيرتا النعمان ضد النصارى » .[٩٠]

وابرام براوپور هوقسّ كان قد بعث به يوسطين الأول إلى المنذر لعقد الصلح وللعمل على إطلاق سراح القائدين الرومانيين اللذين كانا في الأسر وهما طيموسطراط ويوحنا . وكان ابرام ممثلاً للملك النصراني وللاتجاه السياسي المتجاوب معه ؛ أما رفيقه شمعون مؤلف الرسالة فكان يعمل لمصلحة المونوفيزيين ويدعو إلى مذهبهم . هذا وقد أدخل شمعون عدداً كبيراً من العرب في النصرانية وأقنع الأعيان ببناء بيعة نصرانية بالحيرة ، حدث وأن زارها بنفسه غير مرة[٩١] . وقد وجد المونوفيزي شمعون أن في استطاعته أن يعرب لابرام عن تقديره للعون الذي أبداه نحو « طرفنا » أي للمونوفيزيين . ولم يقف الممثل الرسمي للامبراطور يوسطين عند حد مساندة النصرانية عامّة بل والمونوفيزية ، وذلك بوصفها الشكل الذي اعتنق به النصرانية في الحيرة شطر من سكانها[٩٢] .

ومعلوم أنه وجدت بحمير جالية يهودية قوية ارتبطت بطبرية مركز اليهود الهام بفلسطين . ومهما يكن من شيء فإن المصدر الموثوق به وهو « كتاب الحميريين » يوكّد أنه كان ببلاط مسروق ذي نواس الذي عذّب النصارى « أحبار يهود من طبرية »[٩٣] . وشمعون الأرشمي نفسه / يشير إلى هذه الصلة مؤكداً أن « اليهود من أهل طبرية كانوا يبعثون من عام لآخر ومن وقت لآخر أحباراً لإثارة الشعب ضد نصارى حمير »[٩٤] . ولا توجد إشارة مباشرة إلى نفوذ يهودي بالحيرة ، غير أن التجار اليهود وجدوا سنداً وحماية لدى الساسانيين الذين أرادوا أن يجعلوا منهم كفة متوازنة مع التجار البيزنطيين . هذا وقد شجعت ايران النفوذ اليهودي بحمير لذات الدوافع التي جعلتها تفسح المجال للنساطرة المطرودين من بيزنطة .

80

وبعد أن أصبح المنذر حليفاً لذى نواس كان باستطاعته أن يعطّل الاتفاقية التي كانت بيزنطة جاهدة لعقدها بهدف التقريب بين حمير واثيوبيا ، ولكي ترتبط كذلك بعلاقات الصداقة مع النوبيين بالقارة الافريقية ومع المناطق الوسطى لجزيرة العرب . كذلك كان من الضروري لبيزنطة أن تضع البحر الأحمر والطرق الموازية

---

(٨٩) Martyrium Arethae. Acta sanctorum. Octobris, t. X, Parisiis et Romae, 1869, p. p. 742

(٩٠) The Book of Himyarites, p. 5

(٩١) John of Ephesus, Lives of the Eastern Saints. Patrologia Orientalics, XVII, I, p. 140

(٩٢) I. Guidi, La Lettera di Simeone vessovo di Beth-Arsam sapra i martyri omeriti. Memoire della classe die szienze morali, storiche e filologiche, ser. 3-e, v. VII, Romae, 1881, p. 1

(٩٣) The Book of Himyarites, p. 7a

(٩٤) Simeon Betharsamensis, Lettera, p. 4

لساحله تحت هيمنة ذلك الحلف الذي كان في جوهره موجهاً ضد ايران .

وكان المنذر نفسه ميّالاً إلى الاستجابة لرغبة ذي نواس الذي قُرىء كتابه أمام الملأ وأمام مبعوثي الدول الأجنبية وكذلك أمام جنود المنذر الموجودين في المعسكر . وفي هذا يقول شمعون « فلمّا وصلنا إلى هنالك جمع [أي المنذر] عسكره وقرأ أمامهم المكتوب ، وحكى السفير عن نكبة النصارى وعن الطريقة التي تمّ بها تعذيبهم على يد الحميريين »(٩٥) . وبعد قراءة المكتوب استدعى المنذر وهو في حال من الانفعال « جميع نصارى دولته » وقال لهم : « لقد سمعتم بما حدث ، فما عليكم الآن سوى اطراح المسيح لأنني لست خيراً من غيري من الملوك الذين يضطهدون النصارى »(٩٦) . وكان هذا في حدّ ذاته هجوماً على النصارى ، مما دفع أحد أعيانهم إلى أن يرد على المنذر بأنهم قد اعتنقوا النصرانية منذ وقت بعيد وأنهم نصارى « على دين آبائنا وآباء آبائنا » ولهذا فليس هناك ما يدعو لأن « نطّرح نصرانيتنا » . هذا وتوكد السِيَر التي دوّنها كرلس الاسكيثوبولي ، وكذلك سيرة شمعون العمودي ، اعتناق العرب للنصرانية بوصفها واقعة جديرة بالثقة .

فلمّا صاح المنذر في وجهه : « أتجرؤ على الكلام أمامي ؟ » ردّ عليه ذلك « النبيل وهو رجل معروف وشجاع في الحرب » بأنه على استعداد للقتال حتى الموت [من أجل عقيدته] ما دام سيفه « ليس أقصر من [سيوف] الآخرين » . وقد رأى ملك الحيرة ألاّ يمسّه بسوء « بسبب عشيرته » ، أي أنه خشي أن تسانده عشيرته القوية فيؤدي ذلك إلى الانقسام وتفرّق الكلمة . وقد كان بوسع الجند ألاّ يساندوا مليكهم في صدام كهذا لأن النظم الديمقراطية كانت لا تزال قوية في تلك الدولة .

وفي آخر فبراير وبداية مارس من عام ٥٢٤ ذاته وهو ما يوافق « السبت الأول من الصيام » عاد شمعون إلى حيرة النعمان التي كان قد / وصل إليها أيضاً سفير آخر من حمير يحمل حقائق مفصّلة عن الاضطهادات التي جرت بنجران . وكان النزاع قد تفجّر آنذاك بين تيارين للنصرانية جهد كل منهما في استمالة النصارى من العرب إليه ؛ فالنساطرة اتجهوا صوب ايران ، أما المونوفيزيون (اليعقوبيون) فقد اتجهوا صوب بيزنطة . ولقد كانت المصالح السياسية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالاتجاهات العقائدية ، لذا فقد عوتب شيلا جاثليق النساطرة لأنه جهد في أن يبهج قلوب « الوثنيين واليهود » بمساندته لمصالح ايران والكتلة الغالبة من الوثنيين العرب بدولة اللخميين(٩٧) .

81

أما مدى خشية بيزنطة من المنذر فتوكدها شكوى يوسطين إلى ملك اثيوبيا ايلسبوا Elesboa [الاصبحة] من ذي نواس «لأنه كتب إلى الفرس وإلى المنذر هو زكيكا طالباً إليهما أن يعاملا النصارى بذات

(٩٥) شرحه ، ص ٨

(٩٦) Chronicon Pseudo Dionysianum. Corpus scriptorum christianorum orientalium. Scriptores syri, series tertia, t. I, p. 62

(٩٧) Martyrium Arethae. Acta sanctorum, p. 742; I. Guidi. Kaiser Mundar III und die beiden moniphysitischen Bischofe, ZDMG. Bd. 35, p. 145; N. Pigulevskia, Vizantia na putiakh v Indiu. str. 277, 278

الأسلوب الذي عامل هو به النصارى المحليين ببلاده »(٩٨) . ومهما يكن من شيء فإن قرائن الأحوال تشير إلى أن المنذر لم يتخذ اجراءات مشدّدة مع نصارى دولته . وكانت مهمة السفير البيزنطي ابرام هي أن يقنع المنذر بمصالحة النصارى من أهل دولته ، وقد نجح في هذا ولكن بمساعدة النصارى العرب أنفسهم كما رأينا من الأقوال التي أوردناها قبل قليل . كذلك تم بالتالي الإفراج عن القائدين طيموسطراط ويوحنا بعد دفع فدية كبيرة(٩٩) .

ومما يسترعي الانتباه أنه وجد بمعسكر المنذر أيضاً « القوميس اجّاي Aggai بن زيتا الذي كان يشغل منصب إثنارخ Ethnarch] شيخ القبيلة] لكافة نصارى المعسكر الحربي » (پريمبولي parembole)(١٠٠) . وكان اجّاي هذا من ناحيةٍ قوميساً ، أي أنه حصل على لقب رفيع في الرتب العسكرية البيزنطية ؛ كما أنه من ناحية أخرى كان إثنارخاً ، أي أنه حصل على لقب في الزعامة القبلية . وكان للقبائل النصرانية إثنارخها [زعيمها القبلي] ، الأمر الذي يتضح من إطلاق لقب « إثنارخ النصارى » عليه . أما عن مصطلح « المعسكر الحربي » فإن لفظ پريمبولي هذا قد ورد في العديد من المصادر ؛ و « المعسكر الحربي » على نحو ما ورد في هذا النص وفي « سيرة أوفميوس » أيضاً كان يتكون من العرب الرحّل الذين عاشوا حياة متأرجحة بين البداوة والاستقرار بالمناطق المتاخمة لحدود الولايات البيزنطية أو حتى الداخلة ضمن أراضيها . وكان باستطاعة أجّاي بوصفه إثنارخاً للعرب النصارى أن يؤثر على القرار الذي اتخذه المنذر فيما يتعلق بعدم اضطهاد رعاياه النصارى .

82 ولم يحدث أن أوقفت دولة اللخميين غاراتها تماماً على « تخوم الروم » . وفي فترات السلام الواقعة بين الحروب الفارسية ـ البيزنطية كان اللخميون يقومون بغاراتهم في الربيع فينهبون ويخربون محققين بهذا أهداف ايران ، أو يخوضون الحرب على مسئوليتهم الخاصة في تواطؤ معها . لهذا فإن من العسير أن تُعدّ ألفاظ پروقوپيوس القيساري مبالغاً فيها حين قال بأن المنذر خلال خمسين عاماً « قد أذلّ الروم »(١٠١) . ولم يكن الفرس والروم آنذاك في حالة حرب ، بل إن اللخميين قاتلوا وحدهم . وفي عام ٨٣٠ من التقويم السلوقي (٥١٨ / ٥١٩ ميلادية) سجّلت الحولية السريانية هجوم اللخميين على أراضي الدولة البيزنطية . وفي رأينا أنه يجب ردّ غاراتهم الوحشية على مناطق حمص وأفاميه التي أشرنا إليها فيما سبق إلى حوالي عام ٥٢٣ أو ربما إلى عام ٥٢٥ .

وفي عام ٥٢٨ وقع صدام بين المنذر وأعدائه من كندة . فالحارث بن عمرو الذي لم يستطع البقاء

---

(٩٨) Martyrium Arethae. Acta sanctorum. Octobris..... t. X, p. 743. No. 37; N. Pigulevskia. Vizantia na putiakh v Indiu. str. 239

(٩٩) Procopius Caesarensis. De bello persico. I. 17, pp. 89-90

(١٠٠) Martyrium Arethae, p. 742

(١٠١) Procopius Caesarensis. De bello persico, p. 89

بالعراق ، اصطدم كذلك بوصفه فيلارخاً بممثلي السلطة العسكرية العليا بالولاية البيزنطية . وألفاظ ملاله المقتضبة وإشارته إلى ما نشب من عداء فسّره بعض الباحثين على أنه ثورة للحارث ضد دوكس فلسطين . ولعل هذا الاستنتاج لا يعدو أن يكون توكيداً لما حدث في واقع الأمر . وعلى أية حال فقد بلغ الحال درجة من التوتر اضطر معها الحارث إلى « شق طريقه بحدّ السيف » ليهرب مبتعداً من الحدود الرومانية . والجدير بالملاحظة أن ذلك كان عام انهيار المزدكية بايران ، ولذا فقد كان بمقدور المنذر أن يتعقب عدوه القديم . فلمّا نشب العداء بين السيلنسيار*ديوميدس دوكس فلسطين والفيلارخ الحارث سنحت لحظة الانتقام للمنذر . ذلك أن الكندي أنقذ نفسه بالهرب إلى « الحدود الداخلية » ، إلى « انديكا » [الهند] «(١٠٢) ؛ والمقصود بذلك بلاد العرب ، إذ أن من المعلوم أن انديكا كان يراد بها آنذاك ـ لدى ملاله وغيره من المؤلفين البيزنطيين ـ لابلاد الهند نفسها بل مناطق الجزيرة العربية وبصورةخاصة بلاد العرب الجنوبية . فاغتنم المنذر الفرصة وجمع جيشاً جراراً قوامه ثلاثون ألفاً « وثب به على فيلارخ الروم فأسره وقتله » . « فلمّا علم الامبراطور يوسطنيان بذلك كتب إلى الحكام العسكريين بفينيقية وعرابية وبلاد الجزيرة ، وكذلك إلى فيلارخات المقاطعات ليزحفوا عليه [أي المنذر] ويجدّوا في أثره هو وجيشه » . وكانت القوات البيزنطية تتألف من كتائب « فيلارخات المقاطعات » الذين جاءت أسماؤهم على النحو الآتي : « الفيلارخ آرثة وجنف ونآمان » . ويلي هذا تعداد القواد البيزنطيين وهم ديونيزيوس دوكس فينيقية ويوحنا دوكس الفراتية وقائد الألوف Chiliarch سباستيان . وقد انطلقت جميع هذه القوات وراء المنذر ولكنهم لم يفلحوا في اللحاق به أو بجيشه ، ذلك أن تحرك مثل هذا الجيش اللجب أثار فزعه فقر بدوره « إلى مناطق انديكا / مع جيش السرقينيين » . عند ذلك توجهت القوات البيزنطية صوب بلاد الفرس وانقضت على « مخيمه » أي معسكره « فأسروا جموعاً غفيرة من الرجال والنساء والأطفال وجمعوا ما استطاعوا جمعه من الإبل وقطعان الماشية الأخرى »(١٠٣) . ويقدم ثيوفانيس قائمة أكثر تفصيلا للغنائم التي تم الاستيلاء عليها بالمعسكر ، فقد أخذت القوات البيزنطية « الأسرى من الروم الذين وجدوهم هناك ، وأيضاً الإبل والضان والغنم والبقر وكمية كبيرة من الحرير والثياب» . ووجود مثل هذه الكمية الكبيرة من الحرير والثياب(١٠٤) يدل في وضوح على مشاركة العرب في تجارة مرور (ترانزيت) الحرير . كذلك أحرقوا أربعة حصون فارسية وأسروا من بها من العرب والفرس ، ثم رجعوا إلى بلادهم ظافرين .

83

ووجود شخصيات مختلفة تحمل اسماً واحداً في تاريخ القبائل العربية الشمالية يثير كثيراً من المشاكل . ومثل هذه المشاكل يلتقي بها المؤرخون في المصادر اليونانية التي يرد بها في آن واحد اسم آرثه Aretha (حارثه ،

---

* السيلنسيار وظيفة بيزنطية مأخوذة عن اللاتينية silentiarius ، وهو الضابط المكلف بحفظ الصمت والهدوء داخل القصر الامبراطوري بالقسطنطينية ويحمل رتبة « سناتور » (شيخ) ـ المترجم .

(١٠٢) Malalas, Chronographia, p. 434

(١٠٣) شرحه ص ٤٣٤ ـ ٤٣٥ .

(١٠٤) Theophanes, Chronographia, p. 179

أو الحارث بالعربية) لاثنين من فيلارخات البيزنطيين . ويرجع الفضل إلى نولدكه[١٠٥] في حل هذا الإبهام وذلك عندما دلّل على أن المقصود بهذا شخصان مختلفان يحملان اسماً واحداً ، أحدهما الحارث بن عمرو الكندي الذي قُتل عام ٥٢٨ على يد المنذر اللخمي والآخر هو « الفيلارخ آرثه » الذي يقترن اسمه مع اسمي جنف ونآمان[١٠٦] والمعروف جيداً كزعيم للقبائل العربية المتحالفة مع بيزنطة . وهذا الأخير هو نفس الحارث ابن جبلة من آل جفنة الذي لُقّب « ملك العرب » ومات عام ٥٧٨/ ٥٧٩ . ولقد أفردنا لأخباره المكان اللائق به في الفصل الذي سنتحدث فيه عن الغساسنة من كتابنا هذا . وجنف الذي يَرِد اسمه إلى جنب الحارث كان أيضاً من الغساسنة ؛ ويغلب على الظن أنه ينحدر كذلك من صلب جفنة شأنه في هذا شأن الحارث . ويدلل على هذا اسم جنف (أي جفنة بالعربية) .

وأما الحارث بن عمرو الكندي فقد كان هو كذلك بدوره « فيلارخ الروم آرثة » الذي « أوغل في جوف الجزيرة العربية » وذلك لصلة كندة بها ، أضف إلى هذا أنها جغرافياً كانت قريبة من ولايتي فلسطين الثانية والثالثة التابعتين لبيزنطة . وكان الحارث فيلارخاً بيزنطياً يقوم على حراسة الحدود ، فلمّا تقاعس في مهمته وغادر « الحدود البيزنطية » كان هذا سبباً كبيراً في إضعاف أمن الولايات ، وهو أمر أفاد منه المنذر[١٠٧] .

ومما يلفت النظر أن ملالة يتحدث عن الحدود الداخلية [to endoteron limiton] عند كلامه على هرب الحارث بن عمرو ، مما حمل البعض على الافتراض بأن المنذر قد لحق به بقواته وهو لا يزال داخل مجال النفوذ البيزنطي[١٠٨] . وعلى النقيض من ملالـه فإن ثيوفانيس يتحدث عن الحدود الخارجية / [to esoteron limiton] . وأغلب الظن أن كليهما إنما يعني التخوم النائية لبيزنطة وهو ما أطلق عليه اسم « الليميس » limes . ولمّا هرب المنذر نفسه في وجه القوات التي كانت تحت قيادة دوكسات فينيقية وعرابية وأرض الجزيرة ممن لم يرد ذكر لأسمائهم ، والذين انضم إليهم الفيلارخ ، تملّكه الذعر فتوجّه إلى « بلاد انديكا التي لم ينفذ إليها حتى الآن أحد من الروم »[١٠٩] ـ ويُقصد بها بلاد العرب الوسطى البعيدة عن حدود الدولة البيزنطية . وصلة اللخميين بهذه المناطق معلومة لنا من الرقوم العربية الجنوبية .

وبمصرع الحارث بن عمرو على يد المنذر اللخمي في ابريل ٥٢٨ انتهت أحداث تملّك كندة بالحيرة . وليس هذا فحسب بل وإلى حد ما كانت هذه أيضاً خاتمة المحاولة التي قامت بها قبيلة كندة لبسط نفوذها على الشمال . ولقد كان أكثر الكنديين نشاطاً بعد الحارث وأبرزهم هو قيس ، وذلك حكماً على ما بذله من جهود

84

---

(١٠٥) Nöldeke, Die Ghassanischen Fürsten...., p.11

(١٠٦) Malalas, Chronographia....., p. 435

(١٠٧) Th. Nöldeke, Die Ghassanischen Fürsten...... pp. 10 - 11; I. Kawar. The Last Days of Salih, p. 153; G. Rothstein, Die Dynastie der Lahmiden..., p. 89: B. Rubin. Das Zeitalter Justinians, p. 273.

(١٠٨) Malalas, Chronographia, p. 434; B. Rubin. Das Zeitalter Justinians, p. 273

(١٠٩) Theophanes. Chronographia, p. 179

وما أبداه من همة في تتبّع أهدافه ، ثم استغلاله للدبلوماسية البيزنطية في استعادة سلطانه ببلاد العرب على قبائل كندة ومعدّ ، وأخيراً تنصيبه فيلارخاً على فلسطين .

غير أن المنذر لم ينس تخريب معسكره واضطراره إلى الهرب ، فقام في العام التالي لذلك وهو عام ٥٢٩ بالانتقام بقسوة من الروم . وفي هذا يرد القول لدى ملاله بأنه « في ذلك الوقت هجم العربي تابع الفرس وهو المنذر على رأس قوات فارسية وعربية فخرب ولاية سورية الأولى إلى أكناف انطاكية وأحرق مواضع عديدة ؛ فلما ترامت الأخبار إلى إكزارخات Exarchs (أي القواد) الروم زحفوا عليه . وبلغ ذلك مسامع العرب فجمعوا ما استطاعوا جمعه من غنائم وهربوا مجتازين الحدود الخارجية(١١٠) » . وهذا الحادث يرد لدى ملالة قبل وقوع الاضطرابات التي كان مسرحها اسكيثوبول ، وهو يرجع بها إلى شهر يونيو من الاندقطيون السابعة . أما ثيوفانيس فيؤرخ غارة « المنذر زكيكا [ابن الشقيقة] ملك السرقبنيين » بمارس من الاندقطيون السابعة ، أي مارس ٥٢٩ . وقد بلغ العرب ضواحي انطاكية إلى ما يسمى ليتارغ (الأثارب) وحتى ضيعة الاسكفانية ، فقتلوا الكثيرين وأحرقوا كل ما هو « خارج خلقيدون » (خلقيس Chalcis) مثل « ضيعة سرميون ومزارع الكينجيين »(١١١) . غير أن تقدم الاكزارخات البيزنطيين لم يحرز أدنى نتيجة لأن العرب هربوا بسرعتهم المعهودة بعد أن جمعوا ما استطاعوا جمعه من الغنائم . وفي هذه الحال يتفق كل من ملاله وثيوفانيس على أن العرب ابتعدوا مجتازين الحدود الخارجية . وكانت أقصى مسالح البيزنطيين تقع على هذه الحدود الخارجية ، الأمر الذي سنعالج الكلام عنه بالتفصيل فيما يلي من الكتاب .

85 أما الذين وقعوا في أسر المنذر فقد استغاثوا بالبطريرك أفرام « مما حلّ بهم من كوارث » على يد السرّاقينيين ، فقد « قطعت رؤوس » البعض منهم « خشية وجود خونة بينهم » . وقد احتاج البطريرك لبعض الوقت ليرسل في طلب الأموال وجمعها من بلاد الروم لافتدائهم . ولّما علم المنذر بذلك سُرّ ووافق على الانتظار لمدة ستين يوماً ؛ كما أرسل « شيخاً عربياً اسمه طيزن » لاجراء المحادثات . ولقد جرى بانطاكية جمع الأموال من خزائن الكنائس ابتداء بخزانة البطركية ، وبهذا تم افتداء الأسرى(١١٢) .

ولما بلغت أخبار غارات عرب الفرس العاصمة اتُخذت اجراءات عاجلة ، فمن فريجية تم توجيه« عدد ليس بالقليل من المشاة » إلى بلاد العرب والفرس وهم المعروفون باسم «الليكوكرانيتيين» ؛ غير أن التوفيق لم يحالف هؤلاء الفريجيين . عند ذلك عزل يوسطنيان البطريق هيباتيوس بن سكونديته وعيّن بليزاريوس قائداً

(١١٠) Malalas, Chronographia, p. 445

(١١١) Theophanes, Chronographia, p. 178; B. Rubin, Das Zeitalter Justinians, pp. 274, 492; E. Honigmann, RE, 13, Sp. 739. Sp. 1736; E. Stein, Histoire du Bas-Empire, II, p. 287

(١١٢) Malalas, Chronographia, pp. 460 - 461

عاماً ، « استراتيج » أو « استراتيليت » ، للمشرق[١١٣] .

وفي حوالي هذا الوقت أخذت نُذُر الحرب بين بيزنطة وايران في التجمع . وقد أخفقت المحاولات لبناء قلعة مندون قرب الحدود الفارسية بهدف اتخاذ موضع حصين تجاه نصيبين . ذلك أن الفرس كانوا أكثر حذراً مما حدث في حالة بناء دارا التي هبّت فجأة على حدودهم وهم غافلون . أما في صدد مندون فقد حمي وطيس معركة ضروس كان الظفر فيها حليف الفرس فهدموا القلعة من أساسها . ولمّا راجع الروم الوضع العام خلال عام ٥٢٩ شرعوا في تحصين دارا ثغرهم الأمامي بأرض الجزيرة في شدّة وتصميم . . فلما وصل الخبر إلى بليزاريوس وهرموجين بأن الفرس يخطّطون لمحاصرة دارا أمرا بحفر خنادق دفاعية ، خاصة في اتجاه نصيبين التي كان من المتوقع أن يبدأ الفرس زحفهم منها ؛ وكانت هذه الخنادق متصلاً بعضها ببعض ولها مخارج . وقد بدأ الفرس هجومهم في يونية من عام ٥٣٠ ووجدت لدى الطرفين أعداد كبيرة من الخيالةوالمشاة . وإذا ما أخذنا بقول بروقوبيوس فإن الجيش البيزنطي قد بلغ عدده خمسة وعشرين ألف جندي في حين بلغ عدد الجيش الفارسي خمسين ألفاً[١١٤] . ولم تجر في اليوم الأول فيها عدا اشتباكات بسيطة سوى مبارزات فردية بين أهل الجسارة من الطرفين . أما في اليوم التالي فقد بدأ بعد منتصف النهار التراشق بالسهام ثم التلاحم بالأيدي حيث رجحت كفّة الروم ، وتراجع الفرس . ولكن بليزاريوس وهرموجين لم يتعقباهم[١١٥] واكتفيا بالنصر الذي أحرزاه في ساحة القتال .

86

كذلك لم ينل جيش قباد نجاحاً ما بأرمينية على الرغم من أنه كان يتألف من الأرمن المقاتلين والسونيين والهون والسبير . ودارت المعركة الحاسمة بالسهل الذي تقع فيه مدينة سَطَله Satala التابعة لبيزنطة فأجبر القائد سِتّا Sittas الفرس على رفع الحصار عن سطله واضطرهم إلى الهرب ، ولكن الروم تقاعسوا في هذه المرة أيضاً عن تعقّب العدو[١١٦] .

ولقد ظلّ أس النزاع هو مناجم الذهب بفرانجية Phrangium بأرمينية التي كان مفروضاً أن تقوم بدفع الضرائب المستحقّة عليها لايران . وأفاد من العداء بين الدولتين الكبيرتين حاكم فرانجية الذي يدعى سيمون « وهو من السكان المحليين » وكان قد عيّنه قباد ، فتوقف عن دفع الضرائب وأعلن « نفسه وفرانجية » تابعين لبيزنطة ، وإن كان في هذه الحالة لم يشرع في دفع الضرائب إليها .[١١٧]

---

(١١٣) Theophanes. Chronographia. p. 178: Malas. Chronographia. p 445; Procopius. De bello persico. I, 13. p. 60

(١١٤) شرحه ، ١ ، ١٣ ، ص ٦٣ .

(١١٥) شرحه ، ١ ، ١٤ ، ص ٧٣ - ٧٤

(١١٦) شرحه ، ١ ، ١٥ ، ص ٧٥ - ٧٦

(١١٧) شرحه ، ١ ، ١٥ ، ص ٧٨ - ٧٩

وعلى الرغم مما مُني به الفرس من فشل ذريع عند دارا وسطله إلّا أنهم لم يوافقوا على عقد الصلح وطالبوا بدفع الأموال ، فاضطر روفينوس الذي كان قد بعث به يوسطنيان إلى قباد إلى العودة بلا نتيجة (عام ٥٣١) .

وفي هذه اللحظة بالذات حين كان الفرس يخطّطون لاستعادة تفوقهم على الروم ، أخذ بزمام المبادرة المنذر اللخمي الذي يرد اسمه في حملات عام ٥٣٠ بأرض الجزيرة وارمينية . وعلى الرغم من أن العبارات التي يوردها بروقوبيوس على لسان الشخصيات التاريخية لا يمكن اعتبارها بأية حال من الأحوال مادة وثائقية ، إلّا أنه ليس في الوسع في هذه الحالة بالذات التشكك في حقيقة «التوصيات» التي قدّمها المنذر لقباد . فقد اقترح ملك اللخميين القيام بحملة على اسروينه Osroene [منطقة الرها] وعلى أرض الجزيرة ، بل واجتياز الفراتية إلى سورية التي لم تحظ بحراسة كافية على ما بلغه من طلائع العرب . « ويقال إن هناك مدينة تسمى أنطاكية غنية وواسعة ومأهولة وأكبر من كافة المدن الشرقية ولكنها غير محروسة وليس بها جنود »[١١٨] . وإذا كان لبروقوبيوس أن يدعو اللخمي احتقاراً « مليكاً » إلّا أنه محقّ بطبيعة الحال عندما يولي اهتماماً خاصاً لمكانة المنذر ونفوذه في السياسة العسكرية لايران . ويؤكّد كاتم سرّ بليزاريوس هذا أن أخطر دور في هذه الحملة إنما أخذه على عاتقه اللخمي [الذي قال لقباد] « لأنني سأسوق الجند إلى الموضع الذي أظنه أفضل موضع » . كذلك اضطلع بتوفير الماء والأغذية للجيش وهو أمر ذو حيوية خاصة في ظروف الطريق الصحراوية[١١٩] .

وبدأ الفرس زحفهم بكوماجينه Kommagene واجتازوا الفرات في مجراه الأسفل وذلك في المنطقة المعروفة باسم / أشور[١٢٠] . ويشير مصدر آخر إلى أن خيّالة المنذر عبرت من قرقيسيا إلى قللينيقه (الرقة)[١٢١] ، ثم مر الجيش في طريقة على سور وبالس Barbalissos حيث يتجه الطريق صوب أنطاكية مبتعداً من ضفة الفرات . وقد توقف الفرس وعربهم عند الجبّول أما جند الروم تحت قيادة بليزاريوس فقد تركزوا في خلقيس . وكان الدوكس سونيك قد قام بهجوم على الفرس عند الجبّول بغير إذن من بليزاريوس ، فلما علم الماجستير هرموجين وهو بهيرا بول [منبج] بهذه الأحداث سارع إلى بليزاريوس وبعد جهد أصلح بين الاثنين . وفي تلك الأثناء استولى الفرس ومعهم عربهم على عدد من المدن الصغرى واستعملوا « الحصون الخشبية » في نقب أسوار الجبّول وهدمها فدخلوا المدينة[١٢٢] . غير أنهم لم يتمكنوا من التقدم أكثر من ذلك في اتجاه انطاكية ، بل تراجعوا عائدين بذات الطريق « جاعلين نهر الفرات على يسارهم » لأنهم كانوا على ضفته الغربية[١٢٣] . ذلك أنهم خشوا خطر هجوم القوات البيزنطية المتركّزة عند خلقيس . هذا وقد سارت قوات

87

(١١٨) شرحه ، ١ ، ١٧ ، ص ٨٨ .
(١١٩) شرحه
(١٢٠) شرحه ، ١ ، ١٨ ، ص ٩١
(١٢١) Malalas, Chronographia, p. 461
(١٢٢) شرحه ، ص ٤٦٢
(١٢٣) Procopius, De bello persico, I, 18, p. 92

بليزاريوس في أعقاب الفرس حتى بلغ الفرس قللينيقه الواقعة على الضفة المقابلة من الفرات وهناك توقفوا . وأمضت قوات بليزاريوس الليل بسور الواقعة على الضفة الغربية للفرات ، وبإزاء قللينيقه لحقوا بالفرس الذين كانوا يُعدون أنفسهم للتراجع أبعد من ذلك .

ولم يكن بليزاريوس متحمساً للدخول في المعركة لأن جيشه كان مرهقاً من وعثاء الطريق ولم يذق طعاماً ، إلاّ أنه وجد نفسه مضطراً إلى الالتحام مع الفرس في ١٩ ابريل عام ٥٣١ يوم سبت النور . وفي وسط المعركة وجد الجند العرب بعضهم في مواجهة بعض ، حيث كان المنذر اللخمي بقوّاته في مواجهة قوات الحارث الغسّاني الذي كان جنده من المشاة ومعهم مشاة ليكاأونيا يحتلون الجناح الجنوبي لجيش الروم . وقد هجم اللخميون بضراوة فقسموا هذا الجناح إلى قسمين واضطروا عرب الروم إلى التقهقر[١٢٤] ، ولكن قسماً منهم ظلّ يقاتل مع الحارث[١٢٥] . غير أن الريبة في خيانة الحارث تجد طريقها برغم هذا إلى المصادر البيزنطية بلا خفاء . هذا وقد سقط الايسوريون والليكا أونيون في حومة الوغى في أعداد كبيرة لأنهم لم يكونوا حصلوا على دربة كافية . وعبر بليزاريوس مع جانب من جيشه بالقوارب إلى الضفة المقابلة من الفرات حيث تقوم قللينيقه . أما القائدان سونيك Sunik وسيوم Sium فقد ظلّا يواصلان القتال ضد الفرس . وبروكوبيوس في محاولته الدؤوب للدفاع عن بطله بليزاريوس يحكي عن محاولة بليزاريوس تنظيم قواته وكيف أخذ طرفاً مباشراً في قتال المشاة يداً بيد . ولما أرخى الليل سدوله انسحب الفرس إلى معسكرهم واتجهوا بعد ذلك إلى حدود بلادهم . ولا يخلو من مغزى أن ملاله عند حديثه عن خسائر الجانبين يذكر اسم كل واحد من البيزنطيين في مقابل واحد من الفرس ، ولكنه فيما يتعلق بالعرب يذكر اسما واحداً فقط من كل من الجانبين . / فقد سقط في حومة الوغى ابن للمنذر يدعى النعمان ، كما أسر قائد من عرب الروم يدعى ابروس Abros (أي عمرو)[١٢٦] .

88

ويعترف بروكوبيوس بأن الفرس انتصروا على جيش بليزاريوس ولكن الحملة في جملتها لم تكن نصراً لقائدها ازارف[١٢٧] . ولابد أن فشل الحملة التي خطّطها المنذر على انطاكية قد ترك أثره على علاقاته مع قباد . غير أنه بعد فترة من ذلك قامت القوات المتحالفة للفرس والعرب تحت قيادة قائد الفرس بهجوم على قلعة ابجرزت باسروينه التي استولى عليها الجند ليلاً وقتلوا جميع من كانوا بها . ولم ينج غير عدد قليل قام بنقل أخبار ما حدث . أما الفرس فقد انسحبوا عائدين إلى بلادهم[١٢٨] .

---

(١٢٤) شرحه ، ص ٩٦ ـ ٩٧
(١٢٥) Malalas, Chronographia. p. 464
(١٢٦) شرحه ، ص ٤٦٣
(١٢٧) Procopius, De bello persico. I. 18, p. 100
(١٢٨) Malalas, Chronographia, pp. 465-466

وكان واضحاً أن يوسطنيان لم يكن راضياً عن سير الأحوال بالشرق ، لهذا فقد بعث قسطنطيول ليطّلع على حقيقة الوضع[129] . فتوجّه قسطنطيول إلى انطاكية . وبعد أن استمع إلى أقوال الماجستير هرموجين « وغيره من الاكزارخات الآخرين » رجع إلى القسطنطينيه وأفاد الامبراطور بنتيجة تحرّياته . فعزل يوسطنيان بليزاريوس وعيّن موندون « استراتيلات للمشرق » . وفي ذات الوقت جهدت الامبراطورية في عقد الصلح مع الفرس ولكن دون طائل . وقد أرسل الماجستير هرموجين إلى قباد بعد واقعة قللينيقة ولكنه عاد بلا نتيجة[130] .

أما الوضع مع المنذر فقد اتخذ صورة مغايرة تماماً . فعقب روايته لخبر إحلال موندون محل بليزاريوس يقول ملالا : « في شهر يونيو عندما استعد استراتيلات الروم لقتال الفرس كتب المنذر مليك العرب إلى الروم بصدد شمّاس يدعى سرجيوس يريد إرساله إلى امبراطور الروم لعقد معاهدة للصلح »[131] . وقد وصل سرجيوس فعلاً بكتاب المنذر ولكن يوسطنيان بعد اطلاعه عليه لم يتوقف عن الهجوم على الفرس . بعد هذا يروي ملالا في تاريخه أن روفينوس أرسل إلى بلاد الفرس بوصفه سفيراً ، موكداً بهذا صحة معلومات بروقوبيوس . وفي رسالة الامبراطور إلى قباد قال إنه يُعدّ شرفاً ومجداً لو أن الدولتين الكبريتين عاشتا في سلام . ويعقب هذا تهديد بأنه « إن لم يتم هذا » فإنه سيستولي بنفسه على أرض الفرس[132] . وتلا هذا ارسال الهدايا من يوسطنيان « إلى ملك الفرس » ومن « المعظّمة تيودورا » إلى « ملكة الفرس أخته » ، أي أخت قباد[133] . ومن اذاسا / « التي قدم إليها ومعه استراتيج استفسرا عن إمكانية استقبالها بواسطة قباد ، ولكنه رفض ذلك لأنه كان قد أرسل سراً ضد الروم » ـ أي استعد سراً للهجوم وأرسل جنده ضدهم .

وعلى الرغم من أن يوسطنيان لم يردّ على ما عرضه عليه المنذر إلاّ أن الشماس سرجيوس قفل راجعاً إلى اللّخمي « بهدايا ملوكية »[134] . وقد تصرّف المنذر مستقلاً عن ايران في هذه الحالة عندما طلب عقد الصلح مع بيزنطة ، غير أن هذه الأخيرة لم تأبه لطلبه وواصلت استعدادها للحرب مع الفرس من ناحية جاهدة في ذات الوقت للحصول على اتفاقية للسلام من ناحية أخرى . وقد كانت عدم الرغبة من جانب قباد في الموافقة على عقد الصلح عائقاً في سبيل عقده على يد المنذر كذلك ، لأنه كان في وضع أشبه بالتبعية للفرس .

وهكذا برهن المنذر بصورة قاطعة أثناء الحرب الفارسية ـ البيزنطية لعام ٥٣١ على قوة دولة اللخميين

---

(١٢٩) شرحه ، ص ٤٦٥
(١٣٠) Procopius. De bello persico, I, 21, p. 110
(١٣١) Malalas. Chronographia, p. 466
(١٣٢) شرحه ، ص ٤٦٦ ـ ٤٦٧
(١٣٣) شرحه ، ص ٤٦٧
(١٣٤) شرحه ، ص ٤٦٧ .

وعلى القُدُرات التي كانت تحت تصرفه . فالعرب هم الذين وضعو خطةالهجوم عبر الفراتية على انطاكية ، وهي خطة تم تنفيذها بنجاح تام فيما بعد . كذلك أمّن العرب تحركات القوات الفارسية ، كما وأن الفضل في انتصار الفرس في واقعة قللينيقه يعود إلى الهجوم الناجح الذي قام به العرب على الجناح الجنوبي لجيش الروم . ومما لا شك فيه أن قوة ملك الحيرةوأخذه بزمام المبادرة ينعكس أيضاً في محاولته لإدراك اتفاق عاجل مع بيزنطة التي اتجه إليها بمشروع للصلح .

وفي ذلك العام جرى أول صدام بين المنذر والحارث رأس الغساسنة ، وإن كان هذا الصدام أبعد من أن يكون هو الأخير . وجاء الآن دور الغساسنة الذين علا شأنهم شيئاً فشيئاً كحلفاء للامبراطورية وكعازل (buffer) بين الدولتين الكبيرتين ، فكانوا أول جدار يرتطم به اللخميون .

وفي الحملة التي قام بها الفرس على مرطيروبول Martyropolis [ميافارقين] لا يرد ذكر لمشاركة العرب ، كمالا يرد لهم ذكر في الهجوم المضاد للقوات البيزنطية التي وفّقت في هزيمة الفرس عند نمفيوس Nymphaios الرافد الأيسر لدجلة . وقد تمكن القائد دوروثيوس Dorotheus من الاستيلاء على عدد من المدن والقلاع بأرمينية الفارسية حصل فيها على الكثير من الغنائم . وأرسل الكوبيكولار نرسيس وهو أرمني ، للقيام بحصر هذه الغنائم ، ولعل القلعة التي لا يذكرها ملاله والتي تركزت فيها بصورة خاصة ثروات كبرى إنما كانت هي دوين المدينة التجارية الشهيرة بأرمينية[١٣٥] . وعند مرطيروبول احتدم القتال بين الطرفين ومنع يوسطنيان المبعوثين البيزنطيين من اجتياز الحدود إلى داخل ايران لحين صدور أمر تال منه ، واضطرهم إلى البقاء« بالهدايا على الحدود الرومية »[١٣٦] .

90 ويتفق مدونو الحوليات البيزنطية في قولهم إن قباد الذي تقدمت به السن وكان مريضاً قد عيّن خلفاً له ابنه الثاني خسرو [انو شروان] . وهذاالحادث يرجع به ملاله إلى ٨ سبتمبر (٥٣١) . وبعد خمسة أيام من هذا مات قباد « بعد أن عاش اثنين وثمانين عاماً وثلاثة أشهر شغل فيها العرش لفترة دامت ثلاثاً وأربعين سنة وشهرين »[١٣٧] . وبروكوبيوس يقف عند هذه الأحداث بصورة أكثر تفصيلاً ، فهو على علم بوصية قباد وباتفاق أعيان المملكة على تمليك خسرو دون أخيه كاوس[١٣٨] . غير أن وضع خسرو لم يكن مستقراً . ويرتبط بهذا رغبته في عقد الصلح ، فقد أرسل إلى القسطنطينية يرجو السماح للمبعوثين « بالقدوم إلى بلاد الفرس لعقد الصلح »[١٣٩] . وكان رد الامبراطور كتابة إنه لن يسمح بذلك فحسب ، بل « إنه لا علم لنا أنك

(١٣٥) Malalas. Chronographia. p. 469; Ia. A. Manandian. O torgolve i gorodakh Armenii. Ierevan. 1954. str. 110 - 111

(١٣٦) Malalas. Chronographia. p. 470

(١٣٧) شرحه ، ص ٤٧١ ؛ S.H.Taqi- Zadeh. Some Chronolgical Data relating to the Sassanian Period. BSOAS. 1937. t. IX, p. 125 .

(١٣٨) Procopius. De bello persico. I. 21, pp. 112 - 113

(١٣٩) Malalas. Chronographia. p. 471

أصبحت ملكاً للفرس »(١٤٠) . فاضطر خسرو إلى الكتابة مرة أخرى مقترحاًعقد الهدنة لمدة ثلاثة أشهر . وبالقسطنطينية تمت الموافقة على شريطة تبادل الرهائن ، ولكن المبعوثيْن وهما استراتيج وروفينوس أُمرا بالعودة إلى العاصمة . وبعد وقت قصير جرى تجديد مفاوضات الصلح ، ولهذا الغرض أُرسل هرموجين وروفينوس . ويقول يعقوب الرهاوي(١٤١) « كان رسولا يوسطنيان إلى خسرو هما روفينوس والقائد العام هرموجين ، وعقد الصلح لمدة سبعة أعوام » . وكانت شروطه هي الآتية : إرجاع جميع القلاع والأراضي المحتلة ، أي العودة إلى حالة ما قبل الحرب status quo ante bellum . فأعاد الفرس إلى بيزنطة قلاع لازقة وتعهد الروم بألاّ يكون لهم قائد بدارا وأعادوا معادن الذهب بفرانجية إلى الفرس ، كما أرجعوا قلعة بولون Bolon ، ودفعوا ما عليهم من أموال . هذا « الصلح الدائم » بين بيزنطة وايران تم توكيده على هذه الأسس في العام السادس من حكم يوسطنيان أي عام ٥٣٢(١٤٢) . ويرى ملاله أن الصلح قد تم عقده في العام الحادي والثلاثين بعد هجوم قباد على أراضي الدولة البيزنطية(١٤٣) .

وقد عثر بهيروبول (منبج) على رقيم باليونانية أصابه التلف وهو حالياً بمتحف دمشق ، يتعلق بالمعاهدة بين الروم والفرس . وفي السطر الأول منه يرد ذكر الامبراطور يوسطنيان وروفينوس . وفي السطر الرابع يرد الكلام عن الصلح بين الدولتين وعن الأموال المتعلقة بذلك(١٤٤) .

الصراع حول « الاسطراط » Strata

91 في آخر الثلاثينات [من القرن السادس] على وجه الدقة تهيأ الجو لنشوب النزاع بين الغساسنة واللخميين . وتتهم الروايات البيزنطية خسرو [أنو شروان] بأنه كان يسعى لإيجاد ذريعة ينقض بها الاتفاقية مع الروم ، لذا فقد حرّض المنذر على فتح النزاع مع الغساسنة . وبدأ اللخميون بالشكاية من أن الحارث قد اجتاز حدود بلادهم ، ثم شرعوا في تخريب أرض الروم . كذلك بيّنوا أن الاتفاقية بين ايران وبيزنطة لم تُنقض بهذا لأن العرب لم يرد لهم ذكر في المعاهدة على حدة(١٤٥) .

ولدى الطبري نص يتفق مع هذا القول ولكن ترد فيه الأسماء بصورة محرّفة ، لذا فقد فسّر نولدكه هذا في

---

(١٤٠) شرحه ص ٤٧٢ .

(١٤١) Jacobus Edessenus. Chronicon. ed. E.W. Brooks. CSCO. Scriptores. syri. series tertia. t. IV, Parisiis, 1903, p. 319

(١٤٢) Procopius, De bello persico, I, 22, p. 117

(١٤٣) Malalas. Chronographia, p. 478

(١٤٤) P. Roussel. Un monument d'Hieropolis-Bambyke relatif à la paix perpétuelle de 532 aprés J. Chr. Mélanges syriens offerts à M. René Dussaud. t. I. Paris. 1939, pp. 366 - 367.

(١٤٥) Procopius. De bello persico, II. I, p. 148

زمنه بأن رواية الطبري إنما ترجع إلى مصدر پهلوي(١٤٦) . [ويقول الطبري] : « وكان فيما ذُكر بين كسرى أنو شروان وبين يخطيانوس [يوسطنيان] ملك الروم موادعة وهدنة فوقع بين رجل من العرب كان ملّكه يخطيانوس على عرب الشام يقال له خالد [الحارث] بن جبلة وبين رجل من لخم كان ملّكه كسرى على ما بين عُمان والبحرين واليمامة إلى الطائف وسائر الحجاز ومن فيها من العرب يقال له المنذر بن النعمان نائرة فأغار خالد بن جبلة على حيّز المنذر فقتل من أصحابه مقتلة عظيمة وغنم أموالاً من أمواله فشكا ذلك المنذر إلى كسرى وسأله الكتاب إلى ملك الروم في انصافه من خالد فكتب كسرى إلى يخطيانوس يذكر ما بينهما من العهد على الهدنة والصلح ويعلمه مالقي المنذر عامله على العرب من خالد بن جبلة الذي ملّكه على من في بلاده من العرب ويسأله أن يأمر خالداً أن يرد على المنذر ما غنم من حيّزه وبلاده ويدفع إليه دية من قتل من عربها وينصف المنذر من خالد وأن لا يستخفّ بما كتب به من ذلك فيكون انتقاض ما بينهما من العهد والهدنة بسببه . وواتر الكتب إلى يخطيانوس في انصاف المنذر فلم يحفل بها »(١٤٧) .

وواضح من هذا النص أنه وُضع لتبرير أفعال الفرس ، وطريقة كتابة الأسماء تدل على أنه دُوّن في الأصل بالپهلوية [الفارسية الوسيطة] . كذلك تشير المصادر البيزنطية إلى تبادل الرسائل بين الحكومتّين ، ولكن في صورة مغايرة ، فقد لام خسرو يوسطنيان على كتابه إلى ا لمنذر يغريه بالإنضمام إلى بيزنطة واعداً إيّاه بمكافأة مالية واسعة . كذلك لام الشاه يوسطنيان على أنه كتب إلى الهون يغريهم بغزو أرض الفرس(١٤٨) . غير أن پروكوپيوس غير واثق من هذا المكتوب الثاني .

وقد جرى النزاع بين الزعيمين العربيين حول ما يسمى « بالاسطراط » ، وهو الطريق الروماني الكبير الذي يمر بعض الشيء إلى الجنوب من تدمر ويربط بين عدد من النقاط الهامة ؛ وهو وإن كان طريقاً تجارياً إلّا أنه كانت له في ذات الوقت أهمية استراتيجية ، « لذا قام بحراسته في ذات الوقت فيلارخات عرب الروم » . وحزام العمارة الضيّق الذي كان يسير على طول هذا الطريق كان يصلح فقط كمراع للضان ولكنه كان ذا/ أهمية جوهرية في النزاع الدولي بحيث أثار هذا مشكلة الاحتفاظ بالحقوق فيه وملكيته . وقد دلّل الحارث على أن هذا الطريق كان ملكاً للامبراطورية منذ عهد بعيد كما يتبيّن من اسمه اللاتيني ؛ أما المنذر فقد أكّد أن الرحّل الذين يرعون قطعانهم في المراعي الواقعة حوله كانوا يدفعون الإتاوة له منذ وقت طويل . وقد كلّف يوسطنيان الاستراتيج ارخون الخزانة الامبراطورية ومعه سُمّوس قائد جيش فلسطين بتسوية النزاع . وقرر القائد أن التنازل عن هذه الأرض للخميين مستحيل ، هذا بينما جهد الخازن في عدم إعطاء الفرس مبرراً لنقض

(١٤٦) Th. Nöldeke, Geschichte der Perser und Araber...., p. 238

(١٤٧) Tabari, Annales, Prima series, II, p. 958; Nöldeke - Tabari, p. 238

(١٤٨) Procopius, De bello persico, II. 1, p. 150

الصلح . لهذا فإن يوسطنيان قلّب أوجه المسألة طويلاً بالمجلس الاستشاري للدولة دون أن يقطع فيها برأي . أما خسرو فقد ظلّ على إصراره على أن بيزنطة قد نقضت الصلح(١٤٩) . ولّما لم يتسلم إجابة مُرضية على مكاتباته بدأ في غزو أراضي الدولة البيزنطية كما يقول الطبري الذي يجعل الحق إلى جانبه في تصرفه هذا ،(١٥٠) وهو أمر لا يخلو من الوجاهة . وپروكوپيوس نفسه يقول إن يوسطنيان جهد وقت السلم في أن يأخذ بزمام المبادرة في يده ويصادق المنذر فعرض عليه أموالاً طائلة ؛ ثم يضيف أن خسرو كشف عن مكاتبات الامبراطور للملك اللخميين وعن عروضه(١٥١) . وكان الوسيط في هذه الاتصالات هو سمّوس الذي سافر ليسوّي الأمور مع العرب . وهذه التفاصيل التي يوردها ذلك المؤرخ لم يكن من شأنها أن تكون ملفّقة فهي تنطبق على ما حدث بالفعل ، ذلك أن حقيقة المكاتبات تجد التوكيد في رسالة بعث بها يوسطنيان إلى كسرى يقول فيها : « أنت تدينني على مكاتبات دُوِّنت دون سوء نيّة ، مفسّراً إيّاها كما يروق لك وليس وفقاً لما جاء فيها ، حتى تجد ذريعة للنوايا التي تعتلج في صدرك » . وقد ألقى الامبراطور المسئولية على عاتق الفرس ، لأن المنذر « منذ وقت غير بعيد وفي زمن استتباب السلم أغار على أراضينا وارتكب أموراً شنيعة فقد استولى على القرى ونهب الممتلكات وقتل الناس وسبى بقدر ما قتل » وأنه ينبغي على الفرس والحالة هذه أن يعتذروا لا أن يدينوا(١٥٢) . وكان يوسطنيان يسعى في اجتناب الحرب . ولذا فقد ذكّر خسرو بألّا يتناسى العهود والمواثيق خاصة بعد أن تسلّم الأموال المتفق عليها ، وأنه لا يجدر به أن يتجاهل الآن كل هذا ضارباً به عرض الحائط ؛ زد على هذا أن خسرو لم يرد على كتاب « أخيه الملك » بل ولم يُخل سبيل رسوله انسطاس الذي قدم عليه بذلك الكتاب .

س هذا يتبيّن أن المنذر كان حليفاً مخلصاً للفرس . فقد رفض محاولات الامبراطورية لاجتذابه إلى جانبها كما رفض ما عُرض عليه من الأموال ، وأنه قد قبل المهمة التي أُلقيت على عاتقه وهي بدء النزاع مع الغساسنة . وليس هنالك أدنى شك في قيامه بالغارة على أرض الروم والتي جأر منها يوسطنيان بالشكوى . وكان اللخميون مرتبطين مع ايران بحلف امتد لقرون ولعب فيه اللخميون دور التابع ، وإن كانوا قد أثبتوا أنهم لازمون لايران لزوماً لا فكاك منه . كذلك كان بمقدور الحيرة أن تتبع سياسة خارجية مستقلة تضطلع هي بمسئوليتها إلى مدى / معينّ فحسب ؛ وهي وإن سارت على هذه السياسة فيما يتصل بالقبائل العربية إلى أقصى مواضع انتشار هذه القبائل إلاّ أنّه لم يكن في مقدورها أن تفعل ذلك في العلاقات مع الدولة البيزنطية . ولم يكن الحائل دون ذلك هو تبعيتها السياسية لايران ، بقدر ما كان وضعها الجغرافي نفسه . فأملاك اللخميين الرئيسية التي كانت تحيط بالحيرة إنما هي امتداد طبيعي لمناطق ايران الغربية بحيث شكّلت معها ما يشبه أن

93

(١٤٩) شرحه ، ص ١٤٩ - ١٥٠
(١٥٠) Nöldeke - Tabari, p. 239
(١٥١) Procopius, De bello persico, II, 1, p. 150
(١٥٢) شرحه ، ٢ ، ٤ ، ص ١٦٥ - ١٦٦ .

يكون وحدة جغرافية . ولهذا فإن أية محاولة للـفكاك من ايران كان معناها تعريض هذه الأملاك للخطر . وبطبيعة الحال فإن المنذر لم يفعل ذلك .

وفي ربيع عام ٥٤٠ اندفعت القوات الفارسية تحت قيادة ملك الفرس نفسه صوب حدود الدولة البيزنطية سالكة الطريق نفسه الذي اقترحه المنذر قبل أعوام من هذا . وعلى الرغم من أن الحملة امتدت لعام بأكمله فإن بروقوبيوس لا يذكر شيئاً عن اشتراك العرب فيها ، إلاّ أنه بغير مشاركتهم فيها فإنه قد يصبح من العسير وضعها موضع التنفيذ لأن عونهم كان ضرورياً في درب معروف لديهم معرفة تامة خاصة وأن جيشهم كان مُكوّنا من فرسان سريعي الحركة . ولكن مؤلف كتاب « الحروب » ، أي بروقبيوس ، إنما التزم الصمت قصداً في هذه الحال .

وقد استولى خسروانوشروان على سور الواقعة على ضفة الفرات وهدّد هيرابول التي هجرها القائد بوز Bouzes ومعه جنده . ومنذ الانتصارات الأولى للشاهنشاه بدا جلياً أن هدفه لم يكن الفتح أو وضع يده على البلاد مدة طويلة ، بل كان هدف الحملة في المقام الأول هو الغنائم والسبايا . وبعد استيلائه على سور واسترقاقه لأهلها عرض خسرو على قنديد أُسقف سرجيوبول (الرصافة) أن يفتديهم بقنطارين [ذهباً] . كذلك افتدت نفسها من التخريب مدينة هيروبول بدفع ألفي [رطل] من الفضة . وفي بيرويه (حلب*) طلب الشاه ضِعف ذلك ، غير أن ضَعف مقاومة المدينة ونقص الماء بها سهّلا على الفرس احتلالها . ولمّا لم تقدّم انطاكية الفدية المطلوبة منها وهي عشرة قناطير تقدمت القوات الفارسية نحو عاصمة سورية ، واحتل الفرس جميع أبوابها بينما انسحب جيش الروم متقهقراً خلال الباب المؤدي إلى ضاحية د فنه ؛ فوضع العدو يده على انطاكية التي أُسلمت للنهب . وهكذا تم تخريب ونهب هذه المدينة ذات الثروة الكبيرة ، ولم يقف العدو عند حمل الذهب والفضة والآنية الثمينة بل إنهم استولوا على التماثيل الفاخرة المصنوعة من الرخام وحملوها إلى ايران[١٥٣] . وبهذا فإن السلام الذي امتد بين الروم والفرس حتى عام ٨٥١ من التقويم السلوقي (٥٤٠ من الميلاد) كما يقول أحد المصادر « قد نقضه خسرو ملك الفرس بانقضاضه في ذلك العام على الحدود الرومية وبسبيه لأنطاكية وسورو وحلب ، ثم دار فبلغ اذاسا ولكنه لم يصبها بضُرّ لأن رؤوس [المدينة] خرجوا إليه

* يقول ياقوت إن باروا هو اسم مدينة حلب بالسريانية ـ المترجم

(١٥٣) شرحه ٢ ، ٥ ـ ٩ ، ص ١٦٧ ـ ١٩٣ .

فتسلم [منهم] قنطارين من الذهب ثم قفل راجعاً إلى بلاده »(١٥٤)* .

94 وترى حوليات زكريا الملطي أن في سقوط انطاكية عقاباً من الرب على رفض المونوفيزية وتحريم / سويرس والاعتراف بقرارات مجمع خلقدونية ، لأنه « بعد عامين » من هذه الأحداث ، وذلك « في العام الثالث زحف خسرو على انطاكية على نحو ما سيرد وصفه في الفصل التالي »(١٥٥) . وهذا الفصل لم يحفظ لنا . أما العام فقد كان العام الثالث من الاندقطيون وهو الموافق لعام ٥٤٠ من التقويم الميلادي . وأما حوليات يعقوب الرهاوي فتقول في إيجاز : « في هذا العام . . . [من أعوام] اليونان تقدم خسرو فاستولى على سور وحلب وانطاكية وافاميه ونواحيها . كذلك غزا الروم أراضي كردوايه وارزنايه وعربايه »(١٥٦) . وهو يعود بالتعداد الدقيق للمدن التي استولى عليها خسرو في حملة عام ٥٤٠ إلى العام العاشر لخسرو والثالث عشر ليوسطنيان . أما عن حملة القوات البيزنطية فإنها وُجهّت بوصفها رداً ، وذلك على نواحي ارزنين وبيت عربايه ، في حين أثيرت اضطرابات بين الكرد (كردوايه) بالمناطق الجبلية .

أما لدى ميخائيل السرياني فيرد التعداد الآتي لحملات خسرو : « في العام الحادي عشر(١٥٧) ليوسطنيان الموافق لعام ٨٥٠ لليونان شوهد مذنَّب هائل ومخيف عند المساء لعدة أيام ؛ وفي العام ذاته نُقض الصلح بين الدولتين . فبدأ خسرو ملك الفرس بالهجوم واستولى على سور وانطاكية وحلب وافاميه ونواحيها وعاملها جميعاً بقسوة . كما تقدم الروم في أرض الفرس فاستولوا على كردوايه وارزنايه وعربايه »

« زحف خسرو مرة أخرى بجيش كبير فاستولى على قللينيقه وسائر أرض الجزيرة وقفل راجعاً » .

« زحف خسرو مرة ثالثة على أذاسا ولكنه لم يستطع الاستيلاء عليها واستولى على بطنان ورحل » ولم

(١٥٤) Chronicon ad A.D. 846 adscriptum, ed. E.W. Brooks. CSCO. Scriptores syri. series tertia, t. IV, Parisiis, 1903. p. 229

* أمر خسرو أنوشروان بتصوير هذه الأحداث على جدران قصره بعاصمته . وإلى هذا تشير الأبيات المشهورة للبحتري :

فإذا ما رأيت صورة انطا ... كية ارتعت بين روم وفرس
والمنايا مواثل وأنوشر ... وان يزجي الصفوف تحت الدرفس
في اخضرار من اللباس على أصـ ... ـفر يختال في صبيغة ورس
وعراك الرجال بين يديه ... في خفوت منهم وإغماض جرس
من مشيح يهوي بعامل رمح ... ومليح من السنان بترس
تصف العين أنهم جد أحيا ... ء لهم بينهم إشارة خرس
يغتلي فيهم ارتيابي حتى ... تتقراهم يداي بلمس

ويؤكد هذا القول ياقوت بقوله في معجم البلدان (مادة الإيوان) « وقد كان في الإيوان صورة كسرى انوشروان وقيصر ملك أنطاكية وهو يحاصرها ويحارب أهلها » ـ المترجم .

(١٥٥) Historia ecclesiastica Zachariae Rhetori vulgo adscripta. ed E.W. Brooks. II, p. 190. CSCO. Scriptores syri. series tertia. t. VI, Parisiis. 1921. p. 129

(١٥٦) Jacobus Edessenus. Chronicon. ed. E.W. Brooks.CSCO. Scriptores syri. series tertia, t. IV, p. 320

(١٥٧) خطأ في المتن ، ويرد صوابا لدى يعقوب الرهاوي على أنه العام الثالث عشر ليوسطنيان .

يرتفع لأحد صوت أو صراخ » كما جاء في الكتاب المقدس » .

« زحف خسرو مرة أخرى وحاصر جند الفرس انطاكية واستولوا عليها وأحرقوها ونهبوها نهباً ذريعاً حتى أنهم انتزعوا البلاط والرخام من الجدران . وقد ساقوا [أهل انطاكية] معهم إلى بلادهم وهناك بنوا مدينة سمّوها انطاكية . واغتمّ القيصر يوسطنيان غمّاً شديداً لما حلّ بانطاكية »(١٥٨) .

وتتفق روايات المصادر السريانية مع ما جاء في نظيرتها اليونانية . والتواريخ التي يوردها يعقوب الرهاوي جديرة بالثقة ، ويصدق هذا على كافة حساب السنين لديه . أما الحوليات المتأخرة لميخائيل السرياني فتستمد معطياتها من مصادر ترجع إلى القرن السادس ، يأتي في المكانة الأولى منها يوحنا الافسوسي وزكريا الملطي اللذان وصل إلينا تاريخاهما في مخطوطات مبتورة . وهذه المواد لم تحظ باهتمام الباحثين إلى أيامنا هذه .

وقد تركت حملة خسرو وسقوط انطاكية أثراً عميقاً في نفوس المعاصرين . فقد اهتزت الامبراطورية لهذا الحادث وكان لا بد لها أن تسرع بعقد / الصلح ؛ لهذا قام يوسطنيان بارسال سفراء إلى خسرو . ولكن مجهوداتهم لم تغن شيئاً ، فقد نهبت انطاكية ثم هدمت وأحرقت(١٥٩) . وبعد مفاوضات طويلة أرسل خسرو إلى يوسطنيان متن اتفاقية تنص على دفع خمسين قنطاراً* على الفور وأن تحمل إليه خمسة قناطير في كل عام . وأثناء ذلك توجّه خسرو إلى سلوقية التي هجرها أهلها ، ويبدو جلياً أنهم لاذوا بالفرار . ثم إلى افاميه التي تسلم منها ألف رطل من الفضة وأخذ منها مالا يحصى من الأشياء النفيسة . وفي طريق العودة إلى بلاده تسلم الشاه فدية من خلقيس ، وعند اجتيازه الفرات أمر « بنهب أكبر قدر من الأموال من أرض الجزيرة »(١٦٠) . كذلك ابتاعت اذاسا نفسها بقنطارين من الذهب . وأخفق الفرس في الاستيلاء على دارا ولكن الشاه تسلم ألف رطل من الفضة وغادر « الحدود الرومية » لأن الصيف الذي عادة ما تتم فيه الحملات العسكرية كان قد انقضى(١٦١) . ولقد اتخذت الحملة بجملتها طابعاً تميّز بالنهب بوجه خاص وتمثّل في انتزاع مقادير طائلة من الأموال والمعادن القيّمة والمصنوعات ؛ وفي سبي الأهالي وبيعهم أو افتدائهم . ومن الواضح أنه لم يكن من قصد الفرس احتلال البلاد التابعة لبيزنطة ، لأن الأراضي التي كانت هدفاً لحملاتهم كانت أملاكاً للامبراطوية منذ عهود بعيدة وضربت فيها الحضارة اليونانية عميقاً بجذورها فأصبحت جزءاً أساسياً من أراضيها . لذا فإن احتلالها لم يدم طويلاً ؛ وهذا نفسه يصدق كذلك على الحملات الفارسية التي جرت على الحد بين القرنين السادس والسابع . وبهذا فإن المناطق البيزنطية لم تبق طويلاً في يد الفرس .

(١٥٨) Michel Le Syrien, Chronique éditeé par J.B. Chabot, t. II, f 2. Paris, 1902, p. 287 (205 - 206)

(١٥٩) G. Downey, History of Antioch, p. 544

* القنطار ـ لفظ قنطار العربية من اليونانية قنطاريون Kentenarion ، المشتقة بدورها من لفظ « مائة » ـ المترجم

(١٦٠) Procopius, De bello persico, II. 12, p. 204

(١٦١) شرحه ، ٢ ، ١٢ ، ص ٢٠٩ ؛ ٢ ، ١٣ ، ص ٢١٣

هذه الحملة الأولى لخسرو والتي وقعت في عام ٥٤٠ معروفة كذلك للمصادر العربية . فالطبري يسرد أسماء المواضع التي استولى عليها خسرو بالصورة الآتية : « فاستعد كسرى فغزا بلاد يخطيانوس [يوسطنيان] في بضعة وتسعين ألف مقاتل فأخذ مدينة دارا ومدينة الرها [اذاسا] ومدينة منبج [هيرابول] ومدينة قنسرين [خلقيس] ومدينة حلب ومدينة انطاكية وكانت أفضل مدينة بالشام ومدينة فامية [أفاميه] ومدينة حمص ومدناً كثيرة متاخمة لهذه المدائن عنوة واحتوى ما كان فيها من الأموال والعروض »(١٦٢) . وسبى خسرو أهل انطاكية ونقلهم إلى العراق وأمر فبنيت لهم مدينة إلى جنب طيسفون على هيئة المدن البيزنطية بالحمامات وميدان السباق وأجرى عليهم الأرزاق من خزانته . وتم اسكان الأسرى بها فسمّوا أنفسهم « الملكين » ، « أي أنهم لا يعترفون بسيادة أخرى عليهم سوى سيادة الشاه وحده »(١٦٣) . وقد كان لهذا الوضع ميزاته الكبرى فقد جهد العديد من أسرى الحرب في الهرب إلى انطاكية الجديدة هذه حيث حصلوا على حق اللجوء ولم يعد بوسع سادتهم السابقين المطالبة بهم ثانية . /(١٦٤) وهذه المدينة سمّيت « الرومية » وكانت خططها أشبه بخطط 96 أنطاكية الأصلية(١٦٥) . وقد عينّ خسرو للقيام بأمر الأسرى رجلاً من نصارى الأهواز يدعى براز كان يتولى إلى تلك اللحظة الرئاسة على أصحاب صناعاته(١٦٦) .

وفيما يتصل بالمواضع الأخرى فقد اضطر الامبراطور إلى ابتياعها من خسرو بأموال عظيمة حملها إليه وضمن له إتاوة تدفع في كل عام على ألّا يغزو الفرس بلاد الامبراطورية . وقد تم تدوين هذه الشروط في كتاب خاص وقّع عليه الامبراطور وكبار رجال دولته ومهر بالأختام(١٦٧). ورواية المصدر العربي هذه يوكدها ما جاء لدى المؤرخين البيزنطيين .

أما الحملة الحربية الثانية لخسرو فقد كانت وجهتها بلاد القوقاز . ففي ربيع عام ٥٤٤ هاجمت القوات الفارسية لازقة [أي بلاد اللاظ] (قولخيد Colchis) متذرّعة بأن السلطات البيزنطية قد سبّبت الضيق للسكان ووضعتهم في وضع مادي عسير بنهبها إيّاهم . عند ذلك طلب اللاظ العون من الفرس ، فرحب الفرس بهذه الفرصة التي سنحت لهم وسهّلت لهم اقتحام هذه المنطقة التي وجدت تحت سيادة الأمبراطورية . وقد اجتاز خسرو بجنده ايڤريا Iveria فظهر في وسط قولخيد وحاصر قلعة پيترا Petra الواقعة على ساحل البحر الأسود والتي يحميها الجبل من ظهرها . ولم تنجح هجمة الفرس الأولى ولكنهم نقبوا تحت أسوار القلعة فاضطرت پيترا إلى الاستسلام « واختلط الروم بعسكر الميديين » [أي الفرس](١٦٨) .

---

(١٦٢) Nöldeke - Tabari, p. 239, pp. 239. 465?
(١٦٣) Procopius, De bello persico, II, 14, p. 214
(١٦٤) شرحه
(١٦٥) Nöldeke - Tabari, pp. 165, 239.
(١٦٦) Tabari, Annales, p. 960
(١٦٧) شرحه ص ٩٥٩ ؛ Nöldeke-Tabari, p. 240 .
(١٦٨) Procopius. De bello persico, II, 17, p. 227.

وفي أثناء ذلك كانت بيزنطة تعمل جاهدة في تحصين حدودها الشرقية بأرض الجزيرة وأرمينية . وفي الهجوم المضاد الذي هيّأه البيزنطيون على أرض الفرس اضطلع « عرب الروم » الذين كان على رأسهم الحارث الغسّاني بدور هام ، فقد بث الاضطراب في الجزء الجنوبي من أرض الجزيرة (اشور) وجمع غنائم كثيرة . ولم يوفّق بليزاريوس في احتلال نصيبين ولكنه استولى على قلعة سيسوران وسوّى أسوارها بالأرض . وعلى الرغم من أن عرب الروم شاركوا مشاركة فعّالة في هذه الحملة إلاّ أنه لا يرد ذكر للخميين الذين لا يُشك في أنهم وقفوا في وجههم . بيد أن ما كان يمثله العرب من خطر على سورية وفلسطين يمكن استجلاؤه من الفزع الذي كان يتملك الوحدات البيزنطية المنفردة من مجرد إمكان حدوث غارات عليهم من طرف العرب . ولما استدعى بليزاريوس قواده إلى الاجتماع به في دارا ليحسم مسألة الهجوم على نصيبين وسيسوران وحصارهما فإن الحاكمين العسكريين للبنان وهما التراقي ركيثانكس Rhecithancus وثيوقطيسط Theoctistus ، على الرغم من موافقتهما على خطة الهجوم قد أبديا تخوفهما من المشاركة في الحملة بجنودهما خشية أن يتركا قرى فينيقية وسورية بلا حراسة فيقدمان بهذا الفرصة للمنذر لنهبها[١٦٩] / ، مما سيجر عليهما بالتالي سخط يوسطنيان . غير أن بليزاريوس أقنعهما بقوله إن من عادة العرب « أن يتجهوا إلى آلهتهم » خلال شهرين من أشهر الصيف [هما الأشهر الحرام] لا يقومون أثناءهما بأي ضرب من الغزو ولا يغيرون فيهما على أرض الغير[١٧٠] .

97

وبعد الاستيلاء على سيسوران تدهورت صحة الجند البيزنطيين الذين قاسوا الكثير من حرارة الجو مما استدعى عودتهم إلى أرض الوطن . وقد عانى بصورة خاصة التراقيون الذين لم يألفوا مثل هذا الطقس ، كما أن قائدي جيش لبنان ألحّا إلحاحاً شديداً على بليزاريوس ليخلي سبيلهما لأن شهري الصيف اللذيْن لا يغير فيهما العرب قد انقضيا . « وقد جاءا إلى بليزاريوس مراراً طالبين إخلاء سبيلهما فوراً ليعودا إلى بلادهما محتجّيْن بأنهما تركا قرى لبنان وسورية تحت رحمة المنذر وظلّا باقييْن هنا دونما فائدة »[١٧١] . وقد أكدّ خطورة غارة المنذر أيضاً أقوال قائد آخر هو يوحنا بن نقيطا ، ففي المجلس الذي عقده بليزاريوس للتشاور كان هو أول من صرّح لبليزاريوس بمخاوفه لأن معظم جند الجيش البيزنطي كانوا مرضى ومثخنين بالجراح ؛ هذا بينما « عبر السراقينيون وخيرة جندنا الآن نهر دجلة » ولعلهم في وضع عسير لم يستطيعوا معه حتى ارسال أخبارهم إليه . « أما ركيثانكس وثيوقطيسط فسينصرفان دون شك كما سترى ، لاقتناعهما بأن جيش المنذر لابد أنه الآن في وسط فينيقية عاملاً يده في نهب وتخريب المنطقة بأجمعها »[١٧٢] .

ومن هذا يتبيّن أنه في لحظة من أشد لحظات الحرب حرجاً مع ايران تخوّف قائدا ولايتي سورية وفينيقية

(١٦٩) شرحه ، ٢ ، ١٦ ، ص ٢٢٣ .
(١٧٠) شرحه ، ٢ ، ١٧ ، ص ٢٢٤
(١٧١) شرحه ، ٢ ، ١٩ ، ص ٢٣٦
(١٧٢) شرحه ، ٢ ، ١٩ ، ص ٢٣٧

اللتين كانتا أغنى بلاد الامبراطورية بسبب ما ستتعرضان له من غارات منتظمة على يد اللخميين . وإذا م
حدث وأنه كان من المستطاع الاعتماد على القول بأن « الغزوات » لن تحدث في خلال الشهرين الحرام ، إلا
أنه بانتهاء هذا الأمد لم يعد في المقدور الاحتفاظ بجند تلك البلاد وقوادها الذين لم يخامرهم الشك في أن المنذر
سيخربها . وكان خير من قاتل ضد الفرس من جانب البيزنطيين هم العرب ، فقد عبروا دجلة تحت قيادة
الحارث الغساني وخربوا أراضي الفرس . أما الروم فقد اضطروا إلى الانسحاب إلى بلادهم ، وأمضى
بليزاريوس شتاء عام ٥٤٢/٥٤١ بالقسطنطينية . كذلك أرجع خسرو بدوره جنده من لازقة على الرغم من
إحرازه بعضاً من النجاح خاصة باحتلاله بيترا ؛ فقد أقلقته أخبار غارة جيش العرب بقيادة الحارث وكذلك ما
أصابه الجيش البيزنطي في حملته من توفيق .

وأما الحملة الثالثة الكبرى لخسرو فقد حدثت في ربيع ٥٤٢ وكان هدفها اجتياز مقاطعة الفراتية واقتحام
حدود فلسطين التي لم / تتعرض للغزو في السنوات السابقة لهذا ، وبهذا كان من الممكن الحصول على مغانم
كثيرة منها . هذا وقد حاصر الفرس مدينة سرجيوبول (الرصافة) التي كانت لها قداسة خاصة عند نصارى
العرب وتشغل مكانة هامة في حياة الغساسنة . وكان قنديد أسقف سرجيوبول قد أعطى عهداً موثّقاً منذ عام
٥٤٠ بدفع قنطارين من أجل إطلاق سراح العشرين ألفاً الذين تم سبيهم بسور . ولم يستطع قنديد الوفاء
بذلك العهد ، فلما اقترب جيش الشاه ذهب إليه قنديد يرجوه العفو ولكنه ضُرب ضرباً مبرحاً وأرغم على قبول
دفع المبلغ مضاعفاً . عند ذلك وجّه قنديد بعض رفاقه ومعهم مندوبو الشاه لكي يحملوا مقتنيات الكنيسة
الثمينة إليه . بيد أن الشاه بدا له أن ما حمل إليه كان قليلاً فطلب أن يسمح لرجاله بدخول المدينة بحجة فحص
ما بها من مقتنيات .وقد تبيّن أن هذه إنما كانت خدعة عسكرية كشف عنها النقاب « عربي نصراني من جماعة
المنذر اسمه عمرو ، فقد اقترب من الأسوار ليلاً وحذّرهم بألاّ يسمحوا بأية حال للفرس بدخول
المدينة »[١٧٣] . وبعد إخفاق هذه الحيلة حاول خسرو أن يقتحم المدينة عنوة ولكن محاولته باءت بالفشل
وعمرو هذا نفسه أبلغ الأهالي ليلاً بأن الفرس سيرفعون الحصار قريباً عن سرجيوبول لأنهم قاسوا الكثير من
الظمأ بسبب شحّ الماء ، وقد صدق ما قاله لأن الجند المحاصرين للمدينة عادوا وانضمّوا إلى القوات الرئيسية
للشاه .

ومن هذا الحادث يُبصر أن سرجيوبول بوصفها مركزاً نصرانياً للعرب قد وجدت العون من عربي
نصراني ينتمي إلى جيش المنذر ، وهذا يشير بطبيعة الحال إلى أن المنذر قد أخذ طرفاً في الحملة الثالثة لخسرو
وبعد هذا توجّه ملك الفرس صوب كوماجينه . وكان بليزاريوس في هذه الأثناء قد جمع الجيش البيزنطي في
دورا اوروپوس Dora-Europos . وتخوف خسرو من القيام بحركة كبرى إلى الأمام ، ذلك أن بليزاريوس قد

(١٧٣) شرحه ، ٢ ، ٢٠ ، ص ٢٣٩

أوقع في روعه ما جعله يتيقن من وجود جيش بيزنطي كبير في مواجهته . وبعد أن هدم الفرس أسوار قللينيقه (الرقة) وسبو أهلها انسحبوا من الأراضي الرومية . ويستكثر المؤلفون السريان على الفرس أنهم وجدوا من اللازم عليهم انتزاع رفات الشهيد وكخ ، والذهب المرصّع به مشهد القديس مارسرجيس . فميخائيل السرياني يقول : « وفي العام الخامس عشر ليوسطنيان الموافق سنة ٨٥٤ من تقويم اليونان (٥٤٣ م) تقدم الفرس من جديد واحتلوا جميع مناطق الحدود وخربوا قللينيقه وبيت بلاش وأخذوا رفات الشهيد وكخ والذهب المرصّع به مشهد القديس مارسرجيس »[١٧٤] .

هذا ما كان عليه الحال بالمشرق حينما حاق بسكانه في عام ٥٤٢ الوباء العظيم الذي أُطلق عليه اسم « القاتلة » والذي أفنى خلال عامين سكان مناطق برمّتها . ولقد سبّبت هذه الكارثة خسائر فادحة وهزّت مجتمع ذلك العصر من قواعده . ولم يقف الوباء عند حد المدن وحدها بل امتد كذلك إلى الريف ؛ كما لم يسلم منه الرحّل . وقد أورد مدونو الحوليات من السريان / تفاصيل شتى للأحداث الرهيبة التي صاحبت ذلك الوباء .

99

وفي عام ٥٤٣ انحصرت العمليات العسكرية للفرس في منطقة القوقاز . ولأنه لم تربط القواد البيزنطيين قيادة موحدة ، بجانب جنوحهم إلى العصيان وسوء النظام فقد تقدموا لقتال الفرس بلا خطة مشتركة . وكانت قوات خسرو قد اضطرت إلى مغادرة آذربيجان تفادياً للوباء ؛ وبأرمينية الفارسية التقوا بقوات الروم حيث دارت المعركة الفاصلة عند قلعة انجلون Anglon . وفي أثنائها انكسر الهيرولي Heruli الذين كانوا تحت قيادة نرسيس ، وأعقب ذلك أن فرّ بقية الجند وغنم الفرس أعداداً كبيرة من الأسلحة والماشية[١٧٥] . ولا علم لنا هل كان للوباء دخل في ما حدث بالتالي أم أن الفرس استنفذوا طاقتهم في الحملات الطويلة على أراضي الدولة البيزنطية . فعلى الرغم من كل ما أصابوه من نجاح فيها فمن الثابت أنهم بلغوا الآن نهاية المطاف . وواقع الأمر أن حملتهم لعام ٥٤٣ لم تكن لها تلك الأبعاد الخطيرة التي كانت لمثيلاتها في السنوات السابقة ، خاصة وأن هذه الحملة لم تكن موجهة ضد الأراضي البيزنطية نفسها .

ولم يقتصر الاهتمام السياسي للدولتين الكبيرتين ـ على نحو ما كان عليه الحال من قبل ـ على منطقة القوقاز وتخوم أرض الجزيرة فحسب ، بل تجاوزهما إلى تخوم الجزيرة العربية(limes) الواقعة على الطرق البعيدة ذات الأهمية التجارية المارة بمحاذاة سواحل البحر الأحمر والتي أرادت كل منهما السيطرة عليها ووضعها تحت نفوذها .

---

(١٧٤) Michel le Syrien. Chronique. t. II, f. 2, p. 296 (220)

(١٧٥) Procopius. De bello persico. II. 25, pp. 264 - 267

ولقد ورد اسم المنذر ملك الحيرة بين الحكام الآخرين الذين نلتقي بأسماء ممثليهم في الرقيم المعروف لأبرهة ملك حمير عند سد مأرب . وبعد دراستنا لما جاء في هذا الرقيم على صفحات مصنّفنا الذي رأى النور عام ١٩٥١ [وهو « بيزنطة في الطريق إلى الهند »] ظهر عدد من البحوث المكرّسة لهذا الرقيم وللرقم السبئية الجديدة التي تم نشرها منذ عهد غير بعيد . ويرى بعض الباحثين أنه من الممكن الإصرار على تعديل التقويم الحميري ، فخلقوا بهذا ألغازاً تستند على الأحداث المذكورة في مختلف المصادر . فمثلاً يرى سدني اسمث Sidney Smith أن رقيم ابرهة نصب عام ٥٣٩[١٧٦] . ولقد وجدت أيضاً محاولات أخرى لتبديل تاريخ التقويم الحميري[١٧٧] ولكن في الأعوام الأخيرة تم الرجوع إلى التاريخ السابق ، أي اعتبار بداية ذلك التقويم هو عام ١١٥ ق . م . وذلك بربطه بالكسوف الكامل للشمس في ١٩/٨/١١٤ ق . م . الذي شوهد بالجنوب العربي[١٧٨] . ومن خلال الحكم على الوضع السياسي العام بالمشرق فإنه ليس هناك في رأينا أساس لتعديل تاريخ رقيم ابرهة ، بل اننا لنعُدُّ ذلك منهجاً غير مقبول . / وفوق هذا فإن تاريخ الرقيم بل وجميع ما اشتمل 100 عليه يدخل تماماً في نطاق أحداث ذلك العام ويتفق في ذات الوقت مع كافة الأحداث المرتبطة بتاريخ الحميريين ، مثل ترسيخ قدَم ابرهة وختام كفاحه في سبيل العرش . ولم يكن البتة من شأن الظروف التي أحاطت بعام ٥٤٣ أن تعوق أياً من الدولتين الكبريتين أو الدويلات التابعة لهما من ارسال مندوبيها إلى حمير . وكان الوباء في ذلك العام يقترب من نهايته ، أضف إلى هذا أنه لم يكن من شأن ذلك الوباء أن يؤدي إلى شل جميع مرافق الحياة . كذلك فإن الحرب الفارسية ـ البيزنطية فترت شيئاً ما، غير أن خطط كلا الحكومتين ظلت تمتد وتنتشر على جميع بلاد العرب . ولقد ظل التنافس بين الغساسنة واللخميين على أشدّه . أما الصلات بين الدويلات العربية فهي معروفة لنا من قبل . وقد أخذت تتضح بجلاء تطلعات الحميريين للتأثير على اللخميين منذ عام ٥٢٤ (وهو عام زيارة شمعون الأرشمي لمعسكرَ المنذر) ، بل إنه منذ عام ٥١٦ (وهو عام رقيم مأسل) اجتذب النظر ذلك الصدام العسكري الذي وقع بينهما . وكان لملك الحيرة ما يدعوه إلى أن يبعث « برسول » إلى حمير ، وقد ورد ذكره مباشرة عقب ممثلي (تنبلت) ملك الفرس . وفي رقيم عام ٥٤٣ تحتل اثيوبيا المكانة الأولى ثم تليها بيزنطة ؛ وعقب هذا فقط يرد ذكر ممثلي ايران ، وأخيراً رؤساء الإمارات العربية حيث نبصر اسم اللخميين مباشرة خلف حُماتهم الفرس . بعد هذا يذكر الرقيم رسل اثنين من الإخوة الغساسنة هما الحارث بن جبلة وأبو كرب بن جبلة[١٧٩] . وكان الغساسنة أقرب إلى بيزنطة واثيوبيا وحمير وأوثق

---

(١٧٦) S. Smith, Events in Arabia in the 6th century A.D., BSOAS, 1954, v. XVI, parts 3, pp. 441, 465

(١٧٧) J. Ryckmans, Institutions monarchiques en Arabie méridionale avant l'Islam, Louvain, 1951, p. 289; A.F.L. Beeston, BSOAS, 1954, v. XVI, part 1, pp. 37 - 40; Bibliotheca Orientalis, 1953, X, pp. 207 - 208.

(١٧٨) J. Ryckmans, Le lébut de l'ère himyarite a-t-il coïncidé avec une éclipse du soleil? Bibliotheca Orientalis, 1961, 5/6, pp. 219 - 221.

(١٧٩) Corpus inscriptionum semiticarum, pars pp. Inscriptiones himyariticas et sabaeas continens, t. II, f. 3, Parisiis, 1920, pp. 278 - 296, No. 541 (Glaser 618), lin. 90, 91; N. Pigulevskia, Vizantia na putiakh v Indiu. str. 321 - 322

صلة من اللخميين ، ولكن دولة اللخميين شغلت في ذلك الزمان من حيث السلطان والأهمية وضعاً أبرز بكثير من وضع الغساسنة حلفاء بيزنطة . وقد أعطى هذا الوضع الحق « لرسول اللخميين » ليشغل مكاناً أرفع في القائمة التي يقدمها الرقيم .

ومشاركة اللخميين في الأعمال العسكرية للفرس لم تتوقف . ففي عام ٥٤٤ تقدم خسرو بقواته داخل اسروينه لمحاصرة أذاسا . وكان حصاراً طويل الأمد جرت فيه محاولات للنفاذ إلى أسوار المدينة ونقبها ، ولإقامة تل صناعي لتهديد الأسوار منه ؛ غير أن الروم نقبوا التل من أسفل وأحرقوه من الداخل . وأخيراً قرر خسرو أخذ اذاسا عنوة فأسندت السلالم على الأسوار وجُرّت آلات هدم الأسوار وتبعها الجند . وقد أنيطت بالعرب مهمّة خاصة كانوا حقاً أهلاً للاضطلاع بها ، فخلف القوات المهاجمة « وُضع جميع العرب ومعهم بعض الفرس لا للمشاركة في محاصرة البريبول بل ليقبضوا على جميع الفارين عند الاستيلاء على المدينة »(١٨٠) . / وكان العرب في كلا الجيشيْن النظاميْن للفرس والبيزنطيين يقومون بمهمة محدّدة ، فهم لم يكونوا مهيئين للقيام بأعمال الحصار التي تطلبت استعداداً فنيّاً معيناً . غير أنهم في مواضع أخرى كانوا لا غنًى عنهم ، من ذلك هداية الجيش في الصحراء ، و« القبض » على الفارين كما حدث في هذه الحال بالذات . ومما تجدر الإشارة إليه أن الجيش العام لدى الفرس والروم كان يستند على أساس قبلي ، فالهون والهيرولي أو العرب كانت لهم وحداتهم الخاصة بهم ، وكان لكل جماعة قائدها الذي يخضع للقيادة العامة . وكان العرب يقاتلون تحت إمرة ملكهم أو القائد الذي يعيّنه .

ولقد صدّت أذاسا في هذه المرة هجوم الفرس . وتسلم خسرو خمسة قناطير « وأعطى مكتوباً » يتعهد فيه بألا يتسبّب في أذى أكثر للروم وأن يحرق جميع آلات الحصار ويعود إلى بلاده بكامل جيشه(١٨١) . وبعد هذا أُجرى عقد صلح لمدة خمس سنوات ودفع الروم عشرين قنطاراً وبعثوا بالطبيب العالم طريبون لمعالجة خسرو استجابة لطلبه(١٨٢) .

وقد تم عقد هذا الصلح في العام التاسع عشر من حكم يوسطنيان منفرداً ، أي في عام ٥٤٥ ؛ ويرده القوميس مارسيللينوس إلى عام ٥٤٦ . ولم يطل الوقت بعد عقد الصلح حتى اشتعلت نيران الحرب بين العرب أنفسهم ولكن « الروم والفرس لم يجر بينهم قتال » . وقد قررت الدولتان الكبريتان أن تتجاهلا حرب ٥٤٦ بين المنذر والحارث وتظاهرتا بأن الأمر لا يعنيهما في شيء ، بحجة أنه أمر يتعلق بالعرب وحدهم . وتتلخص القصة في أن أحد أبناء الحارث كان قد خرج إلى المرعى بقطيع من الخيل فانقضّ عليه المنذر بغتة « وأخذه قرباناً

(١٨٠) Procopius. De bello persico. II. 27, p. 280

(١٨١) شرحه ، ٢ ، ٢٧ ، ص ٢٨٢ .

(١٨٢) شرحه ، ٢ ، ٢٨ ، ص ٢٨٣

للزُهَرة » ؛ وهي الإلهة العربية العُزّى التي كان يوقرها العرب (وباليونانية أفروديت Aphrodite) . وقد قام المنذر هذا نفسه بإحراق أربعمائة فتاة من أسرى حمص قرباناً لها . وفي المعركة التي حدثت فيما بعد بين جيش الملكين كان النصر حليف الحارث الذي اضطر اعداءه للهرب و « قتل الكثيرين » منهم ؛ بل إنّه أوشك على القبض على ولدي المنذر ولكنهما أفلتاه . ولقد اتخذت الحرب بين اللخميين والغساسنة صورة فيها الكثير من الضراوة وانتهت بانتصار ساحق للحارث ورجحان كفته على عدوه وتضييق الخناق عليه(١٨٣) . غير أنه في هذه المرة لم يُنقض الصلح / الذي عقد عام ٥٤٥ بين بيزنطة وايران ، ولم تمتد نيران الحرب بين العرب لأبعد من هذا .

ومصالح اللخميين في بلاد العرب الجنوبية بدت في وضع أكثر إيجاباً منذ انتصارهم على كندة . وقد فقد الكنديون سلطانهم على العراق عندما حُرموا من عون الشاهنشاه ؛ وهرب الحارث بن عمرو من الروم فقتله المنذر عام ٥٢٨ . وكثيراً ما يرد ذكر قبيلة معدّ مقرونة مع قبيلة كدت ، ويتخذ تلازمهما هذا طابع الخضوع لأن ملوك كندة كانوا يمسكون بزمام طاعة معدّ . ومما مرّ تبيّن أن دولة اللخميين كان لها مطامع في المناطق الشمالية والوسطى من الجزيرة العربية وأنها حاولت جاهدة بسط سلطانها عليها . وكان ولابد ، والحالة هذه ، أن تصطدم مصالح الدولتين اللتين جمعتا شمل القبائل العربية ووحّدتا بينهما ، أعني الحميريين من الجنوب واللخميين من الشمال .

وفي هذا الصدد تنال قيمة ذات بال تلك الرقوم الكتابية التي خلفها لنا العرب أنفسهم ، خاصة وأنها تحمل تواريخ وتذكر أسماء لشخصيات معروفة . فعلى بُعد سبعين ومائة كيلو متر إلى الجنوب الشرقي من بيشة ، وعلى ثلاثين ومائة كيلومتر إلى الشمال الغربي من الحِمَّة ، وعلى جانب من الدروب المطروقة التي تصل بين اليمن وحضرموت من جهة ومكة من جهة أخرى ، تم العثور على مقربة من بئر مريغان على رقيم نشره البروفسور غونزاغوريكمانس تحت رقم Ry506 .(١٨٤) وقد أدلى معظم المتخصصين في الدراسات السبئية بدلوهم في تقديم ترجمة لهذا الرقيم . ولايحوم الشك حول المعنى العام لما جاء فيه ؛ ومفاده أن أبرهة ملك حمير أمر بنقش هذا الرقيم عام ٦٦٢ من التقويم الحميري ، أي عام ٥٤٧ ميلادية ، وذلك بمناسبة حملته على معد في شهر ذي طبطان . وآنذاك هُزمت « بنو عامر » بأجمعها ، بعد أن أرسل عليهم أبرهة اثنين من قواده هما جبر وبشار بن حسنة . وكان الأول منهما على رأس كندة ، والآخر على رأس سعد(السطران الرابع والخامس من

---

(١٨٣) جهد قعوار [شهيد] (I.Kawar, Procopius and Arethas, BZ, 1957, 50, H.2, pp. 362-382) في أن يدلّل على موقف التحامل والتشنيع الذي وقفه بروكوبيوس من الحارث . ومن الواضح أن قعوار يبالغ في الضغط على الموقف السلبي الذي اتخذه مؤلف « الحروب الفارسية » من العرب. وهو قد أخطأ في ظنه أن الواقعة بين العرب في عام ٥٤٦ هي الواقعة المشهورة والمعروفة خطأ بيوم حليمة التي قتل فيها المنذر ذلك أن هذه الواقعة ومقتل المنذر جرت في عام ٥٥٤ . انظر: B. Rubin, Das Zeitalter Justinians, pp. 345, 517, nota 1124 .

(١٨٤) G. Ryckmans, Inscriptions sud-arabes. R. 506, Le Muséon, 1953, v. 66, f. 3 - 4, pp. 275 - 284; J. Ryckmans, Inscriptions historiques sabéennes de l'Arabie centrale, Le Muséon, 1953, v. 66, f. 3 - 4, pp. 339 - 342.

الرقيم) ؛ وتمت هزيمة بني عامر على الطريق إلى تربان . وفي الترجمة التي يقدمها كاسكل يرد تفسير متن الرقيم بصورة مغايرة ، فهو يرى أن قبيلة عامر كانت تشتغل بنهب القوافل مما اقتضى تأديبها . وقد هَزمت القوات الرئيسية لحمير وعلى رأسها أبرهة بني معد عند حلبان* . كذلك مسّ الأمر مصالح اللخميين ، ولذا وجه المنذر (السطر الثامن) ابنه عمراً (السطر السابع) للتفاوض في الصلح وجرى « تنصيبه عاملاً » ـ وس ت خ ل ي ف هـ و (من المصدر « خلف » الذي اشتق منه لفظ « خليفة ») على معد . وبما أن هذا الرقيم قد تمت دراسته بصورة أكثر تفصيلاً على يد المتخصصين الذين أشرنا إليهم فيما مر فسنقتصر على إبراز أهم ما جاء فيه . وليس من الضروري أن نعدّ « بني عامر » الوارد ذكرهم في الرقيم على أنهم عامر بن صعصعة ؛[١٨٥] وبما أن هذا الاسم القبلي قد حاز انتشاراً واسعاً فإن نسبتهم إلى عامر بن صعصعة أمر يتطلب الحذر . / ولعل مما 103 يعين على فهم أفضل للرقيم ذلك التفسير الذي يقدمه بيستون Beeston حيث أثبت أن الرقيم يشير إلى معركتين للحميريين جرت إحداهما مع معد والأخرى مع عامر[١٨٦] .

وبما أن المنذر قد ذاق الهزيمة على يد الحارث الغسّاني في عام ٥٤٦ وذلك حين « لم يتقاتل الفرس والروم » ، فإن حملة ابرهة لعام ٥٤٧ (Ry 506) لا مجال لإقحامها بحال من الأحوال في إطار حرب بين الفرس والروم على نحو ما أراد كاسكل الذي رأى أن بالإمكان نسبة هذا الرقيم إلى عام ٥٤٤ أو عام ٥٤٥[١٨٧] . وهذا التوريخ للرقيم أي بعام ٥٤٤ يعطيه كذلك سدني اسمث ، الذي يرى بوجه عام العودة ببداية التقويم الحميري إلى مائة وعشرة أعوام قبل التقويم الميلادي[١٨٨] . وهذه المحاولة ليس لها ما يبررها سواء من وجهة نظر حساب السنين المستعمل في المصادر اليونانية والسريانية ، أو اعتماداً على الرقوم الحميرية نفسها . وقد ناقض ج . ريكمانس نفسه حين رجع إلى تحديد التاريخ بمائة وخمس عشرة سنة قبل الميلاد قارناً له بالكسوف الكامل للشمس في خريف عام ١١٤ ق . م[١٨٩] . وكان في عام ٥٤٧ بالذات أن تمكن ابرهة من أن يضع في حسابه مدى ضعف مملكة الحيرة واحتمال نجاح خطته ضد معدّ ، وذلك لأن هزيمة اللخميين على يد الغساسنة تمت في عام ٥٤٦ . ولقد اتخذت المصادر البيزنطية في هذه الحال موقفاً غير متحيّز . هذا وقد أثبتت تقديرات أبرهة أنه كان مصيباً في رأيه لأن النصر في عام ٥٤٧ كان حليف الحميريين كما يشهد بذلك الرقيم Ry 506 . ولم يقدّم المنذر العون لبني معدّ إلّا في مفاوضات الصلح عندما تم تقديم الرهائن من جانبه أو

---

* لعلّه من الأفضل في هذا الصدد مراجعة مقال M.J. Kister بعنوان :
"The Campaign of Ḥuluban" (Le Museon, LXXVIII, 1965) ـ المترجم .

(١٨٥) J. Ryckmans, Inscriptions historiques...., p. 341; W. Caskel, Entdeckungen...., p. 28; A.G. Lundin, Iujnia Áravia, str. 74

(١٨٦) A.F.L. Beeston, Notes on the Muraighan Inscription, BSOAS, 1954, v. 16, 2, pp. 391 - 392

(١٨٧) W. Caskel, Eutdeckungen in Arabien, pp. 28. 30

(١٨٨) S. Smith, Events in Arabia in the 6th century A.D., pp. 435 - 437, 465.

(١٨٩) J. Ryckmans, Le début de l'ère himyarite..., Bibliotheca Orientalis, 1953, X, pp. 207 - 208

بموافقته ، وذلك على يد ابنه عمرو بن المنذر الذي تولى العرش فيما بعد والذي كان آنذاك عاملاً للخميين على معد . هذه هي الترجمة والتفسير التي يقدمها بيستون للمتن . وفي رأيي أنه لا خلاف على ما ذهب إليه [١٩٠] . وليس هناك بصيص من الاحتمال في صحة الزعم القائل بأن عمراً بن المنذر الذي وُلّي على معد هو الذي سُلِّم كرهينة لأبرهة . فهو الذي كان يقوم بالمفاوضات بوصفه رأساً لمعدّ وممثلاً للمنذر ؛ غير أنه لا يرد في أي موضع بأنه قد خضع لملك حمير . كما أنه يصعب الاستنباط من متن الرقيم بأنه هو الذي صار رهينة على نحو ما فهم خطأ بعض الباحثين[١٩١] .

والرواية العربية على علم بحملة عمرو على اليمامة . ولقد كشف كوسان دي برسيڤال عن ادراك لطيف لظروف الأحوال التاريخية عندما قال : « فهل توجّه [عمرو] لمعاقبة العصاة أم لتسوية الأمر مع الكتائب الحبشية في جيش اليمن التي تم إرسالها إلى تلك النواحي ؟»[١٩٢] . وعاد عمرو من هذه الحملة / غير راضٍ وشاعراً بأن قدره قد تدنّى وصفر اليدين من الغنائم . وفي هذا القول ما يشبه إلى حد ما ما جاء بالرقيم . وتحكي الرواية العربية بعد ذلك عن غارة عمرو على قبيلة الأجثين (adjiti) الذين زيّن له الغارة عليهم زرارة من قبيلة حنظلة .

104

وقد ظفرت بدرجة قصوى من الأهمية علاقة حملة أبرهة لعام ٥٤٧ « بعام الفيل » ، فقد تناقضت الآراء وتشعّبت حول هذه المسألة . ويمكن القول بالكثير من الثقة بأن هذه الحملة هي الحملة الوحيدة التي يقول عنها پروكوپيوس القيساري إن الحميريين قاموا بها ضد ايران تلبية لرجاء يوسطنيان ـ وأضيف إلى هذا أن هذه الحملة بالذات هي المعنّية في الرقيم الذي تم العثور عليه عند بئر مريغان . وقد دوّن پروكوپيوس مصنفه « الحروب الفارسية » بين عامي ٥٤٥ و ٥٥٤[١٩٣] ؛ وهو لا يتحدث إلّا عن حملة واحدة لابرهة فيقول إنه « لم يشرع في الحملة إلّا مرة واحدة ، ثم قفل منها عائداً على الفور »[١٩٤] . لذا فإن مهاجمة أبرهة لمعد الخاضعين للخميين يجب النظر إليها بوصفها عملية موجّهة ضد الفرس ، كما يجب النظر إلى تدخل المنذر باعتباره دفاعاً عن مصالح الفرس على يد عرب الحيرة . ذلك أن پروكوپيوس لم يعلم ولم يكن له أن يعلم بحدوث حملة غير هذه . وهناك أساس قوي للافتراض بأن رقيم عام ٥٤٧ ومصنَّف « الحروب الفارسية » لپروكوپيوس إنما يتحدثان عن واقعة واحدة . ويرى البروفسور ف . التهايم F.Altheim أنه يمكن القول بأن حملة ابرهة على معد و « عام الفيل » هما شيء واحد ، وأن الرواية العربية تقدمت بتاريخ وقوع هذا الحادث من عام ٥٤٧ إلى عام ٥٧٠ وهو عام ميلاد النبي[١٩٥] . وعلى أية حال فإنه لا يزال قائماً رأينا الذي أفصحنا عنه في بحث سابق ،

(١٩٠) A.F.L. Beeston, Notes on the Muraighan inscription, p. 592

(١٩١) A.G. Lundin, Iujnia Aravia, str. 78, prim. 71

(١٩٢) A.P. Caussin de Perceval, Essai sur l'historire des arabes, t. II, Paris 1847, p. 119

(١٩٣) B. Rubin, Procopius von Kaisareia, col. 25, 354

(١٩٤) Procopius, De bello persico, I, 19, p. 110

(١٩٥) F. Altheim, Finanzgeschichte der Spätantike, pp. 144 - 145, 147.

ومفاده أنه يصعب أن يكون حكم ابرهة قد امتد إلى عام ٥٧٠(١٩٦) .

ومن الأهمية بمكان بالنسبة لتاريخ اللخميين أن نذكر أن نفوذهم قد ظل ممتداً على مناطق وسط الجزيرة العربية حتى الأربعينات من القرن السادس ، وأنهم جهدوا في الحفاظ على وضعهم هنالك على الرغم من النشاط المعادي لحمير . وقد عيّن المنذر ابنه ووريثه عمراً « عاملاً » على معد التي كان يضعها في مكانة رفيعة بين حلفائه . كما وأن ضعف كندة أدّى إلى ارتفاع شأن اللخميين ، ولذا فإنه لم يكن من قبيل المصادفة أن أخذت كندة طرفاً في حملة ابرهة . ومن الواضح أن كندة التي تنتمي إلى مجموعة القبائل التي ظلت مقيمة ببلاد العرب الجنوبية قد دخلت ضمن دولة حمير . وهم لم يغب عنهم أن بني معد كانوا ذات يوم يدينون بالطاعة للكنديين الشماليين الذين هلك ملكهم الحارث في إحدى الوقائع مع المنذر . وكان لكندة مكانة مرموقة في دولة حمير حيث شغلوا فيها إلى حدٍ ما وضعاً مستقلاً ، كما يبصر من ثورة يزيد بن كبشاته ضد أبرهة ، وهو كندي انضمت إليه قبائل أخر(١٩٧) .

والصدامات الدائمة بين القبائل العربية بمناطق الشرق الأدنى لم يفت رصدها على المصادر . ففي أعقاب الصلح الذي عقد / لمدة خمسة أعوام بين الفرس والروم عام ٥٤٥ نبصر المنذر يقوم بغارة في العام التالي (٥٤٦) فيحرم الحارث الغساني من أحد أبنائه حين قدمه قرباناً للإلهة العُزّى(١٩٨) . غير أن الفرس أنفسهم ظلّوا يتحينون الفرصة لمضايقة بيزنطة . والمحاولة المزعومة « للفرس للاستيلاء على دارا » يردها بروقوبيوس إلى العام الثالث لهذا الصلح (٥٤٧) . وخلاصتها أن رسول الفرس يدي كشناسب زه كُلّف بالذهاب إلى دارا بذريعة اجراء محادثات مع الروم ، وكان يصحبه خمسمائة من صفوة المقاتلين ليقوموا بإشعال النيران بالمدينة ثم يفتحوا أبوابها أثناء اشتغال المدافعين بإطفاء الحريق لجيش الفرس الذي يقال إنه كان ينتظر غير بعيد . وقد كشف عن هذه المؤامرة أحد الفارّين الذي أبلغ بها جورجيوس قائد دارا ؛ وعندها لم يسمح لممثل الفرس بحاشية تتجاوز العشرين شخصاً . وقد استقبل يدي كشناسب بالكثير من العطف والترحاب بالقسطنطينية حيث أمضى بها حوالي عشرة الأشهر ، وكلّف استقباله والترحاب به مبالغ طائلة (عشرة قناطير من الذهب) ولكن لم يتم التوصل إلى حلّ أيّ من المسائل ذات الشأن . هذا وقد شملت عناية يوسطنيان حاشية السفير فدعا إلى المائدة الامبراطورية برادوكي Braducius مترجم الجانب الفارسي والذي دفع رأسه فيما بعد ثمناً لهذا عند عودته إلى ايران ، فقد عُدّ خائناً وأعدم(١٩٩) .

وفي عام ٥٥٠ كان قد انقضى العام الخامس للمصالحة بين بيزنطة وايران ، ولهذا فقد أُرسل البطريق

105

(١٩٦) N. Pigulevskia. Vizantia na putiakh v Indiu. str. 328

(١٩٧) شرحه ، ص ٣١٩ - ٣٢٠

(١٩٨) Procopius. De bello persico. II. 28. 284

(١٩٩) شرحه ٢ ، ٢٨ ، ص ٢٨٩ .

بطرس إلى خسرو للحديث حول مدّ فترة الصلح ولكن ملك الفرس صرف الماجستير ووعد بإرسال سفيره الخاص . وبالفعل وصل إلى بلاط الامبراطور مرة أخرى يدى كشناسب نفسه ، تصحبه أسرته وعدد من أعيان الفرس . وقد اتخذ رسول خسرو موقفاً غاية في الصلف فبدأ بالشكوى من أن الروم قد نقضوا الصلح لأن « الحارث والعرب الخاضعين للروم آذوا المنذر التابع [للفرس] » .(٢٠٠) ومن الجائز أن غارات الحارث قد حدثت في آخر الأربعينات ، ولكن كالعهد بهم دائماً فإن العرب كانوا حجّة جيدة لايران لتعرب عن عدم رضاها(٢٠١) . وعلى أية حال فقد تم تجديد الهدنة آخر الأمر لخمسة أعوام أخرى ، وذلك في العام الخامس والعشرين من حكم يوسطنيان أي في ربيع عام ٥٥٢ . وعاد يدى كشناسب إلى طيسفون بثروة طائلة ومحمّلاً بالهدايا والتحف التي غمره بها يوسطنيان(٢٠٢) . وقد أكد خسرو موافقته على شروط الصلح التي كانت في مجملها لصالحه بدرجة كبيرة . غير أن حلّ مشكلة لازقة أُجِّل إلى وقت آخر .

أما أهمية المسألة العربية في العلاقات بين الدولتين الكبريتين فتتضح من أن المحادثات بدأت بالشكوى من العرب ، وأنه عند تجديد الاتفاقية كان من أهم شروطها « أن يتم تسوية الخلافات / فيما يتعلق بكل من لازقة والعرب »(٢٠٣) . غير أن تسوية المشاكل المتعلقة بالعرب لم تكن ميسورة إلاّ لوقت محدود واعتماداً على ظروف الأحوال . فقد تصرفوا وفقاً لهواهم وكيفما تبدو لهم الأمور ، فقاموا بنقض الاتفاقية دون أدنى تحذير . أما العداء بين الغساسنة واللخميين فإن أواره لم يخفت البتة بل إنه صار أكثر استعاراً .

106

وكان آخر اشتباك للمنذر مع الغساسنة هو الذي كلّفه حياته . فقد قام بحملة على مناطق الحدود بأرض الجزيرة وهناك اصطدم بالحارث . [ويحكى عن هذا مصدر سرياني بقوله :] « في العام السابع والعشرين ليوسطنيان اقتحم منذر زكيكا أرض الروم وخرب بلاداً كثيرة . فتقدم حارث بر جبله وتقاتل معه فانتصر عليه وقتله عند عين أديه قرب قنسرين . وكذلك قتل معه في هذه المعركة ابن لـحارث يدعى جبله فدفنه أبوه في برطيل (martyrium) هذه القلعة(٢٠٤) » . وثمة مصدر سرياني آخر يسمح لنا بضبط لحظة موت المنذر بصورة أدق : « عام ٨٦٥ . في حزيران مات منذر » ؛ وهو يوافق يونيو ٥٥٤ م(٢٠٥) . أما موضع مصرعه قرب قنسرين فتحدّده الرواية العربية على أنه الحجر الواقعة على مرحلتين من حلب إلى الرقة ؛ كذلك يرد في المصادر العربية ذكر مواضع مثل عين أباغ بالعراق . ويطلق بعض المؤلفين العرب أيضاً على المعركة التي سقط فيها

---

(٢٠٠) Procopius Caesarensis. Opera omnia, v. II, ed. Haury, Lipsiae, 1905, De bello gothico. IV, 11, p. 536

(٢٠١) يفترض نولدكه أن الصدام بين الغساسنة واللخميين جرى في عام ٥٤٤ و ٥٤٦ والأعوام التالية لها
(Th. Nöldeke, Die Ghassanischen Fürsten...., p. 18)

(٢٠٢) Procopius, De bello gothico, IV, 15, p. 567.

(٢٠٣) شرحه ، ص ٥٦٦

(٢٠٤) Michel le Syrien, Chronique, t. II. 2, pp. 323 - 324 (269)

(٢٠٥) Chronicon miscellaneum ad Annum Domini 724 pertinens, ed E.W. Brooks. CSCO. Scriptores syri, series tertia, t. 4, Parisiis. 1903, p. 143

المنذر « يوم حليمة »[٢٠٦] . غير أن كل هذه التخمينات تتهافت عند مقارنتها بأقدم الروايات السريانية التي تتسم بالوضوح .

وروايات المؤرخين العرب ومدوّني الحوليات من السريان تُجمع على أن المعركة التي سقط فيها المنذر وقعت عند الحجر قرب قنسرين . وهذا الرأي قال به نولدكه[٢٠٧] . وهو يجد التوكيدات في الحوليات السريانية الجديدة التي تم الكشف عنها بالتالي . ووفقاً للرواية العربية فإن قاتله هو شمر بن عمرو السهيلي من بني حنيفة . وتاريخ موته يجب أن يُعد موثّقاً بصورة جيدة ، وهو يتفق مع تعداد الطبري ـ وفقاً لهشام ـ لمدة حكمه بأنه تسع وأربعون سنة[٢٠٨] ، وإن كان بروكوبيوس القيساري يتحدث عن خمسين سنة ألقى خلالها الرعب والفزع في كافة أرض الروم[٢٠٩] . وهذا القول يتفق أيضاً مع الحقبة / التي شغلها على العرش من عام ٥٠٥ وحتى عام ٥٥٤ . ولمدة عامين بعد موت النعمان جلس على عرش الحيرة يعفر . أما الحارث بن عمرو الكندي الذي « اغتصب » العرش حيناً من الوقت فإنه لم يؤبه به في كافة المصادر ، سواء العربية منها أو اليونانية ، عند حصرها لسني حكم المنذر .

107

هذا وقد بلغت دولة اللخميين على عهد المنذر أقصى درجات ازدهارها ؛ والوصف الذي أطلقه عليه معاصروه بأنه عدو شجاع جسور ومكّار ، إنما يطابق كل ما هو معلوم عنه من كافة المصادر وإن وجب عدم نسبة هذه الصفات إلى الميزات الشخصية لذلك الملك المقاتل بقدر نسبتها إلى التفوق العسكري التي تمتعت به دولة اللخميين وأيضاً إلى إمكانياتها والنفوذ الذي حازته وسط القبائل العربية وبين حلفائها من العرب . وإذا ما وصفه بروكوبيوس بأنه كان « مجرباً متمرساً في فنون القتال وشديد الولاء للفرس » ، فإن هذا يتفق مع واقع الحال . ومع كل هذا فإنه يجب ألا يغرب عن البال أن المنذر على « ولائه للفرس » قد قبل المنح والعطايا من العدو ، أي « هدايا الامبراطور يوسطنيان » التي أثارت سخط خسرو ولم تخرج بطبيعة الحال عن كونها ضرباً من الرشوة . ذلك أن القسطنطينية قد افتدت نفسها منه ودفعت ثمناً للأرزاء التي لا تقع تحت حصر والتي سببتها غارات المنذر وعربه . وليس من قبيل المبالغة أن نقول إنه خلال نصف قرن من الزمان كان المنذر يمثل خطراً على المناطق الشرقية للامبراطورية بدءاً من مصر حتى أرض الجزيرة ؛ فقد « خرّب تلك الأراضي » وأعمل فيها يد النهب بلا هوادة وحرق جميع أبنيتها ، كما سبى ألوفاً من الناس قتل بعضاً منهم وباع الآخرين لقاء أموال طائلة . وهذه الأفعال جميعها هي من سمات غارات العرب بوجه عام ، ولكنها تصدق على أفعال المنذر

---

(٢٠٦) G.Rothstein, Die Dynasyie der Lahmiden.., pp. 70, 84-87: Hitti, History of the Arabs, p.83 . لهذا يجب رفض الزعم القائل بأن واقعة يوم حليمة هي نفس واقعة الحجر ، كما ظن خطأ بعض الباحثين (انظر مثلا : B. Rubin, Das Zeitalters Justinians , pp. 347, 517, 1124) .

(٢٠٧) Th. Nöldeke, Die Ghassanischen Fürsten aus dem Hause Gafnas. AAWB, phil-hist. Klasse, Berlin, 1887, p. 18.

(٢٠٨) Nöldeke - Tabari, pp. 169 - 170.

(٢٠٩) Procopius, De bello persico, 1. 17, p. 89

بصورة خاصة . ولم تكن غاراته وليدة الصدفة ، بل كانت تتم بعد التخطيط لها لكي تحمل عن قصد طابع المفاجأة والمباغتة وتنجح في سرعة التنفيذ والاستيلاء على الغنائم . وقد اشتهر العرب بمقدرتهم على الغارة الخاطفة بحيث لم يتركوا للروم فرصة لتنظيم قواتهم لخوض معارك نظامية ، فقد كانوا ينقضّون فجأة ويضعون يدهم على ما يجدونه ناشرين في خلال ذلك الهلع والاضطراب ، ثم يسارعون بالانسحاب .

غير أنه يجب ألّا ننكر أن المنذر قد أضفى على هذه الأساليب القديمة للغارات البربرية حدّة مصبوغة بصفاته الشخصية ، كميله إلى المغامرة ومكره وقسوته وخبرته الواسعة في القتال[٢١٠] . وبروكوبيوس في تحليله لشخصية المنذر ، أو حين يحكي لنا عن غاراته ، لا يشير البتة إلى أن اللخميين كان يوجد في مواجهتهم عرب بيزنطة سواء منهم كندة أو الغساسنة الذين كانوا يقومون بحراسة حدود الامبراطورية . فهؤلاء الأخيرون كانوا أيضاً على دراية بأسلوب غارات خيل العرب ، بل إنهم هم أنفسهم كانوا يتبعون ذلك الأسلوب . أما المصادر الأخرى مثل ملاله وثيوفانيس واڤاغريوس وكرلس الاسكيثوبولي فإنهم يعرضون الصدامات التي تقع بين العرب - الذين كانوا يمثلون مصالح سياسية مختلفة فيدور بعضهم في فلك / ايران والآخر في فلك بيزنطة - يعرضونها بصورة تمتاز بالوضوح الشديد حتى إننا نبصر « عرب الروم » يوجّهون أكثر من مرة ضربات شديدة نحو أبناء عمومتهم « عرب الفرس » .

ومما لا شك فيه أن دولة الحيرة بوصفها دولة على رأسها ملك هو القائد العسكري لهذه القبائل ، قد اكتسبت بهذا أهمية كبيرة ؛ ذلك أن وجود رأس واحدة تتولى القيادة العسكرية من شأنه أن يؤدي إلى الكثير من التنسيق ووحدة الكلمة ، مما ينعكس في التنظيم وبصورة خاصة في التخطيط العسكري والحملات العسكرية . ولقد كان هذا من الميزات التي تمتع بها اللخميون .

هذا هو النظام الذي قامت عليه دولة اللخميين ، غير أن الكيان القبلي ظل حيّاً داخل إطار هذا النظام ، كما ظلّت حية أيضاً التقاليد الديمقراطية [الشورى] وروح الجماعة واحترام رأي الشيوخ وصلة الرحم ؛ مما سنعرض له فيما يأتي من الكتاب .

ولم يكن لدى بيزنطة دولة عربية كهذه تتمتع بولاء رعاياها ويقوم على رأسها ملك . وفوق هذا فإنه لم يكن ذلك باستطاعتها ، أو ربما أنها لم ترد أن يكون لها ؛ فقد وقف في سبيل تحقيقه كل نظام الامبراطورية التي لم تطق قيام دويلات عربية أو سريانية مثل كوماجينه واسروينه وتدمر والبطرا ، سواء بأرض الجزيرة أو على ساحل سورية وفينيقية . وعلى الرغم من أن الحارث قد حمل لقب البطريق وعومل « معاملة الملوك » إلّا أن هذا

---

(٢١٠) شرحه .

كان ذا مدلول مختلف ، ذلك أن وضعه كحاكم يتمتع باستقلال ذاتي لم يكن في الوسع مقارنته البتة بوضع ملوك الحيرة الرفيع الذي تشكل منذ عهد بعيد وكانت له تقاليده الضاربة في القدم .

اللخميون الأواخر

في قائمة ملوك اللخميين يرد بعد المنذر اسمُ عمرو بن المنذر ، وأمه هي هند ابنة الحارث بن عمرو الكندي حفيد حجر آكل المُرار[٢١١] . وهذا النسب نفسه يورده أيضاً حمزة الاصفهاني الذي يشير إلى أن أمه هنداً من أسرة عمرو بن حجر الكندي آكل المُرار[٢١٢] . ومن هذا يتبيّن أن أم عمرو بن المنذر كانت ابنة الحارث الكندي عدو المنذر اللدود الذي قتله المنذر عام ٥٢٨ . ويُفترض أنها أسرت في إحدى غارات اللخميين على كندة ؛ ولعله يوجد فرض آخر مفاده أنه في الوقت الذي اضطر فيه المنذر بالعراق إلى مداراة الحارث الذي حظى بمؤازرة قباد ، فمن الجائز أن تكون قد نشأت بين الاثنين صلات ما وأن ابنة الحارث قد تم تزويجها من المنذر آنذاك . وهند أم عمرو وأخيه قابوس كانت نصرانية[٢١٣] . وقد وجدت بالحيرة بيعة بنتها هند ، وهذا معلوم لنا من نقش كتابي حفظه ياقوت الحموي وجاء فيه[٢١٤] : « بَنَت هذه البيعة هند بنت الحارث بن / عمرو بن حجر الملكة بنت الأملاك وأم الملك عمرو بن المنذر أَمَة المسيح وأم عبده وبنت عبيده في ملك ملك الأملاك خسرو أنو شروان في زمن مار افريم الأسقف » . وهذا النقش يفسح المجال لعدد من الاستقراءات ؛ فهند « الملكة » و « بنت الأملاك » قد شغلت فيما بعد المكانة الأولى بوصفها « أم الملك عمرو بن المنذر » ، على الرغم من أنها كانت ابنة للعدو الذي قتله المنذر . ولعل النقش إنما يشير إلى زمن لاحق لموت زوجها ،وذلك عندما أصبح ابنها ملكاً للحيرة . واستناداً إلى ما نُعت به عمرو في النقش بأنه « عبد » المسيح فيجوز الافتراض بأنه هو أيضاً كان نصرانياً . أما الاسقف افريم الوارد اسمه في النقش فمعروف قبله أساقفة آخرون على كرسي الحيرة . وانتشار النصرانية بين العرب الخاضعين للخميين سيرد الكلام عنه فيما يلي من الكتاب .

وعمرو هذا هو عمرو بن المنذر نفسه الوارد ذكره في الرقيم الجنوبي العربي لعام ٥٤٧ (Ry 506) ، وكان أبوه قد ولّاه على معدّ بوسط الجزيرة العربية فعقد الصلح مع أبرهة وقدّم له الرهائن ضماناً لعدم تعرّض حمير لغارات معد . ولقد حفظت الرواية العربية أقوالاً مضطربة عن حملة عمرو على الغساسنة طلباً لثأر أبيه ،

(٢١١) Nöldeke - Tabari, pp. 171 - 172

(٢١٢) Hamza Ispahanensis, Annales, p. 109 (85)

(٢١٣) Nöldeke - Tabari, p. 172, nota 1

(٢١٤) Jacuts Geographisches Wörterbuch, herausgegeben von F. Wüstenfeld, Bd II, Leipzig, 1867, p. 709 . وياقوت يدعو هنداً « هند بنت الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار الكندي » .

ولكن لا يوجد ما يؤكدها وإن كان الحادث في ذاته أمراً ليس بعيد الوقوع . ولما عقد عمرو العزم على الثأر لأبيه دعا القبائل الموالية للخميين إلى حمل السلاح فأبت تغلب الامتثال لأمره ، ولذا فإن الجيش الذي جمعه عمرو بدأ هجومه ولكن بالعصاة الذين قالوا في صلف هل يظن ابن هند أننا رعاة ملزمون بالخضوع لأوامره ؟ ولقد نال بني تغلب على يده ضربة شديدة . ثم تحرك عمرو بعد ذلك على سورية فانقض على الغساسنة وفك إسار شقيقه امرىء القيس بن المنذر . وكانت النواة الأساسية لجيش عمرو وأشدها قتالاً هي قبيلة بكر التي يرجع الفضل إليها في انتصاره[٢١٥] .

ومما يقف دليلاً على أهمية دولة اللخميين في حفظ التوازن بين الامبراطوريتين نقاط معيّنة وردت في مفاوضات السلم بينهما وحدّدت شروط العلاقات مع العرب . وكان الفرس على نحو ما حدث من قبل قد انقضّوا على ساحل البحر الأسود حيث كان الروم جاهدين في الحفاظ على سلطانهم هناك . لذا فقد ظلت لازقة وسوانية مواضع للصدام بين جيشيهما ، ثم صارتا فيما بعد موضوعاً لنزاع دبلوماسي طويل الأمد . وعندما حانت لحظة تجديد الصلح بين ايران وبيزنطة في عام ٥٥٦ كان الفرس في هذه المرة هم الذين بادروا بطلبه . وقد تم تجديد المعاهدة في العام التالي لخمسة أعوام[٢١٦] ، على أن تجدّد عند انقضائها / لمدة خمسين عاماً . وفي آخر عام ٥٦١ وصل إلى دارا على الحدود الماجستير البطريق بطرس الذي فوّض إليه يوسطنيان تفويضاً كاملاً إجراء المحادثات مع الفرس ، والتي ما زال البروتوكول الخاص بها موجوداً . وكان يمثل ايران فيها كشناسب من أسرة زه الارستقراطية . وهناك عبارات ذات طابع عام حفظت لنا من كلام السفيرين وما قدّماه من حجج وأوجه دفاع بجانب مقترحاتها ذات الطابع الإيجابي . ومنها يتبيّن أن الروم أصرّوا على الاحتفاظ بلازقة ، وأن الفرس طالبوا بدفع الالتزامات المالية المعهودة . هذا وقد قلّب المترجمون والخبيرون بالصياغة أوجه النظر وقتاً طويلاً وأعقب ذلك صدور قرارات من الامبراطور والشاه معاً تؤكد مقترحات الطرفين وتنص على موافقتهما على ما جاء بمتن الاتفاقية الذي توصّل إليه بطرس واوديسيوس مع يدي كشناسب . وقد تم التوقيع عليه بأسمائهم ومهر بالأختام وكانت كل وثيقة صورة طبق الأصل للمتن الذي اتفقوا عليه ، فيما عدا المقدمة التي تتضمن نعوت كل ملك من الملكين وألقابه .

110

وتعتمد مخطوطة سجل المحادثات على ما تم تدوينه أثناء الجلسات . ذلك أنه وردت بالمتن إشارات تومىء إلى نهاية كل جلسة وبداية أخرى . وفي إحدى الجلسات تحدث مندوب الفرس عن مطالب ملك الحيرة . « وأعقب ذلك أن شرع زه في الحديث عن امبروس Ambros [عمرو] ابن الامندروس Alamundaros [المنذر] الزعيم العربي [مشيراً إلى] أنه هو وكذلك من قبله هيجمون [أي زعيم] العرب

(٢١٥) G. Rothstein, Die Dynastie der Lahmiden....., pp. 87, 96; A.P. Caussin de Perceval, Essai sur l'histoire des arabes, II, Paris, 1947, p. 116

(٢١٦) Iu. Kulakovskii, Istoria Vizantia. t. II, Kiev, 1912, p. 203

تسلما مائة رطل من الذهب . فردّ بطرس بأن عاهلنا قدّم الذهب إلى الهيجمون الذي سبق امبروس [عمراً] عن حسن نيّة وفي صورة هدية وبلا التزام مكتوب وبالقدر وفي الوقت اللذين أرادهما . لذا فقد بعث سريعاً رسوله على خيل البريد ليبلغ العربي أن الهدية إنما أرسلت إليه بواسطة امبراطور الروم . وكان السرقيني [الزعيم العربي] قد أرسل من قبل إلى امبراطورنا رسولاً بهدايا فسارع عاهلنا بالتعبير عن حسن نيته بإرسال الهدايا من جانبه إلى العربي . فإذا ما رأى امبروس أن يتعامل بمثل هذا الأسلوب ، ووافق هذا أيضاً رغبة امبراطورنا ، فإنه سوف يتسلم [الهدايا] .وإذا لم يرد فإن عمله هذا سيكون عبثاً ، كما أن تصرفه سيفتقر إلى الذكاء في هذه الحال لأنه لم يتسلم شيئاً ما » .[٢١٧] وبهذا عمل بطرس على أن يُنحّي جانباً المسألة المتعلقة بمنح الهدايا للعرب من متن الاتفاقية . واعتماداً على الروايات التي سبقت من قبل فإن بيزنطة كانت دون شك تبعث بالصلات ، ليس لحلفائها بحسب بل وكذلك لأعدائها اللخميين ؛ مما عنّف عليه عليه خسرو يوسطنيان . وخلال ذلك كان متن معاهدة الصلح قد تم إنجازه في دقة باللغتين اليونانية والفارسية وتمت مقارنة النصين كلمة بكلمة .

وقد شملت معاهدة الصلح هذه التي أبرمت في عام ٥٦١ و٥٦٢ مواد ذات صلة مباشرة بالعرب المتحالفين / مع كل من الدولتين . فعقب المادة الأولى مثلاً والخاصة ببوابة قزوين وحملة تزون على المنطقة الجبلية التي نفذ منها كل من الفرس والهون واللان إلى أراضي الدولة البيزنطية ، وهي تلك المادة التي نسختها المادة الثانية من الاتفاقية ، ترد الألفاظ الآتية بصدد العرب : « ثانياً ـ أن يبقى الحلفاء العرب على ولائهم السابق لكل من الدولتين ، فلا يهاجم عرب الفرس بلاد الروم ولا عرب الروم بلاد الفرس »[٢١٨] . أما المادتان الثالثة والرابعة فقد حدّدتا المكوس المدفوعة على السلع على أن يُعفى منها السفراء وحاملو الرسائل من الروم والفرس . وكانت هذه المكوس تختص في المكانة الأولى بنقل الحرير ، الذي كان يقوم به عادة التجار من الفرس . وأما المادة الخامسة فقد تناولت من جديد التجار العرب وغيرهم من « البرابرة » فحظرت عليهم نقل السلع خارج نقاط المكوس ، كما « حظرت على ا لتجار العرب وعلى غيرهم من التجار البرابرة في كلتا الدولتين أن يسلكوا طرقاً غير معروفة ، بل إنها حددت لهم الطريق المار بنصيبين ودارا بالذات دون غيره من الطرق إلاّ إذا ما حصلوا على إذن بذلك » . وإذا ما جرؤا على نقض هذا القرار بأن داروا سراً حول نقاط المكوس فسوف تتعقبهم سلطات الحدود لتسلمهم « بما يحملون من السلع الشرقية أو الرومية » لكل من الطرفين لانزال العقاب بهم .

111

هذه المادة من الاتفاقية تبيّن بجلاء أن العرب أخذوا طرفاً في تجارة المرور (الترانزيت) وكانت هم

(٢١٧) Menandros. Fragmenta. Excerpta de legationibus, ed. C.De Boor. pars I, Berolini. 1903. p. 179; S. Destunis, Vizantiiskie Istoriki, SPb., 1860, str. 341; E. Doblhofer, Byzantinische Diplomaten und östliche Barbaren, Graz, 1955, pp. 106 - 107; B. Rubin. Das Zeitalter Justinians, p. 527

(٢١٨) Menandros, Excerpta...., p. 180.

الرِّيادة في هذا الميدان ، وأنه كان باستطاعتهم نقل السلع ليس بالطرق المعروفة فحسب بل بطرق أخرى يستطيعون بها تفادي نقاط المكوس . واستعمال هذه الطرق الجانبية كان أمراً سهلاً خاصة على العرب المتمرّسين ، لإحاطتهم بالظروف المحلية وخبرتهم بالأسفار الطويلة . ولقد تناولت المعطيات التي أوردناها فيما سلف عن ثيوفانيس الحديث عن مشاركة العرب في التجارة ونقل الحرير والمصنوعات الحريرية ؛ كما ذكر فيها أيضاً أن الغساسنة حين أغاروا على معسكر اللخميين عثروا على مقادير كبيرة من الحرير الخام والثياب فانتهبها « عرب الروم » مع غيرها من الغنائم أو الأنعام . وتسير المادة التاسعة من الاتفاقية على ذات النهج في إشارتها للعرب ، فهي قد حظرت الغارات والعمليات العسكرية ضد شعوب الدول الأخرى وحدودها[٢١٩] . وهي بهذا إنما تحظر بالتحديد ما كانت تقوم به القبائل العربية بعضا ضد بعض حيناً بعد آخر من نقض للسلام بل واشعال لنيران الحرب بين الدولتين الكبريتين بسبب هذه الأعمال . وعالجت المادة الحادية عشر احتمال سقوط المدن القريبة من الحدود ليس في حرب مفتوحة بل نتيجة « للخديعة أو النهب » ، وضربت أمثلة لهذا حتى يمكن اجتناب المبررات من أجل اشعال نار الحرب .

112 هذا وقد عقدت الاتفاقية لمدى خمسين عاماً ، على أن يحسب / العام « وفقا للتقاليد القديمة » بخمسة وستين وثلثمائة يوم . أما عملية إقرار السلام نفسها فقد كملت بتبادل المتن باللغتين اليونانية والفارسية مع توثيقه بالأختام بعد التحقق بدقة من صحتها على يد الماجستير بطرس وزِه . وخلال سبعة أعوام تم تسليم الأموال التي التزم الروم بدفعها لايران وفقاً لشروط المعاهدة بمدينة دارا . وكانت تسلّم لشخصيات كان يرسل بها الشاه قصداً لهذا الغرض . وبقيت هناك بضع مسائل متنازع عليها حول سوانية تمّت تسويتها فيما بعد مع خسرو رأساً . وقد وصل بطرس لهذا الغرض إلى وترمايس Vitarmais حيث كان يوجد خسرو ؛ وحدث ذلك في العام الجديد لأن بطرس كان قد تخلف بدارا بسبب عيد الميلا وعيد التجلي (epiphania) . ومما هو جدير بالذكر أنه وجدت إلى جانب مواد الاتفاقية شروط إضافية بين بيزنطة وايران كضمان حرية العقيدة للنصارى بايران ولكن دون أن يسمح لهم بالتبشير[٢٢٠] . وضمان حرية العقيدة للنصارى كان ذا صلة بالحيرة التي تتبع لايران . فالمونوفيزية ، أي مذهب الطبيعة الواحدة ، كانت منتشرة بين العرب بصورة خاصة ؛ كما أن التضييق الذي قام به اللخميون على النصارى من العرب كان من اللازم الحد منه وفقاً للاتفاقية التي قبلها الفرس .

وقد عاد خسرو مرة أخرى خلال حديثه مع بطرس إلى مسألة العطايا التي أرسلت إلى اللخمي امبروس

---

(٢١٩) شرحه ص ١٨١

(٢٢٠) شرحه ، ص ١٨٢ ؛ V. Grecu, Menander Protector and der persische Gesandschaftbericht Petros Patricios, Bulletin de la Section histroique de L'Academie Roumanaine, 1941, 22, 2, pp. 78-84

(عمرو) ، وهي مسألة كانت موضع اهتمام الفرس « لذا فإن الخلاف حول امبروس بن الاموندروس العربي بدأ بحثه من جديد » . وقد فتح الشاه الموضوع بالطريقة الآتية : « إن عمراً من عربنا ، وقد غضب غير مرة من زه وصاح قائلاً بأننا نهمله تماماً عندما ندخل معكم في مفاوضات للسلم » . ورد بطرس « إنه لم يحدث إطلاقاً أن تسلم عربكم من الروم أي قدر من الذهب لأدنى سبب أو بأي شرط . وواقع الأمر أن أبا امبروس وهو الاموندروس كان قد أرسل بهدايا إلى سيد الروم الذي قبلها وأرسل له بهدايا مماثلة . غير أن هذا لم يحدث كل عام بل إنه حدث مرة واحدة خلال خمسة أعوام . وقد راعينا نحن وراعى هذا الاموندروس ردحاً من الزمان . ومعلوم تماماً أن الاموندروس لم يفعل هذا لمصلحة الفرس ، بل كان الشرط أنه في حال ابتداركم بالحرب فإن سيف الاموندروس لن يرتفع ضد دولة الروم . والآن فإن أخاك وسيدي قد اتخذ في ما أرى قراراً حميداً أيها الملك . فقد قال إن السلام إذا ما استتب بين الدولتين فأي فائدة أجنيها من حمل رعايا الفرس وعبيدهم ليخونوا سيدهم ؛ ولماذا أرسل لهم بالهدايا وأتسلمها منهم » . « ورد الملك قائلاً إنه إذا ما حدث أن أرسل الطرفان قبل عقد الصلح / بسفارات وتبادلا الهدايا بنوايا طيبة فأرى أن يترك هذا الأمر على حاله دون تغيير . هذا ما دار من حديث في شأن امبروس » . 113

هذه النصوص توضّح الوضع العام لدولة اللخميين ، ومنها يتبينَ أنها كانت دولة قوية ذات أهمية . وقد جهدت ايران في ضمان مصالحهم المادية ، وكانت تلحّ من جانبها على أن تقدم بيزنطة العطايا السنوية للعرب . وقد اعترف البطريق بطرس بأن « حكومة الروم » قد أرسلت فعلاً بالهدايا إلى العرب ولكنه أعطى انطباعاً بأن هذا قد تم في إطار تبادل الهدايا بين الجانبين وكتعبير لحسن النية من جانب بيزنطة ، جاهداً خلال ذلك في أن يثبت أن « العرب » هم الذين بدأوا بتقديم الهدايا وأن الامبراطور قد قبلها وردّ عليها بالمثل . وقد عرف الدبلوماسي البيزنطي كيف يدافع عن وجهة نظره ، فأثبت أن « الهدايا » إلى العرب لم تصبح التزاماً سنوياً وأنها لم تدخل في مواد الاتفاقية . غير أنه بعد أن عُقد الصلح رأى خسرو أن الضرورة تقضي بالعودة إلى مسألة عمرو من جديد ، لأن أهمية الحيرة بالنسبة للفرس لم تعد خافية . وقد بدأ الشاه بأن أكّد أن عمراً لم يكن راضياً ، وأنه غضب وأنّب يدي كشناسب ، بل و « أثار الكثير من الصخب » متهماً إياه بإهمال مصالح الحيرة . ولاشك أن اجتراءه بهذه الصورة إنما كان مستنداً على قوته ومقدرة سلاحه . وفوق ما ذكر من قبل فإن بطرس قدم حججاً جديدة عند رده على الشاه ، قائلاً بأن هذه الهدايا لم تأخذ طابع الالتزام وأنها لم تكن تتكرر كل عام ، بل إنه كانت تمضي أحياناً خمسة أعوام لايتم خلالها إرسال شيء من الهدايا . وأعقب هذا أن قام السفير البيزنطي بهجوم دبلوماسي كان أبعد من أن يرضي الفرس . فبعد أن وكّد أن هذا اللون من الهدايا قد أُرسل إلى الاموندروس لأكثر من مرة على مدى فترات طويلة ، دلّل على أن اللخمي قام بهذا التصرف دون أن يضع في حسابه مصلحة الفرس . ووفقاً لقوله فقد وجد اتفاق بين بيزنطة والمنذر مفاده أنه لو بدأت ايران بالهجوم فإن اللخميين لن يأخذوا بطرف فيه وأن سيوفهم لن ترتفع في وجه الروم . غير أن المصادر حفظت

معلومات عن حملات عديدة لملك العرب لاعلاقة لها بالفرس أو أنها كانت جزءاً من تحركات جيشهم ، بحيث أن وجود اتفاق من هذا القبيل من شأنه أن يثير الشك . وتشير وقائع الأحوال إلى أن العطايا والمنح البيزنطية قد كان لها هدف واحد هو إيقاف غارات العرب بدفع ثمن لهذا .

وفي الختام أورد السفير ملاحظات باسم يوسطنيان مفادها أنه يجب اتباع سياسة جديدة فيما يتصل بالموقف من العرب . وبما أن اتفاقية السلام قد قبلتها كل من ا لحكومتين فإن إعطاء الهدايا للعرب أو تسلمها / 114 منهم لم يعد ذا جدوى للدولة البيزنطية (« لي ») لأنها لن تستفيد شيئاً من رعايا ايران ، خاصة وأن هذا الضرب من العمل قد أدّى غرضه بأن قاد هؤلاء الرعايا إلى « خيانة » سيدهم ودولتهم . لكل هذا فإن خسرو اضطر إلى تعليق المسألة ، تاركاً للخميين حرية تبادل السفارات مع القسطنطينية وتبادل الهدايا الذي كان تعبيراً عن النوايا « الحسنة » بين الطرفين . وبهذا انتهت قصة الخلاف الذي نشب بصدد اللخميين .

وبروتوكول سفارة بطرس يعكس إلى حدّ ما أخلاق عمرو (امبروس) وطاقته وإلحاحه وأهمية دوره في العلاقات بين الدولتين الكبريتين . فهو قد سمح لنفسه بتأنيب الممثل الأعلى لحكومة الفرس ، وحرص على تحقيق مصالحه الشخصية حتى أن خسرو نفسه اضطر إلى إثارة الموضوع مع السفير.وعلى نحو ما كان عليه الحال مع المنذر فإن عمراً أيضاً جهد في توكيد مكانة دولته في الوضع السياسي العام للقوى بالشرق الأدنى وما تمتعت به من استقلال ذاتي . ولا تغيب عن الذاكرة تلك الغارات التي قام بها عمرو في الأعوام التي تلت صلح عام ٥٦٢ . وإلى نوفمبر من الاندقطيون الثانية عشر وذلك في الأعوام الأخيرة لحكم يوسطنيان ، وهو الموافق لنوفمبر ٥٦٣ م ، ترجع قصة زيارة « الحارث بطريق العرب وفيلارخهم » للقسطنطينية . وقد بحث الحارث أمر مَن يخلفه من أبنائه على الفيلارخية ، وكذلك « ما فعله امبروس [عمرو] بن الاموندروس [المنذر] ببلاده »[٢٢٢] . وينبغي الاعتقاد بأن الغارات قد شملت سورية التي كانت تُعدُّ منطقة تخضع مباشرة للحارث بوصفه فيلارخاً .

ولم تكن مسألة العطايا ودفع أموال للعرب قد اختف تماماً خلال ذلك ، حتى أن خسرو وجد أن الضرورة تقضي بالعودة إليها من جديد . فقد وجّه الامبراطور يوسطين في مارس ٥٦٧ يوحنا بن دومنزيول سفيراً[٢٢٣] له وكلّفه رسمياً بأن يفيد الشاهنشاه باعتلاء يوسطين الثاني العرش وفقاً لتقليد متبع منذ عهد بعيد . ولكنه كُلف أيضاً في الوقت ذاته بمهمة دبلوماسية هي توضيح الوضع الخاص بسوانية التي لم تستردها بيزنطة وظلت موضعاً يغير منه الفرس على لازقة . ذلك أن السيادة على البحر الأسود ظلّت أمراً حيوياً بالنسبة للروم .

---

(٢٢١) Menandros, Excerpta...., p. 186.

(٢٢٢) Theophanes, Chronographia, p. 240

(٢٢٣) E. Doblhofer, Byzantinische Diplomaten und östliche Barbaren, Graz. 1955, p. 127

115 وقد توقف يوحنا بدارا في انتظار انتهاء عيد « هورديغان » الذي لا يشتغل الفرس خلاله بشيء / ، ثم انتقل من هناك إلى نصيبين وأخيراً أُذن له بدخول العاصمة لمقابلة خسرو . وبمناسبة حديث الشاه ذات مرة بصدد العرب ، فقد استغل المؤرخ ميناندر الفرصة ليقدم استطراداً موجزاً عنهم . وهو يصفهم بأنهم قبائل شتى يعمل القسم الأكبر منها برعي الماشية في الصحارى وليس عليهم من مسيطر ، غير أن بعضهم يدور في فلك دولة الروم و الآخر في فلك دولة الفرس(٢٢٤) . وقد أرسل إليهم يوسطنيان بالهدايا رغبة في السلام ، ولكن يوسطين لم يكن في نيته الاستمرار في ذلك وكان يحتقر العرب الخاضعين للفرس . وقد ألحف العرب بالرجاء لخسرو كي يتوسط لدى بيزنطة لتسليمهم العطايا المالية ، لأن دخلهم الرئيسي كان مما يتسلمونه من أجل الحفاظ على السلم والإقلاع عن غزو حدود بيزنطة .

ورد يوحنا على كل هذا بكلام مسهب وأسلوب بلاغي ، مردّداً الحجج القديمة القائلة بأن ما أرسل إلى العرب كان من قبيل الهدايا لا أكثر وأن العرب أنفسهم حملوا الهدايا بدورهم إلى الامبراطور . وإذا كان يوسطنيان قد ألزم نفسه شخصياً بمكافأة العرب فإن ذلك قد انقطع الآن على أية حال بموته ؛ ذلك أن الشرط الذي يأخذه شخص ما على عاتقه حتى ولو كان هذا الشخص امبراطوراً فإنه يمكن تعديله إذا ما تعارض مع مصالح الدولة . ولم يكن يوسطين عند اعتلائه العرش ميّالاً إلى الرضوخ بأية حال « للبرابرة عامة » وللعرب خاصة .(٢٢٥) وقد نصح الفرس بأن يستمسكوا باتفاقية الصلح حتى لا تندلع نيران الحروب . بعد هذا لم يرد للعرب ذكر في حديثه .

وليس من شك في أن بيزنطة قد افتدت نفسها من العرب المقلقين . ويبدو هذا واضحاً في ما قاله كل من البطريق بطرس والسفير يوحنا لخسرو ، وفي سخط ايران على ما عرضه يوسطنيان على المنذر من مبالغ طائلة حتى لا يشترك مع الفرس في حال اندلاع نيران الحرب بين الدولتين . وواقع الأمر أن الهدايا أرسلت إلى العرب ، وأن ملوك الحيرة تسلموها من الامبراطور . وليس من شك أيضاً في أن الشاهنشاه وحكومته كانا على علم بهذا ، وأنه لم يثر في أنفسهم أي نوع من القلق(٢٢٦) . ذلك أن المنذر لم يتوان عن غزو الأراضي البيزنطية ولم يخفّف من قسوته على من سباهم بها . ولم يكن اعتباطاً أن أشار بروكوبيوس إلى أن المنذر قد وفى بعهده للفرس وأنه كان صادق الولاء لمصالح دولتهم(٢٢٧) . وعلى الرغم من ذلك فإن المنذر وابنه عمراً كانا أكثر ميلاً إلى اتباع سياسة مستقلة وأنهما كانا يتطلعان إلى أن يشغلا وضعاً على قدم المساواة مع كل من ايران وبيزنطة ،

(٢٢٤) Menandros. Excerpta....., p. 189

(٢٢٥) شرحه ص ١٩٠ - ١٩١ ؛ I. Kawar. The Arabs in the Peace Treaty of A.D. 561, Arabica. 1965. III. f. 3, pp. 181-213.

(٢٢٦) A.P. Caussin de Perceval. Essai sur thistoire des arabes, t. II, p. 117

(٢٢٧) G. Rothstein, Die Dynastie der Lahmiden...., pp. 97 - 98.

116 ولكن هذا الأمل لم يتحقق لها . لهذا فقد رأى خسرو أنه في الإمكان أن يلح على دفع العطايا للخمين ، / خاصة وأن هذا من شأنه أن يؤدي إلى إضعاف الوضع المالي للامبراطورية ويدعم من الوضع الاقتصادي للحيرة التي لم يوجد ما يبرر الشك في ولائها لمصالح ايران . وفي الواقع إن تدخل بطرس الدبلوماسي لم يزرع أية بذرة للشك في العلاقات القديمة الوطيدة والتي تشكّلت على مرّ عهود طويلة بين اللخميين والساسانيين . ولقد قام عمرو غير مرة بغزو أراضي الامبراطورية ، ولهذا فقد رأى الامبراطور يوسطين الثاني بعد عقده صلح الخمسين عاماً مع الفرس أنه لا حاجة البتة لدفع العطايا للعرب .

ورداً على سفارة يوحنا إلى خسرو في عام ٥٦٧ فقد بعث الفرس زه ليرفع تهانيهم إلى يوسطين الثاني وليثير من جديد المسألة الشائكة المتعلقة بالنزاع حول سوانية . غير أن يوسطين ، عقب المجلس الذي دعا إليه ، قرر أن يحيط زه علماً وهو بالطريق أن مطالب الفرس لن تجد الاستجابة لديه . وقد سُلّم المكتوب الذي دبجّه يراع يوحنا بهذا المعنى إلى زه المريض بنصيبين حيث عاجله الموت بعد ذلك بقليل . فأرسل خسرو سفارة جديدة إلى القسطنطينية على رأسها ميبود الذي كان يأمل في حل المسائل المتنازع عليها . غير أن مسلكه اتصف بالتشدد وفقاً لرأي الروم . وقد استقبله يوسطين وأعرب عن امتنانه لتهاني الشاه ، ولكن يَبْدو أنه لم يعبّر عن ترحيبه الشخصي به ، كما أنه لم ينبث بكلمة واحدة عن سوانية مما وضع السفير في موقف حرج . وقد حدث أثناء وجود السفارة الفارسية أن ظهر بالعاصمة ممثلو اللخميين في نحو الأربعين شخصاً ؛ وكأنما أراد عمرو بهذه الصورة إرسال سفارة من عنده هو أيضاً . هذا وقد ألحّ ميبود في الرجاء لكي يستمع إليهم الامبراطور ، مما حدا بالامبراطور أن يسأل : « ما الذي يبغيه بالتحديد أعرابكم ؟ » ، ثم أذن لواحد فقط من بينهم بالمثول أمامه . غير أن ممثل اللخميين رأى أن من الضروري الحفاظ على التقليد الذي اتبع على أيام يوسطنيان بتقديم جميع الشخصيات المرافقة للسفير إلى الامبراطور ، ورأى أنه « ليس من اللياقة أن يمثل أمام الامبراطور بمفرده » . « فامتنع » عن المثول بمفرده[٢٢٨] . وأغلب الظن أن لهذا التقليد جذوراً عميقة في المفهوم الشوري للقبائل العربية التي كانت تمثلها الارستقراطية القبلية أو الزعماء القبليون . ولم يكن رسول عمرو سوى الأول من بين أفراد متساويين ،ولذا فقد رأى أنه ليس من حقه التحدث باسم الآخرين وراء أظهرهم خاصة وأن المسألة الرئيسية التي كانت مدار البحث إنما كانت تتعلق بدفع العطايا من البيزنطيين إلى العرب .

« عند ذلك صرف الامبراطور النظر تماماً عن الأعرابي ، وأبان لميبود عن سخطه . فردّ المبعوث الفارسي قائلاً بأنه سيولي هذا الأمر عنايته وأنه إذا كان العربي قد تصرف تصرفاً خاطئاً فإنه هو نفسه سيدينه . فكان رد يوسطين أن ميبود على ما يبدو لم يَقدِم بصفته سفيراً بل ليجلس / مجلس الحكم[٢٢٩] ، فارتبك المبعوث 117

(٢٢٨) Menandros, Excerpta...., pars II, p. 448

(٢٢٩) شرحه ؛ A.P. Caussin de Perceval, Essai..... II, pp. 118 - 119

الفارسي «وامتقع وجهه » وانحنى للامبراطور وخرج . وبعد أيام من هذا ظهر من جديد « مُلحّاً في الرجاء » أن يستقبل الامبراطور العرب ومشيراً إلى وجود سابقة لهذا عند زيارة زه . عند ذلك استشاط يوسطين غضباً وصاح فيه : « . . . هل فات عليك أنك إنما تخاطب امبراطور الروم يوسطين ؟ » . فاضطرب ميبود وخرّ على وجهه وشرع يؤكد أنه لم يقل ذلك ؛ فرأى يوسطين أن الضرورة تقضي بأن يبدو وكأنه قد صدّق هذه الأكذوبة وقال إن « مترجمنا » حرّف في الترجمة بأن وضع لفظاً مكان آخر . ويبدو أن الامبراطور على الرغم من اهتمامه بإظهار مهابة بيزنطة إلاّ أنه لم يكن في نيتّه أن يصل الأمر إلى حد الصدام . عند ذلك صاح ميبود : « الويل لكل العرب ولعمرو وسفارته » ، وزاد قائلاً : « سألتزم الصمت إزاء هذا الموضوع ولن أنبث بكلمة »(٢٣٠) . أما الامبراطور يوسطين فقد «عيّر السراقيني» ونعته بالدكاكيني ووصفه بأنه تاجر مراب . وهو قد قصد ملك الحيرة عمراً بهذه السباب ؛ وكان يتعينّ على عمرو أن يتوقع أسوأ من ذلك إزاء إلحافه في طلب العطايا . « وسيكون من السخرية بمكان أن نلتزم نحن الروم بدفع الإتاوة إلى هؤلاء الأعراب البدو » . ولم يبق أمام السفير الفارسي بعد أن أمطر بهذه الألفاظ إلاّ أن يرجو الإذن له بالانصراف هو ومن معه من العرب ، فأذن لهم يوسطين بذلك(٢٣١) .

ويرجع السبب في إلحاح السفير الفارسي على مطالب العرب إلى اعتماد ايران المعروف على القوة العسكرية للعرب . ولقد شغلت شخصيات حكومية ذات تجربة مثل المنذر وعمرو مركزاً مرموقاً بفضل مواهبهم العسكرية مما اضطر الساسانيين إلى أن يولوهم المزيد من اهتمامهم . ولذا فإن سفير الفرس كان يخشى إغضاب اللخميين ، فضرب بالحذر عرض الحائط حتى جر على نفسه سخط الامبراطور . ولعل الوضع الذي شغله اللخميون بالذات هو الذي اضطر الساسانيين فيما بعد إلى أن يخشوهم بعض الشيء بوصفهم حلفاء أقوياء للغاية لهم تطلعات ومزاعم استقلالية .

ولم يغفر العرب لبيزنطة فشل سفارتهم . « فلما عاد العرب إلى بلادهم نقلوا إلى عمرو رأي الامبراطور في عرب الفرس . عند ذلك أعطى عمرو الإشارة إلى أخيه قابوس (وهو أيضاً ابن هند) الذي كان يقف في وجه المنذر حاكم عرب الروم ، بأن يهاجم بلاد المنذر . وكانت هذه البلاد تنتهي عند عرابية »(٢٣٢) . والمنذر هذا الذي سيرد الكلام عنه في حينه هو ابن الحارث الغساني . وبوصفه زعيماً لعرب الروم فقد ورث الفيلارخية / من أبيه . وكان حد « بلاده » في واقع الأمر ينتهي عند عرابية لأنه كان يدخل في فيلارخية الغساسنة أرض البطرا ، وفينيقون « التي كان منحها » إلى يوسطنيان ابو كرب جد المنذر هذا . والمعركة التي تقاتل فيها

118

(٢٣٠) Menandros, Excerpta.... pars II, p. 449.

(٢٣١) شرحه ؛ G. Rothstein, Die Dynastie der Lahmiden.... p. 98

(٢٣٢) شرحه ص ٤٤٩ ـ ٤٥٠ ، G. Rothstein, Die Dynastie der Lahmiden...., p. 98 .

اللخميون والغساسنة يعتقد نولدكه أنها هي المعركة المشهورة باسم عين أُباغ التي تغنّى بها العرب في أشعارهم . وقد جرت المعركة بعيداً إلى الشرق من الحيرة التي تحرك ضدها الغساني بجنده عقب انتصاره ، وذلك لمسافة تعادل ثلاثة مراحل[٢٣٣] . وتروي الحولية السريانية التي تم تدوينها عام ٧٢٤ للميلاد تحت أخبار عام ٨٨١ من التقويم السلوقي : « في يوم أربعاء الصعود لهذا العام عرض المنذر القتال وبعون الله تمكن من الغلبة على قابوس وانتصر الصليب »[٢٣٤] . وعام ٨٨١ من التقويم السلوقي يوافق عام ٥٧٠ للميلاد . ووفقاً لشهادة تلك الحولية نفسها فإن الصوم الكبير لهذا العام بدأ في رأي البعض باليوم السابع عشر من شهر شباط ، بينما ردّها البعض الآخر إلى اليوم الرابع والعشرين منه ؛ غير أن عيد الفصح قد احتفل به الجميع في يوم واحد . ويقول ميخائيل السرياني إن عيد الفصح وقع في ذلك العام في السادس من ابريل (نيسان) ، لهذا فإن الصعود وهو اليوم الأربعون بعد السادس من ابريل يقع في السادس عشر من مايو[٢٣٥] .

ومن العسير القول بأن العلاقة بين عمرو وقابوس كانت أشبه بوجود ملكين من اللخميين في وقت واحد . ومن المعلوم أن أقارب الملك كانوا يشغلون مناصب مرموقة في الدولة تمتعت أحياناً بدرجة من الاستقلال . وكان قابوس عاملاً لعمرو على قسم من دولة الحيرة ، لعله القسم الغربي الأقرب إلى أملاك الغساسنة . وقد « أعطى » عمرو « الإشارة » لقابوس بأن اللحظة قد حانت لغزو أراضي الدولة البيزنطية . ولما كان قابوس هو الأقرب جواراً إلى عرب الروم ، فإنه « وجد نفسه في مواجهة قائد عرب الروم » وانتهى الأمر بانتصار الغساسنة .

وقد امتدّ حكم عمرو لستة عشر عاماً وفقاً للروايات العربية[٢٣٦] ، وهو ما يقرب من حساب السنين الذي يمكن استخلاصه من المصادر البيزنطية . ذلك أن المنذر والد عمرو مات في عام ٥٥٤ ، ولذا فإن بداية حكم قابوس أخي المنذر ترجع إلى عام ٥٦٩ ـ ٥٧٠ وهو الوقت الذي تحدثت فيه الحولية السريانية عنه بوصفه ملكاً[٢٣٧] . وقد ذهب عمرو ضحية للمنازعات حين قتله عمرو بن كلثوم من قبيلة تغلب ، ولسبب واهٍ وفق ما جاء بالروايات العربية . غير أن وراء كل ذلك بذور خلاف طويل بين القبائل العربية ؛ ومن المعلوم أن عمراً كان قد أنزل عقوبة قاسية بقبيلة حنظلة بأن أحرق أفرادها أحياء[٢٣٨] / . ويقع ميلاد النبي محمد في العام الثامن والشهر الثامن من ذلك (على رواية حمزة الاصفهاني) . وهذه المقابلة الزمنية لا تخلو من مغزى ؛

19

---

(٢٣٣) Th. Nöldeke, Die Ghassanischen Fursten....., p. 23.

(٢٣٤) Chronicon miscellaneum ad. A.D. 724, ed. E.W. Brooks. Chronica minora. t. IV, p. 143

(٢٣٥) Michel le Syrien, Chronique, t. II, f. T. II, f. 2, p. 291- يعتبر نولدكه هذا اليوم هو العشرين من مايو .

(٢٣٦) Hamza Ispahanensis, Annales, pp. 109 - 110 (85 - 86); Nöldeke - Tabari, p. 172

(٢٣٧) Johannes Ephesinus. Historia ecclesiastica, pars tertia, ed. E.W. Brooks. CSCO. Scriptores syri. series tertia, t. III, Parisiis. 1935, p. 280

(٢٣٨) A.P. Caussin de Perceval, Essai..., t. II, pp. 123, 126 - 127.

فقابوس الذي ورث أخاه عمراً تظهره الرواية العربية ، وهي رواية حمزة ، في صورة إنسان ضعيف لا يرقى لمستوى شغل ذلك المنصب الرفيع . غير أن الوقائع المعروفة من المصادر اليونانية والسريانية لا تؤيد هذا الزعم بأية حال ، لأن قابوس خاض غمار الحرب وكان ملكاً على الحيرة . ولربما دعي ملكاً لأن جده وأباه كانا ملكين ؛ وإن كان هذا التعليل لا يتفق مع ما كتبه في هذا الشأن معاصره يوحنا الافسوسي الذي أورد في « تاريخه » رواية مطوّلة عن المنذر الغساني ابن الحارث الذي هزم قابوس مرتين بعد اعتلاء قابوس عرش الحيرة وإغارته من جديد على أراضي الدولة البيزنطية[٢٣٩] . وقد استغل اللخميون والفرس النزاع الذي نشب بين المنذر والقسطنطينية حين اضطر إلى الابتعاد في جوف الصحراء وامتنع عن الدفاع عن حدود الامبراطورية ، فاغتنم الفرس هذه الفرصة وغزوا أرض سورية حتى بلغوا أكناف انطاكية . وبعد ثلاثة أعوام من ذلك تم اقناع المنذر باستعادة علاقته مع الامبراطورية ، وعندها جمع الغساني كافة جنده « وصدره موغر بالضغينة على عرب الفرس »[٢٤٠] فتقدم « وانقض مقاتلته على حين غرة على حيرة النعمان » فقتلوا من بها من الجند وأحرقوا جميع ما فيها فيما عدا البيعة ؛ وضرب المنذر فسطاطه وسط المعسكر وظل هناك لخمسة أيام[٢٤١] . وقد استولى الغساني على غنائم طائلة كان من بينها أسلاب نهبت من قبل من أملاك الروم، واقتاد معه قطعان الخيل والإبل. وتاريخ المنذر الغساني سيرد الكلام عليه بصورة أكثر تفصيلاً في الفصل من كتابنا هذا المفرد لتاريخ الغساسنة والمرتبط ارتباطاً وثيقاً ببيزنطة .

وترجع مهاجمة الحيرة ونهبها وحرقها على يد الغساسنة إلى عام ٥٧٨ ، وهو ما يقارب الوقت الذي جلس فيه خليفة قابوس على العرش . ذلك أن قابوساً مات في أغلب الظن عام ٥٧٣ / ٥٧٤ ؛ لأن مدة حكمه بلغت أربعة أعوام عند مقابلتها بأزمنة حكم شاهات الساسانيين[٢٤٢] ، ثمانية أشهر منها في زمن انو شروان وثلاثة أعوام وأربعة أشهر في زمن هرمز[٢٤٣] . ووفقا لقول الرواة فقد كان قابوس هو الملك الوحيد من بين اللخميين الذي مات بالحيرة[٢٤٤] ، بينما مات الباقون كلهم في حومة الوغى . وبعد موت قابوس انتقلت الإمارة على شئون عرب الفرس إلى فارسي عينّه الشاهنشاه ، ولكن بعد فترة قصيرة من الزمن تسلَّم المُلْكَ الأخ الأصغر لقابوس وهو المنذر الذي أثار حفائظ الناس عليه بسبب سطوته وجبروته .

ومن الجائز أن يكون زيد بن حمّاد الذي ينتمي للعباديين قد شارك في الحكم متعاوناً مع الفارسي الذي عُيّن / على الحيرة والذي يذكر الأخباريون اسمه على أوجه مختلفة . والفترة التي ظل فيها عرش الحيرة شاغراً لم 120

(٢٣٩) Joannes Ephesinus, Historia ecclesiastica, pars tertia, VI, 4, p. 284
(٢٤٠) شرحه ، ص ٢٨٤
(٢٤١) شرحه ، ص ٢٨٦ - ٢٨٧ .
(٢٤٢) Hamza Ispahanensis, Annales, p. 110 (86)
(٢٤٣) Nöldeke - Tabari, p. 345
(٢٤٤) Hamza Ispahanensis, Annales, p. 113 (89)

تتجاوز عاماً واحداً . وخلال الأعوام الأربعة التي حكم فيها المنذر بن المنذر حدثت معارك ضارية بين عرب الفرس وعرب الروم(٢٤٥) . ولعل الرواية التي ذكرت أن مصرع المنذر كان في المعركة مع الغساسنة عند عين أُباغ صحيحة في جوهرها ، إذ أنه لم يرد ذكر له بعد عام ٥٨٠ .

وورث المنذرَ ابنه النعمان آخر الملوك من بطن اللخميين . وقد ولي الحكم لاثنين وعشرين عاماً ، تتفق سبعة أعوام وثمانية أشهر مع زمن هرمز بن انو شروان وأربعة عشر عاماً وأربعة أشهر مع زمن خسرو بن هرمز(٢٤٦) . ولا يعرف عنه إلاّ القليل الموثوق منه ، على كثرة ما ورد بشأنه من القصص والحكايات وما جاء في ذكره من أشعار . وتجمع هذه المادة على أنه كان دميماً غليظ الطبع وأنه من أم « مطعون في أصلها » . وأكثر الروايات صحة وضبطاً للتواريخ روايات حولية سريانية مجهولة المؤلف يرجع تاريخ تدوينها إلى الأعوام الأخيرة للساسانيين ؛ هذا على الرغم من أن المأثورات الشعبية قد وجدت طريقها إليها هي أيضاً .

وقد اعتنق النعمان النصرانية . وجاء في أحد المصادر : « آنذاك حتى النعمان فيلارخ الاسكينيين الأعداء ، ذلك الوثني اللعين النجس الذي كان يحرق الناس بيده قرباناً لأصنامه ، قبل التعميد المقدّس فألقى في النار بتمثال افروديت المصنوع من الذهب الخالص وقاد شعبه كله إلى طاعة الله »(٢٤٧) . وبطبيعة الحال فإن المقصود بتمثال افروديت إنما هو صنم الإلهة العزّى التي كانت تقدم لها القرابين البشرية . وقد قام بتعميده بطريرك النساطرة ايشوعيب الذي كان قد حلّ به سخط الشاه خسرو ابرويز حين نكص عن متابعته « إلى بلاد الروم » لمّا لجأ إليها الشاه أثناء ثورة بندوي وبسطام . وفوق ذلك فقد وقع ايشوعيب فريسة لدسائس كبير أطباء نصيبين المدعو طيمثاوس ، لذا فقد انتقل إلى الحيرة وهناك عمّد «النعمان ملك العرب» وبقي بها حتى مماته في عام ٥٩٤/٥٩٥ فدفنته هند (الصغرى) أخت النعمان في موكب جنائزي مهيب « بدير جديد كانت بنته » بالحيرة(٢٤٨) . ويوكد ابن العبرى أن النعمان كان من أتباع المونوفيزية (اليعقوبية) فبذل ايشوعيب جهداً كبيراً لكي يحوّله إلى النسطورية(٢٤٩) . ولقد كشف ملك الحيرة هذا عن استقلاله في علاقاته مع ملك الفرس ، ففي أيام محنة / خسرو حين فرّ من وجه بهرام (فرهران) فإن النعمان لم يمد له يد العون ولم يذهب معه . كذلك يقال إن النعمان رفض أن يهب خسرو جواداً عربياً كريماً كان قد طلبه منه . وأخيراً فإن خسرو كان قد طلب من النعمان أن يزوجه ابنته التي كانت آية في ا لجمال فرد عليه بالرفض قائلاً « لن أزوج ابنتي

21

(٢٤٥) G. Rothstein, Die Dynastie der Lahmiden...., pp. 106 - 107

(٢٤٦) Hamza Ispahanensis, Annales, pp. 111 - 112 (87); Nöldeke - Tabari, p. 347

(٢٤٧) Evagrius, Historia ecclesiastica, VI, 22, ed. Bedez and Parmentier, London, 1898, p. 238

(٢٤٨) Chronicon anonymum, ed. I. Guidi. CSCO. Scriptores syri, series tertia. t. IV. Chronica minora. Parisiis, 1903, p.17; Th. Nöldeke. Die von Guidi harausgegebene Chronik, Sitzungsberichte der Wiener Akademie, phil. - hist. Klasse, Bd. 128, Abh. IX, Wien, 1893; N. Pigulevskia, Siriiskia Khronika vremeni poslednykh sasanidov, No. 3. Zap. Inst. vostokoved., t. VII, str. 64

(٢٤٩) Barhebraeus, Chronicon ecclesiasticum, ed. Abelloos et Lami, t. II, p. 105

لرجل ذميم العادات » . فامتلأ صدر خسرو غلاً وحقداً عليه ؛ فلما انتهى خسرو من مقاتلة أعدائه أراد أن يسوّي حسابه مع خصومه ومن بينهم النعمان . فدعاه إلى خوانه ووضع أمامه الكلأ بدلاً من الخبز فغضب ملك العرب غضباً شديداً « وأرسل إلى بني عمومته من معد فخربوا وسبوا مناطق عديدة من بلاد الفرس حتى بلغوا عروب ، أي النواحي الواقعة على المجرى الأسفل لدجلة وهي بيت عربايه[٢٥٠] . فحنق خسرو على النعمان وأمره بالمثول بين يديه فلم يستجب ولم يستطع أحد أن يحمله على ذلك . فقام رجل من جزيرة دارين اسمه معنا وكان يعمل مترجماً للنعمان بالتآمر عليه مع خسرو ، وقال للنعمان « إن الشاه يحبك كثيراً » وأقسم له على الانجيل بأنه لن يؤذيه . كذلك قالت له زوجه ماويه « إن اللائق بك هو أن تموت وأنت ملك لا أن تعيش طريداً محروماً من منصب الملوكية » . فلما بلغ النعمان بلاط الفرس لم يبادر الشاه بقتله بل أمره بالبقاء ببلاطه ، «ثم قضى نحبه فيما بعد على ما يقال مسموماً ذلك المؤمن الأمجد »[٢٥١] .

وتورد المصادر العربية معلومات مغايرة عن الكيفية التي قضى بها النعمان ، وإن كانت هذه المصادر على علم بأنها كانت عنيفة . فبعضها يوكد أنه مات سجيناً وبعضها الآخر يقول بأنه مات تحت أقدام الفيلة . إلاّ أن أقرب هذه الفروض إلى الصحة هو أن خسرو الثاني لم يرد أن يقف عند حد الخلاص من رأس أسرة اللخميين غير المرغوب فيه فحسب ، بل وأن يُقصي هذه العشيرة كلها ويحرمها من « مرتبة الملوكية » . ويقف دليلاً على هذا ، كما بيّنت البحوث السابقة[٢٥٢] ، ألفاظ المؤرخ الدينوري الذي يضع على لسان خسرو قوله : « إن النعمان وآل بيته توثقت علائقهم مع العرب وبثّوا في قلوبهم الأمل بأن السلطان آيلٌ مِنّا إليهم »[٢٥٣] . وواقع الأمر أن سقوط الأسرة اللخمية الحاكمة لم يلبث أن ساق إلى تدهور دولة الحيرة ثم إلى انهيارها فيما بعد .

ويبدو أن القوة العسكرية الكبيرة للخميين ، مضافاً إليها تطلعهم المتزايد نحو الاستقلال قد أثار مخاوف الساسانيين ولذا فإن إقصاء اللخميين أصبح أمراً مرغوباً فيه لدى الفرس . هذا وقد أعيد تنظيم إدارة « عرب الفرس » بعد النعمان على أسس جديدة . واستعمل الفرس على الحيرة وعلى أملاك اللخميين الأخرى إياس بن قبيصة / الذي لم يكن ينتمي إلى اللخميين بل كان نصرانياً من طي وبهذا عُدّ من العباديين . إلاّ أنه في وقت واحد مع إياس تم تعيين فارسي هو نه فركان (به ركان) لإدارة شئون العرب[٢٥٤] . وبهذا فإن ابن قبيصة لم يكن حاكما مستقلاً بل وجد على حال من التبعية للعامل الفارسي خلال فترة حكمه التي امتدت لتسعة أعوام (٦٠٢ - ٦١١)[٢٥٥] .

122

(٢٥٠) Chronicon anonymum, p. 20.

(٢٥١) شرحه ؛ A. Christensen. L'Iran sous les Sassanides. p. 452 .

(٢٥٢) G. Rothstein. Die Dynastie der Lahmiden...., pp. 116. 119

(٢٥٣) Dinaweri, p. 115 (4)

(٢٥٤) Nöldeke - Tabari, p. 347; Hamza Ispahanensis. Annales. p. 112 (88): A.P. Caussin de Perceval. Essai..... II, p. 170

(٢٥٥) Nöldeke - Tabari, p. 332

ولم يكن هلاك النعمان وسقوط أسرة اللخميين الحاكمة ليمر دون أن يخلف آثاره على الفرس . وإذا كانت تغلب قد ظلت على ولائها للفرس فإن بكراً شرعت في القيام بغارات على أملاك ايران المجاورة لها ، أي على أرض السواد . وهناك أساس من الحقيقة التاريخية في ما تورده المصادر العربية حول مطالبة خسرو بتسليمه ميراث النعمان وخزانته . فيروي أن النعمان لما خاف خسرو استودع صهره هانىء بن مسعود من بطن ثعلبة من قبيلة بكر متاعه ودروعه وسلاحه وغيرها[٢٥٦] . فلما طالب خسرو بأشياء النعمان من إياس رد عليه إياس بأنها في حوزة هانىء الذي أبى تسليمها . ومما يلفت النظر في هذا أن خسرو لم يرد وضع يده على مقتنيات النعمان وثروته فحسب بل وعلى أسلحته ، لا الشخصية منها بل خاصة دروع الحديد التي قيل في إحدى الروايات إنها بلغت الأربعمائة درعاً ، وفي أخرى ثمانمائة[٢٥٧] . وكانت أسلحة العرب على ما يبدو ذات أهمية للفرس ، ولعل ذلك قد يكون مردّه إلى رغبتهم في الحد من مقادير الأسلحة التي وجدت تحت تصرفهم لا أكثر . غير أن هذا لا يمنع من وجود سبب آخر هو أن العرب آنذاك كانوا قد بلغوا بصناعة الأسلحة وآلات القتال درجة رفيعة ، وأن هذا التقدم في التقنية العسكرية هو الذي أثار اهتمام الفرس بصورة خاصة . ولما أبى هانىء تسليم ما استودعه النعمان استبد بخسرو الغضب وأقسم أن يستأصل قبيلة بكر بتمامها . وقد أخذ بنصيحة أعرابي من تغلب فانتظر قدوم الصيف القائظ حينما كانت بكر بن وائل تخرج بقطعانها إلى وادي ذي قار لانتجاع مياهه الوافرة . وكان سخط العرب على أفعال خسرو قد بلغ الحد الذي يكفي فيه انتفاض قبيلة واحدة ليجّر عليه في الحال انتفاض القبائل الأخرى . وقد تقدم جيش الفرس يصحبه حلفاؤهم الذين ظلوا إلى جانبهم مثل تغلب ، ودارت المعركة الفاصلة أيام الصيف القائظ من عام ٦٠٤ في أغلب الظن[٢٥٨] ؛ ومن العسير ردّها إلى تاريخ تالٍ لذلك ، لأنها ترتبط بكارثة اللخميين التي حدثت عام ٦٠٢ . ولقد ترك « يوم ذي قار» أثراً عميقاً في أدب العرب، فقيلت فيه الأشعار وكتب عنه مؤرخو العرب أجمعون. ووصف أحداث/ المعركة مفعم بالتفاصيل ويحمل سمات الأساطير والمأثورات الشعبية ، كما زيدت عليه في كل عرض جديد تفاصيل وتزويقات وحكايات متباينة . ويشغل تحليل المعركة صفحات عديدة من مصنف كوسان دي پرسيڤال ، كما حظي بتعليقات علمية وافية ندين بها لقلم نولدكه وذلك في ترجمته للطبري[٢٥٩] .

123

وبطبيعة الحال فقد كان يوم ذي قار يوماً من أيام العرب الكبرى . ذلك أن نهاية اللخميين أصبحت في ذات الوقت بداية فترة جديدة من تاريخ العرب أحسّوا فيها بتفوقهم وتمكّنوا من إقامة الدليل على صيرورتهم قوة يحسب لها حسابها . فقد مُني الجيش الفارسي بهزيمة نكراء حتى خشي أهل الخبر الذين شهدوا المعركة أن

---

(٢٥٦) شرحه ، ص ٣٣٣ .

(٢٥٧) G. Rothstein. Die Dynastie der Lahmiden...., p. 125.

(٢٥٨) Nöldeke - Tabari, p. 347, nota 1

(٢٥٩) A.P. Caussin de Perceval. Essai...., pp. 170 - 185; Nöldeke - Tabari, pp. 332 - 345; G. Rothstein. Die Dynastie der Lahmiden...., pp. 120 - 125

يفيدو بذلك الشاه . وحفز الانتصار العرب وأدخل الثقة إلى نفوسهم فأشادوا به ووثقوا بقوتهم ، فقد أثبتوا أن بمقدورهم كسر شوكة أكبر جيش في تلك العهود ألا وهو جيش الفرس الساسانيين .

وانتصار العرب في « يوم ذي قار » كفله منذ البداية التفوق التقني لأسلحتهم ، فقد بلغوا في هذا الدرجة التي ضمنت لهم النصر ؛ وهو أمر توكده المصادر رغم قلتها . ولا يزال الموضوع في حاجة إلى بحث مفصّل قائم بذاته يعالج العوامل الخاصة التي سمحت بتحقيق النصر للعرب . وثمة سبب آخر عميق لانتصار العرب يكمن في ما طرأ على نظامهم الاجتماعي من تطورات ، فهم قد تجاوزوا آنذاك نطاق الوحدات القبلية ودخل تطورهم في قوالب جديدة توثقت فيها وقويت عرى محالفاتهم . حقاً إن رسالة النبي الكريم لم تكن قد عمّت بعد لتربطهم داخل العقيدة الجديدة بتلك العروة الوثقى التي لا تنفصم ، بيد أن تطور المستوى الاجتماعي والاقتصادي للقبائل العربية الشمالية بلغ درجة مكّنت دعوة الإسلام من أن تجد صدى مباشراً بينهم . وتنسب الرواية العربية إلى النبي أنه لمّا أبلغته قبيلة ربيعة خبر الانتصار قال : « هذا أول يوم انتصفت العرب على العجم وبي نُصروا » .

قائمة ملوك اللخميين

(عن سدني اسمث Sidney Smith)

أسماء ملوك اللخميين	سنو حكمهم	مدد حكمهم	ملوك الساسانيين المعاصرون لهم	سنو حكمهم	مدد حكمهم
امرؤ القيس	٣٨٠ - ٤٠٤	٣	اردشير الثاني	٣٧٩ - ٣٨٢	٤
		٥	شابور الثالث	٣٨٣ - ٣٨٧	٥
		١١	بهرام الرابع	٣٨٨ - ٣٩٨	١١
		٦	يزدجرد الأول	٣٩٩ - ٤١٩	٢١
النعمان الأول ابن امرىء القيس	٤٠٥ - ٤٣٣	١٥			
		١٤	بهرام الخامس	٤٢٠ - ٤٢٨	١٩
المنذر الأول ابن النعمان	٤٣٠ - ٤٧٣	٨ سنوات وتسعة أشهر			

		١٨	يزدجرد الثاني	٤٣٩ - ٤٥٦	١٨
		١٧	فيروز	٤٥٧ - ٤٨٣	٢٧
الأسود بن المنذر	٤٧٤ - ٤٩٣	١٠			
		٤	بلاش	٤٨٤ - ٤٨٧	٤
		٦	قباد	٤٨٨ - ٥٣٠	٤٣
المنذر الثاني ابن المنذر	٤٩٤ - ٥٠٠	٧			
النعمان الثاني ابن الأسود	٥٠٠ - ٥٠٣	٤			
أبو يعفر بن علقمة	٥٠٣ - ٥٠٥	٣			
المنذر الثالث ابن النعمان	٥٠٥ - ٥٥٣	٢٥			
		٢٣	خسرو الأول	٥٣١ - ٥٧٧	٤٧
عمرو بن المنذر	٥٥٤ - ٥٦٩	١٦			
قابوس بن المنذر	٥٧٧ - ٥٨٠	ثمانية أشهر			
		٣ سنوات وأربعة أشهر	هرمزد الرابع	٥٧٨ - ٥٨٩	١٢
سهراب					
المنذر الرابع ابن المنذر	٥٨٠ - ٥٨٣	٤			
النعمان الثالث ابن المنذر	٥٩٢ - ٦٠٤	٧ سنوات وثمانية أشهر			
		١٤ سنة وستة أشهر	خسرو الثاني	٥٩٠ - ٦٢٦	٣٧
حكام فرس	٦٠٤ - ٦٢٦	٢٢			
المنذر بن النعمان (بالبحرين)	- ٦٣١		متنافسون على العرش	٦٢٧ - ٦٣١	



الفصل الرابع

سيادة قبيلة كندة

جرت أحداث تاريخ كندة في مناطق فصلت بينها مساحات شاسعة ؛ وفي هذاانعكس الطابع المميّز لهجرات القبائل العربية التي ظلت خلال هذه الأحداث محتفظة بصلة الرحم بين بعضها وبعض.ولقد أثارت الأخبار المتواترة لدى العرب عن كندة شكوك الباحثين لأكثر من مرة فوقفوا منها موقف الحذر ؛ غير أن الكشوف الأثرية الجديدة ببلاد العرب الجنوبية تمكننا من الإفادة من مادة الرقوم والتي ألقت ضوءاً جديداً على تاريخ هذه القبائل . وهذه المادة تتفق إلى مدى بعيد مع روايات المؤرخين العرب الذين دوّنوا مصنفاتهم في العهود الإسلامية والذين ترتفع مادتهم في جانب كبير منها إلى مصنف ابن الكلبي « كتاب ملوك كندة » الذي استقى مادته من مصدرين أساسيين أحدهما عربي جنوبي لا علم لنا بمؤلفه والثاني رواية خراش بن اسماعيل(١) . وإلى جانب هذا يضيف حمزة الاصفهاني مصدراً كتابياً آخر هو « كتاب أخبار كندة »(٢) ؛ وهذا المصدر الأخير لا علاقة له البتة « بكتاب ملوك كندة » لابن الكلبي الذي أشرنا إليه آنفاً . وبفضل هذه المصادر المكتوبة التي تتمتع بالثقة حفظ المؤلفون المسلمون مادة جديرة بالاهتمام ، أيّدتها في الوقت الحاضر الرقوم السبئية .

وكندة أوكدّت هي مجموعة من القبائل أصلها من الجنوب العربي وكانت تشغل الجانب الشرقي من اليمن حيث كان مركزهم دمّون ، وهذا أمر معلوم حتى لمؤرخ متأخر مثل ابن خلدون(٣) . وقد ورد ذكر قبائل كدّت لأكثر من مرة في الرقوم السبئية ، وهي الرقوم التي تزايد عددها / بفضل الرحلات الأثرية التي قام بها سان جون [عبد الله] فلبي St.J.Philby والبرايت وريكمانس وغيرهم من المتخصصين وعلماء الآثار والنقوش البارزين . وجدير بالذكر أنه قد تأيّدت الآن الواقعة التي تؤكد أن شطراً من قبائل كندة قد اضطر إلى الهجرة وانتجاع مواضع وسط القبائل العربية الشمالية بسبب الاضطرابات التي كان مسرحها الجنوب العربي . ومعطيات الرقوم تلك تؤكد الروابط وصلة التبعية التي كانت للكنديين ببعض الدول والأحلاف القبلية بجنوبي الجزيرة العربية . ومن هناك سلكوا الطريق القديمة المتجهة شمالاً حتى بلغوا نجداً ، ثم انتشروا بعيداً فيما وراء ذلك حتى بلغوا العراق وفلسطين وفينيقية وسورية . وببلاد العرب الوسطى شغلوا شطراً من المنطقة التي كانت تقطنها قبائل معدّ ، وكان مركزهم بها مدينة غمر ذي كندة* الواقعة بالنواحي الجنوبية الغربية من نجد على مرحلتين من مكة(٤) .

---

(١) G. Olinder, The Kings of Kinda, Lund, 1927, p. 22.

(٢) Hamza Ispahanensis. Annales. ed. I. Gottwaldt, t. I, textus arabicus, Petropoli, 1844, p. 140; Translatio latina, Lipsiae, 1848, t. II, p. 111

(٣) A.P. Caussin de Perceval. Essai sur l'histoire des Arabes avant l'islamisme, t. II, Paris, 1847, p. 264.

* الغمر الموضع الذي يكثر فيه الماء فيغمر الأرض ؛ وأمثال هذه المواضع كثيرة بالجزيرة العربية . وترد في صورة غمر وغمرة وغُمير وغمار وغمرية وغمارة - المترجم .

(٤) G. Olinder, The Kings of Kinda, pp. 32 - 34.

كندة ومعدّ ومذحج بوسط الجزيرة العربية

من المعلوم أن حُجْراً آكل المُرار كان أكثر ملوك كندة مهابة وسط مجموعة القبائل التي استقرت بالشمال ؛ وهو أول ملوك هذه الأسرة التي تسنّمت مكانة مرموقة . وقد سبقه على دست الحكم بعد هجرة الكنديين إلى منطقة معد ، وذلك وفقاً لقول اليعقوبي ، مالا يقل عن خمسة ملوك توالوا على الحكم واحداً بعد الآخر حتى بلغت مدة حكمهم ما بين المائة والمائة وخمسة وعشرين عاماً . ووفقاً لما جاء بالحوليات البيزنطية فإن ارتقاء حجر العرش ينبغي العودة به إلى منتصف القرن الخامس الميلادي . وقد أضحى بمقدورنا الآن بفضل مادة الرقوم أن نحدّد على وجه من التقريب اللحظة التاريخية التي حدثت فيها هجرة الكنديين .

وثمة رقيم عربي جنوبي هام قام بنشره البروفسور غونزاغو ريكمانس مصحوباً بتعليقات تاريخية وافية بقلم تلميذته جاكلين پيرين ، ثم أعاد نشره فيما بعد العلامة جام A.Jamme . وهذا الرقيم الذي يذخر بمادة تاريخية مفصّلة له تاريخه الخاص به مما يصعب معه تجاهله . وهو لا يتضمن شيئاً من السنين لأن به خرماً ، ولكنّه يشمل بدلاً من ذلك عدداً من أسماء الأعلام التي لم تُعن كثيراً على حل المشكلة المتعلقة بوقت تدوينه والذي ظل موضع خلاف . أما الأسماء نفسها فإن قراءتها يحيط بها الكثير من الشك وذلك لعدم وضوحها . ورغماً من كل هذا فإن للرقيم أهمية قصوى فيما يتعلق بتاريخ قبائل كندة .

وفي مأرب ، غير بعيد من معبد أوّام ، كشف البروفسور ف . جوكنز F.Geukens في عام ١٩٥٥ رقيماً عربياً كبيراً أرسل نسخة مصورة منه إلى البروفسور غ . ريكمانس البحاثة الشهير بعمله في هذه النصوص ، ليقوم بنشره[٥] . ويشتمل الرقيم على ستة عشر سطراً ؛ ونظراً لكبر مساحته (وأبعاده هي متر وخمسة وسبعون سنتمتراً في العرض وستون سنتمتراً في الارتفاع) فهو يضم متناً مفصلاً بخط المسند المتأخر . وعلى الرغم من أنه لا يحمل تاريخاً ما لخرم به ، إلاّ أنه من حيث محتوياته الأثرية وورود اسمي الملك امرىء القيس ووذبه ملك اكسوم / به فيجوز الافتراض بأنه دوّن في الربع الأول من القرن الرابع الميلادي وفقاً لرأي جاكلين پيرين . 126

ومتن هذا الرقيم يمكّننا من إثبات عدد من الوقائع في تاريخ القبائل العربية ، ليست فقط تلك المقيمة ببلاد العرب الجنوبية بل وأيضاً تلك التي نزلت بوسط الجزيرة وشماليها . وقد قامت بالتعليقات التاريخية على هذا الرقيم الباحثة المشهورة للرقوم السبئية جاكلين پيرين[٦] .

ووفقاً لما جاء بالرقيم فإن ملكي سبأ وذي ريدان وهما ايلشرح يهذب وأخوه يزيل بين ابنا فريوم ينحوب

---

(٥) G. Ryckmans. Inscription sud-arabes. 13^{me} série Le Muséon. 1956. v. 69. f. 1-2. pp. 140 - 163.
(٦) J. Pirenne, L'inscription Ryckmans 535: Le Muséon. 1956. v. 69. f. 1-2. pp. 165 - 181.

حملا هدية قوامها تماثيل من الفضة إلى الإله إلمقهُ تعبيراً عن امتنانها للعون الذي قدمه لهما في حملاتهما العسكرية . ويعقب هذا في الرقيم تعداد للحملات العسكرية التي وُجّهت ضد قبائل « الشمال والجنوب والتهام والنجاد »[٧] . وعلى الرغم من أن هذين الأخوين ايلشرح ويزيل يطلقان على نفسيهما لقب ملكي سبأ وذي ريدان ، إلّا أنهما « مغتصبان » انتهجا سياسة عدوانية شديدة الوطأة فضما أراضي القبائل واحدة بعد الأخرى مخضعينها لسلطانهما[٨] . كما أنهما تقاتلا مع شمر الملك الشرعي لذي ريدان . وقد حفظ لنا الرقيم هذه التسمية ش م ر / ذ ر ي د ن مجردة عن لقب الملكية . وكان السند الأساسي لشمر هو قبائل حمير ، ولكنه اضطر إلى طلب العون من اثيوبياكي يستطيع مواجهة الضغط من جانب أعدائه « المغتصبين » ملوك سبأ ، كما ورد بالرقيم (السطر الثالث) . وقد أرسل شمر إلى وذبه ملك اكسوم يرجوه العون والمؤازرة ضد ملوك سبأ - و هـ ء / ش م ر / ذ ر ي د ن / ف ن ب ل / ب ع ب ر / و ذ ب هـ / م ل ك / ء ك س م ن / ل ن ص ر م / ب ع ل ي / ء م ل ك / ش ب ء (السطر الحادي عشر) .

وتتراوح فترة حكم ملك إثيوبيا وذبه الذي كانت عاصمته اكسوم بين نهاية القرن الثالث وبداية القرن الرابع الميلادي وفقاً لما جاء في قطعة من السكة تحمل اسمه[٩] . واتجاه شمر إليه بطلب العون معروف أيضا من رقيم معاصر هو C.I.H. 314 الذي يعالج موضوع الأحداث ذاتها ، والذي يرد فيه أن شمر وقبائل حمير طلبوا العون من أثيوبيا ح ب ش ت (السطران السابع عشر والثامن عشر)[١٠] . وفي الوقت الذي تم فيه نقش هذه الرقوم لم يكن إخضاع بلاد العرب الجنوبية لملك اكسوم قد تم بعد . غير أن العون الذي قدّموه للمطالب بالعرش من هذه الأسرة الحاكمة أو تلك ببلاد العرب الجنوبية إتّسم بالفاعلية ،خاصة في هذه الحالة بالتحديد حين تدخل وذبه في النزاع بين شمر وايلشرح وأخيه يزيل . وقد أدّى هذا فيما بعد إلى تثبيت سيادة اكسوم على الحِمْيَريين[١١] .

127 وشمر ملك ذي ريدان معروف من رقوم أخرى مؤرخة ، يحمل فيها الاسم الثاني وهو يهرعش . ففي الرقيم CIH 46 مثلاً يرد اسم شمر يهرعش (السطر السادس) مع اسم أبيه يسر يوحنايم . وتاريخ هذا الرقيم بالتقويم الحميري هو ٣٨٥ الموافق ٢٧٠ للميلاد . والراجح هو صحة الرأي الذي أعرب عنه الفقيد البروفسور فلبى الذي برهن على عدم وجود اختلاف بين تقويم مبهوذ والتقويم السبئي . فهو يقدم جدولاً زمنياً لسلالة فرع يسر يوحنايم في القرنين الثالث والرابع .وقد حكم يسر بالاشتراك مع ابنه شمر يهرعش من عام ٢٦٥ حتى عام ٢٨٥ للميلاد ، ودخل الاثنان في حلف مع افيلا Aphilas ملك اكسوم . ومنذ عام ٢٨٥ على وجه التقريب

(٧) Ry 535. lin. 1-2.

(٨) J. Pirenne. L'inscription Ryckmans 535, pp. 176, 179.

(٩) Anzani. Numisatica axumita. Rivista italiana di Numismatica, 1926, t. 39, p.30

(١٠) Corpus inscriptionum semiticarum. pars IV, t. I. Parisiis, 1889, p. 345.

(١١) St. J. Philby, Notes on Ryckmans 535. Le Muséon, 1960. v. 73, f. 3 - 4 , p. 407.

وحتى عام ٣١٠ حكم شمر منفرداً ولكنه ظل في حلفه مع ملوك اثيوبيا ، وبالذات مع وذبه ملك اكسوم . وعام ٣١٠ هو الأقرب في التقدير إلى عام موت شمر . ومن عام ٣١٠ إلى عام ٣٦٥ ظل الملكان إلامده وعيزانه يطلقان على نفسيهما لقب ملكي حمير واكسوم ، وهو ما تشهد به الرقوم[١٢] .

ويشتمل الرقيم Ry 535 على معلومات حول الحملات التي جرّدها ايلشرح يهذب ويزيل بين المطالبان بعرش شمر . ويرد فيها ذكر لقبائل مختلفة بعضها كان عدواً لها والآخر كان صديقاً ، ممن شاركوا في هذا النزاع بطريقة أو أخرى . ويهمّنا في هذا الرقيم متصلاً بموضوع بحثنا أمران ، أحدهما حادث يرتبط باسم امرىء القيس والآخر ذكر لبعض القبائل التي لعبت دوراً في حياة العرب الشماليين .

وإذا ما ثبتت الفكرة القائلة بأن هذا الرقيم إنما يروي الأحداث في تسلسل زمني فإن أول اسم يرد فيه هو اسم قبيلة كندة (كدّت) التي خضعت لايلشرح فأرسل بهم إلى شمالي أملاكه ؛ ويرد بشأنها - ش ع ب ن / ك د ت و على رأسها زعماؤها ء ك ب ر ت وملكها م ل ك الذي يدعي ملكم (السطر الثاني) . وهذا الأخير كان هو القائد العسكري للقبيلة وفي موضع المحالفة والتبعية لايلشرح .

وعا هو معلوم من رقيم النمارة فإن امرأ القيس بن عمرو قام بحملة ضد « نجران مدينة شمر » ، أو كما قيل « توجه ليخضع » نجران . وقد تمت هذه الحملة قبل عام ٣٢٨ وهو عام موت امرىء القيس ، وذلك في الوقت الذي كانت فيه نجران وقبائل حمير خاضعة لسلطان شمر . ومن متن القبورية كما رأينا فيما سبق من الكتاب ، يتبيّن أن نجران لم تسقط في يد « ملك العرب كلهم » ؛ كما وأنه لا يرد القول عن اخضاع « مدينة شمر » . لذا فإن من الواضح أن هذه لم تكن سوى محاولة للاستيلاء أو الإغارة عليها . وعلى أية حال فإن امرأ القيس كان قوياً للدرجة التي استطاع بها أن يهدد دولة سبأ وذي ريدان خلال الفترة المضطربة للحرب الأهلية . ولكي يحمي ايلشرح أملاكه من امرىء القيس فقد وجّه قبيلة كدّت إلى حدود اللخميين التي كانت تمتد بعيداً صوب الجنوب في أعماق الجزيرة العربية . / 128 وكما هو الشأن مع القبورية فإن الرقيم Ry 535 أيضاً يرد فيه الاسم على أنه « امرؤ القيس بن عمرو » ، ولكن أضيف إلى ذلك م ل ك خ ص ص ت ن . ويرجح ريكمانس أن يكون هذا اللفظ الأخير مشتقاً من المصدر خ ص ص بمعنى « أحاط بالقصب » ، ومن هنا برز مفهوم المسكن المؤقت والمعسكر ، وهو ما يتفق أيضاً مع مفهوم الحيرة وحيرتا[١٣] . وهناك أيضاً رأي يقول بأن هذا الاسم أعطي لها من قبيل الاستهزاء[١٤] . وقد أفرد مكسيم رودنسون M.Rodinson تحليلاً لغوياً مفصلاً لهذا اللفظ في بحث موجز له جاء فيه أن المقصود بذلك هو المبنى المؤقت والكوخ المصنوع من التبن [أي الخصّ] . وقد

(١٢) شرحه ، ص ٣٩٧ ، ٤٠٦ - ٤٠٧ .
(١٣) G. Ryckmans, Inscriptions sud-arabes, p. 153.
(١٤) St. J. Philby, Notes on Ryckmans 535, p. 406.

حظي هذا التفسير بالقبول عند آخرين(١٥) .

وقد قبض ملك كندة ملكم وكبراؤها وجندهم على امرىء القيس بمدينة م ر ب قرب هـ ل ل عند حدود أملاكه (السطر الثاني) . وهنا يرد الحديث عن مدينة ما تدعى مرب - م ر ب مجهولة الموقع ، وهي ليست بحال مأرب المعروفة جيداً* لأنه يرد في السطر التالي لهذا وهو السطر الثالث اسم مدينة مأرب في الأسلوب المألوف لكتابتها في الرقوم وهوم ر ب . وقد «قبض عليه ملكم هذا وزعماء كندة بمدينة مرب عند هلال ، وهي حدود امرىء القيس الأثيم هذا » - و ء هـ ذ هـ و / هـ و ت / م ل ك م / و ء ك ب ر ت / ك د ت / ب هـ ج ر ن / م ر ب / ع د ي / هـ ل ل / ء و د هـ و ت / غ ل م ن / م ر ء ل ق س (السطر الثاني) . واستناداً على هذا النص يمكن الافتراض بأن امرأ القيس اشترك في الحملة بشخصه وأنه هاجم أو كان على أهبة الهجوم على أرض سبأ فأسره الملك ملكم وكبراء (ء ك ب ر ت) كندة بمدينة مرب عند هلال . وقد اضطر جيش امرىء القيس (في الرقيم « هم ») إلى تقديم الرهائن استجابة لمطلب قبائل « كدت » - ش ع ب / ك د ت « شيوخهم وشبابهم » . والتعبير الأخير يوكد أن هذا كان مطلب القبيلة بأجمعها ، لأن تقديم الرهائن كان لازماً لضمان إطلاق سراح الزعيم . وكذلك استجابة لطلب كبراء كندة المعتمدين على قوة الملكين ايلشرح ويزيل اضطرت القبائل التي كانت مع امرىء القيس إلى تسليم مطاياها وإبلها ، وهي الوسيلة الوحيدة للانتقال عند العرب . ومن العسير القول بأن حدود امرىء القيس امتدت إلى نجران(١٦) ، ذلك لأنه لم يستول عليها . أما عن بني هلال الوارد ذكرهم بالرقيم فإن هذه القبائل كانت تقيم بحضرموت ، وبوادي عمد بالذات . وكان يسكنون الخيام المعهودة لدى القبائل العربية الشمالية والمصنوعة من الشعر الأسود ؛ وقد كان هذا الموضع هو أقصى مكان في الجنوب يبلغه هذا النوع من الخيام(١٧) .

129 والغارات التي شنت على القبائل الشمالية قامت بها قبائل كندة الخاضعة للملكين ايلشرح ويزيل . فلما تم القضاء على سلطان هذين الملكين « المغتصبين » عقب هزيمتهما في حروب داخلية طويلة اضطرا إلى مغادرة الجنوب العربي ، فاتجه أحدهما صوب الشمال إلى نجد مع قبائل الأزد . ومن الجائز تماماً أن شطراً من قبائل كندة قد تحرك معه آنذاك ودخلوا هناك في صدام مع بني معدّ . فلو حدث أن حقق الكنديون اقتحامهم لبلاد معد قبل مائة عام أو مائة وخمسة وعشرين عاماً من تملك حجر في منتصف القرن الخامس ، فإن هذا يوافق عهد الاضطرابات التي تعرض لها الجنوب العربي في بداية القرن الرابع وذلك حين تنازع السلطة على سبأ وذي

---

(١٥) F. Altheim, Geschichte der Hunnen, Bd. I. Berlin, 1959, pp. 131-132

* ورد ذكرها بل والمقابلة بينها وبين مأرب ، في بيت شعر للأفوه الأودي وهو شاعر يماني جاهلي من مذحج :

فسائل بني حُنٍّ مريب فمأرب — برائس حجر حزنها وسهولها — المترجم .

(١٦) J. Pirenne, L'inscription Ry 535. p. 167.

(١٧) H. Wissmann und M. Höfner, Beiträge zur historischen Geographie des vorislamischen Süd-Arabiens, Wiesbaden, 1952, pp. 122, 126

ريدان في وقت واحد معاً أفراد أسرتين ملكيتين متباينتين يمثل إحداهما ايلشرح يهذب ويمثل الأخرى شمر يهرعش. وفي ذلك الوقت عينه مد ملك اكسوم يد العون إلى شمر الذي كان يأمل في استعادة سلطانه ؛ كما تاقت اثيوبيا بدورها إلى إخضاع سبأ وذي ريدان لسلطانها .

وقد انتهى تدخل ملوك اثيوبيا المتواصل باستيلائهم فيما بعد على السلطة بحمير[١٨] . وفي هذه الظروف السياسية المعقّدة كان موقف كندة قد تحدد ، ذلك أنهم انحازوا إلى جانب ايلشرح وأخذوا يقاتلون تحت إمرته . ولهذا فإن من الميَسّور أن نفترض أنه نسبة لما لقيته الأسرة الحاكمة الشرعية ممثلة في شخص شمر من عون عسكري من اكسوم ضد « المغتصبيْن » ايلشرح وبيين وما أعقب ذلك من ضم حمير إلى اكسوم فإن كندة وجدت نفسها في وضع عسير اضطرت معه إلى الانتقال شمالاً ، إن ليس بأجمعها فلا أقل في شطر منها . وهذا هو الغالب ، خاصة وأن الرواية العربية المتواترة تشير إلى واحد من إخوة الملوك كان قد آثر أن يغادر وطنه مع قبائل الأزد بعد الحرب الأهلية الطويلة[١٩] .

غير أن المحتوى التاريخي لهذا الرقيم وتفسيره على يد كافة الباحثين الذين مر ذكرهم قد قلبته رأساً على عقب قراءة جديدة اقترحها [الأب] أ. جام . فقد كشف عن أن اسم والد امرىء القيس الذي طواه النسيان إنما هو عَوْف . فإن صحت هذه القراءة فإن امرأ القيس هذا ليس هو الوارد بقبورية عام ٣٢٨ م بل هو شخص آخر ،لأن والد امرىء القيس ذاك كان اسمه عمراً . أضف إلى هذا أن جام يوكد في آخر بحث له قراءته الجديدة - م ر ء ل ق س / ب ن / ع و ف م / م ل ك / خ ص ص ت ن ، أي أمرؤ القيس بن عوف ملك خصصتن[٢٠] . لذا فإنه يصعب إرجاع هذا الرقيم إلى القرن الرابع . ويفسر جام خ ص ص ت ن بأنها تعني « الحيضان » ، أي القيعان الطبيعية التي يتجمع فيها ماء المطر والتي جرى أحياناً حفرها وتعميقها . وهو يقول عن دولة امرىء القيس هذه إنها كانت / خاملة الذكر وكانت تقع قرب عدن .[٢١] وشبيهة بهذه الدولة في رأي جام مملكة « ملكم ملك الكنديين » م ل ك م / م ل ك / ك د ت ، ويفترض أنها كانت تقع في جنوب الجزيرة العربية إلى الجنوب من قشمم . وفي رأي جام أن جميع الحيّز الذي كان يشغله إيلشرح يهذب لم يكن سوى أرض محدودة المساحة من الناحية الجغرافية ؛ وهو يرجع بفترة حكم ايلشرح يهذب ويزيل بيين إلى الأعوام ما بين ٥٠ و ٣٠ قبل الميلاد[٢٢] .

130

وتجدر الإشارة ولو بإيجاز شديد إلى رأي للبروفسورغ . ريكمانس ، مفاده أن امرأ القيس الوارد ذكره في

---

(١٨) St. J. Philby, Notes on Ryckmans 535, p. 407

(١٩) J. Pirenne. L'inscription Ryckman 535, p. 176.

(٢٠) A. Jamme, Sabaean Inscriptions of Marib. 1962, Ja, 576, 2, p. 67.

(٢١) شرحه ، ص ٣١٨ .

(٢٢) شرحه ، ص ٣٩٠ (جدول مرتب حسب السنين) .

الرقيم R 535 ليس هو امرأ القيس بطل قبورية عام ٣٢٨ التي عثر عليها بالنمارة ، بل هو شخص يشابهه في الاسم ولكن عاش قبله بقرون ؛ وهو لا يقدم أسباباً يعلّل بها رأيه هذا[٢٣] . أما عن رأينا حول هذا الموضوع فإن من الضروري أن نذكر أن أحداً ما من الباحثين لم يساوره الشك فيما يتصل بملك الكنديين المدعو ملكم والذي أخضعه ملكا سبأ ايلشرح يهذب ويزيل بين . وإذا ما وضعنا في الاعتبار التواريخ التي يوردها جام فإنه يلزم أن نُرجع إلى القرن الأول قبل الميلاد دولة الكنديين هذه التي كان على رأسها م ل ك وأكابر كندة ء ك ب ر ت / ك د ت والتي كان مستقرها بالجنوب العربي .

ومهما يكن من شيء فلا يزال موضع ثقة قول المؤرخين العرب بأن كندة هي قبائل من عرب الجنوب انتقل شطر منها إلى الشمال فحلّوا بالمناطق التي كانت تشغلها قبائل معد بنجد . وفي القرن الخامس ثبّتوا أقدامهم على تخوم الامبراطورية البيزنطية وصاروا دعامة لها في مجاهدة النفوذ المتصاعد للخميين الذين وجدوا تحت حماية ايران .

ويمكن القول بأن تحرك كندة صوب الشمال إلى المناطق التي شغلتها قبائل معد إنما كانت جزءاً من عملية كبيرة امتدت لعدة قرون، تم خلالها انتقال عام للقبائل العربية من الجنوب إلى الشمال داخل حدود الجزيرة العربية نفسها ، بل وإلى أبعد من ذلك صوب مناطق الشرق الأدنى الأخرى حتى لم تعد هجرة كندة سوى حلقة في السلسلة العامة لهذه التحركات . وتشهد الرقوم السبئية بأن شطراً من قبائل كندة ظل يعيش باليمن[٢٤] ، بينما شغل شطر آخر منها وضعاً هاماً في شمالي الجزيرة العربية وسط القبائل النازلة على حدود بيزنطة وايران .

وعن تحركات القبائل العربية وهجرتها لا من الجنوب إلى الشمال فحسب بل وأيضاً من الشمال إلى الجنوب ينبغي أن نضع في تقديرنا الاستقراءات التي خرجت بها ماريا هفنر[٢٥] من دراستها / لظهور لفظ ع ر ب بمفهوم « البدو » أي العرب الرحّل ، في الرقوم السبئية . فهي تربط ظهور هذا اللفظ بالاضطرابات والفتن التي انبعثت في القرن الأول قبل الميلاد وقادت إلى « التبدّي » الكامل ، أي ظهور الرحّل بالمعنى الدقيق للفظ . وقد ارتبط هذا التغيير بدوره بظاهرة معيّنة هي تغيير وضع السرج على ظهر الجمل . فقد انتقل السرج من خلف السنام إلى قرب الرقبة ، وبهذا صار من الميسور التحكّم في الجمل ، الأمر الذي ضاعف القدرات القتالية للعرب . وبما أن هذا التغيير قد حدث بالشمال كما دلّل على ذلك و . دوستال W.Dostal[٢٦] فإن هذا أعطى الغلبة للعرب الشماليين على العرب الجنوبيين ، وأوضح في ذات الوقت عملية « التبدّي » ذات الأثر

---

(٢٣) G. Ryckmans, Bibliotheca Orientalis, 1961, XVIII, 3-4. p. 188.

(٢٤) H. Wissmann und M. Höfner, Beiträge zur historischen Géographie....., pp. 93, 115.

(٢٥) M. Höfner. Die Beduinen in den vorislamischen arabischen Inschriften. L'antica società Beduina. Universita di Roma. Roma, 1959. Studi Semitici. II, pp. 53 - 68.

(٢٦) W. Dostal, The Evolution of Beduin Life, L'antica società Beduina, Roma, II. pp. 11 - 34; G. Ryckmans, Bibliotheca Orientalis, 1961, XVIII, 3 - 4. pp. 187 - 188.

الفعّال في حياتهم .

وترتفع الأخبار المتعلقة بحُجر آكل المُرار إلى منتصف القرن الخامس ؛ وإذا حدث وأن تباينت في تفاصيلها الدقيقة لدى المؤلفين العرب فإن أساسها ظل سليماً . ومفادها أن حجراً الكندي قد تملّك على معد وأن ذلك قد تم بمؤازرة ورغبة تبّع أو حسّان بن تبع ملكي حمير[٢٧] .

ويورد حمزة الاصفهاني في معرض سرده لملوك حمير اسم حسّان بن عمرو بن تبّع[٢٨] . أما الطبري فيذكر في رواية يردها إلى ابن سعيد أن تبّعاً بن كرب الذي « كسا الكعبة » هو أول من ثبّت حجراً بالحجاز على قبائل « معدّ بن عدنان » وذلك بالاتفاق مع ممثلي قبيلة كندة[٢٩] . واسم حسّان الوارد في هذه الروايات العربية يمكن وصله بحسان يوهمن المعروف من الرقوم العربية الجنوبية التي ترجع إلى القرن الرابع وبداية القرن الخامس . وليس هناك من تناقض في أن يحمل حسّان اسم تبّع بن كرب ، ذلك لأن حسّان يوهمن كان ابناً لأبي كرب الذي يمكن أن يتحول اسمه ليصبح « ابن كرب » . وقد وجّه تبّع حجراً « إلى العراق » « فنزل بأرض معد » وثبّت سلطانه عليهم وظلوا على طاعته إلى حين موته . « وملك الشام يومئذ زياد بن الهبولة السليح » ، أي الذي ينتمي إلى عشيرة سليح ؛ وكان يخضع له « أولاد جفنة » ، أي المنتمون إلى آل جفنة . وقد قتل زياداً هذا حجرٌ ؛ وهذا الخبر موضع ثقة لأنه مقرون بذكر المصدر الذي نقل منه وهو « كتاب أخبار ملوك كندة » ؛[٣٠] وهذه الإشارة إلى المرجع لا تخلو من الأهمية لأنها تشير إلى أن المؤلف استعان بمصدر مكتوب . / ولذا فإن مما يؤسف له حقاً ألا تجد طريقها إلى الكتاب التاسع من مصنف حمزة سوى معلومات عن اثنين فقط من الكنديين هما حجر والحارث المقصور ، بل إن هذين الاثنين لا يشغلان أكثر من صفحتين من المتن العربي . من كل هذا يتبيّن أن الكنديين لم يتمكنوا من تثبيت أقدامهم بمناطق الشرق الأدنى على حدود بيزنطة بالذات إلاّ بالصدام مع عشيرة سليح أو ضجعم ، مما هو معلوم من القتال الذي جرى بين حجر وزياد .

وتجد مادة المؤرخين المسلمين التأييد في الرقوم العربية الجنوبية التي تعود إلى آخر القرن الرابع وبداية القرن الخامس ، والتي يرد فيها اسم حسّان يوهمن ابن أبي كرب أسعد . وهناك أكثر من سبب للافتراض بأن حسّان يوهمن هو ذات الشخص المعروف في التواريخ باسم حسان بن تبع . وفي منتصف الطريق بين مكة والرياض عند وادي مأسل بنجد تم العثور على رقيم قام بنشره غ . ريكمانس مرتين ، الأولى منها تحت رقم Ry 445 ؛ والثانية بعد أن نقّحه / وزاد عليه قام بنشره تحت رقم Ry 509 . وهذا الرقيم منقوش على سفح

(٢٧) Hamza Ispahanensis, Annales, t. I, ed. I.M.E. Gottwaldt, Petropoli, 1844, p. 140.
(٢٨) شرحه ، ص ١٣٢ .
(٢٩) G. Olinder, The Kings of Kinda, p. 39.
(٣٠) Hamza Ispahanensis, Annales t. I, p. 140.

صخرة من البازلت تخليداً للحملة التي اضطلع بها بوادي مأسل جمحان أبو كرب أسعد وابنه حسان يوهمن « ملكا سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنات » . ويتبيّن من هذا الرقيم أن والد أبي كرب اسعد وبالتالي جد حسان يوهمن كان يحمل اسم مليكرب يوهمن ، أي ذات اللقب الملوكي (الأسطر من الأول وحتى الرابع)(٣١) . والرقيم Ry 509 مخروم لأنه لا توجد له خاتمة أو تاريخ ؛ ولكن هناك رقوماً أخرى لهؤلاء الملوك أنفسهم تعاون على تحديد أزمنة حكمهم . فمثلاً الرقيم RES 3383 بتاريخ ٤٩٣ من التقويم الحميري وهو ما يوافق عام ٣٧٨ للميلاد يذكر الملك مليكرب وأولاده أبا كرب ودر يعمراً أسعد أيمن(٣٢) . وقد جدد مليكرب يوهمن لقب ملوك سبأ حوالي عام ٣٧٥ وذلك بعد زوال سيطرة ملوك اكسوم « ودعا ملوك سبأ أنفسهم بذلك اللقب الذي كان قد لقب به نفسه شمر يهرعش »(٣٣). وقد كان الاسم الثاني لمليكرب وهو يوهمن هو أيضاً الاسم الثاني لحفيده حسّان يوهمن .

أما الرقيم الآخر ، ولعله مقارب في الزمن للرقيم Ry 509 ، فهو الرقيم Ry534 الذي تم العثور عليه باليمن في رَيْده على الطريق المؤدية إلى عَمْران . وهذا الرقيم يشهد بوحدانية الله (Ry 534) ، وقد نصبه ثلاثة أشخاص وردت أسماؤهم به وذلك تكريماً « لرب السموات والأرض » (رحمن)* الذي كان معبده على ما يبدو قد أعيد بناؤه أو جرى ترميمه . وكان المشرفون أو المسئولون عن ذلك العمل قد قاموا به ايفاءً بنذر كانوا قد قطعوه على أنفسهم « لو أنقذ سيدهم ل و ف ي / ء م ر ء هـ م و ابو كرب اسعد وولداه حسّان (يوهمن) وشرحبيل يعفر وابن ثالث لم يكن من السهل قراءة اسمه (السطران الثاني والثالث)(٣٤) . ويفترض الناشر بحق أن رقيم أبي كرب اسعد الذي يرد فيه اسمه إلى جانب اسم ولده حسان يوهمن (Ry 509) إنما يسبق زمنياً هذا الرقيم الأخير الذي يرد فيه أيضاً إلى جانب حسّان يوهمن ذكر لولدين آخرين لأبي كرب يدعى أحدهما شرحبيل يعفر ولم يحفظ لنا اسم الثالث (Ry 534) . وتاريخ الرقيم وهو ٥٤٣ يوافق عام ٤٢٨ للميلاد . وعلى الرغم من أن بداية التقويم الحميري يُرجَع به في الوقت الحاضر إلى مائة وخمسة عشر عاماً أو مائة وثمانية عشر عاماً أو بمائة وعشرة من الأعوام قبل التقويم الميلادي ، إلاّ أن البروفسور غ . ريكمانس ظل مستمسكاً بالفكرة الأولى أي بفارق المائة وخمسة عشر عاماً . ومن ثم فإن رقيم Ry 509 يرتفع إلى وقت سابق لعام ٤٢٨ . ولكن الأقرب إلى الصواب هو إرجاعه إلى الربع الأول من القرن الخامس ، وذلك إلى وقت الحرب بين

---

(٣١) G. Ryckmans, Inscriptions sud-arabes, Le Muséon. 1951, v. 64, f. 1-2, p. 100; Le Muséon, 1953, v. f. 3-4, p. 304

(٣٢) Répertoire d'épigraphie sémitique, t. VI, No. 3383, p. 140.

(٣٣) St. J. Philby. Note on the last Kings of Saba , Le Muséon, 1950, t. 63, f. 3-4, pp. 269-270

* يقول البلاذري إن الأسود العنسي لما تكهن وادعى النبوة باليمن « سمى نفسه رحمان اليمن كما تسمى مسيلمة رحمان باليمامة » (فتوح البلدان) ؛ أما عن استعمال اللفظ في القرآن الكريم فليراجع البحث المفصل للمستعرب الفرنسي جوميه تحت عنوان : J. Jomier, Le nom divin AL-RAMANN dans le Coran والذي ظهر في الجزء الثاني من Mélanges Massignon(دمشق ١٩٥٧) ـ المترجم .

(٣٤) G. Ryckmans. Inscription,.. 12me serie, Ry 534. Le Muséon, 1955, t. 68. f. 3-4 pp. 309-310 . وإلى عام ٤٤٩ م يرجع الرقيم CIH 540 الذي نصبه الملك شرحبيل ابن أبي كرب اسعد .
Corpus inscriptionum semiticarum, pars IV. Parisiis. 1911. t. II, pp. 263, 266.

13 الفرس / وبيزنطة في الأعوام ٤٢٠ ـ ٤٢٢ على رأي البروفسور ڤرنر كاسكل[٣٥] . ويرد القول في الرقيم Ry 509 بأن الملكين المذكورين (أبا كرب وحسّان) تحركا في حملة على وادي مأسل جمحان « وأمضيا » بعضاً من الوقت في ذلك الموضع و هـ ل ل و / ء ر ض . وقد زحفا بجيش لجب شاركت فيه « قبائلهم » ش ع ب هـ م و، وكذلك قبائل حضرموت وسبأ و «بنومرب»؛ وهنا يرد ذكر لمجموعات مختلفة لم يكن من المستطاع على وجه التحديد ضبط أسمائها أو ترجمتها (السطران الثامن والتاسع والتفسيرات المتعلقة بها)[٣٦] . وبجانب هذا يرد ذكر لعرب كنده ك د ت وسود س و د (السطران التاسع والعاشر) . أما الأعداء الذين خرجت الحملة ضدهم فلا يرد ذكر لأسمائهم ، ولعلها تكون قد وردت في الأسطر التالية التي لم تحفظ بسبب ما أصاب الرقيم من خرم . وقد برز رأي يقول بأن ما حدث لم يكن حملة عسكرية بل كان شيئاً أشبه « بهجرة » معتادة[٣٧] . ويترجم ڤرنر كاسكل هذا الرقيم ويفسره بصورة مغايرة ، فهو يرى أن هؤلاء الملوك تحركوا بجندهم صوب بلاد العرب الشمالية واشتبكوا مع القبائل التي كانت تضيّق الخناق على المسافرين وتنهب قوافلهم لتقسرهم على دفع الفدية . وهذه الحملة التي بلغت منطقة مأسل جمحان إنما كانت تهدف إلى وضع حد لهذه الأعمال الضارة بتجارة الجنوب العربي[٣٨] . ومن هذا يتبيّن أن الباحثين غير مجمعين على تفسير هذا الرقيم .

وفي اعتقادنا أن الموضع الذي عثر فيه بالرقيم ، وذلك على الطريق القديمة الواصلة بين سبأ والحجاز ، يكفي لإضفاء الأهمية عليه . وبطبيعة الحال فإن الحملة أبعد من أن تكون « هجرة » ؛ أضف إلى هذا أن « الهجرات » نفسها لم تتحقق إطلاقاً بطرق سلمية . وسواء أكان الهدف هو إخافة بعض القبائل العربية التي عاقت تجارة القوافل ، أو أن الرقيم نفسه كان وثيق الصلة بمحاولة موجهة ضد اللخميين والفرس ، فإن الأمر في كلتا الحالتين مرتبط بحملة عسكرية . ولا يبعد أن كانت موجهة ضد مناطق نائيةكالعراق وبلاد ما بين النهرين . وقد شارك فيها عدد كبير من أفراد القبائل الذين احتل بينهم الكنديون مركز الصدارة لأنهم قاموا بدور هام في توازن القوى بين القبائل العربية ، الجنوبية منها والشمالية . والرقيم Ry 509 يفسح المجال للافتراض بأن الحملة التي اضطلع بها ملوك حمير كانت مبادرة استهدفت الحيرة ، أو كانت في أغلب الظن موجهة ضد ايران ؛ وأن هذا الرقيم الذي يقع على مسافة « تزيد قليلاً عن نصف المسافة بين ظفار وطيسفون » إنما نصبه أولئك الملوك . أما القبائل التي اضطلعت بالغزوة فقد كانت وجهتها وراء ذلك صوب الشمال .

13 ويؤيد هذا ما جاء في الأخبار الواردة بالمصادر من أن الحملةالعسكرية / لملوك حمير إنما كانت وجهتها العراق ، أي الحيرة ومن ورائها ايران[٣٩] . ويقف شاهداً على مدى النجاح الباهر لهذه العملية تلك الغنائم الهائلة التي

---

(٣٥) W. Caskel. Entdeckungen in Arabien, Arbeitsgemeinschaft für Forschung des Landes Nordrhein-Westfalen. 1954. II. 30. p. 10.

(٣٦) G. Ryckmans. Inscriptions Ry 509, pp. 304, 307.

(٣٧) J. Ryckmans. Inscriptions historiques sabéennes, Le Muséon, 1953. v. 66, f. 3-4, p. 328.

(٣٨) W. Caskel, Entdeckungen....... p.10.

(٣٩) J. Pirenne. l'inscription Ryckmans 535, p. 175.

عاد بها العرب من هذه الغزوة ؛ ذلك أن مثل هذه النتائج لا تحققها عمليات عسكرية موجّهة ضد اللخميين وحدهم بل وضد دولة الساسانيين كذلك . غير أن المصادر البيزنطية اليونانية لم تذكر عن هذا شيئاً ؛ ذلك أنها لم تكن تنظر إلى النزاعات بين القبائل العربية بأرض الجزيرة وسورية بأكثر من أنها اشتباكات داخلية بين كندة ولخم وسليح . وقد ظل دور ملوك حمير في كل هذا مجهولاً لديها ، فلم تحفظ تلك المصادر سوى أسماء أولاد حجر وأسماء المناذرة الذين تتابعوا على عرش الحيرة .

ووفقاً للرواية العربية المتواترة فإن حسّان بن تبع الذي نصب حُجْراً رأساً على معد ، إنما هو الملك الذي « كسا الكعبة » ؛ أي أنه كسا أقدم موضع مقدّس عند العرب بالأنسجة الفاخرة التي حصل عليها ضمن الغنائم الوافرة التي غنمها من العراق . ويرد ذكر حسان هذا في الرقيم Ry 509 . وتجعل الروايات العربية حجراً آكل المرار قريب النسب بملوك حمير ، لأن البيتين ارتبطا بأواصر المصاهرة[٤٠] . ومن جهة أخرى فإن تملّك حجر وثيق الصلة بانتصارات الحميريين ورغبتهم في أن يصبح عاملهم وحليفهم حاكماً على معد وكندة المقاتلين الأقوياء .

ومن بين الخربشات (graffiti) التي عثر عليها البروفسور غ . ريكمانس بالعربية السعودية عام ١٩٥٢ هناك واحدة تحمل اسم حُجْر ؛ وقد تم العثور على هذا الرقيم بوادي مسمّى (نفود مُسمّى) الواقع في الحد الشمالي لجبال القارة . واعتماداً على خصائصه الباليوغرافية يمكن إرجاعه بالتقريب إلى القرن الخامس . ويرد في الرقيم اسم ح ج ر / ب ن / ع م رم / م ل ك / ك د ت ـ « حجر بن عمرو ملك كدّت »[٤١] ، أي ملك كندة ، وهو المعروف في المصنفات التاريخية العربية باسم آكل المرار . وبهذا تنضم إلى مجموعة المصادر إشارة أصيلة إلى مؤسس الأسرة الحاكمة الجديدة لكندة بالشمال والتي بلغت هذه القبيلة تحت زعامتها شأواً بعيداً ومكانة خاصة .

وهكذا فإن المصادر عن كندة متفقة حول وقائع معيّنة من تاريخها . من ذلك هجرة شطر من القبيلة إلى الشمال في منتصف القرن الرابع ؛ وأن تمليك حجر على معد يعود إلى الربع الأول من القرن الخامس وذلك إبّان حملة الحميريين الموفّقة على الشمال والتي مكّنت ملكهم من أن يبوّىء الكنديين المخلصين والموالين له مكان الصدارة « بأرض معد » .

---

(٤٠) G. Olinder, The Kings of Kinda, pp. 40 - 41.

(٤١) G. Ryckmans, Inscriptions sud-arabes, 13^me^ série, Le Muséon, 1956, v. 69, f. 1-2, p. 152; G. Ryckmans, Grafittes sabéens relevés en Arabie Saudite, Rivista degli Studi Orientali, Scritti in onore de G. Furlani, 1957, v. 32, pp. 557, 561.

وتحركات الكنديين التي أعقبت ذلك ساقتهم إلى منازعات جديدة ، خاصة مع القبائل العربية الأخرى . فمنذ الوهلة الأولى دخل معهم اللخميون في عداء ، كما دخل أيضاً الساسانيون الذين بسطوا حمايتهم على اللخميين . وحتى في مناطق أخرى من الشرق الأدنى نجد الكنديين يصطدمون بعشيرة قوية هي سليح أو ضجعم التي كانت تقوم بحراسة الحدود لبيزنطة . وما كان لأية محاولة لتثبيت أقدامهم بمنطقة الحدود أن تتم إلاّ على حساب الضجاعمة . ويقف دليلاً على هذا ، ذلك النزاع الذي نشب بين حجر الكندي وزياد الذي ينتمي لعشيرة سليح وأدى إلى مصرع زياد ، كما رواه لنا حمزة في النص الذي مرّ أعلاه . فلكي يوطّد الكنديون لأنفسهم بالمنطقة قاموا بمهاجمة هذه العشيرة القوية ، إلاّ أن الذي وضع حداً لسليح لم يكن الكنديون بل الغساسنة الذين خلفوهم .

وقد صار قيد المستطاع إكمال الروايات العربية التي يغلب عليها طابع الأسطورة بمادة المصادر الأقرب إلى الأحداث ، وهي المصادر السريانية واليونانية . ويتحدث أصحاب هذه الحوليات بإيجاز عن غارات العرب التي تعرضت لها بلاد الدولة البيزنطية وهم يدعونهم في بعض الحالات باسم عام هو « الاسكينيون » أي الرحّل ؛ وفي حالات أخرى باسم « السرقينيين » ؛ أو يحدّدون أسماء قبائل بعينها من تلك التي جرى لقواد الروم معها قتال . والوقائع التي يسجلها أصحاب الحوليات تتعلق بمختلف القبائل العربية ، فهي ذات صلة بعرب الفرس بالحيرة وبالكنديين كذلك . ولذا فإن معلومات هذه المصادر قد دخلت في الاستعمال أكثر من مرة في الفصول المختلفة من بحثنا هذا . وكان الكنديون قريبي الجوار من بيزنطة ودخلوا معها في اتصال مباشر . كذلك فإن عشيرة سليح وطّدت لنفسها قبلهم بالمناطق شبه الصحراوية للامبراطورية وعلى حدودها . ولقد تعارضت مصالح هذه المجموعات القبلية العربية الثلاث ، وكان لابد لبيزنطة أن تحسم مسألة من الذي يجب الاعتماد عليه من بينها بالذات .

وفي عام ٤٩١ أو ٤٩٢ أغار العرب على حمص « أكبر مدن سورية وأعظمها »[٤٢] . وعند اعتلاء الامبراطور زينون العرش في ٢٩ نوفمبر ٤٧٤ وفد إلى الدير القائم بحمص « شيخ وقور للغاية » اسمه ابراهام ، فبقي بالدير ثمانية عشر عاماً اضطر بعدها إلى مغادرته إلى القسطنطينية عندما « بلغ السرقينيون » الدير واستولوا عليه[٤٣] . وإلى عام ٤٩٧ (وهو العام الثاني من حكم انسطاس لدى ثيوفانيس) ترجع غارة

(٤٢) Kyrillos von Skythopolis, ed. Ed. Schwartz, Leipzig, 1939, p. 243.

(٤٣) شرحه ، ص ٢٤٤ .

137 العرب الذين ينتمون إلى « العشائر التي / يتزعمها الفيلارخ النعمان » اللخمي والتي تخضع للفرس[٤٤] . فقد غزوا ولاية الفراتية ، ولكن الاستراتيج أوجينيوس « المعروف بشجاعته في القول والفعال » هزمهم عند محلة بيت ريسه بسورية . وغزوة « البرابرة الاسكينيين » هذه معروفة كذلك للمؤرخ اڤاغريوس الذي يقول إنهم انقضّوا من جهتين ، من أرض الجزيرة ومن ناحية فينيقية وفلسطين[٤٥] ؛ ولكنه لا يقدم تفصيلاً أو أسماء حتى أنه لم يعُد ثمة شك في أن ثيوفانيس قد اعتمد على مصادر أخرى وليس على اڤاغريوس وحده . ويروي المؤرخ بعد هذا أن رومان قائد جيش فلسطين « الذي كان رجلاً حصيفاً اتصف بجودة الرأي والصبر في القتال » قد وضع يده على عدد كبير من الأسرى كان على رأسهم أُجَر ابن آرثة* الملقب ثالبان[٤٦] ، وهو شخصية معروفة لدينا من مصادر أخرى . وقد ورد ذكره مراراً لدى ثيوفانيس نفسه الذي يعلم عن آرثه الملقب ثالبان والد كل من بدى كرم وأُجر[٤٧] . وذكره مرتين لآرثه باسمه القبلي ثالبان إنما أراد به أن يميّز بينه وبين سميّه آرثه « فيلارخ الروم » . وآرثه الملقب ثالبان ، وكذلك ولداه حُجْر ـ أُجر و بديكرم ـ مليكرم ينتمون إلى الكنديين الوارد ذكرهم في الرقوم العربيةالجنوبية .وقبل انتصاره على حجر كان رومان قد أرغم « اسكينياً » آخر يدعى جبلة على الهرب ، وكان جبلة هذا قد أغار على أرض فلسطين . أخيراً فإن هذا القائد البيزنطي حرّر جزيرة يوتابه عام ٤٩٨[٤٨] بعد معارك ضارية . وكان العرب قد استولوا عليها عام ٤٧٣ بقيادة امرىء القيس (امورقس) الذي كان ينتمي إلى هؤلاء الكنديين أنفسهم . وهكذا عادت جباية المكوس على السلع التجارية القادمة من بلاد العرب الجنوبية إلى يد بيزنطة من جديد[٤٩] .

وحادث الاستيلاء على جزيرة يوتابه عام ٤٧٣ على يد امورقس (امرىء القيس) الذي يرويه ملخ لم يمر دون عواقب ، وإن كان المعتدي قد تسلم لقب فيلارخ (زعيم) « عرب البطرا » ، وأغلب الظن أنه هو الذي طالب بذلك . وقد أسقط پروقپيوس الذي دوّن مصنفه «الحروف الفارسية» قبل عام ٥٥٥[٥٠] ذكر هذه الأحداث واكتفى بإعطاء وصف لخليج العقبة ومدينة ايله وجزيرة يوتابه . وليس هناك من شك / في أن 138 الأحداث التي يرويها ملخ كانت معروفة لپروقوپيوس ولكنه أعرض عنها قصداً بوصفها أحداثاً لا تشرّف عاصمة الامبراطورية . غير أنه في المقابل يذكر أنه قد وجد بجزيرة يوتابه منذ القدم مستعمرة من اليهود الذين « أصبحوا رعايا روميين في عهد يوسطنيان »[٥١] . وكان هدف پروقوپيوس من هذا أن يتملق الامبراطور وأن

---

(٤٤) Theophanes, Chronographia. rec. C. De Boor, v. I, Lipsiae, 1983, p. 141.

(٤٥) Evgarius, Historia ecclesiastica, III, 36, ed. J. Bidez and L. Parmentier. London. 1898. P. 135

(٤٦) Theophanes, Chronographia, p. 141.

* أغلب الظن أن «آرثه» باليونانية رسم لاسم «حارثة» العربي ، لا الحارث . على أن حارثة انما هو في حد ذاته ترخيم لاسم الحارث ـ المترجم .

(٤٧) شرحه ، ص ١٤٤ .

(٤٨) E. Stein, Histoire du Bas-Empire, T. I-Paris, 1959, pp. 357, 595; t. II - Paris, 1949, p. 91.

(٤٩) Theophanes, Chronographia, p. 141.

(٥٠) B. Rubin, Prokopius von Kaisareia, Stuttgart, 1955, col. 81.

(٥١) Procopius, De bello persico, I, 19. ed. Haury, Lipsiae, 1905, p. 101.

يطريه ، مما يشير إلى أنه كان على علم بأن الجزيرة لم تخضع للرومان لفترة من الزمن . واستعادة بيزنطة للجزيرة كان أمراً معروفاً جيداً لثيوفانيس كذلك ، وذلك في معرض حديثه عن الحملات الموفقة للقائد رومان ضد العرب الاسكينيين[٥٢] .

وإخضاع معطيات ثيوفانيس لتحليل دقيق من شأنه أن يقدم لوحة واضحة لمحاولة القوات البيزنطية القيام بهجوم عام على قبائل العرب الرحّل . وإذا ما حدث وأن دانت القبائل العربيةالنازلة بأرض الجزيرة وسورية بالطاعة للخمين ، فإن تلك التي نزلت بفلسطين وإلى الغرب منها عند سواحل البحر الأحمر وجزيرة يوتابه كانت تتبع للكنديين . وثمة واقعة تشد الانتباه ، تلك هي قيام جبله والد آرثه (الحارث) الغساني في ذات الوقت بغارة على فلسطين اضطر معها إلى أن يولي الأدبار . وتلك كانت هي اللحظة بالذات التي جهد فيها الغساسنة لاحتلال موضع على الحدود البيزنطية ، مضيّقين بذلك الخناق على الكنديين . ومن خلال النص الذي أوردناه نجد أن هذه المحاولة كانت أبعد من أن تكلّل بالنجاح ، وذلك لاشتراك طرف ثالث فيها هو بيزنطة التي جهدت بدورها في إخضاع العرب لسلطانها .

أما العدو الدائم للكنديين فقد كانت عشيرة ضُجعم التي ينتسب إليها زوكم المعروف من المصادر البيزنطية . غير أنه لم يستطع أيٌّ من ضجعم ـ سليح أو الكنديين أن ينال المكانة التي ظفر بها الغساسنة فيما بعد[٥٣] . وقد كان أعداء حجر من عشيرة ضجعم ـ سليح حتى لحظة ظهور الغساسنة « يدينون بالولاء لبيزنطة » ؛ إلاّ أنهم منذ نهاية القرن الرابع وإلى نهاية القرن الخامس كانوا يقومون بحراسة حدود سورية لصالح القسطنطينية[٥٤] ولم يستتب سلطان الغساسنة إلا بعد أن ضعفت شوكة كل من ضجعم وكندة . ولقد تمتعت كندة بالسيطرة أمداً طويلاً وأخضعت لسلطانها قبائل قوية بما في ذلك معدّ ، معتمدة على الأمداد الجديدة التي وصلتها من داخل الجزيرة العربية من حيث قدموا هم أنفسهم . ومن تلك المواضع نفسها قدم الغساسنة أيضاً . ولم تنقطع تحركات العرب إلى مناطق الشرق الأدنى حتى توّجت آخر الأمر بالفتوح الإسلامية الكبرى .

139

وفي العام الرابع الذي تلى هذه الأحداث التي يرويها ثيوفانس عن انتصارات رومان والتي تعود إلى عام ٤٩٨[٥٥] ، ترد روايته عن أحداث عام ٥٠٢ حول غارة جديدة للعرب على فينيقية وسورية وفلسطين[٥٦] والتي تمت تحت قيادة الكندي بديكرم أخي أُجَر ـ حجر . وعن بديكرم (مليكرم) هذا يقول ذلك المؤرخ إنه

---

(٥٢) Theophanes, Choronographia., p. 141.

(٥٣) Th. Nöldeke, Die Ghassanischen Fürsten...., pp. 8, 12.

(٥٤) G. Olinder The Kings of Kinda, p. 45 -طوّر عرفان قعوار [شهيد] آراء نولدكه واولندر بصورة أعطى معها اهمية خاصة لهؤلاء الأمراء من عشيرة سليح الذين لم يتنازلوا عن مكانتهم إلا في بداية القرن السادس وذلك عندما انتزع الفيلارخية من أيديهم الغساسنة (I. Kawar, The Last Days of Salih, Arabica, t. 5, f. 2, pp. 150, 158)

(٥٥) E. Stein, Histoire du Bas-Empire, II, p. 91.

(٥٦) B. Rubin, Das Zeitalter Justinians, Berlin, 1960, p. 271 (annus 502)

« انقض كالريح على هذه المواضع وابتعد أسرع من ذلك بالغنائم حتى أن رومان في تعقّبه لهم لم يستطع البتة اللحاق بالعدو »[٥٧] .

وقد كانت هذه الغزوات بلا ريب شديدة الوطأة على بيزنطة . وفي خريف عام ٥٠٢ كللت الجهود الدبلوماسية للامبراطورية بالنجاح ، فقد تم عقد الصلح مع آرثه « الملقب ثالبان » . ولكي يبدو واضحاً أن الصلح قد تم على وجه التحديد مع الحارث الكندي فقد أضيفت عبارة أنه « والد بديكرم وأُجَـر »[٥٨] . وجدير بالملاحظة أن تقديم اسم ولده الأصغر بديكرم على ولده الأكبر حجر إنما يعني أن حجراً كان ببلاد أخرى وأن أخاه بديكرم قد شغل مكانه[٥٩] . وبانعقاد الصلح صار بمقدور بيزنطة أن تعتمد على هذه الجماعة في صد غارات عرب الفرس .

وثمة أحداث تقرنها مصادر أخرى باسم ثعلبة أو ثعلبان ، وهو اسم لقبيلة عربية كانت تعمل دائبة ضد اللخميين وتحظى بحماية بيزنطة . وقد ظل الخلاف قائماً حول انتماء ثعلبة ، إلى الكنديين هو أم إلى الغساسنة . فروتشتين يعد ثعلبة من قبائل كندة[٦٠] ، بينما يجعلهم عرفان قعوار [شهيد] من الغساسنة . ويبيّن نولدكه بوضوحه المعهود أنه ينبغي التمسك برواية حمزة الذي يقول بأن أول من وجّه الغساسنة إلى الشام كان ثعلبة بن عمرو ، كما يوكد ذلك ابن قتيبة[٦١] أيضاً . زد على هذا أن أم الحارث ثعلبان الكندي كانت تُعد من آل جفنة[٦٢] . وتوكد هذه الروابط تلك الرقوم العربية الجنوبية التي تم العثور عليها بالعربية السعودية ؛ فهؤلاء وأولئك هم في حقيقتهم مهاجرون من حضرموت .

وبنو معد الذين تملّك عليهم بيت من كندة كانوا قبل ذلك أقرب إلى اللخميين ، وذلك في مفهوم الإطار العام لما كان ينشب من عداوات بين القبائل العربية بعضها و بعض . فلما ذهبت كلمة البيت الحاكم لكندة بدا وكأن معداً قد عادوا إلى سابق عهدهم وربطوا مصيرهم باللخميين . ويكفي أن نذكر أن بني معد قد وُجدوا بمعسكر اللخميين على ما يرويه في رسالته شمعون الارشمي .

140 هذا وقد قام الغساسنة بطرد عشيرة ضجعم (سليح) ؛ كما اضطر الكنديون إلى التنازل للغساسنة عن المواضع التابعة لهم من ولاية فلسطين الثالثة القريبة من أيله وجزيرة يوتابه . ويرد في الرقيم الكبير لأبرهة (C.I.H. 541) الذي يرجع إلى عام ٥٤٧ من الميلاد ذكرٌ لأخوين هما أبو كرب والحارث ، وأبوهما هو جبله

---

(٥٧) Theophanes, Chronographia, p. 143.

(٥٨) شرحه ، ص ١٤٤

(٥٩) قتل حجر في واقعة « يوم الكُلاب » ، أي بعد عام ٥٣٠ ؛ G. Olinder, p. 92.

(٦٠) G. Rothstein, Die Dynastie der Lahmiden...., p. 91.

(٦١) Nöldeke, Die Gassanischen Fürsten...., p. 9.

(٦٢) شرحه ، ص ٦

الغساني(٦٣) . ومن هذا يتبيّن أن الغساسنة لم يرغموا سليحاً وحدها بل وأرغموا معها كندة أيضاً على إفساح المجال لهم ، لأن أبا كرب بن جبلة كان « فيلارخاً لسراقيني فلسطين » ولمناطق كانت في الماضي تتبع للنبط .

وقبيلة ثعلبة ، وهم من « عرب الروم الذين يقال لهم بيت ثعلبة » ، معروفة لدى المؤرخ السرياني يوشع العمودي . فعند اشتداد وطأة الحرب عام ٥٠٢ و ٥٠٣ ، حين كان الشاهنشاه قباذ يقوم بتخريب مناطق أرض الجزيرة ويحاصر مدينة آمد (من اكتوبر ٥٠٢) قام بإرسال قوات من عرب الفرس تحت قيادة النعمان اللخمي في حملات متتابعة . ففي السادس والعشرين من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) عام ٥٠٢ نفذ النعمان بقواته من الجنوب إلى منطقة حرّان فنهب وسبى وخرّب حتى أكناف اذاسا . وفي عام ٥٠٣ تحرك « عرب الفرس » نحو مدينة الخابور الواقعة على نهر الخابور ، غير أن هجومهم صُدّ وشتت شملهم ثيمو سطراط دوكس (قائد) فلليتيقه . كذلك تلقّى عرب الفرس ضربة أشد عنفاً من هذه بالحيرة « فقد توجه عرب الروم من بني ثعلبة إلى حيرةالنعمان فعثروا على قافلة كانت في طريقها إليه [أي النعمان] وإبل محمّلة فانقضّوا عليها وقتلوا جميع من كانوا هناك واقتادوا الإبل ، ولكنهم لم يبقوا بالحيرة لأنها ابتعدت داخل الصحراء(٦٤) ». ومعلوم أن يوشع العمودي كان معاصراً للأحداث التي وصفها ، ولذا وجب أن يفهم من ألفاظه أن بني ثعلبة قد اضطلعوا عام ٥٠٣ بمهمة حراسة الحدود البيزنطية وأن غارتهم على الحيرة كانت بمثابة ضربة مضادة رداً على غارات اللخميين . وكان الصلح الذي تم عقده في عهد انسطاس مع الحارث الكندي عام ٥٠٢ هو الذي يسّر لهجوم قبيلة ثعلبة الخاضعة له فقامت عام ٥٠٣ بغارتها على الحيرة . وقد كان النعمان لمّا يزل على قيد الحياة حين خرّبت الحيرة ، بل إنه أخذ طرفاً في المعركة ضد الروم الذين كانوا تحت قيادة بطريق . ورغماً من أن قوات بيزنطة انسحبت وعبرت الفرات « واحتمت بمدينة سميساط » Samosata إلّا أن النعمان كان قد أصيب بجرح في هذه المعركة « فانتفخ الجرح الذي أصيب به في رأسه وتورّمت جمجمته فنهض وذهب إلى خيمته ومرض ليومين فقط ثم مات » ، وكان ذلك في آغسطس عام ٥٠٣(٦٥) . عند ذلك عيّن قباد « ملكاً مكان النعمان » ؛ إلّا أن / المؤرخ لا يذكر اسمه أو اسم القائد الذي كان على رأس ثعلبة . ولم يخلف المنذر أباه النعمان على الفور فقد تملّك قبله على اللخميين مدة ثلاثة أعوام أبو يعفر الذي كان ينتمي إلى البيت المالك وإن لم يكن الوريث المباشر . وبجانب هذا فإن المصادر العربية تتحدث عن الوضع الخاص الذي شغله في تلك الأعوام الحارث الكندي بالعراق وبالمناطق المتاخمة بوصفه منافساً للمنذر اللخمي . وتاريخ حمزة الأصفهاني لا يورد ذكراً لعمرو ابن حجر ووالد الحارث . ولهذا يصدق الافتراض القائل بأنه كان مليكاً خامل الذكر على فرع من كندة وأنه لم

141

---

(٦٣) N. Pigulevskia, Vizantia na puti v Indiu, str. 322 - 323.

(٦٤) Joshua the Stylite. Chronicle, ed. by W. Wright. Cambridge. 1882. No. 57:N. Pigulevskia, Mesopotamia na rubeje V i VI vv. L., 1940 (ترجمة روسية للحوليات ، القسم ٥٧ ، ص ١٥٣) .

(٦٥) N. Pigulevskia. Mesopotamia na rubeje Vi VI vv., str. 153, No. 58.

يتسنّم مكانة أبيه حجر ، بل وليس بعيداً إن كان هو أيضاً تابعاً للحميريين[٦٦] .

والصفحات الجديدة المشرقة لتاريخ الأسرة الحاكمة من كندة بالشمال وثيقة الصلة باسم الحارث بن عمرو ، وهو الحارث نفسه الذي تذكره الحوليات البيزنطية باسم آرثه ثالبان وتميّز بينه وبين آرثه بن جبله من آل جفنه . ومع آرثه الكندي هذا تم عقد الصلح عام ٥٠٢ أيام الامبراطور انسطاس . ويرد ذكر الحارث بن عمرو الكندي مرتين في تاريخ حمزة ، مرة في الكتاب التاسع المفرد للكنديين وأخرى في الكتاب السادس المفرد للخميين . ففي الكتاب التاسع يطلق على الحارث اسم « المقصور بن عمرو » ، وهو خطأ كشف عنه الباحثون منذ البداية ذلك أن كنية « المقصور » لم تطلق على الحارث بل على أبيه عمرو ، كما هو معلوم من مصادر أخرى[٦٧] . وقد شكّل الحارث دولته بنجد وكان معاصراً لقباد بن فيروز الذي انحاز إلى « الزنادقة » . وانضوى تحت سلطان الحارث عدد من قبائل نجد ؛ « وبقي الحارث مَلكاً على قبائل معدّ » كما يقول حمزة[٦٨] حتى زمن انوشروان* .

وفي القسم من تاريخه الذي أفرده للخميين يذكر حمزة الحارث على أنه ابنٌ لعمرو وحفيد لحجر آكل المرار ، ويقول عنه إنه استولى على الحيرة وعلى السلطة بدولة اللخميين واضطر المنذر بن امرىء القيس إلى الهرب[٦٩] . واستيلاء الكندي على الحيرة يرتبط في تاريخ حمزة بأحداث عهد فيروز وقباد . فما أصاب فيروز من فشل في قتاله مع الهياطلة [الهفتاليين] وفي حملاته على خراسان ، وبقاء قباد في الأسر بصفة رهينة ، ثم ما ظهر منه آخر الأمر من ميل إلى المزدكية ، كل هذا يربطه حمزة بالزعم القائل باستيلاء الحارث على السلطة بدولة اللخميين . وبانتصار خسرو على أنصار المزدكية أصبح المنذر اللخمي من جديد ملكاً ، فاستعاد سلطانه على الحيرة وأرجع العرش إلى هذه الأسرة الحاكمة مما عالجنا عنه الحديث بالتفصيل في الفصل المفرد لتاريخ اللخميين .

142 وعلى ما يذكره هشام الذي يستقي مادته هنا وفي عدد من الحالات الأخرى عن أبيه فإن اسم الحارث بن عمرو بن حجر لا يرد ذكره في قائمة ملوك الحيرة . ووجود سجل بأسماء ملوك الحيرة ثابت لدى عدد من المصادر . ولكن اسم الحارث لا يرد به ، وهو أمر جدّ ممكن ؛ ذلك أن عرش الحيرة قد انتزع من المنذر بن امرىء القيس الذي لم يلبث أن استعاده فيما بعد فأزيل اسم المغتصب من قبيلة كندة من هذا السجل[٧٠] .

---

(٦٦) Hamza Ispahanensis, Annales, ed. I.M.F. Gottwaldt, Petropoli, Lipsiae, 1844, t. I, p. 140; G. Olinder, The Kings of Kinda, pp. 47, 50.

(٦٧) G. Olinder, The Kings of Kinda, p. 55.

(٦٨) Hamza Ispahanensis, Annales, I, p. 140.

* ومما يؤكد اتساع ملك الحارث قول أحد أقاربه وهو الشاعر المشهور امرؤ القيس :

أبعد الحارث الملك ابن عمرو ... له ملك العراق إلى عُمان

مجاورة بني شمخي بن جرم ... هواناً ما أُتيح من الهوان

ـ المترجم .

(٦٩) شرحه ، ١ ، ص ١٠٧

(٧٠) شرحه ، ص ١٠٧ ـ ١٠٨ .

ولمّا تعقب المنذر الحارث لاذ هذا بالفرار ، كما أن أولاده تقاتلوا فيما بينهم مما أدّى إلى زوال سلطان ملوك كندة فانتقلت السيادة إلى أسرة جبلة بن عدي بن ربيعة بن معاوية . وجبلة هذا معروف لدى المصادر البيزنطية ؛ وتذكر الحوليات بعده ابنه معد يكرب وحفيده قيساً .[٧١] . ويورد الطبري أخبارهم بتفصيل أكثر حمل في الغالب طابعاً أسطورياً ، وهو أيضاً يرجع في ذلك إلى هشام . ويستفاد منه أن الحارث بن حجر الكندي إنما هو ابن أخت لتُبّع ، وكان تُبّع قد أرسله بجيش جرار إلى بلاد معد وإلى الحيرة والمناطق القريبة منها ، فهزم الحارثُ النعمانَ بن امرىء القيس ابن الشقيقة وقتله هو وسائر أفراد أسرته وانتزع ملكه ؛ ولم يبق منهم على قيد الحياة سوى المنذر بن النعمان . ومن ثم فإن انتصار الحارث وفقاً لرواية الطبري[٧٢] إنما كان انتصاراً على النعمان لا على المنذر . ويمكن إثبات وقوع قسم من هذه المناطق تحت سيطرة الحارث لأنه تسلم العون من قباد خلال فترة الاضطرابات المزدكية ؛ أما القسم الآخر من تلك المناطق فقد ظل تحت سلطان اللخميين الذين كان ملكهم المنذر بن النعمان . وليست بمجهولة من المصادر العربية تلك الحملة التي قام بها الحارث على الحيرة وما صحبها من انتهاب مريع على يده . كذلك فإن غارة ثعلبة معلومة لدى المصادر السريانية التي تردّها إلى عام ٥٠٣ . وبضعف حركة المزدكية تدهور وضع الحارث ، بينما أخذ سلطان المنذر في الصعود . أما النهاية الدامية لهذا الوضع فقد جرت عام ٥٢٨ حين أدى الاحتكاك بين الكنديين واللخميين إلى عمليات عسكرية شاركت فيها جماعات من مختلف القبائل العربية ، بل والقوات البيزنطية كذلك .

143 وخلال هذه الأحداث كان الحارث ملك الكنديين قد أصبح فيلارخاً للروم وبهذا ألقيت على عاتقه مهمة حراسة الحدود البيزنطية . غير أنه جدّت أحداث اهتز لها وضع الحارث ، فقد استحكم العداء بينه وبين السيلنسيار ديوميدوس Diomedus القائد العسكري (دوكس) لفلسطين . ولخشيته من القائد البيزنطي فإن الحارث ، أو آرثه الحوليات البيزنطية « ابتعد صوب الحدود الداخلية إلى إنديكا »[٧٣] ؛ ومن المعلوم أن « إنديكا » Indika أو « إنديا » India لدى ملاله وغيره من المؤلفين البيزنطيين لذلك العهد لا تعني الهند بذاتها بل تعني مناطق الجزيرة العربية وعلى وجه التحديد بلاد العرب الجنوبية . ولمّا لم يعد للحارث وضع ثابت بالعراق ، وأنه وجد نفسه فوق ذلك في عداء مع قائد القوات بفلسطين « فتح طريقه بحدّ السيف » فاجتاز « الحدود الداخلية » ، أي حدود الدولة البيزنطية ، متوجهاً إلى إنديكا أي إلى أعماق الجزيرة العربية . ونظراً لأن دولة كندة كانت تحتل المناطق الوسطى لبلاد العرب حيث دخل في تكوينها قبائل من كندة ومن معد فإنه يسهل تبيّن السبب في توجّه الحارث إلى تلك المناطق النائية بالذات حيث كان باستطاعته أن يجد بها العون

---

(٧١) شرحه ، ص ١٤١

(٧٢) Nöldeke-Tabari, Geschichte der Perser und Araber zur Zeit der Sassaniden. Aus arabischen Chronik des Tabari, -Leyden.1879, p. 148 حيث يلاحظ نولدكه خطأ في نسب النعمان (ص ١٤٨ ، الحاشية ٢) .

(٧٣) Malalas, Chronographia, p. 434.

والمؤازرة . ويبدو أن المنذر اللخمي لم يتوقف عن تعقب عدوه ؛ وكان على علم بهذه الأحداث « فانقضّ المنذر من سراقيني الفرس على فيلارخ الروم وقبض عليه وقتله » كما يقول ملاله[٧٤] .

وكان من أثر تزايد جيش المنذر ونموّه أن دفع هذا الامبراطور يوسطنيان إلى اتخاذ اجراءات عاجلة . فصدرت الأوامر إلى قادة القوات البيزنطية بالشرق الأدنى في ولايات فينيقية وعرابية وأرض الجزيرة والفراتية Euphratesia بالتحرك فوراً ضده ؛ كذلك شارك في هذه الحملة فيلارخات العرب . أما عن الخلاف الذي نشب مجدّداً في الآونة الأخيرة حول لقب « فيلارخ » فإن متن ملاله في هذا الموضع يكتسب أهمية خاصة ، إذ يرد فيه أسماء بعض الفيلارخات ، كما أنه يشير إلى أن يوسطنيان قد أصدر أوامره بالهجوم إلى « فيلارخات المقاطعات » وهم « الفيلارخ آرثه وجنف ونآمان » . فإذا كان « الفيلارخ آرثه » الذي قتله المنذر إنما هو الحارث بن عمرو الكندي ، فإن الثاني الذي يشار إليه أيضاً باسم « الفيلارخ آرثه » والذي شارك في القتال ضد المنذر إنما كان آرثه الغسّاني أي ابن جبلة[٧٥] وهذا يعني أن الغساسنة كانوا قد دخلوا في علاقات مع بيزنطة . ولقد أعطت « نهاية سليح » ، أي الضجاعمة ، الفرصة للغساسنة ليوطّدوا الأمر لأنفسهم منذ بداية القرن السادس ، كما أن الضعف الذي أصاب أقوى ممثلي كندة وما تلاه من مصرعه على يد اللخمي ، كل هذا قد فتح أمامهم الطريق الآن لبسط نفوذهم .

144

وقد اتسم تنظيم بيزنطة « لمناطق الحدود بينها وبين البرابرة » بطابعه الخاص به ؛ فهي لم تتعرض للتركيب القبلي وكأنما جهدت فقط في السيطرة عليه سيطرة محدودة . ويبدو جلياً مما ورد في متن ملاله أن منصب الفيلارخية قد شغله أكثر من واحد ، كانوا جميعاً فيلارخات على الإيبارخيات* eparchies (المقاطعات) . ومن الواضح أن جنف ونآمان اللذين ورد اسماهما بعد اسم « الفيلارخ آرثه » إنما يدخلان في عداد فيلارخات المقاطعات[٧٦] ؛ ويمكن الافتراض بأنهما من أقرباء الغساسنة أو المنحدرين من عشيرتهم . ومما لا ريب فيه أن آرثه قد احتل مكانة خاصة بين الفيلارخات ولذا ورد اسمه في المقدمة ، إلاّ أنه لم يشغل أي وضع استثنائي بل بلغ ذلك الوضع فيما بعد . وأما عن الحالة التي نعالج الكلام عليها فهو لم يعدُ أنْ يكونَ واحداً بين عدد من الفيلارخات .

وفيما يتعلق بتاريخ كندة وطبيعة الوضع الذي شغلوه في تاريخ الشرق الأدنى فإن الرقوم السبئية تقدم مادة جديدة في هذا الصدد . وقد سبق أن عرضنا في الفصل المفرد لتاريخ اللخميين للرقيم Ry 510 الذي يرجع تاريخه إلى عام ٥١٦ للميلاد والذي عثر عليه بوادي مأسل . والأقرب إلى الصواب أن يُحمل هذا الرقيم على أنه

---

(٧٤) شرحه

(٧٥) Th. Nöldeke, Die Ghassanischen Fürsten..p.10-11; N. Pigulevskia, Vizantia na putiakh v Indiu, str.322; I. Kawar, The Last Days of Salih, p. 153.

* فضلنا كتابة هذا اللفظ اليوناني في صورة «الإيبارخيات» ، تاركين الصورة الأكثر استعمالا في العربية وهي « الأبرشيات » لتعنى المقاطعات الكنسية - المترجم .

(٧٦) Malalas, Chronographia, p. 435.

شاهد على النزاع الذي نشب بين المملكتين الشمالية والجنوبية واللتين كان على رأسيهما كل من المنذر الثالث ملك الحيرة ومعد يكرب ملك حمير . وهذا الرقيم الذي نقش بأمر من معد يكرب يذكر إلى جانب قبائل سبأ وحمير ورحبتن وحضرموت ، أيضاً « أعرابهم » أي الرحّل من كندة ومذحج « ومعهم بنو ثعلبة »(٧٧) . وعلى ما أسلفنا في هذا الكتاب فإن الكنديين قد أقاموا لهم دولة بالمناطق الوسطى من الجزيرة العربية ؛ كذلك ثبت ممثلو البيت الحاكم من هذه القبيلة أقدامهم في فينيقون وجزيرة يوتابه وسواحل خليج العقبة عند حدود بيزنطة مباشرة ، ودخلوا في عداء مع اللخميين . وكان بنو ثعلبة وهم من أقرباء كندة في عداء مكشوف مع اللخميين حتى أنهم شاركوا في القتال إلى جانب بيزنطة في حرب عام ٥٠٣ وهاجموا الحيرة في غيبة المنذر وانتهبوها . أما كندة في أواسط الجزيرة فقد حافظوا على صلاتهم مع حمير ، خاصة وأن شطراً من قبائلهم ظل مقيماً كسابق عهدهم بالجنوب العربي بل إنهم أسهموا جنباً إلى جنب مع الحميريين في حملاتهم العسكرية كما جاء في الرقيم . والرقيم المذكور أي Ry 510 يشير إلى الكنديين بوصفهم حلفاء لمعد يكرب(٧٨) ملك حمير ؛ وهو ذات الملك الذي قدمت له الشهيدة رومي القروض(٧٩) .

وقد خرج ملك حمير في حملته تسانده قبائله (ب ء ش ع ب هـ م و) ، التي يرد من بينها أسماء سبأ وحمير ورحبتن وحضرموت . وأسماء هذه الجماعات (ش ع ب) تتفق مع الأسماء الجغرافية للمناطق المختلفة من الجنوب العربي . وتلا هذا في الرقيم / إشارة خاصة إلى مجموعة أخرى من جنده : « ومعه [أي الملك] أعرابه » و ب ع م / ء ع ر ب هـ م و . ولفظ « الأعراب في الرقيم يترجمه الباحثون عادة بكلمة « البدو » ، بهدف إثبات أن المعنيين في مثل هذه الحالات ضرب آخر من السكان هم الرحّل . وإلى « البدو » ينسب الرقيم كندة ومذحج « ومعهم بنو ثعلبة » . وهذا القسم من جيش معد يكرب يرد تحت الأسماء القبلية التي لا علاقة لها بالمسمّيات الجغرافية كما هو الحال مع لفظ ش ع ب ، مما ينهض دليلاً إضافياً على أن أسلوب حياتهم كان بدوياً أو ما يشبه البدوي .

وكانت كندة في عداء مكشوف مع اللخميين بالمناطق المتاخمة للأراضي البيزنطية . كما يرد ذكر مذحج غير مرة مع كندة ، ليس في هذا الرقيم وحده فحسب بل وفي الرقيم Ry 508 حيث يذكران معاً في السطر السابع منه . وقد التقى مطران السريان بعرب قبيلة مذحج في معسكر المنذر الثالث اللخمي عام ٥٢٤ . أما عن بني ثعلبة (وهكذا يجب قراءة الاسم وليس « ثُلبات »؛ لأنها تكتب بحرف العين في كل من المصادر السبئية والسريانية) فهم بذاتهم بنو ثعلبة الوارد ذكرهم في الحوليات السريانية والذين قاتلوا ضد اللخميين . وكانت كندة ومذحج وبنو ثعلبة يؤلفون مجموعة القبائل العربية المتحالفة مع حمير .

145

(٧٧) G. Ryckmans. Inscriptions sud-arabes. 10ème série. Le Muséon. 1953. v. 66. f. 3-4. Ry 510, pp. 307 - 310.

(٧٨) H. Wissmann und M. Höfner. Beiträge zur historischen Geographie....., p. 120.

(٧٩) The Book of Himyarites. ed. A. Moberg, Lund. 1924, pp. 43 - 44 a.

وفي الربع الأول من القرن السادس طمعت دولة حمير في الحصول على الزعامة ببلاد العرب الوسطى وكانت مجموعة القبائل التي هاجر قسم منها إلى الشمال وراء حدود الجزيرة العربية ما تزال محتفظة بعلاقاتها مع القسم الأكبر للقبائل بالجنوب . ولا يرد ذكر لأسماء العرب المعادين ع ر ب ن الذين وُجهّت ضدهم حملة معد يكرب ، غير أن واقعة أن المنذر بذاته هو الذي عقد الصلح معهم (السطر الثامن) لا يترك مجالاً للشك في أن خصوم حمير هؤلاء إنما كانوا أحلافاً للمنذر . وشهرذي قيظان من عام ٦٣١ الوارد ذكره بالرقيم يمكن أن يتوافق مع العام ٥١٦ للميلاد .

ومع استمرار العداء بين اللخميين وكندة فإن اللخميين لم يطْرحوا بطبيعة الحال فكرة إخضاع بلاد العرب ، خاصة وأنهم بهذا سيوجهون ضربة لحمير وجانباً منها لبيزنطة ؛ وسيثيرون بذلك القلق حول أمن طرق التجارة . وكان الحارث بن عمرو قد شغل في هذه الأعوام بالذات مكانة بارزة على حدود الدولة البيزنطية ودعّم سلطانه بمقره في مدينة الأنبار بالعراق . وقد أعان الوضع العام للحركة المزدكية بايران على أن يحصل الحارث على مساندة الشاه قباد ؛ وأدّى هذا بطبيعة الحال إلى تحرك مضاد من جانب المنذر المتطلّع دائماً إلى القتال . وكان حادث عام ٥١٦ ببلاد العرب ثمرة من ثمرات هذا الصراع .

وفي الربع الأول من القرن السادس كانت دولة الكنديين التي تأسست منذ منتصف القرن الخامس تضم عدداً من القبائل العربية ومن بينها أقواها جميعاً وهي قبيلة معد التي استقرت بوسط الجزيرة العربية منذ عهود بعيدة . والملوك من كندة الذين كانوا على رأس هذه الدولة ربطتهم صلة الرحم بملوك حمير ، بل واستظلوا بحمايتهم . غير أن هذا الوضع أخذ في التغيّر شيئاً فشيئاً ، ففي عام ٥١٦ (عام رقيم Ry 510) أنزل المنذر بهذه الدولة ضربة قاصمة قضت عليها . ويبدو أن / هذا الأمر لم يتطلب قتالاً ؛ وكل ما هنالك أن اللخميين قد عقدوا صلحاً مع قبائل وسط الجزيرة بسبب ما لاح لهم من خطر ماثل من جيش معد يكرب . وبذا فإن الكنديين وقبائل مذحج دخلوا في عام ٥١٦ ضمن قوات معديكرب . وبعد عامين من ذلك حدثت الحملة على نجران التي قام بها يوسف أسأر المعروف باسم ذي نواس ملك حمير والذي اشتهر بتعذيبه للنصارى . ويشهد بهذا رقيمان أحدهما (وهو الرقيم Ry 508) عثر عليه بناحية كوكب التي تقع على مسافة ستين ومائة كيلومتر إلى الشمال الشرقي من نجران ؛ والآخر (وهو الرقيم Ry 507) عثر عليه عند الحمّة على مسافة خمس وثمانين كيلو متر إلى الشمال الشرقي من نجران أيضاً[٨٠] . وكلا الرقيمين يرجع تاريخهما إلى عام ٦٣٣ من التقويم الحميري الموافق لعام ٥١٨ للميلاد ؛ وكلاهما يتناول بالحديث الحملات على نجران وظفار . وكان قائد إحدى الكتائب في هذه الحملات هو شراحيل ذويزن الذي نصب الرقيم Ry 507 (السطر التاسع) . ويرد في الرقيم Ry 508

146

(٨٠) G. Ryckmans, Inscriptions sud-arabes. Ry 507 - 444. Ry 508, Le Muséon, 1953, t. 66, f. 3 - 4, pp. 284, 294; J. Ryckmans, Inscriptions historiques, Le Muséon, 1953, t. 66, f 3-4, pp. 330 - 331; W. Caskel, Entdeckungen in Arabien. Arbeitsgemeinschaft für Forschung des Landes Nordrhein-Westfalen, 1954, H. 30, p. 13.

الكلام عن أعمال ولده شراحيل يقبول الذي التحم في قتال ضد القوات الأثيوبية بظفار . وقد شاركت مع شراحيل قبائل همدان و « الأعراب » ، أي البدو من كندة ومراد ومذحج (Ry 508 ، السطر السابع)[٨١] . وقبائل مذحج هذه معروفة ، وقد ورد ذكرهم فيما سبق مقروناً مع كندة ؛ كذلك ورد ذكرهم ببلاد العرب الشمالية . وهم من حيث الأصل ينتمون إلى قتبان ، ولكن قسماً منهم كما فعلت كندة قد هاجر إلى شمال الجزيرة العربية . وقد كان بعضهم حضراً والآخر منهم من البدو الرحّل ؛ أما الذين أخذوا منهم طرفاً في حملة شراحيل فقد كانوا من القبائل المقيمة بالجنوب العربي .

وكانت الضربة القاضية على مستقبل الكنديين كحقيقة واقعة هي فُقْدانهم لوضعهم بالعراق عقب القضاء على زعماء الحركة المزدكية وطرد الحارث بن عمرو على يد المنذر . كذلك فإن النزاع الذي نشب بين زعيمهم و قائد قوات فلسطين أطلق يد اللخميين حتى لم يعد الفرار يجديه فتيلا ، فقد لحق به هؤلاء وقتلوه . وقد ترك هذا الحادث الذي وقع عام ٥٢٨ أثره على المصير العام لكندة ، وإن لم يحل دون مشاركة أفراد منها في الحياة السياسية بالشرق الأدنى . وكان الصدام الذي وقع بين شرحبيل وسلمة ابني الحارث هو السبب في زوال ملكهم ؛ وهو ذلك الصدام الذي حفلت الروايات العربية المتواترة بأخباره . ويعرف هذا الصدام في «أيام العرب» باسم «يوم الكُلاب»* ؛ وكان يقف إلى جانب شرحبيل قسم من حنظلة وتميم فوصل بهم إلى الموضع المسمى بالكُلاب والذي يجدر البحث عنه بين الكوفة والبصرة . وإلى هذا الموضع وفد كذلك سلمة بقبائل تغلب وأبعاض من تميم وحنظلة[٨٢] . وعلى الرغم من أن الأخبار عن « أيام العرب » تحظى بدرجة ما من الثقة ، إلاّ أنه / ينبغي على الباحثين أن يقفوا منها موقف النقد لأن تفاصيلها تحمل طابعاً أسطورياً ؛ أضف إلى هذا أن « الأخبار » بوجه عام تتطلب تقصّياً دقيقا[٨٣] . وواقعة يوم الكُلاب يجب الرجوع بها إلى عام ٥٣٠ ، وهو ما يوائم الوضع العام لكندة في أعقاب موت الحارث . كما يتواءم أيضاً مع الحقيقة القائلة بأن حرب البسوس التي ظلت مشتعلة لأربعين عاماً قد اندلعت حوالي عام ٤٩٠[٨٤] . وكان سلمة هو المنتصر بيوم الكُلاب . وكان مسرح الأحداث الأولى لهذه الحرب الطويلة بين قبيلتي بكر وتغلب هي اليمامة والمناطق الجنوبية الشرقية من نجد . أما فصولها الأخيرة فقد وقعت عند حدود العراق ، مما يقف دليلاً على انتقال هذه القبائل وهجرتها إلى المناطق الشمالية الشرقية لبلاد العرب وإلى أرض الجزيرة .

14

(٨١) J. Ryckmans, Inscriptions historiques, pp. 329, 338; H. Wissmann und M. Höfner, Beiträge zur historischen Geographie Süd-Arabiens, p. 120.

* وإلى كل هذه الأحداث يشير بيتا امرىء القيس :

وأعلم أنني عمّا قليل ... سأنشب في شباظفر وناب

كما لاقى أبي حجر وجدي ... ولا أنسى قتيلاً بالكلاب

ـ المترجم .

(٨٢) G. Olinder, The Kings of Kinda, p. 82.

(٨٣) W. Caskel, Die einheimischen Quellen zur Geschichte Nord-Arabiens vor dem Islam. Islamica, 1923, t. 3, f. 3, pp. 334 - 335; C.J. Lyall, Translations of Ancient Arabian Poetry. New York, 1930, pp. XLIV - XLV, 103 - 106.

(٨٤) G. Olinder, The Kings of Kinda, pp. 91 - 92; W. Caskel, Die einheimischen Quellen...., p. 339.

ويرتبط نشاط قيس بن سلمة ارتباطاً وثيقاً بسياسة بيزنطة ، مما اضطرنا إلى أن نفرد فصلاً بحاله من بحثنا هذا للأحداث التي شارك فيها . أما الرواية العربية فإنها لم تحفظ سوى حكاية واحدة مفادها أن قيساً بن سلمة بن الحارث قد طُرد من قصر الخورنق المشهور بالحيرة على يد المنذر الثالث اللخمي(٨٥) . وإن ما أبدته بيزنطة من قلق بصدد قيس و « فيلارخيته » بوسط جزيرة العرب ليقف شاهداً على الأهمية التي ا كتسبتها دولة كندة هذه . وكانت حلقتها الضعيفة هي قبائل معد الذين كشفوا عن ميول انفصالية وكانوا أكثر من غيرهم نزوعاً إلى شق عصا الطاعة .

ولقد حافظت كندة على وضعها بالجنوب العربي حيث تم تنصيب يزيد بن كبشة عاملاً « على كدّت » ، أي كندة(٨٦) ، على يد أبرهة . وهناك أساس قوي للافتراض بأن يزيد هذا كان من بيت ملوك كندة الذين كانت تربطهم كما هو معلوم صلة الرحم بملوك حمير . ورغماً من أن يزيد قد نصّبه ابرهة ، الاّ أنه ارتبط بصلة القرابة بالبيت المالك القديم بينما كان ابرهة « غريباً » ومغتصباً للعرش . هذا من جهة ؛ ومن جهة أخرى فقد وُجدت بحمير تيارات معاكسة لسياسة ابرهة تدور في محور ايران وتتطلع إلى الانفصال والاستقلال . ولم يلبث يزيد أن قلب ظهر المجن لأبرهة وثار عليه في عام ٥٤٢ . وفي رقيم مأرب المشهور CIH 541 يرد معه جنباً إلى جنب أسماء زعماء البيوتات الكبيرة الأخرى ، وكانوا جميعاً ينتمون إلى الطبقة العليا الحاكمة . وقد اعتمد يزيد بن كبشة على قبائل كندة الذين كانوا يؤلفون حلفاً من عدة قبائل ويكونون وحدة حكومية في المناطق الشرقية من / الجنوب العربي(٨٧) . وثارت القبائل مع زعمائها إلاّ أن أبرهة استطاع أن يقمع العصيان وأن يصل إلى المصالحة مع زعماء الحركة مستعملاً القوة أحياناً والسلم أحياناً أُخر . أما القسم الآخر من « الأقيال » (الأمراء) فقد « جنحوا إلى السلم » . وفي الوقت الذي تم فيه نصب رقيم سد مأرب عام ٥٤٣ كانت حمير بأجمعها قد عاد إليها الهدوء والسكينة(٨٨) . ومن الجوهري أن نلاحظ هنا أن الثورة قد تركزت في يد زعيم كندي وفي اتحاد للقبائل الخاضعة له ؛ وفوق هذا فإن الرقيم يشير إليه بوصفه « عامله » ـ خ ل ف ت هـ (« خليفته ») ، أي عامل ابرهة على كنده . ومن هذا يتبينّ أن هذه القبائل ظلت متمتعة بالأهمية الكبرى حتى الأربعينات من القرن السادس . وعلى عكس ذلك كان مصير أولئك الكنديين الذين حلّوا بوسط العربية وفي الشمال على حدود سورية وأرض الجزيرة خلال الثلاثينات والأربعينات من القرن نفسه .

148

وتوجد بالمصادر مادة وفيرة بصدد الكندي امرىء القيس (امورقس المصادر البيزنطية) وكذلك عن فينيقون ، كما توفرت المعلومات عن كندي آخر هو قيس الذي أُستُدعَى من نجد ليتولى منصب الفيلارخ « على عرب البطرا » التابعين لبيزنطة . وقد أوردتُ كافة التفاصيل في الفصل الخاص بهذا ، ولذا سأكتفي هنا

(٨٥) Jacuts geographisches Wörterbuch. ed. F. Wüstenfeld. Bd. II, Leipzig. 1867, p. 648.

(٨٦) N. Pigulevskia. Vizantia na putiakh v Indiu. str. 319 - 320.

(٨٧) H. Wissman und M. Höfner. Beiträge zur historischen Geographie ..., p. 121.

(٨٨) Corpus inscriptionum himyariticarum. t. II. f. 3. Parisiis. 1920, pp. 279 - 280, 293 - 294.

بالإشارة إلى الرباط الوثيق الذي جمع بين قبائل كندة في جميع المناطق التي حلّوا بها سواء بداخل الجزيرة العربية أو بأقطار الشرق الأدنى . وكانت القبائل الخاضعة لبيتهم الممالك والاتحادات الحكومية التي أقاموها يسند بعضها بعضاً إلى حد ، وإن لم تصل الحال في أي وقت من الأوقات إلى ظهور تنظيم عضوي متماسك مثلما كان عليه الحال مع مملكة الحيرة . وقد أدّى مصرع الحارث بن عمرو في عام ٥٢٨ إلى إضعاف شوكة الكنديين في الشمال ، الأمر الذي لم يتوان الغساسنة في استغلاله لمصلحتهم خاصة وأنهم كانوا يطمعون منذ بعض الوقت في أن يحلوا مكانهم كحلفاء لبيزنطة . وكان التوفيق حليف الغساسنة في هذا لأنّ منطقة البطرا وسواحل خليج العقبة وجزيرة يوتابه لم تلبث أن تحولت إلى يد الغساني أبي كرب بن جبله ، أخي الحارث (آرثه) ، وذلك قبل عام ٥٤٣ وهو عام رقيم مأرب الذي ورد فيه الكلام عن سفارة الأخوين إلى أبرْهة .

وثمة شهادة تشير في وضوح أكثر إلى ما طرأ على وضع الكنديّين من ضعف بنجد أيضا ، نلتقي بها في الرقوم السبئية وكذلك في رقيم عام ٥٤٧ (Ry 506) الذي ترجمه وعلّق عليه المتخصصون أكثر من مرة . وهذا الرقيم تم العثور عليه عند بئر مريغان الواقعة بمعزل من الدروب المطروقة التي تصل اليمن بمكة(٨٩) . ويتبيّن من هذا الرقيم أن ابرهة ملك حمير قد جرّد حملة ضد قبائل معدّ التي شقّت عصا الطاعة ، وكذلك على « بني عامر » . ذلك أن معداً لم تعد في ذلك الحين خاضعة لكندة بل أنها خرجت من دائرة نفوذ بلاد العرب الجنوبية . أما الكلام عن « ثورة » لهم ضد / حمير فأمر يمكن قبوله تجوّزاً ، ذلك أن متن الرقيم يبيّن في وضوح أن مصير بني معد كان في يد اللخميين الذين نصبوا عليهم العمّال وأجْرَوْا المفاوضات باسمهم . ودولة كندة التي كما نعلم قد أسسها حجر آكل المرار وخلفه على حكمها أهل بيته ، لم يعد لها وجود في الأربعينات من ذلك القرن . ونتيجة لسقوطها فإن القبائل التي كانت داخلة فيها قد اضطرت إلى ربط مصيرها بدول أخرى ؛ مثال ذلك أن قبائل معد القوية انحازت إلى اللخميين . وفي عام ٥٤٧ (الرقيم Ry 506) توجهت القوات الرئيسية لعرب الجنوب التي انضوت تحت لواء أبرهة ضد معدّ الذين منوا بالهزيمة عند حَلَبان . وكانت كندة ومعها سعد هما قوام جند حمير الذين ارسلوا للقتال ضد « بني عامر » ، وكان قائد جيش كندة في هذه الحملة هو أبو جبر ؛ ووفقاً للتقاليد المرعية في بناء الجيوش القبلية فقد كان هو نفسه من كندة وهذا يتسق مع اسمه الذي كان من الأسماء المعهودة في قبيلتهم . أما خضوع معد للخميين فأمر لا يرقى إليه الشك(٩٠) لأن عمراً بن المنذر وابن هند ، والذي أصبح فيما بعد ملكاً للحيرة كان « خليفة » أي عاملاً للخميين على معد (السطر الثامن من الرقيم س ت خ ل ف هـ و ، وهو مشتق من خ ل ف) . وكان ضد معد بالذات أن أرسلت وحدات من كندة ؛ ويمكن القول بأنهم كانوا يتطلعون إلى معاقبتهم واستعادة سلطانهم القديم عليهم . وبالنظر إلى ما

149

(٨٩) G. Ryckmans. Inscription sud-arabes. Ry 506. Le Muséon, 1953, t. 66, f. 3-4 . pp. 275-284 . راجع الكلام بالتفصيل عن هذا الرقيم في الفصل المعقود للخميين من كتابنا هذا .

(٩٠) N. Pigulevskia. Vizantia na putiakh v Indiu. str. 295.

أحرزه ملك حمير وحلفاؤه من نصر فقد أُرغم اللخميون على تقديم الرهائن كضمان لحمير بعدم حدوث غارات جديدة من وسط الجزيرة العربية ؛ وقام بتنفيذ ذلك عمرو بن المنذر[٩١] . من كل هذا يتبيّن أن الكنديين كانوا بمثابة حلفاء في جيوش حمير عام ٥٤٧ ، بل إنهم اشتركوا حتى إلى ما قبل هذا في حملة ضد نجران مع قوات شرحبيل يكمل في عام ٥١٨ ؛ وهي الحملة التي كان قد أرسل بها مضطهد النصارى الملك يوسف أسأر المعروف في المصادر السريانية باسم مسروق[٩٢] . وإذا ما أخذنا بقول الهمداني فإن كندة تحركت من وسط الجزيرة ومن المناطق الشرقية صوب حضرموت في عدد يتجاوز الثلاثين ألفاً . وبعد انتصارهم أسسوا لأنفسهم « دولة جديدة بحضرموت » ؛ وكانت هذه الجموع تمثل « الموجتين الأخيرتين لهجراتهم » .[٩٣]

ومن الأهمية بمكان أن نحدّد على وجه الدقة المسألة المتعلقة بوضع كندة في الجنوب العربي الذي خرجوا منه / في بادىء الأمر ؛ وليس لهذا فحسب بل ولأن جماعات كبيرة منهم ظلت مقيمة به ومحتفظة باستقلالها . 150 وحتى بعد اقتحامهم للمناطق الوسطى من الجزيرة العربية وتأسيسهم لدولة بها في منتصف القرن الخامس فإنهم لم يفصموا العرى التي كانت تربطهم ببني عمومتهم الذين ظلوا يقيمون بالجنوب ، كما أنهم لم يستغنوا عن مؤازرة ملوك حمير لهم . وخلال تحركهم تجاه الشمال والشمال الغربي والشمال الشرقي حقق الكنديون لأنفسهم وضعاً متميزاً بوصفهم حلفاء لبيزنطة وهدّدوا بذلك وضع اللخميين ؛ بل إنهم في غضون فرصة مواتية لهم عملوا على تثبيت أقدامهم عند حدود ايران داخل أراضي الحيرة نفسها . ولهذا ارتبطت باسم ملوك كندة في القرنين الخامس والسادس أبعاد شاسعة من الشرق الأدنى تذكّر بامتداد دولة الإسلام في القرون التالية لذلك . ويرد ذكر قبائل كندة كذلك بحضرموت ونجد ؛ كما استحوذ ملوك كندة على منطقة فينيقون الواقعة بالقسم الشمالي الغربي من جزيرة العرب ، وعلى شبه جزيرة سيناء أو قسم منها ، وكذلك على جزيرة يوتابه . كما أن الفيلارخات من البيت الحاكم لكندة كانوا يديرون شئون « أعراب المخيمات » في ولايتي فلسطين الثانية والثالثة ، وقد أعانهم بنو عمومتهم من ثعلبة بصدهم لغارات اللخميين بأرض الجزيرة . غير أن انتشار كندة هذا الواسع لا يعطي الحق في الحديث عن دولة للكنديين ذات حدود جغرافية معيّنة . ذلك أن المسألة المتعلقة بقبائل كندة يحيط بها الكثير من الغموض وترتبط بمرحلة معيّنة من مراحل التطور الاجتماعي للقبائل العربية وبظهور الأحلاف القبلية .

وإن ما قدّمناه حتى الآن من مادة حول الكنديين من شأنها أن تدلل على أنه وُجد بحضرموت ونجد عدد كبير من قبائل كندة أو ممن ارتبط معهم بصلات الأرحام . ويمكن أن نستخلص من مادة المصادر أن العرب

(٩١) J. Ryckmans, Inscriptions sabéennes de l'Arabie centrale. Le Muséon. 1953. t. 66. f. 34. pp. 339 - 342; W. Caskel. Entdeckungen in Arabien ..., pp. 28 - 30; A.F.L. Beeston. Notes on the Muraighan Inscription, BSOAS. 1954, v. 16, part 2. pp. 389 - 392; F. Altheim. R. Stiehl. Fananzgeschichte der Spätantike , Frankfurt am Main. 1957. pp. 144 - 145; A.G. Lundin. Iujnia Aravia v VI v..L.. 1968. str. 74; B. Rubin, Das Zeitalter Justinians. Berlin. 1960. p. 318.

(٩٢) G. Ryckmans. Inscriptions sud-arabes. Ry 507, Ry 508. Le Muséon. 1953. t. 66. f. 3 - 4. pp. 287. 289. 298.

(٩٣) H. Wissmann und M. Höfner. Beiträge zur historischen Geographie....., p. 121.

الذي خضعوا لكندة قد احتفظوا بقدر معيّن من الاستقلال ، وهو أمر لم يكن في الوسع تجنبه في ظروف النظام القبلي حيث كان على رأس كل قبيلة شيخها أو زعيمها . وينطبق هذا بصورة واضحة على بني معد الذين وإن دانوا بالتبعية للكنديين ثم فيما بعد للخميين ، إلاّ أن اسم قبيلتهم يرد منفرداً في الرقوم وفي المصادر المكتوبة . وقد احتفظوا باسمهم واستمسكوا بالنظام العسكري القبلي المتبع آنذاك ، فكان لهم زعيمهم الذي يقودهم في المعركة . ورغماً من هذا فقد وجدت حالات تناقضت مع هذا الوضع ، من ذلك أنه في عام ٥٤٧ (الرقيم Ry 506) نصّب ابرهةُ على رأس « كدّت » شخصاً يدعى ابجبر . ويغلب أنْ يكون كندياً ، غير أن الرقيم يحدّد بصورة خاصة أن تنصيبه (و ذ ك و) على كندة (ب ء م / ك د ت) قد تم على يد ابرهة ؛ ومن ثم يمكن القول افتراضاً بأنه لم يكن قائدهم المألوف . ولعله كان كندياً ولكن ابرهة اختصه بالقيادة ؛ وقد يكون من قبيلة أخرى ولكن تم تعيينه قائداً لتلك الوحدات . وفي كلتا الحالتين فإن هذا التعيين كان تعييناً خاصاً حدّده الرقيم بوضوح . وأقوال الهمداني التي سقناها قبل قليل بصدد هجرة كندة إلى حضر موت تشهد على أن عددهم كان غفيراً بوسط الجزيرة وغربيها . ولقد حفظت القبائل أنسابها كما حفظت أسماء زعمائها وملوكها ، ومن ثم فليس هناك مجالٌ مطلقاً للافتراض بأن دولة كندة / الاتحادية بوسط الجزيرة العربية قد كوّنت حكومة واحدة مع بني عمومتها الذين ظلوا مقيمين بالجنوب العربي . وليس بعيداً أن يكون هؤلاء الأخيرون قد شكّلوا أحلافاً قبلية منفصلة خضعت لحمير أو اعترفت بالتبعية لها حيناً من الوقت . 151

وإذ نذكّر القارىء مرة أخرى بأن تاريخ أقصى مناطق الشرق الأدنى إلى الغرب والتي برز فيها الكنديون وحكموا قد تناولنا الكلام عنها في موضعها الخاص بها وحيث بُحث مصير فينيقون [أرض النخيل] وجزيرة يوتابه ، علينا الآن أن نوجه انتباهنا إلى الحرب الأهلية بين قبائل كندة ذاتها والتي وإن انتهت بانتصار سلمة إلاّ أنها ساقت إلى انهيار مملكة كندة السابقة فلم يبق منها سوى أنقاض .

امرؤ القيس ، الملك والشاعر الطريد

ولقد قام أصغر أولاد حُجْر وهو امرؤ القيس حفيد الحارث بمحاولات لجمع شتات مملكة كندة الممزقة . وامرؤ القيس الذي يعد من أكبر شعراء العرب قبل الإسلام ، تسمح لنا أشعاره بتتبع سيرة حياته . وإذا كان شطر من تفاصيلها يتسم بطابع شخصي محض ، إلاّ أن له من القصائد ما يعين مضمونها على إلقاء الضوء على تاريخ هذه المحاولات التي قام بها آخر سلالة ملوك كندة لاستعادة السلطان الماضي لبيت آكل المُرار .

وتذخر الروايات العربية بالكثير عن حياة امرىء القيس ، فهو ولد عام ٥٠٠ بمناطق كانت تحل بها قبيلة أسد ، أما أمه فكانت من تغلب . وكان بنو أسد يدينون بالطاعة لأبيه حجر ويدفعون له الإتاوة كما يقول الكلبي؛ غير أنهم ثاروا عليه وامتنعوا عن حملها إليه فهاجمهم حجر وأرغمهم على الرحيل إلى تهامة . فارتحل بنو

أسد ولكنهم لم يلبثوا أن عادوا أدراجهم وانقضوا على جيش حجر وقتلوه . وقد طُردت أسرته واضطُهدت « فلحقت بنجران »[٩٤]. وثمة رواية توكد أن امرأ القيس لاذ في البداية بعمرو بن المنذر اللخمي ، وأضمر ملك الحيرة بقسوته المعهودة قتله ، ولكن عمراً حذّره فلاذ امرؤ القيس بالفرار . ومعلوم أن أم عمرو بن المنذر هي هند بنت عمرو بن حجر الكندي ، ولصلة الرحم هذه فقد جهد عمرو في حماية قريبه[٩٥] . وكان امرؤ القيس يخطّط لتوحيد قوات كندة ومعد بهدف مهاجمة أسد أخذاً بثأر أبيه[٩٦] . ومما يوكد هذه الروايات الكشوفُ الأثرية التي تمت مؤخراً ، فرقيم عام ٥٤٧ (Ry 506) يذكر عمراً بن المنذر بوصفه عاملاً للحيرة على قبائل معد ومن ثم فإن ما لقيه امرؤ القيس من ملاذ ومؤازرة على يد عمرو كان بسبب وضعه هذا كعامل للحيرة على معدّ ؛ كما وأن صلة الرحم دفعت عمراً إلى حمايته من المنذر . ويبيّن هذا الرقيم نفسه / أن المناطق التي كانت تحت نفوذ عمرو إنما تقع بوسط الجزيرة العربية حيث كانت تحلُّ كندة ومعد حين كانتا ضمن دولة آكل المرار التي تهاوت أركانها[٩٧] .

وقد لجأ امرؤ القيس إلى حمير بعد هربه حيث لقي العون والمساندة من « تُبّع » ، وهو أمر جد ممكن إذا وضعنا في الاعتبار أن دولة حمير كانت تطمح لتثبيت أقدامها بنجد وعلى الطرق المؤدية إلى مكة . هذا إلى جانب أن الأسرة المالكة لكندة كانت تربطها بملوك حضرموت وشائج من صلات الرحم .

غير أنه برزت جماعة من المناوئين ظلوا يعملون بشتى الوسائل لإعاقة حملة امرىء القيس[٩٨] ؛ ولكنه برغم هذا تقدم بقواته إلّا أنه هزم على يد قوات المنذر فاضطر إلى الهرب من جديد واستتر لدى بعض ذوي قرابته ريثما يجد ملجأ أكثر أمناً . وقد حفظ لنا اليعقوبي رواية مفادها أن امرأ القيس زحف على رأس قبائل مذحج على بني معد وقتل رأس قبيلة أسد ، ولكنه لاذ بالفرار خشية أن يبطش المنذر به ولم يجرؤ على العودة إلى اليمن . وبعد أن استجار بالسموأل لاذ بالحارث الغساني ؛ والرواية التي ترتفع إلى الكلبي تدعو الحارث هذا « ابن أبي شمر » . أما بقية تاريخ حياة امرىء القيس فيمكن استجلاؤها من أشعاره ومن الروايات العربية المتواترة التي يحيط بها الكثير من الغموض وتغلب عليها الأسطورة . فيقال حيناً إن امرأ القيس قد قوبل مقابلة طيبة من قبل امبراطور بيزنطة* الذي لم تشر الروايات إلى اسمه ، ولكن استناداً على تاريخ الأحداث فإنه يمكن

---

(٩٤) De. Slane, Le diwan d'Amro'lkais. Paris. 1837, pp. 8. 10, 16: G. Olinder. The Kings of Kinda pp. 95 - 96.
توجد الآن طبعة قاهرية جيدة ومحققة لديوان امرىء القيس ـ المترجم

(٩٥) De Slane. Le diwan d'Amro'lkais, p. 19.

(٩٦) G. Olinder, The Kings of Kinda: pp. 99. 103 - 104.

(٩٧) G. Ryckmans. Inscriptions sud-arabes. Ry 506, p. 278.

(٩٨) De Slane. Le diwan d'Amro 'lkais, p. 20; G. Olinder, Kings of Kinda, pp. 107 - 109.

* يبدو أن امرأ القيس لم يلجأ الى امبراطور بيزنطة الا بعد فشله في اجتذاب معونة حمير وغسان . ويمكن استجلاء هذا بوضوح من شعره :
ولو شاء كان الغزو من أرض حمير ... ولكنه عمدا الى الروم أنفرا

إن سأملككم بالروم إذ كرهت ... غسان نصرى وكان الملك أسبابا
أو ترجعون كما كنتم لنا خولا ... حتى تدينوا لنا طوعا وإتعابا ـ المترجم

القطع بأنه كان يوسطنيان الذي لم يلبث امرؤ القيس بالتالي أن فقد عطفه حين وشى به عنده شخص من بني أسد زاعماً بأن للكندي علاقة « بابنه الامبراطور » . ومعلوم أن يوسطنيان لم يرزق بأطفال ، وإن كان من الجائز أن الشاعر قد نظم قصائده في إحدى أميرات البيت المالك ممن شغفته حباً . وقد جرّ هذا إلى هلاكه فمات من فعل حلة مسمومة كان أهداها إليه الامبراطور[٩٩]* .

والتاريخ الرومانسي لآخر المطالبين بعرش كندة يمكن استجلاؤه إلى حد بعيد من خلال قصائده التي ذاع صيتها بين العرب[١٠٠] . بيد أن تاريخ البيت الحاكم لكندة بل ولكندة ذاتها لم ينته بالميتة المأسوية للأمير الشاعر ، وإن كانت أحداث تاريخهم اللاحق لا ترقى إلى الدرجة من الأهمية بين أحداث تاريخ الشرق الأدنى بل تدخل في تاريخ الأحداث الأخرى ذات الوزن التي خصّصناها بالقول في بحثنا هذا . ورغماً من ذلك فإن تاريخ قبائل كندة ونظام دولتهم يحتل مكانة مرموقة في تحليل المشاكل الاجتماعية لتاريخ العرب قبل الإسلام .

153

وتحتاج إلى تمحيص دقيق المسألة المتعلقة بأصل أولئك الكنديين الذين استقروا قرب حدود الدول الكبرى المهيمنة على الشرق الأدنى . ويقول ج . اولندر في هذا « ولا نكاد نستبين طبيعة الدور الذي قامت به كندة آنذاك ، فالروايات العربية المتواترة تقف عند حد ذكر امراء كندة والقبائل العربية الشمالية الخاضعة لهم وتعطي انطباعاً بأنه لم يشارك في مغامرات الملوك من أسرة آكل المرار سوى جزء ضئيل من قبيلة كندة الكبرى كان على رأس قبائل مضر وربيعة[١٠١] » . وقد أقر ڤرنر كاسكل بهذا الرأي مؤكداً « أن البيت المالك من كندة لم يكن وراءه قبيلة ما » وأن « الوضع المتفرّد للأسرة الحاكمة لم يكن شيئاً غير عادي » ؛ ثم يقارن كاسكل هذا الوضع لبيت كندة الحاكم ببعض البيوتات الحاكمة بجزيرة العرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر[١٠٢] . ودونما حاجة إلى التذكير بأن مثل هذه المقارنات لا تخدم في الواقع غرضاً ما ، فإنه يجب في الوقت ذاته الوقوف موقف الحذر من زعم هذا البحّاثة القائل بأن « نواة » جيش هؤلاء الملوك كان « حرسهم الشخصي » على نحو ما يتبيّن من معركة الكُلاب التي قدم فيها سلمة إلى ميدان القتال محاطاً بحرسه وأن هذا « الحرس من المرتزقة » (die geworbene Leibgarde) هو الذي حقق له النصر[١٠٣] .

وفي رأينا أنه يجب إعادة النظر في استقراءات كاسكل هذه ، لأن عقد المقارنة مع وضع ساد في القرن

---

(٩٩) De Slane, Le diwan d'Amro'lkais. p. 27: G. Olinder, The kings of Kinda, pp. 112 - 114.

* وإلى هذه الميتة يشير بيته المشهور :

فلو أنها نفس تموت سوية ولكنها نفس تساقط أنفسا

غير أن المؤرخ أبا الفدا يتشكك في هذه الميتة ويقول بصددها « وهي عندي من الخرافات » (ص ١٣٤) ـ المترجم

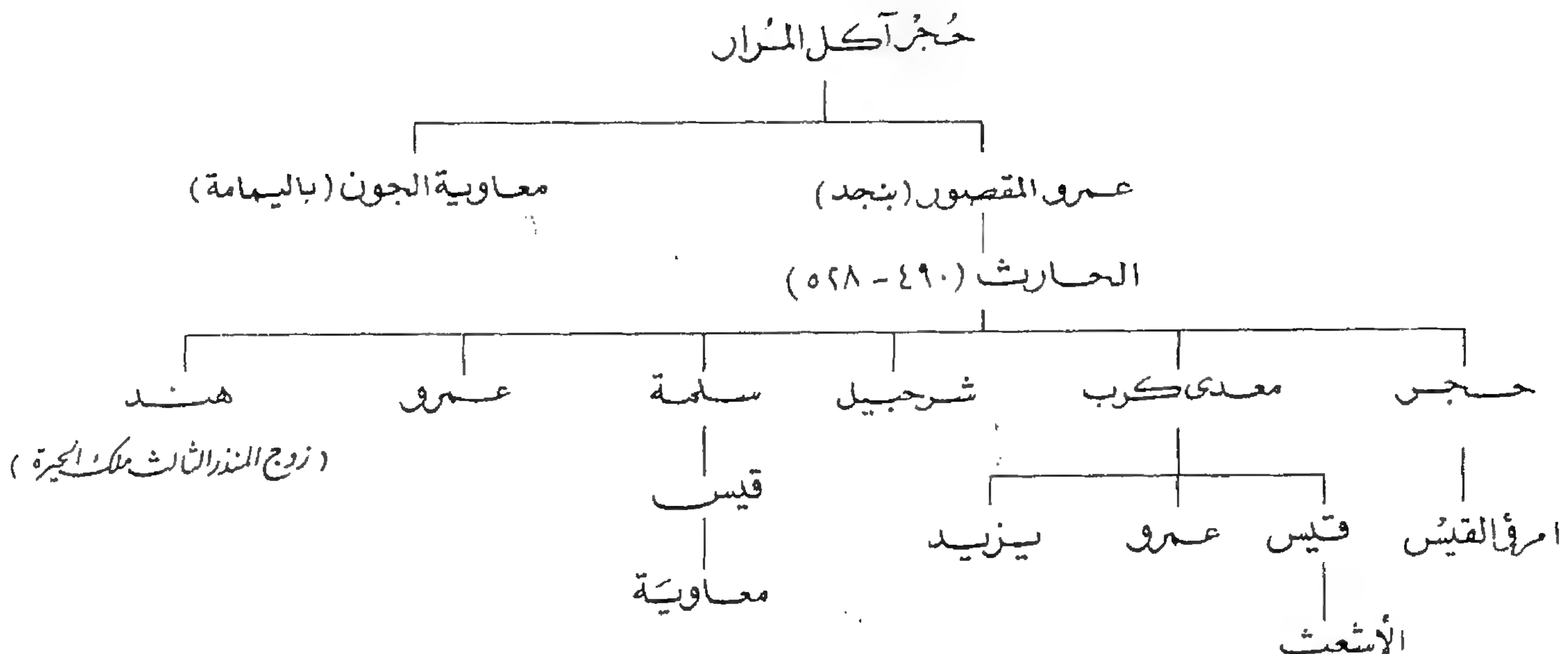
(١٠٠) De Slane. Le diwan d'Amro'lkais: A. Mueller. Imruulkaisi Mu'allaka. Halis. 1869; C.J. Lyall. Translations of Ancient Arabian Poetry. New York. 1930. pp. 103 - 106.

(١٠١) G. Olinder. The Kings of Kinda. p. 37.

(١٠٢) W. Caskel. Die einheimishen Quellen...... p. 339.

(١٠٣) شرحه ، ص ٣٤٠

شَجَرة ملوك كندة مِن بَيْت آكل المُرار



التاسع عشر ، ثم الحديث عن وجود حرس خاص بملوك كندة ، إنما يستند على وجود شبه (analogy) مزعوم بين ظواهر محدثة وأخرى ضاربة في القدم . أضف إلى هذا أن حرس « الغلمان » لم يكن له وجود لدى ملوك كندة ولم يكن له أن يوجد ، ذلك لأنهم كانوا على رأس جيش قبلي مؤلف من قبائل جمعت بينها صلة الرحم أو التبعية ؛ بل ويعتمد فوق ذلك على ثقتهم في أهلهم وعشيرتهم الأقربين وبني عمومتهم على الرغم من شتى النزاعات الدموية التي نشبت بينهم كإخوة . أما الحديث عن وجود حرس من المرتزقة حول الملك الذي لم يكن ليختلف كثيراً في واقع الأمر عن زعيم القبيلة أو قائدها ، فليس له من أساس البتة .

وترتبط بنظام دولة كندة مسألة معقدة ذات أهمية ولها علاقة بطابع هذه الدولة ، وهي مسألة لا يمكن تجنبها أيضاً عند الحديث على طابع دولة الغساسنة . وقد انضم ڤرنر كاسكل إلى الرأي القائل بأن دولة كندة لم تكن « دولة بدوية لقبائل من الرحل » (Beduinenreich) ، بل كانت « مدينة-دولة » (City-State) نشأت بجزيرة العرب[١٠٤] . ولقد أفردنا قسماً بتمامه لهذه المسألة المعقّدة فيما يلي من الكتاب ، لذا فسيقتصر كلا منا هنا على الإشارة إلى أن التركيب القبلي لجيش العرب وأيضاً وضع الزعيم فيه كقائد للقوات العسكرية قد ظل أمراً معمولاً به عند العرب لوقت طويل ، بل إن هذا الأمر صار أكثر أهمية عندما أصبحت المدن مركزاً لاتحاداتهم السياسية .

15 ولقد تعرضنا فيما مر من الكتاب للتاريخ السياسي لقبائل كندة ؛ إلّا أن الاهتمام ينصب أساساً على المسألة الخاصة بطبيعة الاتحاد الذي قامت عليه تلك الدولة التي وجد على رأسها أسرة حاكمة أصلها من كندة . وقد أثبت صاحب تاريخ « ملوك كندة » أن الكنديين حين ثبّتوا أقدامهم بغمر ذي كندة الواقعة على مرحلتين من مكة بمنطقة نجد الجنوبية الغربية ، ألفوا أنفسهم في وسط القبائل العربية الشمالية النازلة حولهم . وتقتصر الرواية العربية المتواترة في كلامها على الأسرة المالكة للكنديين والقبائل العربية الشمالية الخاضعة لها ، إذ أنه لم يسهم في هجرات هؤلاء الأمراء سوى جانب صغير من قبيلة كندة الكبرى . وهؤلاء الأمراء من كندة كانوا قد هاجروا إلى نجد ووجدوا أنفسهم في وضع من « التبعية » لحمير[١٠٥] . وقد دعم اولندر وجهة النظر هذه في بحث له آخر ، أشار فيه إلى أن القبائل العربية بنجد والبحرين واليمامة قد تم توحيدها تحت إمرة ملك من كندة لم يقدم معه من الجنوب العربي سوى عدد ضئيل من رجال قبيلته في حين ظل الجانب الأكبر من كندة مقيماً بحضرموت . وهناك لم يكونوا سوى قبيلة واحدة من بين قبائل أخرى ، وإن ظلت في أوج قوتها ووجد على رأسها أسرة من الطبقة الارستقراطية وزعيم قبلي ؛ ولكنها لم تتحول إلى « ملكية » . وعلى النقيض من هذا نشأت بنجد أسرة من الكنديين فرضت سيادتها على قبائل لا علاقة لها بكندة ، ولم يلبث سلطانها أن بلغ في وقت قصير شأواً أبعد بكثير من سلطان زعماء القبائل التقليديين[١٠٦] . وكان أبناء الملك يحكمون القبائل

(١٠٤) شرحه ، ص ٣٣٩

(١٠٥) G. Olinder. The Kings of Kinda, pp. 34 - 37.

(١٠٦) G. Olinder. Al al-Gaun of the Family of Akil al-Murar. Le Monde Oriental. 1931. v.25, p. 208.

المختلفة ، غير أن واحداً فقط من بينهم كان يرث عرش أبيه ولقبه . وقد وحّدوا تحت سلطانهم قسماً من القبائل الشمالية دخل فيها تلك القبائل من كندة التي هاجرت إلى هذه المناطق من الجزيرة العربية . أما سلطان الطبقة الارستقراطية لقبيلة كندة فقد ظل قائماً با لجنوب العربي على تلك المجموعات من كندة التي ظلّت تقيم هنالك(١٠٧) .

وعندما تتحدث الرقوم العربية الجنوبية عن البدوع رب فهي إنما تعني بذلك وحداتهم العسكرية . ولقد حفظت هذا المعنى حتى تلك الرقوم التي يعود تاريخها إلى عهود متأخرة ، فهي حين تتحدث عن ء ع ر ب تذكر تحت ذلك أسماء قبائل مراد ومذحج وفوق ذلك كله قبيلة كندة ، وكلها قبائل « قامت فيها يبدو بدور هام » . هذا ونلاحظ البروفسور ماريا هفنر أنه في رقيم مأرب Ry 535 الذي يعود تاريخه إلى العهد السابق للقرن الرابع يرد ذكر « ملك كندة »(١٠٨) . ولمّا كان معروفاً من رقوم أخرى أن الكنديين قد عُدُّوا قسماً من كتائب البدو(ءع ر ب) ، فإن هذا يدفع إلى الإعتقاد بأن قسماً من الكنديين قد بلغ درجة من التطور تسمح لهم بأن يصبحوا شعباً (ش ع ب) . ومن جانب آخر فقد ظل قسم من قبائل كندة محتفظاً بتنظيمه البدائي مكوّناً في الوقت ذاته الوحدات الأكثر مهارة في القتال . / أما دور الكنديين في دولة حمير فيشهد به رقيم عام ٥٤٣ الذي يتحدث عن ثورة يزيد بن كبشة ، أي ثورة قبائل كندة المقيمة بجنوبي الجزيرة العربية ضد ابرهة الذي سارع إلى مصالحتهم . غير أننا نبصرهم منذ عام ٥٤٧ يشاركون في حملة ابرهة على الشمال ، الأمر الذي يثبته رقيم مريغان(١٠٩) . لهذا فإن دور الكنديين في تاريخ اليمن أمر لا ينبغي إثارة الشك حول مغزاه . 155

وهنا يبرز تساؤل آخر حول طبيعة الدولة الاتحادية التي نشأت في الشمال والتي كان على رأسها أسرة تنحدر من كندة . واستناداً إلى الرأي القائل بأن الأسرة الحاكمة القادمة من الجنوب لم يتبعها خلال حركتها صوب الشمال سوى عدد ضئيل من بطون كندة ، فقد انبثقت عن ذلك فكرة مفادها أن المملكة الشمالية للكنديين إنما كانت تعتمد في المكان الأول على حمير القوية التي أبقت بهذه الطريقة على نفوذها بالشمال ؛ وفوق ذلك فإنه لم يكن من بين بطون الكنديين إلاّ النزر اليسير ممن يمكن عدّهم حرساً شخصياً للملك وارتبط به ارتباطاً مباشراً . لكل هذا فإن تاريخ تلك الدولة يجب النظر إليه بوصفه تاريخاً لأسرة حاكمة أو عشيرة مالكة وليس تاريخاً لقبائل كندة ، خاصة وأن « الروايات المتواترة إنما تقصر حديثها على أمراء كندة » فحسب(١١٠) . ووفقاً لهذا الرأي فإن دولة كندة إذن إنما هي « مملكة بدوية » تمثل حلفاً من قبائل معد وقع تحت زعماء خرجوا من صلب قبيلة كندة التي يرجع أصلها إلى بلاد العرب الجنوبية . ولم تعتمد الأسرة الحاكمة على قبيلتها

---

(١٠٧) شرحه ، ص ٢٠٩

(١٠٨) M. Höfner, Die Beduinen, pp. 65, 66.

(١٠٩) Ryckmans. Inscriptions sud-arabes. Ry 506 . Le Museon, t. 66, p. 278 (عمّا كتب بصدده راجع مامر من الكتاب)

(١١٠) G. Olinder, The Kings of Kinda, p. 37.

(Stamm) ، بل كانت أسرة (Familie) أو على الأصح عشيرة « امراء كندة » المنفرده . ومثل هذا النوع من الأوضاع من الممكن أن نلتقي به خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بين قبائل الجزيرة العربية على نحو ما ذكره ذلك الباحث ، الذي يؤكد أن « دولة الكنديين لم تكن مملكة بدوية »[١١١] . ومقارنة وضع الكنديين بوضع بعض « الإمارات » العربية المعاصرة يسوق إلى الافتراض بأن نواة جيشهم كانت تتألف من الحرس الملكي الذي كانت مهمته الأساسية هي حراسة الملك . ويضيف كاسكل قائلاً : « وعلى أية حال فإن سيادة كندة (Kinda-Herrschaft) المتأخرة كانت في صميمها ملَكية على المدينة (Stadt Königtum) » ؛[١١٢] ويصدق هذا الوضع نفسه كذلك على الفترة التي سبقت بكثير وجود هذه المملكة . وكما أسلفنا فإنه ليس بمقدورنا قبول هذه المزاعم التي تحاول نقل تصورات تتعلق بأزمنة متأخرة عن ذلك بزمن طويل كما تتعلق أيضاً ببيئة أخرى ، وذلك إلى مجتمع سابق يختلف عنها كل الاختلاف .

وتمثل دولة كندة الشمالية حلفاً لقبائل ربطت بينها مجموعات أسرية ، وكانت هذه القبائل تنتمي إلى كندة ومعد وتشكّل نظاماً شورياً عسكرياً جهد في الربط بين جماعات عربية كبيرة ، بعضها من الحضر و الآخر من البدو وفريق ثالث هم أشباه البدو الذين ينتشرون على مساحات شاسعة . غير أن اتحاد دولة الكنديين الفتية هذا لم يكتب له الاستقرار ، ولكنه كان يعمل في إطار مناطق وأرضين كانت أول / ما دخل بالتالي في تكوين الدولة الإسلامية . وهذا وحده يجعل من كندة أشبه ما يكون بالمحاولة الأولى التي سبقت قيام دولة المسلمين فيما بعد . وكان تكوينها الاجتماعي مرتكزاً على دولة فتية ذات قدرة على القتال ، ولكن روابطها الداخلية لم تكن متماسكة بالقدر الكافي . وعلى عكس هذا حظيت دولة الإسلام بالكثير من الصلابة كان مردّها بدرجة كبيرة إلى العقيدة الجديدة التي ربطت بين القبائل بعروة وثقى وساعدت في تدعيم التماسك بينها وعلى إيقاف التناحر القبلي وذلك بإرساء القواعد لدولة متينة البنيان . وفي رأينا أن دولة الكنديين الشمالية إنما كانت حلفاً لقبائل تعيش وسطاً بين مجتمع لم يعرف الطبقات وآخر قد عرفها ؛ ولكنها لم تكن بحال حلفاً لمدن دول . فلو تصادف أن قامت منازلهم في مناطق يسودها الاستقرار بصفة دائمة مما يمكن معه أن يطلق عليها اسم مدن ، إلا أنها لم تكن مدناً دولاً لأنها كانت على مستوى أدنى من حيث التطور الاجتماعي . ويمثل امتزاج العناصر من الحضر والبدو في هذه الوحدة السياسية الجانب الإيجابي بل والقوي فيها ، حيث نبصر أن تشكيلها وتنظيم قواتها العسكرية إنما يقوم على أساس قبلي في جوهره كما تشهد بذلك « أيام العرب » . وعلى الرغم من توحيدها ولوقت قصير مساحات شاسعة من الشرق الأدنى ، وأنها حصلت على عون حمير لبسط سيطرتها وسط الجزيرة العربية وعلى شمالها الغربي ، وعلى الرغم أيضاً من حصولها على عون بيزنطة بوصفها جارة لها على حدودها الشمالية الغربية ؛ أقول على الرغم من هذا كله فإن مملكة الكنديين قد انحلت أواصرها في سهولة

(١١١) W. Caskel, Die einheimischen Quellen...., p. 339.
(١١٢) شرحه ، ص ٣٤٠

ودون عناء . وكان السبب المباشر لهذا ارتفاع شأن اللخميين بالحيرة مرة أخرى في الأعوام الأخيرة من حياة قباد ، وما طرأ من ضعف على العلاقات بين كندة وبيزنطة . فأسرة آكل المرار لم تستطع الحفاظ على التوازن ، وهو أمر أفاد منه الغساسنة حلفاء بيزنطة الأُخَر المتطلعون إلى السيطرة . فقد تأسّست هذه الدولة العازلة (buffer) الجديدة التي كان على رأسها الحارث بخطأ الكنديين في الكثير ، وإن وجب الاعتراف بأن ما حققته دولة كندة من حيث اتساع الرقعة وتوحيدها لعدد كبير من القبائل العربية خاصة تلك التي كانت تقطن أواسط الجزيرة العربية ، لم يتأت للغساسنة أن يبلغوا فيه ما بلغته كندة . وقد كان اعتماد الغساسنة أساساً على بيزنطة ؛ فلما فقدوا مؤازرتها لم يعد لدولتهم ما تعتمد عليه ففقدت من ثم مكانتها وأهميتها .

البحر الأحمر في سياسة بيزنطة

ظلت أخبار السفارات التي أرسلت بها بيزنطة إلى الحميريين والإثيوبيين محفوظة في مصادر مدوّنة باللغتين اليونانية والسريانية . وهذه المصادر تتفق في الكثير من مادتها ولكن صعوبات جمّة تحيط بتحديد تواريخ هذه السفارات وبالمهام التي حققتها . غير أنه من زاوية الجهات الرسمية فإن تقارير السفراء ظلت تجد التقدير حتى في القرن العاشر ، ويتضح ذلك من النقول الهامة الموجودة في مصنف قسطنطين بورفيروجنتوس . / فقد حفظ هذا الأثر أفضل روايات « السفسطائي ملخ » عن جزيرة يوتابه وعن الكنديين ؛ كما حفظ لنا روايات « البروتكتور [الحامي] ميناندر » و « البطريق الماجستير بطرس » اللذين أخذا طرفاً في السفارات إلى الفرس والترك . كذلك حفظ البطريرك فوتيوس Photius في مصنفه « ببليوثيكه » Bibliotheke [«المكتبه»] قطعاً من « تاريخ » ننّوس تتعلق بالسفارات ، كما حفظ مادة وفيرة من مصنفات لمؤلفين بيزنطيين لم تصل إلى أيدينا . 157

ويقول فوتيوس : « وقد قرأت تاريخ ننّوس الذي يتحدث فيه عن سفارته إلى الإثيوبيين والحميريين والسرقينيين الذين كانوا أقوى الشعوب ، وكذلك عن سفارته إلى شعوب شرقية أخرى »[١١٣] ؛ ثم يعرض قطعة وتعليقات موجزة من هذا الكتاب . وقد تم الاعتراف منذ عهد بعيد بأن الحكاية المتعلقة « بالحميريين والهند »لدى ملاله[١١٤] إنما هي قطعة من تاريخ ننّوس . ورغماً من أنه لا يذكر اسم ننّوس إلّا أن قسماً من القصة يرد بضمير المتكلم ، مما يدلل على أن مؤلف التقرير كان من أعضاء السفارة . ومما عاون على إثبات نسبة القطعة إليه أن اسم الحميريين يرد لدى ملاله في صورة أميرتاي Ameritai ، وهي الصورة التي ورد فيها في النقول التي أخذها فوتيوس عن ننّوس ؛ رغماً من أن تقييد الاسم في صورة أُميرتاى Omeritai كان أكثر شيوعاً[١١٥] .

---

(١١٣) Nonnosus. Fragmenta. Fragmenta historicorum graecorum. t. IV, ed. C. Mullerus, Parisiis, 1851, p. 179.

(١١٤) Malalas, Chronographia. ed. Bonnae, 1831, pp. 457, 433.

(١١٥) Procopius Caesarensis. De bello persico. I, 20. ed. Haury, t. I, Lipsiae. 1905, p. 109.

وتمثل أقوال ننّوس وزيارته لإثيوبيا وإقامته باكسوم أهمية قصوى بالنسبة لتاريخ تلك الدولة ، وكذلك بالنسبة لأحداث دولة الحميريين الذين وُجدوا في حال من التبعية لإثيوبيا وناضلوا نضالاً شديداً ضد محاولات إثيوبيا الدائبة لضمهم إليها . ولا تقل عن هذا أهمية روايات ننّوس عن السفارات التي وجهت بها بيزنطة إلى الدويلات العربية ، وعن العلاقات المعقدة والمطالب التي برّرت بها الدولة الكبرى محاولاتها لإخضاع دول صغرى كانت على الرغم من صغرها مصدر قلق كبير لها . ومن خلال المقتطفات التي وصلتنا من « تاريخ » ننّوس نستطيع أن نقطع بأنه حوى معلومات عن سفارات أخذ فيها طرفاً ننّوس نفسه أو أفراد من أسرته كأبيه وجده . وعلى الرغم من أن يوليان كان قد أُرسل في تلك الأعوام نفسها من القسطنطينية سفيراً إلى تلك الدويلات العربية نفسها إلاّ أن اسمه لم يرد في القطع من مدونات ننّوس التي حفظها عنه فوتيوس .

ولعلنا نعرف على وجه أدق تاريخ سفارة ابرام والد ننّوس ، والذي سبق لأبيه أويور أن اضطلع بمهام دبلوماسية على عهد الامبراطور انسطاس . أما ابرام نفسه فقد خدم الامبراطورين يوسطين ويوسطنيان ، كما أن ابنه ننّوس كان سفيراً للثاني منهما . ولقد أسهمت ثلاثة أجيال من هذه الأسرة السريانية المونوفيزية بنشاطها في تدعيم علاقات بيزنطة مع كلٍ من القبائل العربية الشمالية وبلاد العرب الجنوبية ودولة اكسوم . وكان أمْراً مألوفاً في تقاليد هذه الأسرة من السفراء أن / يلمّ أفرادها باللغتين اليونانية والعربية ، إلى جانب لغتهم السريانية .

ويتضح من مدونات ننّوس أن ابرام قد توجه إلى المنذر لإقناعه بإطلاق سراح اثنين من القواد البيزنطيين . وقد حدّدت رسالة شمعون الأرشمي المدوّنة بالسريانية تاريخ هذه السفارة بشهر يناير ٥٢٤ . وثمة سفارة أخرى من بيزنطة إلى حمير معروفة لنا من الرقيم المشهور لأبرهة (CIH 451) والذي يرجع تاريخه إلى عام ٥٤٣ . وبين هذين التاريخين وجدت عدة سفارات على رأسها شخصيات شتى من بينها يوليان وننّوس وأبوه ابرام .

ولعل أهم مرجع لتاريخ السفارات هو تلك المقتطفات التي يقرنها المؤلف البيزنطي فوتيوس باسم ننّوس حين يقول « ما قرأته في تاريخ ننّوس »[١١٦] ، ثم يتبع هذا بعرض لأهم الأحداث الواردة في تاريخه . وترد الإشارة إلى شعب الحميريين في مقتطفات فوتيوس في صورة أميرتاى Ameritai . ونجد هذه الصيغة نفسها في متن ملاله (ص ٤٥٧ ـ ٤٥٩) حيث ترد أخبار السفارة بضمير المتكلم (ص ٤٥٨) مما يقود إلى الافتراض بأن هذه الفقرة منقولة من مدوّنات ننّوس . ومما يقرّب بين مَتْنَيْ فوتيوس وملاله أن متن فوتيوس يرد فيه الحديث عن أن « القدامى أطلقوا اسم أربولاس (Arbulas) على ما يسمى الآن بالصندل ، واسم الفاكيولية على ما يسمى الآن بالفاصولية » ؛ والفاكيولية هو غطاء للرأس على هيئة المنديل أو العمامة . وهذا ما يرد لدى ملاله

(١١٦) Nonnosus. Fragmenta, p. 179.

بعينه بينما لا يرد عن ننّوس في عرض فوتيوس سوى اللفظ وحده مقروناً بشرحه[١١٧] . ومن الواضح أن تسمية غطاء الرأس الواردة في كلا المتنين إنما مردّها إلى مدونات ننّوس .

وفي النقول الواردة لدى فوتيوس عن ننّوس يرد القول بأن ننّوس قد تعرض للكثير من محاولات الغدر به من جانب أولئك الذين دخل معهم في اتصالات وأنه واجه مخاطر جمة في الطريق ومر بنواح صعبة الاجتياز ورأى وحوشاً ضارية[١١٨] . كذلك يروي أنه فيما بين ميناء ادوليس Adulis [عدولي*] ومدينة اكسوم اللتين تفصل بينهما مسافة خمس عشرة مرحلة ، وذلك عند الموضع المسمّى الآوى (he Aoe) أبصر السفير البيزنطي بقطيع من الفيلة يبلغ تعداده زهاء خمسة الآلاف من الرؤوس[١١٩] . أما ملاله فيقول إن « سفير الروم » أخذ الطريق من الاسكندرية مبحراً على النيل وبحر الهند إلى حدود الهند ؛ ومن الجلي أن الأمر إنما يتعلق بالبحر الأحمر . وعلى نحو ما رأينا من قبل فإن الطريق الواصل بين النيل والبحر الأحمر كان يقطع أراضي افريقية ، وأغلب الظن أن هذه المرحلة حدثت بين صعيد مصر وميناء برينيكي وذلك بالطريق الذي بناه البطالمة[١٢٠] . ويرد نص مشابه لهذا / في « حوليات » ثيوفانيس تحت عام ٦٠٦٤ الموافق لعام ٥٧١ للميلاد ، أي على عهد الامبراطور يوسطين الثاني[١٢١] . غير أن جميع محتويات هذه القطعة لا تثير الشك في أن الأمر إنما يتعلق

159

---

(١١٧) Malalas. Chronographia. p. 457; N. Pigulevskia. Vizantia na putiakh v Indiu. str. 312. 131 and notes.

(١١٨) Nonnosus. Fragmenta. p. 179.

* عَدُولي ـ ميناء بأرض الحبشة اشتهر في الأزمنة السابقة للإسلام كأهم ميناء بالبحر الأحمر ، خاصة لتجارة المرور (الترانزيت) ولتسويق السلع الأفريقية (كالعاج والرقيق وغيره) . كذلك اشتهرت بنوع معين من السفن . وسبب تدهورها السريع الفجائي كان احتلال الفرس لليمن ، ثم بزوغ فجر الاسلام . فلم يتبق من اسمها إلا ذلك الضرب من السفن الذي اكتسب الشهرة بسواحل الخليج ، والذي يرجع في الأصل إلى ذلك الميناء الحبشي .

وأول ما نلتقي بها في البيت المشهور لطرفة بن العبد البكري :

عدولية أو من سفين ابن يامن   يجور بها الملاح طوراً ويهتدي

كذلك وردت في بيت للنابغة الزبياني :

له بحر يقمّص بالعدولي   وبالخُلُج المحمّلة الثقال

وفي العصر الاسلامي ترد في بيت لكثير عزّة :

كأن عدولياً زهاء حمولها   غدت ترتمي الدهنا بها والدهالك

ولقد خلّط الشرّاح كثيراً في تفسير اللفظ ، حتى قال كبيرهم الاصمعي إن « العدولي ضرب من السفن منسوب إلى قرية بالبحرين يقال لها عدولي » . بل إن محققاً عربياً كبيراً على عهدنا وهو المرحوم حبيب الزيات يقول « عدولي نسبة إلى عدولي قرية بالبحرين . وكانت قديماً سوقاً للرق والعاج » (المشرق ، ١٩٤٩ ، ص ٣٥٠) .

أما المؤرخون فلا يعلمون عنها شيئاً . وبحسب علمي لا يرد ذكر الإسم إلا في الألفاظ الآتية للطبري : « ومنهم شرحبيل بن حسنة وحسنة أمه وهي عدولية » . بيد أن أبا جرير لا يجسر على توضيح التسمية .

والموضع الآن خراب . ويغلب على الظن أنها كانت بخليج مصنوع ، ولعلها مصنوع نفسها . ولا أرى سبباً ليكتبها الباحثون العرب على أيامنا هذه في صورة عدول ـ المترجم .

(١١٩) Nonnosus. Fragmenta. p. 180.

(١٢٠) N. Pigulevskia. Vizantia na putiakh v Indiu. str. 312.

(١٢١) Theophanes. Chronographia. t. I. ed. De Boor. Lipsiae. 1883. pp. 244 - 245.

بالسفارة التي يحكي عنها ملاله (ص ٤٥٦ ـ ٤٥٩) ، على الرغم من أن اسم السفير غير وارد لديه . أما عند ثيوفانيس فإن اسم السفير يرد على أنه يوليان ؛ وهو شخص معروف أيضاً لبروكوبيوس الذي يرجع به إلى عهد الامبراطور يوسطنيان . غير أن رواية ثيوفانيس تعيد حرفياً وعلى وجه التقريب وصف استقبال ملك اثيوبيا للسفير كما ورد لدى ملاله ، بما في ذلك التفصيلات المتعلقة بزيّ الملك واستلامه للرسالة الموجهة إليه من الامبراطور البيزنطي . كما أن الطريق الذي اتخذه السفير هو نفسه الوارد عند ملاله ؛ فقد خرجت السفارة من الإسكندرية آخذه النيل وبحر الهند إلى إثيوبيا التي كان ملكها يدعى آرثه . ولعل هذا الاسم قد وقع سهواً في متن ثيوفانيس من بين المواد المتعلقة باستشهاد آرثه ، أو عن طريق تصور بعيد وخاطىء لملوك العرب ممن حملوا هذا الاسم وكانوا ينتمون إلى قبائل كندة وإلى الغساسنة .أما اسم الحميريين فترد كتابته لدى ثيوفانيس بالصورة نفسها الواردة لدى بروقوبيوس أي أُميرتاي Omeritai .

والواضح أن ثيوفانيس قد خلط مادة پروقوبيوس عن سفارة يوليان برواية نّنوس عن رحلته هو إلى الحميريين والإثيوبيين . ونتيجة لهذا فقد حدث خلط في التواريخ حتى أن السفارة إلى الحميريين والإثيوبين التي يحكي عنها ملاله (ص ٤٥٦ ـ ٤٥٧) قد أصبحت وكأنها أرسلت عملاً بنصيحة « البطريق روفينوس »ٌ في عهد الشاه قباد ، أي قبل عام ٥٣١ .

والقول بأن سفارتي نّنوس ويوليان كانتا سفارة واحدة كما يفترض سدني اسمث[١٢٢] أمر لا يبدو وكأنه شيء ممكن . ذلك أن الأمر يتعلق بسفارتين كل منها مستقلة عن الأخرى ، وتختلفان في تركيبها ومهامّها على نحو ما أسلفنا . فقد كُلّف نّنوس بمسئولية مستقلة ولم يكن مجرد رفيق ليوليان . واضطراب المعلومات عن هذه السفارات يرتفع إلى عهد بعيد حتى أنه في القرن السادس لم يكن بمقدور ملاله أن يذكر اسم السفير الذي ضمّن تقريره في مصنفه التاريخي . وحقيقةالأمر أن سفارة يوليان تعود إلى وقت سابق على هذا بكثير ، وهو عام ٥٢٦ ـ ٥٢٧ أو على أية حال إلى الفترة بين عامي ٥٢٥ وهو عام انتصار الاصبحه و ٥٣١ وهو عام موت الشاهنشاه قباد[١٢٣] .

وعند مقارنة المصادر المختلفة فيما يتعلق بالسفارات يجب أن تؤخذ في الاعتبار مادة يوحنا الافسوسي ، إذ يحتمل أن تكون ذات صلة بالخلط والاضطراب اللذين وقعت فيهما المصادر بشأن معلوماتها عن السفارات . فهذا المؤرخ السرياني يركز اهتمامه على تنصير بلاد النوبة ، التي لا بد وأن تكون قد أصبحت ميداناً جديداً لانتشار المونوفيزية (اليعقوبية) . وتفاصيل ذلك تزيح النقاب عن جانب طريف للغاية لم يطرح بعد على بساط البحث ، ويتعلق بسياسة عهد يوسطنيان ودور الامبراطورة تيودورا / وكذلك بالمونوفيزيين الذين كان

160

(١٢٢) S. Smith. Events in Arabia....., p. 450.
(١٢٣) N. Pigulevskiu. Vizantia na putiakh v Indiu. str. 324; B. Rubin. Das Zeitalter Justinians, p. 315, nota 987.

يوحنا الافسوسي من أنصارهم المتحمسين[١٢٤] . غير أن الوقائع التي يرويها تستحق في هذه الحال الثقة التامة ، بل وإن القصة نفسها تحظى بلون يفقد سحره في رواية الغير . ولذا فقد رأينا أن نورد ترجمة كاملة لها في ملحق هذا الكتاب* .

وتقع الفترة التي توجّه فيها الراهب يوليان ليقوم بالدعوة بين أهل بلاد النوبة للمونوفيزية في حياة الامبراطورة تيودورا ، وذلك قبل عام ٥٤٨[١٢٥] . ولعل إقامة يوليان الطويلة بافريقيا وما سجّله من معلومات قد حدا بالبعض إلى اعتبارها تقارير لأحد السفراء . ومن الجائز أن يكون قد وقع خلط بين يوليان السفير وهو أخو سموس وبين يوليان الداعية المونوفيزي الذي بعث به الامبراطورة تيودورا إلى أهل النوبة ، كما حدث أيضاً خلط في المعلومات التي ندين بها لهذا ولذاك ؛ وفوق هذا فهناك أيضاً مدوّنات نّنوس . ولعل كل هذا قد أسهم في إيجاد الخلط والاضطراب اللذين نلتقي بهما في حوليات ملاله وثيوفانيس . ويصدق هذا بصورة أوضح على تلك النقول المأخوذة من نّنوس والموجودة لدى فوتيوس الذي اطّلع على التقارير ، كما يصدق أيضاً على ألفاظ بروقوبيوس الذي كان على علم بسفارة « يوليان أخي سموس » ، والذي يحدد بروقوبيوس اسمه بهذه الصورة تمييزاً له عن الراهب يوليان الذي أدخل بلاد النوبة في النصرانية .

وتتركز الأهمية الكبرى لمتن يوحنا الافسوسي في وصفه للاتجاه العام لسياسة القسطنطينية وللعداء الذي نشب نتيجة لميل يوسطنيان إلى الأورثوذكسية وميل زوجه تيودورا إلى المونوفيزية . ويقف هذا شاهداً على اهتمام بيزنطة الشديد والطويل العهد بالمناطق الشرقية للقارة الافريقية . ولم يكن مصادفة أن يمرّ طريق الرحلة إلى إثيوبيا في جزء هام منه بأراضي تلك القارة .

وهكذا فإننا إذا ما قارنّا تقارير نّنوس في القطع الموجودة منه لدى فوتيوس ، بمادة « حوليات » ملاله لخرجنا بنتيجة مفادها أن الاثنين قد اعتمدا على ذات المعلومات فيما يتعلق بسفارة نّنوس ؛ وهذا القول نفسه يصدق على متن ثيوفانيس الذي يفترق عنهما في نقطة واحدة هي أنه يورد اسم السفير على أنه يوليان .

ولا تخلو من طرافة المعطيات الواردة في « استشهاد آرثه » . ففي هذا الأثر يرد تعداد لأبعاد الطريق إلى نجران ابتداءً من فينيقون[١٢٦] التي أصبحت فيما بعد نقطة البداية للرحلات التي تمت بعد ذلك . ومما يلفت النظر أن بذلك الفصل التاسع عشر من مصنف بروقوبيوس توجد صفحات مكرّسة لبلاد النوبة ، كما هو

---

(١٢٤) Joannes Ephesinus. Historia ecclesiastica. pars tertia. IV. 5-8. CSCO. Scriptores syri. series tertia. t. III. pp. 182 - 188.

* كما ذكر المترجم في مقدمته فإن المقتطفات من السريانية التي نقلتها المؤلفة إلى الروسية وضمتها كملحق إلى آخر كتابها قد طوينا عنها كشحا ، ويمكن للباحثين مراجعتها في أصولها ـ المترجم .

(١٢٥) A.P.Diakonov. Ioann Efesskii i ego tserkovno- istoricheskie trudy. SPb., 1909. str. 313, 323.

(١٢٦) Martyrium Arethae. p. 722; N. Pigulevskia. Vizantia na putiakh v Indiu. str. 323.

الحال مع مصنف يوحنا الافسوسي . غير أن كلا المؤرخين ينظر إلى المسألة من زاوية مغايرة ، فالمؤلف السرياني يركّز اهتمامه الرئيسي على تنصير بلاد النوبة ؛ وهو محقّ عندما يشير إلى الأهمية التي أولتها / القسطنطينية لهذا الأمر بوصفه واحداً من المهام العاجلة في سياستها الشرقية . وفوق هذا فإنه يضغط بصورة خاصة على الدعوة المونوفيزية التي كانت تتمتع بحماية الامبراطورة تيودورا . أما بروقوبيوس فيركّز انتباهه على الجانب التاريخي ، فبعد أن يصف الطريق البحري من حمير إلى إثيوبيا يتحدث عن بلاد النوبة فيقول إنه من مرفأ الحميريين « المسمّى بوليكاس » Bulikas تبحر السفن عادة إلى مرفأ الإثيوبيين الذي يبعد عشرين اسطاديون* من ادوليس [عدولى] ، مما يشير إلى أن هذه المدينة لم تكن واقعة على البحر ؛ ومن هناك إلى اكسوم اثنتا عشر مرحلة . ثم بعد هذا يقدّم بروقوبيوس وصفاً للسفن ويختم كلامه قائلا بأن هذه هي المعلومات « المتصلة بالبحر المسمّى بالبحر الايرثري [الأحمر] والبلاد الواقعة على ساحليه » . وينتقل بروقوبيوس إلى وصف الطريق من اكسوم إلى إلفنتين Elephantine، وهي مدينة بمصر « على حدود دولةالروم » ؛ ويعطى طول هذا الطريق في ثلاثين مرحلة ، مضيفاً إلى ذلك أنه في المناطق التي يمرّ بها الطريق يعيش عدد كبير من الشعوب من بينها البلميون Blemmyes[أي البجة] والنوبتيون Nobatae [النوبيون] . وعلى حين شغل البلميّون المناطق الوسطى كان النوبتيون ينتشرون على ضفاف النيل . وفي عهد دقلديانوس بُنى حصن بجزيرة فيله Philae وعقدت اتفاقية مع النوبيين لحراسة حدود الامبراطورية(١٢٧) . وقد أقنعهم دقلديانوس بأن ينتقلوا من واحات مصر التي كانوا يغيرون منها ، إلى ضفاف النيل لكي يستقروا بها ويعاونوا على صد غارات البلميين . وكذلك يقدم بروقوبيوس معلومات عن الوثنية بين النوبيين وعن تقديسهم بصورة خاصة لايزيس واوزوريس ، كما يضيف أن معابد أهل النوبة هُدمت أيام يوسطنيان على يد قائده نرسيس .

وقد ارتبط نشاط القوات البيزنطية بسياسة نشر النصرانية ، وهو أمر لا يتعرض بروقوبيوس للحديث عنه وإن كان بطبيعة الحال على علم به . أما الذي حفظ تفاصيل كل ذلك فهو المؤرخ السرياني يوحنا الافسوسي .

اختلاف الباحثين حول السفارات

في غضون العشرينات والثلاثينات من القرن السادس خرجت من القسطنطينية مجموعة من السفارات متجهة نحو مناطق الجزيرة العربية والمناطق الشرقية لافريقيا . وقد أثارت المسألة المتعلقة بتحديد تواريخ هذه

* الاسطاديون مقاس للمسافات أخذه العرب عن اليونان وهو يعادل ١٨٥ متراً (راجع ص ٢٦٨ من نالينو « تاريخ الفلك عند العرب ») - المترجم

(١٢٧) Procopius. De bello persico. I. 10. pp. 105 - 106.

السفارات وتقييم مادتها الكثير من الشكوك المتكررة ، وذلك بالنسبة للحالة غير المُرضية التي وجدت عليها المصادر . وفي الأعوام الأخيرة ظهر عدد من البحوث التي تعالج من جديد الكلام عن المشكلة المتعلقة بهذه السفارات ، مما يحتّم الوقوف بعض الشيء عند الاستقراءات التي خرجت بها . ولعل موقف النقد الشديد ، بل وأقول المتطرف ، من آثار بروقوبيوس القيساري عامة قد دفع بعض الباحثين إلى اتخاذ موقف التشدد أيضاً من روايته عن السفارات ، مما زاد في صعوبة إيجاد حل موضوعي للمسألة .

وكل الذين عالجوا الكلام عن تاريخ حمير واكسوم في القرن السادس لم يستطيعوا أن يتحاشوا المسألة المتعلقة بالسفارات . وفي بحثه الرائع الذي لم يفقد قيمته إلى يومنا هذا عالج دلمان A.Dillmann / الكلام(١٢٨) 162 على سفارتي نَنّوس ويوليان بوصفهما سفارتين مستقلتين ، بل إنه يرجع بسفارة نَنّوس إلى الأزمنة التالية لعام ٥٣٦ بسبب ما سبقته به سفارتا يوليان ووالد نَنّوس المدعو ابرام إلى قيس . وفيما عدا هذا فإن من الضروري أن نأخذ بعين الاعتبار أن قيساً كان هو العامل على فلسطين ، ومن ثم يصبح من العسير أن نتصور أن أبا كرب قد حصل معه على الفيلارخية في وقت واحد .

والرقيم الشهير من جنوبي الجزيرة العربية الذي كشف عنه جلازر(١٢٩) عند سد مأرب قد يسّر معالجة عدد من المشاكل على أساس جديد تماماً ، بما في ذلك مسألة العلاقات بين بيزنطة وحمير والعرب . ويرجع غلازر بسفارة نَنّوس إلى عام ٥٢٩ أو عام ٥٣٠ واضعاً في حسابه أن يوليان قد سافر مستقلاً عنه . وقد امتدت فيلارخية أبي كرب على أية حال إلى ما قبل عام ٥٤٣ وهو العام الذي تم فيه نصب رقيم أبرهة الذي يرد الكلام فيه عن وصول رسول أبي كرب . ووفقاً لمادة الرقيم فقد أُعتبر أبو كرب أخاً للحارث بن جبلة الغساني . والتأرجح في التواريخ الذي أحاط بالتقويم الحميري قد اضطر جلازر إلى تعديل تواريخ السفارات البيزنطية ، خاصّة وأن مسألة وقوع فيلارخية أبي كرب وقيس في وقت واحد قد أثار صعوبات كبرى .

وقد أثبت اولندر(١٣٠) في دراسته لتاريخ كندة أن سفارة يوليان التي يتحدث عنها بروقوبيوس إنما يرجع تاريخها إلى ما قبل عام ٥٣١ وهو عام موت الشاه قباد . وكان قيس حاكماً على قبيلتين معروفتين هما كندة ومعد ؛ وقد أُرسل ابرام والد نَنّوس ليعقد الصلح معه وليجلب ابناً لقيس يدعى معاوية رهينة معه . أما نَنّوس فقد كانت مهمته أن يجلب قيساً نفسه وأن يزور السبوا [الاصبحه] ، ملك اكسوم آنذاك . وأعقب هذا تكليف ابرام بمهمة أخرى هي أن يقنع قيساً بأن يترك لأخويه عمرو ويزيد حكم قبيلتي كندة ومعد ؛ وأن يأخذ

---

(١٢٨) A. Dillmann. Zur Geschichte des Axumiten Reiches im IV bis VI Jh. Abhandlungen der Akademie der Wissenschaften zu Berlin. 1880. pp. 41 - 44.

(١٢٩) E. Glaser. Zwei Inschriften über den Dammbruch von Marib. Mitteilungen der Vorderasiatischen Gesellschaft. Berlin. 1897. pp. 70,77 - 89. 125.

(١٣٠) G. Olinder. The Kings of Kinda. pp. 114 - 115.

على عاتقه هو حكم فلسطين . كذلك فإن عام ٥٣١ هو أيضاً العام الذي كان قيس قبله طريداً منفياً . ويرى اولندر في قيس هذا أنه سليل بيت آكل المرار الذين « عرفهم الروم كحلفاء وودّوا لو رأوهم كرّة أخرى على رأس القبائل بنجد ، وهي رغبة أعرب عنها يوليان (كما يذكر پروقوپيوس) في سفارته »[١٣١] . أما سفارتا نّنوس إلى قيس وإلى اثيوبيا فترجعان إلى عام ٥٣٦ بالتقريب .

وفي عام ١٩٥٤ قام سدني اسمث[١٣٢] بفحص جديد لمسائل تاريخ الجنوب العربي والسفارات التي وصلت إليه ، وخرج من ذلك بافتراضات جديدة / ربطها منذ البداية بأهداف پروقوپيوس المُغرضة ، مثل رغبته في هذه الحالة بالذات في أن يخفي عواقب الفشل الذي مني به بلزاريوس عند قللينيقة عام ٥٣١ . وهذا الفصل من «الحروب الفارسية» يبدؤه بالكلام عن البلميين [البجة] والنوبتيين [النوبيين] ، ويلي ذلك « حكاية » تتصل باتخاذ يوسطنيان لقرار باستغلال معاونة الاثيوبيين والحميريين ضد الفرس . ويربط پروقوپيوس انتصار اثيوبيا في الجنوب العربي « بزمن هذه الحرب » التي يحدد اسمث تاريخ وقوعها بالفترة بين عامي ٥٢٧ و ٥٣٢ . وخطأ پروقوپيوس في رأيه لم يكن وليد الصدفة ، إذ المعلوم أن انتصار إثيوبيا يرجع إلى عام ٥٢٥ . ثم تلى هذا الرواية عن انتصار ابرهة وأخرى عن سفارة يوليان . ويصر اسمث على زعمه بأن نّنوس وابرام لم ينتميا إلى طبقة الأعيان وأن السبب الوحيد لارسالهما هو معرفتهما باللغة العربية . أما يوليان وأخوه سومس فقد كانا من الارستقراطية وينتميان إلى الطبقة العليا ، أي البيروقراطية الحكومية . وبمعنى آخر فإن سدني اسمث يتشكك في صلاحية نّنوس ليكون سفيراً ، على الرغم من أنه هو الذي يرجع إليه الفضل في تدوين المذكرات . بل إن اسمث يذهب إلى أبعد من ذلك فيرى أن رواية ملاله ، والتي يوردها في ترجمة تقريبية باللغة الإنجليزية ، إنما تعالج الكلام على مجيء السفير لا إلى النجاشي باكسوم بل إلى « مدينة من مدن حمير» . وقد نسي اسمث أن الجنوب العربي كان آنذاك في وضع من التبعية لاكسوم وأنه كان بمقدور النجاشي أن يصدر أوامره لحمير الخاضعة له والتي كان يحكمها عامله (« خليفة » ، وفقاً لرقيم مأرب) ، ولذا فهو يرفض مقالة ملاله بأن الأمر إنما يتعلق باكسوم . كذلك نراه يتشكك في القيمة « التاريخية » لروايات پروقوپيوس وينفي[١٣٣] إمكانية ارسال السفير ابرام ، ضارباً بعرض الحائط حقيقة أن ابرام نفسه كان قد اضطلع بنجاح من قبل بمهمتين دبلوماسيتين عسيرتين إحداهما عقد الصلح مع قيس والاخرى إقناعه بأن يأخذ على عاتقه « الهيجمونية » (أي الزعامة) على قبائل عرب فلسطين . وبذا فإنه لا يحظى بالثقة لدى اسمث إلاّ سفارة يوليان التي تمت عام ٥٣١ والتي كانت وجهتها حمير وليس اكسوم . أما ما نقله البطريرك فوتيوس من مدونات نّنوس فهو لا يوليه ما يستحقه من أهمية .

(١٣١) شرحه ، ص ١١٦

(١٣٢) S. Smith. Events in Arabia...., pp. 448 - 451.

(١٣٣) شرحه ، ص ٤٥٠

وأما مقال قعوار [شهيد] الذي أفرده بصورة خاصة للعلاقات بين بيزنطة وكندة(١٣٤) فإنه يعالج بالتفصيل أهداف السفارات ويحدد تاريخ حدوثها . وقد وجد مخرجاً من هذا المأزق بأن جعل يوليان ونّنوس شريكين في سفارة واحدة . ونّنوس بوصفه « الطرف الأصغر » كُلِّف بزيارة بلاد العرب الوسطى ، ثم انضم عقب ذلك إلى يوليان بإثيوبيا وأفاده بنتائج رحلته ، أي بما كان عليه الوضع في حمير وما حمله إليه من أخبار قيس . وبهذا فإن ننوس قام برحلته في عام واحد مع يوليان ، وهو عام ٥٣٠(١٣٥) . وكما حدث في حالات أخرى فإن قعوار [شهيد] يتهم بروقوبيوس بتشويه الوقائع عن قصد ، ولهذا فإنه يرفض / شهادته أو أنه يقلّل من قيمتها . ولأن قيساً كان قد قتل أحد أقرباء الملك سميفع فإن بيزنطة كما يرى قعوار [شهيد] جهدت في تسوية الخلاف بينهما لتحقق عمليات عسكرية مشتركة ضد ايران تسهم فيها حمير (سميفع) والقبائل العربية المعترفة لها إلى حد ما بالطاعة وهي كندة ومعد التي كان يحكمها قيس(١٣٦) . وقد حال العداء بين الاثنين [أي سميفع وقيس] دون تحقيق هذا العون العسكري الذي كان لازماً لبيزنطة ؛ وفوق هذا فإن معداً ثارت على قيس . هذا هو الاستنتاج التعسفي الذي خرج به قعوار [شهيد] استناداً على شهادة بروقوبيوس الذي يذكر أن مهمة السفير البيزنطي كانت هي السعي لدى سميفع كي ينصّب قيساً عاملاً على معد(١٣٧) . ومن الواضح الجلي أنه يستحيل الخروج بمثل هذا الاستنتاج استناداً على رواية بروقوبيوس . ذلك أنّ ملكَ حمير كان لديه من الأسباب ما يمنعه من الاعتراف بقيس رئيساً لمعد مبرراً ذلك برغبته في الثأر لقريبه . ويولي هذا البحاثة اهتماماً خاصاً لواقعة وردت في متن نّنوس . ذلك أنه لا يذكر قيساً بوصفه فيلارخاً لفلسطين أو لواحدة من هذه الثلاث التي حملت ذلك الاسم ، بل يذكره فيما يتعلق « بالهيجمونية » hegemonia ، مما قد يوحي بأن قيساً قد شغل مكانة هامة ؛ هذا بينما يشير واقع الحال إلى أنه لم يحظ بسلطة حقيقية(١٣٨) . من هذا يتبيّن أن قعوار [شهيد] قد أضاف من عنده الكثير من الزيادة والاستنباطات مما لا وجود له أصلاً بالمصادر .

164

كذلك يركّز البروفسور برتولدروبين B.Rubin في مؤلفه الضخم عن يوسطنيان انتباهه على سياسة يوسطنيان إزاء بلاد العرب وإثيوبيا(١٣٩) . وهو يشير إلى وجود رواية « بتاريخ » ملاله يفهم منها أن سفارة يوليان كانت ذات أهداف سياسية واقتصادية . ذلك أن العلاقات بين اثيوبيا وحمير كانت قد تغيّرت بصورة حادّة بين عامي ٥٣٠ و ٥٣٣ عندما أصبحت بلاد العرب الجنوبية مستقلةولم تعد تدين بالتبعية للنجاشي . كذلك يرى روبين أن قيساً كان « فيلارخاً لفلسطين » ، ولكن غير معروف ما إذا كان قد مات أم عزل ليفسح

(١٣٤) I. Kawar. Byzantium and Kinda. Byzantinische Zeitschrift. 1960. Bd. 53. pp. 58. 61.

(١٣٥) شرحه ، ص ٦٣

(١٣٦) شرحه ، ص ٦٥

(١٣٧) شرحه ، ص ٦٥ ، ٧٦

(١٣٨) شرحه ، ص ٦٨ - ٦٩

(١٣٩) B. Rubin. Das Zeitalter Justinians. pp. 315 - 316. 318. 505.

المجال لأبي كرب . ومما تجدر الإشارة إليه من بين الميزات الكبرى لمصنف روبين ، معرفة المؤلف العميقة بمختلف المصادر وتحليله لها تحليلاً مفصلاً . وهو في وصفه للأحداث المرتبطة بالسياسة الشرقية ليوسطنيان أفاد من بحوث المتخصصين من المستشرقين جنباً إلى جنب مع مادة المؤرخين البيزنطيين . أما بحثنا « بيزنطة في الطريق إلى الهند » (١٩٥١) فقد أفاد منه روبين في مصنفه المذكور آنفاً ، هذا بينما تذرّع عرفان قعوار [شهيد] بعذر لم يعد العلماء يحتجون به على أيامنا هذه وهو عدم معرفته بالروسية (rossica non leguntur) ليبرر زعمه بأنه لم يرجع إلى كتابنا ذاك . على أن عدداً من حجج الكتاب واستعماله المفصّل للمصادر قد وجد طريقه إلى مقاله هذا .

هذه النظرة السريعة التي ألقيناها على أعمال الباحثين تبيّن إلى أي حد شغلت مسألة السفارات مكانة هامة في البحوث المتعلقة / بتاريخ بيزنطة في النصف الأول من القرن السادس ، وكذلك فيما يتعلق بتاريخ القبائل العربية ودول ذلك العهد . ولهذه البحوث أهميتها في تقييم سياسة بيزنطة ، لأنها تساعد على إجراء المقارنة بين المصادر وعلى توضيح اتجاهاتها السياسية ، كما هو الحال مع بروقوبيوس . أخيراً فإنها تثبت صحة عدد من الوقائع الجديدة بالثقة في تاريخ القبائل العربية . وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار ما يحيط من صعوبات هائلة بحساب السنين وضبطها بالنسبة لتاريخ القبائل العربية ، فإنه إذا ما أمكن ضبط السنين إلى ما يقرب من عامين أو ثلاثة لوقوع حادث ما لمثّل ذلك أهمية كبيرة لدى الباحثين . كذلك من المستحيل إغفال أن النظرة العاجلة التي ألقيناها إنما تكشف أيضاً عن بعض السمات الفردية للباحثين ، مثل عدم تصديق اسمث لرواية ملالا فيما يتصل باثيوبيا رغماً من وضوحها التام ؛ أو التحيّز الذي ينعكس في موقف النقد المتطرف الذي يقفه قعوار [شهيد] من المصنفات التاريخية لبروقوبيوس القيساري . لذا فإن تحليلنا الموجز لآراء هؤلاء الباحثين قد لا يخلو في هذه الحال من بعض الفائدة .

16

السفارات

لم يكن تنظيم تلك الولايات التي كان العرب يمثلون الغالبية من سكانها أمراً يسيراً بالنسبة للامبراطورية البيزنطية . ففي القرنين الخامس والسادس كان من الضروري افراد انتباه خاص لولاية فلسطين الثالثة التي كانت تشمل قسماً من الأراضي التي دخلت في الماضي في دولة الأنباط بما في ذلك مدن البطرا وارندله واريوبوليس وايلوزه . كذلك دخلت في هذه الولاية شبه جزيرة سيناء ومدينة أيله وجزيرة يوتابه ، كما كان يجتازها أقصر الطرق البرية التي تربط مرافىء البحر المتوسط بمرافىء البحر الأحمر . ولقد كانت الأهمية الاقتصادية لهذه الولاية كبيرة ، بحيث يمكن القول بأن هذا كان من أسباب الصراع الذي شبّ من أجلها في

الربع الأخير من القرن الخامس . ولمّا استعادت بيزنطة وضعها السابق بيوتابه في بداية القرن التالي شرعت في معالجة المشكلة الخاصة بالسيطرة على طريق التجارة المؤدية إلى الجنوب العربي ، كما شرعت في تنمية نفوذها بين القبائل العربية من الحضر والبدو التي كانت تسيطر على هذه الطرق . ومن هنا انبعث لديها الاهتمام بفينيقون وبقبائل معد ، وبتدعيم الروابط دوماً مع الحميريين ومع دولة اكسوم على السواء .

لهذا فإنه لا يمكن قبول الرأي القائل بأن الامبراطورية قد أهملت مصير بني معد والكنديين ، الذين شغلوا مناطق وسط الجزيرة العربية . وواقع الحال هو أن بيزنطة قد وجّهت اهتمامها إلى حوض البحر الأحمر عامة ، الأمر الذي تشهد به في المكانة الأولى الاتصالات الخاصة ذات الطابع الرسمي وأعني بهذا السفارات .

وتبادل السفارات من أقدم أنماط الاتصال بين الدول . فمنذ عهد مبكّر تشكلت أسس القانون الدولي والوضع الخاص للسفير وما يجب أن يتمتع به من حصانة ، مثل حقه في مغادرة البلاد التي أرسل إليها دون ما أي عائق وفي أي وقت يشاء . وببيزنطة ترتفع القواعد والرسوم المرتبطة بالعلاقات الدولية إلى تقاليد روما الامبراطورية ، غير أنها تطورت وزادت تعقيداً ببيزنطة حيث أحيط الممثل الرسمي « لقيصر » و« لأغسطس » بجميع مظاهر الاحترام / والتعظيم . وبجانب السفراء تمت الإفادة أيضاً من خدمات شخصيات أقل مرتبة منهم ، بعضها من التجار و الآخر من رجال الدين ، الذي أوكل إليهم فتح باب المحادثات واستطلاع الإمكانيات لبلوغ النتائج المرجوّة ؛ وهو شيء أشبه ما يكون بالاستعلام والتجسس . وبالنسبة لتاريخ الشعوب التي هددت تخوم الإمبراطورية ، كالعرب والصقالبة والترك ، فإن ما حوته التقارير الرسمية للسفراء البيزنطيين وما جاء في رواياتهم ومدوّناتهم بصدد هذه الشعوب إنما يمثل مادة ذات أهمية استثنائية . وإن ما اشتهرت به الدولة في مجال التشريع وصياغة القوانين وتسجيل الخراج والأراضي قد عوّد عمالها على الإنشاء والتدوين ، هذا بالإضافة إلى ما تميزت به اللغة اليونانية من سلاسة وقابلية للتعبير . كل هذا ولّد لديهم عادة الكتابة ودفعهم إلى تسجيل الأحداث والوقائع وكل ما له علاقة بالأقطار الأجنبية ، ليس الضروري منها فحسب بل وحتى الذي يغلب عليه الطابع القصصي أيضاً . وسواء تعلّق الأمر بمدونات السفير ننّوس أو بالرسائل المطوّلة بالسريانية التي بعث بها شمعون الأرشمي إلى أحد أصدقائه أو بالأوصاف التي سجلها قوزماالذي أبحر إلى الهند وذلك في مصنفه « الطوبوغرافيةالنصرانية » ؛ أقول إن جميع هذه المدوّنات يمكن ردها إلى التقاليد الإنشائية والكتابية التي احتذاها هؤلاء الرحالون سواء لدوافع شخصية أو رسمية ، بغرض وصف تجوالهم خارج حدود الامبراطورية . وإن ما حفظ لنا من هذه المدوّنات ليمدنا بمعلومات قيّمة للغاية عن الشعوب التي دخلت معها بيزنطة في علاقات .

166

ومن الأهمية بمكان ضبط التتابع الزمني للسفارات البيزنطية . ولعله من الأفضل قبل الدخول في ذلك أن نفرغ من معالجة المسألة المتعلقة بفيلارخية آرثه [حارثه ، الحارث] المنحدر من صلبه قيسٌ . وبما أن الأمر

يتصل بالكنديين فإن هناك أساساً قوياً للقول بأن آرثه هذا إنما هو الحارث بن عمرو بن حجر الذي قتل عام ٥٢٨(١٤٠) . وإلى هذا الحارث أُرسل جدنّوس في عهد الامبراطور انسطاس . واسم الجد الذي لا يذكره نّنوس هواويور ، لأن والد نّنوس المدعو ابرام معروف لشمعون الأرشمي باسم ابرام براويور [ابراهيم ابن فورس] . ويتضح من ألفاظ نّنوس نفسه(١٤١) أن جده أُرسل في عهد الامبراطور انسطاس لعقد الصلح مع الحارث الكندي . وقد حفظت حوليات ثيوفانيس تفاصيل عن عقد الصلح مع آرثه « المدعو ثالبان » ؛ وهو « الحارث بن ثعلبة » الكندي . / أما تاريخ الصلح فهو عام ٥٠٢ ؛ أي أن ذلك جرى عقب التخريبات الذريعة والغارات التي شنتها القبائل العربية الخاضعة لهذا البيت بنواحي فينيقية وسورية وفلسطين في العام السابق له ، وهو عام ٥٠١(١٤٢) . والأرجح أن سفارة أويور لعقد الصلح مع الكنديين إنما ترجع إلى عام ٥٠٢ . وكان من نتائج هذا أن قاتل بنو ثعلبة بفاعلية إلى جانب بيزنطة في عامي ٥٠٢ و ٥٠٣ ووجهوا ضربة شديدة للخميين « عرب الفرس » بانقضاضهم الفجائي على الحيرة(١٤٣) . وكان آرثه فيلارخاً في خدمة بيزنطة عندما نشب النزاع بينه وبين السيلنسيار ديوميدوس دوكس (قائد القوات العسكرية) فلسطين ، فاضطر الكندي « ابن ثالبان » إلى الهرب إلى مواضع نائية من الجزيرة العربية .

167

وكان « ابرام براويور » والد نّنوس قد أرسل غير مرة في مهام إلى مختلف الحكام العرب . ففي عهد الامبراطور يوسطين الذي خدمه ابرام ، أُرسل اويور إلى « المنذر فيلارخ السرقينيين » وهو المنذر الثالث ملك اللخميين . وتفاصيل سفارته معروفة من مصدر سرياني هو رسائل شمعون الأرشمي(١٤٤) . وكان الأسقف المونوفيزي (اليعقوبي) شمعون الأرشمي من دعاة النصرانية بالحيرة وأدخل الكثيرين من العرب في هذه العقيدة ، وأقنع « أعيانهم » ببناء بيعة بالحيرة . هذه البيعة النصرانية جذبت الانتباه بسبب آخر هو أنه وجدت بها قائمة تسجل سنى حكم ملوك الحيرة مع مقابلة ذلك بسنى حكم شاهات الساسانيين ؛ وكان هذا أمراً معلوماً حتى للمؤلفين العرب المسلمين في أزمنة متأخرة(١٤٥) .

وقد غادر ابرام وشمعون الأرشمي الحيرة في العشرين من شهر يناير عام ٥٢٤ (العشرون من كانون الثاني عام ٨٣٥ من التقويم السلوقي) ، وذلك لأنهما لم يجدا المنذر بها ، فقد ضرب ملك الحيرة معسكره

---

(١٤٠) Malalas, Chronographia, pp. 434, 435; Th. Nöldeke, Die Ghassanischen Fürsten ....., p. 11; W. Caskel, Entdeckungen in Arabien...... p. 13

(١٤١) Nonnosus, Fragmenta, p. 179.

(١٤٢) Theophanes, Chronographia, pp. 143, 144.

(١٤٣) N. Pigulevskia, Mesopotamia na rubeje V/ VI vv. Khronika Jeshu Stilita, No. 57, str. 153.

(١٤٤) عن التفاصيل راجع : N. Pigulevskia, Vizantia na putiakh v Indiu str. 228-233.

(١٤٥) الطبري وحمزة الأصفهاني (انظر : N.V. Pigulevskia, Araby u granits Vizantii v IV v. Palestinkii sbornik vyp. 5, str. 49-51) .

وسط الصحراء « بإزاء الجبال المعروفة بالداخلة وتعرف في اللغةالعربية باسم الرملة »[١٤٦] والتي تفصلها عن الحيرة عشر مراحل . وقد كُلّف ابرام بأن يعقد صلحاً مع المنذر[١٤٧] وأن يهتم بصورة خاصة بتخليص اثنين من قواد الروم هما طيموسطراط ويوحنا « كانا قد أسرا وفقاً لقانون الحرب »[١٤٨] . هذه المعلومات التي ندين بها لمصدر يوناني ولآخر سرياني يكمل بعضها بعضاً ؛ ومن الواضح أنها إنما تتعلق بهذه السفارة في كلا الحالين . ويجب ألّا يغيب عن البال / أن أسرة نّنوس كانت سريانية ؛ كما وأن صلة ابرام بشمعون إنما تقف دليلاً على أن ابرام كان أيضاً مونوفيزياً . وبما أن النصرانية في اثيوبيا وبلاد العرب الجنوبية قد انتشرت في صيغتها المونوفيزية فإنه يضحى مفهوماً كل الفهم لماذا أفادت القسطنطينية من خدمات السريان المونوفيزيين لبلوغ أهدافها ، خاصة وأن ابرام كان قساً وعلى معرفة بالعربية . وعند بلوغه معسكر المنذر كانت قد وصلت أخبار الاضطهادات التي تعرض لها النصارى بنجران[١٤٩] .

168

وبعثة ابرام لم تنجح إلّا نسبياً ، لأنه لم يوفّق عن طريق الدبلوماسية وحدها في فك إسار القائدين ، إذ كان من اللازم افتداؤهما . ويؤكد بروقوبيوس بدوره أن الأمر تم بهذه الصورة . غير أنه يجب الاعتقاد بأن شطراً من فديتهما قد تكبدته دون شك الخزانة الامبراطورية ، وإن كان مؤلف كتاب «الحروب الفارسية » لم يرد الاعتراف بتلك الحقيقة لأنها غير سارة بالنسبة للروم[١٥٠] .

أما المهمة الأخيرة التي أنيطت بابرام فقد مست العلاقات مع قيس فيلارخ قبائل كندة ومعد العربية ، والذين سبق وأن أرسل إليهم الامبراطور يوسطنيان بابرام قبل عام ٥٢٧ . ولعلنا لا نعدو الصواب إن قلنا إن اسم قيس هذا ليس سوى اختصار لاسم امرىء القيس المعهود لدى الكنديين . وكان قيس « من نسل آرثه » ويحكم على القبيلتين المذكورتين[١٥١] ، وهو ينحدر « من بيت فيلارخات وامتاز بصفاته العسكرية »[١٥٢] .

وتوكد الرواية العربية التي نلتقي بها لدى حمزة الاصفهاني أن قيساً كان من أقرباء الحارث ، وإن لم ينحدر من صلبه[١٥٣] . وقد دخلت في فيلارخية قيس نجد وبعض مناطق وسط الجزيرة العربية التي كانت تشغلها كندة ومعد . وكانت هذه القبائل في الماضي تدين بالتبعية لحمير لأنها أصلاً من جنوبي الجزيرة ، ولكنهم حتى بعد هجرتهم لم يفصموا هذا الرباط وظلّوا يعتمدون كثيراً على حمير . ولقد جهد اللخميون من أجل مصلحة الفرس بل ومن أجل مصلحتهم الخاصة في إخضاع معد لنفوذهم . غير أن القسطنطينية ما كانت

(١٤٦) I. Guidi. La Lettera di Simeone vescovo di Beth-Arsam sopra i martiri omeriti. Ed. I. Guidi. Reale Accademia dei Lincei. Memorie della classe di czienze morali, storiche e filolgiche, ser. 3, v. VII. Roma, 1881, p. 8.

(١٤٧) شرحه ، ص ١

(١٤٨) Nonnosus. Fragmenta. p. 179.

(١٤٩) N. Pigulevskia. Vizantia na putiakh v Indiu. str. 228 - 233.

(١٥٠) Procopius. De bello persico. I. 17. p. 90.

(١٥١) Nonnosus. Fragmenta. p. 179.

(١٥٢) Procopius. De bello persico. I. 20. p. 109.

(١٥٣) Hamza Ispahanensis. Annales. I. p. 141 (112); G. Olinder. The Kings of Kinda. p. 92.

لتسمح بحدوث أمر خطير كهذا . ولعل صدى ذلك قد تردّد في الغارات العديدة التي قامت بها القبائل العربية على أراضي الامبراطورية ، كما انعكس أيضاً في الجهود التي بذلها الروم لفترة طويلة لصدهم ولعقد الصلح معهم . وكان هذا هو الدافع لارسال ابرام والد ننّوس في عهد يوسطنيان لعقد اتفاقية للصلح معهم ، وليحاول بقدر المستطاع أن يأخذ ابناً لقيس واسمه معاوية بصفة رهينة ويحضره إلى يوسطنيان / ببيزنطة[١٥٤] . 169
وكان أخذ الرهائن في العلاقات مع القبائل العربية إجراءً معهوداً ؛ وهو معروف أيضاً من الرقوم السبئية (مثال ذلك الرقيم Ry 506 من مريغان لعام ٥٤٧) . ولقد بذلت حكومة يوسطنيان جهدها لتدعيم الروابط مع القبائل العربية بنجد لتصبح دعامة تعتمد عليها ودرعاً ضد اللخميين وضد الغارات الفجائية التي كانت تقوم بها القبائل العربية الأخرى . واتجاه بيزنطة إلى قيس يضحى مفهوماً من واقعة أن قيساً كان رئيساً لقبائل كندة ومعد « وحاكماً » لها ، كما كان أقدر سيد بمناطق وسط الجزيرة العربية وأقواهم جميعاً ؛ وفوق ذلك كان بمقدوره الإشراف على الطريق البرية التي تجتازها . ويلي الكلام عن سفارة ابرام تقرير ننّوس عن سفارته إلى قيس وإلى ملك أكسوم السبوا (إلاصبحه) . وهو يبدأ حكايته بالألفاظ الآتية : « وتلا هذا بوقت » و « وفي وقت تالٍ لهذا » ، مما يفترض معه وجود فترة زمنية بين هاتين السفارتين .

وإلى عام ٥٢٥ يرجع انتصار ملك اكسوم إلاصبحه (السبوا ، كالب) على الحميريين ، وتعيينه سميفع (اسيمفي) عاملاً عليهم يعترف له بالتبعية ويدفع إتاوة سنوية . وإلى هؤلاء الملوك والشاه قباد ما زال على قيد الحياة (مات عام ٥٣١) ، تم توجيه يوليان بمهمة دبلوماسية ؛ ويوليان هذا أخ لقائد (استراتيج) جند فلسطين سومُّس Summus[١٥٥] . وكانت مهمة السفير أن يطلب عونهم في الحرب ضد الفرس ، لأن هذا من واجبهم بوصفهم إخوة للروم في الدين[١٥٦] . أما المهمة الثانية للسفير فهي أن يجهد لإقناع الاثيوبيين بجدوى المتاجرة في الحرير مع بيزنطة كي لا تذهب أموال بيزنطة إلى الفرس الأعداء[١٥٧] ، لأنهم هم الذين كانوا يزودون بيزنطة بتلك السلعة القيمة .

وأما المهمة الثالثة للسفارة فكانت لحمل الحميريين وعرب معد على شن غارة على « أرض الفرس » واقناعهم بأن تحقيق ذلك يرتبط إلى حد كبير بالسماح لقيس الهارب بالرجوع واستعادة فيلارخيته ؛ وكان قيس قد قتل أحد أقرباء اسيمفي لذا فقد هجر إمارته وهرب « إلى صحراء ليس بها نافخ نار » . وكل هذا يؤكد أن قيساً فيلارخ معد كان يدين بالتبعية للحميريين وأنه لم يكن من الميسور تنصيبه أو حتى عودته دون موافقتهم ، خاصة وأنه كان بمقدور اسيمفي أن يطالب بدمه ويقتله وفقاً للعرف الجاري بأخذ الثأر . وكان قيس بحكم

---

(١٥٤) Nonnosus. Fragmenta. p. 179.
(١٥٥) Procopius. De bello persico. II. 1. p. 149.
(١٥٦) شرحه ، ١ ، ٢٠ ، ص ١٠٨
(١٥٧) شرحه ، ص ١٠٩

نسبه (وهو من سلالة الفيلارخات) وبحق الوراثة فيلارخاً على الكنديين ، كما كان أيضاً فيلارخاً على معد المعروفة بقدراتها الحربية . ولما كان اسيمفي قادراً على / الأخذ بثأره منه فإن قيساً فضّل الاختفاء في مواضع نائية من الصحراء ، الأمر الذي لم يغيّر بأية حال من وضعه كزعيم للكنديين . أما فيما يتعلق بزعامته على معد فمن الطبيعي أن افتراض قعوار [شهيد] بأن هؤلاء قد ثاروا ضد قيس أمر غير صحيح ولا يؤيده أيّ من المصادر . ومن ا لجائز أن اسيمفي لم يرد الاعتراف به فيلارخاً لمعد التي تدين بالتبعية لحمير ، وأن الروم كانوا يتمنون أن يحصلوا على اعترافه به . ولقد كانت مصالحة اسيمفي مع قيس والاعتراف به فيلارخاً أمراً هاماً بالنسبة لبيزنطة ، إذ على ضوء هذا فقط كان من الممكن أن يتبلور نشاط عسكري لحلف عربي ضد اللخميين الذين يظاهرون ايران ويؤازرونها . وقد وعد الزعيمان بتحقيق رغبة بيزنطة وتركا السفير ينصرف دون أن ينفذا وعدهما . وبخلاف هذا فإن المتن لا يضيف شيئاً آخر سوى أنهما لم يضطلعا بالهجوم على ايران ؛ كذلك فإن پروقوپيوس لم يعد للكلام عن قيس مرة أخرى[١٥٨] .

170

واعتماداً على الملابسات التي أحاطت برواية پروقوپيوس عن سفارة يوليان فإن معظم الباحثين يرجعون بها إلى عام ٥٣١ ، وذلك عقب روايته عن واقعة فللينيقه . وإلى هذا الوقت بطبيعة الحال ترجع أيضاً الوساطة بصدد قيس . أما عقد الاتفاقية مع بيزنطة وأخذ معاوية رهينة فقد اضطلع بها ابرام في أغلب الظن عقب مصالحة قيس مع حمير وبالتالي بعد سفارة يوليان ، خاصة وأن مدوّنات ننّوس (كما وردت لدى فوتيوس) تذكر سفارة ابرام إلى قيس وتقفوها بسفارة ننّوس ثم تعود مرة أخرى إلى الحديث عن سفارة ابرام .

وتحيط بعض الصعوبات بتحديد تاريخ سفارة يوليان . وإذا حدث وأن ذكرها في إحدى الحالات لدى پروقوپيوس (BP.I,20) قد يدفع إلى إرجاعها إلى عام ٥٣١ ، فإن ألفاظه في حالة أخرى ترتطم ببعض الوثائق . ففي بداية الكتاب الثاني من «الحروب الفارسية» (BP.II,1) يتحدث هذا المؤرخ عن سومس « أخي يوليان ؛ وهذا الأخير سبق أن أرسل منذ عهد غير بعيد سفيراً إلى الاثيوبيين والحميريين »[١٥٩] . هذه الألفاظ لپروقوپيوس تدفعنا إلى الخروج ببعض الافتراضات . منها أن النزاع بين القبائل العربية من أجل « الاسطراط » والذي ساق إلى استدعاء سومس ، قد حدث في عام ٥٤٠ . وبهذا فسيكون من العسير القول بأن سفارة يوليان قد حدثت « منذ عهد غير بعيد » إذا ثبت أنها تمّت قبل عشرة أعوام من ذلك التاريخ . ويجوز الافتراض أيضاً بأن پروقوپيوس قد اقتصرت معرفته على السفارة الثانية ليوليان التي لم تكن موجهة إلى السبوا لأنه حل محله في بداية الثلاثينات أبرهة[١٦٠] . وثمة افتراض ثالث آخر وهو أن پروقوپيوس لم يول

---

(١٥٨) شرحه

(١٥٩) شرحه ، ٢ ، ١ ، ص ١٤٩ .

(١٦٠) N. Pigulevskia. Vizantia na putiakh v Indiu. str. 314. 326; S. Smith. Events in Arabia..... p. 465.

اهتماماً كبيراً للتواريخ فخلط بعض الشيء بين الأحداث وأهمل ضبطها ، بحيث أرجع هذه السفارة الواردة في الكتاب الأول من «الحروب الفارسية» إلى زمن يسبق ذلك بكثير . / ولعل الغموض الذي أحاط برواية بروكوبيوس قد زاد منه الحالة البيئة التي وُجد عليها متن ملاله ، الذي لا يذكر اسم السفير بل اقتصر من حين لآخر على تكرار معلومات معروفة من ننّوس .

والاختلاف في الطابع بين سفارتي يوليان وننّوس تبرز للعيان بصورة واضحة . وقد أرسل يوليان في وقت كانت فيه العمليات العسكرية لايران ضد بيزنطة على أشدّها ؛ فمنذ عام ٥٢٩ حتى عام ٥٣١ تتابعت الحملات الفارسية الواحدة بعد الأخرى . ففي عام ٥٢٩ تم تخريب سورية وبلغ اللخميون ضواحي انطاكية ؛ وفي عام ٥٣٠ وقعت المصادمات عند قللينيقه (الرقة) ونال فيها الفرس نصراً « أشبه بالهزيمة »[١٦١]. وكانت بيزنطة في حاجة ماسة إلى العون والمساعدة ، لأن غارة يقوم بها « الحميريون والسرقينيون من قبائل معد على أرض الفرس » كانت ستخفف كثيراً من ضغطهم على الامبراطورية[١٦٢] ؛ وهذا العون هو الذي طلبه السفير يوليان .

ومعلوم من سفارة ننّوس أن مهمته كانت أن يجهد « ما أمكنه » في المجيء بقيس إلى الامبراطور وأن يزور ملك اكسوم إلسبوا (إلاصبحه)، وأن يقوم بزيارة للحميريين[١٦٣] . ولقد حاول سدني اسمث أن يجمع بين سفارتي يوليان وننّوس في سفارة واحدة[١٦٤] ، غير أن من العسير الاتفاق معه في استقراءاته كما بيّنا آنفاً . وأكثر من هذا تعسّفاً افتراض قعوار [شهيد] بأن يوليان وننّوس خرجا في سفارة واحدة وأن ننّوس كانت وجهته الجزيرة العربية وأنه لحق بيوليان فيها بعد باثيوبيا وأفضى إليه بنتائج مهمته[١٦٥] . غير أن جميع هذه الافتراضات لا تزال تفتقر إلى البرهان بالنسبة للحالة التي عليها المصادر . ولقد كان من نصيب « ابن ابرام » رحلة طويلة محفوفة بالمخاطر . ولكي يصل إلى بغيته فقد اضطر ننّوس إلى التغلب على مصاعب جمة في الطريق وقاسى الكثير من العنت والمشقة من مختلف الشعوب وتعرض لهجوم الضواري والوحوش .

وأكثر تفصيلاً من هذا وصف رحلة لسفير أُغفل ذكر اسمه ؛ ويوجد وصف السفارة لدى ملاله (ص ٤٥٦ - ٤٥٩) . أما لدى ثيوفانيس (ص ٢٤٤ - ٢٤٥) فيرد اسم السفير على أنه يوليان ، غير أن زمن حدوث السفارة أرجع إلى عهد يوسطين الثاني . بيد أننا نلتقي في النقول الموجودة لدى فوتيوس من مدوّنات ننّوس بمعلومات تقرّب بين المصادر الثلاثة .

---

(١٦١) B. Rubin. Das Zeitalter Justinians, pp. 274. 280. 284.
(١٦٢) Procopius. De bello persico. I. 20. p. 109.
(١٦٣) Nonnosus. Fragmenta. p. 179.
(١٦٤) S. Smith. Events in Arabia..... pp. 449 - 450.
(١٦٥) I. Kawar. Byzantium and Kinda. BZ. 1960. t. 53. pp. 61. 63.

ويبدو أن القسطنطينية عقدت آمالاً عراضاً على قيس ، فقد كانت هناك حاجة ماسة إليه لا بوصفه فيلارخاً للقبائل العربية بنجد فحسب ، بل احتيج إليه على حدود الأمبراطورية نفسها ليقوم بحراسة إحدى ولاياتها . ولم يوفّق نّنوس في إقناع قيس بزيارة القسطنطينية ، وبذا فإن هذا الجانب من مهمته الدبلوماسية لم يكلّل بالنجاح . لهذا فقد أُرسل إليه ابرام والد نّنوس مرة أخرى ؛ عندئذ ترك قيس « فيلارخيته » ، أي زعامته على قبائل كندة / ومعد ، لأخويه عمرو ويزيد وقسّمها بينهما ثم توجّه إلى القسطنطينية . وبالرغم من أن يوتابه عادت إلى بيزنطة إلّا أن القبائل العربية ظلت تثير الاضطرابات . ولقد كان قيس الكندي أنسب المرشحين لملء منصب الفيلارخ بالنسبة لمصالح الامبراطورية ، لأن هذه المناطق كانت في الماضي غير البعيد خاضعة للكنديين وكانت إدارتهم لها أمراً متعارفاً ؛ لذا فقد عيّنه يوسطنيان « ليحكم » ولايات فلسطين . وكان أهم ما في الأمر أن قيساً جلب معه عدداً كبيراً من « رعاياه »(١٦٦) ؛ وعلينا أن نفهم أن المقصود بلفظ « رعايا » بطبيعة الحال أولئك الخاضعين له من العرب . وكانت القبائل التي تزعّمها قيس من المقاتلة ، مثل قيس نفسه . ويمكن القول بالكثير من الثقة إن قيساً قد جلب معه إلى فلسطين جيشه العربي الذي اضطلع بحراسة الحدود وبشئون الدفاع في هذه الولاية . أما المناطق الشمالية الشرقية من سورية وفينيقية والتي كانت تتبع يوماً ما لتدمر ، فقد آلت آنذاك إلى الغساسنة الذين أفلحوا في طرد سليح . والأرجح أن قيساً كان فيلارخاً لولايتي فلسطين الثانية والثالثة اللتين كانتا تشغلان الحد الجنوبي الغربي لأملاك بيزنطة حتى شبه جزيرة سيناء ؛ لذا فقد كان الكنديون في جوار قريب مع الغساسنة الذين كان زعيمهم الحارث بن جبلة يتمتع آنذاك بالنفوذ لفترةمن الزمن قدّم فيها العديد من الخدمات للامبراطورية . وكان الضعف قد سرى منذ بعض الوقت إلى الكنديين وتضاءلت أهمية أسرتهم الحاكمة ؛ وقيس وإن انتمى إلى الأسرة الحاكمة إلّا أنه لم يكن الوريث المباشر للعرش . واعتماداً على الأحداث التالية فإن علينا أن نفترض أن فينيقون وساحل خليج العقبة كانتا تدخلان ضمن المناطق التي امتد عليها أيضا سلطان فيلارخ ولاية فلسطين الثالثة ؛ وهذا يؤيد الرأي القائل بأن وضعه قد أثار الحسد . وقد تمكن الغساسنة من طرد قيس ، وآلت المناطق التي كانت له إلى يد أخ للحارث يدعى أبو كرب بن جبلة منذ بداية الأربعينات . وفي عام ٥٤٣ كان سفيره من بين المعترفين بتملّك ابرهة وانتصاره .

وأبو كرب هذا الذي « أهدى » فينيقون إلى يوسطنيان لم يضح معروفاً كأخ للحارث بن جبلة وكغساني إلّا بفضل رقيم أبرهة . والفصل التاسع عشر من القسم الأول من كتاب «الحروب الفارسية » لبروقوبيوس الذي يرد فيه ذكر أبي كرب يقف منفصلاً عن غيره ولا يرتبط في التسلسل الزمني بالفصل الثامن عشر السابق له ولا بالفصل العشرين التالي له . وينتهي الفصل التاسع عشر بالألفاظ الآتية : « ولأعد مرة أخرى إلى حكايتي السابقة » ، أي إلى ما كان القول بصدده قبل هذا الاستطراد(١٦٧) . أما بداية الفصل العشرين فترتبط بالفصل

(١٦٦) Nonnosus, Fragmenta, p. 179.
(١٦٧) Procopius, De bello persico, I. 19, p. 106.

الثامن عشر بالألفاظ الآتية : « وفي زمن هذه الحرب » ، أي بالتقريب زمن الحرب مع الفرس وواقعة قلّلينيقه التي حدثت عام ٥٣١ . وبهذا يصل پروقوپيوس بين حكايته لهذه الفصول . والفصل التاسع عشر يمثل مجموعة من / الأخبار التاريخية التي لا ترتبط زمنياً بالفصل الثامن عشر . ويرى عدد من الباحثين أن المؤلف أقحم هذا الفصل قصداً بغرض التخفيف من عواقب الهزيمة التي مُنيت بها القوات البيزنطية ولينقذ اسم بطله بليزاريوس . ومن مقارنة الملاحظتين الواردتين بصدد يوليان في الكتابين الأول والثاني نرى أن پروقوپيوس لم يراع بدقة التسلسل الزمني للأحداث . أما في الفصل التاسع عشر فإنه لم يأبه لهذا إطلاقاً ، بل يقدم للقارىء فكرة عامة عن المناطق الثلاثة للجزيرة العربية وعن افريقيا التي ينتقل في الفصل العشرين إلى الكلام عن أحداث تاريخها . 173

وانطلاقاً من هذا فإنه لا توجد ثمة ضرورة على الإطلاق لحل المسألة المعقدة والمتعلقة بتبعية فيلارخية فلسطين في وقت واحد للكندي قيس وللغساني أبي كرب ؛ فهذه المسألة قد تم حلها بصورة مغايرة . وقد فرغ پروقوپيوس من تدوين الكتب السبعة الأولى من « تاريخ الحروب » بين عامي ٥٤٥ و ٥٥٠[١٦٨] . وفي الفصل التاسع عشر الذي يحوي استطرادات متفرقة يمكن أن تدخل أحداث مختلفة التواريخ ، ومن ثم فإن التفاصيل الواردة فيه بصدد أبي كرب يمكن أن ترجع إلى السنوات الأربعينات ؛ بل إن عام سفارة يوليان قد ضُمّن في أحداث عام ٥٤٠ القريبةالعهد . لهذا فإنه من المستحيل قبول الرأي القائل باعتبار سنة ٥٠٢ هي العام الذي عُيّن فيه الحارث الغساني فيلارخاً بمفرده ، وهو مما يمكن استخلاصه من المصادر ؛ أو أنها سنة تعيين أخيه أبي كرب الذي لم يؤيد تعيينه أية من الروايات .

ولقد نما سلطان الغساسنة بالتدريج . فالحارث بن جبلة وإن شغل مكانة قيادية ، إلّا أن جيرانه في الغرب وهم الكنديون كانوا لا يزالون على درجة من القوة . ولم يكن قد حدث اقتناع تام بأن الغساسنة كان بمقدورهم أن يحلّوا محل الكنديين ، أضف إلى هذا أن الكنديين تمتعوا بالسلطان في المناطق الوسطى من جزيرة العرب واعترف لهم بذلك بنو معد . وهذا يفسر رغبة بيزنطة في أن ينخرط قيس في خدمتها ويصبح فيلارخاً على فلسطين . وإذا ما أخذنا في الاعتبار عدد المصادر الكبير الذي ينص على أنه وجد تحت سلطانه غيرواحدة من ولايات فلسطين ، فإن هذه لن تكون سوى فلسطين الثانية والثالثة ؛ خاصة وأن فلسطين الثالثة حتى وإن لم تكن ضُمّت إليه بأكملها إلّا أنها كانت الأقرب إلى بلاد العرب الوسطى التي نزل بها الكنديون ومعد . وكان يدخل فيها أيله وسواحل خليج العقبة وجزيرة يوتابه . ولم يقبل قيس وجيشه الدخول في خدمة بيزنطة إلّا بعد السفارة الرابعة والزيارة الثانية لابرام . ومن العسير أن يكون قد حدث هذا قبل النصف الثاني من السنوات

---

(١٦٨) B. Rubin, Das Zeitalter Justinians, p. 193.

الثلاثينات للقرن السادس ، لأنه مضى بعض الوقت بين السفارة الأولى لابرام ورحلة ننوس والسفارة الثانية لابرام .

ويستحيل الاتفاق مع رأي أولئك الباحثين الذين يقولون بأن قيساً كان فيلارخاً في وقت واحد مع أبي كرب ، أو / مع رأي قعوار [شهيد] الذي يسبغ أهمية خاصة على لفظ « هيجمونية » فيفترض اعتسافاً أن قيساً شغل على ما يزعم مكانة خاصة أرفع من وضع بقية الفيلارخات ؛ ورغماً من ذلك فهو يتفق على أن هذا كان وضعاً مصطنعاً لا ينطبق كثيراً على واقع الحال(١٦٩) .

ولما أصبح قيس فيلارخاً وحاكماً لولايتي فلسطين وجد نفسه في جوار مباشر مع آرثه (الحارث) الغساني ، غير أن مثل هذا الوضع لم يكن من شأنه أن يستمر لوقت طويل وذلك لوقوع التنافس بين الغريمين الذي لم يلبث أن ساق إلى عداء مكشوف . ولقد داوم الغساسنة هجماتهم على الكنديين حتى أفلحوا في طردهم في السنوات الأربعينات . وكان ثمن حصولهم على الفيلارخية هو « اهداء فينيقون » ليوسطنيان ، وهي « هدية لا قيمة لها وغير ذات بال » في نظر بروقوبيوس . وبطبيعة الحال فإن امتداد سيطرة الغساسنة على فينيقون كان من شأنه أن يجعل وضع قيس بولايتي فلسطين الثانية والثالثة محصوراً بين مناطق نفوذ الأخوَيْن الغسّانيَّيْن مما ساق بالتالي إلى تقرير مصيره وانتهاء سلطانه . وكان أبو كرب قد « تم تعيينه فيلارخاً لعرب فلسطين »(١٧٠) حتى من قبل نقش رقيم ابرهة لعام ٥٤٣ ؛ وكان بهذه الصفة أن وجّه « برسوله » إلى حمير . وهكذا وسّع الغساسنة من سلطانهم ودعّموه على حساب الكنديين .

مصير فينيقون [« بلاد النخيل »]

امتد النشاط الاقتصادي لبيزنطة على طول سواحل البحر الأحمر فدخل في مناطق نفوذها مصر بافريقيا ومناطق من شبه جزيرة العرب بالقارة الآسيوية . وكانت خطة الامبراطورية أن تبسط سيطرتها على ذلك البحر الذي يربط بين القارتين فتجني من ذلك أرباحاً هائلة . ووفقاً لقول ملخ فإن الكندي امور قس (امرؤ القيس) انتزع جزيرة يوتابه في عام ٤٧٣ ، ولكن بيزنطة تمكنت من استعادة هذه الجزيرة ذات الأهمية الكبرى بالنسبة لها . وإلى عام ٤٩٧/٤٩٨ (عام ٥٥٩٠) ترجع « حوليات » ثيوفانيس بالانتصارات الرائعة للقائد رومان ، إذ يرد فيها حرفياً مايلي :

« في هذا العام قام العرب المسمّون بالاسكينيين بغارة على الفراتية ، وعند أول قرية من قرى سورية

(١٦٩) I. Kawar, Byzantium and Kinda, p. 69.
(١٧٠) Procopius, De bello persico, I. 19, p. 102.

وتدعى بيت رپسه Byt-rapsa تقدم نحوهم قائد تلك المنطقة الاستراتيج أوجينيوس وهو رجل عرف بشجاعته في القول والفعال وهزمهم شر هزيمة .وكان المنهزمون ينتمون إلى قبيلة الفيلارخ نآمان [النعمان] وتربطهم معاهدة مع الفرس .كذلك تمكن رومان رأس (أركون Arkhon) جيوش فلسطين ، وكان رجلاً سديد الرأي وموفقاً في القتال (أي من أرباب السيف والقلم) ، من أن يأسر في حومة الوغى أُجر (حُجْر) ابن آرثة الملقب ثالبان وعدداً كبيراً من مقاتليهم . وقبل هذا تقاتل رومانوس مع اسكيني آخر واضطره إلى الهرب واسمه جبلة كان قد أغار على فلسطين قبل وصوله إليها . كذلك حرّر رومان بعد معارك ضارية جزيرة يوتابه الواقعة في خليج البحر الأحمر والتي كانت تخضع لامبراطور الروم من قبل وتدفع إليه إتاوة ذات بال ؛ / وكان العرب الاسكينيون قد وضعوا يدهم عليها لبعض الوقت . وبعد هذا تُرك للتجار بالجزيرة مطلق الحرية لينعموا بحياة مستقلة (autonomous) ، كما سُمح لهم أن يجلبوا السلع من الهند شريطة أن يدفعوا المكوس المستحقة عليهم إلى الامبراطور »[١٧١] . 175

وهكذا يمكن ملاحظة الضعف الذي طرأ على قبائل كندة قرب نهاية القرن الخامس وجهود بيزنطة لصدّ الاسكينيين أي العرب البدو في جميع مناطق الحدود . وكان الكنديون مرتبطين ارتباطاً وثيقاً ببني معد في وسط الجزيرة حيث تمتع هؤلاء الأخيرون بوضع مستتب ؛ ويؤيد هذا الروايات العربية المتواترة كما تؤيده أيضاً الرقوم السبئية (مثلاً Ry 509) . ويربط ملخ بين امرىء القيس الذي احتل يوتابه وبين « عرب الفرس » . كذلك انتمى إليه أولئك الذين أغاروا على سورية عام ٤٩٧ . وبخلاف هذا فإن من بين من أغاروا على حدود الدولة البيزنطية وقاسوا الهزيمة على يد رومان كان حُجْر (أجر ، أُجر) ابن الحارث من بطن ثعلبة ؛ أي أنه كان كندياً . وأيضاً جبلة الغساني . ومن النص الذي سقناه قبل قليل يلفت النظر واقعة أن الغارات قد قامت بها مجموعات منفصلة من الكنديين والغساسنة ، وذلك لأن جبلة لم يكن قد دخل بعد في عداد حلفاء الامبراطورية .

وفيما يتعلق بجزيرة يوتابه فقد قاتل العرب قتالاً شديداً ، لذا وصفت تلك المعارك بأنها كانت ضارية . كذلك اهتم پروقوپيوس بمصير يوتابه التي اعتبرها ذات أهمية بالغة بالنسبة لسياسة الامبراطورية إزاء الحميريين والاثيوبيين بوجه عام . ففي تحليله للعلاقات الاقتصادية والتجارية التي كانت للامبراطورية مع بلاد العرب الجنوبية والساحل الشرقي لافريقيا ، تعرّض أيضاً للكلام على هذه الجزيرة وعلى مشكلة الأراضي الشاسعة التي شغلتها فينيقون « أرض النخيل » التي قطنها العرب منذ أقدم العصور . وقد ذكرنا فيما مر أن متن پروقوپيوس لا يترك مجالاً للشك في أنه كان على علم بالأحداث التي يحكي عنها ملخ . وعلاوة على هذا فقد

---

(١٧١) Theophanes. Chronographia. p. 141; E. Stein. Histoire du Bas-Empire. t. II. Paris. 1949. p. 91.

كان يعلم بأن الجزيرة أُستردّت من «الاسكينيين» . غير أنه حتى في هذه الحال تركّز اهتمامه في تملق يوسطنيان وإطرائه. وقد جهد پروقوپيوس قبل كل شيء ليدلل على أن البحر الايرثري (البحر الأحمر) كان حلقة الاتصال بين « الهند » والروم ، وأنه يبدأ عند الهند وينتهي عند أيله حيث يشكل « خليجاً غاية في الضيق » . وإذا ما أبحر الانسان من هذه المدينة التابعة « لدولة الروم » في اتجاه « الريح الجنوبية » فإنه يجد إلى يمينه « جبال مصر » ، أما إلى يساره فتمتد « صحراء ليس بها نافخ نار » . ويضيف پروقوپيوس أن هذا الخليج كان بدرجة من الضيق بحيث يمكن إبصار الأرض من الجانبين ، وأن المسافة من ايله إلى يوتابه تقارب الألف اسطاديون . « وبها [أي بجزيرة يوتابه] يقطن منذ القدم اليهود الذين كانوا مستقلين ولكنهم أصبحوا أيام يوسطنيان رعايا رومان » . وهذا الزعم / يتناقض مع ماهو معروف من استعادة بيزنطة لحقوقها في الجزيرة عقب المعارك الدامية التي خاضها رومان . ولعل ما أملى هذا على پروقوپيوس رغبته في أن يمجّد يوسطنيان مرة أخرى . ومن ناحية أخرى فلعل التجار الذين أعفيت سلعهم من الضرائب فضلّوا الاستقرار بالجزيرة لإدارة متاجرهم وإن كانوا رسمياً رعايا لدول أخرى مثل حمير ؛ وعلى عهد يوسطنيان عندما أصبحت الظروف مواتيه لجني أرباح كبيرة فإن هذه الفئة من السكان وجدت من مصلحتها الاعتراف بسيادة الامبراطورية على الجزيرة بل وطلبت حمايتها .

176

ويقول پروقوپيوس بعد هذا إن الملاحة في البحر الأحمر ليلاً كانت جد خطيرة حتى أن السفن كانت تقترب من « ساحله الأيسر » أي الساحل العربي تحاشياً للأخطار(١٧٢) . وكان هذا الساحل الواقع خلف جبال فلسطين مباشرة تابعاً للعرب « السراقينيين » الذين نزلوا منذ القدم ببلاد النخيل « فينيقون » التي تمتد لمساحات كبيرة والتي لا ينبت بها شيء سوى النخيل ؛ وبمعنى آخر كانت صحراء تناثرت بها واحات ينبت بها نخيل التمر* . وقد تم تعيين رئيس عرب هذا الاقليم فيلارخاً لعرب فلسطين ، وكانت مهمته هي حراسة المنطقة وفقاً لقول پروقوپيوس . كذلك يوكد هذا المؤرخ أنه أحسن حمايتها وتأمينها ؛ وكان حاكمها هو أبو كرب الذي بسط سلطانه وأشاع الرهبة في نفوس « البرابرة الخاضعين له » ، كما أشاعها في نفوس الأعداء . وقد أهدى ابو كرب « بلاد النخيل » هذه إلى الامبراطور يوسطنيان الذي قبلها « في القول » فحسب(١٧٣) ، لأنه كان من الاستحالة بمكان احتلال هذه المساحات الشاسعة التي كان يمتد فيها الطريق لمسيرة عشرة أيام خلال صحراء مقفرة ليس بها قطرة ماء . ويختتم پروقوپيوس كلامه بقوله إن « هدية أبي كرب هذه ما كانت لتستحق الذكر لولا ما أبداه يوسطنيان من قبول طيب لها » . غير أنه حتى في هذه الحال سيكون من العسير

---

(١٧٢) Procopius. De bello persico. I. 19, p. 101.

* من المعلوم أن التمر والنخيل معروف لليونان باسم « الفينيقي » ho phoinix (أي الثمرة الفينيقية)لأن الفينيقيين كان أول من جلبه دون شك إلى بلاد اليونان ؛ لذا فإن « فينيقون » إنما تعني « بلاد النخيل » . ويتضح من وصفها الوارد في الأسطر التالية أن « فينيقون » إنما المقصود بها منطقة الحجاز الشمالية ، وذلك من وادي العربة وأيلة إلى يثرب جنوباً والتي عرفت أجزاء منها على مر التاريخ باسم جشمى وباسم وادي القرى . وأهم واحاتها تيماء والعلا (ددان) وتبوك وفدك وخيبر ويثرب نفسها ـ المترجم .

(١٧٣) Procopius. De bello persico, I. 19, p. 102; N. Pigulevskia. Vizantia na putiakh v Indiu. str. 323.

الاتفاق مع قول پروقوپيوس هذا والذي أملاه عليه تحيّزه وهواه . ذلك أنه كان يجتاز هذه المنطقة الصحراوية الشاسعة طريق القوافل الهام الذي يسوق من جنوبي الجزيرة ووسطها إلى برزخ السويس وايله والبطرا وتدمر واورشليم .

« وتقع أرض الحميريين على ثلاثين مرحلة إلى الجنوب من المنطقة التي يطلق عليها اسم فينيقون والتابعة حالياً للروم » ، كما يقول « استشهاد آرثه » . وبهذا فإن ذلك المصدر الذي يرجع إلى القرن السادس يؤكد بصورة قاطعة قول پروقوپيوس إن المسافة إلى حمير تحسب ابتداءً من فينيقون بالذات[١٧٤] . / وكان كل العرب ، سواء القاطنون منهم بفينيقون أو القاطنون « وراء فينيقون » وخلف جبال طور سيناء[١٧٥] يعظمون جميعهم « موضعاً مقدساً » كانوا يجتمعون فيه مرتين في العام ، مرة في « منتصف الربيع » حين كانوا يمارسون شعائرهم لمدة شهر بأكمله يتوقفون فيه عن جميع ضروب القتال [الشهر الحرام] ، ومرة عقب « الانقلاب الصيفي » لمدة شهرين . ويجب أن نفترض أن هذه الرواية التي ترد لدى ننّوس إنما ترتبط بالمناسك السابقة للإسلام ، وأغلب الظن أن الموضع كان مكة بالذات[١٧٦] .

ويضع پروقوپيوس إلى جنوب فينيقون بقليل قبيلة معد التي كانت تسيطر على ساحل البحر وعلى قسم كبير من الداخل . وكان بنو معد Maddenoi ، وفي بعض المخطوطات ترد في صورة Maaddenoi ، يدينون بالتبعية للحميريين[١٧٧] . ولم يكن بوسع القوات الرومية أن تحتل جميع أرض فينيقون ، بل إن بيزنطة لم تكن راغبة حتى في وضع حاميات بها . ذلك أنه لم تكن ثمة حاجة إلى ذلك ، لأن العرب تحت حكم أبي كرب اضطلعوا أنفسهم بالدفاع عن المنطقة . بيد أن فينيقون وأيله ، مضافاً إلى ذلك الساحل المحاذي لخليج العقبة بما في ذلك جزيرة يوتابه ، كانت جميعها تشكّل وحدة متكاملة وتمثل قاعدة هامة بالنسبة للبيزنطيين في الجنوب أشبه ما تكون بمفتاح لطرق التجارة البحرية والبرية المتجهة إلى الجنوب العربي واثيوبيا .

وطالما ظلت هذه المناطق في أيدي الكنديين أعداء الامبراطورية فإن تجارة بيزنطة تعرضت للإعاقة . وبما أن المناطق الوسطى من الجزيرة العربية قد استولت عليها قبائل معد الذين ظل شطر منهم مقيماً باليمن فإن وضعها كان غامضاً ، لأن روابط معد القديمة مع حمير التي كانت تؤازرها بيزنطة تعارضت مع مصالح معد الجديدة التي اجتذبتها إلى مملكة اللخميين وبهذا وجدت نفسها إلى حد ما في دائرة نفوذ ايران التي كان أي انتشار لنفوذها بالجزيرة العربية من شأنه أن يقضّ مضاجع القسطنطينية . ومما يقف شاهداً على وجود هذه الروابط التقاء شمعون الأرشمي بعدد من رجالات معد بمعسكر المنذر اللخمي عند زيارته له في عام ٥٢٤ .

(١٧٤) Martyrium Arethae, p. 722.
(١٧٥) Nonnosus, Fragmenta, p. 179.
(١٧٦) شرحه
(١٧٧) Procopius, De bello persico, I. 19, p. 102.

ولقد جهدت بيزنطة لإقامة علاقات حميمة مع حمير كما حاولت بسط حمايتها على النصرانية ، كل ذلك بهدف تأمين طرق التجارة التي تمر بالجزيرة العربية والبحر الأحمر . وكان بنو معد الخاضعون لحمير يمثلون حلقة الوصل التي كان باستطاعتها أن تعاون في ربط هذا الطريق بأجمعه وفي تأمينه . « وكانت منطقة بني معد ، مضافاً إليها فينيقون والنواحي الأبعد إلى ذلك من الشمال ، يقطنها العرب » . ويوكد بروقوبيوس أن « أكناف مدينة غزّة كانت تدعى في القدم عرابية »* وكان يمتد عليها سلطان « ملك العرب » الذي كانت عاصمته البطرا[١٧٨] . وكما هو معلوم فإن منطقة ولاية فلسطين الثالثة وأيله وفينيقون وجزيرة بوتابه وجدت تحت سيطرة أبي كرب ابن جبلة الغساني ؛ ويؤيد هذا الرقيم الكبير / لابرهة من عام ٥٤٣ (السطر ٩١ و٩٢ من C.I.H. 541) الذي ورد فيه اسما الغسانيّيْن الحارث بن جبلة وأبي كرب بن جبله .

178

من كل هذا يمكن الخروج بنتيجة مفادها أنه قبل ذلك العام انتقلت فيلارخية ولاية فلسطين الثالثة إلى يد أسرة جديدة نجحت في تثبيت أقدامها كحليف وكعامل لبيزنطة ؛ وبهذا أزاح الغساسنة الكنديين من مسرح الأحداث وحلّوا محلهم . وبهدف تدعيم وضعهم جهدوا في اقناع بيزنطة ببسط حمايتها على فينيقون . ولقد عرف أبو كرب كيف يقبض بيد من حديد على زمام طاعة قبيلته ، كما عرف كيف يرهب أعداءه الذين خشوا بطشه فاستحق بجدارة ذلك الوضع الرفيع الذي ناله بوصفه فيلارخاً لبيزنطة. فقد أرسل كأخيه الحارث « مبعوثين » (السطر ٩٠ ـ ٩٢) إلى ابرهة ، كما فعل عدوه المنذر ملك اللخميين الوارد ذكره في الرقيم قبلهما (في السطر ٩٠) . وفي الأربعينات من القرن السادس بلغ الغساسنة أوج قوتهم وكانوا سنداً ودعامة لبيزنطة ضد جميع القبائل العربية المعادية لها .

وكما هو معلوم فإن بروقوبيوس يختتم كلامه في الفصل الذي عقده للجنوب العربي (I, 20) بالألفاظ الآتية : « ولم يكن بمقدور الاثيوبيين شراء الحرير من الهند إذ أن التجار الفرس اعتادوا الوصول قبل غيرهم إلى الثغور التي تقف عندها السفن الهندية لأنهم يقطنون بلاداً مجاورة لهم ، فيشترون جميع حمولتها . ومن الواضح أنه كان عسيراً على الحميريين اجتياز مفاوز شاسعة لمهاجمة شعب عرف أكثر منهم بإمكانياته العسكرية . وعندما دعّم ابرهة سلطانه بشكل نهائي وعَدَ يوسطنيان مراراً بأنه سيغزو أرض الفرس ، ولكنه لم يخرج إلاّ في حملة واحدة لم يلبث أن قفل عائداً منها سريعاً »[١٧٩] . هذه الشهادة القيّمة لبروقوبيوس تؤيد إذن واقعة أن ابرهة قد اضطلع بحملة على الفرس ؛ وقد قارنها عدد من الباحثين بما جاء في الرقيم Ry 506 الذي يرجع إلى عام ٥٤٧ والذي تم نشره في عام ١٩٥٣ .

---

* راجع قول الطبري (القسم الأول ، ص ٧٣٨ ، الطبعة الأوروبية) « العرابية وهي أرض الحجاز » ـ المترجم .

(١٧٨) شرحه ، ص ١٠٣ .

(١٧٩) شرحه ، ١ ، ٢٠ ، ص ١١٠ .

ولقد دوّن بروقوبيوس القيساري كتبه عن الحروب بين عامي ٥٤٥ و٥٥٠(١٨٠) ، لذا كان بمقدوره أن يكون على علم بحملة عام ٥٤٧ التي يشهد بحدوثها ذلك الرقيم . ولنعد مرة أخرى للحديث عن هذا الأثر فنقول إن الرقيم Ry 506 منحوت على صخرة قرب بئر مريغان على مسافة مائة وثلاثين كيلومتراً إلى الشمال من الحمّة ومائة وسبعين كيلومتراً إلى الجنوب الشرقي من بيشة ؛ وتقع مريغان على الطريق التي تصل الجنوب العربي بمكة . أما الرقيم فقد نُقش بأمر ابرهة ويرجع تاريخه إلى عام ٦٦٢ من التقويم الحميري الذي يتفق مع عام ٥٤٧ للميلاد(١٨١) . وكان هدف حملة ابرهة تأديب قبائل معد و « بني عامر » وإرجاعهم إلى الطاعة . ويمكن الاستدلال من هذا الرقيم أن بني معد لم يدخلوا في رباط وثيق مع اللخميين فحسب بل واعترفوا أيضاً بالتبعية للحيرة ، لأنه / عقب هزيمتهم على يد ابرهة قُسروا على تقديم الرهائن وذهب عمرو بن المنذر الثالث اللخمي ليتفاوض مع ملك حمير حول ذلك (السطران ٣و٧ من الرقيم Ry 506).ويحدّد الرقيم بوضوح أن عمراً قد عيّنه « حاكماً على معد » الملكُ المنذر بالذات(١٨٢) . وبهذا فإن الوقت الذي كان فيه الحميريون ينصبون ملوكاً من كندة على معد قد انقضى إلى غير رجعة . وعلى الرغم من أن قبائل معد قد قدمت في الأصل من الجنوب العربي فإنها دانت الآن بالتبعية للحيرة ؛ ولعل مما يوكد تدخل الحيرة في شئونهم هو توسط عمرو بن المنذر من أجلهم لدى الملك ابرهة في عام ٥٤٧ . وفي خلال حملةابرهة كانتْ قوات الحميريين تتكون من جيشين ، أحدهما من الكنديين والاليّين Alites تحت قيادة ابجبر وقائد عربي آخر يدعى بشر . وقد تولى هذا الجيش قتال العصاة من بني عامر إلى الغرب من مريغان وذلك عند ساحل البحر الأحمر . أما الجيش الثاني والذي كان يتكون من جند الحميريين فكان على رأسه ابرهة نفسه ؛ وقد تقاتل جيش ابرهة مع بني معد قرب حلبان التي تقع على مسافة اربعمائة وعشرين كيلومتراً إلى الشمال من مريغان في اتجاه الحيرة .

179

وحملات ابرهة هذه ينبغي ربطها بالحروب الفارسية البيزنطية التي اندلعت في الفترة بين الأعوام ٥٤٠ و ٥٤٦ والتي أخذ فيها الحميريون جانب بيزنطة(١٨٣) . وكان على الحميريين أن ينهوا أمرهم مع اللخميين بالمناطق التي احتلها بنو معد في وسط الجزيرة والتي كانت تكوّن جزءاً من « طريق الطيب » المشهور الذي انتقلت السيطرة عليه إلى اللخميين بخضوع بني معد لهم . ولقد كان من مصلحة بيزنطة ومن مصلحة حمير على السواء أن تسيطرا على جميع التجارة المارة بالبحر الأحمر وبساحله وأن تمنعا الفرس الذين ارتبطت بهم الحيرة من تهديد هذه التجارة . وأما علاقة بني معد باللخميين وما حدث من تقارب بين الجانبين ، فإن هذا يرتفع إلى عهد يسبق ذلك بكثير .

(١٨٠) B. Rubin, Das Zeitalter Justinians, p. 193.

(١٨١) G. Ryckmans. Inscriptions sud-arabes. 10me série. Le Muséon. 1953, v. 66, pp. 275 - 284; J. Ryckmans. Inscriptions historiques sabéennes. Le Muséon 1953. v. 66, pp. 339 - 342; W. Caskel. Entdeckungen in Arabien. pp. 28 - 30.

(١٨٢) في الرقيم ورد وس ت خ ل ف و / ع ل ى / م ع د م . وهي التي اشتق منها لفظ « خليفة » - G. Ryckmans, Inscriptions sud-arabes. p. 284; A. Beeston . Notes on the Mureighan Inscription. BSOAS. 1954, v. 16, p. 391.

(١٨٣) W. Caskel, Entdeckungen in Arabien. p. 38.

وهناك أساس قوي للافتراض بأن ما ورد لدى بروقوبيوس وبرقيم مريغان إنما يتعلق بحادث واحد . ومن المؤكد أن ابرهة لم يقم بهجوم على أرض الفرس ذاتها أي ايران ، ولكن اثنين من قواد جيشه وكذلك ابرهة نفسه قد اقتحموا مناطق تدخل في محيط نفوذ اللخميين الذين كانوا تحت طاعة الفرس . وبهذا فإن الحملة كانت ضربة موجهة إلى « عرب الفرس » ، كما كانت في ذات الوقت ترمي إلى إضعاف إمكانيات حكومة الشاهنشاه . ولقد قاتلت حمير من أجل مصالحها الاقتصادية التي تشابكت مع مصالح بيزنطة ، ومن أجل السيطرة على طريق التجارة الذي كان ينقل عليه المرّ واللبان من بلاد العرب كما كان ينقل عليه الحرير من الصين والهند .

الفصل الخامس

الغساسنة ـ عمال البيزنطيين

سَليح وغسّان

بسقوط تلك الدويلات العربية التي كانت تدور في فلك الامبراطورية الرومانية مثل البطرا وتدمر أصبحت القبائل العربية التي بلغت بادية الشام أكثر جرأة في غاراتها على حدود الامبراطورية . لذا /وجدت 180 بيزنطة نفسها مضطرة إلى حسم المشكلة المتعلقة باختيار القبيلة التي ينبغي أن تكلّف بمهمة حراسة الحدود والدفاع عن ولاياتها الآسيوية . ذلك أنه كان من الضروري لضمان سلامة هذه الولايات الإمساك جيداً بزمام « أبناء الصحراء » الآخرين في وضع نسبي من الطاعة .

وتاريخ البيت المالك من كندة يقف شاهداً على مدى عُسر هذه المهمة ، فقد احتاج الأمر إلى الأخذ بعين الاعتبار عدداً من المصالح المتضادة . كذلك ارتبط عهد يوسطنيان ارتباطاً وثيقاً بالغساسنة الذين نالوا الغلبة على غيرهم من القبائل العربية مما اضطرها إلى التنازل لهم عن مكانتها . فهم وضعوا حدّاً لنفوذ كندة ، بل ومن قبل ذلك قرروا مصير قبيلة عربية أخرى هي سليح التي خرج منها عشيرة ضُجْعَم المعروفة للمصادر اليونانية والعربية . ومن المحتمل أنه ينتسب إليها زوكوم Zokom الذي كان نصرانياً وفيلارخاً (عاملاً) للروم في القرن الرابع ومعروفاً للمؤرخين الكنسيين[1] . ولقد امتدت سيادة سليح على المنطقة لأكثر من قرن من الزمان قبل أن يحلّ الغساسنة محلهم .

والمؤرخون العرب يختلفون في بعض التفاصيل ولكن رواياتهم تفتقر إلى الدقة ، حتى وإن اتفقت في الوقائع الأساسية . وأول من ملك الشام كما يقول المسعودي (المتوفي عام ٩٥٦) كانت تنوخ الذين خرجوا من حمير والذين أنكروا قرابتهم لمعد وانتسبوا إلى قضاعة . أما الموجة التالية من القبائل العربية التي لحقت بأراضي الدولة البيزنطية فكانت سليح على حد / قول المسعودي ـ « ثم وردت سليح الشام وتغلبت على تنوخ وتنصرت 181 فملّكتها الروم على العرب الذين بالشام » . ولما كان المسعودي يعتبر وضع سليح قد استتب بالشام ـ « فاستقام ملك سليح بالشام » ، فإن هذا يشير إلى أن سلطانهم قد امتد لوقت غير قصير[2] . ويقول نولدكه إنه خرج من عشيرتهم خمسة فيلارخات تتابعوا في الحكم لمدة لا تقل عن قرن من الزمان ؛ وكان آخرهم داود اللاثك الذي شيّد « دبرداود »[3] . واليعقوبي (المتوفى عام ٨٩٧) يطلق على هؤلاء الحكام لقب « رئيس سليح »[4] . أما

---

(١) Sozomenos. Historia ecclesiastica. VI. 38. ed. R. Hussey. Oxonii. 1860. t. II. pp. 672 - 673; G. Olinder. The Kings of Kinda. p. 45; N. Pigulevskia. Araby u granits Vizantii v IV v. Palestinskii sbornik. vyp v, 1960. str. 61. 64.

(٢) Maçoundi. Les prairies d'or. t. III. Ed. C. Barbier de Meynard et Pavet de Courteille. Paris. 1844. pp. 215 - 216.

(٣) Th. Nöldeke. Die Ghassanischen Fürsten....., p. 8.

(٤) Al-Ia'qubi. Historiae pars primum historiam anteislamicam continens. ed. M. Th. Houtsma. Lugduni. Batavorum. 1883. p. 235.

ابو الفدا (المتوفى عام ١٣٣١) فيقول إن الغساسنة بعد أن شغلوا مكانة عشيرة ضجعم الحاكمة « قتلوا ملوكهم »[٥] .

ويربط المسعودي ظهور الغساسنة بالشام بالأحداث التي كان مسرحها اليمن والتي اضطرت هذه القبائل إلى الارتحال حتى بلغت الشام ؛ وقد أخذوا اسم غسّان من بئر أو ماء كانوا قد نزلوا عندها . ووفقاً لإحدى الروايات فإن هذه البِرْكة أو الحوض كانت تقع بين زبيد وريم باليمن (المسعودي) ؛ ووفقاً لرأي آخرين فإنها كانت بالشام (حمزة الاصفهاني وأبو الفدا) . ويقول اليعقوبي إن غسّان غزت الشام في أول الأمر فنزلت « أرض البلقاء » ، هذا في الوقت الذي كان « بالشام قبيلة من سليح » . وهؤلاء الغساسنة « سألوا سليحاً » أن تعينهم في الحصول على الشروط نفسها التي كانت لسليح من امبراطور الروم . فكتب « رئيس سليح » آنذاك وهو دهمان بن العملق إلى ملك الروم الذي أعطى موافقته ، وبهذا نزل الغساسنة بأرض سورية[٦]*. ويذكر حمزة الاصفهاني في هذا الصدد شخصاً آخر هو سليح بن حلوان . وقد بسطت سليح حمايتها على القادمين و« ضربوا عليهم الإتاوة » . وبسبب الإتاوة شبّ النزاع الذي قاد بدوره إلى القتال وانتهى بطرد سليح من الشام وتثبيت سلطان الغساسنة . وثمة مصدر آخر يقول إن جفنة بن عمرو بن ثعلبة بن عمرو بن مُزيقيّاء هو الذي قتل ملك سليح وحل محله[٧] .

ويرد اسم الامبراطور الذي كتبت إليه سليح بشأن الغساسنة في صور مختلفة لدى المؤلفين العرب ، فحمزة الاصفهاني يقول « ملك الروم يقال له نسطورس »[٨] ، بينما يدعوه اليعقوبي « نَوْشر » . / وأما المتن العربي لتاريخ الدول لابن العبري فيعطي « انسطس » (١٤٨) الذي يرتفع إلى مصادر أخرى[١٠] . ويرد ذكر موضع إقامة الامبراطور بأنه « أنطاكية » ، الذي يجوز بطبيعة الحال أن يكون مدينة أنطاكية المعروفة . هذه المعلومات رغماً من اضطرابها تعاون على أية حال في تقديم تسلسل زمني للأحداث ، حتى وإن كان تقريبياً . وانتقال الغساسنة من الجزيرة العربية ونزولهم بأرض البلقاء ، والتقاؤهم بسليح الذي لم يكن في الوسع تجنبه ، ثم محاولتهم اكتساب الشرعية لوضعهم بالمناطق الجديدة ؛ كل هذه المراحل معروفة لنا بوضوح من المصادر

---

(٥) Abulfeda, Historia anteislamica, ed. H. Fleischer, Lipsiae, 1831, p. 128.

(٦) Al-Ia'qubi, Historia, p. 235.

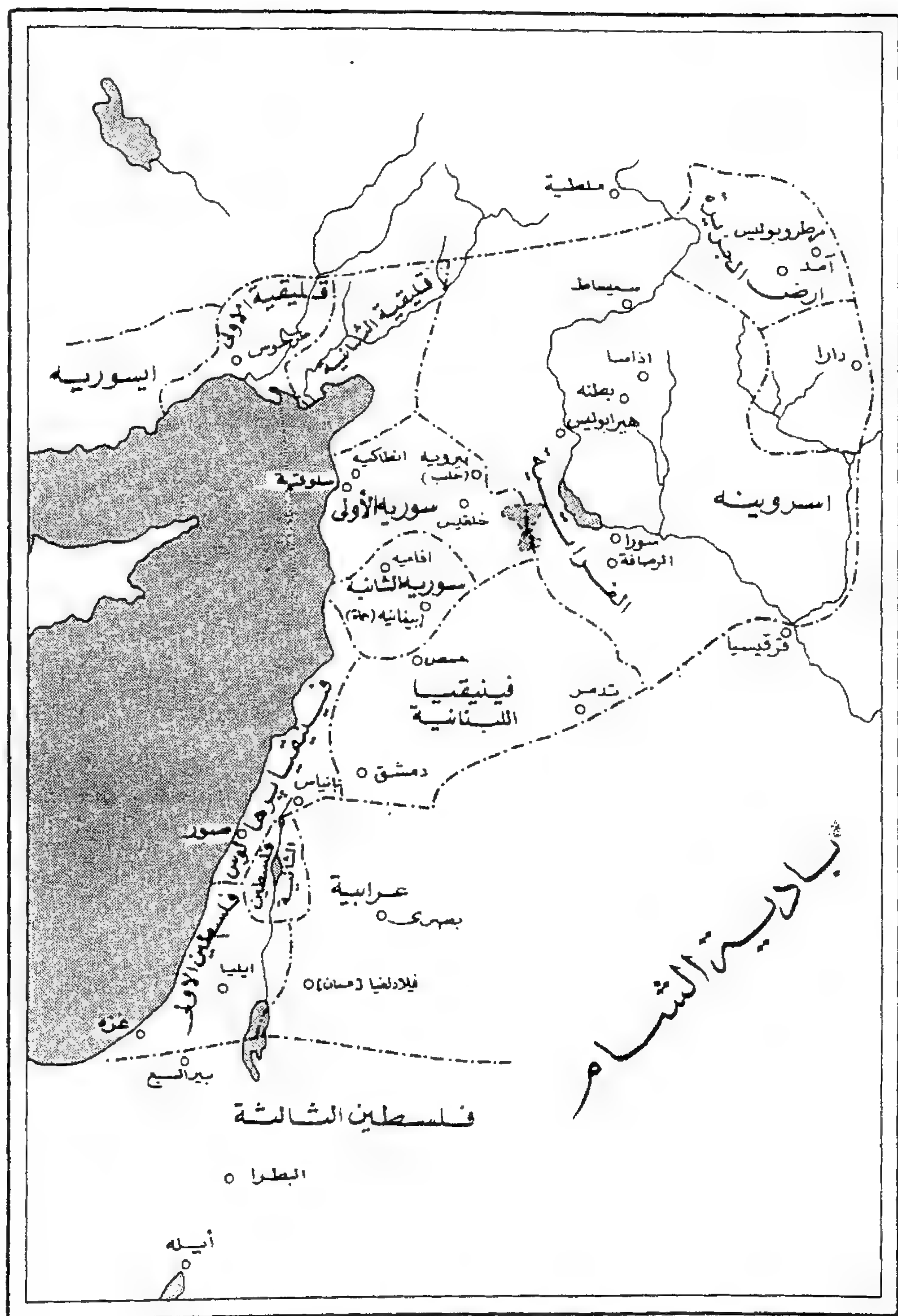
* لعل ما جاء في « كتاب التيجان في ملوك حمير » (عن وهب بن منبه ، رواية ابي محمد عبد الملك بن هشام) قد يعاون بعض الشيء في توضيح هذه الروايات المتضاربة . قال : « ومضى القوم حتى بلغوا الشام [أي غسان] وبالشام سليح وهو قبيل من قضاعة . . . فقالت غسان لسليح أرعونا بلدكم ، قالوا لهم ليس لنا من الأمر شيء وذلك إلى الملك قيصر ، فقالت لهم غسان أنتم شفعاؤنا اليه فكلموه في غسان وأخذوا لهم منه عهداً . . . . وأذن لهم بالنزول فنزلوا الشام وأقاموا مع سليح وجاوروهم بأحسن جوار وعند غسان كتاب من عند قيصر » (ص ٢٨٣ ، طبعة حيدر أباد الدكن ، ١٣٤٧ هـ) ـ المترجم .

(٧) Abulfeda, Historia anteislamica, p. 128.

(٨) Hamza Ispahanenisis, Annales, p. 116.

(٩) Al-Ia'qubi, Historia, p. 235.

(١٠) Th. Nöldeke, Die Ghassanischen Fürsten...., p. 94.



الولايات البيزنطية بالشرق الأدنى

العربية . وتوكد مادة هذه المصادر أن وضع سليح وفيلارخيتهم كانت تتحكم فيه شروط معيّنة ، مثل قبولهم حماية حدود الامبراطورية والتزامهم أيضاً بدفع الإتاوة . ولمّا طلبَ الغساسنة الإذن لهم بالنزول بحدود الامبراطورية أكدوا قبولهم للشروط نفسها التي ارتضتها سليح من قبل ، أي القيام بالالتزامات العسكرية ودفع الضرائب ؛ مما يتفق تماماً مع ما حدث في واقع الحال[11] . ومن الجائز أن فيلارخ الغساسنة وأسرته قد التزموا بدورهم باعتناق النصرانية ، متأسّين في هذا خطا سليح . وعلى العموم فقد شيّد الغساسنةعدداً من البيع والأديرة ، كما فعل جفنة وبصورة خاصة ابنه عمرو[12] . . . .

وأكثر المسائل تعقيداًهي المسألة التي تتصل بزمان مجيء الغساسنة إلى الشام على وجه التحديد ، وأيضاً باللحظة التي حلّوا فيها محل سليح . ومادة المؤرخين العرب لا تسمح لنا ببلوغ حل نهائي ولكن إلى حل أقرب إلى الصحة . وذكر مدينة أنطاكية قد يسوق إلى الافتراض بأن الكلام يتعلق بوقت عصيان ايلوس Illus الذي نزل بعاصمة سورية على عهد الامبراطور زينون Zenon (٤٨٢ ـ ٤٨٤) . كذلك من الجائز أن رئيس سليح لم يتجه إلى الامبراطور بل إلى قائد القوات البيزنطية بالمشرق Magister militum والذي كان مقرّه عادة مدينة أنطاكية . واسم ملك الروم يرد مشوّهاً في المتن ؛ ومن الممكن أن نقرأه على أنه الامبراطور انسطاس ، مما يتفق تمام الاتفاق مع معطيات الحوليات البيزنطية . غير أنه يستحيل بأية حال من الأحوال الاتفاق مع الخطوط التي يقترحها قعوار [شهيد] ، ومفادها أنه في عام ٤٨٤ عُرض على الغساسنة البقاء بشريطة أن يقبلوا الاضطلاع بأعمال عسكرية ؛ هذا بينما ألزموا على عهد انسطاس باعتناق النصرانية ودفع الضرائب[13] . فلما تعقد الوضع أكثر من ذي قبل جمع الغساسنة قواهم بالتدريج ودعّموا من وضعهم بالمنطقة . وإذا ما قبلنا رأي نولدكه بأن زوكوم خرج من عشيرة ضجُعم فإن الفيلارخية ظلت / في هذه العشيرة لأكثر من مائة عام ، لأن زوكوم 183 كان معاصراً للامبراطور فالنز Valens (٣٦٤ ـ ٣٧٨) .

ويحيط ضباب شديد الكثافة بالعشرات الأولى لإقامة الغساسنة بالشرق الأدنى ، ذلك أن ما جرى من خلط بينهم وبين الكنديين لا يعاون في متابعة نشاطهم بالدقّة المرجوّة . ولقد ترك التنافس بين غسان وسليح وكندة أثراً كبيراً في علاقات بيزنطة والحيرة وحمير بعضها ببعض . وكان العرب من « بيت ثعلبة » ينتمون إلى كندة ، وكسبوا لأنفسهم وضعاً هاماً في العشرات الأخيرة من القرن الخامس وكذلك في بداية القرن السادس . أما بخلاف هذا فإن اسم ثعلبة يرد أيضاً كاسم للشخص الذي قاد آل جفنة إلى الشام . وهذا بدوره يجعل من العسير التمييز بين العشيرتين ، وإن لزم الاعتراف بأن هذا ليس أمراً بالغ الأهمية بالنسبة لتاريخ العرب[14] .

(١١) Maçoudi. Les prairies d'or. t. III. p. 217.

(١٢) Abdulfeda. Historia anteislamica, p. 128.

(١٣) I. Kawar. The Last Days of Salih. Arabica. 1958. v. V. p. 149.

(١٤) Th. Nöldeke. Die Ghassanischen Fürsten..... p. 10.

كذلك يجب الأخذ بعين الاعتبار أن أفعال بني ثعلبة كانت في مصلحة الكنديين(١٥) . ونسبة بني ثعلبة إلى الغساسنة(١٦) أمر غير صحيح في رأينا ، فهم فرع من كندة اضطلع في تلك الأزمنة بدور قيادي بالمناطق التي كانت تدور في فلك بيزنطة .

وتوجد في التاريخ الكنسي لاڤاغريوس روايات ذات طابع علماني ترتفع في عدد من الحالات إلى اوستافيوس الايپفاني ، لأن اڤاغريوس ذكر المصدر الذي نقل عنه . والرواية المتعلقة بالاسكينيين وغارتهم يرجعها الباحثون إلى اوستافيوس هذا ، الذي يعتبر مصدراً من الدرجةالأولى في الأهمية(١٧) . [ويفهم منه أن] « البرابرة الاسكينيين » قد بذلوا جهدهم في « نيل الغلبة » على الدولة الرومانية « فغزوا أرض الجزيرة وفينيقية وفلسطين » . وقد تقاتل قواد الروم معهم غير مرة ولكن العرب « رجحت كفتهم » ؛ « وأخيراً جنحوا إلى السلم فعقدوا الصلح مع الروم مجتمعين » . وهذا القسم من المتن يقع بين الحكاية المتعلقة بإخماد عصيان الايسوريين وحملة قباد على ثيودوسيوبول وآمد ، مما يسمح بمقارنة مادة اڤاغريوس ـ اوستافيوس الايپفاني بما دونه ثيوفانيس تحت أحداث عام ٥٩٩٥ متعلقاً بعقد بيزنطة الصلح مع آرثه « الملقب ثالبان » . ويربط ثيوفانيس عقد معاهدة عام ٥٠٢ بالكنديين الذين ترد الإشارة إليهم في المتن . أما اوستافيوس فلا يربط السلم الذي تم مع « البرابرة الاسكينيين » أو عقد الصلح معهم باسم ما ، لهذا من الجائز القول بأن الأمر إنما يتعلق بالغساسنة وأنهم انضموا إلى معاهدة الصلح هذه(١٨) . ذلك أن الغساسنة الذين استقروا منذ عهد غير بعيد بالمنطقة وأصبحوا مصدر إزعاج لبيزنطة ينطبق عليهم بصورة خاصة عبارة « البرابرة الاسكينيين »*، / مما يمكن 184 توكيده بالرأي الذي ورد قبل قليل خاصة وأن حوليات ثيوفانيس تتحدث تحت عام ٥٩٩٠(١٩) عن انتصارات الاستراتيج أوجينيوس وقائد قوات فلسطين رومان لا على أُجر (حجر) بن الحارث ثعلبان الكندي وحده ، بل وأيضاً على « اسكيني آخر غيره يدعى جبله » كان أغار على فلسطين لدوافع شخصية . وكان جبلة هذا أباً للحارث فيلارخ الغساسنة(٢٠) . أما الهجوم الذي قام به جند الروم على طول الحدود مع العرب فيمكن إرجاعه إلى عام ٤٩٧ / ٤٩٨ والأعوام التالية لذلك . والأرجح أنه حدث في الأعوام الأخيرة من القرن الخامس والعامين الأولين من القرن السادس وتوّج باتفاق شامل مع الروم لجميع « البرابرة الاسكينيين »(٢١) . ومن

---

(١٥) G. Rothstein. Die Dynastie der Lahmiden...., p. 91.

(١٦) I. Kawar, Ghassan and Byzantium: a new terminus a quo. Der Islam. 1958. Bd. 33, pp. 254 - 255.

(١٧) Evagrius. Historia ecclesiastica. III. 36. ed. Bidez and Parmentier. London. 1898. p. 135: Eustathius. Fragmenta. Fragmenta historicorum graecorum. ed. C. Mullerus. t. IV. Parisiis. 1851. p. 142.

* لعله من الأوفق أن نضيف ههنا أن لفظ « الاسكينيين » مشتق من اليونانية Skene أي الخيمة . ويقصد بهم عادة أعراب بادية الشام الذين عرفوا ضرباً معيناً من الاستقرار وعاشوا بمضاربهم عيشة أشبه بعيشة الحضر قريباً من الريف والحضر ، وذلك على خلاف البدو الرحل المتنقلين على الدوام ـ المترجم .

(١٨) I. Kawar. Ghassan and Byzantium....., p. 247.

(١٩) Theophanes. Chronographia, p. 141.

(٢٠) Th. Nöldeke. Die Ghassanischen Fürsten...., p. 10.

(٢١) Eustathius. Fragmenta. p. 142: Evagrius. Historia ecclesiastica. III. 36, p. 135.

متن ثيوفانيس نرى أن غارات جبلة كرأس للغساسنة لا علاقة لها بالكنديين ، وأن الغساسنة ثبّتوا أقدامهم وأخذوا بزمام المبادرة عقب طردهم لسليح[٢٢] .

من كل هذا يتضّح أن المجموعة الجديدة من القبائل التي كان على رأسها الغساسنة قد ثبتت لنفسها على حدود بيزنطة ودخلت معها في اتفاق لحراسة حدود الامبراطورية بل وأصبحت في وضع الحليف لها .

الملك « الأمجد » الحارث بن جبلة

يعتبر مصنف نولدكه الكلاسيكي بحقٍ فتحاً جديداً في وضع الأسس لدراسة تاريخ القبائل العربية الشمالية قبل الاسلام . فقد أدخل منهجاً فريداً في البحث يستند على التحليل الفيلولوجي المقارن للمعطيات ، ومقابلة مادة المصادر الشرقية بمادة المصادر اليونانية مع مزج معلوماتها بصورة سمحت له بالخروج باستقراءات جديدة وتقديم تسلسل للأحداث وفقاً للسنين . وكان مُحقّاً إلى حد كبير في نقده الصارم للروايات العربية المتأخرة التي لم تعكس الوضع التاريخي الصحيح ، بل وفوق ذلك عاقت من إثبات الوقائع التاريخية التي لم يتطرق الشك إلى صحتها .

والحارث بن جبلة هو ألمع شخصية بين الغساسنة ، فقد وضع الأسس لذلك البيت وصنع له المجد . كذلك امتدت فيلارخيته وفيما بعد ملكه لعهد طويل لأن تاريخ موته يقع في عامي ٥٧٨ و٥٧٩[٢٣] . وأهم الأحداث المتعلقة بشخصه أثبتها نولدكه ، كما أثبت أن الحارث وآرثه إنما هما اسم لشخص واحد ؛ كذلك أثبت وجود اثنين من فيلارخات العرب يحملان نفس الاسم وهما الحارث الغساني والحارث الكندي الذي قتله اللخميون عام ٥٢٨ ؛ / وفضلاً عن هذا فقد أكّد قيام الحارث بحملة تأديبية على السامرة في عام ٥٢٩ . 185
أخيراً فإننا ندين له بقائمة مفصّلة « للمناصب » التي تقلدها الحارث والألقاب التي حصل عليها ، مما هو معروف لنا من المصادر الشرقية واليونانية . هذه الدراسة التي ندين بها لعالم جليل مثل نولدكه تركت أثراً عميقاً على الباحثين حتى أصبحت أنموذجاً احتذته فيما بعد البحوث التي كُرِّست لدراسة القبائل العربية الشمالية الأخرى مما أشرنا إليه في ما مر من الكتاب . وجميع الاستقراءات الأساسية التي خرج بها عالم الساميّات المرموق قد قبلت وطُوِّرت في الأعوام التالية ، خاصة ما أولاه من أهمية لعام ٥٠٢ بوصفه لحظة بدء المحادثات وقيام العلاقات بين بيزنطة وقبائل العرب ؛ لاكندة وحدها بل والغساسنة أيضاً . وفي أعقاب نولدكه تولّد الاهتمام بألقاب الحارث ، غير أن نتائج دراسات الباحثين لم تذهب إلى أبعد من تكرار للمعطيات التي أثبتها[٢٤] . وتجدر

(٢٢) Theophanes. Chronographia, p. 141.
(٢٣) Th. Nöldeke, Die Ghassanischen Fürsten....., p. 23.
(٢٤) I. Kawar, 1) Arethas Son of Gabalah. JAOS. 1955. v. 75. pp. 205 - 216; 2) The Last Days of Salih. Arabica. 1958. v. V. p. 149; 3) The Patriciate of Arethas. BZ. 1959. Bd. 52. p. 321 - 343; 4) Ghassan and Byzantium. pp. 232 - 255.

الإشارة في هذا الصدد إلى النتائج العميقة التي بلغها البروفسور رودلف جيّان R.Guilland في آخر بحث له عالج فيه الكلام على الرتب والألقاب البيزنطية[٢٥]*. ولقد اجتذب الاهتمام بصورة خاصة تلك المسألة المتعلقة بخيانة الحارث لبيزنطة ، والتي توجد إيماءات إليها في المصادر اليونانية . ولابد من العودة إلى هذه المسألة مرة أخرى ؛ كما وأنه ليس بمقدورنا أن نغض النظر عن أسلوب التبرير والاعتذار الذي لجأ إليه بعض البحاثة عند معالجتهم لها ، وهو شيء لا يوجد ما يبرره على الإطلاق .

وبالنظر لأن مشاركة الحارث في حروب بيزنطة وايران والكفاح ضد عرب الفرس قد جرى فحصها في الفصلين المفردين للخميين وكندة فسيقتصر كلامنا هاهنا بصورة رئيسية على الأحداث التي لم نعالج الكلام عليها هناك أو جرى الحديث عنها بصورة مبتسرة . ويجب الاعتراف باديء ذا بدء بأن أفضل مصدر لتاريخ الحرب مع الفرس على عهد انسطاس هو الحوليات السريانية ليوشع العمودي والتي ترجع ببداية هذه الحرب إلى آغسطس عام ٥٠٢ ، بينما ترجع بنهايتها وبعقد الصلح إلى عام ٥٠٦[٢٦] . ويمكن الافتراض بأن المعاهدة مع العرب لعام ٥٠٢ والتي مر الكلام عليها قد عقدت إما قبل هجوم القوات الفارسية أو عند بداية الحرب بالذات . وكانت مشاركة القبائل العربية من كلا الجانبين في هذه الحرب نشيطة للغاية ؛ ولم يكن اللخميون وحدهم وعلى رأسهم النعمان هم الذين قاموا بالغارات القاسية ، بل إن « عرب الروم » الذين أطلق عليهم في بعض الحالات اسم « ثعلبة » وفي حالات أخرى لم يرد ذكر اسم لهم قد ألحقوا الهزيمة بالفرس . والقول بمشاركة الغساسنة في تلك الحرب إلى جانب بيزنطة جائز ، إلّا أن توكيده ضربٌ من المستحيل لأنه لم يرد لهم ذكر في المصادر ؛ ولكن ورد ذكر جبلة والد الحارث في « حوليات » ثيوفانيس تحت أحداث عام ٤٩٧/٤٩٨ . وعلى أية حال فإن وقوف العرب إلى / جانب بيزنطة في الحروب مع الفرس ليست موضعاً للشك بل وكانوا نشيطين فيها للغاية . وبما أن آراء بروقوبيوس معروفة بتحيّزها ، فإن شهادة الحوليات السريانية لزكريا الملطي تنال أهمية خاصة .

186

وفي عام ٨٣٨ لليونان وذلك في شهر تموز (أي يولية) من عام ٥٢٧ ، أصبح يوسطنيان طاغية لبيزنطة ، أي حاكماً بمفرده . « ومن بداية حكمه وإلى يومنا هذا اهتم ببناء المدن وتعميرها وتجديد أسوارها» ؛ غير أن أتون الحرب بين الروم والفرس استعر على عهده . وكان الاستراتيلات طيموسطراط قد جمع القوات لمحاصرة نصيبين ولكنه لم يتمكن من الاستيلاء عليها ، كذلك لم يتمكن من الاستيلاء على قلعة تبت Tebet

(٢٥) R. Guilland. Etudes de titulaire byzantine. Revue des études byzantine. Paris, 1955. XIII. p. 50 - 84.

* لم يلبث عالم البيزنطيات الفرنسي الكبير رودلف جيان Rodolphe Guilland (١٨٨٨ - ١٩٨١) أن جمع أشتات مقالاته وبحوثه عن النظم البيزنطية وزاد عليها وأخرجها في مجلدين ضخمين هما :

1) Recherches sur les institutions byzantines (1967)

2) Etudes de topographie de Constantinople byzantine (1969)

أما عن ثبت أعماله الكاملة ، فراجع Revue des Etudes Byzantines (ص ٢٧١ - ٢٨٧) ، الجزء ٣٨ ، ١٩٨٠ - المترجم

(٢٦) N. Pigulevskia. Mesopotamia na rubeje V - VI vv. A.D.. str. 93 - 130. Russk. per. Khroniki Jeshu Stilita. No. 47. 48. 97. 98. str. 148. 169.

الواقعة على بعد عشرة فراسخ من دارا . وقد تسبب القيظ وفقدان الماء في هلاك أعداد كبيرة من الجند وخاصة المشاة(٢٧). ولحماية عروب(بيت عربايه) قرر يوسطنيان بناء مدينة ببريّة تنورين لصد غارات العرب (طيايه ، أي الطائيون) ، وأرسل لهذا الغرض رجل من ابدانه هو السيلنسيار توما الذي قام بتوفير المواد الضرورية وشرع في البناء ، ولكن العرب والكوديشيين من سنجار وتبت اضطروهم إلى إيقاف العمل . وبما أن القوات البيزنطية قد ركزت جهدها لاحتلال نصيبين وتبت فقد دعّم الفرس الدفاع بصحراء تنورين وحفروا الخنادق في كل مكان . وفي هذه الأثناء مات الدوكس (القائد)طيموسطراطوتم تعيين بليزاريوس خلفاً له . ومما هو جدير بالملاحظة أن الحوليات السريانية تنوّه بمنع بليزاريوس لجنده من نهب الفلاحين لأنه كان « يحبهم » . ووفقاً لقول كاتب الحوليات فإن الذي حمله على ذلك الخصى سليمان الذي صحبه والذي كان من قبل موثّقاً (notary) للدوكس فلسسموس . وقد تم من جديد جمع القوات الرومية وعلى رأسها عدد من القواد كان من بينهم « أطفر Atfar زعيم العرب » ؛ وفي تلك الأثناء كان الفرس قد فرغوا من حفر عدد كبير من الخنادق وأخفوها ، كما عملوا حواجز مثلثة من الخشب فصلوا بينها بحفر عميقة . وقد وقع جيش الروم في هذه الخدعة العسكرية وقاسى منها مشاقه بصورة خاصة ؛ أما الفرسان فقد سارعوا تحت قيادة بليزاريوس بالاحتماء بدارا . ووضع الفرس أيديهم على عدد كبير من الأسرى « وأصيب أطفر ملك العرب بجرح قاتل في رأسه فمات متأثراً بجراحه . وكان مقاتلاً ماكراً شديد المراس وعلى خبرة باستعمال أسلحة الروم ، كما كان شخصية نابهة لامعة واكتسب الصيت في معارك عديدة »(٢٨) . واسمه يقابلنا في اليونانية في صورة طفراس Tafaras ،(٢٩) ، وعرف بأنه كان فيلارخاً . ويرد ذكره مع قواد بيزنطيين آخرين قاتلوا الفرس (على عهد قباد) الذي كان يقودهم ميران Meran [مهران ؟] واكسركسيس [احشويرش ؟] . أما في عداد المقدمين من البيزنطيين /فيرد اسم كورتيس وسباستيان ومعه الايسوريون وبرقليان دوكس فينيقية والقوميس بازيليوس ، « إلى جانب بليزاريوس والفيلارخ أطفر الذي عثر به فرسه » فسقط على الأرض وقتل . ولا يرد تحديد هذا العام لدى ملاله(٣٠) ، غير أن الحوليات السريانية ليعقوب الرهاوي تنسب إلى عام ٥٢٧/٥٢٨ غارة الفرس على أرض الجزيرة وميفرقات (العام الأول من حكم الامبراطور يوسطنيان)(٣١) . واسم الحارث نفسه يرد ذكره في مناسبة أخرى . فقد قام شطر من الجيش البيزنطي بغارة على أملاك المنذر اللخمي ، وكان على رأس الحملة الحاكمان العسكريان لفينيقية والفراتية وأيضاً أحد قادة الألوف . ولقد أخذت قوات الفيلارخات العرب طرفاً في هذه الحملة التي كان الهدف منها الثأر لفيلارخ الروم الذي قتله اللخميون وهو الحارث

187

(٢٧) Zacharias Rhetor. Historia ecclesiastica. IX. 1. CSCO. Scriptores syri. series tertia. t. VI. Parisiis. 1921. p. 92

(٢٨) شرحه ، التاسع ، ٢ ، ص ٩٢ - ٩٣ .

(٢٩) Malalas. Chronographia, p. 441.

(٣٠) شرحه .

(٣١) Chronicon Jacobi Edesseni. Chronica minora. CSCO. Scriptores syri. t. IV. pp. 319, 240.

الكندي . وكان ممن شارك في حملة عام ٥٢٨ هذه الحارث الغساني وفقاً لإجماع الباحثين(٣٢) . كذلك يستحيل الشك في أن المدعو جنف إنما المقصود به جفنة ، وهو اسم معهود بين الغساسنة وبالتالي يمكن اعتباره من أفراد هذا البيت الحاكم . وابتداء من هذه اللحظة لم يختف اسم الحارث ـ آرثه من صفحات الحوليات اليونانية والسريانية .

ولا يتطرق الشك إلى مشاركة الحارث في إخماد عصيان السامرة الذي اتخذ أبعاداً كبيرة واتسم بالخطورة . وكان السبب في اندلاع هذه الثورة هو اضطهاد حكومة يوسطنيان للشعوب التي لا تدين بالنصرانية ومن بينها السامرة(٣٣) ؛ فاضطر هؤلاء إلى اشعال نار الثورة . وقد حفظت لنا أخبارها بعض المصادر القريبة العهد من أحداثها ؛ أما الأحداث نفسها فيمكن عرضها على أساس تتابع زمني ، بل ومن الممكن تحديد تواريخ وقوعها . « ففي شهر يوليو من الاندقطيون السابعة حدثت ثورة قبيلة السامرة وهدموا الكثير من الأبنية بمدينة اسكيثوبول » . وقد اعتبر الأركون باص Bass مسئولاً عما حدث فقطع رأسه « بالمنطقة ذاتها » ؛ وامتد لهيب الثورة ونصب لهم السامرة « طاغية » وتوّجوا قاطع طريق من أهل السامرة اسمه يوليان . وأعقب هذا حرق الأبنية والبيع وقتل عدد كبير من النصارى . وبعد أن احتل يوليان نابلس أقام مباراة بميدان السباق أمّر فيها بإعدام النصراني الذي فاز على غرمائه ؛ كذلك أمر بقتل أسقف المدينة . وقد صدرت الأوامر للدوكس تيودور بالزحف على السامرة « بجيش كبير يصحبه فيلارخ فلسطين » الذي يُفترض أنه كان الحارث الغساني(٣٤) . وهرب الطاغية ولكن تم القبض عليه وأعدم مع أكثرية السامرين(٣٥) . / وفي النقول من ملالة الموجودة لدى قسطنطين بورفيروجنتوس يرد تكرار لهذه القصة مع نعت قاطع الطريق يوليان بالسابروني ho Sabaronos ، وتحديد اسم دوكس فلسطين بأنه Thedotou tou epiklen Magalan(٣٦) . وإشارة المصدر إلى « فيلارخ فلسطين » دون تحديد لاسمه قد دفع بعض الباحثين إلى القول بأنه كان أحد زعماء القبائل العربية وليس الحارث الغساني « لأنه لم يكن فيلارخاً لفلسطين » بل كان فيلارخاً لـولاية عرابية(٣٧) . وقد وجد فيلارخات لمختلف المقاطعات ، لذا فإن أحدهم كان يعمل بفلسطين ضد السامرة كما أن فيلارخاً آخر لحق بهم بعد أن هزموا وهربوا فأسر عدداً كبيراً منهم في تراخونية Trachonis التي كانت تشغل هضبة اللجا* بولاية عرابية حيث امتد نشاط « فيلارخ سراقيني الروم » ، والذي يجب اعتباره الحارث(٣٨) . وإذا ما تذكرنا أن

(٣٢) Th. Nöldeke. Die Ghassanischen Fürsten....., p. 11.

(٣٣) Iu. Kulakowskii. Istoria Vizantii. t. II. Kiev. 1912. str. 46 - 49.

(٣٤) Th. Nöldeke. Die Ghassanischen Fürsten..... pp. 11 - 12; I. Kawar. The Patriciate of Arethas. p. 324.

(٣٥) Malalas. Chronographia. pp. 445 - 446.

(٣٦) Constantinus Porphyrogenitus. Excerpta de insidiis. ed. De Boor. Berolini. 1905. Ex Joannes Malalas. No. 44. p. 171.

(٣٧) E. Stein. Histoire du Bas-Empire. II. p. 288. n.1; R. Paret. Note sur un passage de Malas concernant les phylarques arabes. Arabica. 1958. t. V. p. 259.

* اللجا أو اللجاء ، أي المعقل والملاذ كالملجأ ـ المترجم

(٣٨) Paret. Note sur un passage de Malalas. p. 260.

بروكوبيوس قد عدّه في عام ٥٢٩ فيلارخاً لولايتي فلسطين الأولى والثانيـة(٣٩) فإن التفاصيل التي وردت قبل قليل قد تكون موضعاً للشك .

وثورة السامرة معروفة أيضاً لكرلس الاسكيثوبولي الذي يروي في مصنفه في سيرة القديس سابا أنها حدثت في الشهر الرابع بعد موت الآبّا ثيودوسيوس الذي يرجع به إلى الاندقطيون السابعة كما فعل ملاله ، أي إلى عام ٥٢٩ . ويذكر كرلس في روايته أن ثوار السامرة خربوا جميع القرى الواقعة حول نابلس وأحرقوها . ويرتبط تخريب بلاد فلسطين على يد السامرة بالوساطة التي توجّه بها القديس سابا إلى القسطنطينية لتخفيف الضرائب عن ولايتي فلسطين الأولى والثانية . وقد بلغ القديس العاصمة في ابريل من عام ٥٣٠(٤٠) . ويؤيد بروكوبيوس القيساري(٤١) أخبار الثورة ، فهو يقول إنه هلك فيها حوالي مئة الالف نسمة . وحتى إذا ما وافقنا على أن هذا القول فيه الكثير من المبالغة فمما لا شك فيه أنه محقّ في توكيده أن هذه المواضع ظلت غير محروثة وأن الأرض الخصبة توقفت عن إنتاج المحاصيل . وتضيف « حوليات » ثيوفانيس و « الحوليات السريانية » لزكريا البليغ معطيات جديدة في تاريخ ثورة السامرة ؛ ووفقاً لقوله فإن السامرة وقعوا تحت تأثير ايران « لمّا علموا أن الفرس يغيرون من وقت لآخر على أرض الروم ويقتحمونها » ، وتذكروا ما تواتر عن أجدادهم من أنهم في الأصل مهاجرون من جنوبي بلاد ما بين النهرين « كان قد نقلهم شلما نصر / ملك أشور » إلى مواضع سكناهم الحالية « فنزلوا بالسامرة » . وقد ثاروا مؤمّلين في عَوْن الفرس استناداً على هذه الروابط القديمة ولأنهم « هاجروا من أرضهم » ونزلوا بأرض الروم(٤٢) . وصلة السامرة بالفرس يؤيدها المؤرخ اليوناني [أي ثيوفانيس] ؛ فهو يقول إن خسرو بعد أن تسلم الهدايا من القائد العام هرموجين لم يرد عقد الصلح لأن الهاربين من السامرة كانوا قد وعدوه بأنهم « سيسلمونه بلادهم فلسطين بأجمعها » . وقد افترض الشاهنشاه أن حلفاءه من اليهود والسامرة سيبلغ عددهم الخمسين ألفاً(٤٣) .

189

أما بصدد مشاركة العرب في إخماد عصيان السامرة فيحدثنا ذلك المصدر السرياني نفسه ؛ فهو يذكرهم تحت اسم « عرب عرابية » ويقول إنهم قاتلوا إلى جنب الجيش البيزنطي(٤٤) . ويقال « إن فيلارخ عرب الروم » أي الحارث الغساني « سبى عشرين ألفاً ما بين فتى وفتاة وباعهم ببلاد الفرس وإنديكا »(٤٥) ؛ أي أن هؤلاء الأسرى تم بيعهم بأسواق الرقيق بإيران وبالجزيرة العربية ، لأن إنديكا إنما يقصد بها عادة مناطق

(٣٩) Procopius. De bello persico. I, 17. p. 90.
(٤٠) Kyrillos von Skythopolis. ed. Ed. Schwartz. Leipzig, 1939, pp. 171 - 173. 345.
(٤١) Procopius. Anecdota. XI. 24 - 29. ed. Haury. v. III. Lipsiae. 1906. pp. 74 - 75.
(٤٢) Zacharias Rhetor. Historia. lib. IX. cap VIII. CSCO. Scriptores syri. series III. v. VI. p. 100: The Syriac Chronicle of Zachariah of Mitylene. transl. by F.J. Hamilton and E.W. Brooks. London. 1899. p. 132.
(٤٣) Theophanes. Chronographia. p. 178.
(٤٤) Zacharias Rhetor. Historia. IX. 8. p. 101.
(٤٥) Malalas. Chronographia. p. 447.

الجنوب العربي [لا الهند] عند ملاله . ولا بد أنَّ هذه الغنائم جلبت له ولجيشه أرباحاً هائلة .

وهناك أسس كثيرة للافتراض بأن المعونة التي توقعها الثوار من جانب الفرس قد لعبت دورها في إيقاظ أمانيهم القومية . وكان لا بد لبيزنطة من أن تحشد طاقاتها ، لذا فقد انضم إلى « جيش الروم » العرب المعترفون لهم بالطاعة . ويتّضح من العدد الكبير من الأسرى الذين وقعوا في يد الفيلارخ أنه تصرّف بطريقة حاسمة للغاية وأخمد الثورة بأقسى ما لديه من أساليب . أما تسمية العرب باسم « عرب عرابية » فهو يشير إلى « ولاية العرب » البيزنطية التي نزلوا بها[٤٦] .

أما المرة التالية التي يرد فيها الكلام عن مشاركة القوات العربية التي كانت تحت زعامة الحارث فقد كانت الواقعة عند قللينيقه ؛ وقد سبق أن توقفنا عندها من قبل في معرض الكلام على الأحداث المرتبطة بمهاجمة الفرس لأراضي الدولة البيزنطية يعاونهم عرب الحيرة . وقد تقدمت قوات قباد فاجتازت الفرات عند قرقيسيا ، ثم انتشر جند الفرس على الفرات وخندقوا على أنفسهم كما هي عادتهم في الحروب[٤٧] . فسارع بليزاريوس وجمع قواته من خيّالة ومشاة ، وكان من بينهم/الايسوريون الذين افتقروا إلى الدربة في القتال[٤٨] ، « كذلك قدم آرثه بجيش العرب » . أما الطريق الذي أخذه الفرس في زحفهم فقد جرى تخطيطه في تشاور مع المنذر ، وكان الاتجاه الذي اختاره موفقاً . ولقد كان الهجوم مفاجئاً للروم لأن جيش الشاهنشاه سلك هذا الطريق لأول مرة . وجرت المعركة الفاصلة وفقاً لقول پروكوپيوس على الضفة اليمنى للفرات عند سور وذلك في مواجهة قللينيقه الواقعة على الضفة اليسرى للنهر وذلك في يوم السبت التاسع عشر من ابريل عام ٥٣١ أي عشية عيد الفصح . ويقول المؤرخ السرياني زكريا الملطي أن الواقعة جرت يوم « أحد القيامة » من الاندقطيون التاسع ، أي يوم عيد الفصح ذاته وهو العشرون من ابريل عام ٥٣١[٤٩] . وقد تخوف اشتابيد والفرس من الالتحام في معركة مع الروم ، لذا فقد عرضوا عليهم ايقاف جميع الأعمال العسكرية يوم عيد الفصح إكراماً للنصارى الذين في « جيشنا » أي جيش الفرس ، و« إكراماً لكم أنتم لأنكم نصارى » . فقبل بليزاريوس ذاك ، ولكن قواد جيشه لم يرضوا بذلك وتأهبوا للقتال . وكان يوم المعركة بارداً هبت فيه الريح في وجه البيزنطيين . وكانت قيادة البيزنطيين في الجناح الأيمن في موضع منحدر من الأرض ، أما « آرثه وجميع عربه » فقد وجدوا أنفسهم وجهاً لوجه مع الجناح الأيسر لجيش الفرس الذي شغله عرب ملك اللخميين[٥٠] . فلما بدأ القتال انقض خيرة جند الفرس على القوات العربية للبيزنطيين فشتتوا شمل الوحدات التي كانت تحت قيادة الحارث ، مما أفسح الطريق للفرس فداروا وراء خيالة الروم . ورغماً من أن پروكوپيوس

(٤٦) Th. Nöldeke. Die Ghassanischen Fürsten....., p. 12.
(٤٧) Zacharias Rhetor. Historia ecclesiastica. IX. p. 4, p. 95.
(٤٨) Procopius. De bello persico. I. 18, pp. 90 - 91.
(٤٩) Zacharias Rhetor. Historia ecclesiastica. IX. 4. p. 95 ; B. Rubin. Das Zeitalter Justinians. p. 288.
(٥٠) Procopius. De bello persico. I. 18. pp. 95 - 96; I. Kawar. Procopius and Arethas. BZ. 1957. t. 50. pp. 55 - 56.

يقول إن « الجميع لاذوا بالفرار » وأن هذا هو السبب في اتهام الحارث بالغدر ، إلّا أن التفاصيل الموجودة لدى ملالة من شأنها أن تعاون على تفسير تصرفات العرب بصورة مغايرة . فهو يقول إن الفريجيين الذين يدعوهم بروقوبيوس بالايسوريين والليكاأونيين هم الذين انسحبوا من ميدان المعركة وتبعهم شطر من العرب ، بينما ظل شطر آخر من العرب « يقاتل مع آرثه »[٥١] . ويضيف ملاله أن ثمت رأياً يزعم بأن العرب هربوا من ميدان المعركة « لخيانة فيلارخهم » . ومسألة غدر العرب بالروم تختلف حولها الروايات ، مما يستدعي فحصاً خاصاً سواء فيما يتعلق بحادث عام ٥٣١ أو بحملة عام ٥٤١ التي شاركت فيها وحدات عربية بقيادة الحارث . وتوكد الحوليات السريانية أن الجيش البيزنطي قد هرب بأجمعه من ميدان القتال وغرق عدد كبير من جنده بالفرات وقتل آخرون . أما جيش بتز Buts فقد وقع جنوده في الاسر ، ولكن بليزاريوس نجا بنفسه[٥٢] . وكانت خسائر القوات البيزنطية فادحة / لدرجة اضطرت بروفوبيوس إلى الاعتراف بأن النصر كان حليف الفرس . ولقد كانت نتيجة المعركة سبباً في إبعاد بليزاريوس من مسرح العمليات الحربية ؛ « ولما كان بليزاريوس قد اتهمه الامبراطور بأنه تسبب في القضاء على جيشه بواسطة الفرس عند تَنّوريس Tannuris وعلى الفرات فقد عُزل وتوجه إلى العاصمة فتولى القيادة بعده بدارا قسطنطين »[٥٣] . ونظراً لأن الفرس استمروا في عملياتهم الحربية ولم يوافقوا على عقد الصلح وأنهم قاموا في العام نفسه بحملة على أُسروينه وحاصروا ميفرقات بأرمينية فإن بيزنطة لم تسرّح قواتها « بل جمع الروم من جديد جيشاً كبيراً وعينوا الاستراتيليت سِتّا Sitta قائداً له ؛ وظلّ برجيله ملك العرب معهم »[٥٤] . وقد صحب الحارث هذه القوات التي بلغت آمد في اكتوبر أو نوفمبر (شهر تشرين ، دون الإشارة إلى الأول أو الثاني) من العام العاشر للاندقطيون ؛ ومن هذا يتضح أن الحارث اشترك في الحملة منذ عام ٥٣١ .

191

وفي نهاية الثلاثينات السابقة للحرب التالية بين الفرس والروم شب النزاع بين العرب حول ما يسمى « بالاسطراط » ، وهي الطريق الاستراتيجية والتجارية الهامة التي تربط دمشق بتدمر والتي ورد القول عنها فيما مر عند الكلام على الخطط العسكرية للمنذر . ويجب الاهتمام بصورة خاصة بالحجج التي ساقها الحارث حول حقوقه في هذه الطريق وفي الأراضي الملاصقة لها . وكان المنذر قد اشتكى من الإساءة التي لحقته على يد الحارث زاعماً أنه طرده من أراضيه ، وقد تذّرع بهذا ليشن الغارة على الأراضي البيزنطية . ولا يخلو من طرافة أن الملكين العربيين قد رجع كلاهما في هذا النزاع إلى وثائق قانونية فأكد كل منهما أن العرب لم يرد ذكر لهم في الاتفاقية المعقودة بين ايران وبيزنطة . وقد اعتمد الحارث على القانون العرفي الذي كانت له أهمية استثنائية بين

(٥١) Malalas. Chronographia. p. 464; B. Rubin. Procopius von Kaisarea. p. 100.

(٥٢) Zacharias Rhetor. Historia ecclesiastica. IX. 4. p. 95.

(٥٣) شرحه ، ٩ ، ٦ ، ص ٩٧ .

(٥٤) شرحه .

العرب . فبعد أن دلّل على أن الأراضي المحيطة « بالاسطراط » كانت ملكاً للامبراطورية أشار إلى أن اللفظ نفسه ويعني الطريق إنما هو لاتيني الأصل* ؛ وهو محق في هذا . وقد ساق في تدعيم قوله شهادة الطاعنين في السن من شيوخ القبيلة(٥٥) . غير أن النزاع لم يلبث أن تم تسويته بواسطة الدبلوماسية البيزنطية على يد الاستراتيج سومس ؛ وبهذا أمكن الوصول إلى تهدئة نسبية للوضع . ومما يؤيد أن بيزنطة جهدت في إحلال السلام والهدوء بربوع ولاية عرابية والمناطق المجاورة لها « القانون الجديد » (نوفيللا Novella) رقم ١٠٢ الذي أصدره الهيبارخ يوحنا القبادوقي عام ٥٣٦(٥٦) . أما الفرس فقد حققوا خططهم العسكرية في وقت تال .

وجدير بالملاحظة أن الطبري حفظ لنا في تاريخه قصة تتعلق بهذه الأحداث . فهو يذكر من طرف عرب الفرس اسم المنذر بن النعمان ، كما يذكر أن يوسطنيان عيّن خالد بن جبلة ، أي الحارث بن جبلة ، ملكاً على عرب الشام . / وقد بيّنا من قبل أن اسمه بلغنا بهذه الصورة في رواية بهلوية لأن صوتي اللام والراء يستعمل من أجلهما حرف واحد في أبجدية تلك اللغة ؛ ولهذا فإن اسم الحارث كان بالإمكان قراءته خالداً . ووفقاً لهذه الرواية فإن الحارث أغار على مناطق تابعة للمنذر فقتل واستولى على غنائم كثيرة . ونظراً لأن الصلح قد عقد بين الدولتين الكبريتين فقد طلب المنذر من خسرو أن يعاونه في استرداد ما غنمه الحارث منه وفي تعويض الخسائر الناجمة عن ذلك . ويقال إن الشاهنشاه كتب إلى يوسطنيان غير مرة حول ذلك ولكنه لم يحظ برد مُرضٍ لذا فقد قام بحملته التي استولى فيها على عدد من المدن بما في ذلك أنطاكية(٥٧) . وبهذا فإن ما حدث من صدام بين العرب أثناء فترة السلام إنما تقع مسئوليته على عاتق الحارث الغساني ، وفقاً لما جاء في الرواية الفارسية ـ العربية . ويرد ذكر الوحدات العربية والحارث في حملة عام ٥٤١ عقب استيلاء الفرس على أنطاكية والمحاولات الأولى للاستيلاء على لازقة . وعندما شرع بليزاريوس في تجميع قواته بأرض الجزيرة ليقوم بالهجوم على الفرس وصل الحارث « بجيش كبير من العرب »(٥٨) .

ولما اضطر بليزاريوس إلى الإقلاع عن خطته لاحتلال نصيبين حاصر بقواته سيسوران ولكن صدّه

---

* من اللاتينية strata المشتقة من الفعل sterno, stravi, stratum بمعنى « يمدّ » ، والذي يعطي في المؤنث strata بمعنى (الطريق via) الممدود ، أي الممهد . ويقابله في الانجليزية لفظ street . وفي الألمانية لفظ Strasse بمعنى الشارع . ويلوح ان لفظ « سراط / صراط » العربية مأخوذة عن هذا اللفظ اللاتيني . ومما لاشك فيه ان وجود طريق معبّد ومستقيم في وسط الصحراء كان شيئاً غريباً بالنسبة للبدو . وقد اشتهر الرومان بشق الطرق التي ربطوا بها انحاء امبراطوريتهم المترامية الأطراف . وبالتالي عنى الاسطراط أيضاً « السبيل الواضح » ـ المترجم .

(٥٥) Procopius. De bello persico. II. 1. p. 149; Th. Nöldeke. Die Ghassanischen Fürsten...., pp. 17 - 18.

(٥٦) Novella 102. De moderatore Arabiae. cap. 2. Novellae. Ed. R. Schoell et G. Kroll. Berolini. 1895. ed. stereotypa. p. 494.

(٥٧) Th. Nöldeke. Geschichte der Perser und Araber aus der arabischen Chronik des Tabari. Leyden. 1879. pp. 238 - 239. notae.

(٥٨) Procopius. De bello persico. II. 16. str. 222.

الفرس مرة اخرى . فجمع قواده ليعيد النظر في خطة الحملة ، وكلّف جيش العرب بمهمة محدّدة وهي الغارة على أثور أي المنطقة الواقعة على المجرى الأسفل لدجلة . والسبب في هذا أن العرب لم توجد لديهم المقدرة لحصار المدن بصورة منظّمة ، ولكن كان باستطاعتهم في مقابل ذلك أن يلحقوا بالعدو خسائر فادحة بطريقة أخرى[٥٩] . ووفقاً لهذا فقد أصدر بليزاريوس أوامره إلى الحارث « باقتحام اثور » بجيشه ومعه ألف ومئتا استراتيوتا [أي جنود بيزنطيون] كانوا تحت قيادة ترايان ويوحنا « المتمرسَين في القتال » واللذان وجدا تحت إمرة الحارث الذي كلف بمهمة تخريب هذه المنطقة من ايران وجمع المعلومات عن القوات الموجودة بها . فعبر الحارث بقواته نهر دجلة ووجد هذه الولاية الفارسية في حال من الازدهار لأنها لوقت طويل لم تتعرض للاضطرابات وإن كانت خالية تماماً من وسائل الدفاع وتفتقر إلى الحراسة اللازمة . فاستطاع ملك العرب تنفيذ الخطة بغارة سريعة استولى فيها على غنائم هائلة أثرى بها نفسه وجيشه[٦٠] .

وخلال ذلك كان بليزاريوس قد تمكن من وضع يده على قلعة سيسوران ، ولكن الحارث لم يرد الرجوع إلى القوات البيزنطية « خشية أن يستحوذ الروم على غنائمه » ؛ ولعدم رغبته في اقتسام ما غنمه فقد أمر بعض طلائعه بالعودة / والادعاء كذباً أن عودة الحارث قد عاقها وجود جيش فارسي كبير كان يحاول اجتياز دجلة . 193 كذلك أرسل بطريقٍ آخر القائدين اللذين تحت إمرته وهما ترايان ويوحنا ومعهما جندهما، لا إلى بليزاريوس ولكن إلى مدينة ثيودوسيوبول الواقعة على نهر الخابور[٦١] . فلما تأخّرت أخباره على بليزاريوس انزعج أشد الانزعاج وأصدر أوامره بالانسحاب . وبالنظر لأن الحارث لم يعد إليه فإنه لم يكن بمقدوره أن يعرب له عن سخطه . وعلينا أن نتذكر على الدوام أن العرب كانوا أقدر على القتال من غيرهم من وحدات الجيش البيزنطي ، وكان لهجماتهم السريعة أثر كبير في تقرير مصير الحرب بأجمعها[٦٢] . لذا فإن پروكوپيوس محق في قوله إن غارة الحارث كانت من أحداث الحرب التي أقضتْ مضجع خسرو الذي كان يحاصر آنذاك بيترا[٦٣] ، وأنها اضطرته إلى العودة إلى بلاده . وفيما يتعلق بهذه الأحداث فإن مؤلف « الحروب الفارسية » يعود مرة أخرى إلى اتهام الحارث بالخيانة بطريقة خفيّة .

وفي ربيع عام ٥٤٥ تم عقد الصلح بين بيزنطة وايران لمدة خمس سنوات . بيد أنه في العام التالي لهذا ، وهو عام ٥٤٦ ، اشتعلت نيران الحرب بين اللخميين والغساسنة الذين لم يتوقفوا في عدائهم بعضهم لبعض . فقد حدث أن خرج ابن للحارث يرعى قطعاناً من الخيل عندما انقض عليه المنذر فجأة وأسره

---

(٥٩) شرحه ، ٢ ، ١٩ ، ص ٢٣٣ .
(٦٠) شرحه ، ص ٢٣٤ .
(٦١) شرحه ، ص ٢٣٥ .
(٦٢) شرحه ، ص ٢٣٦ ، ٢٣٧ .
(٦٣) شرحه ، ص ٢٣٨ .

« وقدّمه في الحال قرباناً للزهرى » ، أي إلهة العرب العُزّى . ويلي هذا ملاحظة بروقوبيوس أن هذا الحادث يقدم الدليل على أن « آرثه لم يخن الروم للفرس » . وأعقب هذا الواقعة بين جيشي الملكين التي كان فيها النصر حليف الغساسنة والتي أوشك الحارث أن يأسر فيها وَلَديْ المنذر ؛ وكان مصير بعض عرب الفرس الفرار ومصير الآخر القتل في ساحة الوغى[٦٤] . كذلك يوكد بروقوبيوس في كتابه « تاريخ حرب القوط » أن العرب من كلا الجانبين نقضوا السلم الذي تم عقده بين الدولتين الكبريتين[٦٥] . وكان الحادث الختامي في هذا العداء الطويل موت المنذر الذي قتل عام ٥٥٤ عند قنسرين في معركة دامية بين اللخميين والغساسنة ، أخذ طرفاً فيها قبائل عربية أخرى كانت تؤازر الطرفين[٦٦] . وفيما بعد خفّت حدّة العداء بعض الشيء بين عرب الروم وعرب الفرس نتيجة لظروف جديدة عدّلت في ميزان القوى .

وكان الغساسنة قد أفلحوا في تثبيت سلطانهم واضطروا سليحاً إلى إفساح المجال لهم . ولكن قابلتهم صعوبات ليست بالقليلة في محاولتهم شغل المكانة / التي شغلها الكنديون من قبل . ومما لا شك فيه أن بعض أفراد هذه العشيرة الأخيرة ظلوا محتفظين ببعض المكانة وسط القبائل العربية المرتبطة بالتزامات عسكرية مع بيزنطة . هذا الوضع بما أحاط به من احتكاكات بين الفيلارخات المتنافسين ظلت تطل برأسها الفينة بعد الأخرى ، ينعكس في رواية كرلس الاسكيثوبولي التي يجب الرجوع بها إلى الفترة التالية لعام ٥٤٤م[٦٧] . فهو يقول : « وقد هاجم اثنان من فيلارخات العرب الخاضعين للروم وهما آرثه واسود بعضهما بعضاً » ، مما نتج عنه اندلاع الاضطرابات وانتشار « البرابرة » في جميع « هذه البادية » ؛ وهو يعني بهذا الموضع الذي وجدت فيه صومعة اوفميوس ومخيمه . وقد تسبب العرب في الكثير من الأضرار ، وانتشر خبر هذا بصورة واسعة[٦٨] . وآرثه المشار إليه هنا هو بطبيعة الحال الحارث بن جبلة الذي نشط في تلك الأعوام بصورة خاصة وشغل مكانة الفيلارخ الأول لعرب الروم . أما الأسود فأغلب الظن أنه من كندة ، خاصة وأن هذه المناطق كانت لوقت طويل تحت فيلارخية الكنديين (ولايات فلسطين الأولى وفلسطين الثانية وعرابية) .

وفي تاريخ بني غسان علينا أن نذكر إلى جانب الحارث اسم أبي كرب الذي كان مسرح نشاطه المناطق المتاخمة للبحر الأحمر . وبما أن الباحثين كرّسوا صفحات خاصة للكلام عليه ، فلنكتف هاهنا بالقول إن مبدأ القرابة القبلية أو صلة الرحم العائلية كان لها أثر كبير في ربط « زعماء » القبائل العربية بعضهم ببعض ؛ وقد اعتمد هذان الأخوان كل منهما على الآخر تمسكاً بهذا الرباط العائلي وكان شطر هام من العرب الذين نزلوا

---

(٦٤) شرحه ، ٢ ، ٢٨ ، ص ٢٨٤ .

(٦٥) Procopius. De hello gothico. IV. II. ed. Haury. v. II. p. 536; Th. Nöldeke. Die Ghassanischen Fürsten...., p. 18.

(٦٦) Hamza Ipahanensis. Annales. p. 119: Abdulfeda. Historia antieislamica. pp. 144 - 145.

(٦٧) Kyrillos von Skythopolis. ed. Ed. Schwartz. p.259 — هذه الأحداث ترتفع إلى الفترة بين ٥٤٣ و ٥٤٤ . E.Stein, Histoire du Bas Empire. t. II. P. 297

(٦٨) Kyrillos von Skythopolis. Vita Euthymiae. No. 51, p. 75.

بأرض الدولة البيزنطية وبمناطق الحدود المتاخمة لها قد خضعوا لسلطان الأخوين ، كما أن اتحاد كلمتهما كان عاملاً كبيراً في بسط سيطرتهما وفي الانتصار على سليح وكندة ؛ وأيضاً في ما لقياه من توفيق نسبي في الحرب ضد اللخميين .

وفي أخبار الحارث تشغل مكانة جوهرية المسألة المتعلقة بخيانته المزعومة أو الحقيقية والتي تتحدث عنها بعض المصادر . واتهام الحارث بالغدر أو تبرئته منه أمر لم يستطع الباحثون أن يتجنبوا الخوض فيه ، غير أن الذي شُغل به وبإصرار شديد واهتمام بالتفاصيل هو عرفان قعوار [شهيد] الذي كرّس للحديث عن الحارث عدداً من المقالات . ولقد كان لمحاولة قعوار [شهيد] إيجاد الأعذار والتبريرات لبطله أن قلّل هذا كثيراً من قيمة استقراءاته وإن اتصفت على وجه العموم بالموضوعية ؛ وكان هدفها التدليل على صدق نية الحارث وإخلاصه لبيزنطة . وفي تحليلنا لاستقراءاته المفصلة والتي أعاد الكلام عليها أكثر من مرة ، سنقتصر من جانبنا على شهادة المصادر وتفسيرها بصورة موجزة للغاية . ونبدأ فنقول إن علاقة الحارث ببيزنطة وصدق نيته في خدمتها قد ارتبط بها ارتباطاً وثيقاً تلك المسألة المتعلقة بمنصبه الرسمي وبألقابه ،/ وهي مسألة اجتذبت 195 الاهتمام منذ أيام نولدكه(٦٩) . ولقد ذهب قعوار [شهيد]بعيداً في معالجة التفاصيل المتعلقة بهذه الألقاب ، متناسياً في الوقت ذاته المغزى الحقيقي لقائمة الرتب والألقاب البيزنطية .

وقد شغل الحارث بن جبلة منذ عام ٥٢٩ منصب الفيلارخ للولايتين البيزنطيتين المسميتين فلسطين الأولى وفلسطين الثانية(٧٠) ؛ وهذا العام هو عام إخماد ثورة السامرة . وأعقب هذا أن تسلم الحارث « لقب الملك » بوصفه « حاكما للعرب بالولاية العربية »(٧١) ؛ وأغلب الظن أن ذلك حدث في العام التالي لذاك أي عام ٥٣٠م . وينسب بروقوبيوس هذه الترقية إلى اعتبارات وجدت لدى يوسطنيان الذي رأى أن يكون لعرب الامبراطورية حكومة موحّدة ، كما كان عليه الحال مع عرب الفرس . والواقع أن لهذا سبباً وجيهاً آخر هو أن الحارث لم يصبح ملكاً إلاّ بعد أن اضطلع بمهمتين كبيرتين لبيزنطة ، هما انتقامه لمقتل الفيلارخ الحارث الكندي ومشاركته في قمع عصيان السامرة . وفي النظم الامبراطورية البيزنطية لم يكن يحمل لقب الملك (بازيليوس) سوى الامبراطور وحده ، لذا فإن بروقوبيوس يعالج بالكثير من الحذر حمل الحارث للقب الملك . أما في المتون السريانية فإنه يدعى ملكاً (ملكا) .

وعلى نقيض نظام عرب الفرس فإنه لم يكن هناك عدد كبير من الجند تحت إمرة الدوكسات أو الفيلارخات بالامبراطورية البيزنطية . وألفاظ بروقوبيوس تشير إلى أن القواد العسكريين البيزنطيين الذين كانوا

---

(٦٩) يفترض نولدكه (Die Ghassanischen Fürsten..., p.11 , nota 6) أن الحارث ربما كان أيضاً فيلارخاً على فلسطين الثالثة .

(٧٠) Procopius. De bello persico. I. 17, p. 90; I. Kawar. Arethas son of Jabalah. JAOS. 1955. v. 75, p. 211

(٧١) Procopius. De bello persico. I. 17, p. 90.

على رأس الولايات (أي الدوكسات) لم تتجاوز إمرتهم الوحدات الموجودة بتلك الولايات والتي لم تكن تكفي بطبيعة الحال لصد جيش المنذر ، لذا فقد اضطر الامبراطور لأن « يكتب بأوامره » إلى دوكس كل ولاية بضرورة الوقوف في وجه العرب . وقد انطبق هذا الوضع نفسه على « زعماء عرب الروم المعروفين باسم الفيلارخات» . ثم يضيف أن الفيلارخات كانوا عديدين وأن السلطة على العرب كانت موزّعة بحيث لم تكن هناك قيادة موحّدة أو جيش واحد كبير ، مما حال دون وقوع رد حاسم على الغارات المتتالية من طرف « عرب الفرس » . هذا الوضع كان من الضروري إعادة النظر فيه ، لذا فإن الامبراطور يوسطنيان « عيّن رأساً على عدد كبير من القبائل في شخص آرثه بن جبله الذي كان يحكم على سراقيني عرابية ومنحه لقب ملك ، الأمر الذي لم يفعله الروم من قبل »[٧٢] . وكانت فكرة الحكومة البيزنطية أن خلق سلطة مركزية تحت ادارة شخص واحد يحكم على عدد من القبائل قد يسوق إلى/نتائج طيبة ، لذا فقد تقرر تعيين الحارث فيلارخاً أكبر ومنحه « لقب ملك » .

ومن غير الممكن تجاهل حقيقة أن الامبراطورية حتى من قبل الغساسنة كانت تسعى جاهدة في البحث عن دعامة لها في هذه الإمارة العربية أو تلك بالشام أو بأرض الجزيرة ؛ بل ودخلت في حلف مع قبائل عربية مثل ضجعم وكندة . غير أن الوضع الذي شغله الغساسنة بالتالي كان أقوى من ذلك بكثير ، وإن كان من المستحيل اعطاؤه تلك الأهمية الكبيرة التي أسبغها عليه قعوار [شهيد][٧٣] اعتماداً على الألقاب التي تسلمها الحارث « لخدمته » بيزنطة على مدى فترة طويلة من الزمن . ولعله من الأفضل في هذا الصدد أن نأخذ بعين الاعتبار أهميةالمنهج المقارن الذي اتبّعه البروفسور ر . جيّان في دراسته العميقة والممتازة للرتب والألقاب المعمول بها في الامبراطورية البيزنطية . كذلك تنال أهمية كبرى الآراء التي أفصح عنها البروفسور برتولدروبين [٧٤] في خلال تقييمه لمادة بروقوبيوس عن شخصيتي المنذر والحارث ؛ فهو يبصر في تصرف الامبراطور لتعزيز وضع الغساسنة محاولة لا تتسم بالجدية ويضيف أن يوسطنيان نال ما يستحقه من نقد لاذع على يد بروقوبيوس وذلك بالطريقة السلبية نفسها التي انعكست في « التاريخ السري » الذي ندين به لقلمه أيضاً[٧٥] . ويرى بروقوبيوس أن الدافع لخلق قيادة موحّدة للقوات العسكرية للقبائل العربية قد عبّر عنه جيداً قول بليزاريوس واركان حرب الامبراطورية بصدد الحارث ، وذلك في الألفاظ التي يوردها بروقوبيوس نفسه « لأننا لا نعرف عنه حتى اللحظة شيئاً ما على وجه اليقين »[٧٦] . ويستمر بروقوبيوس في قوله إن غارات المنذر ظلت على سابق عنفها ، مضيفاً في شيء من الكدر أنه نهب المشرق لوقت طويل لأنه عاش إلى سن متقدمة . غير أنه في الأسطر

(٧٢) شرحه ، ١ ، ١٧ ، ص ٩٠ .
(٧٣) I. Kawar. The Patriciate of Arethas. BZ. 1959. Bd. 52. pp. 321 - 343.
(٧٤) B. Rubin. Prokopius von Kaisarea. Stuttgart. 1954. col. 1 - 366.
(٧٥) شرحه ، العمود ٩٨ .
(٧٦) Procopius. De bello persico. I. 17. 48. p. 90.

الأولى يلقي بروكوبيوس سحابة من الشك على « آرثه بن جبله » فيزعم أنه عندما كان المنذر يقوم بغاراته المخرّبة ، فإن الحارث « إما أخفق في كل غزوة ومعركة ، أو تحول سريعاً إلى الخيانة »[٧٧] ويستعمل بروكوبيوس في حديثه عن إخفاق الحارث أو خيانته تعبيراً شديد اللهجة هو hos malista [أي بلغ القمة في الإخفاق] في الحالة الأولى و hos takhista [أي أدرك الغاية في الخيانة] في الحالة الثانية ؛ كأنما يريد بذلك أن يؤكد صحة ارتيابه في سلوك الحارث . وقد كرّس عرفان قعوار [شهيد] للدفاع عن الحارث والغساسنة في مواجهة هذه الاتهامات عدداً من البحوث ، غير أن أسلوبه التبريري غير مقنع وإن كان عدد من الحجج التي أبداها لا تخلو من الوجاهة . كذلك من العسير الاتفاق معه في موقفه السلبي المتطرف من بروكوبيوس وتشككه في صدق الوقائع التاريخية التي يرويها ، وذلك إلى الحدّ الذي يقلّل فيه من قدر مصنفه حتى عدّه مصدراً من المصادر الكاذبة في جميع الأحوال[٧٨].

197 وفي الحوليات اليونانية يرد اسم الحارث مصحوباً بلقبي البطريق والفيلارخ ومضافاً إلى ذلك نعت « الأمجد » في صيغة التفضيل endoxotatos ، وهو ما يتفق مع اللفظ السرياني « ܝܩܝܪܐ ». وبوصفه نصرانياً فقد أضيف إلى هذه الألقاب أيضاً نعت سرياني يعني التقي ، وهو ما يتفق مع اليونانية « اوسيبستاتوس » eusebestatos ؛ وأيضاً تسمية « فيلوخريستوس » filokhristos أي محب المسيح[٧٩] . وبخلاف المصادر التاريخية فهناك أيضاً شهادة وثيقة قانونية هي النوڤيللا Novellae رقم CII لعام ٥٣٦ ، ويرد فيها ذكر الحارث مصحوباً بلقب Peribleptos-Spectablis[٨٠] [المرموق] . ولن يخدم غرضاً ما القيام بمحاولة لتخمين تاريخ اتخاذه لهذا اللقب. أما لقب « الأمجد » endoxotatos الذي يتفق مع اللاتينية glorississimus فيشهد به نقش عام ٥٥٩ الموجود بباب دير في قصر الحَيْر ، وهي قلعة تقع قريباً من الطريق بين دمشق وتدمر على مسافة ستين كيلومتراً إلى الجنوب الغربي من تدمر ؛ وكان آرثه (الحارث) ابتنى لنفسه ديراً هناك . ويرد اسم الحارث في نقشين ، ينعت في أحدهما « بالأمجد » وفي الآخر « بطويل العمر » . والتاريخ الذي يفترضه الناشر هو عام ٨٧٠ وفقاً للتقويم السلوقي، ويوافقه عام ٥٥٩ للميلاد[٨١] . ويكفي تعداد سريع لألقابه وللنعوت التي اتخذها على مدى عهده الطويل كفيلارخ وملك للعرب للوصول إلى نتيجة مؤداها أنه تمتع بمكانة واحترام كبيرين ببيزنطة . أما محاولة تحديد السنين التي تسلم فيها هذه الألقاب كمكافأة له على مهام اضطلع بها ، فإنها لم تكلل بالنجاح[٨٢] . غير أنه يجب الاعتراف بأن الألقاب الرفيعة التي حصل عليها ، بما في ذلك مرتبة « البطريق آرثه » ، إنما تقف حجة ضد اتهامه بالنفاق والغدر .

---

(٧٧) شرحه ، ١ ، ١٧ ، ص ٩٠ .

(٧٨) I. Kawar, Procopius and Arethas. BZ. 1957. Bd. 50. pp. 39 - 64. 362 - 382.

(٧٩) Th. Nöldeke. Die Ghassanischen Fürsten.... pp. 13 - 14.

(٨٠) Novellae. Nov. 102.

(٨١) D. Schlumberger. Les fouilles de Qasr-el-Heir. Syria. 1939. v. 20, pp. 195. 363. 368. 371 - 372.

(٨٢) I. Kawar. The Patriciate of Arethas. BZ, 1959. Bd. 52, pp. 336 - 337. 340 - 341.

وتمحيص أقوال بروقوبيوس القيساري فيما يتعلق بالغساسنة لا يخلو في حد ذاته من الأهمية . ومن المعلوم أن مؤرخ عصر يوستنيان هذا كان شخصية معقّدة للغاية وأنه غيّر من أحكامه أكثر من مرة ، فتارة كان يتملق الامبراطور ويطريه وتارة أخرى كان ينحى عليه باللائمة ؛ كذلك عرف عنه الميل والتحيّز في تفسيره للأحداث . وقد قدم لنا البروفسور برتولد[٨٣] روبين في الأعوام الأخيرة دراسة جيدة عن بروقوبيوس كانت جماعاً لما كتب عنه إلى اللحظة ، وترك بحثه هذا أثره على جميع الأحكام التالية عن هذا المؤرخ بما في ذلك عن مادته المتعلقة بملك العرب . ويجب الوثوق في أقوال مؤلف « تواريخ الحروب » ، فقد حفظ لنا كمية كبيرة من الوقائع يستحيل علينا تكذيبها ؛ ليس فقط لأن راويها كان معاصراً للأحداث بل ولأنه في كثير من الحالات كان شاهد عيان لها وأخذ طرفاً فيها . / وتحظى النقاط الزمنية في مصنفاته بقيمة كبرى[٨٤] ؛ أما الصعوبات فتحيط 198 بافتراضاته وتفسيراته لأنها تستند على وجهات نظر مسبّقة . كما وأنه من العسير إنكار أن بروقوبيوس قد جنح في حالات ما إلى المبالغة في أهمية الأحداث ، وهوّن في حالات أخرى ما من شأنه أن يؤثر على صياغته الفنية لمادته التاريخية.وأسّ المشكلة هو هل من الممكن الثقة في اتهام بروقوبيوس للحارث عندما يؤكد أن هرب العرب في واقعة عام ٥٣١ كان لوناً من الغدر ؟ وقد سقنا فيما مر شهادة ملالاه التي تجيز لنا الخروج باستقراء آخر ، هو أنّ شطراً من جيش العرب ومعهم فيلارخهم ظل ثابتاً في مواقعه وقاتل بشجاعة . كذلك لا يخلو من النفاق موقف بروقوبيوس حول ما ألحقه عرب الروم من تخريب ذريع بالولاية الغربية لايران تنفيذاً لأوامر بليزاريوس[٨٥] .

وهنا يبرز سؤال مؤدّاه إلى أي حدّ كانوا محقينّ أولئك الذين دافعوا عن الحارث عندما ساقوا الأدلة على أن بروقوبيوس كان متحيّزا في تلك الصفحات من مصنفه لأنه كان يهدف تبييض صفحة بطله بليزاريوس ، بحيث نسب إخفاقه إلى أسباب خارجية مثل اشتداد حّمارة القيظ أو المرض أو « خيانة العرب » ؟ ومن ناحيةأخرى علينا ألا نغفل واقعة أن الحارث قد تسلم العديد من العطايا من بيزنطة وأنه كان نصرانياً ، مما يحول بينه وبين خيانة الامبراطورية . ويبدو لنا جوهرياً ايراد بروقوبيوس نفسه لخبر أن ابناً للحارث حُمل قرباناً للإلهة العزّى ، مما يُعدّ توكيداً للحجة التي تقول بأن « آرثه لم يخن » مصالح الامبراطورية لإيران[٨٦] . كذلك يجب ألا ننسى أنه حتى من قبل بروقوبيوس قد جرت عادة المؤرخين اللاتين على اتهام العرب والسريان عن قصد بنتائج فشلهم ، وذلك مثل ما فعل بلوتارخ من قبل بصدد ابجر ملك الرها ؛ وكما سنرى بالتالي فإن الامبراطور موريقي اتهم المنذر بن الحارث بأنه قاد جيشه بطريق وعر وغير معروف . ولا يتفق رأي الباحثين حول دور الحارث ؛ وقد سقنا الآراء الايجابية عنه فيما مر . أما الأحكام التبريرية فإنها لم تفد كثيراً في توضيح الصورة العامة عن دور الحارث وعن نشاطه ، كما أنها لم تلق الضوء على « المنهج » الذي اتبعه بروقوبيوس في

(٨٣) Bertold Rubin. 1) Procopius von Kaisarea. 2) Das Zeitalter Justinians, pp. 173 - 226.
(٨٤) I. Kawar. Procopius on the Ghassanids. JAOS. 1957. v. 77. pp. 80 - 81.
(٨٥) I. Kawar. Procopius and Arethas. pp. 55 - 59.
(٨٦) Procopius. De bello persico. II. 28. p. 284.

عرضه للحارث في صورة غير حميدة[٨٧] .

وتحليل نشاط الحارث يسوق إلى نتيجة مؤداها أنه كان وثيق الصلة ببيزنطة وأنه اضطلع هو وأخوه أبو كرب بحراسة الحدود بإخلاص . كذلك قام « ملك العرب » بواجبه أثناء حروب الامبراطورية ، كما ضمن لها الهدوء الداخلي في إخماد عصيان السامرة . على أن العرب بدورهم لم يكن بوسعهم الإغضاء كلية عن مصالحهم الخاصة والتي لم تعمل بيزنطة لها حساباً في كل الآونة . / فالحارث لم ير ثمة ضرورة لاقتسام الغنائم مع جيش بليزاريوس وغادر أثور عام ٥٤١ بطريق أخرى ؛ وهو عندما فعل ذلك إنما كان يريد تأمين مصلحته ومصلحة جيشه . ومن الطبيعي أن واقعة تقديم ابنه قرباناً على يد المنذر اللخمي إنما فيها توكيد لحسن نيته نحو بيزنطة بشهادة بروكوبيوس نفسه . ولقد امتد العداء بين الدولتين العربيتين اللتين كانتا تقومان بدور العازل (buffer) بين بيزنطة وايران لعشرات السنين ، وظل الأخذ بالثأر عرفاً متبعاً من الجانبين . ومن المستحيل عند القيام بتحليل لنشاط الحارث في الدفاع عن مصالح بيزنطة غض النظر عن العادات والتقاليد بل والخصائص العرقية التي ضربت عميقاً بجذورها في حياة هؤلاء العرب ، أو عن حاجتهم المشروعة إلى الاهتمام بمؤونة جيشهم ومعسكرهم الذي قام بدور هام في حروب بيزنطة ضد أعدائها .

199

واتفاقية الصلح المعقودة عام ٥٦١ بين بيزنطة وايران لم تخل من كونها وثيقة هامة حتى بالنسبة لتاريخ الغساسنة . وقد حفظها لنا مناندر ونلتقي بها في النقول من تاريخه الموجودة لدى قسطنطين بورفيروجنتوس ، وحدث أن وقفنا عندها في معالجتنا الكلام على تاريخ ملوك اللخميين . وهي تمثل لحظة جوهرية في تاريخ حياة الغساسنة . كذلك أشرنا فيما مر إلى أن الملكين العربيين قد نبها أثناء النزاع الذي نشب بينهما من أجل « الإسطراط » إلى أهمية القانون العرفي وإلى قدم الأوضاع التي تشكلت هناك وإلى شهادة الرجال الطاعنين في السن ، وذلك ليدلّل كل منهما على حقوقه في المنطقة المتنازع عليها . وتذكر المصادر أكثر من مرة أن العرب غزا بعضهم بعضاً وسووا حسابهم فيما بينهم دون الرجوع إلى الدولتين الكبريتين ، بل إن ذلك حدث رغماً من استتباب السلام بينهما . وفي النزاع الذي شب بين العرب في نهاية الثلاثينات من ذلك القرن احتج العرب بأنه لم يرد لهم ذكر في الاتفاق المعقود بين الدولتين الكبريتين ؛ ويعلّق المؤرخ البيزنطي على هذا بقوله إنه كان من المعلوم أن العرب قد دخلوا ضمناً مع الروم أو الفرس وفقاً لتبعيتهم لأحد الطرفين . وعلى أية حال فإنه قد جرى ذكر العرب بصورة خاصة بعد عشرين عاماً من هذا ، وذلك في معاهدة عام ٥٦١ . وكان من الأهمية بمكان بالنسبة للغساسنة تحديد مشاركتهم العسكرية ، وأيضاً اعفاؤهم من الإتاوة عند نقل السلع التجارية[٨٨] .

(٨٧) I. Kawar. Procopius and Arethas, pp. 371 - 373, 380 - 382.

(٨٨) انظر ما مر بصفحة ١٣٥ وما يليها ؛

I.Kawar. The Arabs in the Peace Treaty of A.D.516.Arabica, 1956. t.III. pp.197—201

ويمكن من هذا المثال إدراك ما بلغه نفوذ الدول العربية ووزنها الخاص في الوضع السياسي العام بالشرق الأدنى .

ولقد كان من الجوهري بالنسبة للغساسنة تأمين وراثة العرش داخل أسرتهم وتدعيم سلطانها ، ومن ثم فقد احتاجوا إلى موافقة القسطنطينية وتأييدها للشخص المرشح للزعامة . وفي عام ٥٦٣ (العام الثاني عشر من الاندقطيون) وفي شهر نوفمبر وصل إلى العاصمة « آرثه بطريق العرب وفيلارخهم » ، وذلك لحسم المسألة المتعلقة « بمن سيخلفه من أبنائه على/ الفيلارخية عقب موته »[٨٩] . وكان أحد أبنائه كما هو معلوم قد هلك 200 عندما قدّمه المنذر اللخمي قرباناً للإلهة العزّى . ومن الواضح أن الذي حظي بالتعيين هو المنذر بن الحارث الذي شغل مكان أبيه قبل ربيع عام ٥٧٠ ، وهو العام الذي ورد فيه اسمه بمناسبة انتصاره على قابوس[٩٠] .

كذلك كان من بين المسائل التي بحثها الحارث في محادثاته بالقسطنطينية « ما ارتكبه امبروس بن الاموندروس بمنطقته » (أي منطقة الحارث) ؛ والمقصود بهذا الغارات التي قام بها ملك اللخميين الذي خلف المنذر على العرش . وإن ما اتصف به عمرو بن المنذر من ميل للقتال وما وجهّه من تهديدات ومطالب نحو الامبراطورية لمعروف جيداً من متن ميناندر الذي مر الكلام عليه قبل قليل . أما الأمر الثالث في محادثات الحارث فيتعلق بمساندته لعقيدةالمونوفيزيين ولتعاليم يعقوب البرادعي والآباء « المشارقة » القريبين منه . هذا وقد جلب ملك العرب معه إلى العاصمة رسالتهم المذهبية فوقّع عليها سبعة من الأساقفة والبطريرك ، وامتنع اثنان هما قونون وأوجينيوس من التوقيع عليها . ورد عليهما الحارث بقوله : « الآن عرفت أنكما هراطقة لأني أنا وجيشي قد قبلنا هذا كما قبله يعقوب وقبله المشارقة »[٩١] . ولا يخلو من مغزى غير عادي بالنسبة لمشاعر الحارث بل وجميع المجتمع العربي آنذاك تصريحه بأن الرسالة يساندها هو كما يساندها أيضاً جيشه .

واعتناق العرب النصرانية معروف لمصادر القرن الرابع ، وذلك عندما دخل فيها قبائل وعشائر منهم وإن ظلت محتفظة بأسلوب حياتها البدوية . ومن المعلوم حتى للمؤلفين العرب أن فيلارخات عشيرة ضجعم كانوا قد تنصروا أيضاً . كذلك شارك الملوك من الغساسنة مشاركة فعّالة في الحياة السياسية للشرق الأدنى حيث جرى الخلاف والتطاحن المذهبي خلف جدران البِيَع والأديرة . ولقد أصبحت المونوفيزية قوة سياسية يعمل لها حسابها بالنسبة للمناطق الغربية من الشرق الأدنى ،وذلك بالطريقة نفسها التي أصبحت بها النسطورية بالنسبة للمناطق الشرقية ؛ فقد حدّدتا اتجاه الطبقات الاجتماعية وارتبطتا ارتباطاً وثيقاً بالنزعات القومية لشعوب المنطقة . وقاد رجال الدين النشطون من المونوفيزيين وأيضاً أتباع النسطورية المتحمسون نضالاً مذهبيا لا يعرف

---

(٨٩) Theophanes. Chronographia. p. 240.

(٩٠) Chronicon miscellaneum ad A.D. 724 pertinens. ed. Brooks. CSCO. Scriptores syri. t. IV, p. 143 (111).

(٩١) Michel le Syrien. Chronique. ed. par J.B. Chabot. Paris. 1901. t. II, p. 316 (256).

الكلل من أجل اجتذاب الكتل الشعبية إلى صفّهم ، بصورة وجدت معها الاورثوذكسية نفسها في موقف الضعف رغماً من تأييد الدولة لها .

201 والمونوفيزيون الذين كانت عاصمتهم في واقع الأمر أنطاكية تمتعوا بنفوذ كبير في الأوساط العربية ، وأصبح الملوك من بني غسان أيضاً أنصاراً لتعاليمهم . وإلى عام ٥٤٢ (العام السادس عشر لحكم يوسطنيان) ترجع رواية يوحنا الافسوسي التي يقول فيها إنه بالنظر لأن المونوفيزيين لّما يكن لديهم عدد كاف من كبار رجال الدين والأساقفة فإن « الأمجد الحارث بر جبلة ملك العرب العظيم ومعه عدد كبير من الناس ، ناشدوا محبّة المسيح الامبراطورة تيودورا أن تأمر بتنصيب اثنين أو ثلاثة من أهل سورية . وبما أن الامبراطورة المؤمنة كانت تودّ مد يد العون لجميع من وقفوا ضد قرارات المجمع الخلقيدوني فقد أمرت بانتخاب اثنين من الرجال الصالحين المجربين القريبين من الله وهما يعقوب وتيودور ، أحدهما من أجل عرب الحيرة وهو تيودور والآخر يعقوب من أجل مدينة الرها (أذاسا) »[٩٢] . ولقد امتد نشاط تيودور على « كل البادية وعرابية وفلسطين » بما في ذلك اورشليم نفسها . أما يعقوب البرادعي فلم يقتصر نشاطه على « سورية وحدها » بل امتد إلى ارمينية وقبادوقية وجميع آسيا الصغرى ، ودافع بشجاعة عن عقيدته حتى بالقسطنطينية نفسها . وبمنطقة تدمر وذلك بقرية هلي ارميا (Heliarmia) يوجد دير وضع الأمويون يدهم عليه ذات يوم؛ وبجدران هذا الدير نقوش كتابية يتضح منها أن الارشمندريت انسطاس كان معاصراً « للفيلارخ الأمجد آرثه الاسترا تـ[يج] » وأنه يتمنى له أن يكون من « أهل اليمين » في يوم القيامة[٩٣] . وإلى عام ٨٧٠ من التقويم السلوقي (الموافق عام ٥٥٨/٥٥٩ للميلاد) يرجع نقش آخر يرد فيه التمني بطول العمر « للبطريق فل [اڤيوس] آرثه » ، وتم تدوينه بمناسبة زيارته لهذا الدير[٩٤] . ولقد توجّه الحارث ذات مرة ومعه أعيان دولته إلى حيث يوجد يعقوب البرادعي ورجوه أن يعالج أسرة عربية وقع أفرادها فريسة لمس من الشيطان . وقد حمل إليه الحارث ذهباً ولكن يعقوب أمر برده إليه ولم يأخذ الذهب وعالج الأسرة العربية بالمجان[٩٥] . وثمة قصة أخرى تتعلق بالحارث في أغلب الظن وترتفع إلى يوحنا الافسوسي ، تحكي عن النزاع الذي جرى لملك العرب مع أحد أنصار المجمع الخلقيدوني وهو افرام أسقف أنطاكية . وأطرف ما في هذه القصة ، وهو مما يعطي صورة حيّة لأوضاع ذلك العصر ، أن الحارث كان يأكل في طعامه لحم الإبل « كما هي عادته » بينما اعتبر الأسقف هذا حراماً ورفض أن يطعم منه أو يبارك خوان الحارث[٩٦] . وقد أشرنا قبل قليل إلى المشاركة والتأييد اللذين قدمهما الحارث

---

(٩٢) John of Ephesus, Lives of the Eastern Saints, ed. by E.W. Brooks, Patrologia Orientalis, t. XIX, Paris, 1926, pp 153 - 154; Michel le Syrien, Chronique, t. II, pp. 309 - 310 (245)

(٩٣) L. Jalabert et R. Mouterde, Inscriptions grecques et latines de la Syrie, t. V, Emésène Paris, 1959, Inscription 2553, pp. 240 - 243.

(٩٤) شرحه ، ص ٢٤٥ .

(٩٥) John of Ephesus, Lives, p. 233.

(٩٦) Michel le Syrien, Chronique, t. II, p. 311 (246 - 247).

للمونوفيزيين مباشرة وهو بالقسطنطينية وذلك عندما حمل معه رسالتهم حول مسألة عقائدية بحتة ليوقّع عليها الأساقفة والبطريرك .

ويرد اسم الحارث أيضاً بصدد الأسقف بولص الذي تم تقديسه على يد يعقوب البرادعي . وكان المونوفيزيون الاسكندريون قد رفضوا قبول بولص أسقفاً عليهم خاصة وأنه تم تعيينه أسقفاً على أنطاكية ، ووجهوا إليه عدداً من التهم ؛ فأخذ بولص يقدم « الهدايا »/ للإسكندريين ولكن هذا لم يُجدِهِ نفعاً . عند 202 ذلك توجّه إلى الحارث برجبله « فأمر » بتوقير اسمه في كنائس المونوفيزيين(٩٧) . ولقد أزعج هذا المونوفيزيين الاسكندريين فأظهروا استياءهم لا من بولص وحده بل ومن يعقوب البرادعي الذي قدّس بولص دون الحصول على موافقة الولاية(٩٨) . ومن هذه الحالة بالذات يمكن أن نبصر مبلغ ما تمتع به الحارث من نفوذ بين المونوفيزيين . ومما يؤكد علاقة بولص بالعرب المونوفيزيين أنه عندما اضطر إلى مغادرة أسقفيته بعد المنازعات العديدة التي أثيرت حوله ، هرب إلى معسكر المنذر بن حارث ببلاد العرب وأقام لديه(٩٩) .

وقد هلك اثنان من أولاد « ملك العرب » في الصراع مع اللخميين ؛ أحدهما قُدّم قرباناً ، والآخر الذي كان يحمل اسم جده جبلة سقط في المعركة عند قنسرين عام ٥٥٤(١٠٠) ؛ وهي المعركة التي قُتل فيها المنذر بن الشقيقة . وفي عام ٥٦٣ سوّى الحارث أمر وراثة العرش بعاصمة الامبراطورية ومات في عام ٥٦٩ . وفي عام ٥٧٠ كان الحاكم على « عرب الروم » ابنه المنذر . ونلتقي في المصادر العربية برواية موجزة تتعلق بنسب الغساسنة ومن تتابع منهم على العرش ، غير أن معطياتها لا تتسم بالدقة(١٠١) .

والحارث نفسه لم يعش لأكثر من عام أو عامين بعد موت الامبراطور يوسطنيان ، ذلك العاهل الذي ترك أكبر الأثر على جميع جوانب الحياة السياسية لبيزنطة* . وقد دعّم الحارث بنشاطه كثيراً من وضع بيت الغساسنة ، فكتائبه أخذت طرفاً في العمليات العسكرية للامبراطورية ضد الفرس . كما شاركت في الصدامات الداخلية مثل إخماد ثورة السامرة . ولقد ارتبطت المصالح السياسية للحارث بالوضع العام في الولايات السورية التي غلب فيها العنصر غير اليوناني والتي ساد فيها المذهب المونوفيزي حتى أطلق عليه اسم عقيدة « المشارقة » .

---

(٩٧) شرحه ، ص ٣٣٣ (٢٨٥)

(٩٨) شرحه .

(٩٩) Joannes Ephesus. Historia ecclesiastica, pars tertia, lib. II, cap. 8. Scriptores syri. series tertia. t. III. Parisiis. 1935, p. 67.

(١٠٠) Michel le Syrien. Chronique. t. II. pp. 323 - 324 (269).

(١٠١) Abdulfeda. Historia anteislamica. ed. H. Fleischer. Lipsiae. 1831. pp. 128 - 131; Hamza Ispahanensis. Annales. ed. I. M. E. Gottwald. Lipsiae. 1848. pp. 117 - 119.

* لم يفت على علامة السريان الأكبر أبي الفرج ابن العبري أن الدولة الرومانية الشرقية أصبحت يونانية في مشربها ابتداء من عهد يوسطنيان ، وذلك حين يقول في مصنفه بالعربية « ومن حينئذ صارت مملكة القسطنطينية يونانية » (راجع ص ١٥١ من « تاريخ مختصر الدول ») - المترجم

المنذر بن حارث « وإخوته وأولاده »

سار المنذر بن الحارث على سياسة لم تختلف في أساسها عن سياسة أبيه . وكان هواه مع بيزنطة ، ولكن مرت عليه كما مرت على أبيه من قبل لحظات من الإحباط والاستياء مردّها إلى أن القسطنطينية لم توله ثقتها الكاملة . ورغماً من ذلك فإن المنذر لم يخل من ميزات ليست بالقليلة ، وإن وجدت تبريرات للإنحاء عليه باللائمة . ولقد وقعت على عاتقه التزامات عديدة ، كحراسة الحدود من غارات اللخميين ، والمشاركة في الحملات الفارسية / لبيزنطة ، والمشاكل التي جابهته كفيلارخ وكملك لعرب الامبراطورية . كذلك ورث المنذر اتجاهاً آخر لنشاط أبيه الحارث هو مناصرة « المشارقة » ، أي المونوفيزيين الذين تعرضوا للاضطهاد في تلك العشرات من القرن السادس . وكان ما أبداه ملك الغساسنة الجديد من تعاطف ومعاونة فعّالة للمونوفيزيين أن حفظ هذا ذكراه على مرّ العصور . فالمؤرخ السرياني يوحنا الافسوسي يضعه جنباً إلى جنب مع رجال الدين اليعقوبيين كواحد من أبطالهم ويكرّس له صفحات عديدة في القسم الثالث من تاريخه . وتفاصيل حياة المنذر ونشاطه كانت معروفة ليوحنا الأفسوسي لأن المنذر كان من أنصار المونوفيزية ، ولعل هذا كان من الأسباب التي أثارت ريبة البيزنطيين في المنذر . وقد مكّننا هذا المؤرخ السرياني من النفوذ إلى أعماق الحياة بالعاصمة البيزنطية وبولايات الامبراطورية .

203

وفي عام ٥٦٧ استقبل الامبراطور يوسطين الثاني سفارة الفرس التي كان على رأسها زه وغضب من سفير عرب الفرس الذي طالب باسم امبروس [عمرو] اللخمي أموالاً واستقبالاً لائقاً بهم . فلما قفل السفير عائداً دون أن تستجاب مطالبهم أمر ملك اللخميين أخاه قابوساً بغزو منطقة عرب الروم الملاصقة له والتي كانت تابعةً للمنذر الغسّاني الذي اعتبرها هيجمونيته(١٠٢) . من هذا يتضح لنا أن المنذر كان يشغل وضعاً هاماً في حياة أبيه . والحولية السريانية المجهولة المؤلف تحوي الألفاظ الآتية : « عام ٨٨١ . . . . في يوم أربعاء الصعود لهذا العام عرض المنذر القتال وبعون الله تمكّن من الغلبة على قابوس وانتصر الصليب »(١٠٣) . هذه المعركة حدثت إذن في عام ٥٧٠ في العشرين من مايو . وثمة رأي يقول بأن هذه كانت واقعة عين أُباغ المشهورة التي أكثرت فيها العرب الأشعار والتي حدثت عند عين أو بئر أباغ(١٠٤) ، لأن الموضع الذي جرت فيه المعركة يقع بعيداً إلى الشرق مما يتفق مع معطيات الشعر العربي .

---

(١٠٢) Menandros. Excerpta 6. Constantinus Porphyrogenetus. Excerpta de legationibus. ed. C. De Boor. pars II. Berolini. 1903. p. 449; Byzantinische Diplomaten und östliche Barbaren. Aus den "Excerpta de legationibus" Übersetzt von E. Doblhofer. Graz. 1955. p. 131.

(١٠٣) Chronicon miscellaneum ad A.D. 724 pertinens. ed. E.W. Brooks. CSCO. Scriptores syri. t. IV. Parisiis. 1903. p. 143.

(١٠٤) Th. Nöldeke. Die Ghassanischen Fürsten...., p. 23; G. Rothstein. Die Dynastie der Lahmiden..... p. 103.

ورواية يوحنا الافسوسي عن هذه الحرب ترد تفاصيلها كالآتي . فقد كان « عرب الفرس » « في هلع وخوف » دائم من الحارث فلم يجرؤوا على الغارة ما دام على قيد الحياة . فلما بلغهم خبر موته « استهانوا بأولاده وأعيانه وجيشه » فنفذوا إلى المنطقة التي كانت ملكاً « لبيت الحارث » واقتادوا قطعان الإبل والماشية ؛ فجمع المنذر جيشه على الفور وانقض عليهم فجأة واستأصل شأفتهم فذعر قابوس وهرب مع نفر قليل ؛ ونزل المنذر بفسطاطه واحتوى جميع معسكره بما في ذلك متاعه ، كما قبض على أقاربه / وبعض أعيانه وأوثقهم . بعد هذا ضرب المنذر فسطاطه على ثلاث مراحل من مخيم اللخميين وحيث وجدت أملاكهم[١٠٥] . فلما أبصرت طلائع قابوس فسطاط المنذر ظنّوها خيمة « ملكهم » فنفذوا إلى المعسكر حيث جرى في الحال القبض عليهم وقتل جماعة منهم . وبعد أن أمضى المنذر ردحاً من الوقت هناك رجع بجيشه آخذاً معه غنيمة وافرة وسائقاً لقطعان الخيل والإبل . فجمع قابوس جيشاً كبيراً وتقدم نحو عدوه ، ثم أرسل للغساسنة يقول « دونكم القتال » وأن المنذر فعل « فعل اللصوص وظن أنه انتصر علينا ، فها نحن ننذركم بالحرب » . وكان رد المنذر على اللخميين « لِمَ الغضب ! سآتيكم بنفسي » . وانتقل « من القول إلى الفعل » فهاجمهم في الصحراء على غرة واستأصل شأفة بعضاً منهم ولاذ الباقون بالفرار .

204

بعد هذه الانتصارات اعتقد المنذر أنه أهل للامتنان « فكتب » بانتصاراته إلى يوسطين الثاني « ليرسل إليه الذهب ليدفع منه أرزاق جنده » ، فغضب يوسطين غضباً شديداً لاعتقاده على ما يبدو أن العرب نالوا كفايتهم مما نهبوه . ثم شرع في تهديد المنذر وخطّط « ليقتله بالخديعة سراً »[١٠٦] . وإذا ما أخذنا بأقوال يوحنا الافسوسي فإن يوسطين أوكل قتل المنذر إلى البطريق مرقيان وكتب إليه بذلك ، كما كتب أيضاً إلى المنذر ليمثل أمام البطريق . غير أن عناوين الرسائل اختلطت وانكشف الأمر للمنذر . فإن كانت هذه القصة لا تستحق التصديق التام ، إلّا أنه لا يوجد ثمة شك في أن المنذر قد بلغ علمه المؤامرة التي حيكت ضده وانزعج كثيراً لهذا الجحود فأعدّ قواته للمقاومة وأمرهم بالاحتراز والتسلح ثم « قاد جيشه وتوجّه في جوف الصحراء » ، وبهذا « حررّ نفسه من أية مسئولية إزاء أملاك الروم »[١٠٧] . هذه الأحداث ترجع إلى الوقت السابق لشهر ديسمبر من عام ٥٧٤ عندما أصبح طبريوس حاكماً بالاشتراك مع يوسطين[١٠٨] .

وكان من جرّاء ابتعاد جيش الغساسنة في جوف الصحراء ورفضهم حراسة حدود الامبراطورية أن خلق هذا ظروفاً ملائمة لغارات « الفرس وعرب الفرس » الذين « قتلوا وأحرقوا » حتى بلغوا « مشارف انطاكية » وسبوا عدداً كبيراً من الأسرى وجمعوا غنائم هائلة و « خربوا عدداً كبيراً من القرى في حجم المدن من حيث

---

(١٠٥) Joannes Ephesinus Historia, VI, 3, pp. 280 - 281 (212 - 213).

(١٠٦) شرحه ، ٦ ، ٣ ، ص ٢٨٢ .

(١٠٧) شرحه ، ٦ ، ٤ ، ص ٢٨٢ - ٢٨٣ .

(١٠٨) Th. Noldeke, Die Ghassanischen Fürsten ...., p. 24; G. Rothstein, Die Dynastie der Lahmiden......, p. 104.

القدر » ، ثم قفلوا راجعين « إلى بلادهم » . وجاءت لحظة التأسف على أن الغساسنة توقفوا عن تقديم خدماتهم ، وجهد الامبراطور لإقناعهم بالعودة إلى حراسة الحدود . وقد أدان يوسطين البطريق مرقيان « بكشفه السر للمنذر » ؛ وبهذا فلا توجد / ثمة ضرورة لتصديق الرواية بصدد الخلط في عناوين الرسائل . 205
وتواترت المكاتبات والسفراء من القسطنطينية إلى المنذر ، ولكنه لم يسمح لأحد منهم بدخول معسكره . ومضى على هذا ثلاثة أعوام ، فلما رغب ملك الغساسنة في المصالحة مع الامبراطورية أرسل إلى يوسطنيان بن جرمان الذي كان قائداً عاماً لقوات الامبراطورية بالمشرق magister militum per Orientem ليبلغه موافقته على مقابلته بالرصافة . وهنا ببيعة القديس سرجيوس التي يوقّرها العرب تمت المصالحة بين الطرفين وأفيد بهذا الامبراطور و « السنكليت » Sinklit*؛ وأعقب هذا تبادل وثائق « المصالحة »(١٠٩) .

وبهدف استرداد الغنائم التي استولى عليها « عرب الفرس » فقد تجمع الغساسنة في الخفاء وبدون ضجة ثم شنّوا غارة فجائية على الحيرة فحرقوا وأخربوا وشتتوا جندها(١١٠) . أما المنذر فقد « ضرب فسطاطه وسط الحيرة وأقام هناك لمدة خمسة أيام » ؛ وبعد هذا جمع غنائم وافرة من الحيرة « وقفل راجعاً » يسوق أمامه قطعان الخيل والإبل ، كما أخذ معه ما استولى عليه اللخميون « بأرض الروم » . وبهذا أصبح فعلاً « الأمجد » ، وكان بمقدوره أن يحتفل بظفره على اللخميين(١١١) . وقد جرت هذه الأحداث أغلب الظن في صيف عام ٥٧٨(١١٢) والأمبراطور يوسطين على قيد الحياة (ذلك أنه مات في السادس من اكتوبر عام ٥٧٨) . وداوم المنذر على سياسة أبيه في اتجاه آخر كما ذكرنا ، وهو تقديم العون للمونوفيزيين أتباع مذهب « المشارقة » المعارض لمجمع خلقدونية . ولقد تدعّم الرباط التقليدي للعرب مع المونوفيزية بصورة خاصة بفضل نشاط يعقوب البرادعي (الذي مات في الثلاثين من يوليو عام ٥٧٨) ، ذلك الداعية المتحمس لهذه العقيدة والذي كُرّس أسقفاً بمساعدة الحارث في عام ٥٤٣(١١٣) . وكان العرب شديدي التوقير « للشيخ يعقوب »(١١٤) . وفي الخلافات التي انفجرت بدءاً من عام ٥٧٦ بين اليعقوبيين وأنصار بولص أسقف الاسكندرية المونوفيزي أخذ طرفاً في ذلك النزاع دوائر عريضة من سورية وآسيا الصغرى وأرض الجزيرة(١١٥) . ووجد بين عرب البيزنطيين أيضاً

---

(١٠٩) Joannes Ephesiaus. Historia. VI. 4. pp. 285 - 286 (216 - 217): VI. 18. p. 314 (238).

* من اللفظ اليوناني synkletos (أو « السنقليطيقي » ، كما ورد في بعض المخطوطات العربية المسيحية المنقولة عن اليونانية) وهو المجمع - المترجم .

(١١٠) حفظ لنا الطبري ذكرى هذه الغارة ولكنه ليس على ثقة من اسم الغساني الذي خرب الحيرة وأحرقها ، فهو يذكر جفنة بن النعمان بعض الشك ويرجع بالحادث الى عهد النعمان الثالث ملك اللخميين . أما أبو الفدا (Abulfeda. Historia anteislamica. p.128) فينسب حريق الحيرة إلى جفنة الابن الاصغر للمنذر الأكبر (Nöldeke-Tabari. P.320) .

(١١١) Joannes Ephesinus. Historia. VI. 4. pp. 286 - 287 (217)

(١١٢) Th. Nöldeke. Die Ghassanischen Fürsten..... p. 24. G. Rothstein. Die Dynastie der Lahmiden..... p. 104.

(١١٣) انظر ما مر ، وأيضاً: A.Baumstark. Geschichte der syrischen Literatur. Bonn. 1922. pp.174—175 .

(١١٤) Joannes Ephesinus. Historia. IV. 21. p. 208 (15).

(١١٥) شرحه ، ٤ ، ١٩ ، ص ٢٠٥ - ٢٠٦ (١٥٤)

206 أنصار لبولص ؛ كذلك فإنه أثناء حياة الحارث وذلك عندما أصبح بولص طريداً « جاء » إليه/« فأخفاه » الحارث[١١٦] . لهذا فقد انبعثت بين العرب نزاعات شديدة ، فوقف بعض منهم في جانب يعقوب وبعض آخر في جانب بولص . وجهد المنذر طويلاً بوصفه « نصيراً غيوراً » للمذهب في اقناعهم بالاتفاق ولكن دون جدوى . « ووجد الخلاف طريقة إلى جميع جيش العرب »[١١٧] ، وشارك الملك « وجميع شعب العرب » في النزاع وفي محاولات التوفيق بين الأطراف المختلفة . وساق هذا إلى إشاعة التفرقة بين « جميع العرب » خاصة « ملكهم المنذر ومعه إخوته وأبناؤه »[١١٨] . وفي عام ٥٨٨ من التقويم السلوقي (٥٧٧ ميلادية) وصلت من القسطنطينية سفارة مكوّنة من ثلاثة أشخاص « للتفاوض من أجل المصالحة بمنطقة الحدود » ، وكان هؤلاء الثلاثة هم البطريق تيودور والهياتيين يوحنا وبطرس؛ وقد ربطتهم الثلاثة روابط الصداقة بالبطريرك بولص . ففي كل مدينة زاروها بذلوا جهدهم لمصالحة الطرفين ، ولكن بأرض الجزيرة غلبت كلمة أنصار يعقوب البرادعي[١١٩] . كذلك جرت محاولات أخرى في هذه الأعوام ، فمثلاً وصل إلى سورية من مصر اثنان من أنصار بولص هما لونجين وتيودور . وقد نزل تيودور « بهدوء » في صور ، بينما توجه لونجين إلى « حيرتا بيت الحارث بر جبله حيث يوجد المنذر بر حارث »[١٢٠] . وبهذا حفظ لنا المتن شهادة قيّمة تتعلق « بمعسكر » حيرة الغساسنة . ففي مقابل حيرة النعمان مركز دولة اللخميين ، كانت هنا . حيرة بر جبله « الحارث الأكبر » أو « حيرة بيت الحارث » ؛ ويُفترض أنها كانت تقع على مقربة من دمشق . وهنا كان يقيم آنذاك المنذر بر حارث ؛ وإليها قدم لونجين ليتقابل معه . ولا يرجع إخفاق الطرفين في بلوغ اتفاق ما إلى مسائل مذهبية بحتة ، فهذا أمر لم يكن من شأنه أن يشغل عرب البيزنطيين بالدرجة التي يهتم بها المؤرخ المونوفيزي .

فالوضع السياسي العام بالشرق الأدنى قد قرر مصيره إلى حد ما الحرب التي لم تتوقف بين بيزنطة وايران . 207 ذلك أن ما جرى من تغيّر في الحكّام لم يسق في جوهره / إلى حدوث تغييرات سياسية ذات بال ؛ وقد عيّن طبريوس قائداً جديداً للجيش (ماجستير) في شخص يوسطنيان ليحل محل موريقي[١٢١] . وفي عام ٥٧٩ انتقل عرش ايران إلى هرمز الذي لم تسق محادثات الصلح معه إلى نتيجة ما[١٢٢] . وتركز اهتمام القسطنطينية آنذاك في الاحتفاظ بصداقة حلفائها العرب ومحاولة الاستفادة من تعضيدهم لها . أضف إلى هذا

(١١٦) شرحه ، ٤ ، ٣٦ ، ص ٢١٦ (١٦٢) ؛
E. Honigmann. Évêques et évêchés monophysites d'Asie antérieure au VI siècle. Louvain. 1951. p. 198.

(١١٧) Joannes Ephesinus. Historia. IV. 21, p. 208 (155).

(١١٨) شرحه ، ٤ ، ٣٦ ، ص ٢١٦ (١٦٢) ؛ ويلفت النظر استعمال لفظ « أهل » العربية في المتن السرياني وذلك بمعنى « الشعب » . ومن المحتمل ان يوحنا الافسوسي قد بالغ في تصويره لمشاركة « الجيش » أو « الشعب » في النزاعات المونوفيزية .

(١١٩) Joannes Ephesinus. Historia. IV. 35, p. 215 (161).

(١٢٠) شرحه ، ٤ ، ٣٢ ، ص ٢٠٨ - ٢٠٩ (١٥٦) ؛ E.Honigmann. Évêque et évêchés monophysites....., pp.161.203 .

(١٢١) Evagrius. Historia ecclesiastica. V. 19. ed. J. Bidez and L. Parmentier. London. 1898. p. 214; Theophylactus Simocatta. Historia. III. 15. 8 - 10. ed. De Boor. Leipzig. 1887. pp. 141 - 142.

(١٢٢) A. Christensen. L'Iran sous les Sassanides. Kopenhavne. 1944. pp. 441.443.

أن نجاح المنذر في عملياته العسكرية وفي حراسة الحدود ، وما حدث من مصالحة معه منذ وقت غير بعيد ؛ كل هذا تطلب اهتماماً ومجهوداً جديدَيْن

وفي عام ٥٨٠ للميلاد (٨٩١ من التقويم السلوقي) زار المنذر بيزنطة فاستقبله الامبراطور طبريوس في الثامن من فبراير (شهر شباط) « بحفاوة بالغة وتكريم خاص » . وقد تسلم المنذر الكثير من الهدايا واستجيبت كل مطالبه . ولا يخلو من مغزى أن وجد بين هدايا الامبراطور إلى الزعيم العربي « ذهب وكمية كبيرة من الفضة وثياب فاخرة » ، هذا إلى جانب سروج وألجمة من الذهب وأسلحة . كذلك خلع الامبراطور ألقاباً على أبنائه الذين صحبوه . وأما المنذر نفسه فقد قدم له تاج « وهو مالم يقدم لملك عربي قبله » ، فقد جرت العادة أن يحملوا فقط « ديادمه » وهي إكليل من الغار يوضع على الرأس[١٢٣] . وعلى الرغم مما لقيه ملك العرب من حفاوة من طرف الامبراطور فإنه لم ينس هدفه الأساسي ، وهو جمع كلمة المونوفيزيين . وبإذن طبريوس دعي المنذر في الثاني من مارس (آذار) من العام نفسه « الشخصيات المرموقة من الطرفين إلى اجتماع مع الاسكندريين »[١٢٤] ؛ وقد تجاهل هذا الاجتماع الكتل الشعبية واقتصر على « الرؤساء » وحدهم ، أي الشخصيات صاحبة النفوذ ، لهذا فإن ما وصل إليه من اتفاق كان مثاراً للاحتجاج من طرف « عناصر الشغب والمتمردين » ممن « لم تسرّهم المصالحة » ، « فأظهروا استياءهم الشديد » من أن الاجتماع « قد أغفل سواد الشعب » . وكان مما استدعى هذا الموقف السلبي من الاتفاق هو « انعدام التشاور مع الشعب وإهمال دعوة أفراده » إلى حضور الاجتماع[١٢٥] . وليس ثمة شك في أن متن المؤرخ السرياني إنما يعكس إلى حد ما جوهر النزاع الذي حدث داخل مجتمع ذلك العهد ؛ ذلك أن / « الانشقاق » وسط المونوفيزيين أنفسهم لم يحدث نتيجة لنزاعات عقائدية محضة ، بل وجدت له جذور اجتماعية عميقة . « فسواد الشعب » لم يقبل الإتفاقية ، وظلت المنازعات على أشدها بسورية وأيضاً بمصر (أي الاسكندرية) . وعلى أية حال فإن رجال الدين والعلماء من الاسكندريين غادروا العاصمة بهدوء، وتلاهم المنذر الذي طلب الإذن بالانصراف بعد أن أقنع طبريوس بأن يوقف الاضطهاد الواقع على المونوفيزيين . ومن جانبه أعطى المنذر أيمانه الموثّقة بأن يبذل قصارى جهده في إحلال السلام بين الأطراف المتنازعة[١٢٦] . ولا يخلو الحادث الآتي من مغزى في تصوير حياة القبائل العربية . فقد ظن « عرب الفرس » أن المنذر ما زال بالعاصمة فقاموا بغارة على أراضيه ؛ وعلم الغسّاني بخبر ذلك وهو في الطريق فظهر فجأة أمام العدو وقتل عدداً كبيراً منهم واستعاد جميع ما غنموه . فأضاف هذا الفوز إليه مجداً على مجد[١٢٧] .

208

(١٢٣) Joannes Ephesinus. Historia. IV. 39. pp. 219 - 220 (164); IV. 42. pp. 224 (168 - 169); N. Pigulevskia. Araby VI v. po siriiskim istochnikam. str. 61.

(١٢٤) Joannes Ephesinus. Historia. IV. 40. p. 220 (165).

(١٢٥) شرحه ، ٤ ، ٤٠ ، ص ٢٢١ (١٦٥ - ١٦٦) - يرد اللفظ اليوناني okhlos في المتن السرياني مترجماً على أنه « سواد الشعب » .

(١٢٦) شرحه ، ٤ ، ٤٢ ، ص ٢٢٤ (١٦٨)

(١٢٧) شرحه ، ص ٢٢٥ (١٦٩) .

أما العمليات العسكرية بين بيزنطة وايران فإنها لم تتوقف . ولقد قوبلت محادثات الصلح التي أخذها على عاتقه طبريوس بمطالب من جانب الايرانيين لم يكن بوسع بيزنطة قبولها . فقد طالب الفرس بأن تتنازل لهم بيزنطة عن ارمينية وايبريا وقلعة دارا أيضاً . وكان رد البيزنطيين على هذا أن اجتازت قواتهم في صيف عام ٥٧٩ نهر دجلة وخربت أكثر مناطق ايران ازدهاراً ، ثم قفلوا راجعين إلى بلادهم « بحلول فصل الشتاء » . وفي صيف العام التالي تكررت الحملة ، وكان هدفها في هذه المرة مهاجمة « بلاد بابل » على المجرى الأسفل لدجلة وذلك « باجتياز صحراء العرب » حتى يمكن إخفاء تحركات الجيش . وفي هذه المرة صحب موريقي الكتائب العربية تحت قيادة المنذر(١٢٨) . وتقدم الاثنان معاً لبضعة أيام ، فلما بلغوا بيت اراماية كان عليهم أن يجتازوا قنطرة كبيرة ولكنهم وجدوها مخرّبة ولذا فإن تنفيذ الخطة عن ذلك الطريق لم يعد ممكناً(١٢٩) . كذلك نشب النزاع بين موريقي والمنذر لأن موريقي الذي أصبح امبراطوراً فيما بعد اتهم العرب بأنهم أفادوا الفرس علماً بنيّاتهم فقام هؤلاء بتخريب القنطرة(١٣٠) . واتهام المنذر بالخيانة يسوقه ثيوفيلاقط سيموقطّا ويكرره اڤاغريوس ، الذي يوكد أن المنذر الذي كان على رأس البرابرة الاسكينيين قد غدر ولم يرد أن يعبر النهر ليقاتل إلى جانب موريقي ضد / العرب الاسكينيين الموجودين هناك(١٣١). ولقد أحاط بالمنذر ظل ثقيل من الريبة ، وكتب كل منهما إلى الامبراطور طبريوس شاكياً من الآخر ؛ فلما عاد القائد العام إلى العاصمة تحدث بقسوة في حق رفيقه في الحملة وأثار عليه سخط الامبراطور الذي أمر بالقبض على الملك العربي وإحضاره إلى العاصمة . وفي رواية أخرى بصدد هذه الأحداث يقول المؤرخ السرياني إن هذه كانت « أكاذيب » حيكت حول المنذر وأن الامبراطور بعث بشخصيات كبيرة للمصالحة بين القائدين . وأعقب ذلك توجّه موريقي إلى القسطنطينية « ولكن غير معلوم ان كان موريقي هو الذي سعى بالمنذر »(١٣٢) . ووفقاً لروايات أخرى فإن الفرس آنذاك كانوا يهاجمون قللينيقه ، فتحرك نحوها موريقي الذي اضطر إلى إحراق مراكبه التي كانت تحمل الميرة على نهر الفرات وتتبع الجيش . وقد احتل الروم المدينة وانسحب منها الفرس(١٣٣) . ومن المحتمل أنه عقب هذا فقط كان بمقدور موريقي التوجه إلى القسطنطينية .

209

وكما حدث من قبل مع الحارث حين اتهم بخيانة مصالح الامبراطور ، فإن الباحثين لم يصلوا كذلك إلى رأي موحد حول ارتياب موريقي في المنذر . وتجنح المصادر اليونانية والسريانية معاً إلى التحيّز ، فأڤاغريوس

---

(١٢٨) Theophylactus Simocatta. Historia. III. 17, pp. 145 - 146.

(١٢٩) يفترض نولدكه ان القنطرة المذكورة كانت تقوم على الفرات غير أنه يرد لدى سيموقطا ان المراكب المحملة بالميرة كانت تتبع الجيش عن الفرات ، لذا فمن الأرجح ان القنطرة إنما كانت على دجلة ـ N. Pigulevskia. Araby VI v..... str. 61—62

(١٣٠) Joannes Ephesinus. Historia. III. 40, pp.. 173 - 174 (129); VI. 16, pp. 312 (237); Th. Nöldeke. Die Ghassanischen Fürsten..... p. 27; N. Pigulevskia. Vizantia i Iran na rubeje VI; VII v. L.. 1946, str. 68.

(١٣١) Evagrius. Historia ecclesiastica, V. 20, p. 216.

(١٣٢) Joannes Ephesinus. Historia. VI. 16. p. 313 (237).

(١٣٣) Theophylactus Simocatta. Historia. III. 17, p. 146.

يرفع من شأن موريقي بكافة الوسائل لذا فهو يقف إلى جانب توجيه التهمة إلى المنذر . أما يوحنا الافسوسي بوصفه مونوفيزياً غيوراً فإنه حاول بكافة الوسائل أيضاً التدليل على صدق نيته . لكل هذا فإن الباحثين لم يصلوا إلى حل للمسألة ؛ فبعض منهم يعتبر المنذر مخلصاً للامبراطورية(١٣٤) و بعض آخر يؤيد القول بخيانته(١٣٥) .

هذا وقد وعد الكوراتور [القيّم] ماجن السرياني الذي عرف « بصداقته وحمايته » للملك العربي ، وعد الامبراطور الغاضب بأنه سيجلب إليه المنذر بعاصمته . وسار ماجن حتى بلغ محلة غير كبيرة تدعى حوّارين ، وهي تقع في البرية الفاصلة بين دمشق وتدمر . وقد شيدت بحوارين بيعة ، أما القرية نفسها فكانت محاطة بسور يجعلها أشبه بالمدينة(١٣٦) . وماجن هذا معروف لنا من الوثائق ، فقد تم العثور على ساحل صور بنموذجين لقرار امبراطوري من القرارات المعهودة للقرنين السادس والسابع منقوش باليونانية على حجر وجاء فيه أن « الكوراتور [القيّم] الأمجد ماجن كومركيارا [حافظ] ثيوبوليس (أي انطاكية) » كان / قيّماً 210 للخاصة الملكية(١٣٧) . وفي عهد يوسطين الثاني كان «قوميساً للمنح المقدسة » ، كما يفهم ذلك من نقش آخر(١٣٨) ورد ذكره فيه بوصفه قيّماً على الأملاك الأميرية الخاصة بهرمزد والتي كانت تشمل مباني باب الهواء - « الأملاك التي كانت لهرمزد المبجّل والتي كان قيّمها ماجن الهيباتيوس الأمجد وقوميس المنح المقدسة والحافظ العام » . والقيّمون على الأملاك الخاصة والقصور الملكية يرد ذكرهم في المصادر غير مرة(١٣٩) . ومن ثم فإن ماجن كان موظفاً حكومياً ذا أهمية وحمل لقب comes sacrarum largitionum ، أي « قوميس المنح المقدسة » ، هذا بالإضافة إلى أنه كان قيّماً على قسم من الأملاك الخاصة عرف باسم « الهرمزدية » . وهرمزد هذا هو أخو شابور الثاني ملك الفرس ، وكان قد هرب في عام ٣٢٣ إلى القسطنطينية حيث قدّم خدمات عديدة لبيزنطة في حربها مع الفرس . وكانت أملاك هرمزد تدخل في عداد أملاك البيت المالك ، مثل « قصر هرمزد » بالعاصمة وممتلكاته بباب الهواء . واللوحة بنقشها هذا تم العثور عليها فيما يبدو عند مدخل الضيعة حيث وجدت أطلال لعدد من المباني(١٤٠) . وبحوّارين حيث دعى ماجن المنذر لمقابلته تم العثور على أحرف اسمه الأولى (مونوغرام) على لوحة مخرومة(١٤١) .

---

(١٣٤) Th. Nöldeke. Die Ghassnischen Fürsten..... p. 273. N. Pigulevskia. Araby VI v........ str. 61.

(١٣٥) R. Deveréesse. Le Patriarcat d'Antioche. Paris. 1945. p. 276; P. Goubert. Byzance avant l'Islam. I. Paris. 1951. pp. 252 - 253.

(١٣٦) Joannes Ephesinus. Historia. III. 40. p. 174 (129 - 130); Th. Nöldeke. Die Ghassanischen Fürsten....., p. 28.

(١٣٧) G. Tchalenko. Villages antiques de la Syrie du Nord. v. III. Paris. 1958. p. 41.

(١٣٨) G. Tchalenko. Villages antiques....... v. I. Paris. 1953. p. 115; R. Mouterde. Mélanges de l'Université de St. Joseph. XI, Beyrouth. 1923 - 1924. p. 453.

(١٣٩) E. Stein. Historie du Bas-Empire. v. II. Paris. 1949. p. 67.

(١٤٠) G. Tchalenko. Villages antiques...... I. pp. 116. 117.

(١٤١) L. Jalabert. R. Mouterde et C. Mondésert. Inscriptions grecques et latines de la Syrie. t. V. Emésene. Paris. 1959. Inscription 2696. p. 299.

وأرسل ماجن إلى المنذر يخبره بقدومه ومعه بطريرك انطاكية لتقديس البيعة ، ورجا من الغسّاني أن يقدم عليه بعدد قليل من الجند لأنه مرهق من وعثاء الطريق . فجاءه المنذر « بوصفه صديقاً حميماً » تصحبه وحدة صغيرة من الجند ؛ ورغم عدد هذه الوحدة القليل فقد رجاه ماجن أن يتركها إلى المساء . ولقد تخوّف المنذر من ماجن رغم ثقته فيه / وأرسل يأمر عربه بأن يبتعدوا قليلاً وينتظروه؛ عند ذلك أمر ماجن القوات البيزنطية وقائدها الذين كانوا قد صحبوه بالاقتراب . ثم قال للمنذر « أيها السيد البطريق ، لقد جرى اتهامك أمام الامبراطور فأمر أن تأتي إليه لتدافع عن نفسك وتقنعه بأن ما قيل في حقك ليس صحيحاً » . فرد الغسّاني بأن جميع « أفعاله » تقف دليلاً على براءته ، وأنه ليس بوسعه في الوقت الحاضر مغادرة بلاده لأنه يخشى غارة عرب الفرس . عند ذلك قال له ماجن وقد استبد به الغضب : « إن لم تأت بمحض إرادتك فسأقيدك وأحملك على حمار وأسوقك إليه على هذه الصورة » . وفي هذه اللحظة أحاط بهم الجند البيزنطيون ولم يستطع أتباعه من العرب مد يد العون إليه ، فقبض عليه « وأسيئت معاملته ، فكان أشبه بأسد هصور وقع في الشباك »(١٤٢) . وقد أحاط عدد ليس بالكبير من العرب بمحلة ماجن ولكن جند الروم كانوا أكثر عدداً وعلى استعداد للقتال ، فانسحب العرب وأوصل ماجن المنذر إلى العاصمة في ربيع عام ٥٨١ ، غير أن طبريوس لم يستقبله وإن أمر بإنزاله « حيث نزل من قبل » ، أي عند زيارته التي سبق أن احتفي به فيها عام ٥٨٠ . وعلى ما يبدو فقد تمتع ملك العرب بحرية نسبية ووجد بجانبه « إحدى نسائه واثنان من أولاده وبنت من بناته »(١٤٣) .

أما أولاد المنذر الأربعة والذين تميّز أكبرهم سناً وهو النعمان بذكائه الحاد ومقدرته القتالية فقد جمعوا قواتهم وحاصروا معسكر ماجن ونهبوه وتركوه قاعاً صفصفاً ، واستولوا على ما به من « الذهب والفضة والنحاس والحديد وجميع الثياب من الصوف والكتان والحبوب والنبيذ والسمن » . كذلك ساقوا قطعان الماشية كبيرها وصغيرها من البقر والضان ، ولكنهم لم يقتلوا ولم يَسْبوا أحداً من الناس ، كما لم يتسببوا في حريق ما . وقد نهبوا أيضاً « النواحي القريبة من عرابية وسورية وما جاورها » ، وجمعوا كميات لا تحصى من الغنائم والأشياء القيّمة(١٤٤) . بعد هذا أوغلوا في « جوف الصحراء » حيث ضربوا لأنفسهم معسكراً كبيراً أقاموا عليه الحرس والأرصاد وهناك اقتسموا الغنائم .

ولقد داوم العرب غاراتهم على الولايات « الشرقية » لبيزنطة « حتى ساحل البحر » ، وبثوا الذعر والخوف في نفوس سكانها الذين سارعوا إلى المدن ليحتموا بها . ويتعلق الأمر هاهنا بفينيقية وولايتي فلسطين الأولى والثانية ، ولعله يتعلق أيضاً بولاية عرابية(١٤٥) . وكان رد الغساسنة على القواد البيزنطيين الذين

---

(١٤٢) Joannes Ephesinus. Historia. III. 41. pp. 175 - 176 (130 - 131): P. Goubert. Byzance avant l'Islam. pp. 254 - 255.

(١٤٣) Joannes Ephesinus. Historia. III. 41. p. 176 (131).

(١٤٤) شرحه ، ٣ ـ ٤١ ، ص ١٧٦ ـ ١٧٧ (١٣١) .

(١٤٥) Evagrius. Historia ecclesiastice. IV. 2. p.233 E.Stein. Histoire du Bas-Empire. II. p.94. Goubert. Byzance arant Islam. I. p.256 (وليست بدقيقة ترجمة متن افاغريوس)

استفسروهم عن الدوافع لهذه التصرفات / أنهم إنما يثأرون لأبيهم الذي « أخذه الامبراطور أسيراً » دون اعتبار لجميع ما قدمه من خدمات وأعمال لبيزنطة . كما أنهم حنقوا لقطع الأرزاق عنهم ، يعنون بذلك المواد الغذائية التي كانت تدفع لجندهم سنوياً annona militaris . فلمّا لم يجد العرب ما يقيمون به أودهم اضطروا إلى الالتجاء إلى النهب مبرّرين ذلك بقولهم « إنما نعيش بحدّ السيف ولهذا اضطررنا إلى السلوك بهذه الطريقة ، بيد أننا لم نقتل أو نحرق » . وقد أحاطوا بمدينة بصطرى وطالبوا بأن ترد إليهم « أسلحة أبينا وغيرها من متاعه الشخصي » ، وهددوا بتخريب وحرق هذا المركز القديم لمنطقة العرب . وتقدمت القوات البيزنطية وعلى رأسها الدوكس في وجه أبناء المنذر ولكنها باءت بالهزيمة . عند ذلك أرسل سكان بصطرى المذعورون إلى الغساسنة وتوسلوا إليهم أن يتوقفوا عن الالتجاء إلى السيف قائلين لهم « سنرجع إليكم ممتلكاتكم فخذوها بسلام » ، « ثم حملوا إليهم أمتعة أبيهم » . ورجع العرب إلى مخيمهم ، ولكنهم لم يتوقفوا عن غاراتهم[١٤٦] . وقد عثر في أفاميه وذلك في القسم الشمالي من جبل العلاة بمعرةالنعمان على لوحة من البرونز يرد فيها الحديث عن « النعمان الاستراتيلات والفيلارخ »[١٤٧] .

212

هذه المادة المفصّلة التي سقناها من المصادر تسمح لنا بتقديم تحليل للحياة الاجتماعية والاقتصادية للقبائل العربية . فالروابط الأسرية العميقة لم تنصرم ، كما أن الإخوة والأبناء قد خاضوا المعركة وهم يد واحدة وبذلك حسموا أمرهم مع أعدائهم وهم متحدون . أما النهب وجمع الغنائم فقد دعى إليه إلى حد ما وضع الجيش العربي الذي كان يحصل على أرزاق سنوية من البيزنطيين بوصفهم حلفاء ، فلما « قطع عنهم » الامبراطور تلك الأرزاق تعسّرت بهم الحياة فلجأوا إلى النهب ليحصلوا على الأغذية والقطعان ، وهو أمر كان بطبيعة الحال ضرورياً لمعيشتهم . أما بخصوص الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية للعرب فقد أفردنا لهذا فصلاً خاصاً فيما يأتي من الكتاب .

وآخر فصل تبقى لنا بأكمله من القسم الثالث من « تاريخ » يوحنا الافسوسي يحكي لنا عن « سورة الغضب » التي استولت على طبريوس من أبناء المنذر . أما القسم التالي لهذا من تاريخه فيمكن استنباطه من الموجز الموجود لدى ميخائيل السرياني في « حولياته » التي تم تدوينها عام ١٢٣٤ والتي تعطينا ماورد في الفصول التالية من ذلك القسم . ومنها يتضح أن ماجن الذي غدر بالمنذر وسلّمه للبيزنطيين قد كُلّف من جديد بأن يقسر النعمان على الخضوع ، فدعاه إليه ووعده / بتنصيبه ملكاً مكان أبيه ولكن النعمان أرسل بدلاً من ذلك شخصاً قريب الشبه به . كذلك جرت محاولة لتنصيب أخ للمنذر ملكاً ، إلاّ أن اسمه غير معروف ومات خلال

213

(١٤٦) Joannes Ephesinus. Historia. III, 43. p. 178 (132); Evagrius. Historia ecclesiastica. VI. 2. p. 223.

(١٤٧) L. Jalabert. R. Mouterde et C. Mondésert. Inscriptions grecques et latines de la Syrie, t. IV. Laodicée. Apamène. Paris. 1955. Inscription 1550. pp. 176 - 177.

عشرين يوماً من الاحتفال بإعلانه ملكاً[١٤٨] . بل إن ماجن نفسه ما لبث أن فارق الحياة بعد ذلك بوقت قصير . وقد توجّه النعمان بنفسه للتفاوض مع موريقي الذي كان لا يزال « قيصراً » ، أي وطبريوس على قيد الحياة . ووعد موريقي النعمان بأنه سيطلق سراح أبيه إذا شارك العرب في الحرب ضد الفرس . وفي ذات الوقت عرض على النعمان أن يعترف بقرارات مجمع خلقدونية ، فرفض الغسّاني ذلك ووضّح له أن جميع العرب يعقوبيون . وقد قبض على النعمان في طريق عودته وأرسل إلى حيث تم التحفظ على أبيه من قبل[١٤٩] . وجرت هذه الأحداث في الأيام الأخيرة لطبريوس والأولى بعد موته واعتلاء موريقي العرش بمفرده . ومن الموثوق به أن المنذر أرسل إلى جزيرة صقلية مع زوجه وبعض أطفاله . أما فيما يتعلق بالنعمان فإن اڤاغريوس يوكد حدوث الغارات على مناطق فينيقية وولايتي فلسطين ويقول إن النعمان عوقب على ذلك فأخذ تحت الحراسة ولكنه لم يسجن بل « ظل حراً » (en eleuthera)[١٥٠] . هذه هي نهاية آخر الأفراد المبرّزين من بيت الغساسنة .

ومن المعلوم أن خاتمة المخطوطة الوحيدة التي تبقت من القسم الثالث من « تاريخ » يوحنا الافسوسي لم تحفظ . غير أنه يوجد ثبت كامل لمحتويات هذا القسم يحمل فيه الفصل الحادي والأربعون عنواناً هو « ارتفاع شأن رئاسة عرب الروم ثم انهيارها » ؛ كما يحمل الفصل الثاني والأربعون عنوان « رؤساء العرب الذين اتجهوا إلى الفرس ودانوا لهم بالتبعية »[١٥١] . ونلتقي في حوليات ميخائيل السرياني بمادة تتجاوب مع محتويات هذين العنوانين ، وتوضّح كيف اضمحلّت دولة العرب وتمزقت بين خمسة عشر « رأساً » أي زعيماً ، كما توضّح أيضاً كيف اختفت « دولة العرب النصرانية » . والفصول الأربعينات من الكتاب الثالث ، وأيضاً قصص الكتاب السادس من القسم الثالث من « تاريخ » يوحنا الافسوسي يكرّر بعضها بعضاً إلى حد ما ، وهو أمر حتّمته الظروف القاسية التي دوّن فيها كتابه حينما لم يوجد تحت تصرفه في كثير من الأحايين الأقسام السابقة من مصنفه . ولقد وجدت هذه المعلومات لدى ميخائيل السرياني في صورة موجزة[١٥٢] . وبناءً على توزيع المادة تحت عناوين محتويات الكتاب السادس فإن انضمام زعماء العرب إلى الفرس وسقوط دولة الغساسنة يرجع بها يوحنا الافسوسي إلى الزمن السابق للعام الثالث من الاندقطيون ، والتي يفصّل القول عن أحداثها في الفصل الرابع والأربعين تحت عنوان « الحرب الأخرى في العام الثالث / والنصر الذي منحه الرب للروم » . والعام 214

(١٣٨) Joannes Ephesinus. Historia. III. 43. p. 178 (133).

(١٤٩) Michel le Syrien. Chronique. t. II. p. 374 (350): Chronicon ad an. Chr. 1234 pertineans. ed. I. B. Chabot., Scriptores syri. series tertia. t. XIV. 1920. p. 215 (168).

(١٥٠) Evagrius. Historia ecclesiastica. VI. 2. p. 223.

(١٥١) Joannes Ephesinus. Historia. VI. pp. 276 - 277 (209).

(١٥٢) Michel le Syrien. Chronique. t. II. p. 375 (350): Joannes Ephesinus. Historia. III. 43. p. 182 (136).

الثالث من الاندقطيون يتفق مع سنة ٥٨٥ للميلاد[١٥٣] .

وثمة أفراد من بيت الغساسنة يرتفع اسمهم الفينة بعد الفينة في أحداث متفرقة من تاريخ الحروب الفارسية البيزنطية ؛ غير أن دولة العرب التي كانت مرتبطة ببيزنطة ودانت لها إلى درجة ما بالتبعية قد اختفت إلى غير رجعة . ودفعت الامبراطورية ثمناً غالياً لهذا . ذلك أن اعتماد الأمبراطورية على زعماء مقاتلين ينتمون إلى قبيلة واحدة أثناء فترة الفتوح الإسلامية الكبرى كان سيخفف كثيراًمن حدة الضربة التي تعرضت لها بيزنطةويقدم لها العون في لحظات الخطر الحرجة . ولعل اعتناق العرب للإسلام والذي كما هو معروف اتخذ طابعاً جماعيا ، كان سيتأثر بعض الشيء بوجود « دولة نصرانية للعرب » ذات روابط وثيقة مع بيزنطة* .



* يحكي البلاذري أن جبلة بن الأيهم آخر أمراء الغساسنة قاتل في واقعة اليرموك إلى جانب الروم ، ثم استعاذ بعد الواقعة بالأنصار للقرابة بينهم وبين غسّان . ثم يضيف :

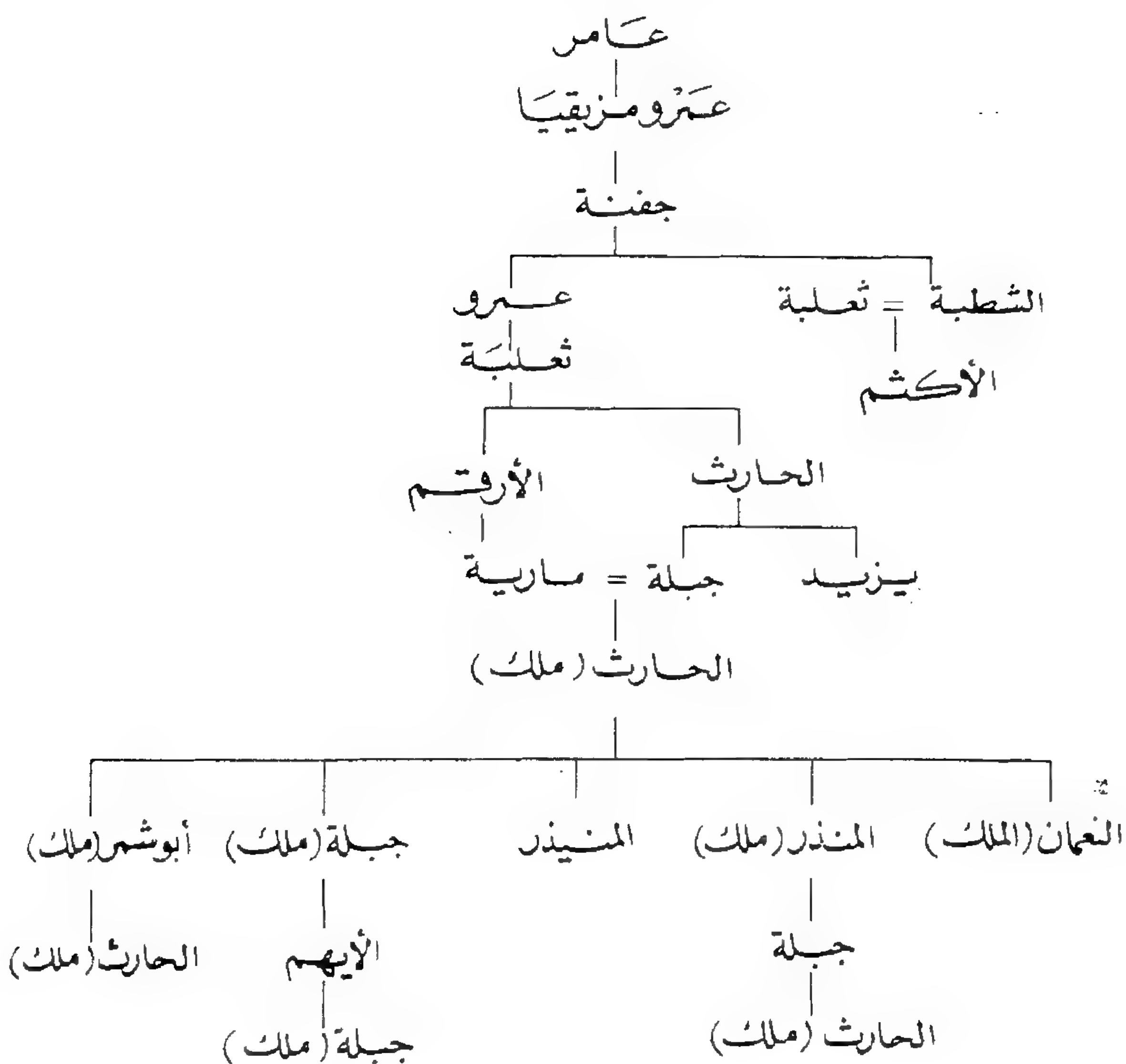
« ورُوي أيضاً أن جبلة أتى عمر بن الخطاب وهو على نصرانيته فعرض عمر عليه الإسلام وأداء الصدقة فأبى ذلك وقال أقيم على ديني وأؤدي الصدقة فقال عمر إن أقمت على دينك فأدّ الجزية فأنف منها فقال عمر ما عندنا لك إلا واحدة من ثلاث إما الإسلام وإما أداء الجزية وإما الذهاب إلى حيث شئت فدخل بلاد الروم في ثلاثين ألفا فلما بلغ ذلك عمر ندم وعاتبه عبادة بن الصامت فقال لو قبلت منه الصدقة ثم تألفته لأسلم ، وأن عمر رضه وجه في سنة ٢١ عُمير بن سعد الأنصاري إلى بلاد الروم في جيش عظيم وولاّه الصائفة وهي أول صائفة كانت وأمره أن يتلطف لجبلة بن الأيهم ويستعطفه بالقرابة بينهما ويدعوه إلى الرجوع إلى بلاد الإسلام على أن يؤدي ما كان بذل من الصدقة ويقيم على دينه فسار عُمير حتى دخل بلاد الروم وعرض على جبلة ما أمره عمر بعرضه عليه فأبى إلا المقام في بلاد الروم » . (ص ١٣٦ من الطبعة الأوروبية) ـ المترجم .

(١٥٣) Th. Nöldeke. Die Ghassanischen Fürsten.... P.30 (هذه الأحداث جرت في الفترة بين اليوم الرابع عشر من الشهر الثامن لعام ٥٨٢ واليوم الأول من الشهر التاسع لعام ٥٨٤) V. Grumel. La chronologie. Traité d'études byzantines publié par Paul Lemerle. 1. Paris. 1958. P.246

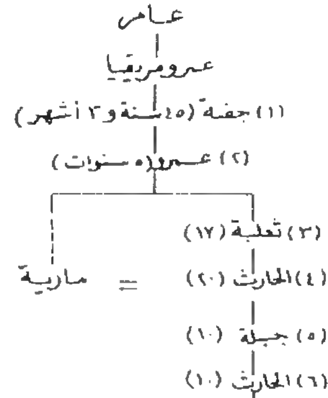
قائمة أمراء الغساسنة - آل جفنة
(وفقاً لنولدكه *Th. Nöldeke*)

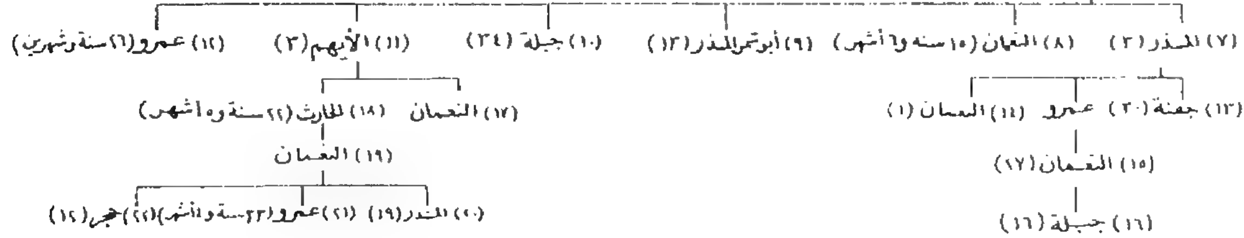
أبو شمر جبلة	حوالى عام ٥٠٠ ؟
الحارث بن جبلة	فيلارخاً ابتداء من عام ٥٢٩ ومات عام ٥٦٩
أبو كرب المنذر بن الحارث	٥٦٩ - ٥٨٢
النعمان بن المنذر	٥٨٢ - ٥٨٣
الحارث الأصغر ابن الحارث الأكبر	بين عامى ٥٨٣ و ٦١٤
([الحارث ؟] الأعرج ابن الحارث الأصغر)	
أبو حجر النعمان (ابن الحارث الأصغر ؟)	
عمرو أخوه	
حجر بن النعمان	
+ +	
+	
جبلة بن الأيهم	عام ٦٣٥

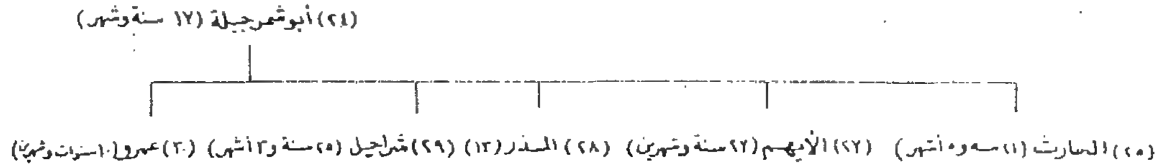
شجرة نسب آل جفنة وفقاً لابن الكلبي



شجرة آل جفنة وفقاً لحمزة الأصفهاني (مع بيان مدد حكمهم)







الفصل السادس

العرب والدفاع عن الحدود البيزنطية

215 يرتبط التاريخ العسكري للدول ارتباطاً وثيقاً بما يطرأ من تغيرات على حدودها خلال انتصارها أو تراجعها . فالمدن تغيّر من انتمائها وتنتقل إلى أيد أخرى ؛ كما تنبعث حدود جديدة . والحدود الشرقية لبيزنطة وهي ما عرف باسم « ليميس » limes لها تاريخها الخاص بها والذي دوّن خيرة صفحاته جماعة من العلماء الفرنسيين المبرّزين الذين أنشأوا مدرسة بحالها توارثت منجزاتها يداً عن يد وفتحت المجال لدراسات جديدة[1]* .

ولقد اضطلع عدد من علماء الآثار والنقوش ، مضافاً إليهم المؤرخون والجغرافيون ببحوث جديدة في هذاالميدان طبّقوا فيها أحدث المناهج العلمية بما في ذلك الكشف الجوي ، وتوّج كل هذا بوصف عام للحدود البيزنطية قبل الفتوح الإسلامية وتثبيتها على الخارطة ؛ وبهذا قدّمت الجغرافيا التاريخية خدمة للعلم لا تقدر بثمن .

ورثت بيزنطة نظام الحدود المحصّنة من رومه ، كما ورثت منها أيضاً أساليب الدفاع عنها وطوّرتها بالتالي بدرجة كبيرة . وإحدى المهام الأولى للامبراطورية عقب احتلالها لسورية مباشرة ، ثم بالتالي لأرض الجزيرة ، كان بناء الطرق المحصّنة والمحروسة جيداً . وقبل انتصار الامبراطور ترايان كان قد تم بناء طريق معبّد حصين يربط تدمر وسور [على الفرات] ؛ كذلك ربط ترايان أرض الجزيرة بنهر دجلة بطريق يمر بالسفح الجنوبي لجبل سنجار . / أما الطريق المعبّد الذي كان يسير من الشمال في اتجاه الجنوب فقد تم مدّه بعد الفتح الروماني عام 216 ١٠٧ من « حدود سورية إلى البحر الأحمر » .

غير أنه خلال القرن الثاني بأكمله غلب وضع لم تكن فيه « الليميس » limes (الحدود) معروفة في واقع الأمر بذلك المفهوم الذي اكتسبته فيما بعد . وكانت الحدود مع البارثيين تسير بحذاء نهر الفرات الذي كان يمثل

---

(١) R. Dussaud. La topographie historique de la Syrie antique et médiévale, Paris. 1927; V. Chapot. La frontière de l'Ephrate, de Pompée à la conquête arabe, Paris. 1907; L. Jalabert et R. Mouterde, Inscriptions grecques et latines de la Syrie. I - V, Paris, 1928 - 1959: A. Poidebard. La trace de Rome dans le désert de la Syrie, Le limes de Trajan à la conquête arabe, Paris, 1934.: E. Honigmann. Die Ostgrenze des Byzantinischen Reiches, Brüssel. 1935: B. Mouterde et Poidebard, Le limes de Chalkis. Organisation de la steppe en Haute Syrie romaine, Paris 1945; R. Devréesse. Le Patriarcat d'Antioche depuis la paix de l'église jusqu'à la conquête arabe, Paris. 1945: D. Schlumberger. La Palmyrène du Nord-Ouest. Paris. 1951: G. Tchalenko, Villages antique de la Syrie du Nord, I - II. Paris, 1958: R. Dussaud. La pénétration des Arabes en Syrie avant l'Islam, Paris, 1955.
(كما ذكرنا فإن هذا الكتاب الأخير ترجمة عربية ظهرت بالقاهرة ـ المترجم)

* يجب ان يضاف الى هذا دراسة جيدة ظهرت بالفرنسية أيضا : L.Dillemann, Haute Mésopotamie orientale et pays adjacents. Inst. Fr. d'Archéologie. Beyrouth, 1962 ـ المترجم .

عائقاً صعب الاجتياز نسبياً . وتدمر بوصفها دولة تجارية كانت تقوم بحراسة طرقها وكان لها خيّالتها الخفيفة الحركة والتي كان بمقدورها أن توقف عمليات النهب والتهريب ؛ كما كان لها وحدات الحراسة التي تشرف على النظام عند العيون والآبار ومواضع نزول القوافل . وقد تغير هذا الوضع نتيجة لأزمة القرن الثالث ، حين أضعفت الحملات العسكرية للساسانيين الأوائل الوضع العام للامبراطورية بالشرق الأدنى . ومن الممكن أن دوراً ليس بالضئيل قد لعبه في هذا قضاء رومه على الوحدات السياسية الصغيرة التي قامت بمهمة العازل (buffer) بينها وبين ايران وعاونت في ضبط بدو الصحراء ؛ فقد وضعت يدها على البطرا وقضت على تدمر عام ٢٧٣ . أما الخليج فكان في يد الفرس . وبهذا تشكّل وضع جديد لم يعد يتعلق الأمر فيه بحراسة طرق القوافل وحدها ، بل وقعت شبكة الطرق الرئيسية القادمة من الهند والشرق الأقصى كلها في يد الفرس الذين احتلوا فوق ذلك قسماً من أرض الجزيرة . ولم يتبق في يد الامبراطورية على الفرات سوى المنطقة الممتدة إلى قرقيسيا ، ولهذا فقد خشيت بحق الغزو من طرف ايران القوية فاهتمت بتحصين الطرق التي تربط تدمر بدمشق وبصطرى وسور . ولقد اعتمد الدفاع عن شمال أرض الجزيرة على أذاسا (الرها) وحرّان ، وذلك بعد ما تعرضت له منطقة اسروينه من تخريب . وكان من جراء فشل حملة يوليان المرتد أن انكشفت الحدود بين دارا والخابور واحتاجت إلى خط دفاع قوي ؛ الأمر الذي شغل اهتمام الدولة على أيام يوسطنيان كذلك .

ولقد تركت الأزمة الاقتصادية والاجتماعية للقرن الثالث أثرها على كل شيء ، ودخل التبادل التجاري في الشرق الأدنى في فترة من التدهور[٢] استعملت معها تجارة القوافل طرقاً أخرى ؛ كذلك نمت بعض الشيء أهمية النقل البحري بفضل استغلال الرياح الموسمية في الملاحة بالبحر الأحمر فظهرت إلى الوجود مراكز تجارية أخرى . ومما لا شك فيه أن الاعتماد على الفرس كان أمراً واضحاً ، لذا فلم يكن من الغريب أن اتخذت خطوات حاسمة لتحاشي التعامل معهم ولاستلام السلع التجارية مباشرة من أصحابها .

وكانت خطة رومه منذ البداية أن تترك مهمة الدفاع ضد البدو إلى القبائل العربية شبه الرحّل . ذلك أن الكتائب (legiones) ، وهم مشاة الرومان المسلحون تسليحاً ثقيلاً ، قلّما كانت تصلح في القتال ضد فرسان مسلحين بالأقواس . أما القبائل العربية التي وجد على رأسها / زعماؤها من البيوتات الكبرى والتي كانت تنزل قرب حدود الامبراطورية وعلى طولها ، فقد حققت بسهولة وبنجاح كبير مهمة حماية الحدود من هجمات البدو الرحّل الذين لم تختلف عنهم هذه القبائل في أسلوب حياتها إلّا منذ عهد غير بعيد .

وتنال أهمية جوهرية المسألة المتعلقة بوضع العرب على الحدود ووراءها ، وكذلك بالمثل الدور الذي تركته بيزنطة للعرب في حراسة هذه الحدود . وهذه المسألة ترتبط في أساسها بالزعم القائل بوجود ضربين من

(٢) F. Cumont, Préface, pp. IX, XIV; A. Poidebard, La trace de Rome dans le désert de la Syrie, Paris, 1934.

الحدود ، هي الحدود الخارجية والحدود الداخلية . وقد أثار الاختلاف بين الباحثين ما ورد بالمصادر المدوّنة من جهة ، والمواد الأثرية من جهة أخرى . فالمؤرخ ملاله يتحدث في تاريخه عن الحدود الداخلية (to endeteron limiton) والحدود الخارجية (to exetoron limiton)[٣] . غير أن هذه الفقرات تعرضت « للتعديل » في رواية ثيوفانيس[٤] بحيث أضحى من العسير استجلاء ما يقصده على وجه الدقة بالحدود . أما فيما يتعلق بالبحوث الحديثة فإن تحليل لفظ « ليميس » limes (الحدود) ساق إلى مفهوم آخر ، فقد عُني بها الحدود المحصّنة التي ترابط بها قوات الأمبراطورية كما عني بها مناطق الحدود نفسها . ونعثر بهذا اللفظ مرة أخرى بمعنى الولاية أو التراب التابع للدولة[٥] . ورغماً من الإختلاف في استعمال هذا المصطلح فإن الفكرة عن الحدود كانت دقيقة تمام الدقة ، فهي الحدود السياسية للدولة التي يمثلها خطّ محصّن تحصيناً عسكرياً . أما النظرية القائلة بوجود حدود خارجية وداخلية فمن العسير تبريرها . وحقيقة الأمر أن الحدود قد دُعّمت بسلسلة كاملة من التحصينات والقلاع الصغيرة التي تشبه السد المنيع الذي يمكّن من القيام برقابة دقيقة على أراضي الدولة المتاخمة . وقد جرى فحص هذا الخط من التحصينات بأرض الجزيرة وسورية مع اهتمام خاص بمدينة خلقيس (Chalcis) . وبخلاف هذا الحد الفاصل من القلاع والاستحكامات فقد انتثرت أمامه نقاط المراقبة المتقدمة أو الأبراج . وما يمكن تسميته بالحدود الخارجية إن هو إلاّ هذه النقاط العسكرية المتقدمة التي كان الغرض منها الاضطلاع بأعمال المراقبة والتحذير من اقتراب العدو والإخبار بغاراته . هذا المفهوم يتجاوب أكثر من غيره مع روايات المصادر ومع البحوث الأثرية التي أجريت حديثاً بالمنطقة . وهذه الحدود limes بتحصيناتها قامت أيضاً بوظيفة أخرى وهي حماية طرق المواصلات التي كانت أشبه بالشرايين التجارية والاستراتيجية[٦] .

وفيما يتعلق بالقرن السادس نلتقي بأوفر مادة عن التحصينات لدى پروكوپيوس القيساري ؛ ففي مصنفه « في الأبنية » De aedificiis يقوم پروكوپيوس بدور المادح الرسمي ليوسطنيان وإن كان لا يغفل هنا أيضاً إدانته على أفعاله . حقاً إن السخرية اللاذعة التي تختفي وراء الإفراط في إطرائه للامبراطور تجعل من هذا الأثر مصدراً عسر المتناول في الكثير / من جوانبه ، بيد أنه يتناثر خلال صفحاته العديد من التفاصيل الطوپوغرافية والفنّية . وعلى أية حال فإن مادة پروكوپيوس تتفق مع نتائج الأعمال الأثرية والطوپوغرافية التي أجريت حديثاً . وكانت أرض الجزيرة أكثر حاجة إلى حدود محصّنة تحصيناً عسكرياً قبل غيرها ، وخاصة مركزها اذاسا التي صرفت أموال طائلة من أجل ترميمها بعد أن شق نهرها ديصان لنفسه مجرى جديداً . وكان من عادة هذا النهر أن يفيض على ضفتيه ويهدد المدينة بالغرق . أما سورها المحيط بها فكان به عدد من الأبراج ، ويمثل في 218

(٣) Malalas. Chronographia. pp. 434. 445.
(٤) Theophanes. Chronographia. I. pp. 174. 179.
(٥) R. Devréesse. Le patriarcat d'Antioche..... p. 270.
(٦) Poidebard. La trace de Rome..... p. 19.

بعض أجزائه شيئاً أشبه ما يكون بقلعة منيعة(٧) . ومن المدن الأخرى الحصينة التي كانت في يد البيزنطيين حرّان وقللينيقه وبطنان(٨) . وبولاية الفراتية بنيت قلعة حصينة هي دورا اورويوس ، وقريباً منها بربليسون وقيسارية الجديدة وجبولون [الجبّول] . أما هيرابول ذلك المركز القديم فقد تطلب تحصينها اهتماماً خاصاً ، كما وأن أسوار سرجيوبول أعيد بناؤها من جديد(٩) .

وبعد تخريب أنطاكية في عام ٥٤٠ على يد خسرو اضطرت بيزنطة إلى بذل مجهودات كبيرة لإعادة قابليتها للوقوف في وجه العدو . ولم يقتصر الأمر على بناء الأسوار والأبراج الحصينة والاستحكامات فحسب ، بل إن عاصمة سورية هذه جرى إمدادها بالماء بفضل نظام معقد للري(١٠) . أما تحصين خلقيس وتدمر فكان استجابة لأكثر مطالب حراسة حدود الإمبراطورية إلحاحاً(١١) . وتوضّح الحفريات الأثرية كيف كان فن التحصينات لدى البيزنطيين . كذلك من الممكن استكمال مادة المؤرخين بتوفيق أكثر عن طريق التفاصيل التي تحتويها رسالة لمؤلف بيزنطي مجهول الاسم من القرن السادس تتعلق بفن الحرب(١٢) . وهي تضم توصيات وإشارات عن كيفية تطبيق وسائل الدفاع المتنّوعة ؛ كما تجد أقواله التأييد التام من المعطيات الأثرية والمادة التاريخية المعاصرة له . ولقد كان المؤلف دون شك على معرفة بتقنية ذلك العصر ، إما خبيراً بعلم الحِيَل (الميكانيكا) أو بالهندسة (ميخانوپويوس mekhanopoios أو ميخانيكوس mekhanikos) .

وقد تحققت الجهود المبذولة في تحصين الحدود والدفاع عنها في وقت واحد مع ما بذل من جهود في تحصين المدن القديمة ذات الأهمية التجارية والإدارية . فقد أحيطت تلك المدن بأسوار وأبراج أكثر ارتفاعاً ومتانة ، وفي الوقت ذاته أقيمت نقاط محصّنة جديدة . وخصائص الحياة بمدن الشرق الأدنى ، وخاصة تلك التي ارتبطت بنمو التجارة ، حدث وأن كرّسنا لها صفحات عديدة من بحوثنا . أما مدن ايران / وبلاد العرب الجنوبية التي مرت على فترة من النمو نتيجة لاتجارها في الحرير والطيب ونتيجة أيضاً للتبادل النقدي المتكاثف فقد كانت موضوعاً خاصاً لإحدى دراساتنا(١٣) . وتمكننا معلومات المصادر المدوّنة ، وكذلك المعطيات الأثرية ، من تكوين فكرة عن الأبنية الدفاعية وتحصينات المدن والقلاع والنقاط الحصينة بالدولة البيزنطية بما في ذلك أسوارها وخنادقها وممراتها المغطاة وكذلك الحواجز المزدوجة والأبراج(١٤) . وكانت الأسوار هي السمة الرئيسية

(٧) Procopius. De aedificiis. II. 7. ed. Dindorfuis. Bonn. 1838, pp. 228 - 230.
(٨) شرحه ، ٢ ، ٧ ، ص ٢٣٠ .
(٩) شرحه ، ٢ ، ٨ ، ٩ ، ص ٢٣١ - ٢٣٧ .
(١٠) شرحه ، ٢ ، ١٠ ، ص ٢٣٨ - ٢٤١ .
(١١) شرحه ، ٢ ، ١١ ، ص ٢٤٢ - ٢٤٣ .
(١٢) Der Byzantiner Anonymus. Griechiche Schrifsteller. Ed. Koehly und Rüstov. Bd II, 2, Leipzig, 1855: N. Pigulevskia. Vizantia i Iran na rubeje VI i VII vv. M-L., 1946, str. 20 - 22.
(١٣) N. Pigulevskia. 1) Vizantia na putiakh v Indiu, L. 191. str. 385 - 407; 2) Goroda Irana v rannem srednevekove. L., 1956, str. 317 - 318.
(١٤) N. Pigulevskia. Oborona gorodov Mesopotamii.Uch. Zap. LGU. ser. istor. Nauk. 1941. vyp. 12, str. 52 - 55, 63 - 72.

التي تميّز المدينة (polis) عن القرية أو الريف (كوميه kome ، خوريان khorian) . وبين المدن الكبرى والقلاع (مثلاً بين دارا وآمد ، وحوالي مدينة ثيودوسيوبول ـ ارضروم) جرى تشييد عدد من القلاع الصغرى والاستحكامات العسكرية غير الكبيرة التي كان لها أهمية دفاعية واستراتيجية خاصة . فالموضع الذي كان قرية بالأمس ولا يضم سوى عدد غير كبير من السكان يكفي أن تحيط به الأسوار ليصبح مدينة ، كما حدث عند حدود ايران لدارا انسطاسيوبول التي يقدم لنا تاريخ بنائها تفاصيل غاية في الطرافة(١٥) .

والتحليل الدقيق للمصادر يمكّننا من تثبيت المراحل التي سارت فيها عملية بناء هذه المدينة ، بما في ذلك المراحل المتعلقة بإعداد المشروع قبل دخوله مرحلة التنفيذ . ولم يكن من باب الصدفة أن حفظت لنا معطيات يونانية وسريانية تتعلق ببناء مدينة دارا التي يمكن اعتبارها أنموذجاً لهذا الضرب من أعمال البناء . ذلك أن دارا تمتعت بأهمية استراتيجية غير عادية على الحدود بين بيزنطة وايران ، فضلاً عن أن بناء تحصيناتها تم رغماً من معاهدة الصلح بين الدولتين . والعُجْب والخيلاء اللذان انعكسا في مصنف « أبنية يوسطنيان » يمكن تصحيحهما بواسطة مادة المؤرخين السريان الذين كانت المسألة بالنسبة لهم مسألة محلية ذات أهمية جوهرية . وكانت دارا تقع على مسافة ثمانيةوعشرين اسطاديون من الحدود الفارسية وعلى مسافة ثمانية وتسعين اسطاديون من مركز هام هو نصيبين . ولما أعرب أنسطاس عن عدم رضاه بسير الحرب ضد الشاهنشاه قباد أشار قواده العسكريون إلى الأهمية القصوى لوجود نقطة حصينة قرب الحدود . ذلك أنه وجدت بجوار الحدود مساحات شاسعة ولم يكن للجيش البيزنطي نقطة ينزل بها باستثناء آمد . ولقد وضّح قادة الجيش لانسطاس مدى الخسائر التي يتعرض لها الجيش بسبب « افتقاره إلى مدينة على الحدود » ، كما يقول يوشع العمودي تحت أحداث عام ٥٠٥/٥٠٦ . ويضيف يوشع العمودي : « وفي كل مرة خرج / الروم من تلا وآمد لمهاجمة العرب في المواضع النازلين بها ، كانوا يخشون من مكر العدو . وإذا حدث أن ظهرت قوات أكثر عدداً منهم واضطروا إلى التقهقر فإنهم كانوا في وضع صعب للغاية لعدم وجود مدينة قريبة يستطيعون الاحتماء بها »(١٦) . كذلك زادت الحاجة إلى وجود مدينة من هذا النوع للدفاع عن أرض عربايه « ضد قطاع الطرق من الفرس والعرب » ، كما يقول زكريا الملطي(١٧) . لذا فقد أمر انسطاس ببناء سور حول قرية دارا الواقعة على الحدود(١٨) .

220

(١٥) Collinet, Une ville neuve byzantine. Mélanges G. Schlumberger, 1924, pp. 55 - 60; Birk, Dara - Anstasiopolis. Der Erdball. 1929, Bd. 3, H. 5, pp. 201 - 205; Ensslin, Zur Gründungsgeschichte von Dara - Anastasiopolis. Byzantinisch-neugriechische Jahrbücher, t. 5, pp. 342 - 347; E. Honigmann, Die Ostgrenze des Byzantinischen Reiches. p. 10; N. Pigulevskia, Oborona gorodov Mesopotamii. str. 58 - 63.

(١٦) Joshua the Stylite. No. 90, p. 83; N. Pigulevskia, Mesopotamia na rubeje V i VI vv., str. 166.

(١٧) Zacharias Rhetor. Historia, VII. 6, p. 35.

(١٨) Joshua the Stylite. No. 90, p. 83.

(١٩) Zacharias Rhetor. Historia, VII. 6, p. 36.

غير أن الأمر سبقه الكثير من التردد بصدد اختيار النقطة التي يجب تحصينها ؛« فبعضهم أصرّ على دارا بينها أصرّ الآخر على امودن » .[١٩] وامودن هذه التي ترد في المتون اليونانية في صورة امّوده تقع على مسافة عشرين اسطاديون إلى الجنوب من دارا[٢٠] على الطريق بين أذاسا ونصيبين . ولوضع حد لهذا الخلاف فقد « أرسل » انسطاس إلى توما أسقف آمد الذي وجّه بالميكانيقوس لإعداد رسم تخطيطي (اسقاريفوس) للموضع . ولفظ الميكانيقوس أخذه السريان عن اليونانية ميخانيكوس mekhanikos ويعني المهندس[٢١] . ولقد كان تحت تصرف بيزنطة دون شك عدد من المهندسين المعماريين والفنيين الذين احتاجت إليهم لتشييد أبنيتها الضخمة . ويرد في هذا الصدد ذكر اثنين من المعماريين هما انتيموس وايزيدور اللذان « كانا مقدّمَيْن في الهندسة »[٢٢] . أما بدارا فقد وجد تيودور الذي كان خبيراً في فن البناء والأعمال الهندسية ، لذا فقد طُلب منه أن يبدي رأيه بصدد الاتجاه الذي يجب أن تحفر فيه الخنادق المحيطة بالمدينة لإعاقة هجوم الفرس[٢٣] .

وكان المهندس الرئيسي ليوسطنيان هوخريزيس Khrizis الإسكندري ؛ كذلك يرد ذكر ايزيدور الذي عرفنا اسمه قبل قليل وأيضاً يوحنا .وقد كان الاثنان ميخانوپيوي (mekhanopoioi) .وبالرغم من أنهما كانا في مقتبل العمر إلاّ أنهما اعتبرا من المهندسين البارعين لعصرهما[٢٤] . وتسمية المهندس بالميكانيكي تشير إلى معرفته بالرياضيات وقوانين الميكانيكا .

وقبل الشروع في البناء كان من الضروري عمل مخطّط (skhiagrafia) ورسم (opis) للمشروع لأنه كان من المستحيل دونهما الاضطلاع بعملية البناء نفسها[٢٥] ، خاصة وأنه ارتبط به تحويل مجرى النهر عند دارا . ولإحاطة المدينة بالأسوار احتاج الأمر أيضاً إلى وضع رسم تخطيطي لها (اسقاريفوس)[٢٦] ، ذلك لأن التخطيط يسبق بطبيعة الحال بداية / العمل في المشروع . هذا وقد شارك انسطاس وكبار رجال دولته الذين حضروا الاجتماع في القرار الذي اتخذ لبناء أسوار حول دارا . وكان من المهتمين اهتماماً شديداً بالمشروع الدوكس فلسسموس Felicissmus قائد القوات البيزنطية بولاية عربايه[٢٧] .

221

وبعد أن تم إعداد المخطّط واتخذ قرار نهائي بوضعه موضع التنفيذ ، أصدر انسطاس مرسوماً خاصاً بذلك . وقد استعمل السريان على وجه العموم لفظاً يونانياً في كلامهم على مراسيم الامبراطورية هو« سقرا » sakra ؛ كما حدث في هذه الحال بالذات . وكان هذا المرسوم الأخير مفصّلاً ونص على تعيين أسقف آمد

---

(٢٠) Procopius, De bello persico, I. 13, p. 61; R. Dussaud, La topographie...., planche XIV.
(٢١) Procopius, De aedificiis, II. 3, p. 218.
(٢٢) شرحه ، ٢ ، ٣ ، ص ٢١٧ .
(٢٣) Procopius, De bello persico, II, 13, p. 213.
(٢٤) Procopius, De aedificiis, II. 8, p. 234.
(٢٥) شرحه ، ٢ ، ٣ ، ص ٢١٧ ـ ٢١٨ .
(٢٦) Zacharias Rhetor, Historia, VII. 6, p. 35.
(٢٧) شرحه .

المجاورة مديراً لمشروع بناء دارا . والسبب في أن الجانب الاقتصادي والاجتماعي لتاريخ بناء دارا لم يحدث أن أثار انتباه الباحثين ، هو لأنهم لم يهتموا بفحص المصادر السريانية(٢٨) .

ومن أسقف آمد هذا المدعو توما ابتاع الامبراطور انسطاس قرية بكامل نفوسها ، وكانت من قبل ملكاً للكنيسة . والوضع القيادي للأسقف ومعاونيه من رجال الدين في عملية البناء إنما يقف شاهداً على أهمية الدور الإداري والاقتصادي الذي لعبته هذه الفئة في حياة الامبراطورية البيزنطية . ولم يُوكل أمر البناء إلى القائد فلسسمَوس رغماً من أنه كان « رجلاً حصيفاً وقديراً » ؛ بل أُوكل إلى الأسقف . ومن الممكن ارجاع هذا إلى أن الأسقف قد وجد تحت تصرفه كمية من « الذهب » كان بإمكانه أن يستغلها في عملية البناء ، لأن الدولة لم تستطع في تلك اللحظة أو لم ترد وضع أموال تحت تصرفه . وعلى أية حال فقد تعهد انسطاس بأن يعوّض بسخاء جميع ما يصرفه توما على عملية البناء ، على أن يتم ذلك دون تسويف . وقد استدعت الظروف البدء مباشرة في عملية البناء ، وهو أمر جد مفهوم بالنسبة للمخاطر التي أحاطت بمنطقة الحدود . وإن ما أبداه انسطاس المشهور بشُحّه من بذل في هذه العملية كان أمراً غير معهود فيه ؛ ويمكن إرجاعه إلى عامل العجلة وإلى الأهمية الاستراتيجية الكبرى للمدينة التي جرى تحصينها .

وتشير الحوليات إلى وجود ثلاث فئات من العمال ممن شاركوا في عملية البناء ، هم الصنّاع ummane (أُمّانه) والرقيق والفلاحون(٢٩) . وكانت مهمتهم جمع المواد الضرورية للبناء وتهيئتها ، وقلع الحجارة اللازمة لبناء الأسوار وتقطيعها . وتقدّم أسماء فئات العمال المشتركة في البناء دليلاً واضحاً على طبيعة النظام الاجتماعي الذي ساد في تلك العصور الإقطاعية . وقد وُجد مشرفون على العمل كانوا يتقاضون أجوراً مرتفعة : « وكان المشرفون على العمل يجازون مجازاة حسنة للغاية حتى امتلأت جيوبهم (كيسيهون) »(٣٠) . / ويرد مراراً ذكر قاطعي الحجارة بوصفهم من المتخصصين في فرع هام من البناء ؛ 222 « وأرسل (انسطاس) عدداً كبيراً من العاملين في قلع الحجارة وتقطيعها ، وأمر بألاّ يلحق حيف بأحد نتيجة لنوع العمل الذي يؤديه »(٣١) . وفي حوليات سريانية أخرى يرد أنه « اجتمع قاطعو الحجارة من كل أنحاء سورية وهرعوا إلى هنا للعمل في البناء »(٣٢) . وكان الحل الوحيد للإسراع بعملية البناء باستثناء أسلوب القهر ، صدور القرار الملكي الذي نص على ألاّ يلحق حيف في الأجور بأية مجموعة من العمال نتيجة لنوع العمل الذي يؤدونه . ولما انتشر الخبر بأن « الأمر جد » لا خداع فيه ، وذلك على خلاف ما كان عليه الحال

(٢٨) Collinet, Une ville neuve byzantine. La fondation de Dara-Anastasiopolis, pp. 55 - 60; Birk, Dara - Anastasipolis, pp. 201 - 205; Ensslin, Zur Gründungsgeschichte von Dara-Anastasiopolis, pp. 342 - 347; E. Honigmann, Die Ostgrenze des Byzantinischen Reiches, p. 10.

(٢٩) Zacharias Rhetor, Historia, VII, 6, p. 36.

(٣٠) شرحه ، ص ٣٧ .

(٣١) شرحه .

(٣٢) Joshua the Stylite, No 190, 83لتر (الترجمة الروسية ، ص ١٦٧).

عادة مع هذا الضرب من العمل ، وأن « الجزاء سيكون على قدر العمل الذي يقوم به كل فرد تقاطر العمال وأهل الصناعة من الغرب والشرق » إلى دارا[٣٣] . وعلى العموم « فقد بُذل الذهب بسخاء ودون استثناء لأهل الحرف وجميع الصناعات الأخرى » . وكان أجر العامل في اليوم أربعة قيراطيون [قيراط] ، وإذا استعمل برذونه ثمانية قيراطيون ـ وهي قطعة من النقود الفضية تزن جرامين[٣٤] . وقد حظي العمال بهذه الأجور المرتفعة في وقت كان فيه أجر العامل اليومي في القرن السادس عادة قيراطاً واحداً في اليوم .

ومن الضروري إجراء استدراكين في هذا الصدد . فبادىء ذي بدء علينا أن نأخذ في الاعتبار أن هذا كان جزاءاً غير عادي تم الالتجاء إليه مؤقتاً بالنسبة للظروف غير العادية التي تم فيها البناء . وثانياً أنه كان من المعلوم أن أرض الجزيرة تعرضت في الأعوام السابقة لذلك إلى مجاعة كانت أشد قسوة من المعتاد ، حين بلغت أسعار الخبز في الولايات الآسيوية لبيزنطة أرقاماً خيالية . أما في ايران المجاورة فقد انضاف إلى ذلك الجدب وغارات الجراد ، فعاونت المجاعة على نمو الحركة المزدكية . وفي الوقت الذي كانت تبنى فيه دارا كانت أسعار الخبز لا تزال مرتفعة بصورة مفرطة .

وقد سار البناء في ظروف مخاطر حربية مستمرة . فالشاه قباد الذي شغله لبعض الوقت قتاله مع قبيلة التموريين وغيرهم ، أراد إيقاف العمل حول دارا ولكن ذلك جاء متأخراً للغاية لأن الأسوار كانت وقفت على أقدامها . كذلك أحاطت بيزنطة العمل بالحراسة اللازمة « فقدم القائد فرمزان بجنده من أذاسا إلى آمد ومن هناك كان يخرج بالعون والنجدة إلى المشتغلين بالبناء »[٣٥] . وقد أدار العمل بأكمله توما ومعاونوه من رجال الدين وهم قورش ادون واوطيخيان (كشيشه) وباثوطيوس وسرجيوس ويوحنا (مشمشانه) الذين تم تعيينهم « مشرفين » على العمل[٣٦] . وجميع هؤلاء البشر ، أي العمال والمشرفون والفنيون والمفتشون كوّنوا جيشاً بحاله عند دارا ، وهذا « تم بناء المدينة خلال عامين أو ثلاثة / وكأنما انبعثت فجأة على الحدود » . وقد 223 أطلق على القلعة الجديدة اسم انسطاسيوبول ؛ ويقول بروقوبيوس إن انسطاس « خلق مدينة محصنة تحصيناً جيداً وذات بال »[٣٧] من قرية دارا المتواضعة .

كذلك ارتفع عدد من التحصينات حول مدن أخرى بفضل مجهودات المواطنين والفلاحين المحليين : وقد تعود المبادرة في البناء أحياناً إلى الهيجمون « فأسوار بطنان وهي قلعة بسروج كانت تهدمت وأصبحت أطلالاً فجدّد بناءها اولوجيوس هيجمون أذاسا »[٣٨] . « كذلك شرع الموقّر سرجيوس أسقف قلعة بيرتا [حالياً

(٣٣) Zacharias Rhetor. Historia. VII. 6. p. 36.

(٣٤) N. Pigulevskia. Mesopotamia na rubuje V i VI vv.. str. 76 - 77.

(٣٥) Joshua The Stylite. No 90. P.83—84 (الترجمة الروسية ، ص ١٦٧)

(٣٦) Zacharias Rhetor. Historia. p. 36.

(٣٧) Procopius. De bello persico. I. 10.

(٣٨) Joshua The Stylite. No 89. p.83 (الترجمة الروسية ، ص ١٦٦)

البيرة] الواقعة على الفرات في بناء سور للمدينة وأغدق عليه الامبراطور ذهباً ليس بالقليل لصرفه على البناء . ويصدق القول نفسه على اوروپوس الواقعة إلى الغرب من النهر بمقاطعة منبج ، فقد أمر الماجستير (أي أريوبند القائد العام للجيش magister militum) بإحاطتها بسور واشتغل بذلك السكان المحليون كل على قدر طاقته »[٣٩] . وفي هذه الحال الأخيرة حمل العمل طابع القسر لأن السكان أجبروا على إطاعة أوامر القائد البيزنطي بوصفهم رعايا . ويبدو أنه حتى في حالات أخرى لم يكن بد من الالتجاء إلى هذه الوسيلة . ولقد تولى عملية البناء في بيرتا الأسقف ، كما حدث بدارا . وكانت الطبقة الدينية العليا تنتمي إلى كبار ملاّك الأراضي ووُجدت لديها الإمكانيات للاضطلاع بمثل هذه المهام ، خاصة وأن ما يُصرف على البناء كان سيعوّض بالتالي من الخزانة الامبراطورية ، كما يبصر من المتن الذي سقناه قبل قليل .

ولقد كان بناء الحصون الصغيرة أمراً ذا أهمية قصوى ، لأنه احتيج إليها من أجل « معرفة ما يدور في وسط العدو » وأن تكون أيضاً ملاذاً للفارين منهم . وكان من اللازم تبديل الحاميات الموجودة بهذه الحصون من وقت لآخر وتزويدها بحاجتها من الماء والميرة . وجرى بناء هذه الحصون قرب الحدود ، ولكنها لم تكن في مناطق مكشوفة حتى لا يسهل الاستيلاء عليها[٤٠] .

وكانت أسوار المدن مشيّدة من الحجارة الضخمة المثبتة بالملاط ، وبلغ بعضها ارتفاعاً شاهقاً . ففي دورا اوروپوس تراوح ارتفاعها بين ثمانيةوتسعة أمتار . أما أسوار دارا فقد بلغت الستين قدماً أي حوالي الثمانية عشر متراً ، واتصفت بالسُمك والغلظ . وقد انتشر بصورة كبيرة بناء الأسوار المتوازية، الفردية « تيخوس » teikhos منها والمزدوجة « پريبولوس » peribolos[٤١] . وكان الحائط الذي يحدق بالمدينة مباشرة هو الذي يحمل اسم تيخوس أوپريبولوس . وقد أطلق اسم تيخوس في العادة على الحائط المنفرد ، أما الحائط المزدوج فيقال له پريبولوس . وكان الحائط المزدوج يتكون من الحائط الأساسي الذي احتفظ باسم تيخوس ، وهو الحائط الرئيسي الأقرب / إلى المدينةوالذي يعتبر دعامتها الأساسية . وعلى مسافة تعادل ربع ارتفاع هذا الحائط كان يقوم الحائط الثاني « ايپيتيخسما » epiteikhisma ، أي « الواقف تجاهه » . ولم تكن المسافة التي تفصل بين هذين الحائطين كبيرة نسبياً (حوالي المترين إن كان ارتفاع الحائط الأساسي عشرين ذراعاً أو ٨,٨ أمتار) ، ويشغلها ممر مغطّى هو الپريبولوس بمعنى الكلمة والذي انتقل منه الاسم إلى الحائط المزدوج بكل ما يضمه .

224

وأما الحزام العريض المحيط بالمدينة فكان يدور به حائط خارجي يطلق عليه اسم « پروتيخسما »

---

(٣٩) شرحه ، No 91, p. 84 (الترجمة الروسية ، ص ١٦٧)

(٤٠) Anonymus. IX, 1, 2, 3, 4, 7, 8.

(٤١) N. Pigulevskia, Oborona gorodov Mesopotamia, str. 63 - 72; Procopius. De aedificiis, II, 6, p. 226.

proteikhısma[٤٢] ، وهويتكون من صف واحد وبُني ليساعد في الدفاع عن البريبولوس أو الحائط الذي يحدق بالمدينة مباشرة . ووجد بدارا بين الحائطين الخارجي والداخلي رحبة لا يقل عرضها عن الخمسين قدماً ، كانت تلجأ إليها الثيران وغيرها من الماشية[٤٣] . والمدن التجارية الكبرى مثل أذاسا كان يحميها بريبلوس وحائط خارجي « بروتيخسما »[٤٤] ؛ كذلك عرفت مدن أخرى مثل قرّه وقللينيقه (الرقة) الأسوار الداخلية (ta teikhe) والأسوار الخارجية (ta proteikhismata)[٤٥] . وكانت البروتيخسما أقصر بكثير من الحائط الداخلي ومدعّمة تدعيماً قوياً[٤٦] . وبمجرد اقتراب الخطر كان الأغنياء يهربون من المدينة ، وعلى العكس من ذلك كانت غالبية أهل الريف تهرع إليها من جميع الجهات للاحتماء بأسوارها . وكان يُجهد لمنعهم من دخول المدينة نفسها ، غير أنه في الرحبة الواقعة بين الحائطين الداخلي والخارجي كان الرعاة يسوقون قطعانهم وكان الفلاحون يجلبون محاصيلهم . وهكذا جرى استعمال « سواد الشعب » و« الرّعاة » الذين وجدوا أنفسهم بهذه الصورة بين حائطين ، في المشاركة في الدفاع عن المدينة[٤٧] . وتقول الرسالة المجهولة المؤلف إنه من غير المرغوب فيه زحم المدينة ، لذا فإن الحيطان الخارجية يجب أن تبعد من الحيطان الداخلية بمسافة كافية لتسمح لجميع اللائذين بالمدينة أن يجدوا الملجأ بينها . وكان عليهم أن يتحملوا أول ضربة للعدو المهاجم ، لأنه كان من الضروري أن « يقاتلوا ضده » هم أيضاً[٤٨] . لذا فقد تقاتل الفلاحون agroikoi والصنّاع poimenai مع خسرو عند أذاسا[٤٩] ، وصدّوا العدو عن قللينيقه ، كما أظهروا ضروباً من البسالة في الدفاع عن انطاكية[٥٠] . ولقد جعلت الأسوار والتحصينات من المدن شيئاً لا سبيل إلى اختراقه ، وكان بإمكانها أن تقاوم طويلاً ما لم يقسرها الجوع أو انعدام الماء على الاستسلام .

وإلى جانب هذه الأبنية الدفاعية كان يحيط ببعض المدن أسوار غير عالية من اللبن ، وأكوام « من التراب » يصفها بروقوبيوس / بأنها « مثيرة للسخرية والاستهزاء » . وكان يحيط بدورا اورويوس سور مثل هذا « من التراب » أو « من الأوساخ »[٥١] ، كما وأن « القلاع حول مدينة آمد كانت محاطة بالتراب » على حد قول بروقوبيوس نفسه[٥٢] . أما ثيودوسيوبول فقد « كان يحيط بها حواجز من التراب تبعث على السخرية أشبه ما تكون بالزرائب »[٥٣] ، وفقاً لألفاظه . ومن الجلي أنه إنما يشير إلى الأسلوب العتيق لعمل الحظائر والزرائب

225

(٤٢) Procopius. De bello persico. II, 5. p. 224.
(٤٣) شرحه ، ٢ ، ١٣ ، ص ٢١١
(٤٤) Procopius. De aedificiis. II, 7, pp. 228 - 229.
(٤٥) شرحه ، ص ٢٣٠ .
(٤٦) Procopius. De bello persico. II. 13. p. 212; II, 27, p. 276.
(٤٧) شرحه ، ٢ ، ٢١ ، ص ٢٤٨ .
(٤٨) Anonymus, XII. 5.
(٤٩) Procopius. De bello persico. II. 26. p. 269; II. 27. p. 279.
(٥٠) شرحه ، ٢ ، ٨ ، ص ١٨٥ .
(٥١) Procopius. De aedificiis. II, 9, p. 235.
(٥٢) شرحه ، ٢ ، ٤ ، ص ٢٢٣ .
(٥٣) شرحه ، ٢ ، ٦ ، ص ٢٢٧ .

من أغصان الشجر والقنا المغطاة بالطين . وفي القديم كانت الأبنيـة من اللبن تحيط بها حـزم إضافيـة من القصب وأغصان الشجر ؛ كذلك وجدت حيطان مبنية من اللبن المحروق(٥٤) .

ولم يكن بمقدور العرب الاجتراء على مهاجمة المدن الغنية بأرض الجزيرة وسورية التي أحاطت بها أسوار عالية لا سبيل إلى اختراقها . ذلك أنه لم يكن في الوسع محاصرتها إلّا بواسطة الجيوش النظامية للساسانيين . ولم يرد اطلاقاً القول بأن العرب كان بمقدورهم الاستيلاء على المدن ، ذلك أنه لم يكن باستطاعتهم أن يعالجوا حتى أقصر الاستحكامات ؛ بل ولم يحدث أن كلّفهم أحد بذلك سواء من طرف ايران أو طرف بيزنطة . فقـد استعملت الوحدات العربية للقيام بالغارات السريعة والانقضاض الفجائي ، حينما احتاج الأمر بصـورة خاصة إلى نشاط فرسانهم وإلى رميهم الماهر بالأقواس(٥٥) . أما التكنيك المعقّد لحصار المدن المعروف آنذاك بالشرق الأدنى فإنه لم تكن للعرب خبرة فيه . لذا فإن المدن التي كانت معرّضة لغاراتهم مثل سرجيوبول ، تلك المدينة المحبّبة للغساسنة ببادية الشام ، كان بوسعها أن تحتمي بأسوارها القصيرة . « ذلك أن العرب بطبيعتهم لم يوجد لديهم الاستعداد لحصار الأسوار ، بل إنه حتى تلك الأسوار التي لم تمثل شيئاً ذا بال وكانت مبنية من الطين قد وقفت حائلاً في وجه هجماتهم » كما يقول پروكوپيوس(٥٦) . غير أنه في بداية القرن التالي لهذا أجاد العرب بتفوق فن حصار المدن ، كما يبصر ذلك من حملات المسلمين العسكرية .

ولقد كشف الدفاع عن الحدود عن احتياجات جديدة لكل من بيزنطة وايران . وكان كلاهما يخشى الآخر ، كما كانا يخشيان جيرانهما الصغار المزعجين من البدو . ولقد ورثت بيزنطة عن رومه نظام الدفاع عن الحدود بإسكان قدماء المحاربين بها وباجتذاب الأحلاف لحمايتها . كما ربطت هذه الضرورة عينها ايـران بالهياطلة وأقنعتها بأن تضم تحت جناحها دولة اللخميين لتقوم بحراسة حدودها الجنوبية الغربية ضد هجمات البدو أهل النجاد والتهام ، من كندة وسليح وغسّان .

226 وكان الغساسنة أحلافاً لبيزنطة وخدموها بشروط معروفة ، من بينها دفع الأرزاق السنوية annona / المكّونة من الغلال والعلف لحيوانهم ؛ هذا إلى جانب مدفوعات نقدية حدث وأن أشرنا إليهـا فيها مـر من الكتاب . وكان تحت تصرّف الامبراطورية حوافز أخرى مثل الألقاب الرفيعة التي مُنحت لزعماء القبائل ، ومثل منحهم الحق في حكم هذه المجموعة أو تلك من القبائل أو الأرضين . وأما أهمية الولايات السورية والفينيقية التابعة لبيزنطة فقد كانت كبيرة بصورة خاصة ، فهنا التقت عند البحر المتوسط جميع الطرق القادمة من الجنوب والشرق . وكانت حدود تلك المملكة المتحركة التي لم تفقد خصائصها البـدوية ، أعني مملكة الغساسنة ، تستند في أحد أطرافها على الولايات التي تم تنظيمها وفقاً للنظام المتّبع في جميع أجزاء

(٥٤) Chapot, La frontière de l'Ephrate, p. 301.
(٥٥) Joshua The Stylite, No 62 (الترجمة الروسية ، ص ١٥٦ ـ ١٥٧)
(٥٦) Procopius, De aedificiis. II, 9, p. 235.

الامبراطورية . أما في اتجاه الجنوب الشرقي فقد كان تخطيط الحدود أكثر عسراً ، فهنا لا يتضح الحد الفاصل بين الرحّل من الغساسنة واللخميين إلا بصورة تقريبية(٥٧) . ويمكن الإشارة إلى نقاط جغرافية معيّنة ثبّت فيها الغساسنة أقدامهم ، كما هو الحال في حيرتا الغساسنة وعلى اسطراط دقلديانوس إلى تدمر . ولقد ظلت تدمر نفسها نقطة ارتكاز للامبراطورية ، فتم ترميم أسوارها على عهد يوسطنيان كما تم تعيين دوكس لها .(٥٨) .

أما سرجيوبول ـ الرصافة فكانت بدورها تتبع لبيزنطة ، غير أن مقدسها الرئيسي وهو مشهد القديس سرجيس كان موضع الإجلال من جميع النصارى بالشرق الأدنى(٥٩) . ولقد ظل النزاع مستمراً بين المونوفيزيين والنساطرة ، فقد كان كلاهما يوقّر هذا المقدس ويجلّه ويريد إحرازه لجماعته . ومن هنا انبعثت الرغبة لدى كل طائفة في تشييد بناء بمنطقتهم على شاكلته ، وانعكس هذا في بناء معبد بعين كنويه (بيت عربايه) يشبه تمام الشبه مقدس سرجيس بالرصافة ؛ وهو أمر تؤكده سيرة اخودامّه(٦٠) . أما الزعم القائل بأنه وجد خارج أسوار الرصافة (extra muros) بريتورية [حرس ؟] فيلارخات الغساسنة ، فهو أبعد ما يكون من الصحة ، ويستند على أنه تم الكشف عن أطلال لبناء وجد بقبوه (apse) رقيم مزيّن بزخارف على هيئة أوراق زهرة الماء hyacinth [تحمل الألفاظ الآتية) : nike e tukhe al — moundarou « النصر والطالع للمنذر »(٦١) . وقد خضعت للغساسنة مساحات واسعة ، وكانت سرجيوبول تقع في مركزها(٦٢) . وحتى إذا ما اعتبرنا هذا القول صحيحاً ، فإن موقع البناء من شأنه أن يثبت أن الغساسنة لم يكن لهم سلطان على المدينة . وأقرب إلى الاحتمال أن المبنى كان بيعة وأن ذلك الرقيم الذي يكرّم المنذر قد نقش استجابة لرغبة أحد المعجبين به . وبسرجيوبول أيضاً جرت المقابلة بين ماجن السرياني والمنذر الغساني(٦٣) . أما مدى أثر / الحضارة اليونانية في المشرق والأثر العربي في بيزنطة ، والكيفية التي تحقق بها انتشارهما ، فيشهد بذلك تلك البقايا الأثرية والنقوش التي تم العثور عليها بولاية عرابية(٦٤) . وبهذه المناسبة فإنه يجدر التنبيه بأن بعض نواحي ولاية عرابية البيزنطية حملت تسميات لمدن بالجنوب العربي ، وهو أمر يشير في العادة إلى المواضع التي قدم منها المهاجرون الجدد . فمثلاً في المقاطعة الخامسة من هذه الولاية والتي تحمل اسم اللجا ، وفي الأبرشيه التي حملت اسم عزرا (وهي زراوه القديمة) وذلك إلى الشرق من زراوه ، وُجدت قرية حملت اسم نجران(٦٥) . وقد حفظت لنا رقوم بها

22

(٥٧) R. Devréesse, Le Patriarcat d'Antioche....., p. 279.

(٥٨) Theophanes, Chronographia, p. 267.

(٥٩) M.J. Sauvaget, Les gassanides et Sergiopolis. Byzantion, 1939, pp. 115 -130; R. Devréesse, Le Patriarcat d'Antioche, p. 279, nota 5

(٦٠) Patrologia orientalis, t. III, 1909, p. 29; J.M. Fiey, Les sts Serge de l'Iraq. Analecta Bollandiana, t. 79, Bruxelles, 1961, pp. 102 - 114.

(٦١) F. Sarre et E. Herzfeld, Archaologische Reise im Euphrat und Tigris - Gebiet, t. II, fig 156.

(٦٢) J. Sauvaget, Memorial, v. I. Damas, 1954, pp. 154, 157.

(٦٣) Joannes Ephesinus, Historia, III, 41, pp. 175 - 176.

(٦٤) Brünow und Domaschewsky, Die Provinzia Arabia, Strassbourg, I, 1904, pp. 120, 210, 217; II, 1905, pp. 94, 247 - 261; II, 1909, pp.102, 105 - 106, 197, 201 - 209.

(٦٥) R. Devréesse, Le patriarcat d'Antioche.... 239.

تذكر بطوناً عربية بأسمائها القبلية . فالرقيم النصراني لعام ٥٦٣ يذكر بطن السوبورنيين (Waddington 2431) Soboren . وتعرف الرقوم الأخرى بطن المنينيين Manien (Waddington 2427, 2213) وبطن الأغنديديين Ogndeden (Dussaud, Mission No 11). وجميع هذه الرقوم تشير إلى وجود عرب هناك احتفظوا بأنسابهم وبطونهم، كما حافظوا على نظامهم القبلي . وهذه النقوش محفورة بالكتابة اليونانية ، مما يثبت انضواءهم تحت النصرانية لأنه عادة ما صحب اعتناقها العلم بتلك اللغة . ولا تخلو من طرافة الرقوم التي يُدعى فيها آرثه [الحارث] « هيبارخ البدو وقائدهم » (Waddington 212)؛ أو ذلك الرقيم الذي يدعى فيه بلقب « قائد مخيمات البدو » (Dussaud, Voyage, No 7; Devreesse, p. 243) . غير أنه ليس صحيحاً كل الصحة الزعم القائل بأن حاميات سورية كانت ضئيلة[٦٦]، إذ من المعلوم أنه جرت محاولات في القرن الخامس لتدعيم حدودها . ونعلم من سيرة القديس سابا أنه رجا من الامبراطور يوسطنيان أن يبني حصناً بفلسطين على حساب الخزانة الامبراطورية ، فاستجاب الامبراطور لرجائه وأرسل بسومس أخي يوليان فقام بتشييد الحصن . ومن ناحية أخرى بنى سابا ورهبانه على نشز من الأرض وبإزاء الدير برجاً للمراقبة والتحذير باقتراب العدو[٦٧] . وقد تم بصورة خاصة تحصين خط انطاكية ـ تدمر الذي يمر بخلقيس ؛ وتقدم الحفريات والتصوير من الجو مادة ثرّة في هذا الصدد[٦٨] . ومن المعلوم أن هيرابول كان يحيط بها صنفان من الأسوار ، كما كان الحال مع مدن أرض الجزيرة . وكان الحائط الثاني الخارجي يقف على مسافة كبيرة من المدينة[٦٩]، بحيث كفت الرحبة التي بينهما لحماية الفلاحين وماشيتهم . ولقد مر الدفاع عن انطاكية بظروف قاسية ، ذلك أن القوات التي تحركت ضد/ 228 عاصمة سورية كانت خيرة قوات الفرس وأكثرها عدداً . وجميع ولايات بيزنطة هذه ، بما في ذلك الولايتان العربيتان ، كانت منظمة وفقاً لخطة متكاملة ؛ وكان الدوكس في كل منها هو الشخصية الرئيسية . وقد انتشر العرب في هذه الولايات وكان تنظيمهم يخضع لقيادة الفيلارخ الذي كان يتصرف في اتفاق مع حاكم الولاية . ويتضح هذا من الأحداث التي انتهت بمصرع الحارث الكندي عندما دخل في خلاف مع ديوميدوس دوكس فلسطين ، وبهذا أتاح الفرصة لعدوه المنذر اللخمي ليقضي عليه . وتلك فقط المناطق التي كانت تقع خلف حدود الولاية هي التي وجدت تماماً تحت سيطرة الغساسنة .

وليس ثمة شك في أن العرب قاموا خير قيام بمهمة حراسة الحدود وأن الكثير من مصلحة بيزنطة قد ارتبط بيقظتهم وصلابتهم في القتال . أما في داخل الدولة نفسها ، أي « حدودها الداخلية » فقد وُجدت القوات البيزنطية التي كان قوادها من البيزنطيين وظلت الحدود (« ليميس » limes) بمعناها الضيق جميعها في أيديهم . وأما فيما يتعلق بمشاركة الوحدات العربية داخل حدود الدولة البيزنطية ، كما حدث في حالة إخماد عصيان

(٦٦) Lammens, La Syrie, Beyrouth, 1921, p. 10.

(٦٧) A.J. Festugière, La vie de Sabas et les tours de Syrie — Palestine. Revue biblique, 1963, t. LXX, pp. 91 - 92.

(٦٨) A. Poidebard, La route septentrionale Antioche — Chalkis — Palmyre, Mélanges R. Dussaud, Paris, 1940, v. II, p. 735; R. Mouterde et A. Poidebard, Le limes de Chalkis, Paris, 1945.

(٦٩) Procopius, De aedificiis, II, 6, p. 226.

السامرة ، فقد التزموا بالعمل تحت أوامر السلطات البيزنطية وفي تناسق تام معها .

ويجب عدم التقليل من أهمية دور العرب الغساسنة كدولة عازلة تسلمت غير مرة الضربات الأولى والأكثر قسوة ، سواء من القوات الفارسية أو من القوات العربية للبدو . ومنذ اللحظة التي فقدت بيزنطة مؤازرة الغساسنة ، فإن وضعها السياسي الخارجي ساء بصورة ملحوظة . فالدفاع ضد الفرس أضحى أكثر صعوبة ، ويقف دليلاً على هذا ما ناله هؤلاء من انتصارات في نهاية القرن السادس . وأكثر خطورة من هذا كان وضع الامبراطورية عند هجوم المسلمين . ذلك أن الدور المخفّف الذي كان من الممكن أن تلعبه دولة العرب العازلة (buffer) لم يتحقق ، وبهذا وجدت بيزنطة نفسها وجهاً لوجه أمام قوات العرب المسلمين ـ تلك القوات الفتيّة الموحّدة الكلمة ، والتي أُفعم قلوب أفرادها الإيمان بالعقيدة الجديدة وهي الإسلام . فلم تستطع بيزنطة أن تفيق من الضربة الشديدة التي وُجهت إليها ، ولم تقدر على حماية عاصمتها نفسها إلاّ بمشقة وعناء شديدين .



الفصل السابع

تركيب المجتمع العربي وأوضاعه الاقتصادية قبل الإسلام

229 إن بزوغ فجر الاسلام ظاهرة جديرة بالاهتمام في حد ذاتها ، كما تنال الأهمية أيضاً لعلاقتها بموجة الفتوح العربية التي اكتسحت الشرق الأدنى . ولقد ارتبط نجاح الدعوة الإسلامية بتاريخ التطور الاقتصادي والاجتماعي للعرب قبل الإسلام وبتطلعات القبائل العربية إلى توحيد الكلمة وجمع الصف*. وكانت الانفجارة العربية الكبرى في المناطق الشمالية من الشرق الأدنى أشبه بتتويج لتيار الهجرة الذي أخذ قروناً لينساب من جوف الجزيرة العربية صوب الخارج ، فقد سلك العرب طرقاً معروفة لهم من قبل وولجوا أرضين لم تكن مجهولة لقبائلهم . ويدين نجاح الفتوح الإسلامية للعقيدة الجديدة التي وحّدت كلمة العرب وعملت على خلق تنظيمات فوق القبلية بينهم، كما يدين أيضاً لتفوقهم العسكري . فخيّالتهم الخفيفة والثقيلة التي استعملت الخيل والإبل ، وأسلحتهم ومعداتهم العسكرية ، كلها قد أسهمت في خلق جيش أكثر اكتمالاً ومهارة في القتال تميّز إلى ذلك بالحركة والتضامن القبلي من ناحية كما تميّز بإيمانه بالعقيدة الجديدة التي طغت على الاختلافات القبلية وطبعته بروح المبادرة والحماس من ناحية أخرى .

وفي زماننا هذا حين أضحت المسائل الاجتماعية تشغل مكانة كبرى في بحوث العلماء بالعالم أجمع ، أصبح المجتمع العربي للعهد السابق للإسلام أيضاً موضوعاً للبحث العميق أكثر مما كان عليه الحال في الأعوام السابقة لذلك . وخاصية البحوث الجديدة هي استعمال المادة الاثنوغرافية بأوسع صورة في النهج المقارن ، هذا إلى جانب الاستفادة أيضاً من المعطيات الأثرية . وتنال الأهمية الخواص الاقتصادية لهذه المجتمعات وتحديد المستوى الاقتصادي الذي بلغته . ولقد استرعت انتباهاً خاصاً النظرية التي تقسّم المجتمع الرعوي إلى مجموعتين ، إحداهما أشباه الرحّل أي رعاة الغنم والثانية البدو الرحّل بمعنى الكلمة (full beduins) الذين يشتغلون بتربية الإبل . وجميع اقتصاد البدو / وأسلوب حياتهم يرتبط ارتباطاً وثيقاً بوجود الماء والكلأ من أجل 230 إبلهم[١] . بل إن حياتهم وممتلكاتهم مكيّفة للانتقال ، حيث يقوم الجمل بدور جوهري كمطية لهم وحامل لأمتعتهم . ويعيش العرب على الألبان ومستخرجاتها ، ونادراً على لحوم الإبل . أما آنيتهم وأوعيتهم الضرورية لحمل الماء فهي من النوع الخفيف الوزن السهل الحمل . ويتفق أسلوب حياتهم مع ملبسهم أيضاً .

* راجع رد الخليفة عمر بن الخطاب على الهرمزان بعد أسره وإحضاره إلى المدينة : « إنما غلبتمونا في الجاهلية باجتماعكم وتفرقنا» (الطبري ، الطبعة الأوروبية ، ص ٢٥٨٨) ـ المترجم

(١) M. Oppenheim, Die Beduinen. Unter Mitarbeitung von E. Bräunlich und W. Caskel, Bd. I - Die Beduinenstämme in Mesopotamien und Syrien. Leipzig, 1939. p. 22. — "Die eigentlichen Beduinen sind reine Nomaden, Kamelzüchter ..."

وأشباه البدو لا يتنقلون الا في فصل معين من السنة ، بينما يمضون بقية العام مستقرين في مواضع محددة (p. 23) . وفيما يتعلق بتربية الإبل راجع : J. Henninger, Das Eigentumsrecht bei den heutigen Beduinen Arabiens. Zeitschrift für vergleichende Rechtswissenschaft. 1959, Bd. 61, pp. 46 - 49.

والوصف الذي يقدمه اميانوس مارسيلينوس لحياة السرقينيين الذي أوردناه في ما مر من صفحات الكتاب هو خير ما وصفت به حياة هؤلاء الرحّل .

وأهل الماشية الذين يرعون الغنم ليسوا رحّلاً تماماً وفقاً لهذا التقسيم ، بل أشباه رحّل يجمعون بين تربية الماشية وبعض أنواع الزراعة مما يتطلب درجة ما من الاستقرار . وفي البحوث الأخيرة انبعثت فكرة مؤداها أن الزراعة سبقت رعي الماشية في المجتمعات الأولى ، بل وإن الرعي قام على الزراعة(٢) . كذلك من صفات جميع الرحّل التمسك بصلة الرحم وبالنسب ، أي القول بالانحدار من صلب جد واحد ؛ وكذلك عادة الزواج داخل القبيلة ، الذي ينبثق من هذه الفكرة(٣) .

وتطور المجتمعات البشرية يرتبط بعدة أسباب ، كما أن تقدمها يرتبط دون شك بالتغيّرات التي تحسّن من أدوات الانتاج . وبالنسبة للرحّل فإن استعمال العنان للمطايا كان ذا أهمية كبرى لأنه يحقق السيطرة على الحيوان ويساعد في توجيهه .وفيما يتعلق بالجمل فإن أهم ظاهرة كانت وضع الراكب عليه . ففي أقدم العصور وذلك في الألفين الثالثة والثانية قبل الميلاد كان الراكب يجلس على كفل الجمل ، أي خلف السنام ، كما يتصر من الرسوم البارزة للأشوريين . وهذا الوضع لم يكن من شأنه أن يعاون في توجيه حركة الجمل إلا بطريقة تقريبية وذلك بسوقه من بعيد باستعمال عنان طويل . ويمثل مرحلة جديدة تغيير وضع الراكب بحيث يكون أقرب إلى رأس الجمل ، وذلك بأن يجلس على سنامه مما سهّل عليه قياده . هذا التغيير في وضع الراكب لم يضح ممكناً إلاّ بتغيير السرج الذي اتخذ شكلاً جديداً . فهذا السرج الجديد بوسائده الجانبية أصبح مناسباً لوضع الراكب على / السنام ، كما يمكن مشاهدة ذلك منذ القرن التاسع قبل الميلاد وإن كان من المحتمل أن يعود استعماله إلى ما قبل ذلك بقرن أو قرنين(٤) . 231

وكان أبعد أثراً ما جرى من تغيير في وضع الراكب على رقبة الجمل ، أي في مقدمة السنام ، لأن ذلك تطلب سرجاً منحنياً على غرار سرج الحصان ذا قربوس وهو الجزء المقوّس من السرج الذي يرتفع من قُدّام المقعد ومن خلفه . ويُفترض أن ذلك الشكل قد استعير من أسلوب عرفه فرسان البارثيين ووجد طريقة من آسيا الوسطى إلى الشرق الأدنى . هذا الضرب من السروج تشهد بوجوده البقايا الأثرية والرسوم التي تم العثور عليها بتدمر والتي تعود إلى نهاية القرن الثاني أو بداية القرن الثالث الميلادي(٥) .

---

(٢) J. Henninger. La Société béduine ancienne. Studi semitici. 2. l'antica societa beduina. Roma. 1959, p. 70.

(٣) J. Henninger. Die Familie bei den heutigen Beduinen Arabiens und seiner Randgebiete. Internationales Archiv für Ethnographie. 1943. XIII. pp. 2 - 3; J. Henninger. Das Eigentumsrecht bei den heutigen Beduinen, pp. 50. 43; W. Dostal. The evolution of Beduin Life. L'Antica società beduina, Rama. 1959. pp. 12 - 13. Bibliography — pp. 29 - 34.

(٤) W. Dostal. The Evolution of Beduin Life, pp. 18. 22.

(٥) شرحه ، ص ٢٠ .

ووضع الراكب على الحصان يسمح له بتوجيه الحيوان دون صعوبة ما ، لأنه يجلس قرب رأسه . وهذا الوضع يساعد الراكب جيداً في الإمساك بعنان الفرس بإحدى راحتيه مع ترك الأخرى طليقة حتى تسمح له باستعمال السلاح ؛ وقد أعطى هذا تفوقاً للفرسان في الأعمال العسكرية . والوضع الجديد للراكب على الجمل لم يسهّل عليه توجيه الحيوان فحسب ، بل كما هو الحال مع الفارس قد مكّنه أيضاً من الإمساك بالسلاح في اليد الأخرى . وهذا التفوق للفرسان وللراكبين عامة لم يلبث أن انعكس سريعاً في ما تميّز به العرب من صفات حربية وما اكتسبوه من شهرة كمقاتلين .

كذلك حاز العرب تفوقاً آخر في القتال باستكمالهم لنوع السلاح الذي استعملوه ، فقد بلغ العرب شأواً بعيداً في صناعة السيوف وتطويعها مما أكسبها مرونة خاصة وحدّة ، وهذه هي السيوف التي عرفت في أزمنة تالية باسم « الدمشقية » . كذلك تجدر الإشارة إلى أهمية الدروع أي حلق الزرد التي تحمي المقاتل من وقع السلاح . وبهذا أصبح للكمي إمكانيات كبيرة في القتال بنجاح من فوق صهوة جواده وهو محتمٍ بدرعه الحديدي[٦] . ووفقاً لقول بعض الباحثين فإن هذا الضرب من « الخيّالة المدرّعة » كان تحت تصرف الإمارات العربية الشمالية في القرن السادس ، كما « استعمله » أيضاً محمد فضمن له الفوز ولجيش المسلمين النصر في معارك عام ٦٢٥ . على أن الكلام على غزوات النبي ومعدّاته الحربية لا يدخل في نطاق بحثنا هذا .

ومن الممكن الافتراض أن السلاح العربي كان له ميزاته ، ولعله فاق بكثير أسلحة الفرس . ولا يخلو من مغزى في هذا الصدد ما نسب إلى بهرام جور[٧] من مهارة في استعمال القوس والرمي بالنشاب ؛ وإذا ما أخذنا في الاعتبار أنه أمضى سني شبابه الأولى بالحيرة فلعل التحسينات التي أدخلها الشاهنشاه قد ارتبطت بفن استعمال القوس الذي تمرّس باستعماله أثناء اقامته في وسط عربي . أما الأسلحة التي استعملها العرب / فمن الممكن التعرف عليها من أشعارهم . ففي المعلّقة المشهورة لعمرو بن كلثوم يرد الكلام أكثر من مرة على أنواع مختلفة من الأسلحة ؛ فنبصر فرسان العرب مدججّين بالسيوف والرماح وعلى رؤوسهم الخوذات ودروعهم تلمع في وهج الشمس[٨] . كذلك يرد ذكر الدروع في معلّقه الحارث بن حلزة[٩] . أما الرماح فكانت تعمل من القنا الذي يحدّد ويسن رأسه فيصبح سلاحاً فتاكاً[١٠] . وأما الدروع فيقصد بها حلق الحديد الذي يلبس كالقميص والذي كان الفارس يربطه بحزام حول جسمه[١١] . على أنه لا ينبغي أن يفهم من هذا أن فرسان العرب كانوا يرتدون لباساً من الحديد [أسوة بما كان يفعله فرسان أوروبا في العصور الوسيطة] ، ذلك أن

232

---

(٦) Fr. Altheim. R. Stiehl. Finanzgeschichte der Spätantike. Frankfurt a. M., 1957, pp. 117. 120.

(٧) Maçoudi. Les Prairie d'or, t. II, p. 191.

(٨) Th. Nöldeke. Fünf Mo'allaqat. I. Die Mo'allaqat des Amr und des Harith. Sitzungsberichte der Akademie der Wissenschaften, phil. - hist Klasse. Wien. 1899. Bd. 140, VII. Abhandlung: Die Mo'allaqa des Amr 49 (p. 27). 50. 57,58 (p. 28). 75, 76. 84 (p. 30)

(٩) Th. Nöldeke. Fünf Mo'allaqat. Mo'allaqa des Harith. 50, p. 64.

(١٠) شرحه ، ص ٤١ ـ ٤٢

(١١) شرحه ، ص ٤٥ ـ ٤٦ .

الحصان العربي الخفيف وإن كان بمقدوره حمل الفارس المسلّح جيداً إلّا أنه كان فوق طاقته حمل لباس الحديد الذي كان يغطي الفرس بالمثل[١٢] .

هذا الوصف يوقفنا بشهادة العرب أنفسهم على نوع السلاح الذي استعملوه . وهناك افتراض مفاده أنه منذ اللحظة التي وجد فيها النعمان الأول تحت تصرفه وحدة فارسية مسلحة سلاحاً ثقيلاً بلباس الحديد ، فلابد أنه تسلم سلاحه من مخزن الأسلحة الموجود بمدينة الأنبار . وكانت هذه المدينة تعرف أيضاً باسم فيروز شابور ؛ ورغماً من أنها كانت على مقربة من الحيرة فإنها لم تنتقل إلى سلطان اللخميين بل ظلت تحت إمرة ملوك الفرس[١٣] . غير أن هذا مجرد افتراض لأن المصادر العربية تذكر أن الأنبار نفسها قد نزل بها الحارث بن عمرو الكندي « المغتصب » الذي انتزع السلطة في دولة اللخميين رغماً من أنف المنذر[١٤] . وفي الحقيقة فإن القول بأن جيوش ايران كانت مسلحة بعناية أمر لا يرقى إليه الشك . ومن الممكن أن قسماً من هذه الأسلحة قد تم تحضيره بالمصانع الشاهانية ثم جرى حفظه بمخازن الأسلحة .

233

ولدى الطبري تعداد مفصّل بصورة خاصة لجميع أسلحة جيش الفرس ، يرد فيه ذكر لباس الحديد من أجل الفارس ومن أجل الفرس ، كما يرد فيه ذكر السيوف والدروع وحلق الحديد على هيئة القمصان . كذلك يقدم الطبري فكرة عن الأرزاق التي كانت تدفع للجند ، فيقول إن الفرسان من الطبقة العليا كانوا يتسلمون أربعة آلاف درهم . على أنه يجب التنويه بأن رواية الطبري إنما ترد في شكل حكاية تتعلق بخسرو انو شروان وأنها معروفة أيضا لفردوسي .

وليس هناك ثمة شك في أن الحاجة كانت واضحة إلى صنع الأسلحة وتحضيرها في أعداد كبيرة[١٥] . ومن المحتمل أن يكون العرب قد عرفوا صناعة الأسلحة الخاصة بهم ، وأنها ربما فاقت من حيث الكيف ما عرفه الفرس أو الروم . على أية حال فإنه عقب موت النعمان اللخمي طالب خسرو[١٦] تسليمه أربعمائة أو ثمانمائة درع كانت للنعمان . ولا بد من الافتراض بأن هذا الطلب كانت له صلة بالجودة التي اتصفت بها تلك الدروع .

ويتصل اتصالاً مباشراً بالأسئلة المطروحة نظرية كاسكل بصدد « تبدّي » بلاد العرب ، والذي يرجع به إلى العام المائة للميلاد بالتقريب[١٧] . فهو يقول إن انهيار الدويلات الواقعة على طرق القوافل (دول الأطراف

---

(١٢) شرحه ، ص ٤٦ .

(١٣) F. Altheim. R. Stiehl. Finanzgeschichte....., pp. 117. 118.

(١٤) أنظر اعلاه الفصل عن « اللخميين » ، ص ٨١ وما يليها .
Hamza Isphanensis. p. 107; Nöldeke - Tabari. p. 170; G. Rothstein. Die Dynastie der Lahmiden...., p. 88.

(١٥) Michel le Syrien. Chronique. t. II. 2; F. Altheim. R. Stiehl, Finanzgeschichte....., p. 121.

(١٦) Nöldeke - Tabari, p. 33.

(١٧) W. Caskel. Zur Beduinisierung Arabiens. ZDMG. 1953. Bd. 103, pp. 30 - 31.

Randstaaten) ساق إلى هجر هذه الطرق وتحوّلها إلى قفار ، مما أدى إلى ظهور تسميات جديدة . فتسمية « عرب » أطلقت على القبائل الرحّل تماماً وعلى أشباه الرحّل كمفهوم جديد . ويرجع ظهور هذا اللفظ لأول مرة في الرقوم العربية الجنوبية(١٨) إلى القرن الثالث الميلادي ، حيث تشير الألفاظ « عربهم بالنجاد والتهام » إلى القبائل الرحّل . ووفقاً لرأي هذا العلاّمة نفسه فإن العرب لم يعرفوا النظام القبلي في أزمنة مبكرة بل تعلق الأمر ببساطة « بجماعات من العرب » كثمود مثلاً ؛ ذلك أن « النظام القبلي لم يكن قد تطور بعد في جزيرة العرب » (Demnach hat sich die Stamm-organisation nicht in Arabien selbst entwickelt) . والخواص المميّزة للبدو، مثل أهمية صلة الرحم والنسب والأخذ بالثأر ، والغارات المنتظمة - كل هذه الخواص تطورت لدى القبائل الشمالية في وقت أسبق بكثير مما كان عليه الحال مع بلاد العرب نفسها . كذلك قدمت من الشمال إلى جزيرة العرب الأسلحة الأكثر اكتمالاً والتي استعارها العرب من بيزنطة وايران ، كما يتبيّن ذلك من مقارنة الأسلحة في رسوم عرب ثمود بما هو معروف عن أسلحة الغساسنة واللخميين للقرن السادس(٢٠) . وأما ظهور عناصر جديدة في لغة الرقوم (وعلى الأخص أداة التعريف « ال ») فيجب نسبته إلى تأثير أولئك الرحّل .

غير أن آراء كاسكل قوبلت بالاعتراض ، خاصة فيما يتعلق بمسألة نشأة اللغة العربية الكلاسيكية (ليتمان Littmann ، ورتر Ritter ، وباريت Paret) . كذلك لم يتفق البروفسور اشبولر B.Spuler مع كاسكل في زعمه أن طرد جماعات بحالها من سكان المدن إلى البادية وازدياد عدد رعاة الماشية نتيجة لذلك ، كان أشبه بما حدث في آسيا الوسطى بالذات في القرنين التاسع والعاشر للميلاد ؛ أو أنه من الممكن تسمية ذلك « تبدّيا » بأية حال .

وقد ظهر رأي يقول بأن التطور سار بطريق مضاد ، وأن الأساس الاقتصادي الضعيف للدويلات الصغرى هو الذي ساق إلى سقوطها « تحت ضربات الامبراطورية الرومانية » ، / مما أدى إلى عودة « الأشكال 234 القديمة للبداوة مرة أخرى »(٢٢) . وقد تم فحص جميع هذه المسائل بصورة أعمق وتتابع منطقي في بحث جماعي قام بتحرير فصوله نفر من أبرز المتخصصين الذين اعتمدوا على مادة واقعية وافرة وفحصوا مصادر متنوّعة فخرجوا باستقراءات تتصف بالجدّة(٢٣) . كذلك توجد بين أيدينا ملاحظات نقدية قيّمة برزت في

---

(١٨) شرحه ، ص ٣٢ :

W. Caskel, Die Bedeutung der Beduinen für die Geschichte der Araber. Arbeitsgemeinschaft für Forschung des Landes Nordrhein - Westfalen. 1952. H. 8, pp. 7 - 8.

(١٩) شرحه ، ص ٣٣ .

(٢٠) شرحه .

(٢١) شرحه ، ص ٣٥ .

(٢٢) نقده لدى : H.L.Gottschalk, WZKM. 1959. Bd. 55, p.189 .

(٢٣) L'antica società beduina. Ed. Fr. Gabrieli, Studi semitici, 2, Roma. 1959.

عرض للبحوث والدراسات التي دُوّنت في تاريخ الإسلام المبكّر ؛ وقد ظهر هذا المقال منذ وقت غير بعيد(٢٤) .

وتقدم البروفسور ماريا هفنر تفسيراً آخر لهذه الظاهرة . فهي قد لاحظت ظهور مصطلح « عرب » منذ القرن الأول قبل الميلاد في الرقوم العربية الجنوبية ، واستدلت من هذا على أن « العناصر البدوية » وإن لم تكن مجهولة في العصور السابقة لذلك ، إلاّ أنه وجد ضرب من التوازن بين السكان الحضر والرحّل اهتمت فيه المجموعتان على السواء بتجارة القوافل . وفوق هذا فإن قسماً معيّناً من الرحّل أصبح حضراً فنزلوا الأرضين التي كانت في تلك الأزمنة محروثة في مساحات شاسعة وتسلموها في العادة على أساس الاكتراء arendi(٢٥) . وقد ظهر اسم « عرب » عندما اختلّ ذلك التوازن وأخذت القبائل الرحّل تغير على الحضر ونفذت من مناطق وسط الجزيرة إلى المناطق الجنوبية . كما برز الاختلاف أكثر بين مجموعات السكان عندما ظهر في لقب « ملك سبأ » ، وذلك جنباً إلى جنب مع « ذوريدان وحضرموت واليمن » ، أيضاً عبارة « وعربهم في النجاد والتهام »(٢٦) ؛ وقد حدث هذا في عام ٤٠٠ أو قبله أو بعده بقليل . وحتى في هذه الرقوم يرد ذكر العرب البدو بوصفهم قوات مساعدة ، شاركت وحداتها في حروب ملك سبأ وكانت تخدم « الدولة » التي زادت حاجتها إلى استعمال القوة العسكرية . أما فيما يتعلق بالرقوم الشمالية للصفا وثمود فقد نصبها الرحّل أنفسهم . وقد لاحظ الباحثون أن من بين صفات البدو البارزة ميلهم إلى القتال ، بل إن أحدهم يتحدث عن « الصفات القتالية المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بتربية الإبل » le caractère guerrier. intimement lié à l'élévage du chameau(٢٧) . وهذا الرأي موضع نزاع ، ليس في قوله إن البدو كانوا شعباً مقاتلاً بل في زعمه أن هذه صفة من صفات أهل الإبل .

وإذ نحن بسبيل إلقاء الضوء على أكثر سمات المجتمع البدوي بروزاً في رأي الباحثين المعاصرين ، علينا أن نذكر أن المسائل التي لها صلة بحياة الرحّل قد جرى فحصها في الأعوام الأخيرة على صفحات الدوريات والمجموعات العلمية السوفيتية ، على الأخص / فيما يتعلق بعهد الإقطاع . وقد كُرّس عدد من الدراسات 23 لتحليل العلاقات الاجتماعية لعرب الشمال قبل الإسلام وأيضاً للتركيب الاجتماعي لبلاد العرب الجنوبية(٢٨) . بل إنه من الممكن حالياً فحص هذه المسائل على قاعدة تاريخ العرب السياسي الذي دُرس دراسة جيدة ، مما سيعاون على تقديم تحليل جديد للمسائل الاجتماعية . وفي الفترة التي تمثل موضوع

(٢٤) M. Rodinson, Bilan des études mohammadiennes. Revue historique. 1963. t. 229. f. 465. p. 190.

(٢٥) M. Höfner. Die Beduinen in den vorislamischen arabischen Inschriften. L'antica società beduina, pp. 60, 63 - 64. 68.

(٢٦) M. Höfner, Die Beduinen...., p. 65.

(٢٧) J. Henninger. La société beduine, p. 70.

(٢٨) N. Pigulevskia. Araby VI v. po siriiskim istochnikam. Trudy 2-i sessii assotsiatsii arabistov 19 - 23 oktiabria 1937 g., M. - L., 1941. str. 52 - 68; N. Pigulevskia. Vizantia na putiakh v Indiu. 1951. str. 336 - 384; A. Lundin. Iujnia Aravia v VI v., M. - L., 1961. str. 93 - 108.

دراستنا ، وأعني تلك الممتدة من القرن الرابع إلى القرن السادس ، فإننا نرى أنه في موضع الدويلات التي سقطت تحت ضربات رومه وهي دويلات العرب بالبطرا وتدمر واسروينه قد برزت إلى الوجود قبائل جديدة تشكل تركيبها السياسي في ارتباط وتبعية مع الدولتين الكبريتين المهيمنتين على الشرق الأدنى . وأعقب القرن الثالث الميلادي شيء أشبه بدور جديد في تاريخ العرب الشماليين ، انتعشت فيه ظاهرة « التبدّي » التي مرّ الكلام عليها قبل قليل انتعاشاً كاملاً فيما يبدو . غير أن هذا السؤال يجب أن يوضع بطريقة مغايرة . فظاهرة « الزحف الصحراوي » على الأراضي الزراعية للسكان الحضر ، وظهور مجموعة « الرحّل الصرحاء » ظواهر لا يمكن تفسيرها إلّا عن طريق التحليل الاقتصادي والاجتماعي . ولن نعرض في بحثنا هذا للكلام بالتفصيل على تقسيم الرحّل إلى رحّل محض وإلى أشباه رحّل ، فهذا مجال الدراسات الاثنوغرافية المتخصصة . ويكفي أن نذكر في هذا الصدد أنه وجد بين الرحّل والحضر مراحل وأشكال انتقالية في أسلوب الحياة ؛ واستناداً على النظام الاقتصادي فقد أطلق عليها اسم غير دقيق هو شبه الرحّل أو شبه الحضر[٢٩] . وهذا القول يصدق بدوره على العرب . وعلى أية حال فإنه يجب التنويه بأن تربية الإبل في أعداد كبيرة قد ارتبط بالحاجة المتزايدة إلى نوع جديد من القوات المقاتلة ، كما ارتبط أيضاً بظاهرة أخرى هي أنه قد أصبح من الممكن توجيه هذه القوات المقاتلة بالكثير من الدقة عندما انتقل را كب البعير إلى قريب من رقبته . وليس هناك شك في أن « الحصان والبعير لم يَحُل أحدهما دون استعمال الآخر »[٣٠] ، بل ظلا يستعملان على قدم المساواة في جميع صور الحياة السلمية أو الحربية لدى الرحّل وأشباه الرحّل. وكأنما حدث تخصص لكل في نوع العمل الذي يؤديه ، فالوظائف المختلفة أثناء الحملات العسكرية اضطلعت بها إبل متخصصة في حمل الأشياء الثقيلة ، أما الغارات فقامت بها خيل سريعة العدو خفيفة الحركة . ولقد أجاد العرب إجادة تامة فن ترويض الخيل والإبل معاً . لهذا لم يكن من الغريب أن جهدت كل من بيزنطة وايران في تنافسهما من أجل السيطرة على الشرق الأدنى على اجتذاب العرب الرحّل إلى خدمتهما ؛ كذلك فعلت هذا حمير أيضاً .

236 أما الوضع الاقتصادي الذي غلب في القرن الرابع فيمكن وصفه بأنه كان شبه حضري ، اعتماداً على مصادر ذلك العهد . ويصدق هذا على أولئك العرب الذين أحضرهم معه طريبون كما يصدق أيضاً على أولئك الذين ضربوا خيامهم قرب عمر القديس اوفميوس . وثمة أحداث منفردة من أدب ذلك العصر تشير إلى وجود « متصعلكين » من بين العرب ، كانوا يمضون حياتهم في التجوال في الصحراء بإبلهم القليلة . وقد حدث لبعضهم أن نال منه الضعف والإعياء من وعثاء الطريق فاقتسم طعامه معهم أحد الرهبان وشكروه على ذلك شكراً حاراً . غير أنه لا على أمثال هؤلاء الرحّل اعتمد جيش العرب الذي حسم أمر الهزيمة أو النصر في حروب

(٢٩) J. Henninger. Das Eigentumsrecht bei den heutigen Beduinen Arabiens. Zeitschrift für vergleichende Rechtswissenschaft. 1959. Bd. 61. pp. 6 - 7. 43. Bibliographie — pp. 52 - 56.

(٣٠) F. Altheim. Geschichte der Hunnen. I. Berlin. 1959. pp. 184. 187.

الدول الكبرى ، بل اعتمد على شبه الحضر أو على دويلاتهم التي سبق وأن مر بنا الكلام عليها . وكان هذا الجيش يتكون من الفرسان ؛ ولقد كان الحصان أعزّ ما يمتلكه أولئك العرب وإن وُجد إلى جانبه أيضاً قطعان الإبل والغنم .

وهكذا فإن « التبدّي » بالمفهوم الذي فهمه البروفسور ف . كاسكل لم يحدث إطلاقاً بالنسبة للفترة الزمنية التي نتحدث عنها . وفي العادة كان العرب رغماً من انتسابهم إلى قبائل شتى منظمين في شكل أحلاف أي اتحادات ؛ ولهذا وجب الأخذ بعين الاعتبار القسمات التي تفصل بينهم أو تلك التي يشتركون فيها . والقول بأن الرحّل المحض هم الذين اعترفوا وحدهم بالأهمية الخاصة للنسب وللانحدار من صلب جد واحد والالتزام بالزواج داخل القبيلة ، غير صحيح تاريخياً . فهذه هي سمات التركيب القبلي على وجه العموم ، وقد تطورت في مجتمع شبه الرحّل بالطريقة نفسها التي تطورت بها في مجتمع الرحّل المحض . ويجب أن يضاف إلى هذا أن الرحّل المحض تماماً لم يوجدوا في واقع الأمر ، باستثناء مجموعات غير كبيرة من الأفراد ، لأن أهل الإبل أنفسهم ارتبطوا نوعاً ما بالحضر وكأنما وجدوا لهم بهذا نقطة ارتكاز . ويمكن أن نلاحظ من وجهة النظر التاريخية أن ظاهرتي الاستقرار والترحّل قد اختلطتا وارتبطتا بعضهما ببعض ، لا فيما يتعلق بالقبائل المختلفة فحسب بل وفي داخل القبيلة الواحدة كذلك . وانحدار القبيلة من جد واحد ، وعادة الزواج بين أفرادها ، يمكن الالتقاء بها في الحالتين . كذلك من المستحيل الاتفاق مع الرأي القائل بأن عرب ثمود الشماليين لم يكن لديهم نظام قبلي بل كوّنوا « جماعات من العرب » ليس إلاّ ، وأن الصفات الرئيسية للنظام القبلي كرابطة النسب والأخذ بالثأر لا تقابلنا إلاّ في الرقوم الصفائية وحدها[٣١] . ومن العسير القول بصحة هذه الفكرة ، لأن تحليلاً أدق بعض الشيء لرقوم ثمود والصفا سيبرهن على وجود صلة بينها سواء من حيث الشكل أو الموضوع . فكلاهما ينتمي إلى القبائل العربية التي كان « بعض أفرادها من الرحّل و الآخر من الحضر »[٣٢] .

وكل من ثمود والصفا ينعكس في رقومها جميع صفات النظام القبلي المعهود لدى مجتمع الرحّل وشبه الرحل والذي بلغ مستوى معيّناً من / التطور الاجتماعي . وفي هذه المرحلة من تشكيل القبائل والأحلاف القبلية اكتسب أهمية فائقة روابط النسب القائمة أساساً على فكرة الانحدار من صلب جد واحد ؛ ومن هنا انبعث أيضاً الالتزام بالزواج بين الأقارب والأخذ بثأر من قتل منهم .

(٣١) W. Caskel, Zur Beduinisierung Arabiens, pp. 32' - 33'

(٣٢) M. Höfner, Die Beduinen..... pp. 58 - 59.

الأحلاف القبلية

إن اتحادات القبائل العربية التي تشكّلت إلى الشمال من نجد والتي يوجد بصددها عدد وافر من الشواهد ، قد بلغت مرحلة من التطور في العلاقات الاجتماعية يمكن أن يطلق عليها اسم الأحلاف القبلية . ونظراً لتمسك العرب بأنسابهم فقد كوّنوا قبائل مستقلة معروفة لنا أسماؤها من مصادر شتى ؛ فهي ترد في الرقوم وفي الآثار التاريخية التي دوّنها علماء المسلمين ، كما ترد أيضاً في الشعر الجاهلي . وقد اتخذت اتحادات القبائل ، أي أحلافها ، صورة تنظيمات شتى قامت على الجيش الذي انضوى تحت لوائه جميع الرجال القادرين على القتال . ورغماً من أن الوحدات العسكرية قد نُظمت وفقاً للقبائل فقد كان لها قائد عام اتخذ في هذه الصفة لقب ملك (ملكا) ، وهو يشابه إلى حدّ ما مفهوم اللفظ اللاتيني « دوكس » dux . وكان القائد العام ينتمي إلى إحدى العشائر الحاكمة ، ذلك لأن كل قبيلة كان لها في العادة عشيرتها الحاكمة من الأعيان . وكانت صلات النسب هي التي عاونت بالذات على التوارث وحفظت اللقب داخل هذه العشائر ، كما حدث ذلك في الجنوب العربي بالنسبة لنظام قديم مثل « كبيرات » .

وفي حلف القبائل كان القائد أو الدوكس أو الملك يشغل وضعاً يترجمه على أفضل وجه المصطلح اللاتيني « الأول من بين متساوين » primus inter pares. ويمكن أن نشير إلى أكثر من مثال في تاريخ القبائل العربية الشمالية من شأنه أن يدلّل على أن نظام الشورى قد وُجد في تلك الدويلات العربية ، وأن الجنود تمتعوا بحقهم في التعبير عن رأيهم أمام الجيش وأمام الملك . وقد أشار البعض إلى أن نظام الحكم الذي وصفه هومير Homer لا يخلو من شبه في بعض قسماته مع « النظام الملكي » الذي وجد لدى العرب [قبل الإسلام] ، خاصة فيما يتعلق « بالزعامة العسكرية » « والسلطة الملكية » التي « وجد جانبها مجلس شورى القادة والمجمع الشعبي ، مما يشير إلى وجود نظام يستند على ديمقراطية عسكرية » . « وكما كان عليه الحال لدى اليونان في عهد الأبطال ، ولدى الرومان في عهد من سُمّوا بالملوك ، كذلك وجدت لدى العرب ديمقراطية عسكرية استندت على العشائر الكبيرة كما استندت أيضاً على القبائل وعلى الجماعات التي ربطت بينها صلة القربى ، وتطورت عنها » . وفي رأينا أن مستوى تطور مجتمع العرب الشماليين في القرن الرابع كان أعلى بكثير من مستوى تطور اليونان والرومان في العهد « البطولي » ، خاصة وأن/ المستوى الاقتصادي الرفيع للتركيب الاجتماعي لجيران العرب المباشرين ، وأعني بذلك بيزنطة وايران ، قد ترك أثراً كبيراً على تطور المجتمع العربي نفسه .

238

وعملية « التبدّي » التي يقال إنها حدثت بالشرق الأدنى في القرن الثالث الميلادي لم تحدث في واقع الأمر . إلاّ أنه بسقوط الدويلات العربية المتأثرة بالحضارة الهيلينية حدث شيء أشبه ما يكون بتشتت للقبائل

العربية وتدهور لروابطها الاقتصادية التي كانت متعشة في الماضي مع تلك الدويلات ، مما حدّد بالتالي مصيرها في اتجاه آخر .وكانت تدمر والبطرا وجرش وبصطرى مدناً ـ دولاً ، انتمت من حيث نظامها إلى العهود القديمة . وقد قام نظام الإنتاج فيها على الرق ، وارتبط بالتأثير المستمر للعوامل الاقتصادية كما اعتمد على السكان الرحّل [البدو] وأشباه الرحّل ممن نزلوا بالواحات والصحاري المحيطة بها . ولم يكن من شأن التركيب العشائري والقبلي لهذه المدن ـ الدول الواقعة على أكناف الصحراء ألّا يترك أثراً محسوساً فيها ؛ فروابط النسب القوية قد احتفظ بها السكان المحليون ووجدت طريقها إلى الحياة الاجتماعية لهذه المدن ، وهو أمر يمكن تتبعه بوضوح في النقوش الأثرية لبطرا وتدمر التي ترتفع إلى القرن الثالث .وقد تركّزت خاصية هذه المدن -الدول في ما أطلق عليه ميخائيل روستوفتسف M.Rostovtsef اسم « مدن القوافل » Caravan Cities ، لأن التجارة البرية عاونت على ازدهارها وثرائها ؛ وكانت هذه التجارة تعتمد على حيوان النقل بالصحراء وهو الجمل .

وأزمة العالم القديم التي حدثت في القرن الثالث انعكست هاهنا بأبعادها الكاملة، وذلك بالطريقة نفسها التي أخذت تبرز فيها بوضوح ظاهرة العلاقات الإقطاعية الجديدة بكل خصائصها بالنسبة للمشرق والتي رجحت كفتها في القرن السابع أي قرن الفتوح الإسلامية الكبرى .فالمدن - الدول ذات الطابع القديم التي تأثرت بالحضارة الهيلينية لم تلبث أن أفسحت المجال للامبراطورية البيزنطية الرومية التي سارت فيها عملية الاقطاع ببطء وإن نتج من ذلك القضاء على آثار مجتمع الرق حين استبدل بعمل الرقيق عمل الفلاحين بالأرض وأهل الصناعات والحرف بالمدن .

ولقد تطورت الاتحادات الحكومية لدول العرب الجديدة عن التركيب القبلي ، ونشأ من هذا أحلاف القبائل التي كان فيها الشعب والجيش أشبه على وجه التقريب بمترادفين .فالاتحادات القديمة للمدن - الدول لم تترك خلفاً لها وانتهى أمرها بالزوال ، ولكن تطورت عنها أشكال حكومية فريدة هي تنظيمات « بربرية » فتيّة « استندت في الأصل على قبائل تنحدر من صلب جد واحد » لم تلبث أن توحّدت في أحلاف قبلية تقوم على قاعدة جغرافية ، وارتبط مصيرها فيما بعد بمجتمعات ذات طابع إقطاعي شبيه لما حدث ببيزنطة وإيران ، وبما حدث/ فيما بعد في عهد الخلافة الإسلامية . أما نظرية « التبدّي » أو « التبدّي من جديد » فإنها لم تحظ بالتعضيد وصدق عليها وصف أحد الباحثين بأنها « فكرة تميّزت بالكثير من الأصالة العلمية إلاّ أنها تفتقر إلى الإقناع » ـ reconstruction fort savante, mais peu convaincante [٣٣] .

239 وكانت اتحادات القبائل التي تشكلت في القرنين الخامس والسادس إلى الشمال من نجد وذلك على حدود الدولتين الكبريين ، عبارة عن تنظيمات قبلية وأحلاف للقبائل ساد بها مجتمع طبقي . وقد تغير

(٣٣) M. Rodinson. Bilan des études mohammadiennes, pp. 189 - 190.

التركيب البدائي لحياتها قبل وقت طويل من صيرورة الحيرة مركزاً للعرب اللخميين . فامرؤ القيس « ملك العرب كلهم » الذي مات عام ٣٢٨ كان ملكاً لحلف من القبائل لم يعُد يُعتبر مجتمعاً بدائياً . وفي الحق فقد حفظت لنا المصادر التاريخية بعد قرن أو قرنين من ذلك العهد معلومات عن بنية تلك الدول العربية لا يشبه في شيء تلك الأفكار المهلهلة والغامضة التي تكوّنت عن خصائص دولة كندة التي مر بنا الكلام عليها في موضعها من البحث .

أما بالنسبة للعرب اللخميين والغساسنة فإن تفتّت المِلكية داخل مجتمعهم واقتسامها بينهم أمر لا يرقى إليه الشك ، وإن كان بمقدورنا أن نثبت بوضوح تام وجود رباط وثيق بين أعضاء الأسرة الواحدة وتماسك بينها يقوم على صلة الرحم . فقد وجد حول رأس الأسرة وفي بقعة واحدة معه إخوته وأبناؤه . ولقدانتقل لقب المنذر وحقوقه إلى ابنه الأكبر النعمان الذي بقي معه إخوته بل وقاتلوا تحت قيادته . وكانت عشيرة « البيت » الحاكم تقف على رأس المجتمع . ويرد الكلام أيضاً عن « أملاك بيت الحارث[٣٤] » . وكان مرد غضب المنذر بن الحارث من « عرب الفرس » هو لأنهم جرؤوا على اقتحام حدود « بيت الحارث » . ووفقاً لأسلوب حياة العرب شبه الرحّل فقد كانت هناك منطقة محددة تعتبر ملكاً أو حِمى لبيت معيّن . ومما يقف دليلاً على هذا ذلك النزاع المشهور الذي شبّ بين العرب من أجل السيطرة على « الاسطراط » . ولا يخلو من مغزى بالنسبة للتركيب الاجتماعي لهذه الدويلات المكوّنة من اتحادات قبلية ماساد بها من مفهوم عصبي وطبقي . فقد جمع المنذر « كل إخوته وأبنائه وأعيان دولته وجميع معسكره »[٣٥] ليقوم بالهجوم على اللخميين . ويكمن الرباط العصبي في التسلسل الطبقي لتلك المجموعات التي اعتمد عليها ، ففي البداية يأتي « إخوته » وذلك قبل « أبنائه » ، ثم يتبع هؤلاء في التسلسل « أعيان دولته » ؛ وهو مفهوم طبقي يُقصد به أهل اليسار من الأسر الكبيرة الذين يكوّنون الطبقة العليا في مجتمع الدولة العربية . هذا التسلسل لم يأت اعتباطاً ، فأقرباء الملك جميعهم ، أي أهل « بيته » كان لهم الأسبقية على الأعيان وهو أمر تؤيده نصوص أخرى . فاللخميون مثلاً لم يعودوا يخشون الغساسنة بعد موت الحارث ، بل احتقروا « جميع أبنائه وأعيان دولته و/بجيشه[٣٦] » . ورغماً من الأسبقية التي كانت للإخوة على الأبناء في النظام العشائري (وقد رأينا المنذر مثلاً يطلب شيئاً ما « هو وإخوته وأبناؤه ») فإن نظام الوراثة لم يقم على المبدأ العشائري بل قام على المبدأ الأسري . فالرئاسة كانت تنتقل من الأب إلى الابن وليس من الأخ الأكبر إلى الأخ الأصغر ، كما يُلاحظ مثلاً في المبدأ العشائري الذي ساد بدولة روسيا الكييفية Kievan Russia حيث جرى النزاع على الدوام بين المبدئين العشائري والأسري[٣٧] . وإفراد

240

(٣٤) Joannes Ephesinus, Historia ecclesiastica, VI, 3. CSCO. Scriptores syri, peries III, v. III, Parisiis, 1935, p. 280 (212)

(٣٥) شرحه ، ٦ ، ٣ ، ص ٢٨٠ ، (٢١٢) .

(٣٦) شرحه .

(٣٧) N. Pigulevskia, Araby VI v. po siriiskim istochnikam, str. 53.

الأعيان بالذكر يقف شاهداً على تقسيم المجتمع على أساس طبقي شغل فيه أعيان العشيرة وضعاً رفيعاً . ويرد الحديث في سيرة يعقوب البرادعي أن الحارث الغساني « وأعيان دولته » رجوا من القديس أن يعالج « أهل بيت » ما ، أو « أناساً » . وفي روايته لهذه القصة يستعمل يوحنا الافسوسي لفظاً قريباً من اللفظ العربي هو « أهل » بمعنى الناس أو الأقارب . وقد ساند طلب الملك أعيان دولته ، أي أكثر الناس التصاقاً به[٣٨] . وفي اتحاد القبائل كان يقف على رأس كل قبيلة أعيانها ؛ أما الوحدات العسكرية أي المقاتلون فقد وجد على رأسهم الزعماء ، أي الرؤساء من طبقة الأعيان . وهذه الاتحادات القبليّة للعرب كاللخميين والغساسنة كانت تتكون في الأساس من أقوام شبه حضر لهم مرا كزهم المدنية كالحيرة والأنبار لدى اللخميين وحيرتا الحارث الغساني ويصطري لدى عرب بيزنطة . غير أن شطراً كبيراً من هؤلاء العرب كانوا يخرجون للمرعى بقطعانهم في فصل خاص من السنة . وكان تنظيم اتحاد القبائل نفسه يقوم على أساس عسكري ، لذا فإن الفكرة عن الشعب قد تم التعبير عنها بلفظ « العسكر » و « المعسكر » . فالمنذر مثلاً جمع « كل معسكره » أي جميع جيشه (exercitus) الذي كان معه بمعسكره (castra) . ولقد حنق النعمان الأول اللخمي (في النصف الأول من القرن الخامس ؛ وذلك قبل عام ٤٥٩) من العرب التابعين لعسكره لتوقيرهم شمعون العمودي ؛ ويرد في هذا الصدد قوله « فأرسلت وأمرت بجمع كل معسكري وقلت لهم : لو جرؤ أحد منكم على الذهاب إلى مارشمعون قطعت رأسه بالسيف هو وجميع أهل بيته »[٣٩] . ومن الممكن استعمال لفظ العسكر أو الجيش في هذا المعنى نفسه . وفي حكايته للنزاع الذي نشب بين المونوفيزيين حول الأسقف بولص ويعقوب البرادعي يقول يوحنا الافسوسي إن « الخلاف ساد جميع العسكر العربي » ، مستعملاً في هذا المعنى اللفظ السرياني الذي يعني « العسكر » في صيغة الجمع[٤٠] . كذلك يتحدث الحارث أثناء النزاع المذهبي عن « عسكرنا » ، مما يسبغ لوناً معيناً على تعبيره هذا[٤١] . ولم يكن استعمال هذه المصطلحات اعتباطاً ، / فيوحنا الافسوسي نفسه 2 يتحدث عن معنى « العلمانيين » في روايته لذلك النزاع[٤٢] ، كما يستعمل اللفظ اليوناني « اوخلوس » okhlos ليترجم به الفكرة السريانية عن العامّة الذين لم يُدعوا « مع رؤسائهم والخاصة » للاجتماع بالمنذر في المجمع العقائدي الذي عقد بالقسطنطينية[٤٣] . وهذا التميز الذي يجريه مؤلف بعينه حين يدعو سكان الامبراطورية بعامّة الناس ، بينما يدعو الكتلة الشعبية بمملكتي اللخميين والغساسنة باسم الشعب لأمر يستلفت النظر حقاً . فهو في الحالة الأولى يستعمل تسمية معقّدة في تركيبها لأنها تتكون من اللفظ اليوناني « اوخلوس » والألفاظ السريانية « من سواد الناس » والتي يجب ترجمتها « بالعامّة » ؛ هذا بينما يدعو على الدوام أولئك الذين يكونون

(٣٨) John of Ephesus. Lives of the Eastern Saints. Patrologia Orientalis, t. 19, Paris, 1926, p. 233.
(٣٩) Vita Simeoni. Acta martyrum et sanctorum, ed. Bedjan. v. IV, Parisiis, 1894, p. 597.
(٤٠) Joannes Ephesinus, Historia ecclesiastica, IV, 21. CSCO. Scriptores syri. series III, t. 3, p. 208 (156).
(٤١) Michel le Syrien, Chronique, p. 316 (256).
(٤٢) Joannes Ephesinus, Historia ecclesiastica, IV. 40, p. 220.
(٤٣) شرحه ، ٤ ، ٤٠ ، ص ٢٢١ .

الكتل الشعبية في المملكتين العربيتين باسم « العسكر » و « المعسكر » ، وهو مفهوم عسكري بحت يقصد به القوات العربية حيث كان « الشعب » هو والجيش شيئاً واحداً في تلكم المملكتين . غير أن تركيبهم الشورى اقتصر على الطبقة العليا من الأعيان أو الأغنياء ، أعني الأعيان القبليين الذين استند نفوذهم على العشيرة الكثيرة العدد والمقاتلة وذات الثروة . وكان جيش العرب يتكون من أفراد أحرار يتمتعون بكامل حقوقهم ؛ وهم جند نظاميون كانوا يعيشون معيشة الرحّل بمعسكرهم ولكنهم أخذوا على عاتقهم تحمّل جميع العمل والالتزامات أثناء الغزو . وكانوا معرضين لأكبر المخاطر ، وإن كان نصيبهم من الغنائم هو الأقل . غير أن التقاليد العشائرية والقبلية ظلت قائمة بينهم لعهد طويل . فالجند الأحرار ، أو « معسكر العرب » ، كانت لهم مجالسهم على غرار المجالس الشعبية « الفيتشا » Vecha بروسيا القديمة . وبالتالي فقد كان لهم نظامهم فوق القبلي ، لأنه في تلك الاجتماعات شارك جميع المحاربين . وكان اجتماع العسكر locus constitus يعقد في خيمة كبيرة[٤٤] ؛ وبمعنى آخر وجد موضع يجتمع فيه الجيش للتداول . ولخوف المنذر بر حارث من حدوث تصرفات عدائية من جانب بيزنطة التي قطع معها سائر العلاقات ، فقد أوغل بعسكره في جوف الصحراء وهناك ضرب معسكره وامتنع عن مقابلة أي مبعوث يقدم من القسطنطينية وكان « على استعداد للقتال ضد كل من يجرؤ على الاقتراب من موضع تجمع معسكره »[٤٥] . وكانت الدعوة إلى الاجتماع تتم بالناقوس والبوق والقرن ؛ وهي الطريقة التي استعملت عادة لجمع الجند[٤٦] . من هذا يتضح أن المنذر كان مستعداً لصد أي هجوم أو غيره يأتي من بيزنطة ؛ بل وكل من يجرؤ على الاقتراب من موضح تجمّع جيشه ، أعني الموضع المركزي للمعسكر . ومن الجائز أن فسطاط الملك نفسه وجد على مقربة من ذلك الموضع . ولعل المنذر كان يخشى أيضاً من جمع العسكر / في مجلس شعبي . غير أنه من المعروف كذلك أن المنذر والنعمان كانا يخاطبان 242 الجند مجتمعين بغرض رفع روحهم المعنوية . وأمثال هذه الخطب التي كان يلقيها القواد على جندهم معروفة أيضاً في الجيشين البيزنطي والفارسي .

من هذا يتضح أن الجيش العربي كان يتكون من أفراد أحرار اكتسب تنظيمهم العشائري والقبلي قسمات جديدة من واقعة اتحادهم في أحلاف قبلية . وكان الحلف القبلي يمثل اتحاداً يترأسه ملك يستند سلطانه على الوراثة التي انحصرت في أسرة حاكمة تنتمي إلى العشيرة التي خرج منها الملك . أما « عسكر » العرب أو « المعسكر » فقد كان له إلى جانب تنظيمه القبلي أيضاً مجلس فوق القبلي يجتمع فيه كل المحاربين . وقد وجد ضرب من الشورى البدائية ، كانت أمراً عادياً في مستوى التطور الاجتماعي لمجتمعهم ذاك . ويقدم صورة حيّة لهذه الديمقراطية قصة حفظ لنا تفاصيلها شمعون الأرشمي الذي قدم في آخر يناير من عام

(٤٤) C. Brockelmann, Lexicon syriacum. Halis Saxonum, 1928, p. 185.

(٤٥) Joannes Ephesinus, Historia ecclesiastica, VI. 4, p. 286.

(٤٦) The chronicle of Joshua the Stylite No 51, ed. Wright. Cambridge, 1882, p.47 (الترجمة الروسية ، ٥١) N.Pigulevskia; Mesopotamiā na rubeje V i VI vv. Siriiskia khronika Ieshu Stilita kak istoricheskii istochnik, M.-L., 1940. str. 150

٥٢٤ (٨٣٥ من التقويم السلوقي) إلى معسكر المنذر الذي كان يقع على عشر مراحل من الحيرة . وكان « المنذر ملك الحيرة » اللخمي قد تسلم آنذاك « كتاباً يفيض بالتيه والخيلاء من ملك حمير مسروق ذي نواس . فجمع [المنذر]جنده وقرأ عليهم الكتاب ، ثم حكى السفير [سفير ملك حمير] كيف قتلوا النصارى وكيف تم اضطهادهم على يد الحميريين » . فدعا المنذر الغاضب « جميع الأعيان من نصارى دولته » وقال لهم : « لقد سمعتم بما حدث ، فما عليكم الآن سوى رفض المسيح ، فأنا لست خيراً من الملوك الذين اضطهدوا النصارى»[٤٧]*. ولكن أحد أعيان دولته ردّ عليه بحدة قائلاً : «لا يليق بك أيها الملك أن تتفوه بمثل هذا الكلام ؛ ونحن لم نصبح نصارى في أيامك أنت » . عند ذلك ثارت ثائرة الملك فصاح فيه : « أتجرؤ على الكلام أمامي ؟ » . وكانت المبادىء الديمقراطية عميقة الجذور في جيش العرب ، لذا فقد رد عليه ذلك الرجل من الأعيان بدوره قائلاً : « إنني لا أخشى في الحق لومة لائم ، وما دام سيفي ليس بأقصر من سيوف الآخرين فإنني لن أخاف القتال حتى الموت » . وعند ذلك لم يجد ملك اللخميين ضرورة لاتخاذ اجراءات ضده « بسبب عشيرته » ، ولأنه كان أيضاً « من ذوي الحسب المعروفين وعُهد فيه الشجاعة في القتال »[٤٨] .

من هذا يبدو جلياً أن متن الكتاب قرىء أمام المعسكر ، أي الجمعية العامة . وقد عرض المنذر على « الأعيان من نصارى دولته » أن يطّرحوا النصرانية ، مما يشير إلى وجود تقسيمات اجتماعية داخل ذلك المجتمع . غير أن ديمقراطية النظام انعكست في حقيقة أن أحد الأعيان العرب لم يخش التعبير عن رأيه ؛ ذلك أن الملك لم يكن سوى «الأول من بين متساويين » ولذا كان بالإمكان معارضته . وفوق هذا فإن المتحدث لم يخش أن يقود الأمر إلى صدام مسلّح لأنه « عهد فيه الشجاعة في القتال » . كذلك يبدو واضحاً أن / العصبية القديمة كانت لا تزال عميقة الجذور لذا فإن المنذر لم ير حاجة إلى اتخاذ اجراءات مع المتكلم « بسبب عشيرته » ، فقد تخوّف من أن تؤيد تلك العشيرة أحد أفرادها . ومن هذا يتضح أن الروابط العشائرية والقبلية لم تنفصم بدولة اللخميين .وحقيقة الأمر أنه وجد بناء ديمقراطي فوق القبلي ، ولكن أعيان العشائر احتفظوا بمكانتهم ونفوذهم اللذين كان على الملك أن يعمل حساباً لهما .

والأحلاف القبلية التي اتخذت صور اتحادات لدول العرب الشماليين في القرنين الخامس والسادس كانت متنوعة في أنماطها الاجتماعية ، وتمتعت فيها بالقوة والنفوذ العناصر القبلية والروابط العشائرية . « فالجماعة المكوّنة من الأسر جرى تنظيمها منذ الأزمنة الأولى تنظيماً عسكريا أصبحت معه منظّمة حربية

(٤٧) Chronicon anonymum pseudo - Dionysianum, ed. I.B. Chabot. t. II. CSCO. Scriptores syri. series tertia. t. II. Parisiis. 1933, pp. 62 - 63.

* لعل المتن المفصل يقدم فكرة أوضح : « انظروا هاإن المسيح قد طرد من الحميريين والفرس والروم ، أما أنتم فلا ترضون أن تتخلوا عنه . وانا لست خيرا من ملوك الفرس والروم الذين طردوا المسيحيين ونفوهم ، ولا من ملك الحميريين الذي فتك بهم وأفناهم في بلده » (أنظر ص ١٤ من « الشهداء الحميريون من العرب في الوثائق السريانية » لاغناطيوس يعقوب الثالث بطريرك انطاكية وسائر المشرق، ١٩٦٦) - المترجم .

(٤٨) N. Pigulevskia. Vizantia na putiakh vIndiu. str. 295—297 (مفصل) .

وعسكرية » . وهو أمر لم يكن في الوسع تجنبه « لأن الحرب كانت المهمة الجماعية الأولى بل والنشاط الجماعي الأكبر الذي احتيج إليه للحصول على مقتنيات إيجابية للمعيشة أو لأجل الحفاظ عليها وإبقائها » . ويصدق هذا أيضاً على الحضر وعلى الجماعات الزراعية ، وإن كانت هذه الأوضاع قد اكتسبت « أشكالا متعددة تحكّمت فيها عوامل الزمان والمكان وما شابه ذلك » .

والتنظيم العسكري للعرب الذي كان تعبيراً لأهم حرفة في حياتهم قد أخضع لكيانه جميع الجوانب الاقتصادية. وكانت تربيةالماشية هي الأساس الذي قامت عليه حياة العرب شبه الرحّل وتنظيمهم العسكري أيضاً ، فقد كفلت لهم الغذاء الضروري كما كفلت لهم وسائل الحركة في حروبهم أي للنقل والانتقال على السواء . لهذا فإن الرعاة والقائمين بأمر الخيل والحرّاس وسائقي العجلات كانوا جميعاً يشكلون شطراً من السكان له نشاطاته الاقتصادية . وقد ساق استقرار جزء من هذه القبائل إلى تطوير العمل في الزراعة ، مما أعان على توفير بعض الاحتياجات الجديدة المتزايدة والتي تطلبتها حياة الاستقرار . وفي ظروف حياة الرحّل المستقلة عرف العربي كيف يحصل على كل ما هو ضروري له ولقطعانه ، غير أنه منذ اللحظة التي تحوّلت فيها القبائل أو اتحاداتها إلى جيش حليف لدولة كبرى ودخلوا في « خدمتها » فقد ظهرت حاجتهم دوماً للحصول على المواد الغذائية والعلف بغرض سد احتياجات الجيش ، وتمثل هذا في تسلمهم « الأرزاق السنوية » anno-nae militaris . وفي نظير الخدمة العسكرية فقد تسلمت دولة الغساسنة من بيزنطة مكافآت في صور منح عينية أو نقدية .

وكانت وسيلة الثراء بين العرب ، خاصة بالنسبة لزعمائهم ، هي الغنائم بجميع أنواعها كالأسلحة والمعادن والذهب والفضة ، أو المواشي . وكان هذا يتمثل في نهب القطعان الصغيرة أي الغنم أو قطعان الخيل والإبل ، مما يرد ذكره على الدوام في المصادر وحدث أن تعرضنا له في الفصول السابقة من الكتاب . كذلك احتل مكانة هامة في هذا الصدد سبي الناس . وقد جرت العادة / ببيع الأسرى كرقيق ، ولم يحتفظ العرب في أيديهم إلاّ بعدد ضئيل منهم للقيام بشتى الأعمال . ذلك أن أسرى الحرب كانوا سلعة مربحة في التجارة ، بل لعلها كانت أربح السلع على الإطلاق . 244

وتقدم مادة المصادر ، وكذلك المصطلحات الداخلة في الاستعمال ، فكرة واضحة بما فيه الكفاية عن بنيان الدول العربيةالتي تشكلت في القرنين الخامس والسادس على حدود ايران وبيزنطة . وهي لوحة لمجتمع طبقي أخذ يبتعد عن تركيبه القبلي . ولعل خيرما توصف به الاتحادات الحكومية للعرب هو أنها كانت أحلافاً قبلية تشكلت في داخلها مجتمعات احتفظت إلى حد كبير بالتقاليد القبلية .

وكان اقتصاد العرب يقوم على الرعي . وقد احتاجت القطعان سواء في ظروف حياة البدو الرحّل أوأشباه

الرحّل إلى الانتقال من موضع لآخر وراء الماء والكلأ ، ولهذا كان من الضروري لهم أن يصحبوا قطعانهم . هذا وقد وجدت مساحات كبيرة من الأرض تحت تصرف اللخميين والغساسنة كانوا يترحلون فيها بينها وتتنقل قطعانهم بها خلال أشهر معيّنة من السنة ؛ ولما قام المنذر الغساني بغارته على « ديار اللخميين » « توجّه وضرب فسطاطه بأرض قابوس الواقعة على مسيرة ثلاث مراحل والتي وجد بها جميع ممتلكات عرب الفرس وقطعانهم »(٤٩) . ولم يكن بمقدور أية قبيلة أن ترعى داخل هذه الأرض إلّا بإذن من الملك لأنها كانت ملكاً لعشيرته وحمى ، وكان على القبيلة التي ترغب في الرعي بها أن تدفع إتاوة معينة . وفي أزمنة سابقة كانت بعض القبائل تدفع الإتاوة لقبائل أخرى نظير حمايتها لها وتدين لها بالولاء بصرف النظر عن الأرض التي تترحّل فيها . وفي النزاع الذي شبّ بين الحارث والمنذر بسبب طريق التجارة الذي يصل بين دمشق وقرقيسيا أكّد ملك الحيرة أن القبائل التي كانت تتنقّل في المراعي الملاصقة للاسطراط كانت تدفع الإتاوة للخميين منذ عهد قديم ، وأضاف بأنه ليس على استعداد للتنازل عن هذا الحق(٥٠) . وفي الوقت ذاته فإنه لم يجادل في حقيقة تبعية ذلك الطريق للرومان منذ أقدم العصور ، وهو الأمر الذي أصرّ عليه الحارث . من كل هذا يتضح أن القبائل كانت تدفع الإتاوة دون النظر إلى الأرض التي تترحّل فيها .

وقد نوّهنا فيما مر إلى أن بعض الباحثين ربط ميل العرب الخاص إلى القتال بارتدادهم إلى حالة « التبدي التام » . وواقع الأمر أن نموّ المقدرة القتالية للقبائل العربية في الفترة من الزمان التالية للقرن الثالث ، وهو قرن انهيار الدويلات العربية المتأثرة بالحضارة الهيلينية كالبطراوتدمر ، ظاهرة لا سبيل إلى انكارها وإن كان من غير الصواب إرجاع ذلك بأية حال إلى « التبدّي » الذي لم يحدث إطلاقاً .

وقد أدى انهيار الروابط الاقتصادية القديمة إلى فقدان التوازن ، مما نتج عنه انبثاق عدد من الظواهر الجديدة . فالدول العربية التي تشكلت عند حدود الدول الكبرى كانت مجتمعات « بربرية » فتيّة / ، ونمت 245 كوحدات قبلية اعتمدت على الحروب . « وكانت الحرب في الماضي تشب للأخذ بالثأر أو من أجل الأرض التي لم تعد تكفي القبيلة . أما الآن فقد أصبحت تشب طلباً للغنائم وغدت حرفة من الحرف أسوة بغيرها(٥١) » . وهكذا أصبحت الحرب ظاهرة عادية في تطور هذا المجتمع الجديد الذي تميّز عن غيره في استعداده للقتال . ولم يكن سبب هذا هو « التبدّي » بل انتقال المجتمعات البربرية من أنظمتها العشائرية والقبلية إلى أنظمة حكومية ، أي إلى دول ساد فيها نظام فوق القبلي . وبالنظر إلى أن الحرب قد أصبحت « حرفة مستديمة » لهم ومصدراً للثراء ، فقد نالت أدوات القتال والفناء كالأسلحة والمعدات واستعمال الحيوان في الحرب أهمية

(٤٩) Procopius. De bello persico. II, 1. p. 150.
(٥٠) Joannes Ephesinus. Historia ecclesiastica. VI, 3, p. 280 (212).
(٥١) فيما يتعلق بتنظيم الغارات والغزو لدى الشعوب الرحل وبخاصة العرب يمكن الرجوع الى الدراسات الاثنوغرافية (J.Henninger. Das Eigentumsrecht bei den heutigen Beduinen Arabiens. pp. 38—40)

قصوى . وهذا يفسّر لنا ما حازه جيش العرب الذي كان قوامه الفرسان من اكتمال في صلاحيته للقتال ، وانعكس هذا بوضوح في أسلحته ومعداته القتالية كما انعكس أيضاً في إجادته لأساليب الهجوم والدفاع .

وحتى في حالة الاستقرار الدائم فإن الغارات وأعمال الغزو كانت من الظواهر العادية في حياة العرب ، إلّا أن مجتمعهم البدائي هذا لم يلبث أن عدّل من طابعه « العسكري الديمقراطي » وأخذت ظاهرة التنوّع الطبقي فيه تجتذب الانتباه . وكل من بيزنطة وايران اللتان استخدمتا العرب كحلفاء لهما ، قد وجهتا بهم بصورة رئيسية نحو العمليات العسكرية التي تتطلب المباغتة وخفة الحركة . أما حصار القلاع وأسوار المدن فقد كان بالنسبة للعرب في تلك الأزمنة أمراً لا طاقة لهم به . ولقد كانت القرى والحقول والقطعان والقوافل التجارية منذ عهود موغلة في القدم في خطر دائم من جرّاء غارات العرب التي كانت بالنسبة لهؤلاء الأخيرين وسيلة من وسائل الثراء البدائي . وقد اعتمد على الغنائم بصورة خاصة أعيان العشائر وزعماؤها ، بينما كان المقاتلة أكثر من غيرهم عرضة للمخاطر في حين كان نصيبهم الأقل عند اقتسام الغنائم . وأما الغساسنة واللخميون الذين انخرطوا في خدمة الدولتين الكبريتين فقد كانوا يقومون بمهمة حراسة الحدود من غارات القبائل العربية الأخرى ، فضلاً عن أنهم أخذوا بطرف في الحروب التي نشبت بين بيزنطة وايران .

ويتحدث مؤلف الحوليات السريانية لبداية القرن السادس عشر عن « عرب الفرس الذين لم يعرفوا الهدوء ولم يذوقوا طعم الراحة » ، فيقول إنه « لما بلغ مسامعهم أن الحرب على وشك الاندلاع مع الروم تجمّعوا وهرعوا إلى قباد »[٥٢] . وكان ما يتم الاستيلاء عليه من الغنائم يقسّم بينهم ، ولم يكن من حق أول من يضع يده عليه . ولم يختلف الأمر سواء كانت هذه الغنائم متاعاً أو ماشية أو محصولات زراعية أو أسرى تم سبيهم ، فقد كانت جميعها ثروة من شأنها التقسيم . ولما تخاصم الغساسنة/ مع بيزنطة أغاروا على ولايتي عرابية وسورية ، ثم « أوغلوا في جوف الصحراء حيث شدّدوا الحراسة » و« اقتسموا الغنائم » . وكان للملك والزعماء والأعيان نصيب الأسد من الغنائم ، بينما يأتي المقاتلة في المؤخرة . وكان العرب في العادة يبيعون أسرى الحرب ومن وقعوا في السبي في أسواق الرقيق بالدول المجاورة .

ومن الطريف أن نلاحظ أن العرب حتى في ظروف حياتهم الحرّة المستقلة كرحّل وشبه حضر قد حصلوا على القوت اللازم لهم ولقطعانهم من قيامهم بالتزامات نحو الدولتين الكبريتين . فالأرزاق العسكرية السنوية annonae militaris التي كانت تقدمها لهم بيزنطة تكوّنت من مدفوعات نقدية « كالذهب » أو من منح عينية كالحبوب والقمح والزيت والنبيذ والعلف لغذاء الحيوان . فلما نُقض هذا الاتفاق استاء العرب من تصرّف بيزنطة وأخذوا يهاجمون حدودها محتجين بأن الامبراطور « قطع الأرزاق السنوية عنّا » ، ولهذا « لم يبق لنا ما

(٥٢) Joshua The Stylite, No 24, P.19 (الترجمة الروسية ، ص ١٣٦)

نعيش عليه ، فاضطررنا إلى التصرف بهذه الصورة » . ذلك أن الظروف العادية لحياتهم قد انهارت فجأة فأخذوا يبحثون عمّا يقيم أودهم « ولكننا لم نقتل أو نحرق » ، يريدون بذلك أنهم لم يُحدثوا أضرارا بليغة(٥٣) . ولما عجز جيشهم وعجزت ماشيتهم من أن تواجه فجأة انعدام الغذاء والعلف فقد لجأوا إلى الطريقة البدائية لسد حاجتهم وهي الغارة والسلب . وهم وضعوا أيديهم قبل كل شيء على المحاصيل الزراعية ، يليها الذهب والفضة التي كانت قيّمة في حد ذاتها فضلاً عن استعمالها في التقايض . أما المعادن الأخرى فكانت ضرورية لصناعة الأسلحة والآنية . وجميع هذه المعطيات تقدم الدليل على مدى اعتماد العرب اقتصادياً على بيزنطة عندما دخلوا معها في التزامات عسكرية وانتظموا في خدمتها .

الأوضاع الاجتماعية بالجنوب العربي

إذا كان تطور اتحادات القبائل العربية في الشمال قد حدث في ظروف انعكس فيها بقوة أثر دول ذات مستوى رفيع في نظمها الاجتماعية ، فإن النظام الحكومي لعرب الجنوب ينال أهمية خاصة لأن تطوره سار في طريق مستقلة . ذلك أن بلاد اليمن لم تتعرض لمثل ذلك الأثر الطويل الأمد للحضارة اليونانية الرومانية ، خاصة وأن ذلك العالم لم يكن له نفوذ مباشر عليها رغماً من أن أزمة القرن الثالث التي حاقت بمجتمع البحر المتوسط القائم على الرق قد تردّد صداها في ظاهرة انهيار تجارة منطقة البحر الأحمر بأكملها . غير أن خواص البناء الاجتماعي لمنطقة الجنوب العربي تخضع للقوانين التاريخية نفسها التي عملت عملها في تشكيل أوضاع العالم الغربي والعالم الشرقي على السواء .

وطابع البناء الاجتماع لعرب ما قبل الاسلام باليمن يمكن استجلاؤه من الرقوم الكتابية القديمة لتلك البلاد . فدراسة الرقوم السبئية تقود إلى الاستنتاج بأن عدداً من مصطلحاتها يرتبط بمراحل مختلفة في تطور مجتمع هذه المنطقة . وبعض هذه المصطلحات عشائري وقبلي ، بينما يشير بعضها الآخر إلى اختلاف نوع المِلكْية ، وذلك في عدد من الحالات التي ترد في آن واحد برقوم بعينها . أما في حالات أخرى فان المصطلحات تعاون على التمييز بين السكان الحضر والرحّل الذين اختلف طابع تنظيمها الاجتماعي .

2

وقد اجتذب اهتمام الباحثين منذ وقت طويل ما يشير إلى وجود ضربين من الجند ، يحمل أحدهما في الرقوم تسمية ش ع ب بينما يحمل الآخر تسمية خ م س . فمثلاً يرد في الرقيم الدعائي (votive) CIH.315 الذي يرجع إلى العهد الوثني ذكر نوعين من المقاتلة (و ا خ م س هـ م و / و ا ش ع ب هـ م و) ـ هما خ م س و ش ع ب .(٥٤) . وقد فهم هارتمان M. Hartmann من هذا أن المقصود من خ م س هو الجيش الذي يدين بالطاعة للملك ويتمتع في الوقت ذاته بمؤازرة الملك ، هذا بينما يعني ش ع ب القبيلة أي المواطنين وعامة

(٥٣) Joannes Ephesinus. Historia ecclesiastica, III. 42, p. 224 (168-.
(٥٤) CIH 315. lin. 7. pp. 346 - 347.

الناس[٥٥] . كذلك يميل إلى فهم لفظ خ م س بمعنى الجيش ناشرو مجموعة النقوش [CIH] . ففي الرقيم CIH 155 يرد الكلام على « جيش ملك سبأ وجيش ملك حضرموت »[٥٦] خ م س / م ل ك / س ب ا / وخ م س / م ل ك / ح د ر م وت ، كما يرد في الرقيم CIH 334 « جيش سبأ وحمير » - وخ م س ي هـ و / س ب أ / وح م ي ر م [٥٧]. وثمة تفسير جديد لهذه الألفاظ يقدمه بيستون Beeston الذي لا يتفق مع رودوكناكيس Rhodokanakis في قوله إن ش ع ب هو «القبيلة» a tribe, Stamm وأن خ م س هو «وحدة تتكون من بضعة قبائل [٥٨] » . أما بيستون فيفهم من لفظ خمس « شطراً من السكان لا ينتمي إلى القبيلة ، ويتعارض مع الجماعة القبلية ش ع ب من جهة ومع البدو الرحّل ء ع ر ب من جهة أخرى » . وفي هذا المفهوم للمصطلح يضحى متن الرقيم أكثر جلاءً في رأيه[٥٩] . وأما البروفسور ماريا هفنر M.Höfner فتفترض أن ا خ م س (وهي صيغة الجمع للمفرد خ م س)* إنما يقصد بها « القوات الشعبية »:(Heervölkern) التي ظهرت في رقوم ملوك سبأ وذي ريدان جنباً إلى جنب مع « القبائل » ، لأنه جرى آنذاك حسب رأيها إعادة تنظيم الجيش وإزالة الفوارق مما أدى إلى حدوث تقارب كبير بين أقسامه المختلفة وإلى اجتذاب البدو الرحّل للعمل فيه[٦٠] .

ويتمتع بأهمية كبيرة رقيم من القرن السادس نصبه ملك سبأ سميفع أشوع وحفيده سميفع أشوع بن شرحبيل يكمل ، اللذان كانا يدينان بالتبعية « لنجاشي اكسوم » . /وجاء فيه : « جيش الملك والقيل » 248 خ م س ه م و/م ل ك ي م/و ق ي ل ي م - الذي يجب أن يفهم منه أن المراد هو « الجيش التابع للملك والجيش التابع للقيل » . والجيش ها هنا خ م س ، أي القسم منه المكوّن لا من مجموعة القبائل ش ع ب بل من البدو الذين ينتمون إلى التنظيمات القبلية رحّلاً كانوا أم شبه رحّل . ومن الجوهري لحل المسائل الأخرى شهادة هذا الرقيم بوجود نوعين من الحكم يقوم على رأس أحدهما الملك وعلى رأس الآخر القيل ، وأيضاً بوجود جيشين يتبع أحدهما لهذا والآخر لذاك[٦١] .

كذلك أُفرد الكثير من الاهتمام في الدراسات القريبة العهد لموضوع العلاقة بين السكان الحضر والرحّل ، والتي تتمثل في المقابلة بين اللفظين ش ع ب و ع ر ب في الرقيم . فالبروفسور ماريا هفنر لاحظت أنه عندما طمحت مملكة سبأ في القرن الأول قبل الميلاد إلى إخضاع حمير ، كان شطر من جيش هؤلاء الأخيرين

(٥٥) M.Hartmann, Die Arabische Frage. leipzig, 1909, pp. 448—449, ش ع ب -" Stamm, auch Burger, Volksleute im Gegensatze zu Krieger", خ م س "Krieger von Beruf"

(٥٦) CIH 155, lin. 3, t. I, pp. 218 - 219.

(٥٧) CIH 334, lin. 38, t. I, pp. 377 - 378, 381.

(٥٨) A.F.L. Beeston, Notes on Old South Arabian Lexicography. Le Muséon , 1952, v. 65, f. 1-2, p. 140 - 141.

(٥٩) شرحه ، ص ١٤١ - خ م س : " nontribal element of the population as opposed to the tribal element designed as ش ع ب ... and to the purely beduin ع ر ب."

* هو اللفظ نفسه الذي دخل العربية الفصحى ؛ ويرد في معاجم العربية أن « الخميس » هو الجيش والجيش الجرار - المترجم .

(٦٠) M. Höfner, Die Beduinen...., p. 62.

(٦١) G. Ryckmans, Une inscription chrétienne sabéene aux Musées d'Antiquités d'Istambul. Le Muséon,1946, v. 59, pp. 165 - 172.

يتكوّن من البدو الرحّل . ويرد في رقيم من القرن الثالث ذكر « بدو مأرب » جنباً إلى جنب مع « قبيلة سبأ » حيث نبصر لفظ ع ر ب في مواجهة لفظ ش ع ب (CIH 353)، فيشكل الإثنان معاً إن لم يكن جيشاً واحداً فعلى أية حال جيشاً متحالفاً[٦٢] . من هذا يتضح أن « قبيلة سبأ » قاتلت إلى جانب « بدو مأرب » حيث يرد اسم مأرب كمركز مدني وكموضع رئيسي لقبيلة سبأ[٦٣] .

وواقع الأمر أن هذه المقابلة بين المصطلحين مذكورة حتى في أقدم الرقوم ، مثال ذلك الرقيم المتعلق بالفترة الوثنية التي عُبد فيها الإله إلمقهُ . ففيه يعرب ايلرم عن امتنانه للعون الذي لقيه في الحملة التي خرج فيها « ومعه قبيلة سبأ والأعراب » - ب ع م / ش ع ب ن / س ب أ / و ع ر ب ن /[٦٤] . وفي الرقوم المذكورة أعلاه ، وأيضاً في الرقيم الذي نتحدث عنه الآن ، نرى أن يترجم لفظ ش ع ب بلفظ « الجماعة » ؛ مما سندلل عليه فيما يلي . ومن ثم فإن ترجمة الألفاظ هو : « بجماعات سبأ والأعراب » (الذين لم يدخلوا في تكوين الجماعة) وبهذا فقد ظهر لفظ ع ر ب في رقوم عهد « ملوك سبأ وذي ريدان » في الوقت نفسه الذي تم فيه إعادة تنظيم جيش سبأ ودخل البدو ا ع ر ب في تكوينه كوحدات مساعدة[٦٥] . وفي الرقوم الأقدم من هذه يطلق على القسم من القبيلة الذي اضطلع بالخدمة العسكرية لفظ ق س د ، ويظهر إلى جانبه على قدم المساواة لفظ ا خ م س الذي وإن اضطلع بالخدمة العسكرية إلاّ أنه لا ينتمي إلى القبائل[٦٦] . كذلك يرد في الرقوم ذكر الوحدات العسكرية من الرحّل وشبه الرحّل التي لم تدخل في تكوين القبائل . هذا وكان البدو يمثلون الرحّل الخلّص ، أما ا خ م س فهي وحدات من العرب شبه الرحّل وفقاً لرأي الباحثين الذين مر ذكرهم .

249

ويمثل أهمية خاصة لفظ ش ع ب الذي يلزم فحص معناه وتحديده تحديداً جيداً . فهذا التنظيم المعقّد يتفق حسب رأينا مع مفهوم « الجماعة » ، وبهذا سنترجم ذلك اللفظ الوارد بالرقوم . ويرى هارتمان أن لفظ ش ع ب كان في البداية تنظيماً دينياً ، أي جماعة ارتبط نشاطها بعبادة إله ما وبمعبد هذا الإله . وقد طوّرت البروفسور ماريا هفنر فكرة مؤلف « المسألة العربية » (Die Arabische Frage) [وهو هارتمان M.Hartmann] فأكدت في كثير من الصحة أن مفهوم ش ع ب « ببلاد العرب الجنوبية يختلف اختلافاً أساسياً عن مفهوم البدو » . ومن المتفق عليه أن القبيلة Der Stamm, The tribe إنما هي مجموعة كبيرة من الناس تنحدر من صلب جد واحد وتعتبر « أسرة واحدة كبيرة » ؛ أما مفهوم ش ع ب « فلا علاقة له البتة بصلة الرحم » . وهذا الرأي لا يمكن قبوله إلاّ إذا تم الاتفاق على أنه في تكوين ش ع ب لم تدخل القبيلة التي ربط بين أفرادها صلة الرحم فحسب ، بل وقبائل أخرى ربط بينها إلى جانب صلة الرحم أيضا الجوار والمصالح المشتركة . وكان على رأس

(٦٢) CIH. t. I, pp. 433. 353, nota 10.
(٦٣) M. Höfner. Die Beduinen....., p. 61.
(٦٤) CIH, t. II, No. 397. 7. 8, p. 59.
(٦٥) M. Höfner. Die Beduinen...., p. 61 - 26.
(٦٦) A.F.L. Beeston. Notes on Old South - Arabian Lexicography, pp. 140 - 141: M. Höfner. Die Beduinen....., p. 62.

كل قبيلة «رب الأسرة» [أي شيخها] ، أما اتحاد القبائل فكان يضم آباء الأسر المختلفة . وفيما بعد ظهرت الوحدة العليا في صورة « حكومة للطغاة سيطرت على الجماعات الصغيرة » . وأما الجماعة التي قامت على أساس المصالح المشتركة ، وعلى أساس تقسيم العمل بين مجموعات السكان داخل قبائلها المختلفة ، أقول إن هذه الجماعة لم تكوّن بطبيعة الحال تنظيماً يستند إلى علاقة الرحم وحده وإن وجب الاعتراف بأن خلاياه الأولى دخلت في إطار هذا التنظيم الأكثر شمولاً والذي نرى أن يحمل اسم الجماعة . وقد دللّنا منذ عام ١٩٥٢ على أنه حتى وإن اتخذ لفظ ش ع ب في الترجمة معنى « القبيلة » إلا أنه اعتماداً على المصادر المختلفة يجب أن يفهم ويفسّر بصورة مخالفة لأنه اكتسب « قسمات جديدة تقرّبه من الفكرة المتصلة بالجماعة »(٦٧) . وعند مرحلة معينة من التطور ظهر النظام الجماعي للسكان الحضر في جنوبي الجزيرة ، مستنداً في أساسه على وحدة التراب وعلى الانتاج المشترك بين الجماعة كالزراعة وتربية الماشية والحرف . وقد استدعت الملكية المشتركة للأرض عملاً مشتركاً وكانت الأساس لوحدة الجماعة . ومن الطبيعي أن مفهوم ش ع ب بالجنوب العربي لم يقصد به قبيلة بدائية بل الجماعة التي تنتمي إلى قبائل مختلفة ، أي ذلك النظام الذي روعي فيه البناء الطبقي التملكي حيث وجدت / طبقة الأعيان القبلية كما وجدت المهن المختلفة للمجموعات المتعددة في المجتمع ، ووجد أيضاً 250 نظام لتقسيم العمل بينها . ويمكننا من متن الرقيم Ry 508 أن نخرج باستقراء مفاده أنه في إطار ش ع ب كانت الجماعة تضم فقط العناصر الحضرية المستقرة من ذي همدان ا ش ع ب ن ذ هـ م د ن ، أي أهل المدن ، أما العناصر الرحّل من ذي همدان فقد حملوا اسم البدو ا ع ر ب ن ؛ ووجد إلى جانبهم « بدو كندة ومراد ومذحج »(٦٨) .

وقد ساق الاختلاف في المهن إلى الاختلاف الاجتماعي داخل القبيلة ، ثم ساق فيما بعد إلى الاختلاف داخل الجماعة . لذا فإن ذلك المجتمع لم يعرف المساواة ، « فالنبلاء » أو « الأعيان » كانت لهم ممتلكاتهم وكانوا يشغلون المكانة الرئيسية في المجتمع ، كما أنهم وجدوا المؤازرة أيضاً من عشائرهم القوية . وفي الجماعة جرى التمييز أيضاً بين « النبلاء » و « الأحرار » ول د ش ع ب هـ م و(٦٩) . وحتى في الأزمنة البعيدة التي غلب فيها الكبار (كبيرات) ، أعني سلطة زعماء القبائل المتمثلة في المجالات الاقتصادية فإن جميع وسائل الانتاج بما في ذلك الري الصناعي كانت في واقع الأمر في يد هذه الطبقة . أما وظيفة القائد العسكري فكان يشغلها لا الكبير بل الملك (الدوكس dux ، والركس rex ، والباسيليوس basileus) ، وكانت تتمثل في المكانة الأولى في مهام عسكرية . وقد حمل اسم ش ع ب في الجنوب العربي الجماعة القبلية ، وهو تنظيم قبلي متطور فعلت فيه فعلها الاختلافات في الملكية والأوضاع الاجتماعية ، ووجد فيه إلى جانب القبائل التي لم تتمتع بمكانة بارزة

---

(٦٧) N. Pigulevskia, Vizantia na putiakh v Indiu, str. 350.

(٦٨) G. Ryckmans, Inscriptions sud-arabes, 10me séries, Ry 508. Le Muséon, 1953, v. 66, p. 297; M. Höfner, Die Beduinen...., p. 64.

(٦٩) G. Ryckmans, Inscriptions sud-arabes. Le Muséon, 1932, v. 45, pp. 290, 294 - 295.

طبقة قيادية من الأعيان القبليين أخذت تلعب دوراً متزايداً في الوضع الاقتصادي وفي الحكم وفي القيادة العسكرية للجماعة .

والقبائل الرحّل وشبه الرحّل التي كانت تدور في فلك مأرب لم تبلغ بطبيعة الحال مستوى التطور الاجتماعي الذي بلغته الجماعة بدولة سبأ . أما العمل الشاق الذي استدعاه ترميم سد مأرب عام ٥٤٣ على عهد ابرهة فقد أخذت فيه بطرف « الجماعات » ا ش ع ب ن ، لا البدو ا ع ر ب[٧٠] . لذا فإن هذه المجموعات الأخيرة وردت أسماؤها منفصلة في الرقوم بوصفها تعيش حياة أكثر بدائية في إطار عشائري قبلي ولم تدخل في تكوين « الجماعة » التي أطلق عليها لفظ خاص هو ش ع ب ؛ ومن ثم فقد عرفوا باسم أوسع انتشاراً هو ا ع ر ب ، أي البدو . وكان تنظيمهم القبلي أبسط وأكثر بدائية ؛ وهو معروف لنا من وصف المؤلفين الأوائل ، ومن المصادر اليونانية والسريانية التي حفظت لنا معلومات عن الرحّل من قبائل العرب الشمالية . والمقابلة بين خ م س و ش ع ب في الرقوم الأقدم تاريخاً ، وبين ا ع ر ب و ش ع ب في الآثار الحميرية ، إنما يستند على الاختلاف في مستوى التطور الاجتماعي الذي من شأنه أن ينعكس بوضوح عند مقارنة البناء القبلي البدائي بالتنظيم الجماعي المعقّد الذي يسوده النظام الطبقي .

ويوجد بالرقوم العربية الجنوبية معلومات بشأن القبائل العربية التي دانت بالطاعة لبيت نابه . فقد تسلمت هذه القبائل قطعاً من الأرض نقلتها إلى نمط الحياة الحضرية فاشتغلت / هذه الأرض، وفي الوقت ذاته اعترفت بالطاعة للبيت الحاكم . وهكذا فسّر البروفسورغ . ريكمانس لفظ و ت ف الوارد في الرقوم التي كشف عنها أحمد فخري بمأرب ، على أنه يعني «الطاعة» و« الاستسلام » ، أي خضوع قبيلة لقبيلة أخرى حاكمة[٧١] . ولم تضم ش ع ب الرحّل وشبه الرحّل الذين كانوا يدورون في فلكها ، ذلك أنهم لم يكونوا متحدين معها في نظام اجتماعي . غير أن الطرفين شاركا معاً في الحملات العسكرية ، وهو الأمر الذي تتحدث به الرقوم ، واحتفظا خلال ذلك بنظامهما العسكري الذي يستند على القاعدة القبلية وعلى التقسيم إلى قبائل يرأسها قادتها العشائريون أو القبليون . ونصورلنا هذا بوضوح الرقوم السبئية في حديثها عن الكتائب الداخلة في تكوين الجيوش الخارجة في الحملات العسكرية .

251

من هذا يتضح أن ش ع ب الواردة في الرقوم العربية الجنوبية إنما يقصد بها الجماعة القومية التي تجاوز مستوى تطورها المرحلة القبلية ليصبح شيئاً أشبه بصلة الجوار . ويمكن أن يلاخظ فيها التقسيم الطبقي ، حيث وجدت طبقة من الأعيان ليست على قدم سواء مع بقية طوائف ذلك المجتمع .

---

(٧٠) CIH 541, t. II, p. 281.

(٧١) A. Fakhry, An Archaeological Journey to Yemen (1947), part II. Epigraphical texts by G. Ryckmans, Cairo, 1952, Fakhry 3, lin. 6, p. 4, 7 (wtfn- "acte de cession, de concession")-

المخيم والمدينة

وجد بجزيرة العرب وفي المناطق شبه الصحراوية بسورية ، وأيضاً في المناطق المتاخمة لأرض الجزيرة السفلى قبائل تفاوتت من حيث درجة تحضّرها ، ولكن كان لبعضها دون شك مراكز مدنية نزلت حولها في القرنين الخامس والسادس حيث اجتذبتها الأرباح التجارية فشاركت مشاركة نشطة في التبادل التجاري وذلك لوجود وسائل النقل تحت تصرفها . ولقد أخذ العرب طرفاً في تجارة القوافل ونقل السلع وحراستها ، وساقتهم الطرق إلى مدن لم تلبث أن نمت لهم معها روابط قوية . على أن هذه المدن لم تكن مدناً عربية بحتة بل كانت مدناً أجنبية لم يربط العرب بها سوى العلاقات التجارية على ما يبدو . لذلك فإن شطراً فقط من السكان العرب المحليين أهل الطبقة العليا كانت لديهم إمكانية التفاعل مع هذه المجتمعات .

وعلى نقيض هذا كانت المخيمات ، وهي المواضع الثابتة لنزول العرب . بل إنه حتى بين الرحّل كان المخيم يضرب بموضع ثابت تمثله في العادة نقطة جغرافية محددة . وقد انتعشت حول مخيّم العرب شبه الرحّل حياة اقتصادية ذات طابع حضري ، اعتمدت على التقاط الثمار وجمع المحاصيل الزراعية ورعي الغنم . ولم يلبث مخيم الرحّل أن اكتسب جميع صفات القرية وثبتت جذوره . ولا يخلو من أهمية في هذا الشأن قصص كرلس الاسكيثوبولي بصدد المخيمات « پريمبولي » parembolei التي نصبها العرب في مناطق فلسطين وفينيقية .

252 وحيرتا النعمان المشهورة ، والمقصود بذلك الحيرة عاصمة دولة اللخميين ، لم تكن في بداية أمرها بطبيعة الحال سوى «حيرة» أو «حيرتا» أي المخيم أو المعسكر بالمعنى الحرفي للفظ في مفهومه العام . ونلتقي في لغة الجنوب العربي بلفظ ح ى ر ت بمعنى المخيم(encampement) ؛ كذلك توجد صيغة ت ح ى ر المشتقة من الفعل ح ى ر ، ح ر ت بالأحرف غير المتحركة (scripta defectiva)[٧٢]. وهو في هذا المعنى يتفق مع المعنى السرياني والعربي للفظ « حيرتا » بمعنى المخيّم ؛ وهو أمر لم يفطن له الباحثون إلى وقتنا هذا . ولم يكن اعتباطاً أن أخذ ينضم إلى لفظ « مخيم » اسم الملك الذي نزلت أسرته بذلك المخيم ، فأصبحت الحيرة تعرف باسم « حيرة النعمان » ثم تحول اللفظ من معناه العام ليصبح علماً على موضع بعينه[٧٣] . وكان يتحاشى ضم لفظ « مدينة » إلى « الحيرة » ؛ ولم يظهر هذا إلاّ في أزمنة متأخرة . وهكذا قُرن ذلك المخيم باسم الملك أو تم ربطه بالتقاليد العشائرية والأسرية فأصبح يعرف باسم الأسرة أو بيت النعمان . وحتى بعد أن قامت الحيرة وأصبحت موضعاً لإقامة دائمة فإن العرب كانوا يغادرونها بسهولة وكأنما يطوون خيامهم ، وإن وجد بها بطبيعة

---

(٧٢) A.F.L. Beeston, Notes on Old South Arabian Lexicography, VI. Le Muséon, 1954, v. 67, pp. 311 - 312.

(٧٣) Joannes Ephesinus, Historia ecclesiastica, VI. 4, p. 286 (217).

الحال مبان ذات طابع مستديم بل وحتى قصور وبيع .

ويقول أحد مدوني الحوليات لبداية القرن السادس : « وقد أغار عرب الروم المسمَّوْن بني ثعلبة على حيرة النعمان فوجدوا بها قافلة معدّة للذهاب إليه [أي إلى النعمان] وإبلاً محملة بالميرة من أجله فانقضوا عليها وقتلوا كل من بها ووضعوا يدهم على الإبل . ولم يبقوا بالحيرة لأنها كانت قد ابتعدت في جوف الصحراء »(٧٤) . ومن هذا يتضح أن الجيش كان قد غادر الحيرة ولذا تمكن بنو ثعلبة من سوق القافلة والإبل التي أعدت لتموين جيش النعمان ؛ ويرجع هذا الحادث إلى عام ٥٠٣ . وإلى العشرة الأخيرة من ذلك القرن نفسه ترجع الأخبار بصدد حيرة الغساسنة التي كانت تقع على نشز من الأرض في وسط وادي الجولان بسورية الشمالية ، وإن كان تأسيسها يرتفع إلى عهد أبعد من ذلك . وكانت تحمل اسم « حيرة بيت الحارث برجبلة » ؛ وكان ينزل بها المنذر بر حارث ملك عرب الروم(٧٥) . هذا الموضع الذي كان قرية في الماضي أصبح مدينة لها أسوارها المحيطة بها(٧٦) . / ويرى نولدكه أن « حيرة الغساسنة » كانت عند قرية تقع على مقربة من شمانية بدمشق ، هذا بينما يفترض ديسو أن القرية هي قرية حارث الجولان* التي تقع على الطريق الذي يصل وادي اليرموك بالجابية .

25

وبالرغم من بلوغهم درجة معيّنة من الاستقرار فقد احتفظ العرب بخفتهم وبسرعة التحرك والانتقال ، فكانوا يغيّرون فجأة موضع إقامتهم . وعقب غاراتهم على ولايات عرابية وسورية « توغل العرب الغساسنة في جوف الصحراء وضربوا مخيماً كبيراً بها واقتسموا الغنائم »(٧٧) . وكان المنذر بر حارث يخشى أنه لو غادر مخيمه المناسب هذا (حيرة) بجنده كما طلب منه الامبراطور فسينقضّ عليه « عرب الفرس » ويسبون الذرارى « ويستولون على جميع مالى »(٧٨) . وحتى لو وجدت لديهم مدينة يعتبرونها مركزاً وعاصمة لهم ، فقد ظل

* هي تلك نفسها الواردة في أشعار حسّان بن ثابت ، لاسيما قصيدته المشهورة التي يتحسّر فيها على الغساسنة ويذكر منازلهم بالشام :

لمن الدار أوحشت بمعان بين أعلى اليرموك فالخمّان
فالقريات من بلاس فدار يّا فسكّا فالقصور الدواني
فقفا جسم فأودية الصُّفّر مغنى قبائل وهجان
تلك دار العزيز بعد أنيس وحلول عظيمة الأركان
هبلت أمهم وقد هبلتهم يوم حلّوا بحارث الجولان

كما وردت أيضا في بيت آخر له (أو للنابغة) :

بكى حارث الجولان من هُلك ربه فحوران منه خاشع متضائل

ويقول في بيت ثالث :

تربّع في غسان أكناف مُحْبل إلى الحارث الجولان فالنّي ظاهر — المترجم

(٧٤) Joshua Stylite, No. 57. Wright, p. 54. (الترجمة الروسية ، رقم ٥٧ ، ص ١٥٣)

(٧٥) Joannes Ephesinus. Historia ecclesiastica. IV. 22. p. 209 (156).

(٧٦) E. Honigmann. Évêques et évêchés monophysites. Louvain. 1951, pp. 162, 203, 228; Th. Nöldeke, Zur Topographie und Geschichte des Damascenischen Gebiets. ZDMG. 1875. Bd. 29, p. 430; R. Dussaud. La topographie historique de la Syrie antique et médiévale. Paris. 1927, pp. 334 - 339.

(٧٧) Joannes Ephesinus. Historia ecclesiastica, III, 42, p. 177 (132).

(٧٨) شرحه ، ٣ ، ٤١ ، ص ١٧٥ (١٣١) .

العرب يعيشون معيشة الرحّل . ففي عام ٥٢٤ مثلاً لم يجد شمعون الأرشمي المنذر اللخمي بحيرة النعمان لأنه كان أوغل في جوف الصحراء في اتجاه الجنوب الشرقي وضرب معسكره على بعد عشر مراحل ؛ وهناك التقى به وكان يصحبه جنده وعرب من قبائل أخرى مثل بني معد[٧٩] . ومما يقف شاهداً على بساطة حياة العرب أن أحد أبناء الحارث (آرثه) كان يرعى قطيعاً من الخيل عندما انقض عليه اللخميون وقبضوا عليه وقدموه قرباناً للعزّى التي كانوا يقدّسونها[٨٠] . ومن الجلي أنه كان بعيداً في ذلك الوقت من المخيم أو المعسكر متنقلاً مع قطعانه . أما شكل المخيم ، وهو المنزلة المؤقتة التي اتخذت طابع مسكن دائم ، فيمكن استجلاؤه من روايات كرلس الاسكيثوبولي . ففي عهد الامبراطور انسطاس (قبل عام ٥١٨) نصبت خيام (ai skenai) للعرب قرب عَمْر اوفميوس بفلسطين ، وقد طواها « البرابرة » مراراً ثم أعادوا نصبها وبناءها من جديد . وكان للدير بركتان كبيرتان لعلها كانتا حوضين ، وقد تُرك أحدهما « لبعض الوقت »[٨١] ليستعمله العرب النصارى الذين نزلوا حول اوفميوس الذي عمدهم . كذلك أسس الفيلارخ بطرس الاسپيت فيها بعد بيعة من الخيام ومخبزاً ، كما بنى حوضاً . وهكذا ثبت المخيم واستقر ، وكان من المحتمل أن يصبح على مر الزمان أكثر استقراراً أي موضعاً للعيش المستديم أشبه ما يكون بالمدينة .

وقد وجدت بحيرة اللخميين أبنية جميلة ، كما تؤيد ذلك المصادر والحفريات الأثرية على السواء . ليس ذلك فحسب بل وأصبحت أيضا مدينة تحيط بها التحصينات / والحواجز حتى قيل في حقها « الحيرة مدينة العرب الكبيرة »[٨٢] . 254

وفي تاريخ القبائل العربية الشمالية شغلت مكانة هامة تلك الدويلات التي تأثرت بالحضارة الهيلينية ، مثل بطرا وتدمر واذاسا . غير أن هذه كانت مدناً - دولاً City-States ، أو « مدناً قوافل » Caravan Cities ، وكان للعنصر اليوناني - الروماني نصيب وافر في أنماط الحياة السائدة بها . وحتى هنا بالمشرق قامت هذه الدول على مِلكية الأراضي ، وكان تاريخها على غرار تاريخ « العالم اليوناني - الروماني القديم » (Classical Antiquity) هو « تاريخ المدن التي قامت على أساس ملكية الأرض وعلى الزراعة » . واختلفت هذه المدن بمجالسها وكورياتها* curiae اختلافاً تاماً عن المدينة المعسكر ، أي مخيم العرب الثابت كحيرة اللخميين أو حيرة الغساسنة . أما هذه المراكز الأخيرة فقد انهارت في عهد الفتوح الإسلامية وقام في مكانها مراكز جديدة للعرب مثل الكوفة والقيروان ، وذلك وفقاً للأسس نفسها ؛ أي أنها بدأت في واقع الأمر كمخيمات ومعسكرات ثم لم

(٧٩) I. Guidi, La lettera di Simeone di Beth-Arsam. Roma, 1881, p. 2.

(٨٠) Procopius. De bello persico. II, 28, p. 284.

(٨١) Kyrillos Skythopolis, Vita Euthymii, 46, 51, ed. Ed. Schwartz. Texte und Untersuchungen, 1939, Bd. 49, pp. 67, 75.

(٨٢) G.S. Assemani, Bibliotheca orientalis Clementino-Vaticana. De Scriptoribus syris nestorianis, Romae, 1728, III, 1, p. 88.

* الكوريات Curiae جمع كورية Curia ، وهي الأحياء التي كانت تنقسم اليها مدينة رومه القديمة ويبلغ عددها الثلاثين . وكانت تضم الارستقراطية والعامة على السواء . ومن المعتقد أنها قامت في الأصل على أساس عسكري - المترجم .

تلبث أن تحولت بالتالي إلى مدن .

المدينة - الدولة City - State

مما لا شك فيه أن تطور مجتمع عرب جنوبي الجزيرة يستحق اهتماماً خاصاً ، وذلك عندما دخلت العلاقات الاجتماعية والحياة المدنية في القرنين الخامس والسادس مرحلة تتفق مع ما يسمى بنظام المدن الدول City-States الذي عرفه من قبل اليونان والرومان . ورغماً من هذا فإن قيام هذا النظام بالجنوب العربي لم يخضع للأثر الهيليني أو أي أثر أجنبي آخر . ولقد ظلت العلاقات والروابط القبلية على أشدها وانعكست في تنظيم المدينة بأكملها ، وإن ساد فيها بوضوح التقسيم الطبقي للمجتمع .

وقد حدث في خلال دراستنا لبلاد العرب الجنوبية وللنظام الاجتماعي بمدينة نجران في القرن السادس أن أشرنا إلى تطور مدن القوافل ، وهي مدن ظهرت إلى الوجود نتيجة لظروف اقتصادية معيّنة . فهي قامت عند ملتقى الطرق البرية بجزيرة العرب حيث اكتسبت تجارة المرور (الترانزيت) أهمية كبيرة وسادت بهذه المدن علاقات مالية أساسها التبادل التجاري والتعامل النقدي والربا ، مما أسهم في نمو هذه المدن بصورة ملحوظة . وعلينا أيضاً في دراسة مدن القوافل بالذات أن نولي اهتماماً خاصاً للرقيق / كعنصر من العناصر الجوهرية في رفاهها . ويرد ذكر الرقيق في رقوم البطراوندمر ، كما تتحدث عنهم المصادر المتعلقة بتاريخ نجران . والتركيب الاجتماعي لمدينة نجران يعطي مثالاً جيداً للمدينة-الدولة القديمة ، وذلك في العهد الذي اتّحدت فيه بعض المدن الدول لتشكل دولاً كبيرة تمتعت بامكانيات أكثر .

ولقد عاونت المصادر المتعددة اللغات التي تم الكشف عنها مؤخراً على الخروج باستقراءات لم يكن في الوسع بلوغها قبل فحص هذه المصادر . فالمصنفات التاريخية والحوليات المدوّنة باللغتين اليونانية والسريانية والمعاصرة للأحداث التي كان مسرحها نجران تسمح بضبط سني الأحداث وتكشف النقاب عن فحوى الرقوم الحميرية المقتضبة . ووصف العلاقات الاجتماعية الذي نلتقي به في هذه المصادر من الممكن تعميمه على المراكز المدنية الأخرى ببلاد العرب الجنوبية والوسطى[٨٣] .

وقد لاحظ كبار الباحثين من أمثال رودوكناكيس وفيليب حِتّي اختلاط عدد من الظواهر في طابع مجتمع الجنوب العربي . فالنظام القبلي القديم والارستقراطية « الإقطاعية » والنظام الملكي ، كل هذه وُجدت في آن واحد هناك بحسب رأيهم[٨٤] . وتحليل هذه الظواهر التي يسودها الخلط يسمح لنا بتثبيت أشكال هذه

(٨٣) N. Pigulevskia. Vizantia na putiakh v Indiu, str. 336 - 337 et sui.; N. Pigulevskaja, Les rapports sociaux à Nedjran au début du VI-e siècle de l.ére chretienne. Journal of the Economic and Social History of the Orient, 1950, v. 3. pp. 113- 130: 1961, v. 4, pp. 1 - 14.

(انظرا ملحق هذا الكتاب - المترجم) .

(٨٤) Hitti. History of the Arabs. 4th ed., 1949, pp. 57 - 85; N. Rhodokanakis, Das offentliche Leben in den alten südarbischen Staaten: D. Nielsen, Handbuch der altarabischen Altertumskunde. Kapenhagen, 1927, p. 119.

العلاقات الاجتماعية التي نحن بصدد دراستها ، كما أنه سيعاون أيضاً على تحديد النمط الاجتماعي والاقتصادي لذلك المجتمع الذي بلغ مستوى معيّناً من التطور بالمدينة-الدولة والتي عاون على نموها ظروف تجارة المرور . أما الجوانب الأساسية التي تحتاج إلى الفحص فهي علاقات النسب والنظام الطبقي ، وكذلك الوضع الاقتصادي للطبقة المسيطرة وطابع السلطة نفسها .

وقد أشرنا فيما مر إلى أهمية روابط النسب لدى العرب الرحّل ، أي البدو . ويمكننا أن نضيف إلى هذا أن أهل الجنوب العربي كذلك لم يقطعوا أنفسهم من تقاليد النسب ، سواء أشباه الحضر منهم أو الحضر أو سكان المدن . ويقف شاهداً على ذلك الرقوم الحميرية وأقوال المؤرخين العرب من أزمنة متأخرة . ولقد بيّنا فيما مرّ من الكتاب دور الاتحادات العشائرية والقبلية لعرب الشمال من أمثال اللخميين والكنديين والغساسنة الذين شكلّوا أحلافاً قبلية . أما بالمناطق الجنوبية للجزيرة العربية حيث كان شطر من السكان يعيش حياة حضرية وحيث قامت مدن تمتعت بحضارتها الخاصة بها لقرون عديدة ، فإن صلات النسب قد ظلت محتفظة بتقاليدها السابقة. وهي تقف دليلاً على الأهمية التي علقها العرب على الأنساب ، مما تردّد صداه في أشعارهم وفي «أيام العرب المشهورة» بل وحتى في المصنفات الأدبية المتأخرة التي دونت بالنثر. وتمثل الحروب القبلية/ وعادة الأخذ بالثأر القاعدة التي استند عليها هذا الشعر[٨٥] . ورغماً من تطور أنماط العلاقات الاجتماعية فإن روابط النسب ظلت على ما هي عليه ، وإن اكتسبت قسمات جديدة . والرقوم الحميرية ، بما في ذلك تلك التي نصبها ملوكهم ، تشهد بوجود أسر وعشائر كبيرة . ولم تقتصر الأسرة على الأب وأبنائه ، بل ضمت بالمثل إخوته وبني عمومته . وهناك شواهد على وجود مَلَكية مشتركة في آن واحد بين أخَوَيْن ، أو ملك يرد إلى جانبه أسماء اثنين أو ثلاثة من أبنائه[٨٦] . والملك الذي اضطهد النصارى وهو مسروق ذو نواس قد قضى على أسر بحالها من الأعيان ، أي من الأسر « الحرّة » التي دخل في عدادها الإخوة والأبناء وبنو العمومة . وكانت المناصب الكبرى مثل الإثنارخات (زعماء القبائل) والكبيرات (كبارها) تخضع للوراثة . ورومي تلك السيدة من أعيان نجران وأثريائها قالت تفتخر « أنتم تعرفون قبيلتي وعشيرتي وتعرفون من أنا وابنة من أنا »[٨٧] . والعشيرة التي لم تكن أملاكها عرضة للتقسيم أو الانتقال بالوراثة خارج العشيرة ، قد وحّد بينها المصالح الاقتصادية المشتركة ، وارتبط بهذا في العادة تقاليد الزواج داخل الأسرة . وقد ساق هذا إلى ارتفاع شأن الأسر القديمة ونمو نفوذها السياسي ، وهم ما يسمّون « بالأحرار » و «النبلاء» الذين خرجوا مباشرة من طبقة الأعيان العشائرية القبلية . وتؤيد هذا جيداً سيرة النبي وتاريخ مدينة مكة ، لأن شئونها كانت تديرها البيوتات الكبيرة .

256

(٨٥) G.J. Lyall. Translations of Ancient Arabian Poetry. New York. 1930, p. XXIII; F. Gabrieli, La litteratura beduina preislamica. L'antica società beduina. Roma, 1959, pp. 102 -104.
(٨٦) J. Ryckmans. Institutions monarchique en Arabie méridionale avant l'Islam. Louvain, 1951, pp. 163, 203 - 208.
(٨٧) A. Moberg. The Book of the Himyarites. Lund, 1924, pp. 24b - 25b.

« ومن طبيعة التركيب القبلي أن يقود إلى التقسيم إلى بيوتات رفيعة وأخرى وضيعة » ، كما يقول أحد علماء الاجتماع . وبالنسبة لأن الارستقراطية المحلية قد شغلت وضع السيطرة بالمدينة فقد أخذت طرفاً في إدارتها ، مكوّنة بهذا زعامتها الاوليجاركية .وكانت مدينة نجران بما في ذلك المنطقة المحيطة بها والدائرة في فلكها تمثل وحدة مستقلة لها حكومتها الخاصة بها ، وكانت أنموذجاً جيداً للمدينة-الدولة . أما « الأحرار » و « النبلاء » فقد كوّنوا أيضاً الطبقة المسيطرة التي تولت إدارة شئون المدينة . وأحد كبار الارستقراطية كان الحارث (آرثه) الذي تدعوه المصادر اليونانية « إثنارخ المدينة وضواحيها »[٨٨] ؛ أما المصادر السريانية فتدعوه « رأس » جميع نصارى المدينة[٨٩] .

وقد شغل الحارث* وضعاً رفيعاً بوصفه إثنارخ المدينة ومنطقتها ؛ فهو الذي كان يتخذ القرارات ، إلا أنه لم يكن الوحيد الذي يصرّف شئونها . ويرد إلى جانبه ذكر « الأحرار »[٩٠] و « زعماء المدينة »[٩١] ؛ فهو بهذا كان أشبه / بالأول من بين متساويين ، كما كان عضواً من أعضاء طبقة النبلاء ذات الثروة . ولما أضحى من الضروري إعطاء جواب لمسروق ذي نواس الذي كان يحاصر نجران وطالب بالفدية ، فقد « خرج الحارث من المدينة يصحبه مائة وخمسون من أهل البيوتات الكبيرة » ليتفاوضوا معه في أمر تسليم المدينة وافتدائها . ومن هذا يتضح أن رأي الاثنارخ لم يكن وحده كافياً للبتّ في المسألة ، لذا فقد عاونه هؤلاء المائة والخمسون من أهل الرأي بها . وهم الذين وافقوا على دفع « الذهب » المطلوب حتى لا تتعرض مدينتهم للدمار . وقد طلب مسروق فدية عن « كل نفس » فاضطر الشعب إلى شراء نفسه بمبلغ باهظ ؛ إلاّ أن الرأي الذي أعرب عنه « النبلاء » « غلب بالمدينة » .

هذه المعلومات تحمل على الافتراض بأن المدينة كان لها إدارتها الخاصة بها وأن المائة والخمسين رجلاً كانوا في أغلب الظن هم أعضاء المجلس البلدي (boulé) للمدينة ، وبهذا فإن مشاركتهم في المفاوضات كان أمراً واضحاً . أما فيما يتعلق بلفظ « اثنارخ » فمن المعلوم أنه استعمل في الحوليات والوثائق اليونانية عند الكلام على رؤساء القبائل وصغار الملوك والزعماء . وقد تصرف الحارث في اتفاق مع جميع الطبقة العليا ونفّذ إرادتها ؛ وهو قد احتاج إلى تأييد هذه الطبقة لحل المشاكل المحيطة بالمدينة-الدولة كتسليم المدينة وافتدائها كما جرى في هذه الحال بالذات** .

(٧٧) Martyrium Arethae. Acta sanctorum. Octobris. t. X. p. 728.

(٨٩) A. Moberg. The Book of the Himyarites. pp. 8a - 36b.

* لعل اسمه هو الحارث بن كعب - المترجم

(٩٠) شرحه ، ص ٨ أ .

(٩١) Martyrium Arethae. pp. 724. 728.

** عن نكبة نصارى نجران راجع البحث المفصل الذي ندين به ليراع اغناطيوس يعقوب الثالث بطريرك انطاكيه وسائر المشرق تحت عنوان « الشهداء الحميريون العرب في الوثائق السريانية » ، دمشق ١٩٦٦ ؛ وأيضاً دراسة عرفان شهيد تحت عنوان Irfan shahid. The Martyrs of Najran. New Documents (Subsidia Hagiographica. 94). Bruxelles. 1971 - المترجم

وتسمح لنا المصادر بالكثير من الدقة بالتعرف على ما تمتعت به طبقة النبلاء ، أي الطبقة الارستقراطية ، من مكانة اقتصادية . وكان من نتيجة تمسك هذه البيوتات الكبيرة بصلات النسب الوثيقة وبالعلاقات العشائرية القوية ، أن حازت على نفوذ واسع وتمتع أعضاؤها بالاحترام وبالثروة . وكان ما حازه أحد هذه البيوتات من ثروة عريضة أن كفل هذا لأرملة مات زوجها من أن تشغل وضعاً فريداً في مجتمع المدينة ؛ فالسيدة رومي [رُهْم] التي مر ذكرها قبل قليل كان لها ثروتها الشخصية الكبيرة من عقار ومنقول . وإن ما تمتع به نساء العرب من استقلال لأمر معروف من مثال اللخميين ، الذين ترد أسماؤهم مقرونة بأسماء أمهاتهم بدلاً من أسماء آبائهم « كالمنذر بن الشقيقة » أو « النعمان بن هند » . وتوكد رومي ارتباطها بعشيرة أبيها وبأسرته لا بزوجها ، وكان ابنها يدعى « النعمان بن رومي بنت أزمع » . وكان لها أملاك عريضة ورثتها عن أهلها ، لأنها تتحدث عن « خزانتها الخاصة » « بخلاف ما وقع لي من زوجي » . وكانت ثروتها متعددة الوجوه وتتكون من محاصيل أراضيها وما تمتلكه من المتاع والضياع ؛ والمقصود بهذا العقارات التي وجدت في أغلب الظن ضمن الأراضي التابعة للمدينة ، أي بريفها . وببلاد العرب الجنوبية حيث عرف الناس الري الصناعي فإن أمثال هذه الأراضي كانت تدر دخلاً جيداً . وكان سكان المنطقة يعملون بالزراعة فيفلحون الأرض ويشرفون على أعمال الري . ويقال إن « أولئك الذين كانوا ينزلون بضواحي المدينة وحقولها وبالضياع » قد سباهم مسروق الذي خرّب جميع منطقة نجران . وكان جزء من تلك الممتلكات يتكون أيضاً من قطعان الماشية . ولقد تطلبت تجارة القوافل أعدادا كبيرة من حيوان النقل والمطايا ، كذلك احتاج السكان الحضر إلى البقر والغنم ، لذا فقد / 258 كوّنت الماشية شطراً هاماً من الملكية[٩٢] . ومما يقف شاهداً على مبلغ حجم الملكية العقارية لدى الطبقة الارستقراطية أن الزعيم الحارث فيلارخ المدينة قد أوصى بأن تؤول ثروته بأكملها إلى أبنائه وأقاربه الذين ظلّوا على النصرانية ، وهذا بينما أوصى « بضياعه الثلاث الكبرى » أو « حقوله » للكنيسة[٩٣]* . والحارث ، شأنه شأن رومي ، كان يُعد من أثرياء الناس أصحاب الأملاك الكبيرة التي تتكون من أراض زراعية . ولم تفقد الطبقة الأرسطقراطية بالمدينة روابطها مع الأرض ، وهو أمر تميّزت به زعامة المدن الدول بوجه عام . ويجب ملاحظة أن شطراً من العقار انتقل إلى الكنيسة ، التي دعمت ثروتها بهذه الطريقة بما يتفق مع وضعها في الدولة . وواقعة أن الحارث أوصى بممتلكاته « لأبنائه وأقربائه » توكد قوة الروابط الأسرية ، كما توكد أيضاً ما تمتع به شيخ العشيرة من سلطة وشأن .

---

(٩٢) شرحه ، ص ٧٢٣ ، ٧٣٢ .

(٩٣) شرحه ، ص ٧٣٦ ، ٧٥٨ .

* جاء في كتاب اغناطيوس يعقوب الثالث سالف الذكر أن الحارث قال عند إعدامه على يد مسروق (ص٣٠) : « إذا كفر أحد بالمسيح وعاش مع هذا اليهودي ، سواء أكانت زوجتي أم من أبنائي وبناتي أم من جنسي وعشيرتي ، فالكفر به أولى ، فانه ليس من جنسي ولا من عشيرتي ، وليست لي أية شركة معه ، وليكن كل ما أملكه للكنيسة التي ستُبنى بعدنا في هذه المدينة . وإذا عاشت زوجتي أو أحد ابنائي وبناتي بأية وسيلة كانت ، ولم يكفروا بالمسيح فليكن كل ما أملكه لهم . ولتخصص للكنيسة ثلاث قرى من ملكي تختارها الكنيسة نفسها » ـ المترجم .

وتجمع المصادر على أن رومي كانت تمتلك إلى جانب كل ما ذكرنا كمية كبيرة من الذهب والفضة على هيئة نقود مسكوكة . ويرد بخلاف النقود أيضاً ذكر « الحلي » من الذهب والفضة والنحاس والأحجار الكريمة والياقوت ؛ ومن الجائز أن هذه كانت تمثل ما ورثته من أشياء ثمينة . غير أنه وجد لدى رومي بالإضافة إلى هذا ، أو « بخزانتي » كما تقول ، أربعون ألفاً من الداريكات « المسكوكة » التي ورد بصددها في مصدر آخر أنها بلغت عشرة الآلاف قطعة من النقود « المضروبة » من الذهب والفضة .وعلى الرغم ومن وجود اختلاف حول كمية النقود في المصادر المحلية إلّا أنه لا يوجد ثمة شك في أن الأمر إنما يتعلق بكمية كبيرة منها ، لأن المتن اليوناني يتحدث عن نقود من الذهب والفضة معاً . وقد دلّلنا في بحث سابق لنا[٩٤] أنه في مقدمة « استشهاد آرثه » وهو أثر يرجع تاريخ تدوينه إلى القرن السادس ، كانت النقود « المَلَكية » للحميريين و « التي حملت اسم «ايلكاس» (أو « اولكادوس ») تعادل القطعة الذهبية البيزنطية التي تزن اثنين وعشرين قيراطاً (karation)[٩٥] . وعلى ذلك فإن القطعة النقدية « المَلَكية » كانت عملة رسمية قامت بسكها الدولة .وقد أطلق على النقود والموازين إلى جانب ذلك اسم « ملكية » أو « زوجية » إلخ وفقاً لوزنها وقيمتها . وهذا من شأنه أن يبرهن على أن سك النقود لم يقتصر على الملوك وحدهم ؛ بل ومن الجائز أن النقود المسكوكة التي وجدت بخزانة رومي قد ضربت على يد رومي نفسها .

وبالنظر إلى أن المدينة-الدولة نمت في ظروف نشطت فيها تجارة القوافل كما نشطت فيها التجارة البحرية فقد وجدت معاملات نقديةمتزايدة ، وارتبط بهذا تراكم النقود الذهبية والفضية . / وعرفت ببلاد العرب معادن الذهب ،وفقاً لمصادر التاريخ القديم . أما في العصور الوسيطة فيحدثنا عن ذهب بلاد العرب كل من المقدسي والهمداني ولقد ولّدت المعاملات النقدية نظام الربا ، وعاونت على تنشيط عمليات القرض والاستدانة وتنمية الأرباح . وكان من نتيجة ذلك أن نمت أيضاً الممتلكات الأسرية . ويورد مصدر في سير القديسين [هو « كتاب الحميريين »] قولاً مفاده أن ممثلة عشيرة جَوْ وهي رومي قد منحت النقود كقروض ، كما « اضطلعت بالكثير من أعمال البر في حق أناس عديدين ، وجد من بينهم ملوك . . . . وأغنياء وفقراء » . وفي ذات مرة رجاها معد يكرم ملك الحميريين « أن تؤجل اثني عشر ألف دينار كانت قد أقرضتها إيّاه »[٩٦] . ومن الطريف أن « أعمال البر » التي قامت بها رومي كانت قروضاً بأرباح مئوية ؛ فضاعفت بهذا ثروة أسرتها .

ولكي يقدم شخص ما القروض ، أي يصبح دائنا ، فقد كان عليه المشاركة إلى حد ما في العمليات التجارية وفي عمليات البيع والشراء التي كانت تتم بطرق القوافل وبالبحر . وهذا الضرب من القروض الذي

(٩٤) N. Pigulevskia, Vizantia na putiakh v Indiu. str. 238 - 241.
(٩٥) شرحه ، ص ٣٤٤ .
(٩٦) The book of Himyarites. ed. A. Moberg. Lund. 1924. p. 43a - 44a.

احتاج إليه « الأغنياء » ، كما احتاج إليه « ملك الحميريين » نفسه كان أمراً لا مفر منه في عملية المتاجرة التي لعبت دوراً هاماً في اقتصاديات الجزيرة العربية لذلك العهد . أما فيما يتعلق بالمناطق الوسطى من الجزيرةالعربية في القرن السابع فإن القرآن الكريم وسيرة النبي يشهدان بأهمية تجارة المرور وإعداد القوافل وحراستها ، كما يشهدان أيضاً بأهمية عمليات البيع والشراء التي أخذ طرفاً فيها عدد من البيوتات الكبيرة .

وفي تعداد ضروب المِلكية التي كانت للسيدقرومي هذه، يرد أكثر من مرة ذكر الرقيق من الذكور والإناث . والمصادر توردهم عادة في آخر السلم الاجتماعي ، وكضرب من ضروب المِلْكية . وهم يشغلون في المصدر السرياني موضعاً يلي الذهب والفضة ، أما في المصدر اليوناني فيسبق الرقيق في الترتيب الضياع والبساتين[٩٧] . ومن هذا نرى أن الرقيق قد احتل وضعاً هاماً في اقتصاد ذلك المجتمع وفي نظامه الاجتماعي . وكان الرقيق من الذكور والإناث يمثل جزءاً هاماً من الممتلكات ، فعلى أيديهم كان يجري العمل في الضياع والأراضي التي كانت تمثل ممتلكات « الأعيان » و « النبلاء » . ولا يخلو من مغزى أنه عندما استولى المسلمون على نجران ترك النبي للسكان ممتلكاتهم من ذهب وفضة وآنية ورقيق[٩٨] . أما ذو نواس فقد « سبى » الغلمان والجواري دون الخامسة عشر عندما استولى على نجران وأهداهم إلى أعيان مملكته . / وفي 260 البحث الذي عالجنا فيه الكلام على العلاقات الاجتماعية بجنوبي الجزيرة العربية سقنا معطيات المصادر الأخبارية والرقوم التي تؤيد القول بوجود الرق . والرقيق لم يتاجر فيه أهل اليمن والحجاز وحدهم ، بل إن الرق كان أساساً من أسس الرفاه الاقتصادي للطبقة العليا في مجتمعات تلك العصور[٩٩] .

وإلى جانب ذلك تتحدث المصادر عند تعدادها لسكان نجران عن « المواطنين والفلاحين وأهل الحرف والرقيق »[١٠٠] . ويرد مع المواطنين ذكر الفلاحين جنباً إلى جنب ، مما يمكن توضيحه بأن المدينة قد اجتذبت إلىّ فلكها الريف القريب منها والذي امتلك أعيان المدينة شطراً من أراضيه ؛ ومن الجائز أن الرقيق كان يعمل بتلك الأراضي . أما الشطر الآخر من الأراضي فكان يعمل فيه الفلاحون (oi georgoi) الذين كانوا ينتجون بسواعدهم ما يحتاجون إليه ، وكان اسمهم كما رأينا يرد إلى جنب « المواطنين » . وهاتان المجموعتان من السكان دخلتا في التركيب العام لمواطني المدينة-الدولة وكانتا تمثلان دعامتها الأساسية . أما أهل الحرف (oi kheiro tekhnoi) فكانوا يحتلون في السلم الاجتماعي الدرجة التي تعلو الرقيق . ومن ضروب « العمل اليدوي » الذي تمت مزاولته بالمدينة كان صناعة الألبسة ، ويجب الافتراض أن الأمر إنما يتعلق بالأقبيةوالبرانس التي لم تكن تُخاط بل كانت تنسج قطعة واحدة من الصوف وحازت رواجاً كبيراً في حياة الرحّل . وقد التزم

---

(٩٧) Simeon Betharsamensis. Lettera...., p. 4; Martyrium Arethae, p. 732.

(٩٨) Al-Beladson. Liber expugnationis regionum. Lugduni Batavorum, 1866, pp. 64 - 65; Kitab futuh al-buldan, t. I. Trans. by Hitti, New York, 1916, pp. 98, 100 - 101.

(٩٩) N. Pigulevskia, Vizantia na putiakh v Indiu, str. 352 - 354.

(١٠٠) Martyrium Arethae, p. 739.

أهل نجران في صلحهم مع النبي بدفع مائتي «حُلّة» قيمة كل حلة أوقية ، وهو ما يعادل الأربعين درهماً. وإذا حدث وأن كانت القطعة أغلى من ذلك حُسب لهم فضل هذا ، أما إذاكانت دون ذلك فإن المسلمين يأخذون ما يعادله خيلاً وإبلاً وغيرها من السلع ذات القيمة . وأما في حالة الحرب فقد اشترط عليهم تقديم المطايا وحيوانات النقل على حدة . والالتزام الخاص بتقديم الحلل في معاهدة الصلح بين النبي و « أهل نجران » يقف دليلاً على ما ناله هذا الضرب من المصنوعات من رواج[١٠١] . وكما هو معلوم فإن المصادر حفظت لنا رسائل النبي إلى مختلف القبائل بالجنوب العربي . وتتمتع بأهمية لا يرقى إليها الشك المادة المتعلقة بمقدار الضرائب التي أخذها المسلمون من الأقطار المفتوحة ، فقد ارتبط هذا بما إذا كان الري طبيعياً أم صناعياً ، كما ارتبط أيضا بزيادة النتاج في قطعان الماشية[١٠٢] . وفي الصلح الذي عقده النبي على يد / مبعوثه عمرو بن حزم مع أهل منطقة نجران أُلزم كل فرد (ذكر أو أنثى ، حر أو عبد) بدفع « دينار وافٍ أو عوضه ثياباً »[١٠٣] ، وقد حفظ لنا ابن سعد رواية مفادها أن النبي طلب من « أهل نجران » ألفي حلة لم تختلف في أسعارها ؛ وإن غنم منهم شيئاً من الدروع والخيل والإبل والأسلحة حُسب فضل ذلك أيضاً[١٠٤] . هذه المعلومات التي تعود إلى القرن السابع تجد التأييد في ما عرفناه من مصادر القرن السادس بخصوص الحالة الاقتصادية لبلاد العرب الجنوبية ولنجران .

26

هذا وقد أخذ طرفاً في إدارة نجران « النبلاء » ، الذين شغل مكانة مرموقة بينهم « الأعيان » و « الرؤوس » . ومن المتفق عليه أن اقتصار العشائر الارستقراطية على محيطها الخاص بها قد أكسبها وضعاً اختلفت به عن بقية « أبناء الأحرار » ، غير أنه في الوقت ذاته كان أفرادها بالذات هم الذين يديرون شئون المدينة ويبتّون في مصيرها بوصفهم حكامها الاوليجاركيون .

وقسمات البيئة التي كشفت عنها مادة المصادر تسمح بوصف نجران وغيرها من الاتحادات الحكومية للجنوب العربي المشابهة لها بأنها مدن دول . ومن ناحية أخرى فإن المدينة-الدولة لم تحتفظ بطابعها القبلي وأسسه ، وإن كان هذا هو القاعدة التي قامت عليها أصلاً . أما الجماعة - ش ع ب فلم تعد تربطها علاقات النسب الخالصة القائمة على صلة الرحم ، ودخلت في مرحلة أعلى من التطور أضحى من العسير معه تسميتها جماعة عشائرية . كذلك من الصعب استعمال لفظ « الجار » في مفهوم ش ع ب ، رغماً من أنه يتفق مع هذه المرحلة من تطوره بالجنوب العربي . ذلك أنه ينطبق بالأحرى على الجماعة الريفية التي تكونت نتيجة للاعتراف بعلاقة الجوار على الأرض . وببلاد العرب الجنوبية تمثل هذا في تجاور العناصر الحضرية وشبه الرحّل ، حيث انضم هؤلاء إلى أولئك دون الاعتماد على الجوار بالأرض وحده . غير أن المستوى العام للتطور الاجتماعي ،

(١٠١) Al-Beladsori, Liber..., p. 65; Hitti, Kitab..., pp. 100 - 101.
(١٠٢) I. Sperber, Die Schreiben Muhammads an die Stämme Arabiens, MSOS, Berlin, 1916, Bd. 19, pp. 77. 85.
(١٠٣) شرحه ، ص ٨٧ .
(١٠٤) I. Sperber, Die Schreiben Muhammads...., p. 90.

وهي القسمات التي عرف بها ش ع ب لدى مقارنته بالتنظيم القبلي ا ع ر ب ، إنما يعكس تنظيماً لعب فيه دوراً متزايداً تقسيم العمل ، الأمر الذي يقرّبه كثيراً من الفكرة عن « الجار » . وفي هذه الحال يصدق القول بأن « التاريخ الآسيوي إنما هو وحدة تتألف من المدينة والريف » .

ومن بين الأسس التي قامت عليها المدينة كما هو معروف من نماذجها الكلاسيكية القديمة كان نظام الرق ، وهو أمر تؤكده بصورة كافية شهادة المصادر حتى بالنسبة للجنوب العربي . / ولم يسق وجود الجماعات 262 الحرة إلى جانب الرقيق إلى اختفاء إحدى الطبقتين ، بل على العكس من ذلك كانتا تكملان بعضهما بعضاً ؛ وبهذا وضعتا الأساس لحياة المدينة-الدولة . أخيراً فإن التجارة والتبادل التجاري قد أسهما إلى جنب الحرف والصناعات والتعامل النقدي في تدعيم هذا النمط من أنماط التنظيم الاجتماعي وسارعا بعملية تطويره .

من كل هذا يمكننا الخروج باستقراء وثيق مفاده أنه لو انبعثت الدول بالمناطق الآسيوية نتيجة للفتوحات اليونانية الرومانية ، وذلك حين اضطلع الفاتحون أنفسهم بخلق تنظيمات تتفق مع النمط المعتاد لديهم والمحبّب إليهم والذي اجتذبوا إليه السكان المحليين، فإن المعطيات الخاصة بالجنوب العربي تسمح لنا بالتوكيد بأن ظهور المدينة-الدولة إنما كان مرحلة من مراحل تطور المجتمع العربي لم يلعب فيه العالم اليوناني - الروماني دوراً ما . ومن الجلي أن أسس هذا النمط من التطور الاجتماعي ، بل وجميع الخواص الأساسية له ، قد انبثق ببلاد العرب الجنوبية ذاتها . وعلى ضوء هذا أيضاً فلا بد في رأينا من فحص التركيب الاجتماعي لمدن الحجاز ، وعلى الأخص مكة . وفتح مدن اليمن وتوحيد الدويلات الصغيرة التي وجدت بها إنما كان هدفه مزج هذه الوحدات المستقلة في حكومة واحدة جهد ملوكها في إدخال أسماء المناطق التي فتحوها في ألقابهم ، حتى أضحت هذه الألقاب طويلة بشكل غير معهود . بل إن محمداً نفسه قد بدأ عملية التوحيد بهذه المدن الدول نظراً لما تميزت به بنيتها وإدارتها من قسمات وخصائص ، مستعملاً الدبلوماسية طوراً والسيف تارة أخرى بغرض توحيدها تحت راية الاسلام .

وفي فحصنا للتركيب الاجتماعي ببلاد اليمن حدث وأن أشرنا إلى أن صلة الرحم القبلية قد حفظت في الأنساب كما حفظت أيضاً في نظم الحكم ، فنبصرها في وجود النظام الملكي وفي نمو سلطان طبقة الأعيان وهم « الأمراء » و « والأقيال » (قول ، أقول) ، أي البيوتات المحلية الحاكمة . ورغماً من ذلك فإن المجتمع بأكمله قد تشكّل بصورة يظهر فيها الاختلاف الطبقي بوضوح ، وينعكس هذا بصورة خاصة في احتفاظه بنظام ش ع ب . وإذا ما أخذنا في الاعتبار وفي الوقت ذاته وجود نظام للرق فيجب ألّا يغيب عن البال أنه لم يكن يحمل بأية حال من الأحوال طابع نظام متطوّر ، إذ لا يوجد هذا تأييد في النقوش الأثرية ولا في الأخبار . فالرق قد وُجد ، وهو المسئول إلى حد كبير عن رفاه ملّاك الأراضي والأعيان ، ولكنه لم ينفذ إلى جميع جوانب الانتاج بالمجتمع .

أما دول العرب الشمالية للقرنين الخامس والسادس فإنها لم تبلغ ذلك المستوى من التطور بل وُجدت في أعلى درجات البربرية وكانت بنيتها الاجتماعية بدائية وأكثر بساطة ؛ ذلك أنه لم يوجد بها انتاج جماعي يسوق إلى تقسيم صارم للعمل . وكانت مدنهم مخيمات ثابتة ، وأما ممالكهم فتنتمي إلى ما أطلق عليه اسم « دول البرابرة » . وفي مجتمعهم البدائي ذاك الذي لم تشغل فيه العناصر الحضرية وضعاً قيادياً ما ، فإن الاتحادات القبلية لشبه الرحّل اكتسبت الأهمية اعتماداً على قدرتها العسكرية ؛ وكان « الجيش » و« المعسكر»/ مفاهيم أساسية بها ، تعادل معنى « الشعب » أو « المجتمع » بممالك الجنوب العربي . أما الجماعة التي يعبر عنها لفظ ش ع ب فلم تعرف بالشمال، لأن تنظيم دول العرب الشمالية كان أقرب إلى النمط القبلي الذي عرفته الرقوم تحت لفظ ا ع ر ب « البدو » ، وإن كان دون شك أكثر تقدماً وتطوراً منه . ولقد نمت هذه الأنماط البدائية وتوحدت قبائلها في صورة أحلاف قبلية تمتعت بإمكانيات كبيرة في القتال ، وكان تركيبها العسكري يمثل « ديمقراطية عسكرية » يشرف على إدارة شئون اتحادها نظام فوق القبلي .



الفصل الثامن

العرب والنصرانية

264 لم يكن من شأن النصرانية ألّا تترك أثرها على القبائل العربية التي كانت تعيش في جوار مع بيزنطة ، ذلك لأن النصرانية كانت الديانة الرسمية لتلك الدولة . وكان مما ساعد على اعتناق العرب للنصرانية* التقاؤهم بممثلي الرهبانية ، مضافاً إلى هذا نشاط الدعاة والمبشرين بل ونشاط بعض الأفراد . ويفصّل القول في هذا في المكانة الأولى المؤلفون الكنسيون ، فهم على علم بأن العرب قد سرت بينهم الدعوة إلى النصرانية في القرنين الرابع والخامس على يد الرهبان الاورثوذكس بفلسطين وسورية وأن بعضاً من البدو الرحّل أصبحوا من الأتباع المتحمسين لشمعون العمودي مما حدث وأن وقفنا عنده بالتفصيل فيما مر من الكتاب . أما عن اعتقاد العرب فيه وعن امتنانهم له فيحكي لنا ثيودوريت القورسي وكرلس الاسكيثوبولي[١] . كما أننا نلتقي بوصف لما أحاط بحياة العرب من مشقة لدى موسخ مؤلف كتاب « فردوس الروح » .

ويوحنا موسخ الذي مات حوالي عام ٦٢٢ كان قد طوّف مع تلميذه صفرونيوس الذي أصبح فيما بعد بطريركاً على أورشليم بالمخيمات والأديرة بفلسطين وسورية ودوّن ما سمعه من أخبار النسّاك كما دوّن وصفاً للأحداث التي كان شاهداً لها[٢] . وكان يوحنا على معرفة بلغة العرب الذين كانوا يتنقلون في جماعات صغيرة أو أفراداً ، والتقوا غير مرة بالرهبان (الفصلان ٢١ و ٩٩)[٣] . مثال ذلك أنه يحكي لنا قصة أحد النساك بفلسطين كان قد اقتسم طعامه مع « امرأة جائعة من السرقيين » لجأت إليه ، فقام بأودها لبعض الوقت (الفصل ١٣٦)[٤] . كذلك حفظ لنا موسخ شهادة تقول بأن العرب الوثنيين كانوا يقدمون القرابين البشرية لآلهتهم ، وهي حقيقة معروفة لنا من مصادر أخرى .

وفي عهد الامبراطور موريقي عندما « قام النعمان فيلارخ السرقيين بالنهب » رأى أحد الرهبان وهو شيخ طاعن في السن يدعى نقولا ، / رأى ثلاثة من العرب يقبضون على فتاة من السبي رائعة الجمال فتضرعت 265

---

* آخر ما ظهر حول موضوع النصرانية بين العرب قبل الاسلام هو كتاب اسپنسر ترمنجهام Spencer Trimingham . (١٩٧٩) بعنوان Christianity Among the Arabs in Preislamic Times وقد بدأ ترمنجهام نشاطه مبشرا بالسودان ثم كسب الشهرة بمؤلفاته العديدة عن الاسلام بالقارة الافريقية وانتهى استاذا بإحدى جامعات بيروت ـ المترجم .

(١) A.J. Festugière, Antioche paienne et chrétienne. p, 1959, pp. 395 - 396.

(٢) Patrologia graeca, t. 87, 3, col. 2845 - 3116; Ioànnes o'Eukrates Leimonàrios (Pratum spirituale); Ioann Moskh. Lug dukhovny. Perevod s grechskogo M. N. khitrova. Sergieva Lavra, 1896.

(٣) Pratum spirituale, col. 2868.

(٤) شرحه ، العمود ٣٠٠٠ .

إلى الراهب لينقذها ؛ وعرض عليهم الراهب بأن يأخذوه مكانها إلاّ أن العرب رفضوا محاولته لافتدائها بنفسه محتجين بأنهم وعدوا بإحضار أحد الأسرى قرباناً للآلهة . غير أن « لعنة » فجائية حلّت بهؤلاء العرب فوثب بعضهم على بعض وهكذا خلصت الفتاة التي أخذها الراهب نقولا إلى مغارته[٥] . وأقوال مؤلف « فردوس الروح » تشهد أكثر من شيء آخر بما أحاط بحياة هؤلاء الأعراب من مشقّة ونصب خلال تجوالهم بصحاري سورية وفلسطين .

وقد اكتسب الشهرة رقيم مدوّن باليونانية والسريانية والعربية عثر عليه بزبد ويحكي عن بناء مرطويل martyrium [مشهد] القديس سرجيوس الذي لا تزال أطلاله ماثلة في الفلاة الواقعة بين حلب والفرات . ولا يتفق متن اللغات الثلاث التي دوّن بها هذا الرقيم إلاّ في المحتوى العام ، أما أسماء مؤسسيه فيوجد ثمة اختلاف حولها . ففي المتن السرياني مثلاً يرد أن الحجر الأساسي في البناء وضعه الداعي يوحنا « طاب ذكره » ؛ ومن الجلي أنه لم يكن في عداد الأحياء عندما تم نقش الرقيم . ويرد اسم الداعي في ا المتن اليوناني أيضاً[٦] . وأما تاريخ الرقيم فيرد على أنه عام ٨٢٣ من التقويم السلوقي ، وذلك في الرابع والعشرين من أيلول في السرياني وشهر غربيايه في اليوناني؛ وهو ما يتفق مع عام ٥١٢ للميلاد . وقد دون النقش شخص يدعى مارا . أما مؤسسو المرطويل فهم آنّا وانطيوخ والابّا سرجيوس . ولا يختلف المتنان اليوناني والسرياني إلاّ في بعض التفاصيل الضئيلة .

وأما المتن العربي فيبدأ بتصوير الصليب شأنه شأن المتنين السابقين[٧] .وهو لا يحوي سوى بضعة أسماء يبدو جلياً أنها لنصارى عرب ممن أخذوا طرفاً في تشييد البناء .وليست أسماؤهم بواضحة كل الوضوح ، ويمكن أن نميّز من بينها اسم سرجيوس بن سعد واسم شخص آخر يدعى ابن امرىء القيس[٨] . غير أنه من الجوهري في حد ذاته وجود أسماء عرب نصارى وأيضاً الخصائص الباليوغرافية للمتن .

وثمة رقيم آخر مدوّن باليونانية والعربية تم العثور عليه بحوران في اللجا ، وهو مؤرخ بتقويم بصطري الذي يبدأ في الثاني والعشرين من مايو عام ١٠٦ للميلاد . أما تاريخ تدوين الرقيم فيرد على أنه عام ٤٦٣ الموافق لعام ٥٦٨ للميلاد[٩]. ويشهد المتن العربي بتشييد الرقيم بالصورة الآتية : / « انل سرحيل بن ظلمو بنيت ذا المرطويل سنت ٤٦٣ » .[١٠]

266

(٥) شرحه ، العمود ٣٠٢٤ .

(٦) M. Kugener. Note sur l'inscription trilingue de Zebed. JA, 1907, t. IX. pp. 511. 516 - 517.

(٧) E. Littmann, Osservationi sulla iscrizioni di Harran e di Zebed. Rivista degli Studi Orientali. 1911, t. IV, p. 196.

(٨) C.A. Nallino, Raccolta di scritti editi e inediti. t. III, Roma. 1941, p. 134.

(٩) R. Dussaud. Topographie de la syrie antique et medièvale. Paris. 1927, p. 375.

(١٠) E. Littmann, Osservationi. p. 194: C.A. Nallino, Raccolta di scritti...., p. 135.

أرض الجزيرة قبل الإسلام

أرمينية
جبال طوروس
مرطيرو بولس (ميافارقين)
ملطية
آمد
سعرت
تليس
الدولة البيزنطية
ديار بكر
طورعبدين
حسن كيفا
الدولة الساسانية
ماردين
دارا
نصيبين
قردو
بازبدى
سميساط
الرها (أذاسا)
حران
تيودوسيوبولس (رأس العين)
بطنه (سروج)
منبج
تنوريوس
بيت عربايه
سنجار
بلد
الموصل
نينوى
نهر الزاب الأكبر
ديار مضر
جبل سنجار
ديار ربيعة
حدياب
بالس
باربالسيوس
دوسرة (قلعة جعبر)
نقفوريون
قلينيقه (الرقة)
نهر الفرات
نهر الخابور
آبدنه
قرقيسيا
دورا
نهر دجلة
نهر الزاب الأصغر
باجرمى

وهناك شواهد أخرى موثوق بصحتها تثبت اعتناق العرب للنصرانية ، ويشغل المكانة الأولى بينها قرارات المجامع الكنسية . فرجال الدين الذين أخذوا طرفاً في مجمع ما ووافقوا على قراراته ، وهم في العادة من الأساقفة ، قد وقّعوا بأيديهم على تلك القرارات . ويشمل التوقيع اسم الشخص الموقّع واسم الابرشية أو المدينة التي يمثلها ، مما يساعد على تحديد مراكز انتشار النصرانية . ويرد في قرارات مجمع القسطنطينية لعام ٣٩٤ والتي حفظت فقرات منها في « السنداغما الرابع عشرة للألقاب » اسما اثنين من القديسين هما بغاديوس Bagadius واغابيوس Agapius ، وهما قسّان من مدينة بصطرى نشب النزاع بينهما من أجل الكرسي الأسقفي لبلاد العرب . والمقصود بطبيعة الحال ولاية عرابية البيزنطية التي كانت قصبتها السياسية والكنسية هي مدينة بصطرى ، التي كان للعرب صلة وثيقة بها(١١) .

وفي حيّز ولاية فينيقية اللبنانية Phoenicia Libanensia والتي كان كرسي مطرانيتها بدمشق كانت تدخل أُسقفية اواريا Euaria ، وهي بالسريانية حوارين ؛ وكان يشرف عليها منذ عام ٤٥١ يوحنا اسقف « عرب زيزايه » بحوارين والذي مات في المنفى بحرلان(١٢) ؛ وسبق أن أبعد من حوارين بعد عام ٥١٨ . وبهذه الولاية نفسها وجدت « أسقفية للسراقينيين » أخرى ، كانت تقع في أغلب الظن قرب دومر بفلسي Felsee(١٣) . ويتعلق الأمر هاهنا بمجموعة أخرى من العرب ليس لها ما يربطها بمجموعة حوارين . ولدى يوحنا الافسوسي رواية مفادها أن حوارين (اواريا) قد أعاد بناءها ماجن الشهير وأنه هنا بالذات غدر بالمنذر الغساني . ولمّا كانت الأخبار المتعلقة بهذه الأسقفية تعود إلى عهد مبكّر ، فقد أثيرت الشبهة بصدد هذه الرواية الأخيرة ؛أضف إلى هذا أن متن يوحنا ينص على أن « القرية التي تدعى حوارين قد حوّلها [ماجن السرياني] إلى مدينة أحاطها بسور وشيّد بها بيعة »(١٤) . وبطبيعة الحال فإن تحصين القرية وبناء بيعة جديدة بها إنما يقف دليلاً على أهميتها، كما أن دعوة المنذر إليها بالذات يقف شاهداً على وجود سكان عرب بها . ومن غير الممكن ألّا تكون قد وجدت طريقها إلى العرب تلك المذاهب المختلفة التي تطور فيها الفكر الديني للنصرانية ، والذي اتخذ في ارتباطه بالظروف السياسية الغالبة بالشرق الأدنى صورة انشقاقات عميقة . ولقد تأثرت النزاعات العقائدية الكبرى / بالخصائص الاجتماعية والعرقية والاقتصادية لتلك الشعوب التي دخلت 267 ضمن سكان الامبراطورية . فاشتدت المنافسة بين المذاهب الكبرى وهي الاورثوذكسية والمونوفيزية (اليعقوبية) والنسطورية في القرنين الخامس والسادس من أجل السيطرة على عقول الناس ، فالقسطنطينية والمناطق الملاصقة لها كانت تتمسك بالاورثوذكسية التي بسط الأباطرة حمايتهم عليها وكانت تمثل سندهم

(١١) E. Honigmann, Trois mémoires posthumes d'histoire et de géographie de l'Orient chrétien, préparées par P. Devos. Bruxelles, 1961, pp. 8, 11 - 13.

(١٢) Chronicon anonymum ad A.D. pertineus, ed. E. W. Brooks, interpretatus J.B. Chabot. CSCO, v. IV, p. 227 (172).

(١٣) E. Honigmann, Evêques et évêchés...., p. 100.

(١٤) Joannes Ephesinus, Historia ecclesiastica, III, 40, p. 174 (130).

السروحي . أمّا الولايات البيزنطية الغربية [الشرقية ؟] بما في ذلك سورية ومصر فقد غلب عليها المونوفيزيون . وعلى خلاف هذا انتشرت النسطورية في تجاه المشرق فنفذت إلى حد ما داخل ايران ، حيث ظهر هذا المذهب الذي اتبعه السريان بصورة خاصة في هيئة دين اضطهدته بيزنطة .

والسريان القريبون في لغتهم من العرب* ، هم المسئولون الأول عن اجتذاب العرب إلى النسطورية والمونوفيزية . أما الغساسنة الذين نزلوا الأراضي المتاخمة لولايات عرابية وفينيقية وتدمر وسورية فقد وقعوا تحت تأثير الاورثوذكسية والمونوفيزية المتعاديتين .

وقد حفظ لنا تيودور القارىء Theodore Lector(Lii.35) قصة يكررها ثيوفانيس في حولياته تحت أحداث عام ٦٠٠٥[١٥] الموافق عام ٤٩٦/٤٩٧ للميلاد وتتعلق « بفيلارخ العرب » المدعو المنذر. والقول بأن هذا هو « المنذر بن ماء السماء اللخمي » قول غير مقبول بأية حال من الأحوال ، حتى وإن وجد هذا الرأي قبولاً لدى بعض الباحثين[١٦] . ذلك أن المنذر اللخمي كان وثنياً وظل على وثنيته . أما فيما يتعلق بوجود فيلارخ عربي آخر يحمل اسم المنذر في ذلك العهد فليس هناك ما يؤيد ذلك في مصادر أخرى . لهذا فقد أُفترض أن اسم الفيلارخ قد تعرض للتحريف وأن المقصود إنما هو الحارث الغساني[١٧] ؛ غير أن هذا يتناقض بوضوح مع حقيقة أن الحارث كان من أنصار المونوفيزية الغيورين . ولو افترضنا جدلاً أن هذه القصة محض افتراء ، إلاّ أن مجرد ظهورها يتفق مع ظروف الأحوال في ذلك العهد » . [وهي ترد في الصورة الآتية] :

« ولمّا تهيأ فيلارخ العرب للتعميد أرسل سويرس النجس اثنين من الأساقفة لإدخاله في بدعته ولكن العناية الإلهية تدخلت في تعميده على يد رجل من الاورثوذكس الذين قبلوا قرارات المجمع » . ولقد جهد أساقفة المونوفيزية في تحويل الفيلارخ عن الاورثوذكسية ، ولكن المنذر وضع حداً لمحاولتهم بسرده لحكاية هزلية مفادها أنه بلغه للتو خبر موت كبير الملائكة ميخائيل ، فرد عليه الأساقفة بأن هذا أمر مستحيل . عند ذلك سألهم كيف يقولون إذن بطبيعتين للمسيح طبيعة إلهية وأخرى بشرية « في حين لا يموت حتى الملائكة » . « فانسحب » الأساقفة الذين بعث بهم سويرس « في خجل »[١٨] .

268

وتقف هذه القصة دليلاً على اشتداد حدّة الخلاف بين الاورثوذكس والمونوفيزيين ، كما تكشف عما بذله الجانبان من جهد في اجتذاب العرب إلى مذهبيهما . والمنذر الذي مر ذكره كان فيلارخاً لبيزنطة ، ومن

---

* راجع في هذا الصدد قول المسعودي « وإنما تختلف لغات هذه الشعوب [أي العرب] من السريانية اختلافا يسيراً » - المترجم

(١٥) Theophanes, Chronographia, p. 159.

(١٦) I. Guidi, Mundhir III und die beiden monophysitischen Bischöfe, ZDMG, 1881, Bd. 35, pp. 142 - 146; G. Rothstein, Die Dynastie der Lahmiden..... pp. 141 - 142.

(١٧) R. Devréesse, Le patriarcat d'Antioche, p. 255, nota 1; E. Honigmann, Evêques et évêchés......, p. 161, nota 1.

(١٨) Theophanes, Chronographia, p.159 — ونفس هذه الحجج ترد في رسالة سويرس الانطاكي الى رهبان تلد (I.Guidi, Mundhir III..., p.145)

المحتمل أنه ينتمي إلى الغساسنة . وإذا بدا أن كان للعرب ميل إلى مساندة الاورثوذكسية في نهاية القرن الخامس ، فقد مال الغساسنة في القرن السادس وخاصة الحارث بن جبلة إلى مساندة المونوفيزية وأتباعها . ولم تكن المونوفيزية مذهباً فلسفياً وعقائدياً فحسب ، بل ارتبطت كذلك باتجاه سياسي انعكست فيه إلى حد ما النزعة الانفصالية داخل الولايات التي رجح فيها عدد السكان غير اليونان في الامبراطورية ، كالسريان والقبط . وهؤلاء « المشارقة » كما دعى أنفسهم رجال الكنيسة المونوفيزيون ، كانوا معارضين لمصالح دوائر معيّنة بولايات الامبراطورية . وكانت تلك الدوائر تدور في فلك الاورثوذكسية الرسمية ووقعت تحت تأثير النفوذ اليوناني واللغة اليونانية والفلسفة اليونانية بل والنظام الحكومي البيزنطي أيضاً ؛ وقد عرف هؤلاء الأخيرون باسم الملكين Melkites ، أي أنصار الامبراطور (الملك) . وعرف السريان بغيرتهم في نشر العقيدة والتبشير بها ، وكانوا قريبين من حيث اللغة إلى العرب فحملوا إليهم عقيدتهم وتعاليمهم . وما أشرنا إليه من قبل بصدد مشاركة الحارث بن جبلة في نشاط المونوفيزيين وما أبداه من غيرة في الدفاع عن مصالحهم ، كل ذلك سيعاون على تفهم الدور السياسي الذي أخذه على عاتقه ، ومن ثم فليس في الوسع تجاهل شخصه . ولقد اكتسب رجال الدين المونوفيزيون تأييد دوائر عريضة من بين سكان الولايات ، بل وبالعاصمة البيزنطية نفسها . وكان العرب حتى في هذه الحال تلامذة للسريان ؛ ويكفي أن نشير إلى تعلقهم الشديد بيعقوب البرادعي ، الذي أولاه الدرجة نفسها من التوقير « الملك الحارث » نفسه .

وأثر السريان لم تستطع أن تتحاشاه الحيرة ذاتها ؛ ولقد جهد كل من النساطرة والمونوفيزيين في كسب أنصار لهم وسط اللخميين بل ونجحوا في هذا . وتحكي الحوليات العربية النصرانية عن صدام وقع هناك بين الطرفين . هذا وقد اضطهدت حكومة الامبراطور يوسطين المونوفيزيين ، فألقى بعضهم في غياهب السجون وهرب بعضهم الآخر إلى سورية . كذلك أحاطت صعوبات جمّة بمحاولة المونوفيزيين للاختفاء بإيران . وقد أفلح بعض منهم في الهرب إلى الحيرة ، وهناك طلب منهم الجاثليق شيلا[19] الاعتراف بطبيعتين للمسيح وإلاّ تعرضوا للطرد والإبعاد . غير أن المونوفيزيين وجدوا التعضيد من الحجاج بن قيس أحد أهالي الحيرة « وكان مقرّباً إلى المنذر ملك العرب » فلم يعبأوا لطلب شيلا . فلما كتب يوسطين إلى المنذر يطلب إليه « إخراج » الهراطقة ، اتخذ هذا من الاجراءات ما اضطر بعضهم إلى الهرب وبعضهم الآخر إلى الاختفاء*. وقد توجه شطر منهم إلى نجران / ببلاد العرب الجنوبية وهناك « نشروا تعاليم يوليان أستاذ سويرس[20] » الانطاكي . 269

---

(١٩) تم تنصيب شيلا جاثليقاً في عام ٥٠٥ (٨١٦ من التقويم السلوقي) - I.Labourt, le christianisme de l'émpire Perse sous la dynastie sassanide. Paris, 1904, p 159, note 5.

* جاء في المصنف النسطوري المدون بالعربية « أخبار فطاركة كرسي المشرق من كتاب المجدل لماري بن سليمان » (رومه ١٨٩٩) ما نصه : « ونفى يوسطنوس الملك جميع الهراطقة وحبسهم وهرب كثير منهم إلى الشام وكتب بنفي من يعتقد غير الجوهرين ووافى بعضهم الحيرة وخرج شيلا الجاثليق إليهم وفضح اعتقادهم وكتب يوسطنوس الى النعمان باخراج المنفيين عنه ففعل » (ص ٤٨) - المترجم .

(٢٠) Histoire nestorienne, ed. par Addai Scheer, chap. 22. Patrologia Orientalis, t. 7, pp. 142 - 144.

وقد جرت هذه الأحداث على عهد بطركية يوحنا القبادوقي (وكان تم تنصيبه عام ٥١٨ ومات في عام ٥٢٠) الذي قام بتحريم سويرس ويعقوب البرادعي تنفيذاً لأوامر يوسطين . وثمة روايات تشير إلى أن الهراطقة الفانتازيين Phantasiasts قد قاموا بنشر دعوتهم في عاصمة اللخميين وفي وسط الحميريين . وأحد هؤلاء واسمه سرجيوس أقام بحمير ثلاثةأعوام وبارك هناك الأسقف موسى(٢١) .

كل هذا يشير إلى استفحال حدة النزاع المذهبي بين رجال الدين ، والذي شمل دوائر شتى من سكان الشرق الأدنى في تلك الأزمنة . ووجد العرب أنفسهم في وسط دوّامة الاتجاهات الثلاثة للنصرانية لذلك العهد ، والتي لم يقف تأثيرها على « عرب بيزنطة » و« عرب الفرس » وحدهم بل امتد إلى الحميريين أيضاً . كذلك وجد رباط مشترك يربط بين هذه الدول التي تحدث سكانها لغة واحدة وإن لم تخلُ من اختلاف بين لهجاتها . كما ربطت بينها أيضا التزامات سياسية ، بالاضافة إلى اعتماد بعضها على بعض . كل هذا كان أكبر بكثير مما أُفترض عادة ، كما حدث وأن دللّنا عليه في حينه(٢٢) .

ولقد لعب « ملك العرب » الحارث دوراً ليس بالضئيل في تاريخ المونوفيزية في القرن السادس . كذلك دعّم تأييد رجال الدّين المشارقة من وضع الغساسنة ، كما وأن حماية هؤلاء الأخيرين للمونوفيزية قد دعّم من نفوذها السياسي . وحدث أن أشرنا إشارة عابرة فيما مر من الكتاب إلى نشاط الحارث في مصلحة رجال الدين المونوفيزين وإلى تدخله لدى الامبراطورة تيودورا لتبسط حمايتها عليهم . ويرجع الفضل إلى هاتين الشخصيتين في حمل البطريرك ثيودوسيوس الإسكندري عام ٥٤٢ على تنصيب يعقوب البرادعي أسقفاً لأرض الجزيرة بكرسيه في أذاسا [الرها] وعلى تنصيب تيودور أسقفاً لمنطقة عرابية بكرسيه في بصطري . وما اتصف به يعقوب من طاقة فيّاضة وحماس شديد قد ترك أثره على المونوفيزية وجعل منها مذهباً ثورياً مناضلاً ؛ أما تيودور الذي تم تنصيبه أسقفاً على المناطق الجنوبية فلم يكشف عن مثل هذا النشاط والفاعلية . وفي الولايات المتحدثة بالسريانية وبأرض الجزيرة ساقت غلبة اللغة السريانية إلى ضرب من الاستقلال في العقيدةجعل من الصعب بسط سيطرة كاملة عليها . وأما فيما يتعلق بولايات سورية وفينيقية وعرابية والمناطق المتاخمة لها فقد تمتع ملوك آل غسّان هنالك بسلطان كبير(٢٣) . غير أن أثر العنصر اليوناني بها كان أقوى مما عليه الحال مع أرض الجزيرة ، وهذا يفسر ما كسبته الاورثوذكسية من نفوذ في هذه الولايات . ومن المعترف به أن ثيودور أسقف المونوفيزيين كان أقل نشاطاً من يعقوب البرادعي ؛ وكل ما يمكن أن يقال بصدده أنه كان أسقفاً على بصطرى ، ولكن موضع إقامته كان في واقع الحال حيرتا / الغساسنة وهي مخيم الحارث والمعروفة أيضاً باسم حيرتا ذي طيايه(٢٤) وتقع بالجولان ، ولعلها هي قرية « الجابية » Gabitha(٢٥) . 270

(٢١) Michel le Syrien. Chronique, p. 320 (II. 264): E. Honigmann. Evêques et évêchés...., p. 129.
(٢٢) N. Pigulevskia, Vizantia na putiakh v Indiu. str. 293 - 299.
(٢٣) E. Honigmann. Évêques et évêchés....., p. 159.
(٢٤) John of Ephesus. Lives of the Eastern Saints, ed. E.W. Brooks. Patrologia Orientalis. t. 18, p. 692.

وعلى أيٍ فإن رسالة رجال الدين المونوفيزيين لعام ٥٧٠ ، وهي المتعلقة بهرطقة الثالوثيين Tritheistic ، قد وقّع عليها تيودور ارشمندريت الدير الواقع على جبل حيرتا ؛(٢٦) أما عن سرجيوس ارشمندريت دير أُقبتا فقد وقّع عنه نائبه مارا وستافيوس « شيخ بيعة البطريق الأمجد محب المسيح المنذر » ابن الحارث(٢٧) . من هذا يتضح أنه كان للغساسنة بيعتهم الخاصة بهم بحيرتا ، حيث كانوا يمضون شطراً من السنة .

هذا وقد انضم تيودور ، شأنه شأن يعقوب ، إلى زمرة رجال الدين المونوفيزيين الذين كان نصيبهم النفي ومات عام ٥٧٢/٥٧١(٢٨) . وواقع الأمر أن نشاط يعقوب وطاقته الفياضة وأسفاره في أقطار الشرق الأدنى بهدف نشر الدعوة المونوفيزية والدفاع عنها قد ساقه أكثر من مرة إلى الصدام مع « البطريق الأمجد الحارث » . وكان ملك العرب قد وجّه في نهاية عام ٥٦٣ (أو ٥٦٤) بكتاب إلى أسقف أذاسا يفيده بإنه من الممكن انتخاب « الآبا الموقّر والارشمندريت الكبير بولص »(٢٩) ليصبح بطريركاً لانطاكية . وكانت محاولات بولص ليشغل كرسي بطريرك ا لاسكندرية قد أخفقت ، لذا فقد جهد ليصبح رأساً للكنيسة الأنطاكية وتمت مباركته « سراً » بسورية على يد ثلاثة من الأساقفة كبطريرك للمونوفيزيين « بالمنفى »(٣٠) . وقد انبعث النزاع بالتالي بين رجال الدين المونوفيزيين وسعت كل فئة للحصول على تأييد الغساسنة . ولما تعرّض بولص للاضطهاد وجد الملاذ « بحيرتا الغساني » الذي جهد بكافة الوسائل ليصالح بين يعقوب وبولص(٣١) . وفي رسالة المونوفيزيين المعَنْوَنه « من أساقفة الدين الصحيح إلى أهل الدين الصحيح بسائر الولايات » يرد الكلام بأنهم باسم « محب المسيح البطريق الأمجد الحارث » يرجون من بقية الآباء التوقيع على المنشور encyclus الذي حرّروه . وفي موضع آخر من الرسالةنفسها ترد الإشارة إلى أن الحارث « دعانا » إليه ومعهم البطريرك ماربولص ، وأن يعقوب وتيودور وضعا خطابا مشتركاً دعيا فيه إلى السلام ووحدة الصف وأنهما لن يتوانيا قط [في سبيل ذلك] ؛ ثم وجها بمكاتيب إلى / خصومهم على يد أناس موثوق بهم وعن طريق الحارث نفسه ، 271 بحثاً عن المصالحة بكافة الوسائل(٣٢) . وإلى عام ٥٦٩ يرجع المكتوب الموجّه إلى رجال الدين « وسائر الشعب المؤمن بعرابية » ، وهو الذي وضعه رجال الدين المونوفيزيون بما فيهم يعقوب وتيودور يهاجمون فيه الثالوثيين ـ وهما الأسقفان قونون الطرسي واوجين السلوقي الايسوري . وفي هذا المكتوب يرد الكلام على مشاركة الحارث في القرارات التي بعث بها الآباء إلى قونون واوجين عندما وقّعوا على « دفاعهم » الذي يدينون فيه

---

(٢٥) E. Honigmann, Évêques et évêchés....., p. 161, notqa 1. 3.

(٢٦) Documenta ad origines monophysitarum illustrandas, ed. I.B. Chabot. CSCO. Scriptores syri, t. 27, Parisiis, 1907. p. 213; Documenta ad origines monophysitarum illustrandas, interpretatus I.B. Chabot. CSCO. Scriptores syri, t. 52, Louvain, 1952, p. 148.

(٢٧) Documenta....., p. 155 (223).

(٢٨) Michel le Syrien. Chronique, p. 341 (II, p. 300).

(٢٩) Documenta...., pp. 143 - 144. (100).

(٣٠) E. Honigmann, Évêques et évêchés...., p. 196.

(٣١) شرحه ، ص ١٧٦ .

(٣٢) Documenta..... pp. 198 (137), 199 - 200 (139), 202 (140); E. Honigmann, Évêques et évêchés...., p. 176.

هرطقة الثالوثيين ؛ وقد أضاف الحارث الألفاظ الآتية : « قولا لي الآن إنكما توافقان على هذه الحجج »[٣٣] ، فلما ردا بالإيجاب طلب منهما البطريق أن يوقعا على هذا الاعتراف أسوة بما فعله « بقية الأساقفة الموقرين الآخرين » ؛ ولكنهما امتنعا وظلا « على ضلالتهما[٣٤] » .

وقد ورث المنذر فيما ورث من أبيه مهمة إيجاد حل للنزاع المستفحل في وسط المونوفيزيين وحماية إخوته في العقيدة من اضطهاد الدولة لهم . وكان من أكبر أسباب النزاع تحديد وضع بولص بطريرك المونوفيزيين بأنطاكية كما أسلفنا القول . وفي كل مرة تعرض بولص للمصاعب والاضطهاد أنقذ نفسه بالالتجاء إلى الغساسنة ، سواء في أيام الحارث بن جبلة[٣٥] أو في عهد ابنه المنذر . وبعد عام ٥٧١ انتقل بولص إلى الاورثوذكسية ، وكان هذا بحق انتصاراً ليوحنا الاسكولي بطريرك القسطنطينية . وقد تحادث الامبراطور يوسطين الثاني غير مرة مع بولص مما أثار غيرة البطريرك ، حتى اضطر بولص إلى الاختفاء بالعاصمة نفسها ثم التوجه فيما بعد إلى « أرض العرب » للإقامة بها ؛ والمقصود بهذا ولاية عرابية . وتم هذا بمساندة أو معاونة « أفراد معروفين من بيت المنذر بن الحارث[٣٦] » ؛ ويعني هذا أن العرب القريبين من الملك قد عاونوا بولص رأس المونوفيزيين الذي انضم قسراً إلى الاورثوذكسية على النجاة بنفسه من القسطنطينية والانتقال إلى حيث كانت المونوفيزية غالبة وتحظى بحماية الغساسنة . ولقد ظل المنشقون أنصار بولص والانفصاليون أنصار يعقوب مستمرين في جدلهم العقائدي ؛ وتوجّه قسم من النازلين بأرض عرابية إلى البطريق الأمجد المنذر راجين منه أن ينقل إلى مار انطيوخ « طلبهم » diamartyria لعقد مناظرة عقائدية مع مخالفيهم ، كتابة ومشافهة[٣٧] . ومن المحتمل أن مارانطيوخ هذا كان ارشمندريت « دير العرب » وأن اسمه ورد ضمن / آخرين ذُكروا في عنوان رسالة المونوفيزيين الموجهة من « أرشمندريتات المشرق إلى أساقفة الأورثوذكسية والهيراتيين والدياقونات بالقسطنطينية »[٣٨] . أما فيما يتعلق بالمحاولات الفاشلة لعقد المصالحة بين يعقوب البرادعي وبولص فيحكي لنا يوحنا الافسوسي أن المنذر اجتمع بالطرفين ليقنعهما بذلك ، ولكن اليعقوبيين لم يصلوا إلى اتفاق بينما أكد بولص أن البحث المفصّل لجميع الأحداث من شأنه أن يقود إلى المصالحة[٣٩] .

كذلك اتجه ملك العرب إلى لونجين أسقف النوبة ، وهو مونوفيزي شارك في النزاع مع الثالوثيين في الأعوام ٥٦٦ ـ ٥٦٩ . وأصل لونجين هذا من الاسكندرية ، وكان بطريرك المونوفيزيين ثيودوسيوس ينوي

---

(٣٣) Documenta..., pp. 205 - 206 (142 - 143).

(٣٤) شرحه ، ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧ (١٤٣ ـ ١٤٤) .

(٣٥) شرحه ، ص ١٩٩ (١٣٩) .

(٣٦) Joannes Ephesinus. Historia ecclesiastica. II. 8, p. 67 (48); E. Honigmann; Évêques ét êvechés..., p.200 (المتن غير مفهوم جيداً ، ولا يرد فيه ذكر لعسكر للمنذر أو اقامة لبولص به) .

(٣٧) Documenta..... pp. 264 - 265 (184 - 185).

(٣٨) ص ١٨١ (١٢٦) .

(٣٩) Joannes Ephesinus. Historia ecclesiastica, IV, 21, p. 208 (155); E. Honigmann. Évêques et évêchés...., p. 203

تنصيبه أسقفاً « للنوبة » Nobades [النوبتيين] . غير أن هذا لم يتم إلّا بعد موت البطريرك في عام ٥٦٦ بالقسطنطينية ، لأن الامبراطور لم يسمح له بمغادرتها . ولكننا نراه رغماً من ذلك يتوجه إلى بلاد النوبة في عام ٥٦٩ . وبليبيا بارك في مكان ثيودوسيوس شخصاً يدعي ثيودور ، غير أن الاسكندريين لم يقبلوه فثار النزاع من جديد في وسط المونوفيزيين . وقد توجّه كل من لونجين وتيودور إلى سورية في عام ٥٧٦ لإصلاح ذات البين ؛ ووصل لونجين إلى حيرتا الغساسنة[٤٠] حيث أبلغ المنذر جميع المشاكل التي تعرض لها . وعقد اليعقوبيون اجتماعاً كبيراً بدير مارحنانيا حضره لونجين أيضاً ولكن لم يتم فيه الوصول إلى اتفاق ما ، خاصة وأن يعقوب البرادعي لم يشارك في الاجتماع . وأمضى لونجين بسورية حوالي العام ثم رجع إلى مصر . وترد الإشارة إلى المنذر فيما يتعلق بهذه المشاكل وإلى شهادته وإلى « الميثاق » الذي عُقد في اتفاق معه « حول تنازلات ماريوحنا عن دير القديس ماربسّه »[٤١] .

أما إلى أي مدى ضربت المونوفيزية عميقاً بجذورها في المناطق التي سكنها العرب ، أو في النواحي المجاورة لهم فيمكن استجلاؤه من الأحداث التي ترجع إلى منتصف التسعينات من القرن السادس . فالأسقف غريغوريوس بعد أن أعاد الصلبان إلى كنائسها ، وهي الصلبان التي كان قد استولى عليهاخسرو برويز[٤٢] ، توجّه « ليطوف بالصحارى المعروفة باسم ليميس » أي مناطق الحدود أو الحدود نفسها التي انتشرت بين سكانها « بدعة سويرس » . وقد جهد الأسقف في أن يرد الرعية إلى « كنيسة الله » ، ونجح في « إعادة عدد كبير من القلاع والقرى والأديرة وبطوناً بأجمعها إلى حظيرة الأورثوذكسية »[٤٣] . ولعل الإشارة إلى البطون إنما يقصد بها العرب الذين كانوا يعيشون في هيئة قبائل وعشائر .

273 ومايستلفت النظر أن نفوذ المنذر لم يقف عند حد المناطق التي عاش العرب على مقربة منها مثل ولايات سورية وفينيقية وعرابية ، بل امتد نشاطه ليعاون المونوفيزيين بالعاصمة البيزنطية نفسها . وقد حدث أن وقفنا فيما مر عند الاجتماع الكبير للمونوفيزيين الذي عقده المنذر بالقسطنطينية في الثاني من مارس عام ٥٨٠ وشارك فيه « الرؤوس والشخصيات النابهة » من رجال الدين والعلمانيين على السواء[٤٤] . ومن هذا يتضح أن ملك العرب تمتع بدرجة من النفوذ سمحت له بالقيام بمحاولة لجمع كلمة المونوفيزيين والمصالحة بينهم ، وهي محاولة اجتذبت إلى الاجتماع أهل الدين ودوائر رفيعة من العلمانيين ممن تعاطفوا مع هذا المذهب .

ولقد اجتذب الغساسنة إلى المونوفيزية نزعتها الانفصالية ، ومناوءتها المعروفة للديانة الرسمية للدولة ، هذا بالإضافة إلى استقلالها من سلطة الحكومة المركزية . وكان من أكثر الدعاة المتحمسين لهذه العقيدة هم

(٤٠) Joannes Ephesinus, Historia ecclesiastica, IV, 22, pp. 208 - 209 (156).
(٤١) Documenta...., pp. 278 - 279 (195).
(٤٢) N. Pigulevskia, Vizantia i Iran na rubeje VI i VII vv. L., 1946, str. 242 - 243.
(٤٣) Evagrius, Historia ecclesiastica, VI, 22, ed, I. Bidez and L. Parmentier. London, 1898, p. 238.
(٤٤) Joanes Ephesinus, Historia ecclesiastica, IV, 40, pp. 220 - 221 (165 - 166).

السريان الذين كانوا أساتذة للعرب وتحدثوا معهم لغة مشتركة هي مزيج من السريانية والعربية . أما المناطق الجغرافية لانتشار المونوفيزية فقد كان يقطنها السريان والعرب الذين حفظوا لغتهم الأصلية وأسلوب معيشتهم وسط السكان اليونان . ويصدق هذا على التقاليد المدرسية والعلمية لدى السريان الذي تشكّلت أفكارهم الأدبية والفلسفية على مدى قرون طويلة . وفي الوقت ذاته تعرّف العرب على اللغة اليونانية نفسها التي كانت قد تطورت سريعاً حتى أصبحت اللغة المشتركة لجميع شعوب الشرق الأدنى ؛ ومما يشهد بمعرفة العرب بها تلك الرقوم المنقوشة باليونانية التي تم العثور عليها بالقلاع والبيع القديمة .

وقد تمسك الحارث وابنه المنذر بعقيدتها واحتكما إلى الشعب الذي كان يمثله الجيش ؛ ذلك لأن شعبهما كان في واقع الحال يتكون من قوة حربية فتيّة وتتمتع بالحيوية . ويمكن القول بأن قسماً من تلك القبائل العربية التي دخلت في اتحاد تحت زعامة الغساسنة ، وتمثّل ذلك في رؤوسها وأعيانها ، قد اعتنق النصرانية وأظهر تعضيده « للمشارقة » أسوة بما فعل ملوكهم . على أنه يجب ألاّ يفهم من هذا أن جميع تلك القبائل قد تنصّرت ، بل وأكثر من هذا فإنه يستحيل القول بأن من اعتنق النصرانية منهم قد تشرّبها تماماً . هذا وقد اعتمد أتباع المونوفيزية كثيراً على الأشخاص الموجودين في وسطهم مثل الأساقفة والقسس والارشمندريتات ، الذين ارتبط معهم العرب بروابط الصداقة واتبعوا رأيهم فصاروا أنصاراً مخلصين للمونوفيزية .

ويكفي أن نتذكر أنه في النزاع بين اليعقوبيين وأتباع بولص ، أي أنصار كل من يعقوب البرادعي المشهور وبولص الأكامي بطريرك أنطاكية ، قد وجد الخلاف طريقه إلى وسط العرب أيضاً . وكان يعقوب موضع تقدير الحارث بن جبلة نفسه ، كما أن بولص زار حيرتا الغساسنة أكثر من مرة وربطته بالحارث وشائج الصداقة . غير أنه حتى وإن لم تكن النصرانية قد نفذت عميقاً إلى الوسط العربي / ونالت ذلك الانتشار الواسع بين العرب ، فإنه ليس من الممكن تجاهل أثرها الثقافي والحضاري . فمع النصرانية قدمت التصورات الفلسفية ، كما هذّبت النصرانية من أخلاق الناس ورقّقت من مشاعرهم وعرفّتهم بالمثل الأخلاقية الرفيعة . ولقد ارتبطت مجموعة من العرب بالنصرانية ، خاصة ملوكهم وأعيانهم ، وانعكس هذا في مستوى حضارتهم وتطور أسلوب حياتهم ودخولهم في علاقات مع الحضارات البشرية الكبرى التي التقوا بها في الدولة البيزنطية وايران .

النصرانية وسط اللخميين

إن الرأي القائل بانعدام أواصر الصلة بين المجتمعات العربية المختلفة التي وجدت قبل الإسلام لا يتفق مع حقيقة الواقع التاريخي . فالرقوم السبئية التي تم الكشف عنها منذ وقت غير بعيد بمناطق وسط الجزيرة

العربيّة ، وكذلك الحوليات والوثائق التاريخية التي كانت موضع البحث والدراسة ، تثبت كلها بصورة قاطعة أن قيام الصلات بين الحميريين وبدونجد واللخميين والكنديين وسليح والغساسنة واقعة تاريخية لا سبيل إلى الشك في صحتها . والتاريخ السياسي للاتحادات القبلية للعرب يكشف عن وجود علاقات متعشة بينها ؛ ويصدق هذا بدوره على الجوانب الثقافية والعقائدية . ويكتسب أهمية خاصة في هذا الصدد تاريخ انتشار النصرانية في الجنوب العربي حيث ثبتت جذورها وكان لها شهداؤها وكهنوتها . وقد وجد دعاة النصرانية ومعلموها طريقهم مع القوافل التجارية القادمة من بادية الشام (حيث بسط الغساسنة نفوذهم) إلى حيرة اللخميين . ومن هناك اتجه هؤلاء الدعاة إلى نجران وصنعاء صوب الحميريين .

ولقد وجدت بطون من تلك التي دخلت في حلف القبائل الموحّدة تحت سلطان اللخميين كانت تدين بالنصرانية . وهند الكبرى وهند الصغرى اللتان تنتميان إلى عشيرة كندة قد جلبتا معهما عقيدتهما النصرانية ونجحتا في تعميد زوجيهما وأولادهما ، كما شيدتا البيع وخلفتا بها نقوشا تشهد بذلك . كذلك قدم إلى العرب دعاة الاورثوذكسية والنسطورية والمونوفيزية . ففي دولة اللخميين وفي وسط الحميريين نشطت المونوفيزية وكسبت لها أنصاراً عديدين ودخلت في منافسة شديدة مع الاورثوذكسية . وسبق أن أشرنا إلى هذا أكثر من مرة فيما يتعلق بحمير التي ثبّتوا أقدامهم بها ؛ كما أنهم جهدوا في بث كهنتهم بحيرة النعمان(٤٥) . إلّا أن طبيعة الوضع الجغرافي والسياسي لهذه الدولة الأخيرة وجوارها القريب من ايران واعترافها بالتبعية لها ، كان من شأنه أن يعاون على انتشار النسطورية التي سمح لها الشاهنشاهات بالبقاء بوصفها ديناً مضطهداً عند أعدائهم قياصرة الروم . غير أنه وجد بالحيرة ممثلو مختلف المذاهب النصرانية ، بما في ذلك المونوفيزيون . وفي القرن الرابع / عاق من انتشار النصرانية وسط اللخميين ما تعرض له النصارى من ضغط بايران حيث استمرت 275 الاضطهادات الدامية لعشرات السنين حتى وضع حداً لها قرار يزدجرد الأول (٣٩٩ ـ ٤٢١) المشهور لعام ٤١٠ القاضي بتخفيف الضغط على النصارى ، حتى قارنه البعض بقرار ميلان لعام ٣١٣(٤٦) .

« ففي العام الحادي عشر من حكم يزدجرد ملك الملوك المجيد أسبغ حمايته وسلامه على جماعات النصارى ومنح الحق لعبيد الرب كي يحمدوا المسيح علانية في وجودهم وفي موتهم وفي حياتهم » .(٤٧) . ويعني هذا الإذن لهم بالدعوة للنصرانية والقيام بالخدمات الدينية والأناشيد الكنسية ودفن الموتى وفقاً للطقوس النصرانية ؛ كما سمح لهم بإعادة بناء بيعهم التي هدمت أيام الاضطهادات . وفي ذلك العام نفسه ، وبفضل النشاط وحدة الذهن التي تميّز بها مروثا أسقف ميفرقات والذي عرف كيف « يوفّق بين الغرب والشرق » ، أي بين بيزنطة وأيران ، تمت الدعوة بكل من بيزنطة وايران إلى مجمع يعقد بسلوقية . وكان مروثا عضـواً في

(٤٥) N. Pigulevskia. Vizantia na putiakh v Indiu, str. 276 - 278.

(٤٦) I. Labourt. Le christianisme dans l'empire Perse. Paris. 1904, p. 93.

(٤٧) Synodicon Oriental. ed. J. Chabot. Paris. 1902. pp. 17 - 18 (254).

السفارة التي أرسل بها امبراطور بيزنطة إلى يزدجرد فأقنعه بتخفيف الضغط على النصارى . وفي الحقيقة لقد كان مجمع عام ٤١٠ ثمرة لجهود مروثا الذي زار انطاكية وآسيا الصغرى والقسطنطينية وأخذ طرفاً في العديد من المجامع والاجتماعات المحلية ؛ غير أن رأس الاكليروس ببلاد الفرس كان اسحاق أسقف سلوقية ـ طيسفون . وقد تم الاتفاق في هذا المجمع على سلسلة من القرارات المذهبية ، كما تم الاتفاق حول مواضع الأسقفيات والكراسي الأسقفية . ووقّع على قرارات هذا المجمع ثمانية وثلاثون أسقفاً ، احتل بينهم أوسيب أسقف الحيرة[٤٨] المكان السادس والثلاثين . غير أن اسمه لا يرد في قائمة المشتركين في مجمع الأساقفة بل أضيف بالتالي مع ثلاثة أسماء لأساقفة أخر[٤٩] . وإضافة الأسماء تستند على قرار المجمع نفسه القاضي بإرسال المتن إلى الأبرشيات* النائية ليطّلع عليه رجال الدين قبل أن يوقّعوا عليه بأيديهم عند مجيئهم[٥٠] . أما السبب الآخر فكان تطلّع كل واحد من الكراسي الأسقفية ليعدّ أقدمها جميعاً وليرجع أقدميته إلى أول عصور انتشار النصرانية ؛ ولقد وجدت مثل هذه الفكرة أيضاً لدى أساقفة العرب اللخميين .

هذا وقد دعا إلى مجمع عام ٤٢٤ الجاثليق ماردداد يشوع في المحلة التي كانت تسمى مركبته ذي طيايه ، أي مركبته العرب والتي لا علم لنا بموضعها . لهذا قال البعض بوقوع سهو في متن القرارات وأن الأمر يتعلق بمبركته التي كان بها مقدس للقديس سرجيوس / قرب الماحوزة ، أي سلوقية وطيسفون[٥١] . ويمكن الرد على هذا بأن الخطأ وجد طريقه إلى عنوان القرارات فحسب ، وإن كان من المعروف أن تدوينها كان يتم بعناية فائقة . أضف إلى هذا أن مركبته نُعتت بأنها « عربية » وهو أمر لا يصدق البتة على محلة تقع قرب عاصمة ايران ؛ كما وأن اشتقاق الاسم نفسه من المصدر « ركب » يتفق جيداً مع نعته بأنه « للعرب » .

وفي عداد الأساقفة الذين اشتركوا في هذا المجمع « شمعون أسقف حيرة العرب »[٥٢] ، ويشغل اسمه الموضع العاشر من قائمة الأسماء . ويتعلق الأمر بطبيعة الحال بأسقف معسكر اللخميين ، مما يقف دليلاً على قدم النصرانية وسط العرب . فلم يكن غريباً إذن أن يرد أحد أعيان جيش المنذر اللخمي على مليكه في بداية القرن السادس بقوله إنهم لم يصبحوا نصارى « على عهده » .

وقد دعا الجاثليق أقاقي (Acacius) إلى مجمع في عام ٤٨٦ بسلوقية « بيت ارامايه » . وكان من بين الأساقفة الحضور شمعون أسقف الحيرة ، ويرد اسمه في كل من العنوان والمادة الأولى (kanon) من متن قرارات

(٤٨) شرحه ، ص ٣٦ (٢٧٥) .

(٤٩) شرحه ، ص ٣٤ (٢٧٢ ـ ٢٧٣) ، ٦١٦ ، ٦١٨ .

* الأبرشيات eparchies هي الولايات الكبرى للكنيسة في الأقطار المختلفة ، وكانت كل أبرشية تنقسم الى عدد من الأسقفيات diocèses ـ المترجم .

(٥٠) Synodicon Oriental..... p. 34 (273).

(٥١) شرحه ، ص ٤٣ (٢٨٥) ، ٦٢٥ ، ٦٧٦ .

(٥٢) شرحه ، ص ٤٣ (٢٨٥) .

المجمع[٥٣] . أما توقيعه تحت قرارات المجمع فإنه يجيء في الموضع الثامن . وكما هو الحال مع بقية الآباء فهو يتخذ الصيغة الآتية : « أنا شمعون أسقف الحيرة أوافق على ما جاء أعلاه وهذا توقيعي وخاتمي » . كذلك وقّع أسقف الحيرة مار إليا على قرار مجمع مار باباي لعام ٤٩٧ وشغل توقيعه الموضع التاسع في قائمة الأسماء ، مضافاً إليه ختمه[٥٤] . وقد ورد اسمه في العنوان إلّا أنه سقط في التعداد الثاني لسهو من الناسخ[٥٥] .

ولم تُضم أعمال مجمع برصوما لعام ٤٨٤ إلى مجموعة قرارات المجامع النسطورية ، ذلك أنه لم يجتمع ببيت لابط [جند يسابور] آنذاك سوى نفر قليل من الأساقفة ممن لم يرضوا على البطريرك باباي الذي لم يلبث أن قُتل بأمر الساسانيين . وقد تصالح برصوما مع الجاثليق أقاقي الذي حل محل باباي ، ووجه بأربع رسائل إلى رجال الدين بايران . ويرد في عنوان الرسالة الأولى منها اسم شمعون أسقف الحيرة آنذاك[٥٦] ، مع أسماء بقية الأساقفة . ويمثل هذا المكتوب في أساسه اعترافاً لبرصوما بجثلقة أقاقي . أما الرسالة الثانية والموجهة إلى الجاثليق نفسه فإن أسقف نصيبين يطلعه فيها على تفاصيل العمليات العسكرية التي جرت بين بيزنطة وايران ويرجوه ألا ينتظروه هو وبقية الأساقفة الذين دعوا إلى مجمع أقاقي ، لأن البلاد وقعت فريسة للمجاعة والجدب[٥٧] . بل إن برصوما/يقترح تأجيل المجمع إلى وقت تال لعودة الجاثليق من سفارته إلى القسطنطينية . وفي الواقع أن أقاقي قد بعث به إلى الامبراطور زينون في الأعوام ٤٨٥ ـ ٤٨٧ الشاهنشاه بلاش[٥٨] الذي يرد اسمه في بعض المصادر خطأ على أنه فيروز . 277

وأما الرسالة الثالثة فتتحدث عن توبة برصوما ورفضه للقرارات التي اتخذت ببيت لابط ، كما تعكس شكواه من اضطراب الأوضاع بنصيبين التي كان سكانها في حال من الغليان . وهو يكرر هذه الشكاوي في رسالته الرابعة[٥٩] . ومكاتباته لا تخلو من الأهمية لأنها تقف شاهداً على ما أحاط بوضع رجال الدين النصارى من مشاكل وصعوبات في ايران ومع العرب . فالنساطرة اضطروا إلى تسوية أمورهم مع الشاهنشاهات ، وإن وجب الأعتراف بأنه لم يكن بوسع أي مذهب من المذاهب النصرانية أن يستغني عن بيزنطة . وتعكس رسالة برصوما الثانية (أنظر ما مر في ص ٩٠) مدى الأهمية التي اكتسبتها الوحدات العربية في كل من جيشي الروم

---

(٥٣) شرحه ، ص ٥٣ (٢٩٩) ، ٥٤ (٣٠١) ، ٥٩ (٣٠٦)

(٥٤) شرحه ، ص ٦٦ (٣١٥) ؛

F. Nau, Les Arabes chrétiens de Mésopotamie et Syrie du VII-VIII ss., Paris, 1933, p. 39.

(٥٥) Synodicon Oriental, p. 62 (310 - 311).

(٥٦) شرحه ، ص ٥٢٥ (٥٣١ ، الحاشية ٤)

(٥٧) شرحه ، ص ٥٢٧ (٥٣٣)

(٥٨) Maris Amri et Slibae, De patriarchis nestorianorum commentaria, ed. H. Gismondi, Romae, 1899, Mari, p. 38. Amr, p. 20.

(٥٩) Synodicon Oriental, pp. 527 - 530 (534 - 537).

والفرس ، مما ترك أثره على الوضع السياسي العام . وأيضاً على وضع النصارى العرب الذين وجدوا أنفسهم مضطرين إلى القتال ضد إخوتهم في الدين على الرغم من أنهم قد طلبوا العون منهم مرارا ، بل وحصلوا عليه بالفعل .

وكانت الحيرة مركزاً تجمعت فيه الخيوط من شتى نقاط الشرق الأدنى . ففي معسكر المنذر اللخمي جرت في يناير من عام ٥٢٤ مناقشة الخطوات الواجب اتخاذها لوضع حد لاضطهاد النصارى بحمير على يد الملك مسروق ذي نواس الذي اغتصب العرش لنفسه[٦٠] . ولقد شارك في هذا بحيّوية مثلو الاتجاهات النصرانية وأعربوا عن قلقهم على مصير إخوتهم في الدين باليمن. ورسالة شمعون الأرشمي الذي كان مونوفيزياً غيوراً تصف لنا بحيوية ما حدث بمعسكر اللخميين ، حيث كان شمعون هذا شخصية معروفة فيه . وقد دعا شمعون إلى تعاليمه حتى بالحيرة نفسها ، لأنه يحكي بنفسه عن وصوله إلى « معسكر بيت النعمان » . ولقد زار شمعون الحيرة مراراً وأدخل عدداً غفيراً من العرب في النصرانية ؛ كما أقنع « الأعيان » ببناء بيعة بها[٦١] . كذلك نجح شمعون في نشر الدعوة بايران ، وخاصة بالعاصمة طيسفون ، مما أثار عليه سخط النساطرة الذين جرى له معهم مناظرات عنيفة . غير أن الارتياب في أنه كان يعمل لمصلحة بيزنطة ساقه بأمر الشاه إلى الحبس ، ولكن توسط في أمره سفير ملك إثيوبيا الذي كان ينتمي إلى « أهل العقيدة الصحيحة » أي أنه كان من أتباع المونوفيزية ، لذا فقد أطلق سراحه . ولقد أمضى شمعون عام ٥٣٩ ـ ٥٤٠ بالقسطنطينية/حيث حَظِي المونوفيزيون بمساندة الإمبراطورة ثيودورا[٦٢] .

2

وقد أشرنا فيما مر إلى أن المونوفيزية وجدت لها أنصاراً بالحيرة . وفي زمن جثلقة شيلا (٥٠٥ ـ ٥٢٢) تمتع المونوفيزيون بالتعضيد في الحيرة رغم أنف الجاثليق الذي لم يأبه أحد لرأيه . ولم يجبر المونوفيزيين على الاختفاء أو الهرب من الحيرة إلا تدخل الامبراطور يوسطين[٦٣] .

وممن كان لهم نصيب كبير في تنصير القبائل العربية النازلة بأرض الجزيرة (جزيرتا) احودامه الذي أصبح مطراناً لليعقوبيين في عام ٥٥٩ ؛ فكان داعية الرحّل ومعلمهم ومنظّم حياتهم النصرانية . والعبارات التي تحكي عن هذا بالتفصيل في سيرة حياته والتي نقل عنها العديد من مدوّني الحوليات السريانية ، تعين إلى اللحظة على التعرف على الخطوط العريضة للبناء الاجتماعي للعرب والتي سبق أن بيّناها فيما مر اعتماداً على مصادر أخرى .

(٦٠) N. Pigulevskia, Vizantia na putiakh v Indiu, str. 292 - 297.

(٦١) John of Ephesus. Lives of the Eastern Saints. Patrologia Orientalis, t. 17, Paris, 1923, p. 140.

(٦٢) شرحه ، ص ١٥٧ ، الحاشية ١ .

(٦٣) Histoire nestorienne (Chronique de Seert), seconde partie, Publiée et traduite par Addai Scher. Patrologia Orientalis, t. VII, pp. 142 - 144.

ولد اخودامه بموضع يعرف باسم بلد بمنطقة بيت عربايه ، وهي الولاية من دولة ايران المتاخمة لأراضي الدولة البيزنطية والتي شكّل العرب شطراً هاماً من سكانها حتى عرفت بهذه التسمية المناسبة . وبلد هذه تعرف حالياً باسم اسكي موصل [أي « الموصل القديمة » باللغة التركية] وتقع على ضفاف دجلة ، وذلك على مسافة تتراوح بين ثلاثين وأربعين كيلومتراً (ستة فراسخ[٦٤]) من الموصل . والألفاظ التي تقول بأنه « كان ابناً لأبوين غير معتقدين »[٦٥] يطلقها المونوفيزيون عادة على النساطرة والاورثوذكس . وإذا ما حكمنا على ما ورد بسيرته من أنه رفض الاعتراف « بالطبيعتين بعد اتحادهما » ، فإنه يجب الافتراض بأن والديه كانا من النساطرة بينما مال هو إلى المونوفيزيين الذين كان لديه فكرة جيدة عن عقيدتهم . هذا وقد نصبه يعقوب البرادعي الشهير أسقفاً وبالتالي مطراناً لمنطقة بيت عربايه[٦٦] . ولقد أحاط الكثير من الصعوبات والمشاق بنشاط اخودامه كداعية ومعلم ، ذلك أن القبائل الجبلية من الرحّل كانت تعيش آنذاك في حالة من البربرية . « ووجد أناس كثيرون بين دجلة والفرات بهذه المنطقة المسماة جزيرتا [أرض الجزيرة] يسكنون الخيام ؛ وكانوا برابرة ومقاتلين يتبعون طقوساً بدائية ويعيشون في حالة من الجاهلية الأولى أكثر من غيرهم من الشعوب إلى اللحظة التي أضاء قلوبهم نور المسيح »[٦٧] .

279 ولقد اعتلجت الرغبة في صدر بطل السيرة لإدخال / هؤلاء الناس في حظيرةالنصرانية منذ وقت طويل ، ولكنه رهبهم لأنه « رأى فيهم أشراراً وأن لغتهم عسيرة الفهم ، وأنهم كانوا برابرة وقتلة »[٦٨] . كذلك شكّلت الظروف الطبيعية ببلادهم صعوبات مماثلة ، فقد كان عليه أن يحتمل البرد والحر وأن يتغلب على شتى العقبات . وما يستلفت النظر أنه رغماً من الجذور المشتركة للغتين السريانية والعربية فإن مدوّن سيرة الأسقف يتحدث عن صعوبة اللغة العربية بالنسبة له . وقد قام احودمّه « بزيارة جميع المخيمات » ؛ والحديث عن « المخيم » يشير إلى أنه دار على منازل الرحّل وليس السكان الحضر . وهو لم يكتف بإدخال الناس في الدين فحسب بل جهد كذلك في تنظيم الحياة الدينية للداخلين حديثاً في حظيرة الدين ، فقد « جمع القسس وساقهم إليه من مختلف الأنحاء وذلك بالكلمة الطيبة آناً وبالهدايا آناً آخر ، وأقنعهم بأن يجعلوا لكل قبيلة قسّاً وشمّاساً وأن يشيدوا البيع التي أطلق عليها أسماء شيوخ القبائل حتى يساعدوا في حل جميع المشاكل ويستجيبوا لما يطلبه منهم »[٦٩] . وهكذا نجح اخودامه في « أن يستميل إليه » الطبقة القيادية أي شيوخ العشائر والقبائل العربية حتى يعاونوا في بناء البيع التي حملت أسماء هؤلاء الشيوخ ، مما كان من شأنه أن يشبع غرورهم . كذلك

(٦٤) G. Hoffmann, Auszüge aus Syrischen Akten Persischer Martyrer. Leipzig, 1880, p. 97.
(٦٥) Histoire de St. Ahoudemmeh, ed. par E. Nau. Patrologia Orientalis, t. III, Paris, 1909, p. 19.
(٦٦) شرحه ، ص ٢٠ .
(٦٧) شرحه ، ص ٢١ ; F.Nau, Les Arabes chrétiens..., p.17 .
(٦٨) Histoire d'Ahudemmeh, p. 22.
(٦٩) شرحه ، ص ٢٧ .

يتحدث مترجم سيرته عن أعماله الطيبة فيشير بالذات إلى أنه كراع حقيقي للكنيسة قد « اشترى » بحرّ ماله كل ما هو ضروري لهذه البيع ، مما ترك أثراً قوياً في نفوس معاصريه .

وبما أن نشاط اخودامه كان مسرحه بلاد ايران ، فإنه من غير المتوقع ألا يكون قد عُرف ببلاط الشاه . ومن المعلوم أن خسرو انوشروان كان مهتماً بالتيارات الدينية في دولته ؛ وتروي المصادر[٧٠] عن المناظرات الدينية بين المذاهب المختلفة التي جرت ببلاطه . والجدل المذهبي بين النساطرة والمونوفيزيين والذي أخذ فيه احودامه نفسه بطرف نشيط قد انتهى إذا ما صدقنا أقوال يوحنا الافسوسي بانتصار المونوفيزيين . وعلى أية حال فقد أُذن لهم بتشييد البيع والديارات[٧١] ، فمثلاً على مقربة من تكريت تم بناء دير يعرف باسم دير جعتاني[٧٢] . ورغماً من كل هذا فقد اجتلب اخودامه على نفسه في آخر الأمر سخط الشاه باجترائه على تعميد ابنه ، فألقي القبض عليه هو وبعض تلامذته وأخذوا إلى العاصمة حيث قذف بهم في السجن الذي ظل قابعاً فيه لمدة عامين . ولكن في إحدى / اللحظات أمر الشاه بالسماح للنصارى بالدخول عليه وألاّ يُحال بينهم وبين ذلك . وورد في سيرته أن العرب الذين كان عمّدهم عقدوا العزم على افتدائه لدى الشاه وعرضوا دفع فدية من الذهب تعادل وزنه ثلاث مرات ، بل وأبدوا استعدادهم لفدائه بأنفسهم حتى « ولو طلب [الشاه] عشرين رجلاً منا ليقتلهم بدلاً عنك »[٧٣] . غير أن اخودامه « هدّأ من روعهم » ورفض بشدة هذا الضرب من العون واعتبر أن ما حل به من محَن أمر يجب عليه تحمله ، وأن العرب سيجنون ثمرة إخلاصهم . على أية حال فإن ما أبدوه حياله من وفاء في هذه المحنة لأمر يلفت النظر حقاً .

ومما يعد طريفاً حقاً توكيد السيرة أن العرب « اتصفوا بالغيرة والحماس في عقيدتهم الصحيحة [المونوفيزية] ، وأنه في كل مرة تعرضت فيها الكنيسة المقدسة للاضطهاد كانوا دائماً على استعداد للدفاع عنها بأرواحهم ، خاصة قبائلهم المختارة والكثيرة العدد ؛ وهم عقولاية وتنوخايه وطيايه »[٧٤] .

من هذا نبصر أهمية الدور الذي لعبه العرب ، شأنهم في ذلك شأن الملوك من غسان ، في حياة المونوفيزيين عندما أخذوا على عاتقهم حماية « الآباء المشارقة » من تحيّز القسطنطينية ضدهم . ومما يسترعي النظر ذكر قبائل بذاتها من التي انتشرت النصرانية في وسطها مثل عقولايه ، وهي قبيلة نزلت حول الكوفة أو عاقولا وذلك إلى الجنوب من الحلّة[٧٥] . أما تنوخ فهي النواة الرئيسية لقبائل لخم التي تجمعت حول مدينتي

---

(٧٠) N.Pigulevskia, Vizantia i Iran..., str. 234—249. (وبالأخص الصفحات ٢٣٩ - ٢٤٠) .

(٧١) Joannes Ephesinus. Historia ecclesiastica. VI, 20, pp. 317 - 318.

(٧٢) Histoire d'Ahudemmeh, p. 32.

(٧٣) شرحه ، ص ٣٧ .

(٧٤) شرحه ، ص ٢٨ .

(٧٥) شرحه ، ص ٢٨ ، حاشية ٣ .

الحيرة والأنبار ؛ ويرد ذكر التنوخيين في « أيام العرب » حيث قيلت فيهم الأشعار وكانوا أبطالاً في عدد من المعارك . وأما فيما يتعلق بطيايه فقد ورد ذكر هذه القبيلة في الرسالة الثانية لبرصوما على أنها كانت تخضع للفرس وانتظم عدد كبير من فرسانها في جيش ايران . وفي إشارته إلى الأربعمائة من فرسان هذه القبيلة فليس في متن رسالته ما يوحي بأنهم كانوا يمثلون جيش طيايه بأكمله(٧٦) . وهذه القبائل نفسها كانت تدخل ضمن رعية جرجس المونوفيزي « أسقف العرب » (المتوفي عام ٧٢٤) ؛ وتحمل إحدى رسائله عنواناً يصفه بأنه أسقف « تنوخ وطي وعاقولا »(٧٧) .

281 أما ابرام [ابراهيم] الكشكري (٤٩١/٤٩٢ - ٥٨٦) الذي أدخل الكثير من الإصلاح في الرهبانية السريانية فقد بدأ نشاطه بنواحي الحيرة ، ثم طاف بعد ذلك على الرهبان النازلين بصحراء الاسكينين وشبه جزيرة سيناء ، كما حج إلى الأماكن المقدسة . وعند عودته إلى المشرق أسس الدير المشهور بجبل الأزلي(٧٨) .

وأما نرسيس (نرسي) أسقف الحيرة فقد تم انتخابه جاثليقاً للنساطرة في عام ٥٢٣ ، غير أن شطراً من الأساقفة أدلوا بأصواتهم من أجل أسقف آخر هو اليشع وكان صهراً للجاثليق شيلا الذي مات منذ وقت ليس بالبعيد . وقد ساق هذا إلى الانشقاق داخل الطائفة ، فلما مات نرسيس حوالي عام ٥٣٥ لم تجتمع الكلمة على اليشع بل تم اختيار النسطوري بولص لمنصب الجاثليق ، وكان من قبل اركد ياقونا [كبير الشمامسة] بسلوقية وحصل على تعضيد خسرو أنو شروان(٧٩) .

وجاثليق النساطرة الشهير مار ابّا أو بطريقيوس Patrikios كما دعاه البيزنطيون ، كان يدين في ماضي حياته بالزرادشتيه . وهو من أصل فارسي وكان يعيش بطيسفون ؛ وقد عمل بغيرة شديدة قبل موته بقليل والذي حدث في ٢٩ فبراير ٥٥٢ (٨٦٣ من التقويم السلوقي) على نشر الدعوة لأفكاره . « فأقنع الكثيرين من زواره باطّراح الهرطقة ، خاصة أولئك الذين قدموا مع ملك العرب ليرفعوا آيات الاحترام لملك الملوك »(٨٠) ؛ وقوزما الملاح الهندي Cosmas Indicopleustes(٨١) كان شديد الاعجاب بمار ابّا هذا . وكما هو معلوم فان مار آبا كان نسطورياً شديد التعصب لمذهبه ، وبذل جهده ليجتث المونوفيزية من بين بطانة ملك

---

(٧٦) Synodicon Oriental, pp. 526 - 527 (532 - 533).

(٧٧) V. Ryssel, Georges, des Araberbischofs Gedichte und Briefe. Leipzig, 1891, p. 44; A. Baumstark, Geschichte der syrischen Litteratur. Bonn, 1922, p. 257.

(٧٨) Jésusdenah, Livre de chasteté, ed. par I. B. Chabot. Roma, 1886, No. 14, pp. 7 - 9. (8 - 10); I. Labourt, Le christianisme..., pp. 316 - 317.

(٧٩) Amr, De patriarchis nestorianorum, p. 23.

(٨٠) Vie de mar Aba, pp. 269 - 270; Histoire de mar Jabalaha et de trois autres patriarches, ed. P. Bedjan, Paris, 1895; N. Pigulevskia, Mar Aba I, Sov. Vostokved., t. V, L.. 1948; N. Pigulevskaia, Mar Aba I. Mélanges Massé, Tehéran, 1963, p. 10.

(٨١) N. Pigulevskia, Vizantia na putiakh v Indiu, str. 129 - 156; W. Wolska, La topographie chrétienne de Cosmas Indicopleustes. Paris, 1962, pp. 63 - 85.

الحيرة الذين قدموا معه إلى بلاط الشاه. وكان لما عرف عنه من نشاط وأيضاً لانتشار صيته أن جمع هذا لفيفاً من الناس حوله. وقد حملت رفاة مار آبا إلى الحيرة « فدفن بها وشيد على مقبرته دير لا يزال قائماً إلى اليوم » ، كما تقول حولية لمؤلف نسطوري مجهول(٨٢). وتضيف هذه الحولية أن مار ابا قد طلب في وصيته بأن يدفن بالحيرة لأنه تم تعميده بعاصمة العرب هذه. بيد أن هذا الزعم الذي تكرره مصادر عربية أخرى(٨٣) يتعارض مع ما تشير إليه سيرة حياته كموضع لتعميده وهو قرية « اكِد »(٨٤). ولقد ترك نشاط جاثليق النساطرة أثراً عميقاً ، لا في تاريخ الكنيسة السريانية وحدها فحسب بل وبين النصارى العرب أجمعين.

وعلى الرغم من كل المعلومات التي توكد وجود بيع نصرانية بالحيرة ، كما توكد أيضاً وجود رجال الدين النصارى بها ونشاطهم في الدعوة ونشر العقيدة بها ؛ بل وعلى الرغم أيضاً من أن نساء ملوك اللخميين كنّ نصرانيات وأن شطراً من العشائر التي دخلت في حلف القبائل التي اعترفت بهؤلاء الملوك قد اعتنق النصرانية ؛ أقول على الرغم من كل هذا فقد ظل اللخميون أنفسهم على وثنيتهم. فأخلاقهم الوعرة وجفاء طبعهم وتقديمهم الضحايا البشرية إلى آلهتهم و « عاداتهم البربرية » ، كل هذا توكده أيضاً سائر المصادر.

282

وبعد انتصار خسرو برويز وإرجاعه الصلبان التي استولى عليها بالدولة البيزنطية إلى كنائسها ، والذي رغماً من انتصاره أظهر الكثير من التسامح فقد حدث تحسّن كبير في وضع النصرانية بايران. هذا التحسن في وضع النصارى لم يتوان في ترك أثره أيضاً على موقف حلفائهم العرب من النصرانية. وينعكس هذا بصورة جلية في قصة النعمان.

« آنذاك حتى النعمان فيلارخ الاسكينيين الأعداء ، ذلك الوثني الملعون النجس والذي كان يقدم القرابين بيديه لشيطانه ، لم يلبث أن قبل التعميد المقدّس وألقى في النار بتمثال افروديت المصنوع من الذهب الخالص واختار حياة الفقر وساق كل من كانوا معه إلى الله »(٨٥). وقد قام بتعميده شمعون اسقف الحيرة ؛ أما أحداث الحيرة المتعلقة بهذه الواقعة فتحكيها لنا الحولية السريانية المجهولة المؤلف في الألفاظ الآتية : « وكان خسرو يبغض كثيراً ايشوعيب رأس النصارى لأنه لم يصحبه إلى بلاد الروم ، وأيضاً بسبب الدسائس التي كان يحيكها ضده طيمثاوس كبير أطباء نصيبين ، لذا فقد تزايد سخطه عليه. وبعد وقت من هذا توجه الجاثليق إلى حيرة العرب لمقابلة النعمان ملك العرب الذي تعمّد وأصبح نصرانياً. فلما كان قريباً من الحيرة اعتلّ ومات بقرية تدعى ببيت كُشاي. وسمعت بهذا هند أخت النعمان فخرجت مع القسس وأهل العقيدة من الحيرة

(٨٢) Histoire nestorienne. Patrologia Orientalis, t. 7, p. 170.

(٨٣) Maris Amiri et Slibae. De patriarchis nestorianorum commentaria. ed H. Gismondi. Pars prior. Romae, 1899; Mari, p. 52 (45); pars altera Romae, 1897: Amr et Sliba, pp. 40 - 41 (23 - 24).

(٨٤) Vie de mar Aba. 216.

(٨٥) Evagrius. Historia ecclesiastica, VI. 22, p. 238.

وحملت جثمان القديس في مشهد مهيب ودفنته بدير جديد كانت قد ابتنته »(٨٦) . من هذا يتضح أن ايشوعيب مات عام ٥٩٤/٥٩٥ قرب الحيرة التي هرب إليها خوفاً من سخط خسرو ، فدفنته بها أخت النعمان وهي هند الصغرى . وكان النعمان قد اعتنق النصرانية قبل ذلك بقليل . وينسب المونوفيزيون إلى أنفسهم إدخال ملك اللخميين في حظيرة النصرانية(٨٧) ، مما يدللّ مرة أخرى على حدة التنافس بين هذين المذهبين الذي كان مسرحه الشرق الأدنى .

ومما لا شك فيه أن السريان هم المسئولون الأول عن نشر النصرانية وسط « عرب الفرس » ، وأيضاً في سورية وفينيقية . وكان مما قرّبهم إلى المونوفيزية أن عرب بيزنطة الذي كانوا قريبين إليهم من حيث اللغة وأسلوب الحياة قد ساندوا هذه العقيدة أيضاً . وكان رجال الدين الذين نصّبهم سويرس الأنطاكي ويعقوب البرادعي دعاة نشطين ، كما كانت مملكتا اللخميين والحميريين مجالاً واسعاً وميداناً فسيحاً لنشاطهم في الدعوة .

أما الذي قرّب العرب الذين كانوا يدورون في فلك ايران إلى النساطرة فهو أن العقيدةالنصرانية كان مسموحاً بها بل واستطاعت رغم جميع ما واجهته من صعوبات البقاء بايران التي غلبت عليها الزرداشتية ، الدين الرسمي للدولة . وانتشار النسطورية بين العرب قرّبهم من الرعايا / النصارى لايران ؛ وقد اعتبر هذا أمراً أقل خطراً من التقارب مع الاورثوذكسية والمونوفيزية لأن هاتين العقيدتين اعتنقهما الروم المعادون لايران ، كما اعتنقها أيضاً عرب الروم . وحتى في هذه الحال فإنه يستحيل الكلام عن انتشار واسع للنصرانية وسط العرب إذ لم يعتنقها منهم في واقع الأمر سوى أسر وعشائر معدودة . وإن لزم التنويه بأن الأسرة المالكة بكندة والتي كانت تربطها روابط النسب مع اللخميين قد ظلت على إخلاصها للنصرانية . ولقد شيّدت هند ملكة اللخميين بيعة بالحيرة وعمّدت ابنها ، وهو ما يحكي به النقش الكتابي الذي وجد على جدار تلك البيعة . ويجب الاعتراف بأن النساء كان لهن دور في تلطيف جفاء العرب ، وحملن الدين الجديد ودعون إليه .

283

أما الكتلة الغالبة للقبائل العربية بمملكة اللخميين فقد ظلت على وثنيتها ، وإن وجب الإشارة إلى أن الأفكار المتعلقة بالوحدانية لم تكن غريبة عليهم تماماً . ذلك أن وحدة اللغة ووحدة الأصل العرقي ، واتصال القبائل العربية بعضها ببعض ؛ كل هذا ساق شيئاً فشيئاً إلى الاقتراب من الوحدانية بحيث وجدت الدعوة الإسلامية تربة صالحة عند بزوغ فجر الإسلام .



---

(٨٦) Chronicon anonymum. Chronica minora. CSCO. Scriptores syri, t. IV, p. 20; N. Pigulevskia, Anonimnia khronika o vremeni sasanidov, No. 3, str. 64

(٨٧) Barhebreus, Chronicon ecclesiasticum, t. II, p. 105.

الخاتمة

284 لقد بلغنا نهاية المطاف في بحثنا هذا الذي كرّسناه لتاريخ القبائل العربية الشمالية في الفترة السابقة لظهور الإسلام . ولعل هذه أول مرة يتم فيها فحص تاريخ هذه القبائل في إطار العلاقات التي ربطت بينها في الحرب والسلم . كما لعله يجري لأول مرة أيضاً دراسة علاقات التحالف لهذه القبائل مع كل من بيزنطة وايران وحمير بصورة متابعة ، وذلك في إطار الحياة الاقتصادية والسياسية للشرق الأدنى بحاله . وللقيام بهذه الدراسة المقارنة لم نكتف بحفص مجدّد لجميع المصادر فحسب ، بل ضممنا إلى ذلك وثائق عديدة وجديدة تمام الجدّة لم تدخل حتى اللحظة في الاستعمال العلمي . هذه هي الرقوم المنحوتة بخط المسند التي خلفها لنا السبئيون والحميريون، مضافاً إليها مادة الحوليات السريانية واليونانية المدوّنة باللغتين السريانية واليونانية والشعر الجاهلي وسيَر القديسين باللغتين اليونانية والسريانية ، وأخيراً التواريخ الكنسية . وقد ساق التحليل المقارن الدقيق لجميع هذه المصادر إلى تثبيت الخطوط الأساسية لتطور هذه المجتمعات والتتابع الزمني للأحداث .

وبذا فإنه بدلاً من الوقائع والأحداث المتناثرة في حياة الإمارات المختلفة أضحى من الممكن الاستعاضة ببحث يعرض التاريخ العام للقبائل العربية الشمالية وماطرأ من تغيرات في علاقاتها بالدول الكبرى التي بسطت سيطرتها على المنطقة ، وكيف انبعثت اتحاداتها ثم تهاوت بالتالي ، وكيف جهدت في أن تثبّت أقدامها على الحدود الفارسية والبيزنطية . كذلك كان من الجوهري كشف النقاب عن التأثيرات الحضارية التي تركتها الدول الكبرى على جيرانها من الرحّل (البدو) وأشباه الرحّل .

ولقد عاونت المصادر الجديدة على تثبيت الخطوط العريضة للنمو المنتظم للمجتمعات العربية وعلى تحديد أشكالها ومستوى تطورها الاجتماعي ، كما عاونت أيضاً على الخروج باستقراءات جديدة ذات طابع عام . ولقد سبق ظهور الإسلام هزات اجتماعية عميقة الأثر داخل الدولتين الكبريتين بآسيا الغربية ، وذلك في الفترة الممتدة من القرن الثالث وهو القرن الذي استفحلت فيه أزمة المجتمع القائم على الرق / والتي 285 اخترمت منطقة البحر المتوسط بأكملها، الى القرن السابع وهو قرن الفتوح الإسلامية وانتصار كلمة العرب . والتاريخ السياسي والحربي لهذه الفترة المفعمة بالأحداث قد شارك فيه على الدوام القبائل وأحلاف القبائل العربية التي وجدت نفسها مساقة إلى هذه الحروب من أجل المصالح الاقتصادية للدول الكبرى . كذلك ساقت التطورات الاجتماعية والاقتصادية في الدول المهيمنة على الشرق الأدنى إلى ظهور ضرب جديد من العلاقات يعتبر أكثر تقدماً من مجتمع الرق وهو المجتمع الإقطاعي . وقد ترك هذا الطابع الإقطاعي المبكر

للنظم الاجتماعية ببيزنطة وايران أثره بالتالي على دولة الخلافة الإسلامية التي شغلت الرقعة نفسها من الأرض التي كانت تتبع تلكم الدولتين .

وثمة دور هام لعبه في القرون السابقة مباشرة للفتوح العربية الاسلامية انهيار التبادل التجاري النشيط الذي وُجد منذ أزمنة سحيقة بين شعوب بلاد العرب الجنوبية والشرق الأدنى ، وأيضاً انهيار العلاقات المعتادة بين الشرق الأقصى من جهة والشرق الأوسط وحوض البحر المتوسط من جهة أخرى . وكان السبب الرئيسي لنشوب العداء بين ايران وبيزنطة هو المشاكل المتعلقة بالحدود وطرق التجارة ، حيث كان من العسير تحاشي الالتقاء فيها بالقبائل العربية من الرحّل وأشباه الرحّل . وتعيننا مادة المصادر على أن نحدّد بثقة تامة دور العرب في التبادل التجاري ومشاركتهم المباشرة في نقل السلع وإيصالها ، بل وفي التجارة نفسها . ويصدق هذا على « طريق الطيب » الذي كان يخترق شبه الجزيرة العربية بحالها والحجاز مهد « بني اسماعيل » ، كما يصدق أيضاً على القسم الشرقي من « طريق الحرير » الممتد من الأقطار الواقعة وراء نهر دجلة إلى سواحل سورية . كما انجذبت في تيار الأحداث السياسية أيضاً السواحل الإفريقية للبحر الأحمر والتي وقعت في أيدي الحلف المكوّن من بيزنطة وحمير وإثيوبيا . كذلك جهد عرب كنده لاحتلال مواضع استراتيجية على السواحل الشمالية لذاك البحر . وكان نشاط عشيرة آكل المُرار على مدى المساحات الشاسعة للشرق الأدنى أشبه ما يكون بالمحاولة الأولى لتجميع طاقة العرب وإمكانياتهم في ظروف دولية معقّدة .

ورغماً من أن الاتحادات العربية الشمالية كثيرما وُجدت في حالة من العداء بعضها مع بعض ، إلا أنها كوّنت أحلافاً قبلية وكان لها تنظيماتها العسكرية مما جعل التحالف معها أمراً مرغوباً فيه من طرف الدولتين الكبريتين . وقد حافظت تلك القبائل على تقسيماتها القبلية والعشائرية حتى في داخل جيشها ولكنها ظلت مخلصة لبنائها الاجتماعي البدائي الذي استند على « الجماعة » والذي كان شورياً في أساسه ، رغماً من ظهور الأسر الكبيرة التي كوّنت طبقة الأعيان القبلية وتولت الزعامة والحكم فيها . وهكذا وجد النظام الطبقي طريقة إلى مجتمعهم وأصبح يمثل مرحلة جديدة من مراحل تطوره . والتركيب شبه البدوي لأحلاف القبائل العربية جعلها تتميّز بالحركة وزاد من فاعليتها القتالية واستعدادها العسكري ، غير أنه في الوقت ذاته وقف عائقاً في سبيل تطوير نظم الحكم لديها ، أقصد نظم الحكم المعروفة والمعهودة لحكومات الشعوب الحضرية القديمة التي تشكلت منذ عهود ضاربة في القدم . /وكان لأحلاف القبائل حدودها الجغرافية ونقاطها الحصينة ، كما كان لها مدن مخيمات تسهر على حراستها . وبمرور الزمان ثبتت هذه الحدود واكتسبت صفة من الدوام بحيث أضحى من غير الممكن اجتيازها دون ما عقاب . 2

وتعاون الدراسة المقارنة لتاريخ الاتحادات المختلفة للقبائل العربية الشمالية ومَلَكياتها على تحديد خطوط

تطورها الاجتماعي أثناء وجودها في مرحلة الحلف القبلي ، والذي تطور بالتالي إلى أنماط اجتماعية أرفع من ذلك . ونشأة الدول الفتيّة « البربرية » تمثل ظاهرة فريدة في حياة العرب شبه الرحّل ؛ وكان اللخميون والسليحيون والكنديون والغساسنة جميعاً يمثلون أحلافاً قبلية ومَلَكيات حلّت الواحدة محل الأخرى ولم تنخرط في وحدة متكاملة . ذلك أن توحيد القبائل العربية سبقته محاولات مجهضة قبل أن يكتمل تحت راية الإسلام .

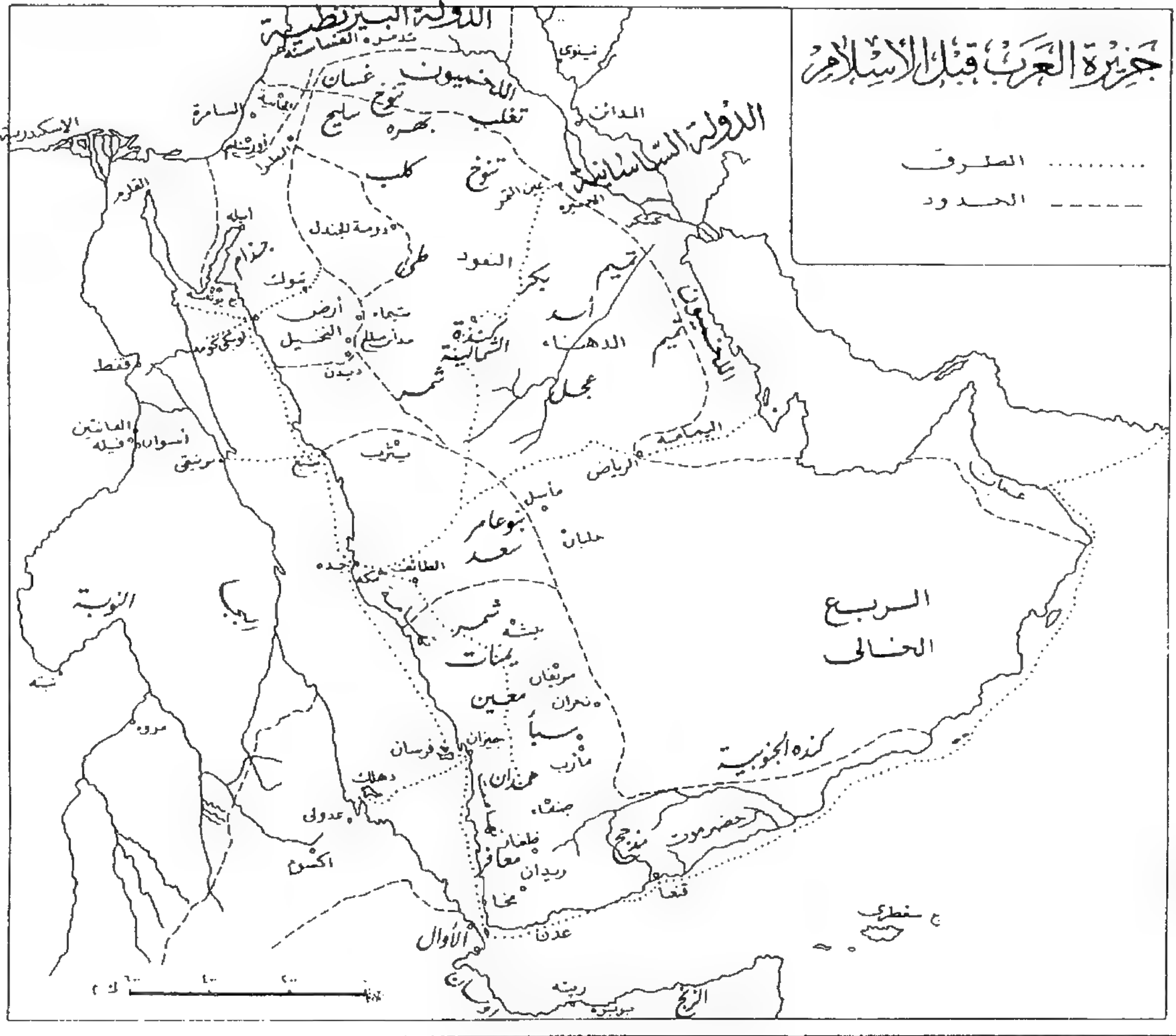
واعتناق شطر من العرب للنصرانية كان من دواعي التقارب بينهم وبين بقية سكان الامبراطورية ، بل إن هذا حدث بايران أيضاً حيث وجد عدد من رعايا الشاهنشاه من السريان والفرس كانوا يدينون بالنصرانية . وفي أحلاف القبائل العربية كالغساسنة غلبت النصرانية من المذهب المونوفيزي ، وفقاً للعقيدة الغالبة بولايتي مصر وسورية البيزنطيتين . أما بالولايات الشرقية في أرض الجزيرة فقد وقع العرب تحت تأثير النصرانية في شكلها النسطوري الذي أفسح له الفرس المجال . وأما الزرداشتيه وهي الدين الرسمي لايران فإنها لم تصبح ، وما كان لها أن تصبح بالنظر لطبيعتها ، ديانة عالمية . ذلك أن خاصيتها القومية وشرائعها ومناسكها وقفت حائلاً دون تطورها إلى مستوى المفاهيم العريضة والمبادىء العامة التي تنازعت السيطرة على أذهان الناس في ذلك العهد .

وقد أسهمت النصرانية نوعاً ما في توحيد كلمة العرب ولكنها لم تمتد إلى جماعات كبيرة منهم ، ذلك أنها من ناحية لم تتناسب مع درجة تطورهم ، ومن ناحية أخرى لم تتفق مع التركيب النفسي للعرب . فقد كان أقرب إلى نفوسهم تلك الوحدانية البسيطة التي جاء بها القرآن ، وذلك التوافق الحضاري للإسلام مع حياتهم البدوية وشبه البدوية . وبذلك لم يعقّد من حياتهم تلك التركة الحضارية المثقلة التي وجدت طريقها من الهلينية إلى النصرانية فأصبحت جزءاً لا يتجزأ من كيانها . ومما لا شك فيه أن التطور الاجتماعي للعرب بلغ آنذاك مرحلة تحدّدت فيها بوضوح حاجتهم إلى ديانة تتجاوز الاختلافات القبلية وتجمع كلمة العرب . وكان في الإسلام استجابة لهذه الحاجة الملحّة وللمستوى الحضاري الذي بلغه العرب آنذاك . هذا المستوى أسهمت فيه أيضاً عناصر عربية جنوبية تنتمي إلى حضارة مستقرّة لها مثلها الأخلاقية وعاداتها المتميّزة ، وانضم إليها القبائل الرحّل وأشباه الرحّل لوسط الجزيرة العربية . وقد انعكس هذا بصورة واضحة في كتاباتهم وفي آثارهم الأدبية المبكّرة . ولقد طوّر العرب أبجديتهم الجديدة على أساس الكتابة الأرامية الشمالية ، أما خط المسند الذي دوّنت به النقوش العربية الجنوبية فقد أُهمل ولم يلبث أن طوته ذبول النسيان . ويمثل الشعر الشعبي للقبائل العربية عنصراً أساسياً في تكوين الأدب العربي ، كما تردد صداه خاصة في « أيام العرب » التي تغنّت / 287 بالوقائع والمعارك التي جرت بين القبائل العربية ؛ وقد ارتبط ظهور الشعر العربي بأسماء الشعراء الأوائل من أمثال الحارث بن حلزة وعمرو بن كلثوم وامرىء القيس . وتلقي المصنفات التاريخية الضوء على المادة الموجودة في الرقوم السبئية الكبيرة ؛ كذلك حفظت لنا هذه المصنفات الأنساب المتواترة التي اهتمت لها على الدوام

المجتمعات البدوية الأخرى كالترك والمغول . وتوضح لنا الغارات وأعمال الغزو أهمية الدافع الاقتصادي في توحيد العرب وصهرهم في مجتمع واحد . كذلك عاون التحالف القبلي في نمو أنماط جديدة للمجتمع أكثر تقدماً .

وإذا كانت المناطق الوسطى من الجزيرة العربية هي التي أضحت « مهد الإسلام » ، فإن القبائل العربية على حدود بيزنطة وايران قد مهدت بدورها الطريق ووسّعت الإمكانيات أمام حركة الفتوح الكبرى للمسلمين الذين لم يقف جهدهم عند حد إخضاع أبناء عمومتهم من القبائل العربية للإسلام ، بل امتد إلى شعوب أخرى ذات حضارات عريقة بآسيا وافريقيا . ذلك أن محمداً لم يبعث للعرب وحدهم بل للناس كافة ، بغض النظر عن العنصر الذي ينتمون إليه .كما وأن القرآن هو الكتاب المقدّس لدين من أديان البشرية الكبرى.




جزيرة العرب قبل الإسلام
الطرق
الحدود
الدولة البيزنطية
الدولة الساسانية
اللخميون
غسان
تنوخ
سليح
بهرة
تغلب
كلب
تنوخ
بكر
تميم
أسد
تيم
عجل
طيء
جذام
النفود
الدهناء
دومة الجندل
تبوك
أرض النخيل
تيماء
مدائن صالح
ديدان
الحجيرة
المدائن
نينوى
عين التمر
السامرة
أورشليم
أيله
القلزم
الإسكندرية
قفط
أسوان
فيله
يثرب
اليمامة
الرياض
مأسل
بنو عامر
سعد
حلبان
الطائف
مكة
جدة
شمر
يمنات
نجران
معين
سبأ
مأرب
همدان
صنعاء
ظفار
معافر
ريدان
مخا
عدن
قنا
حضرموت
مذحج
كندة الجنوبية
الربع الخالي
عمان
سقطرى
جيزان
فرسان
دهلك
عدول
أكسوم
مروة
النوبة
البجة
الأوال
الزنج

المراجع

أ ــ المراجع باللغة الروسية

Bolotov, V.V. Lektsia po istorii drevnei tserkvi, Spb., I - 1907, II - 1910, III - 1913, IV - 1918.

Vinnikov, I.I. Slovar dialekta bukharskikh arabov.Palestinskii sbornik, vyp. 10 (73), 1962.

Glubokovskii. Feodorit Kirskii, 1890.

Destunis, S. Vizantiiskie istorikii. SPb., 1860.

Diakonov, A.P. Ioann Efesskii i ego tserkovno-istoricheskie trudy ׀SPb., 1908.

Ioann Moskh. Lug dukhovny. Per. s grech. M.I. Khitrova. Sergieva Lavra, 1896.

Kirill Skifopolskii. Jitie sv. Savvi Osviaschhennogo. Izd. I. Pomialovskogo. Obschestvo liubitelei drevnei pismennosti, SPb., 1890, t. 96.

Krachkovskii. I. Iu. Izbrannye sochinenia, Izd. ANSSR, M.-L., I-1955, II, III-1956, IV-1957, V-1958, VI-1960.

Krymskii, A. Semiticheskie iazyki i narody, tt. I-III, M., 1903-1911.

Kulakovskii, Iu. A. Istoria Vizantii. Kiev, I-1913, II-1912, III-1915

Lundin, A.G. Iujnia Aravia v VI v. Palestinskii sbornik, vyp. 8 (71), M.-L., 1961.

Manandian, Ia. A. O torgovle i gorodakh Armenii v sviazi s mirovoi torgovlei drevnikh vremen. Izd. 2. Ierevan, 1954.

Marr, N. Ia. Arabskoe izvlechenie iz Siriiskoi khroniki. Zap Vost. otd. Russk. arkheolog. obschestva. t. XIV, 1902.

Mashanov. Ocherk byta arabov v epokhu Mukhammeda, ch. 1. Kazan, 1885.

Nilsen. Iujnoarabskia religia. Vestnik drevnei istorii. 1937. No. 1.

Pigulevskia, N.V. Mesopotamia na rubeje V i VI vv. n.e. Siriiskia Khronika Ieshu Stalita kak istoricheskoi istochnik. M.-L., 1940.

Pigulevskia, N.V. Araby VI v. po siriiskim istochnikam. L., 1941 (Trudy 2-1 sessia Assotisiatsii arabistov, 19-23 oktiabria, 1937 g.)

Pigulevskia, N.V. Oborona gorodov Mesopotamii. Uchenye zapiski LGU, seria istoricheskikh nauk. vyp. 12, 1941, str. 52.

Pigulevskia, N.V. Vizantia i Iran na rubeje VI i VII vv. M.-L., 1946.

Pigulevskia, N.V. Mar Aba I. Sovetskoe vostokovedenie, 1948, t. V, str. 84.

Pigulevskia, N.V. Vizantia na putiakh v Indiiu. M.-L., 1951

Pigulevskia, N.V. Goroda Irana v rannem sredne-vekov. M.-L., 1956

Pigulevskia, N.V. Araby u granits Vizantii v IV v. Palestinskii sbornik, 1960, vyp. 5 (68).

Pigulevskia, N.V. Siriiskie istochniki po istorii narodov SSSR. M.-L., 1941

Pigulevskia, N.V. Vizantiiskie istorikii ob arabakh V v. Palestinskii sbornik, 1962, 7(70), str. 91.

Redin, E.K. Istoricheskie pamiatniki goroda Aduli (v Afrike) v litsevykh rukopiskiakh sochinenia Kozmy Indikoplova. Kharkov, 1905.

Rozen, V.R. Drevnearabskia poezia i ee kritika. SPB., 1872.

Rozen, V.R. [نقد كتاب] Mashanov. Ocherk byta arabov. Zapiski vostochnogo otdelenia Russkogo arkheologicheskogo obshchestva, II, 1887.

Rozov, A. Khristianskia Nubia, Ch. 1 Istochnik dlia istorii khristianstva v Nubii. Kiev, 1890.

Sozomen. Ermii. Tserkovnia istoria, 1851.

Sokrat Skholastik. Tserkovnia istoria. Saratov, 1912.

Uspenskii, F.I. Istoria Vizantiiskoi imperii. I. SPb., 1913.

Feodorit Kirskii. Istoria. SPb., 1952

Feodorit Kirskii Istoria bogoliubstev. (Per. s. grech.), SPb., 1953

Khvostov, M.M. Istoria vostochnoi torgovli greko-rimskogo Egipta. Kazan, 1907.

ب ـ المراجع باللغات الأوروبية الأخرى

A b a, mar. (Vie de mar Aba, texte syriac). Histoire de mar Iabalaha et de trois autres patriarches. Ed. P. Bedjan. Paris, 1895.

A b e l O. P. L'île de Iotabé. Revue biblique, 1938, 47, p. 510. *Peц.*: Analecta Bollandiana, 1939, 57, p. 415.

A c t a martyrum et sanctorum. Ed. P. Bedjan. Parisiis, I — 1890, II — 1891, III — 1892, IV — 1894, V — 1895, VI — 1896, VII — 1897.

A c t a sanctorum martyrum orientalium et occidentalium, ed. S. E. Assemanus, I, II. Roma, 1748.

A i g r a i n R. Arabes-chrétiens (Arethas), Arabie. Dictionnaire d'histoire et de géographie ecclesiastiques. Paris, 1942, v. III, col. 1203, 1251.

A l t h e i m F. und D. S t i e h l. Die Araber in der Alten Zeit, I. Berlin, 1964.

A l t h e i m F. und R. S t i e h l. Araber und Sassaniden. Festschrift Edwin Redlob zum 60. Geburtstag, 1955, p. 204.

A l t h e i m F. und R. S t i e h l. Finanzgeschichte der Spätantike. Frankfurt am Main, 1957.

A l t h e i m F. Geschichte der Hunnen. Berlin, 1959, cap. 6 — «Die Araber», pp. 124—157.

A l t h e i m F. and R. S t i e h l. New fragments of Greek philosophers. 2. Parpbyry in Arabic and Syriac translations. East and West. Rome, 1962, v. 13, № 1 (March), pp. 3—15.

A m m i a n u s M a r c e l l i n u s. Rerum gestarum libri qui supersunt. Fr. Eyssenhardt. Berolini, 1871.

L'a n t i c a societa Beduina. Studi di W. Dostal, G. Dossin, M. Höfner, J. Henninger, F. Gabrieli, raccolti da F. Gabrieli. Roma, 1959. (Studi Semitici No 2). *Peц.*: Arabica, VII, 1960, p. 321. — Bibliotheca Orientalis, XVIII, 1961, p. 187. — Orientalistische Literaturzeitung, 1961, № 5/6, col. 271.

Arberry A. J. The Koran interpreted. V. I, Suras I—XX. London, 1955; v. II, Suras XXI—CXIV, London, 1955.
Arberry A. J. The Seven ods. The first chapter in Arabic literature. New York, 1957.
Assemanus I. S. Bibliotheca Orientalis Clementino-Vaticana. Roma. I — De scriptoribus syris orthodoxis, 1719; II — De scriptoribus syris monophysitis, 1721; III — 1. De scriptoribus nestorianis, 1725; III — 2, 1726.
Barhebraeus. Chronicon ecclesiasticum. Ed. I. B. Abbeloos, T. Lamy I—II, Lowen, 1890.
Barhebraeus. Chronicon syriacum, ed. P. Bedjan. Parisiis, 1890.
Baumstark A. Geschichte der syrischen Literatur. Bonn, 1922.
Beek G. W. van. Frankincense and Myrrh in ancient South Arabia. Journal of American Oriental Society, 1958, 78, p. 141.
Beek G. W. van, A new interpretation of the south arabian house model. American Journal of Archeology, Princeton, 1959, 63, p. 269.
Beeston A. F. L. Epigraphic south arabian calendars and dating. London, 1956.
Beeston A. F. L. Abraha. Encyclopädia Islamica. New ed., p. 102.
Beeston A. F. L. Notes on old south arabian lexicography, IV. wz' — an officer, hms-š'b-tribes. Le Muséon, 1952, 65, p. 139.
Beeston A. F. L. Notes on the Mureighan Inscription. Bulletin of the School of Oriental and African Studies University of London, 1954, v. XVI, p. 389.
Beeston A. F. L. Notes on Old south arabian lexicograpby VI. Le Muséon, 1954, 67, p. 311.
Beeston A. F. L. Problems of sabaean chronology. Bulletin of the School of Oriental and African Studies, University of London, 1954, v. XVI, p. 37.
Beeston A. F. L. Qahtan. Studies in old south arabian epigraphy. Fasc. I. The mercantile code of Qataban. London, 1959.
Bekri, al. Die Wohnsitze und Wanderungen der arabischen Stämme. Einleitung von Wüstenfeld. Göttingen, 1869.
Beladhuri, al. Kitâb futûh al-Buldân, v. I, a translation by P. K. Hitti, New York, 1916; v. II, a translation by F. C. Murgotten, New York, 1924.
Beladsori, al. Liber expugnationis regionum, ed. M. I. De Goeje. Lugduni Batavorum, 1866.
Ben-Zvi I. Les origines de l'établissement des tribus d'Israel en Arabie. Le Muséon, 1961, 74, p. 143.
Birk. Dara-Anastasionolis. Der Erdball, 1929, III, p. 201.
Blachère R. Essai sur l'histoire de la littérature en arabe classique jusqu'à la fin du XV-e siècle. Paris, 1961.
Blachère R. Introduction au Coran. Paris, 1959.
Blachère R. Remarques sur deux élegiaques arabes du VI s. E. Chr. Arabica, VII, 1960, p. 30.
Blau O. Arabien im VI Jh. Zeitschr. d. Deutsch. Morgenl. Gesellschaft, 1868, Bd. 22, p. 559.
Boneschi P. Inscriptions humiliantes de monnaies sabéennes. Rivista degli Studi Orientali, 1954, 29, p. 17.
Boneschi P. Tres tituli sabaei iterum interpretati. Rivista degli Studi Orientali, 1959, 34, pp. 27, 137.
Boneschi P. La γλαῦξ Athénienne et l'inscription lihyanite de monnaies tenues pour sabéennes. Rivista degli Studi Orientali, 1955, 30, p. 229.
Boodberg J. A. Theophylactus Simocatta on China. Harvard Journal of Asiatic Studies, 1938, 3, p. 223.
Branden A., van den. Le dechifrement des inscriptions protosinaitiques. Al-Mašriq. Beyrouth, 1958, année 52, 3, p. 361.
Branden A., van den. Essai de solution du probleme thamoudéen. Bibliotheca Orientalis, 1958, № 1/2, p. 7.
Branden A., van den. Histoire de Thamoud. Beyrouth, 1960.
Branden P. A., van den. A propos d'une nouvelle chronologie sud-arabe. Al-Mašriq, Beyrouth, 1959, 3, p. 378.
Branden P. A., van den. Nouveaux textes lihyanites de Philby—Vogüe. Al-Mašrik, Beyrouth, 1960, I, p. 92.
Branden A., van den. Les textes thamoudéens de Philby. Louvain, 1956. V. I — Inscriptions du sud; v. II — Inscriptions du nord. Рец.: Bibliotheca Orientalis, 1960, 3/4, p. 199.
Braunlich E. Beiträge zur Gesellschaftsordnung der arabischen Beduinenstämme. Islamica, 1933, 6, H. 1—2.

Braunlich E. Bistam ibn Qais, ein vorislamischer Beduinenfürst und Held. Leipzig, 1923.
Brockelmann C. Geschichte der Arabischen Literatur. I—II. Weimar—Berlin, 1898—1902; Supplementbände. I—III, Leiden, 1937—1942.
Brocklemann C. Lexicon syriacum. Halis Saxonum, 1928.
Brünnow R. und A. Domaszewski. Die Provincia Arabia. Strassburg, I — 1904; II — 1905; III — 1909.
Brzuski W. K. Problem powstania poludniovo-arabskiego alfabetu epigraficznego. Przeglad Orientalistyczny, 44, Warszawa, 1962, p. 339.
Brzuski W. K. Note sur les thèmes à seconde radicale graphiquement redoublée en sud-arabique épigraphique. Rocznik Orientalistyczny, 25, Warczawa, 1961.
Buckler F. W. Barbarian and Greek — and Church History. Church History, 1942, v. XI, p. 171.
Buckler F. W. Regnum et Ecclesia. Church History, 1934, v. III. p. 38.
Budge W. The history of rabban Bar-Idta. Syriac text, engl. transl. Luzac's Semitic Text, v. 9—10, London, 1902.
Der Byzantiner anonymus. Griechische Kriegsichriftsteller. Ed. Köchly und Rüstow. Bd. 2, 2. Leipzig, 1855.
Caetani L. Annali dell'Islam. Milano, 1905—1913, I—VI.
Canard M. Les sources arabes de l'histoire byzantine aux confins des X et XI s. Études byzantines, 1961, t. XIX, p. 284.
Cantineau J. Études de linguistique arabe. Memorial J. Cantineau. Paris, 1960.
Caskel W. Aijam al-Arab. Studien zur altarabischen Epik. Islamica, 1930, III, f. 5, p. 99.
Caskel W. Das altarabische Königreich Lihjan. Krefeld, 1950.
Caskel W. Die Bedeutung der Beduinen in der Geschichte der Araber. Arbeitsgemeinschaft für Forschung des Landes Nordrhein—Westfalen. Köln, 1953, H. 8, pp. 5—24. Discussion, pp. 25—35.
Caskel W. Ein sonderbarer Anonymus des ersten Jahrhunderts D. H. Oriens, 1963, v. 16, p. 89.
Caskel W. Die einheimischen Quellen zur Geschichte Nordarabiens vor dem Islam. Islamica, 1927, III, f. 3, p. 331.
Caskel W. Entdeckungen in Arabien. Arbeitsgemeinschaft für Forschung des Landes Nordrhein—Westfalen. Köln, 1954, H. 30. Рец.: Orientalia, 1956, 25, p. 292.
Caskel W. Libyan and Lihyanisch. Arbeitsgemeinschaft für Forschung des Landes Nordrhein—Westfalen. Köln, 1952, H. 4.
Caskel W. Zur Beduinisierung Arabiens. Zeitschr. d. Deutsch. Morgenl. Gesellschaft, 1953, 103, p. 28*.
Caussin de Perceval A. P. Essai sur l'histoire des Arabes avant l'Islamisme. Paris. I — 1847; II — 1847; III — 1848.
Chabot J. B. Isaak de rabban Isho, moine nestorien. Le Muséon, 1946, t. 59, p. 345.
Chahab M. Mosaïques du Liban. Textes. Paris, 1957. Bullet. du Musée de Beyrouth.
Chapot V. La frontière de l'Ephrate, de Pompée à la conquête arabe. Paris, 1907.
Charles H. S. J. Le christianisme des arabes nomades sur le limes et dans le désert syro-mesorotamien aux alentours de l'hégire. Bibliothèque de l'école des hautes études, sc. religieuse. Paris, 1936, v. 52.

Chorikios Gazensis. Edid. Foerster et E. Richsted, Leipzig, 1929.
Christensen A. L'Iran sous les sassanides. Copenhague, 1944, 2-e ed.
Christensen A. Le roi Kavadh I. Memoirs of the Danish Academy, 1925.
Chronica minora. Ed. I. Guidi. CSCO. Scriptores syri. Series tertia. T. IV, Parisiis, 1903, textus, versio.
Chronicon ad A. D. 846 adscriptum. Ed. E. W. Brooks. CSCO. Scriptores syri. Series tertia. T. IV, Parisiis, 1903.
Chronicon ad an. Chr. 1234 pertinens. Ed. I. B. Chabot. CSCO. Scriptores syri. Series tertia. T. XIV, 1920.
Chronicon anonimum. Ed. I. Guidi. CSCO. Scriptores syri. Series tertia. T. IV, Chronica minora, Parisiis, 1903.
Chronicon anonymum pseudo Dionysianum vulgo dictum. Ed. I. B. Chabot. CSCO. Scriptores syri. Series tertia. T. I—II. Textus. Parisiis, 1927, 1933.
Chronicon miscellaneum ad A. D. 724 pertinens. ed. E. W. Brooks,

interpr. est I. B. Chabot. CSCO. Scriptores syri. Series tertia. T. IV, Parisiis, 1903.

Chronique de Scert. Histoire nestorienne éditée par Addai Scheer. Patrologia Orientalis. Paris. IV — 1908, pp. 215—312; V — 1910, pp. 219—344; VII — 1911, pp. 97—201; XIII — 1919, pp. 437—639; XVII — 1923, pp. 140.

Clermont-Ganneau Ch. Le roi de «tous les Arabes». Recueil d'archéologie orientale, Paris, 1905, t. VI, p. 305.

Collinet. Une ville neuve byzantine. Mélanges G. Schlumberger, 1924, p. 55.

Constantinus Porphyrogenitus. Exerpta historica iussu imp. Constantini Porphyrogeniti confecta, ed. C. de Boor. Berolini. I, II, Excerpta de legationibus, 1903; III, Excerpta de insidiis 1905.

Contenson H., de. Les premiers rois d'Axoum d'après les découvertes récentes. Journal asiatique, 1960, t. 248, p. 75.

Corpus inscriptionum semiticarum. Pars IV. Inscriptiones Himyariticas et Sabaeas continens. Parisiis, I — 1889; II — 1911; III — 1929.

Cosmas Indicopleustes. The christian topography, ed. with geographical notes by E. O. Winstedt. Cambridge, 1909.

Cosmas (Indicopleustes), an Egyptian monk. The christian topography, translated from the greek by J. W. Mc Crindle. London, 1897. The Hakluyt Society, № 98.

Couret A. La Palestine sous les empereurs grecs 326—636. Grenoble, 1869.

Datta I. M. Population of Medina at the time of the prophet Muhammad. (aD 630—). Modern Review, Calcoutta, 1962, v. III, № 3, p. 237.

De moderatore Arabiae, cap. 2. Novella 102. Novellae. Ed. R. Scholl et G. Kroll, Berolini, 1895, ed. stereotypa.

Delehaye H. Les Stylites. Revue des questions historiques, 57 (N. S. 13), 1895, p. 52.

Delougaz P. and Haines R. A. Byzantine Church at Khirbat al-Karak. The Univ. of Chicago, Oriental Institute Publications, 1960, v. 85.

Devreesse R. Le christianisme dans la province d'Arabie, arabes-perses et arabes-romains Lahmides et Ghassanides. Vivre et Penser. 2 série, 1942, p. 110, 263.

Devreesse R. Le patriarcat d'Antioche depuis la paix de l'église jusgu'à la conquête arabe. Paris, 1945. *Рец.*: Mélanges de l'Université de st. Joseph, 26, p. 113; Syria 1944—1945, 24, p. 135.

Dillmann A. Zur Geschichte des axumitischen Reiches im IV bis VI Jh. Abhandlungen der königlischen Akademie der Wissenschaften zu Berlin, 1880.

Ad-Dînawerî. Abû Hanîfa. Kitab al-ahbar at-tiwāl. Publié par V. Guirgass, Leide, 1888. Préface, variantes et index, publiés par I. Kratchkovsky, Leide, 1912.

Doblhöfer E. Byzantinische Diplomaten und östliche Barbaren. Graz, 1955.

Documenta ad origines monophysitarum illustrandas, ed. I.-B. Chabot. Corpus scriptorum christianorum orientalium (CSCO). Scriptores syri. Series secunda. T. 37. Textus. Parisiis, 1907, t. 52. Versio. Louvain, 1952.

Dögler Fr. Regesten der Kaiserurkunden des oströmischen Reiches, I. München. 1924.

Dombrowski B. W. W. Some remarks on the hebrew hitpael and inversative t in the semitic languages. Journal of near Eastern Studies. 1962, v. 21, № 3, p. 220.

Doresse J. L'Ethiopie et l'Arabie méridionale aux III—IV. s. A. D. Kush, Khartoum, 1957, v. 5, p. 49.

Doe B. Husn al Gurab and the site of Qana'. Le Muséon, Louvain, 1961, t. 74, pt. 1—2, p. 191.

Downey G. The christian schools of Palestine: a chapter in Literary-History (IV—VII cc.). Harvard Library Bulletin. 12, 1958, p. 297.

Downey G. A. History of Antioch in Syria from Seleucus to the Arab Conquest. Princeton, 1961.

Downey G. The Persian compaign in Syria in aD 540. Speculum, 1953, t. 28. № 2, p. 340.

Dubler C. E. Islam. Asiatische Studien. Bern, 1960, 1—4, p. 32.

Dussaud R. Les Arabes en Mésopotamie avant la conquête. Paris, 1907.

Dussaud R. Les arabes en Syrie avant l'Islam. Paris, 1907.

Dussaud R. La topographie historique de la Syrie antique et médiévale, Paris, 1927.

Dussaud R. La pénétration des Arabes en Syrie avant l'Islam. Paris, 1955. *Рец.*: Bibliotheca Orientalis, 1958, 3/4, p. 141. Journal of Near Eastern Studies, 1958, p. 17.

Ensslin. Zur Gründungsgeschichte von Dara-Anastasiopolis. Byzantinisch-neugriechische Jahrbücher, Bd. 5, p. 342.

Ephraim Syrus. Hymnen de Nativitate (IVc.). Herausgeg. E. Beck. Louvain, 1959, pp. 1—2.

Eusebius. Die Kirchengeschichte, Bd. II; II, 2; II, 3. Hrsg. v. Ed. Schwartz. Die lateinische Übersetzung des Rufinus von Th. Mommsen. Leipzig, 1903, 1908, 1909.

Evagrius. The ecclesiastical history. Ed. by Bidez and Parmentier. London, 1898.

Excerpta historica iussu imp. Constantini Porphyrogeniti. V. I, Excerpta de legationibus. Ed. C. de Boor, pars I — II, Berolini, 1903; V. III, Excerpta de insidiis, ed. C. de Boor, Berolini, 1905.

Eyre E. European civilisation. London, Oxford. Univ. Press., 1935, v. I, II.

Fakhry A. An archeological Journey to Yemen (1947). Pt. II. Epigraphical Texts by G. Ryckmans. Cairo, 1952.

Faris N. A. The Antiquities of South Arabia, Eighth book of al-Hamdani's al Iklil. Princeton, 1938.

Festugière A. J. Antioche païenne et chrétienne. Paris, 1959.

Festugière A. J. Les moines d'Orient. Paris, I — 1961, II — 1961, III — 1962. *Рец.*: Rivista degli Studi Orientali, 1962, 37, pp. 3—4.

Festugière A. J. Personal religion among the Greeks. Los Angelos, 1960.

Festugière A. J. La vie de Sabas et les tours de Syrie—Palestine. Revue biblique, 1963, 70, p. 91.

Fiey J. M. Les sts Serge de l'Iraq. Analecta Bollandiana, 1961, 79, p. 102.

Foster W. The family of Hashim. Contemporary review. London, 1960, v. 197, № 1132, p. 269.

Fragmenta historicorum graecorum. Ed. C. Mullerus, v. IV. Parisiis, 1851.

Fresnel. Lettres sur l'histoire des Arabes. Paris, 1836. Journal asiatique, Ser III (1837) 321; ser. III. t. IV, p. 5; t. V, pp. 45, 113; s. III, t. V, p. 497; s. III, t. VI, p. 196, 225; s. III, t. VI, 529.

Frisk. Le periple de la mer Erythree. Göteborg, 1927.

Gabrieli F. Adi ibn Zaid, il poeta di-Hira. Rendiconti d. Acad. dei Lincei, series 8, 1948, v. III, p. 82.

Gabrieli F. La letteratura beduina preislamica. L'antica società beduina, Roma, 1959, p. 95.

Gabrieli F. La poésie arabe ancienne. Diogène, 1962, v. 40, 4, p. 82.

Garitte G. Vies géogiennes de St. Symeon Stylite l'ancient et de S. Ephrem, traduction. CSCO. Scriptores iberia, t. 8.

Gaudemet J. L'église dans l'Empire romain (IV—V s.). Paris, 1958.

Gelzer. Kosmas der Indienfahrer. Jahrbücher für protestantische Theologie, 1883, p. 105.

Genier R. Vie de St. Euthyme le Grand. Paris, 1909.

Germanus J. Legacy of ancient Arabia. Islamic Culture, 1963, v. 37, № 4, p. 261.

Ghul Mahmud Ali. New Qatabani inscriptions. Bulletin of the school of Oriental. Studies, 1959, v. 22, p. 419.

Gibb H. A. R. Abu'l Fida. Encyclopedy of Islam. 1954, 1, p. 118.

Gismondi H. (Ed.). Maris, Amri et Slibae de patriarchis Nestorianum commentaria. Romae, 1897—1899, pars 1—2.

Glaser E. Die Abessinier in Arabien und Afrika. Müochen, 1895.

Glaser E. Skizze der Geschichte und Geographie Arabiens. II Band. Berlin, 1890.

Glaser E. Skizzen der Geschichte Arabiens von den ältesten Zeiten bis zum Propheten Mohammad. München, 1889.

Glaser E. Zwei Inschriften über den Dammbruch von Mârib. Mitteilungen der Vorderasiatischen Gesellschaft. II, 1897. *Рец.*: Winkler. — OLZ, 1898, pp. 19—21; Praetorius. ZDMG, 53, 1899, pp. 1—15.

Glueck N. Rivers in the desert. New York, 1959.

Goitein S. D. Evidence of the muslim poll-tax from non-muslim surces. Journal of the economic and social history of the Orient. 1963, v. VI, pt. 3, p. 278.

Goitein S. D. Jews and Arabs. Their contacts trough the ages. New York, 1955, XIII, 257 p. *Рец.*: Rivista degli Studi Orientali, 1958, I—II, p. 147.
Gottschalk H. L. [Рец. на статьи Caskel]. Wiener Zeitschrift, 1959, Bd. 55, S. 189.
Goubert P. Byzance avant l'Islam. Paris, 1951, I, II.
Goubert P. Mystique et politique à Byzance. Revue des études byzantines, 1961, XIX Mélanges Janin. a) L'influence de st. Golinduch sur st. Domitien.
Goubert P. Le problème Ghassanide à la veille de l'Islam. Actes du VI Congrès international d'études byzantines. Paris, t. I, p. 103.
Graf G. Geschichte der christlichen arabischen Literatur. I — Die Übersetzungen. Citta del Vaticano, 1944; II — Die Schrifsteller bis zur Mitte des 15. Jahrhunderts. Citta del Vaticano, 1947.
Grecu V. Menander Protektor und der persische Gesandschaftsbericht Petros's Patricius. Bulletin de la section historique de l'Académie Roumaine, 22, 2, 1941, p. 78.
Greer R. A. Theodore of Mopsuestia. Byzantinische Zeitschrift 55, 1962, 367; Orientalia Christiana periodica, 28, 1962, 428.
Grégoire H. Mahomet et le Monophysisme. Mélanges Charles Diehl. Paris, 1930, I, p. 107.
Griffini E. Uno nuova qasida attributa ad Imrulqais. Rivista degli Studi Orientali, 1907, 1, p. 595.
Grumel V. La chronologie. Traité d'études byzantines publié par P. Lemerle. 1 Paris, 1958.
Grunebaum G. E. The nature of arab unity befor Islam. Arabica, X, 1963, 1, p. 5.
Guidi I. Die Kirchengeschichte des katolikos Sabriso I. Zeitsch. d. deutsch. Morgenl. Gesellschaft, 1886, Bd. 40, S. 559.
Guidi I. Mundhir III und die beiden monophysitischen Bischöfe. Zeitsch. d. deutsch. Morgenl. Gesellschaft, 1881, Bd. 35, S. 142.
Guidi I. Ostsyrische Bischofe und Bischofsitze im V, VI und VII Jh. Zeitschr. d. deutsch. Morgenl. Gesellschaft, 1889, Bd. 43, p. 388.
Guillaud V. R. Études de titulature byzantine. Revue des études byzantines, Paris, 1958.
Guilland V. R. Études sur l'histoire administrative de l'empire byzantin: les commandants de la garde impériale. Revue des études byzantines, 1960, t. 18, p. 79. — Observations sur le clèterologe de Philothée. Revue d. ét. byz., 1962, t. XX, p. 156. Index des noms, des dignités, fonctions, p. 167.
Guillaumont A. Les «Kephalaia Gnostica» d'Évagre le Pontique et l'histoire de l'origenisme chez les Grecs et les Syriens. Partistica Sorbonensia 5, Paris, 1962, p. 360.
Güterbock. Byzanz und Persien. Berlin, 1906.
Hajjar I. Les chrétiens uniates du Proche Orient, 1962, 384 p. (Melkites, Marontes, Chaldéens).
Halkin F. L'éloge des trois confesseurs d'Edesse par Aréthas de Césarée. Mélanges de l'Université st. Joseph, t. 38 (II). Mélanges R. Mouterde. Beyrouth, 1962, p. 271.
Hamdani. al. Al-Iklil. Transl. from the arabic by Nabih Amin Faris. Princeton, 1938. (Princeton Oriental texts, v. III).
Hamdani. al. Sudarabisches Muštabih. Verzeichnis homonymer und homographer Eigennamen, herausgeg. von D. Löfgren. Uppsala, 1953.
Hamidullah M. Al-ilaf, ou les rapports économico-diplomatiques de la Mecque pré-islamique. Mélanges L. Massignon. Damas, 1957, II, p. 293.
Hamidullah M. The battlefields of the prophet Muhammad. Battle of the Ditch (5 AH — 626 C. E). Islamic review, 1952, v. 40, N 12, p. 8.
Hamidullah M. Les champs de bataille au temps du Prophète. Revue des études islamiques. Paris, 1939, cahier 1.
Hamidullah M. Documents sur la Diplomatie Musulmane à l'époque du Prophète et des Khalifes orthodoxes. Paris, 1935.
Hamidullah M. La lettre du Prophète à Heraclius et le sort de l'original. Arabica, 1955, t. II, f. 1, p. 97.
Hamidullah M. Le prophète de l'Islam, I, II. (Etudes Musulmanes, 7). Paris, 1959.
Hamza Ispahanensis. Annalium libri X, ed. J. M. E. Gottwald. T. I — Textus arabicus. Petropoli, 1844; T. II — Translatio latina. Lipsiae, 1848.
Hartmann M. Der islamische Orient, Berichte und Forschungen. Bd. II. Die Arabische Frage. Leipzig, 1909.

H a u r y I. Kritisches zu Prokop. Philologus, XLVIII, 1889, p. 750.
H a u r y I. Procop und der Kaiser Justinian. Byzantinische Zeitschrift, 37, 1937, S. 1.
H e m m e r d i n g e r B. La vie arabe de St. Jean Damascène et B. H. G. 884. Orientalia Christiana Periodica, 28, 1962, p. 422.
H e n n i n g e r I. Das Eigentumsrecht bei den heutigen Beduinen Arabiens. Zeitschrift für vergleichende Rechtswissenschaft, 1959, Bd. 61, p. 6.
H e n n i n g e r I. Die Familie bei den heutigen Beduinen Arabiens und seiner Randgebiete. Internationales Archiv für Ethnographie. XIII. 1943 p. 2.
H e n n i n g e r J. Les fêtes du printemps chez les Arabes et leurs implications historiques. Revista do Museu Paulista. IV. 1950. p. 389. *Рец.*: G. Ryckmans Le Muséon 1952, t. 65, p. 317.
H e n n i g e r J. La société bédouine anciènne. Studi semitiei. 2. Lantica societa beduina. Roma. 1959. p. 70.
H e r z f e l d E. Mshatta, Hira und Bâdiya die Mittelländer des Islam und ihre Baukunst. Jahrbuch der preussischen Kunstammlung. 1921. Heft 2—3.
H e r z f e l d E. Paikuli. v. I, Berlin, 1924.
H i n z W. Islamische Masze und Gewichte. Leiden. 1955.
H i r s c h e n b e r g J. W. Jüdische und christliche Lehren im vor- und frühislamischen Arabien. Krakow, 1939.
H i r s c h e n b e r g J. W. Nestorian sources of North-Arabian tradition on the etablischment and perceeution of christianity. Rocznik orientalistyczny, t. 15, Krakow, 1949, p. 321.
H i s t o i r e de mar Ahudemmeh. ed. F. Nau. Patrologia Orientalis. III. Paris, 1909.
H i t t i P. K. History of the Arabs. London. 1949.
H i t t i P. K. Lebanon in history. London, 1957.
H i t t i P. K. The origins of the islamic state being Kitab futuh al Buldan of al Balādhuri. Part I — New York, 1916; part II — New York, 1924.
H o f f m a n n G. Auszüge aus syrischen Akten Persischer Martyrer. Abhandlungen für die Kunde des Morgenlands, Bd. VII, № 3. Leipzig. 1880.
H ö f n e r M. Altsüdarabische Grammatik. (Porta linguarum orientalium, t. XXIV). Leipzig, 1943.
H ö f n e r M. Die Beduinen in den vorislamischen arabischen Inschriften. L'antica società Beduina. Roma, 1959. (Studi Semitici, II).
H ö f n e r M. und J. M. S o l á S o l é. Sammlung Ed. Glaser II Inschriften aus dem Gebiet zwischen Marib und dem Göf. Sitzungsberichte der Österreichisch. Akad. d. Wissenschaften. Phil.-hist. Kl. 1961, Bd. 238, Abh. 3.
H o n e y m a n A. M. Epigraphic south Arabian Antiquities. Journal of near Eastern Studies, v. XXI. 1962, № 1.
H o n i g m a n n E. The calendar change at Antioch and the Earthquake of 458. Byzantion, XVII, 1945, p. 336.
H o n i g m a n n E. Le couvent de Barsauma et le patriarcat jacobite d'Antioche et de Syrie. Louvain, 1954.
H o n i g m a n n E. Évêques et évêchés monophysites d'Asie antérieure au VI s. Louvain, 1951.
H o n i g m a n n E. L'histoire ecclesiastique de Jean d'Ephese. Byzantion, 14, 1939, p. 615.
H o n i g m a n n E. Juvenal of Jerusalem, Dumbarton Oax Papers., t. 5. Cambridge Massachusetts, 1950, p. 209.
H o n i g m a n n E. Orfa—Edessa. Encyklopädie de l'Islam. 3 (1928-36). 1073.
H o n i g m a n n E. Die Ostgrenze des Byzantinischen Reiches. Brüssel, 1935.
H o n i g m a n n E. Sergiopolis. Pauly—Wissowa Realencyclopädie. II Reihe. 4. Halbband, col. 1684.
H o n i g m a n n E. Trois mémoires posthumes d'histoire et de géographie de l'Orient chrétien, preparés par P. Devos. Bruxelles, 1961. — *Рец.*: Analecta Bollandiana, 1961, t. 79, 1—2, p. 174.
H o r o v i t z J. Judeo-Arabic relations in preislamic times. Islamic culture, 1929, III. 2. p. 161.
I a c o b u s E d e s s e n u s. Chronicon. Ed. E. W. Brooks. CSCO. Scriptores syri. Series tertia, t. IV, Parisiis, 1903.
I a ' q u b i, al. Historiae pars primum historiam anteislamicam continens. Ed. M. Th. Houtsma. Lugduni Batavorum, 1883.
I a k u t's Geographisches Wörterbuch, hrsg. von F. Wüstenfeld. Leipzig. 1867. Bd. II.

Ibn al-Athir. Chronicon. Ed. Tornberg. Lugduni-Batavorum, 1863. I.
Ibn Hischam Abd el-Malik. Das Leben Muhammed's nach Muhammed Ibn Ishak bearbeitet von Abd el-Malik Ibn Hischam, hrsg. von F. Wüsfenfeld, I—II, Göttingen, 1858—1860.
Iésusdenah. Livre de chasteté. Ed. par J. B. Chabot. Roma, 1896.
Ioannes Ephesinus. Historia ecclesiastica pars tertia. Ed. E. W. Brooks. CSCO. Scriptores syri. Series tertia. T. III. Parisiis, 1935, versio latina. Lovanii, 1936.
Iohannes von Ephesus. Kirchengeschichte, übersetzt von I. M. Schönfelder. München, 1862.
John of Ephesus. The third part of the Ecclesiastical History translated by R. Payne—Smith. Oxonii, 1860.
John of Ephesus. Lives of the eastern saints syriac text. Ed. and translated by E. W. Brooks. Patrologia Orientalis. Paris. 17, 1923. pp. 1—307; 18, 1924, pp. 513—698; 19, 1926, pp. 155—285.
Ioannes Malalas. Chronographia. Ed. Dindorfius, Bonn, 1831.
Ioannes Moschus. Pratrum spiritule. Patrologia graeca, t. 87, col. 2845—3116.
Ioannes Psaltes. Hymnes. Ed. E. W. Brooks. Patrologia Orientalis, v. VII, pp. 613, sq. v. VI, p. 5, v. XIV, p. 19.
Ioshua the Stylite. Chronicle. Ed. by W. Wright. Cambridge, 1882.
Iso'dad de Merv. Commentaire sur l'ancien testament (IX s.). Exode—Deuteronome. Louvain, 1958, pt. I—II.
Jalabert L. et R. Mouterde. Inscriptions greques et latines de la Syrie. Paris. I — Commagène et Cyrrhestique, 1929; II — Chalcidique et Antiochène, 1939; III, 1 — Region de L'Amanus et Antioche, 1950; III, 2 — Antioche et Antiochène, 1953; IV — Laodicée. Apamène. 1955; V. — Emésène, 1959.
Jamme A. The Al-Uqlah Texts. (Documentation Sud-Arabe, III). Washington, 1963.
Jamme A. Classification descriptive generale des inscriptions Sud-Arabes. Tunis, 1948. *Рец.*: Orient. Litzeit., 1954, № 5/6.
Jamme A. Documentation Sud-Arabe I et II. Rivista degli Studi Orientali, v. 38, f. 4, p. 303.
Jamme A. Inscription rupestre et graffites qatabanites. Rivista degli Studi Orientali, v. 37, 3—4, 1962, p. 231.
Jamme A. Inscriptions on the sabaean bronze horse of the Dumbarton Oaks Collection. Dumbarton Oax Papers. 1954, VIII, p. 315.
Jamme A. Inscriptions sud-arabes de la collection Ettore Rossi. Rivista degli Studi Orientali, v. 30, 1955, f. 1—2, p. 103.
Jamme A. La jarre épigraphique qatabanite de Hağr bin Humeid et son étude par P. Boneschi. Rivista degli Studi Orientali, v. 34, 1959, f. 3—4, p. 127.
Jamme A. The late Sabaean Inscription Ja 856. Bibliotheca Orientalis. 1960, t. XVII, № 1/2, p. 3.
Jamme A. On a drastic current reduction of south-arabian chronology. Bulletin of the American school of Oriental Research. 1957, № 145, p. 25.
Jamme A. La paleographie Sud-Arabe de Pirenne. Washington, 1957.
Jamme A. Sabaean Inscriptions from Mahram Bilqis (Marib). Baltimore. 1962.
Joseph J. The Nestorians and their Muslim Neighbors. Princeton, 1961.
Kawar I. The Arabs in the peace treaty of AD 561. Arabica, 1956, III, p. 181.
Kawar I. Arethas, son of Jabalah. Journal of the American Oriental Society. 1955, 1957, 77.
Kawar I. Byzantium and Kinda. Byzantinische Zeitschrift, 1960, 53.
Kawar I. Ghassan and Byzantium. A new terminus a quo. Islam, 1958, 33, p. 232.
Kawar I. The last days of Salih. Arabica, 1958, V, p. 145.
Kawar I. The patriciate of Arethas. Byzantinische Zeitschrift, 1959, 52, p. 321.
Kawar I. Procopius and Arethas. Byzantinische Zeitschrift, 1957, 50, p. 362.
Kawar I. Procopius on the Ghassanids. Journal of the American Oriental Society, 1957, 77, p. 79.
Kirillos von Skythopolis. Texte und Untersuhungen zur Geschichte der Altchristlichen Literatur. 49. Band. Ed. von Schwartz. Leipzig, 1939.
Kleyn. Jacobus Baradaeus. Leiden, 1882.

Kollwitz J. Die Grabungen in Resafa 1954—1956 J. Archeologische Anzeigen. 1957, p. 64.
Labourt, I. Le christianisme dans l'empire Perse sous la dynastie Sassanide. Paris, 1904.
La Croze. Histoire du christianisme des Indes. La Haye, 1724.
Leary. O de Lacy. Arabia before Mahammad. New York, 1927.
Lammens H. L'ancienne frontiere entre la Syrie et le Hidjaz. Bulletin de l'Institut francais d'Archeologie Orientale, 1917, t. XIII. p. 74; t. XIV, p. 95.
Lammens H. L'Arabie occidentale avant L'Hégire. Institut Français d'Archeologie orientale (Caire). (Les chrétiens à la Mecque à la veille de la Hégire).
Lammens H. La Syrie. Précis historique, v. I—II. Beyrouth, 1921.
Le Quien M. Oriens christianus, I—III. Parisiis, 1740.
Lietzmann H. Das Leben des heiligen Symeon Stylites. Leipzig, 1908. (Texte und Untersuchungen der Altchristlichen Literatur. Bd. 32. 3).
Lippens P. Expedition en Arabie Centrale. Paris, 1956. *Рец.*: Bibliotheca Orientalis, 1960, 3/4, p. 198.
Lopez R. S. The role of trade in the economic readjustment of Byzantium in the VII c. Dumbarton Oax Papers. Washington, v. 13, 1959.
Lyall C. J. Translations of ancient arabian poetry, chiefly praeislamic. New York, 1930.
Maçoudi. Les prairies d'or. Texte et trad. par C. Barbier de Meynard et Pavet de Courteille. Paris. II — 1844, III — 1863.
Martyrium st. Arethae. Acta sanctorum. Octobris, t. X. Paris-Rome, 1869, p. 721.
Massignon L. Note sur le château d'al Okhaïder. Comptes-rendus de l'Académie des inscriptions et de belles-lettres. Paris, 1909, p. 202.
Mattern P. A travers les villes mortes de Haute-Syrie. Mélanges de l'Université St. Joseph, XVII, Beyrouth, 1933.
Michel de Syrien. Chronique éditée par J. B. Chabot. Paris, I — 1899; II — 1901; III — 1905; IV — 1910. Introduction et tables — 1924.
Mittmann S. Die römische Strasze in der nordwestlichen Belka. Zeitschr. d. Deutsch. Palastina—Veriins, 1963, Bd. 79, H. 2, p. 152.
Mittwoch E. Proelia Arabum paganorum. Berolini, 1889.
Moberg A. The Book of Himyarites. Lund, 1924. *Рец.*: Orientalistische Literaturzeitung, 1925, 9/10, p. 708; Journal asiatique, 1925, p. 103.
Moberg A. Über eine christliche Legende in der Islamischen Tradition. Lund, 1930.
Moravcsik G. Byzantinoturcica. Berlin, 1958, I—II.
Morgan, de. Notes sur la basse Mésopotamie. Géographie. Bulletin de la Société de Géographie. Paris, 10 octobre 1900, p. 252.
Moritz B. Der Sinaikult in heidnischer Zeit. Abhandlungen d.k. Gesell d. Wissensch. zu Göttingen. Phil-hist. Kl. Neue F. 16. No 2. Berlin. 1916, p. 50.
Moscati S. Il participio passivo in semitico. Rivista degli Studi orientali. Roma. 1962. v. 37. f. 1—2.
Moubarac Y. Les études d'épigraphie sud-sémitique et la naissance de l'Islam. Revue des études islamiques. Paris. 1957. t. 25, p. 13.
Mouterde R. Monuments et inscriptions de Syrie et du Liban. Mélanges de l'Université de St. Joseph. 25, Beyrouth. 1942—1943.
Mouterde R. La Strata Diocletiana et ses bornes militaires. Mélanges de l'Universite de St. Joseph.. 15. Beyrouth. 1930—1931.
Mouterde R.. A Poidebard. Le limes de Chalkis. Organisation de la steppe en Haute Syrie romaine. Paris. 1945.
Musil A. Arabia Petraea. I—III. Wien. 1907—1908.
Musil A. Kusejr A'mrā I. Wien. 1907.
Musil A. The Middle Euphrates. 1927.
Musil A. Palmyrena. New York, 1928.
Nallino C. A. Raccolta di scritti editi e inediti a cura di Maria Nallino. V. 3. Storia dell' Arabia preislamica. Storia e instituzione musulmane. Roma. 1941.
Naqa'id Garir wa'l-Farazdak. Ed. Bevan. Leiden. 1905—1912.
Nau F. Les arabes chrétiens de Mésopotamie et de Syrie du VII-e au VIII-e siécle. Paris, 1933. (Cahiers de la société asiatique, № 1).
Nau F. L'Arameen chrétien. Revue de l'Histoire des Religions, 1929, t. 99, p. 232.
Nau F. L'expansion nestorienne en Asie. Bibliothèque de vulgarisation du Musée Guimet, t. XL. Paris, 1914.

Nau F. (Ed.). Histoire d'Ahudemmeh et de Maruta. Patrologia Orientalis. Paris, 1909, t. III, p. 1—120.

Nau F. Les récits inédits du moine Anastase. Paris, 1902.

Nielsen D. Handbuch der altarabischen Altertumskunde. Copenhague. 1927, v. I.

Nöldeke T. Der Araberkönig von en-Namara. Florilegium. . .De Vogüé. Paris, 1909.

Nöldeke T. Die von Guidi herausgegebene Chronik. Sitzungsberichte der Wiener Akademie, phil.-hist. Kl. Wien, 1893, Bd. 128. Abh. 9.

Nöldeke T. Fünf Mo'allaqat. I. Die Mo'allaqat des 'Amr und des Harith. Sitzungsberichte der K. Akademie der Wissenschaften, phil.-hist. Kl. Wien, 1899, Bd. 140, VII Abh.

Nöldeke T. Geschichte der Perser und Araber zur Zeit der Sassaniden aus der arabischen Chronik des Tabari. Leyden, 1879.

Nöldeke T. Zur Topographie und Geschichte des Damascenischen Gebietes und der Haurangegend. Zeitschr. d. deutsch. Morgenl. Gesellschaft. Bd. 29, 1875, S. 419.

Nöldeke T. Die Ghassanischen Fürsten aus dem Hause Gafnas. Abhandlungen der K. Akademie der Wissenschaften. Phil.-hist. Kl. Berlin. 1888.

Nöldeke T. Orientalische Skizzen. Berlin, 1892.

Olinder G. The Kings of Kinda. Lund, 1927.

Olinder G. Al al-Gaun of the family of Akil al-Murar. Le Monde Oriental, 1931, 25, p. 208.

Oppenheim M. Die Beduinen unter Mitarbeitung von E. Bränlich und W. Caskel. I. Die Beduinestämme in Mesopotamien und Syrien. Leipzig. 1939; II. Die Beduinenstämme in Palästina, Transjordanien, Sinai. Hedjaz. Leipzig, 1943; III. Die Beduinenstämme in Nord und Mittelarabien und im Irak.

Ortiz de Urbina I. Patrologia Syriaca. Roma, 1958.

Paret R. Dometianus de Mélitène. Revue des études byzantines, XV. Paris. 1957, p. 42.

Paret R. Note sur un passage de Malalas concernant les phylarques arabes Arabica, 1958, 5, f. 3, p. 251.

Paret R. Les villes de Syrie du sud et les routes commerciales d'Arabie à la fin du VI s. Akten des XI Internatinnalen Byzantinisten Kongress, 1958. München, 1960, p. 438.

Patrologia. Ed. Joannes Quasten, 1950, vv. I. II, III. Westminster Maryland.

Peeters P. Jaques de Saroug appartient-il à la secte monophysite? Analecta Bollandiana, 1948, 66, p. 134.

Peeters P. St. Symeon Stylite et ses premiers biographes. Analecta Bollandiana, 1943, 61, p. 29.

Peeters P. Recherches d'histoire et de phylologie orientales. Bruxelles, 1951, I, II.

Peeters P. Le tréfond oriental de l'hagiographie byzantine. Bruxelles, 1950.

Peiser F. E. Die arabische Inschrift von En-Nemâra. Orientalistische Literaturzeitung, 1903, № 7.

Pericoli-Ridolfini F. Le origini della Scuola di Alessandria. Rivista degli Studi Orientali, 1962, 37, f. 3—4.

Petráček K. Annotation aux inscriptions sud-arabes Ry 603—614 du Dar ad-Diyafa a San'a. Archiv Orientalni, 1961, № 3, p. 444.

Petráček K. Der gegenwärtige Stand und die Aufgabem der südarabischen Forschungen unter besonderer Berücksichtigung des Schicksals der alten sudarabischen Literatur. Archiv Orientalni, 1960, 28/4, p. 669.

Philby H. The Background of Islam, being a sketch of arabian history in preislamic times. Alexandria, 1947.

Photius. Bibliotheque, I, II, III. Ed. R. Henry. I (codices 1—83); II (codices 84—185); III (codices 186—222), 1962. *Рец.*: Revue des études anciennes, 64, 1962, p. 226.

Philby St. J. Note on the Last Kings of Saba. Le Muséon, 1950, 63, 3—4, p. 269.

Philby St. J. Notes on Ryckmans 535. Le Muséon, 1960, t. 73, 3—4, p. 407.

Phillips W. Qataban and Sheba. Exploring the ancient kingdoms of the Biblical spice routes of Arabia. New York, 1955.

Philostorgius. Kirchengeschichte, herausgegeben von Joseph Bidez. Leipzig, 1913.

Pigulevskaja N. Les rapports sociaux à Nedjran au debut du VI-e siècle de l'ère chretienne. Journal of economic and social history of the Orient, v. III, 1960, p, 113; v. IV, 1961, p. 1.
Pigulevskaja N. Mar Aba I. Mélanges Masse. Téhéran, 1963.
Pigulovskaja N. Les villes de l'Iran à l'époque Parthe et Sassanide. Paris, 1963.
Pirenne J. Chronique d'archéologie sud-arabe 1955—1956. Annales d'Ethiopie, 1957, II, p. 37.
Pirenne J. La Grèce et Saba. Une nouvelle base pour la chronologie sud-arabe. Paris, 1955.
Pirenne J. L'inscription «Ryckmans 535». Le Muséon, 1956, 69, p. 165.
Pirenne J. Paléographie des incsriptions sud-arabes. Contribution à la chronologie et a l'histoire de l'Arabie du sud antique. Bruxelles, 1956.
Pirenne J. Le Royaume sud-Arabe de Qataban et sa datation. Louvain, 1961.
Poidebard A. La route septentrionale Antioche—Chalkis—Palmyre. Mélanges R. Dussaud, II. Paris, 1940, p. 735.
Poidebard A. La trace de Rome dans le désert de la Syrie. Le limes de Trajan à la conquête arabe. Paris, 1934.
Procopius Caesarensis. Opera omnia, ed. Haury. Lipsiae. I — 1905, II — 1907, III — 1908.
Procopius. With an english translation by H. B. Dewing in VII volums. London, 1916, vv. I—VII.
Procopius Caesarensis. De aedificiis. Ed. Dindorfius. Bonn, 1838.
Rabin. Ch. Ancient West-Arabia. London, 1951.
Rahmani. Chronicon anonymum. Monte Libanon. I — 1907, II — 1911.
Rathjens C. Sabaeica. Bericht über die archeologischen Ergebnisse seiner zweiten, dritten und vierten Reise nach Südarabien. Hamburg, I — 1953; II — 1955. *Рец.*: Bibliotheca Orientalis, 1957, 5/6, p. 261.
Rathjens C. Die alten Welthandelstrassen und die Offenbarungsreligionen. Oriens, 1962, 15, p. 115.
Rathjens C. Kulturelle Einflusse in Sudwest—Arabien von den ältesten Zeiten bis zum Islam. Jahrbuch fur Kleinasiatische Forschung. I, 1. Heidelberg, 1950.
Repertoire chronologique d'épigraphie arabe. Ed. par E. Combe, J. Sauvaget, C. Wiet, I, Le Caire, 1931.
Repertoire d'épigraphie semitique sous la direction de J. B. Chabot. V redigé par G. Ryckmans. Paris, 1929; VI redigé par G. Ryckmans. Paris, 1935.
Rhodokanakis N. Das öffentliche Leben in den alten südarabischen Staaten. Handbuch der altarabischen Altertumskunde. Hrsg. D. Nielsen. Bd. I. Kopenhagen, 1927.
Rodinson M. Bilan des études mohammédiennes. Revue historique, 1963, t. 229, p. 190.
Roey A. van. Une apologie syriac. Le Muséon, t. 59, 1946, p. 381.
Rosenthal F. A history of Muslim historiography. Leiden, 1952.
Rothstein. Die Dynastie der Lahmiden von al-Hira. Berlin, 1899.
Rouet de Journel. Jean Moschus. Le pré spirituel. Paris, 1946.
Roussel P. Un monument d'Hierapolis Bombyké relatif à la paix perpetuelle du 532 après J. Chr. Mélanges René Dussaud. Paris, 1939, 1, p. 366.
Rubin B. Procopius von Kaisarea. Stuttgart, 1954.
Rubin B. Das Zeitalter Justinians. I. Berlin, 1960.
Ryckmanns G. Graffites sabéens relevés en Arabie sa'udite. Rivista degli Studi Orientali, 32, 1957, p. 557.
Ryckmann G. Inscriptions sud-arabes. Le Muséon, 1932, 45, p. 290; 1951, 64, p. 100; 1953, 66, p. 267; 1955, 68, p. 309; 1956, 69, p. 140.
Ryckmans G. On some problems of south arabian epigraphy and archeology. Bulletin of the school of Orient. Studies univers of London, 1952, v. 14.
Ryckmans G. Les religions arabes préislamiques. Louvain, 1951.
Ryckmans G. Une inscription chrétienne sabéenne. À propos de de l'inscription de Baroda. Le Muséon, 1946, t. 59, p. 161.
Ryckmans J. Aspects nouveaux du problème thamoudéen. Studia Islamica, 1956, V, p. 5.
Ryckmans J. Les corégeuts du roi Himyarite Abūkarib As'ad d'après le texte Rossi 24. Rivista degli Studi Orientali, v. 37, p. 243.
Ryckmans J. Le début de l'ère himyarite a-t-il coïncidé avec une eclipse du soleil? Bibliotheca Orientalis, 1961, 5/6, p. 219.
Ryckmans J. L'Institution monarchique en Arabie méridionale avant l'Islam (Main et Saba). Louvain, 1951.

Ryckmans J. Inscriptions historiques sabéennes de l'Arabic centrale. Le Muséon, 1953, v. 66, p. 319.

Ryckmans J. Les persécutions des chrétiens himyarites au VI s. Istambul, 1956. *Рец.*: Syria, 1959, 36. Bibliotheca Orientalis. 1958, 1/2, p. 63.

Ryssel V. Georgis der Araberbischofs Gedichte und Briefe. Leipzig, 1891.

Sachau Ed. Zur Trilinguis Zebedaca. Zeitschrift der Deutschen Morgenländischen Gesellschaft, 1882, 36, p. 345; M. Liedzbarski. Handbuch der nordsemitischen Epigraphik, 1. Weimar, 1898, p.484; Journal asiatique, 1907, IX, p. 509, Rivista degli Studi Orientali, 1907, I, 366; 1911, IV, 193.

Sarre F., E. Herzfeld. Archeologische Reise im Euphrat und Tigris Gebiet. T.II.

Sauvaget J. Les Gassanides et Sergiopolis. Byzantion, 1939, XIV, f. I, p. 115.

Sauvaget J. Introduction à l'histoire de l'Orient musulman. Élèments de bibliographie. Édition refondue et completée par. Cl. Cahen. 1961, pp. VI+257. *Рец.*: Gabrieli. Rivista degli Studi Orientali, 1961, v. 36, f. 3—4, p. 310.

Sauvaget J. Memorial. V. I. Damas, 1954.

Schlumberger D. Les fouilles de Qasr-el-Heir. Syria. T. XX, 1939.

Schlumberger D. La Palmyrene du Nord—Ouest. Paris. 1951.

Serjeant R. B. Historians et historiography of Hadramawt. Bulletin of the School of Oriental and African Studies, XXV, 1962, p. 239.

Serjeant R. B. St. Sergius. Bulletin of the school of Oriental and African Studies University of London, XII, 1959, p. 3, 574.

Schaeder H. Der Mensch im Orient und Oksident. Grundzüge einer urasiatischen Geschichte. Hrsg. von G. Schaeder. Unter Mitarb. von K. H. Hansen. Mit. einer Einl. von E. Schulin. München, 1960. (Sammlung Piper. Probleme und Ergebnisse der modernen Wissenschaft). Bibliogr., p. 425—428.

Schoo G. Die Quellen der Kirchenhistorikers Sozomenos. (Neue Studien zur Geschichte der Theologie und Kirche herausgegeben von N. Bonwetsch und R. Seeberg. Elftes Stuck). Berlin, 1911.

Simeon de Betaršam. La lettera di Simeone vescovo di Beth—Aršam sopra i martiri Omeriti, publicata e tradotta d'al socie I. Guidi. Reale Accademia dei Lincei, series 3, v. 7, Roma, 1881.

Slane, de (Mac Guckin). Le Diwan d'Amro'lkais. Paris, 1837.

Smith S. Events in Arabia in the 6-th century AD. Bulletin of the School of Oriental and African Studies, v. XVI, 1954, p. 425.

Socrates Scholasticus. Ecclesiastica historia, ed. R. Hussey. Oxonii, 1853, I, II, III.

Sozomenos. Ecclesiastica historia, ed. R. Hussey. Oxonii, 1860, I—II.

Spenger A. Die alte Geographie Arabiens. Berne, 1875.

Sperber I. Die Schreiben Muhammads an die Stamme Arabiens. Mitteilungen des Seminars fur Orientalische Sprachen. Berlin, 1916, Jg. 19, S. 1.

Spuler B. Syrische Literatur. Die Religion in Geschichte und Gegenwart, 1962, VI, 3, S. 581.

Stein E. Histoire du Bas-Empire, I—II. Paris. 1949—1959.

Synodicon Oriental ou recueil de synodes nestoriens. Ed. par J. B. Chabot. Paris, 1902.

Tabari. Annales quod scripsit Abu Djafar Mohammad ibn Djarir at Tabari. Ed. M. J. De Goeje. Prima series, t. II, recensuerunt I. Barth et Th. Nöldeke. Lugduni Batavorum, 1881—1882.

Tabari. Chronique de Abou-Djafar Mohammed ben Djarir ben Yesid Tabari. Trad. par M. H. Zotenberg. 4 vols. Paris, 1958. (Trad. sur la version Persane d'Abou Ali Mohammed Belami d'aprés les Mss. de Paris, de Gotha, de Loudres et de Canterbury).

Taqi Zadeh S. H. Some chronological data relating to the sassanian period. Bulletin of the School of Oriental and African Studies. London, 1937, t. IX.

Tchalenko G. Villages antiques de la Syrie du Nord. Paris, I — 1953, II — 1953, III — 1958.

Theodoret. Historia religiosa. Patrologia greca.

Theophanes. Chronographia recensuit C. de Boor, I, Lipsiae, 1883.

Theophylactus Simocatta. Historia. Ed. C. de Boor, Lipsiae. 1887.
Thompson E. A. The historical work of Ammianus Marcellinus. Cambridge, 1947.
Tield. North Arabian Desert. Archiological Survey 1925—1950. Papers of the Peabody Museum. Harvard Uniwersity XLV, N 2. Cambridge, Mass., 1960.
Tor Andrae. Les origines de l'Islam et le christianisme. Paris, 1955. Recens. Archiv Orientalni, 1958, t. 26_2, pp. 329—330.
Turkel R. Gerard de Cremone traducteur scientifique de XII sc. et principal initiateur de la participation de l'Occident á la culture scientique greco-arabe. Babel. 1962, v. 8, № 2, p. 53.
Uhlemann F. Der heilige Simeon. Zeitschrift für historische Theologie, N. F. IX, 1845, H. 3, 4.
Ullendorf. Ethiopiens. An Introduction to country and people. London, 1960. Pen. Oriens, 1963, v. 16, p. 313.
Vasiliev A. A. Justin the First (Dumbarton Oaks Studies, I), Cambridge, Mass., 1950.
Vasiliev A. A. Justin I and Abyssinia. Byzantinische Ztschrift, 1933, t. 33, p. 67.
Vasiliev A. A. Notes on some episodes concerning the relations between the Arabs and the Byzantine empire from the 4-th, to the 6-th century. Dumbarton Oaks Papers. IX—X. Cambridge, Mass., 1956.
Villard U. M. de. Storia della Nubia Christiana. Orientalia Christiana Analecta, 118, Roma, 1938.
Walker J. The Lihyanite Inscription on South Arabian coins. Rivista degli Studi Orientali, 1959, 34, p. 77.
Wellhausen J. Reste arabischen Heidentums. Berlin—Leipzig. 1927.
Winkler H. Altorientalische Forschungen. Leipzig, I — 1893, II_1 — 1898, II_2 — 1900.
Winnett F. V. Safaitic Inscriptions from Jordan. I, Toronto, 1957. Recens. Arabica, 1959, v. 6, № 2, p. 214.
Wissmann H. und M. Höfner. Beiträge zue historischen Geographie des vorislamischen Südarabiens. (Akadem. d. Wissenschaften und der Literatur in Mainz. Abhandlungen. Wiesbaden, 1952, N 4).
Wissmann H. De Mari Erythraeo. Stuttgart. Geographische Beiträge. 1957, Bd. 69.
Wright W. Catalogue of the Syriac manuscripts of British Museum, London, I — 1870, II — 1871, III — 1872.
Wüstenfeld F. Die Geschichtschreiber der Araber und ihre Werke. Göttingen. 1882.
Zachariah of Mitylene. The syriac chronicle of Zachariah of Mitylene Transl. by F. J. Hamilton and E. W. Brooks. London. 1899.
Zacharias Rhetor. Historia ecclesiastica, I—II. Ed. E. W. Brooks CSCO. Scriptores syri. Series tertia, t. V — textus; Parisiis, 1919; t. V — versio, Lovanii, 1924; t. VI — textus, Parisiis, 1921; t. VI — versio, Lovanii, 1924.
Zacharias Rhetor. Die sogenannte Kirchengeschichte des Zacharias Rhetor in deutscher Übersetzung von K. Ahrens und G. Krüger. Leipzig, 1899. *



* ترتفع هذه البيليوغرافيا إلى ما يقرب من عشرين عاماً. وللتعرف على البحوث التي ظهرت منذ ذلك العهد حول الموضوع يمكن مراجعه ثبت المراجع في المؤلفات الآتية :

١ _ J.Spencer Trimingham. Christianity Among the Arabs in the Pre-Islamic Times. Longman. 1979

٢ _ G.W.Bowersock, Roman Arabia. Harvard. 1983

٣ _ مقالات عرفان شهيد [قعوار] في الدوريات المختلفة وفي الطبعة الثانية من « دائرة المعارف الإسلامية » (بالانجليزية والفرنسية) ، وذلك لحين ظهور مؤلفه عن العلاقات بين بيزنطة والعرب والمتوقع قريباً . ـ المترجم

الفهـــــارس

أ ـ فهرست أسماء الاعلام

ب ـ فهرست أسماء الأماكن والقبائل والشعوب

ج ـ فهرست النقوش والرقوم

د ـ فهرست الصور والرسوم والخارطات و شجرات النسب وجداول الحكم

